رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصص القرآن الكريم

صدق حدث وسمو هدف
إرهاف حس وتهذيب نفس

الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس

قصص القرآن الكريم

دار النفائس
للنشر والتوزيع الأردن

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصص القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصص القرآن الكريم

صِدْقُ حَدَثٍ وَسُمُوُّ هَدَفٍ
إِرْهَافُ حِسٍّ وَتَهْذِيبُ نَفْسٍ

الأستاذ الدكتور فضل حسن عبّاس

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٠هـ-٢٠١٠م

الطبعة الثالثة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠٠٩/٤/١٢٧١

ISBN 978 9957477837

دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن

هاتف: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤٠

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤١

Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM

www.al-nafaes.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده سيدنا محمد النبي الأمي وإخوانه الأنبياء المرسلين وآلهم وصحبهم. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين انك حميد مجيد، عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون. . .

أما بعد: فإن أولى ما تنفق فيه الأوقات العلم، الذي فضل الله به الإنسان، وفضل الناس بعضهم على بعض، وبخاصة ما اتصل منه بكتاب الله تبارك وتعالى الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ. . . هذا القرآن أولاً الذي لا زال يمدّ الدنيا بأصدق المعارف، وأكثر العلوم نفعا منذ أن أنزله الله على قلب سيدنا رسول الله ﷺ وسنة رسوله ﷺ ثانياً.

ولقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم هذه الحقيقة، فعاشوا مع هذا القرآن، ولم تكن حياتهم معه نظرية فحسب، بل كانت عملية، لا يصدرون عن شيء في حياتهم، قبل أن

يرجعوا إليه، يستفتونه فيفتيهم، ويستهدونه فيهديهم ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الاسراء: ٩].

وسيظل هذا القرآن مصدر كل نور يُمِدّ من تتلمذ له بجديد، يُصلح الحياة والأحياء، ولا يظنن ظانّ أن أحداً مهما عظمت منزلته في العلم باستطاعته أن يستوعب كل ما في القرآن من علوم وأسرار ومعارف، ذلك أمر لن يكون أبداً. . .فمهما كتب الكاتبون وأبدعوا، ومهما جدد المجددون، فسيبقى الذي فاتهم منه أكثر من الذي أخذوه.

ونحن نرى المفسرين منذ القرن الأول إلى عصرنا هذا يقفون أمام هذا القرآن واحداً تلو الآخر، وما أكثر الجديد الذي جاءوا به، ولا يزالون يجيئون، كذلك الذين يكتبون في موضوعات قرآنية كالإعجاز والقصص، والأخلاق، والبيان، لن يصل أيّ واحد منهم إلى الغاية التي ليس بعدها غاية، والدرجة التي ليس فوقها درجة، وذلك يرجع فيما أحسب -والله أعلم- إلى أن هذا القرآن الكريم أراده الله خاتم كتبه منزلا على خاتم أنبيائه عليه وعليهم وعلى آلهم جميعاً صلوات الله وسلامه، فلو أن جماعة استطاعوا أن يحيطوا بكل ما في القرآن الكريم لاستنفد القرآن أغراضه، كيف وهو الكتاب الخاتم الذي ستظل الدنيا تقتبس من أنواره ما دامت الحياة والأحياء.

وإنني أَشْكر الله على ما أكرمني به من فضله، فهيأ لي أن أكون ممن تربوا على موائد أهل القرآن جزاهم الله خيراً.

منذ سنين وفقني الله لاصدار كتاب القصص القرآني ايحاؤه ونفحاته ركزت الحديث فيه على قضية التكرار، وأن لا تكرار في كتاب الله بعامة والقصص القرآني بخاصة. ولقد لاقى قبولاً ولله الحمد والمنّة. وقد جاء في مقدمته:

هذه دراسةٌ، نرجو أن تكون مفيدة مأجورة في القصص القرآني، توخينا فيها جدّة العرض، ويُسر الأسلوب، واستيعاب الأهداف، وردّ الشبهات، كما توخينا أن نجمع بين الطريقتين: التحليلية والموضوعية.

وسيرى القارىء الكريم الجوانب المتعددة نفسية واجتماعية وفكرية، مما لا غناء لهذا الإنسان عنه. إلى جانب جمال الأسلوب، وروعة البيان، سيرى ذلك كله وغيره في هذا القصص الكريم، الذي نرجو أن تُجلِّي هذه الدراسة جوانبه المتعددة.

ركَّز هذا الكتاب كثيراً على إبراز هذه الجوانب بعامة، وقضية التكرار بخاصة، ولن أطيلَ الحديث، وسأدع الحكم للقارىء.

وها أنا أقدم لك أخي القارىء -نفعني الله وإياك- كتاباً آخر الحاجة إليه ماسة **(قصص القرآن - صدق حدث وسمو هدف إرهاف حس وتهذيب نفس)**.

ويمتاز هٰذا الكتاب فضلاً على ما تضمنه من الكتاب الأول بما يلي:

أولاً: تصحيح الأخطاء التي كنت أتمنى تصحيحها من قبل، وجُلّ هذه الأخطاء طباعية، وبعضها كان نتيجة سهو، وجلّ من لا يسهو، وبعضها الآخر كان رأياً ظهر لي فيما بعد أن غيره خير منه.

ثانياً: الزيادات الكثيرة في هذا الكتاب.

وهذه الزيادات منها ما لم يكن في الأصل كقصص آل بيت أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء الذين قال الله فيهم ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. إسماعيل وإسحاق ويعقوب- صلى الله عليهم وسلم وعلى نبينا وآل بيته- ورضي الله عن أصحابه. كذلك القصص القرآنية القصيرة كقصة ابني آدم وقصص سورة الكهف وقصة الملأ من بني إسرائيل والمتدبر لهٰذه القصص القصيرة يجدها ذات مسلكين اثنين: الأول: كان تحذيراً من بعض السلبيات التي تحول بين الأمة وبين معارج الرقي.

والمسلك الآخر: حث على بعض الأخلاق الإيجابية، ففيها التحلية والتخلية لذا جعلت هٰذا الفصل في مبحثين.

ومن الزيادات التي لم تكن في الأصل عرض لأهداف القصّة في القرآن الكريم، وآخر عرضت فيه لجماعة من الكاتبين في القصص القرآني، وفصل عن الشبهات على القصص القرآني.

وهناك نوع آخر من الزيادات في هذا الكتاب: وهو في بعض القصص أكثر من بعضها الآخر، وتظهر هذه الزيادات في قصص آدم وإبراهيم وموسى وعيسى -عليهم الصلاة والسلام-.

أمّا قصّة يوسف فلقد أشرت إليها في الكتاب الأول اشارات موجزة كل الإيجاز وبيّنتُ سبب ذلك؛ حيث قلت فيه بما أنني أعالج قضية التكرار، وقصّة يوسف لم تذكر في كتاب الله إلا مرّة واحدة. فلن أطيل الحديث فيها.

ولمّا كانت الغاية من هٰذا الكتاب تختلف كان لا بدَّ من التفصيل في هذه القصّة العظيمة الأهداف، الجمّة الفوائد.

ثالثاً: امتاز هٰذا الكتاب بتحقيق كثير من القضايا التي اختلفت فيها آراء الباحثين، منها بعض أخبار آدم، وطوفان نوح، واسم أبي ابراهيم أهو آزر أم تارح؟ والشيخ الكبير في قصة موسى أهو شعيب؟ ونبوة يونس أهي قبل ابتلاع الحوت له أم بعده؟ وفتنة سليمان في قوله «ولقد فتنا سليمان»، ما حقيقتها؟.

وغيرها ممّا سيجده القاريء في هٰذا الكتاب.

رابعاً: التَّوسع في ردّ بعض الشُّبهات، وردّ بعض الآراء، كالنظريات التي افتتن بها بعض الكاتبين؛ ومنها تطبيق نظرية دارون على خَلق آدم، التي تأرجحت فيه كلمات بعض الفضلاء، كالشيخين الفاضلين- صاحب المنار وعبد الوهاب النجار- مؤلف كتاب (قصص الأنبياء)، وغالى فيه. وأسفّ بعضهم مثل: مصطفى محمود، وعبد الكريم الخطيب.

كذلك ما أُثير حول التشكيك في أخبار القرآن عن أبينا إبراهيم وإسماعيل- عليهما الصلاة والسلام-.

خامساً: التنبيه كلّما سنحت فرصة على بعض قضايا الإعجاز في القصة القرآنية ليجمع القارىء بين متعة النّفس والروح ومتعة الفكر، وصدق الخبر وجمال النّظم، وشفافية الأسلوب ودقة التعبير، وذلك دون أن يشعر القارىءُ بفجوة تنقله من استغراقه في القصة. بل جاءت هذه الإشارات منسجمة متّسقة مع الحديث عن القصة من ذلك مثلاً:

حديثنا عن سرّ التعبير في قصّة آدم بين قوله سبحانه «اهبطا» في سورة طه و«اهبطوا» في غيرها من السُّور.

وسرّ التعقيب في سورة الأعراف بعد ذكره قصّة آدم بالنداءات الأربعة «يا بني آدم».

وسر حرف العطف في قوله ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤] وفي قوله سبحانه ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢].

وسر التعبير في قوله سبحانه في سورة يوسف ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩] ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وفي قوله: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] و﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. إلى غير ذلك ممّا أرجو أن تهشّ له وتُسَر به.

سادساً: تفسير الكلمات والعبارات الّتي تحتاج إلى تفسير.

سابعاً: التنبيه على الربط بين القصة القرآنية، وواقعنا المعيش، لاستنباط الدروس العملية من القصص القرآني.

هذه بعض الميزات لهٰذا الكتاب، وأرجو أن تجد غيرها، على أنني أرجو إن شاء الله، أن أكون سهل الأسلوب، واضح العبارة أميناً بحيث أنسب كلَّ قول أو رأي إلى صاحبه. والأمر الحريّ بالذّكر، الجدير بالاشارة إليه، والإشادة به هو أن الهدف من القصص

القرآني وهو أحسن القصص العبرة والفائدة والعظة، وتثبيت أفئدة المؤمنين، ولّما كان القصص القرآني لا تنقضي عجائبه. فسيظل ويبقى يُمدُّ المسلمين بمددٍ علويّ ليكون من أعظم العواملِ التي تعينهم على أن يغيّروا ما بأنفسهم.

وقد اقتضت طبيعة البحث في هذا الكتاب أن يقع في بابين اثنين.

الباب الأوّل: وهو دراسات حول القصة القرآنية وينتظم خمسة فصول.

الباب الثاني: عرض وتحليل للقصة القرآنية ويقع في عشرين فصلاً.

وأخيراً لا آخراً فإنني لا أدّعي ولا يمكنني ذلك، بأنني بلغت في هذا الكتاب مبلغاً يقربُ من إصابة الغرض، والقرب من الكمال فذلك أمر لايبلغه أساطين العلماء، ونحارير الأئمة، ومراجع الأمّة فضلاً على واحدٍ مثلي، يعترف بالفضل لذويه، لكنيّ بذلت، ويعلم الله، ما مكنني الله ويسّر لي راجياً أن ينفع الله به ويأجر عليه. ورضي الله عن عمر حيث قال: «رحم الله أمرأ اهدى إليّ عيوب نفسي» وأنا أحقُّ بهذه المقولة.

والله أسأل أن ييسرنا لليسرى، وأن يمنحنا الإصابة ويؤتينا الحكمة ويجنبنا الزلل، وأن يجعلَهُ ذخراً لي ولوالديّ، وبركة يكرم الله بها ذريتي الّتي أسأل الله أن يصلحها لي، وأن يبارك الله لقارئه.

ولا يسعني أخيراً إلاّ أنْ أشكر كلّ من أسهم في اخراج هذا الكتاب من ولد وزوج وأخ سائلاً الله أن يجزيهم خيراً، ولله الحمد في الأولى والآخرة.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

السبت، الأول من شهر الله المحرّم

١٤٢٠ هـ للهجرة النبوية الشريفة

فضل حسن عبّاس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الدوحة القرآنية الباسقة الظلال، الدانية الجنى، ذات الأفنان المختلفة الثمرات؛ هذه الدوحة العميقة الأصل، السامقة الفرع، لا ينتهي ظلها، ولا يذهب رونقها؛ فهي ذات ظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، لذلك كان القرآن كما جاء في الأثر[1] لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلق على كثرة الرد، وتلك طبيعة في الموضوعات القرآنية جميعها سواء أكانت قصصاً أم أحكاماً أم عقائد، لذلك كانت هذه الموضوعات لا تضن على طلابها مهما تعددت مشاربهم، ولا تبخل عليهم مهما اختلفت رغباتهم ومطالبهم، فالأدباء يجدون فيها بغيتهم؛ رقة أسلوب، وسلاسة لفظ، وسمو معنى. وعلماء النفس يجدون فيها من الكوامن والدوافع النفسية، ومن الربط وتداعي المعاني ما يوقظ الشعور، ويجلب الانتباه وغير ذلك من القواعد التي عرفت عند أولئك العلماء.

أما علماء الأخلاق (السلوك) والتربية فإنهم يرقصون طرباً، ويهتفون عجباً؛ مما يجدونه في عرض هذه القواعد، ودقة الضوابط، وصدق الواقع، والكثير الكثير مما تحدث عنه علماء الأخلاق في القديم والحديث. وكذلك علماء العقائد والتشريع، والمفكرون جميعاً كل يجد -إن أنصف- في هذا القرآن ضالته، ومع ذلك الوضوح، والسطوع الذي يحكي الشمس في شبيبة نهارها؛ فلقد وجدنا من يتصيد في هذه الموضوعات مطاعن ومثالب، وما هم ببالغين من ذلك شيئاً إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه. ذلك عام في موضوعات القرآن جميعاً.

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن- كتاب فضائل القرآن/ باب: ما جاء في فضل القرآن- حديث رقم ٢٩٠٦-٥/ ١٧٢.

والذي نود أن نقف عنده من هذه الموضوعات ونخصه بالبحث؛ وهو حريٌ بذلك: القصص القرآني؛ لأن المساحة التي شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله كانت مساحة واسعة، ما نظن أن موضوعاً آخر كان له ما كان للقصة من نصيب؛ فالقصص القرآني لا يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد قليلاً، فإذا كان القرآن ثلاثين جزءاً؛ فإن القصص يبلغ قرابة الثمانية أجزاء من هذا الكتاب الخالد، وإذا كان المصحف الذي بيدك يبلغ ثمانمائة صفحه فإنك تجد ان القصص يشغل منه ما يزيد على المئتين، ولا تعجب من ذلك؛ لأن القصة القرآنية لم تأت لتقرر هدفاً واحداً؛ بل إن هذا القصص كانت له أهدافه الكثيرة وغاياته المتعددة؛ فعلى سبيل الإجمال يهدف القصص القرآني إلى تربية نوع الإنسان تربية تضمن له خير المسالك ليتبوأ أفضل المدن والممالك، وتحول بينه وبين المنزلقات والمهالك.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الأول

دراسات حول القصة القرآنية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

الكاتبون في القصص القرآني

تناول القصة القرآنية فئات كثيرة من العلماء منهم المفسرون وعلماء التاريخ، وهناك فئة أفردت القصة القرآنية بالكتابة والتأليف.

أما المفسرون فلم يكونوا سواء، بل أوجز بعضهم وأطنب آخرون، كما اقتصر بعضهم على الخبر الصحيح الذي ذكرته الآيات على حين نقل آخرون ما صح وما لم يصح، فممن أطنب في ذكر القصة القرآنية الإمام ابن جرير في كتابه جامع البيان، والإمام ابن كثير في تفسيره، وعلاء الدين الخازن. على حين أوجز الشيخ الزمخشري ومدرسته أبو السعود والنسفي والبيضاوي، وتوسط آخرون. هٰذا كله مع المفسرين الأقدمين. أما المفسرون المحدثون فلقد حاول أكثرهم أن يلتزم بما صح في ذكر القصة القرآنية.

أما المؤرخون فبدهي أن يذكروا القصة في كتبهم، كما فعل ابن جرير في تاريخه، وابن الأثير في كامله، وابن كثير في البداية والنهاية. ولٰكن ما ذكر في كتب المفسرين والمؤرخين لا يطلع عليه كثير من الناس، إنما يطلع عليه من يقرؤون هٰذه الكتب، وهي كتب مطولة بالطبع، لذٰلك كان لا بد من إفراد القصص القرآني أو قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في مؤلفات خاصة، فأفردت كتب قديماً وحديثاً، لٰكن الكتاب الذي اشتهر كثيراً بين الناس قديماً (عرائس المجالس) لأبي اسحاق أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالثعلبي (٤٢٧هـ). وهٰذا الكتاب محشو بالإسرائيليات، وظل هٰذا الكتاب يقرأ حينا من الدهر، دون أن يكون له منافس، وذٰلك إلى أول الثلاثينات من هٰذا القرن، حيث كتب العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار[1] -وهو من كبار علماء الأزهر- كتاب قصص الأنبياء.

---

(١) هو باحث ومؤرخ، من فقهاء مصر، ولد سنة ١٨٦٢م وتوفي ١٩٤١م.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أولاً:

«كتاب قصص الأنبياء»

للشيخ عبد الوهاب النجار

وكان من حق هٰذا الكتاب أن ينتشر بين الناس، لٰكن ما أحيط به من اعتراضات وشبهات، جعله يتوارى عن كثير من الناس أو يتوارى عنه كثير منهم. فبعد تأليف هٰذا الكتاب وطباعته في أول الثلاثينات من القرن العشرين، شكلت لجنة من علماء الأزهر بأمر من الشيخ عبد المجيد اللبان عميد كلية أصول الدين، وهي إحدى كليات ثلاث في الجامع الأزهر الشريف والكليتان الأخريان: الشريعة واللغة العربية. وقد أنشئت كلها في الثلاثينات من هٰذا القرن.

والعلماء الذين شكلت منهم هٰذه اللجنة كان منهم: الشيخ عيسى منون، والشيخ محمود أبو دقيقة وغيرهما رحم الله الجميع. ولقد كانت اعتراضات هٰذه اللجنة على الكتاب ومؤلفه اعتراضات كثيرة، حتى إن هٰذه اللجنة دعت إلى عدم تداول هٰذا الكتاب والحيلولة بينه وبين قراءة الناس له.

أما الشيخ عبد الوهاب النجار -رحمه الله- فكان كما يظهر من كتابه ومكاتباته عالماً فاضلاً، منفتحاً على عصره غير منحصر بين الطلاب والكتاب. وبعد قراءتي للكتاب واطلاعي على اعتراضات اللجنة وأجوبة الشيخ، وجدت أن هناك نوعاً من المغالاة في كثير من هٰذه الاعتراضات.

إن طبيعة الأحداث في ذٰلك العصر كانت تغري كثيراً من الناس ليتأثروا بالمدنية الوافدة من الغرب بكل ما فيها، ويظهر أن الشيخ عبد الوهاب النجار كان متأثراً بأستاذه الشيخ محمد عبده. كما يعتز هو بهٰذا وهو يذكر في كتابه الاستاذ محمد عبده وموقف كثير من العلماء من الإمام موقف معروف معلوم لا داعي للتحدث عنه هنا، وقد توسعت في الحديث عنه في كتابي اتجاهات التفسير ومناهج المفسرين الذي أرجو أن يصدر قريباً.

على أن كتاب الشيخ النجار سدّ فراغاً كبيراً، بل سدّ كثيراً من الثغرات في القصص القرآني، وذٰلك إذا وازنّا بينه وبين ما كان مشتهراً بين الناس وهو عرائس المجالس.

والكتاب فيه خيرٌ كثير، فهو يعرض قصة كل نبي -كما جاءت في كتاب الله تعالى- ثم يذكر ما جاء من خبر هٰذا النبي في الكتب السابقة، ويرد الشبهات إن وجدت، كما ينقل آراء بعض المفسرين، وقد يتوسع أحياناً في بعض القصص كما ذكر في قصة عيسى -ﷺ- حيث عرض للأناجيل وما بينها من اختلافات، كما عرض لقضية الصلب التي وردت عندهم، وقد يستطرد كما رأينا ذٰلك في قصة البقرة التي أمر بنو اسرائيل بذبحها؛ حيث كان له رأيٌ سيأتيك أيها الأخ القارىء خبره فيما بعد إن شاء الله. فلقد استطرد الشيخ كثيراً ليبرهن على ما ذهب إليه، فكتب لأكثر من واحد من طلابه الذين كانوا يشتغلون في التحقيقات الجنائية وغيرها، نعم كان للشيخ بعض آراء كنا نودّ أن لا تكون وسأعرض لها في هٰذا الكتاب إن شاء الله.

وكان المرجو لكتاب الشيخ عبد الوهاب النجار لولا المعارك الحامية التي كانت بينه وبين اللجنة التي شكلت لدراسة الكتاب أن ينتشر كثيراً. ولٰكن على الرغم من اعتراضات اللجنة المشكلة من العلماء، فلقد سدّ الكتاب فراغاً كبيراً. رحم الله الشيخ عبد الوهاب النجار رحمة واسعة.

من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

اللهم إلا سيدنا محمد ﷺ واخوته الأنبياء وما أجمل كلمة امام دار الهجرة رضي الله عنه «كل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هٰذا المقام ﷺ».

ثم ظهر كتاب قصص القرآن لجماعة من العلماء «محمد جاد المولى وآخرين» كتب بأسلوب أدبي جيد وكان حلاً لألفاظ الآيات القرآنية التي تحدثت عن القصة، وهو يختلف كثيراً عن سابقه «قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار». فكتاب الشيخ النجار أوسع دائرة، يذكر القصة في القرآن الكريم وغيره من الكتب، ثم يعرض للشبهات،

كما يعرض لما تحدث عنه علماء الحفريات، ولما ينشر في الصحف وكان كثيراً في ذٰلك الوقت مما يتصل بقضايا التاريخ، لٰكن هٰذا الكتاب -لمحمد جاد المولى- لا يذكر فيه كثير من هٰذه القضايا، بل هو كما قلت حل لألفاظ الآيات القرآنية بأسلوب أدبي شيق، ويغلب على ظني أن الكتاب ألف في الخمسينات إن لم يكن قبل ذٰلك.

وفي هٰذه الأثناء في آخر الأربعينات ظهر كتاب الفن القصصي في القرآن، وهو الذي أثار زوبعة لم تهدأ إلا بعد سنين، لما فيه من تعدٍّ على كتاب الله وتحدٍ لمشاعر المسلمين وسنخصص الحديث عنه في الفصل الأخير من هٰذا الكتاب إن شاء الله.

وفي الستينات بدأت تظهر كتب كثيرة تتحدث عن قصص القرآن، فقد ظهر كتاب القصص القرآني مفهومه ومنطوقه للأستاذ عبد الكريم الخطيب -رحمه الله- ثم بدأت تظهر رسالات علمية منها متشابه اللفظ في القصة القرآنية للشيخ عبد الغني الراجحي -رحمه الله- ومنها القصة القرآنية للشيخ عبد الباسط بلبول وهي رسالة دكتوراة وقد أهداها لي مشكوراً قبل أن تطبع. ومنها سيكولوجية القصة في القرآن للتهامي نقرة، وهي رسالة دكتوراة، وهناك قصص أعدت لنيل رسائل الماجستير وهي كثيرة وفي هٰذه الأثناء أخذت قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من كتاب البداية والنهاية لابن كثير وطبعت في كتاب مستقل، كما جردت السيرة النبوية من الكتاب نفسه وطبعت في كتاب مستقل. وقصص الأولين للدكتور صلاح الخالدي، كما أن هناك كتباً ألفت لتتحدث عن قصة واحدة، فمن ذٰلك مؤتمر تفسير سورة يوسف للشيخ عبد الله العلمي، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف للشيخ باجودة، وتفسير سورة يوسف للدكتور أحمد نوفل. وسأخص الحديث هنا تفصيلاً عن كتب: كتابي الاستاذ عبد الكريم الخطيب، وسيكولوجية القصة، ونظرات في أحسن القصص للدكتور محمد السيد الوكيل.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ثانياً:

كتاب القصص القرآني في منطوقه ومفهومه

لعبد الكريم الخطيب

يقع الكتاب في (٤٢٦) صفحة، وصدرت طبعته الأولى سنة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) وعلى الرغم ممّا في الكتاب من إيجابيّات إلاّ أنّ فيه سلبياتٍ كنّا نودّ ألاّ تكون فيه.

يرى الكاتب أنّ رحلة الإنسان في الحياة هي رحلة صراع مع الطبيعة رافقَها الخوف ممّا حوله من مظاهرها، ومن هٰذا الخوف نشأ الدين، فالخوفُ عند الكاتب «أبو الآلهة» على حدّ قوله، ويرى الكاتب أنّ الإنسان بدأ يَكتُب تاريخه ويصوغ الحكايات قديماً، وأنّ الدّين في صورته الأولى هو القصّة والحكاية والخرافة. وهٰذا كلّه كلام غير صحيح يخالفه نصّ القرآن الكريم، فآدم عليه السلام وهو أوّل البشر كان نبياً يوحى إليه، والكاتبُ -رحمه الله وسامحه- متأثّر في أقواله تلك بآراء علماء الاجتماع المحدثين في مسألة نشوء الأديان وفي جعلهم الحياة صراعاً بين الإنسان وقوى الطبيعة، والصحيح أن الإنسان مستخْلَفٌ في هٰذه الأرض وليس في حالة صراع مع ما فيها.

يعرض الكاتب للقصّة في الأدب العربي فيقول إنّها تمتاز بالواقعية والبعد عن الخيال المحلّق والأساطير الملحميّة، ويعزو ذٰلك إلى قسوة ظروف الحياة الصحراوية وإلى واقعيّة الإنسان العربي واعتزازه بذاتيّته.

ويعرض لبعض مزايا القصّة القرآنية عرضاً مُسْهَباً مفصّلاً مدافِعاً عن تلك المزايا مفنّداً ما طاف حولها من شبهات، ومن أول تلك المزايا أنّ القصة القرآنية وثيقة تاريخية صادقة وإنْ لم تقصِد إلى التأريخ قصْداً، ذٰلك لأنّ أحداثها وشخصياتها حقيقية لا مدخل فيها للخيال، ونَقْلُ القرآن للواقع هو تصوير وليس محاكاة صامتة، بل هو محاكاة ناطقةٌ تُنْطق الصامت وتَدْخل الأعماق وتُعطي الدلالات، ومن مزايا القصّة القرآنية أنّ حبكتها الفنيّة

ذات تدبير مُعْجِز تلتقي فيه الشخصية والحدث دون أن يطغى أحدهما على الآخر، وأنّ الأشخاص فيها غير مقصودين لذواتهم، فالمضمون في القصّة هو بطل الموقف. وقد أحسن الكاتب في عرض هٰذه المزايا كما أحسن في الردّ على شبهة القائلين بأنّ القصّة القرآنيّة هي بناءٌ فنيّ دخَله عنصر الخيال، وعلى شبهة القائلين بوقوع التكرار في القصّة القرآنيّة.

ويردّ الكاتب على الشبهة القائلة إنّ في القرآن كثيراً من الحقائق التي هي تأريخ فلماذا اختُصَّ بعضُها باسم القصص؟ فيسيء الردّ حين يقول مدافِعاً عن القصص القرآني إنّ لك أن تطلق عليها الوصف الذي يروقك (ص٧٧) وهٰذا غير صحيح، فالقصّة ذات بناء فنّي خاص يختلف عن التأريخ المجرّد.

يعرض الكاتب لدور المرأة في القصّة القرآنيّة فيناقض نفسه إذ يقول في موضعٍ من الكتاب إنّ الحوار والمرأة عنصران رئيسان في القصّة القرآنية (ص٨٠) ويقول في موضع آخر إنّ المرأة في القصّة القرآنيّة غير مقصودة لذاتها (ص١١٥) وكلامُه الأخير هو الصحيح، فالمعوّل في القصّة القرآنية على الشخصيّة الصّانعة للأحداث بصرف النظر عن كونها ذكراً أو أنثى.

من الخصائص الفنيّة للقصّة القرآنيّة امتيازها بأسلوب الراوية الذي يؤذِنك بأنّك ستسمع أخباراً ذهَبَ أصحابُها، لٰكنّها في العرض القرآني تبعث من جديد فتكون غائبة حاضرة، وامتياز القصّة القرآنيّة ببيان زمان الحدث أو مكانه والصفات الجسديّة والنفسيّة للشخصيّات بالقدر الذي يخدم المضمون والهدف، فما لا يخدم المضمون منها لا يُذكر في القصّة. وقد أجاد الكاتب في عرض هٰذه الخصائص.

يرى الكاتب أنّ القصص القرآني يشهد لمبدأ حتميّة التاريخ ويشير إلى موقف القصص القرآني من القَدَر، وفي معرض حديثه هٰذا يقول إنّ «منطقة القدَر تتسع وتضيق حسب ما عند الناس من علم ومعرفة» نعوذ بالله من هٰذه المقولة، وسامحَ الله الكاتب،

فالقضاء والقدر من عند الله، والتقدّم العلمي لا يردّ قضاء الله، ويرى الكاتب أنّ القصص القرآني «يقف من القدر موقفاً محايداً فيدع الأمور تجري على طبيعتها التي اعتاد الناس أن يروها عليها إلاّ أنْ تكون الحياة في مواجهة معجزة من المعجزات . . . » إلخ. وهٰذا الكلام ينطوي على مغالطة عجيبة في فهم معنى القدَر كما هو في التصوّر الإسلاميّ الصحيح، وهو خطأ نعجب كيف وقع للكاتب رحمه الله، فالحقّ أنه ما من شيء جرى أو يجري أو سيجري إلاّ وهو مقدّر من الله ومعلوم له سبحانه قبل وقوعه هٰذا مع إثبات الاختيار الإنساني وإثبات مسؤوليّة الإنسان عن أفعاله كما فصّلتهُ كتب التوحيد.

ويقف الكاتب وقفةً مُسْهَبةً في الردّ على آراء محمد أحمد خلف الله وأستاذه أمين الخولي رادّاً الشبهة القائلة بدخول الخيال والأساطير في القصص القرآني.

ويقف وقفةً مسهبةً أخرى في مواجهة أصحاب المذهب الرمزي بالمعنى المعاصر سواء أكان كلامهم على رمزية الشعر أم لغة الخطاب العربي أم قصص القرآن الكريم، لأنّ محصِّلة ذٰلك كلّه تمسّ القرآن الكريم ولغته وتحوّل التراث العربي إلى طلاسم وتقوّض نظام العربيّة كاملاً وتُلغي ما في القرآن من عقيدة وشريعة في نهاية المطاف، وقد أجاد الكاتب في الردّ على أولئك، كما أشار إلى أمثلة وقعت لبعض مفسّري القرآن الكريم في التفسير الرمزي لبعض آيات كتاب الله، غير أنّ الناظر في الأمثلة التي ساقها الكاتب يجده قد خلط فيها بين التفسير الرمزي والإسرائيليّات.

ويستشهد الكاتب بقصّة آدم عليه السلام لنفي الرمزيّة والتكرار عن القصّة القرآنيّة فإذا به ينساق إلى تأييد نظرية (داروين) في أصل النوع البشري وخضوعه إلى سلسلة من التطوّرات حتى استوى كائناً بشريّاً، وهٰذه مخالفةٌ منه لصريح القرآن الكريم، فآدم عليه السلام وهو أوّل البشر خُلق بشراً سويّاً من أوّل الأمر، كما يتّهم الكاتبُ الجاحظ، والمسعودي رحمهما الله بمقولة (داروين) وهٰذا كلام لا أصل له.

وهناك ملحوظات أخرى على الكتاب سأشير إليها في مواضعها المناسبة من الكتاب.

وهنا قضية خطيرة يجب أن أعرض لها لتجلية الحقيقة من جهة، وليكون القرّاء على علم بما يُدّعى على أئمتنا وعلمائنا من جهة ثانية، فهل سبق الجاحظ والمسعودي دارون في القول بالنشوء والإرتقاء؟، وهل قال ابن خلدون بنظرية التطور؟ تطور المخلوقات بعضها من بعض؟.

إن مثل هذه الإدعاءات يبدو لأول وهلة غريبا على كثير من قرّاء العربيّة، وإلى القارىء الكريم أسوق ما يلي:-

ذكر بعض علمائنا مراتب المخلوقات مفضولها وفاضلها، وكيف أن هذه المخلوقات ليست سواءً من حيث الجودة والقيمة، وكيف أن المتأخر يفوق المتقدم من حيث الفضيلة والفضل وقد جاء هذا عند ابن خلدون في مقدمته، كما ذكره أبو الريحان البيروني، وابن مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق».

والذي ذكره هؤلاء الأئمة لا يمتّ بصلة ما، قريبة أو بعيدة إلى نظرية دارون، فدارون - كما نعلم - تقوم نظريته - كما سيأتي - على تولّد المخلوقات بعضها من بعض، فأولها ذات الخلية الأولى، ثم مرت بمراحل كثيرة، إلى أن وصلت إلى الحيوانات المعقدة الخلق، ثم ترقت إلى أن وصلت إلى القرد، ثم تولد منه الإنسان، وكان دارون بعيداً عن الجو الإيماني، والحقائق الدينية. وسيأتي مزيد تفصيل لهذا في حديثنا عن قصة آدم ﷺ.

لكنّ الذي يعنينا هنا أن نناقش بعض الكاتبين من أمثال الأستاذ عبد الكريم الخطيب، الذين يفرحون لأنّ علماءنا سبقوا دارون في نظريته. وسأنقل بعض ما قاله علماؤنا ليرى القارىء بُعد الشقة بينه وبين ما قاله دارون، ومن المؤسف المؤلم أن نجد اليوم من يتأثر بهذه النظرية محاولاً أن يلبسها ثوباً عربياً إسلامياً شرقياً، حتى إن بعض من حاول تفسير القرآن الكريم تفسيراً عصرياً، وهو الدكتور مصطفى محمود، يباهي معترفاً قائلا - والقول له طبعاً - «لا ينبغي ان نتجاهل الصلة بيننا وبين أجدادنا الحمير».

ومما يؤلم ان الدكتور علي عبد الواحد وافي - رحمه الله - وقد عرض لهذه القضية عرضا مسهباً في تعليقه على عبارة ابن خلدون، يقرر في نهاية تعليقه أن علماءنا وقد تحدثوا عن تطور المخلوقات، لم يقصد جلّهم تطور بعضها عن بعض، لكنّ ابن خلدون وحده هو الذي ذهب هذا المذهب، وسامح الله الأستاذ عما قال.

إن أئمتنا - رحمهم الله - إنما يصدرون فيما قالوه عن فهم لحكمة الله في خلقه، فهم إذ يتحدثون عن مراتب المخلوقات، يتحدثون والإيمان يملأ قلوبهم، ولا يتصور أحد أنهم يصدرون عما صدر عنه دارون، فهم يدركون تمام الإدراك أن المخلوقات إنما أنشأها الله وأبدعها مستقلاً بعضها عن بعض من حيث طبيعته واستعداداته، بل لونه كذلك. يقول الله تبارك وتعالى في سورة النور. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وهاتان الآيتان صريحتان كل الصراحة في أن المخلوقات جميعها خلقها الله خلقا مستقلا، دون أن يتولد بعضها من بعض، والمتدبر في الآية الكريمة يدرك هذا لأول وهلة.

وإذا كانت آية سورة النور تتحدث عن خلق الأنواع المتحركة الحساسة من الماء وصدق الله. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أقول إذا كانت آية سورة النور تتحدث عن الأحياء التي تدب على الأرض، فإن آية سورة فاطر كان حديثها في دائرة أوسع من دائرة الخلق، حيث تحدثت عن الجماد من جبال وثمر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

فهذه الحقائق القرآنية التي وعاها ائمتنا، بل انطلقوا منها فيما قرروه، تبين بكل وضوح قويّ وصراحة بينة أن المخلوقات جميعها خلقها الله فألهمها ما يصلح لها وما تصلح به، وإليك أخي القارئ بعض ما قاله هؤلاء الأئمة رحمهم الله.

يقول ابن مسكويه».

أن الاجسام الطبيعية كلها تشترك في الحدّ الذي يعمها، ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التي تحدث فيها، فان الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقبل تلك الصورة، فاذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد، وتلك الزيادة هي الاغتذاء والنمو والامتداد في الأقطار واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء، وترك مالا يوافقه، ونقض الفضلات التي تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصموغ وهذه هي الأشياء التي ينفصل بها النبات من الجماد، وهي حال زائدة على الجسمية التي حدّدناها وكانت حاصلة في الجماد.

وهذه الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على الجماد تتفاضل، وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان واشباهه، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء، فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبزر، ويكفيه في حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس، فلذلك هو في افق الجمادات وقريب الحال منها.

ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب، حتى تظهر فيه قوّة الاثمار وحفظ النوع بالبزر الذي يخلف به مثله، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله، ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول، ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى افقه ويصير في افق الحيوان، وهي كرام الشجر كالزيتون والرمان والكرم واصناف الفواكه، إلا أنها بعد مختلطة القوى، أعني أن قوى ذكورها واناثها غير متميزة.

فهي تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية افقها الذي يتصل بافق الحيوان ثم تزداد وتمعن في هذا الافق إلى أن تصير في افق الحيوان فلا تحتمل زيادة، وذلك أنها ان قبلت زيادة يسيرة صارت حيوانا وخرجت عن افق النبات، فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وانوثة، وتقبل من فضائل الحيوان اموراً تتميز بها عن سائر النبات والشجر، كالنخل الذي طالع افق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة، وهي الانقلاع من الأرض والسعي إلى الغذاء، وقد روى في الخبر ما هو كالاشارة أو كالرمز إلى هذا المعنى، وهو قوله ﷺ «أكرموا عماتكم النخل فانها خلقت من بقية طين آدم» فإذا تحرك النبات وانقلع من افقه، وسعى إلى غذائه ولم يتقيد في موضعه إلى أن يصير إليه غذاؤة، وكوّنت له آلات اخر يتناول بها حاجاته التي تكمله فقد صار حيوانا.

وهذه الآلات تتزايد في الحيوان من أوّل افقه وتتفاضل فيه، فيشرف فيه بعضها على بعض كما كان ذلك في النبات، فلا يزال يقبل فضيلة بعد فضيلة حتى تظهر فيه قوة الشعور باللذة والأذى، فيلتذ بوصوله إلى منافعه ويتألم بوصول مضاره إليه، ثم يقبل الهام الله عز وجل اياه، فيهتدي إلى مصالحه فيطلبها والى اضداده فيهرب منها، وما كان من الحيوان في أول افق النبات فإنه لا يتزاوج ولا يخلف المثل، بل يتولد كالديدان والذباب واصناف الحشرات الخسيسة.

ثم يتزايد فيه قبول الفضيلة كما كان في النبات سواء، ثم تحدث فيه قوّة الغضب التي ينهض بها إلى دفع ما يؤذيه، فيعطى من السلاح بحسب قوّته وما يطيق استعماله، فإن كانت قوّته الغضبية شديدة كان سلاحه تاما قويا، وإن كانت ناقصة كان ناقصا، وإن كانت ضعيفة جداً لم يعط سلاحاً البتة بل أعُطى آلة الهرب، كشدّة العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاوفه.

وانت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذي أُعطي القرون التي تجري له مجرى الرماح والذي أُعطي الانياب والمخالب التي تجري له مجرى السكاكين والخناجر، والذي أُعطي آلة الرمي التي تجري له مجرى النبل والنشاب والذي أعطي الحوافر التي تجري له مجرى الدبوس والطبرزين[١] فأما مالم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله، ولقلة شجاعته ونقصان قوّته الغضبية ولأنه لو اعطيه لصار كلا عليه فقد أُعطي آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة[٢] كالأرانب واشباهها وإذا تصفحت أحوال الموجودات من السباع والوحش والطير رأيت هذه الحكمة مستمرة فيها، فتبارك الله أحسن الخالقين، فأما الانسان فقد عوّض من هذه الآلات كلها بأن هُديَ الى استعمالها كلها وسخرت هذه كلها له وسنتكلم على ذلك في موضعه.

فأما أسباب هذه الأشياء كلها، والشكوك التي تعترض في قصد بعضها بعضا بالتلف والأنواع من الأذى، فليس يليق بهذا الموضع، وسأذكرها أن أخَّرَ الله في الاجل عند بلوغنا إلى الموضع الخاص بها، ونعود إلى ذكر مراتب الحيوان، فنقول:

إنَّ ما اهتدى منها إلى الازدواج وطلب النسل، وحفظ الولد وتربيته والاشفاق عليه بالكنّ والعشّ واللباس[٣] كما نشاهد فيما يلد ويبيض، وتغذيته أما باللبن وأما بنقل الغذاء إليه، فأنه أفضل مما لا يهتدي الى شيء منها. ثم لا تزال هذه الأحوال تتزايد في الحيوان حتى يقرب من افق الانسان فحينذ يقبل التأديب، ويصير بقوله للادب ذا فضيلة يتميز بها من سائر الحيوانات.

ثم تتزايد هذه الفضيلة في الحيوان حتى يشرف بها ضروب الشرف كالفرس والبازى المعلم. ثم يصير من هذه المرتبه إلى مرتبة الحيوان الذي يحاكى الانسان من تلقاء نفسه

---

(١) الطبرزين بفتح الباء وكسر الزاي وسكون الراء بينهما: آلة من السلاح تشبه الفأس.

(٢) الختل بالسكون الخداع. والمراوغة: المصارعة والمخادعة.

(٣) الكنّ بالكسر وقاء كل شيء وستره والبيت ايضاً.

ويتشبه به من غير تعليم، كالقردة وما اشبهها، ويبلغ من ذكائها ان تكتفى في التأديب بان ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله، من غير أن تحوج الانسان الى تعب بها ورياضة لها، وهذه غاية افق الحيوان التي أن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن افقه وصار في افق الانسان الذي يقبل العقل والتميز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها، فإذا بلغ هذه الرتبة تحرّك الى المعارف واشتاق الى العلوم، وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها على الترقي والامعان في هذه الرتبة كما كان ذلك في المراتب الأخرى التي ذكرناها(١).

ومن قبل ابن مسكويه ذكر هذا في رسائل اخوان الصفا، ومن بعده ذكره كثيرون من مثل القرويني في عجائب المخلوقات، وابن طفيل في كتابه حي بن يقظان»، ومن بعد هؤلاء جمعيا ابن خلدون.

يقول ابن خلدون في مقدمته، أعلم أرشدنا الله وإياك، أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستمالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته، وأبدا من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء، ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً ويستحيل بعض الأوقات. والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها واوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الاثار فيها، ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة

(١) تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراف، لأبي علي أحمد بن محمد بن مسكوية، ص٨٨-٩٣.

بديعة من التدرج، آخر افق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش ومالا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط، ومعنى الأتصال في هذه المكونات أن آخر كل افق منها مستعد بالاستعداد القريب، لأن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق الأنسان بعده، وهذا غاية شهودنا»[(١)].

ويعلق الدكتور علي عبد الواحد وافي - رحمه الله - على قول ابن خلدون، بعد أن نقل أقوال من سبق ابن خلدون في هذه القضية. يقول. ولكن ابن خلدون يختلف عن هؤلاء جميعاً من وجهين: . . . .

ثانيهما: أنه لم يقل أحد من هؤلاء باستحالة هذه الكائنات بعضها إلى بعض. أما ابن خلدون فقد قرر في عبارات صريحة أن الكائنات الأخيرة من كل مرتبة قابلة بطبعها لأن تستحيل إلى الكائنات الأولى من المرتبة التي يليها، وأنها قد تستحيل إليها بالفعل - وقد قرر ابن خلدون هذا الرأي الخطير أكثر من مرة في العبارة التي نعلق عليها: فمن ذلك قوله: «نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان واستحاله بعض الموجودات إلى بعض» وقوله «وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطا، ويستحيل بعض الأوقات» وقوله «ومعنى الاتصال في هذه المكونات إلى أن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد الطبيعي أن يصير أول أفق الذي بعده».

وأشار إلى هذا المعنى كذلك في عبارة أكثر وضوحا في فصل من الفصول. . . وذلك اذ يقول: «وقد تقدم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المدركين للغيب، وبيّنا

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ٤٠٤).

هنالك أن الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالا لا ينخرم، وأن الذوات التي في آخر كل فق من الاعوالم مستعده لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعداداً طبيعيا كما في العناصر الجسمانية البسيطة، وكما هو في النخَل والكرم من اخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من الحيوان، وكما في القردة التي استجمع فيها الكيْس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية[١].

وإذا أردنا أن نصدر حكما دقيقا وجب أن نلمّ بكل ما قاله ابن خلدون، وما قاله دارون، وسنجد أن البون شاسع بين الاثنين، أن الذي يرجع إلى ما قاله ابن خلدون في كتابه المبتدأ والخبر، يدرك بمالا يقبل ريباً أن الله خلق آدم خلقا خاصا مستقلا، وإن ما قاله ابن خلدون لا يتفق مع الأصول الكبرى لنظرية دارون من قريب أو بعيد، ويعجبني ما قرره صاحب الرسالة الحميدية الشيخ حسين الجسر - رحمه الله - وقد أبدع وأنصف. يقول:

«الكلام على ما ورد من النصوص الدالة على أن الانسان خلق مستقلا لا ناشئاً عن غيره، وبيان أن المسلمين لا يلزمهم تأويل هذه النصوص ما دام أنه لم يقم دليل قاطع على خلافها:

فأقول: قد ورد من نصوص الشريعة المحمدية التي عليها مدار الاعتقاد في خلق الإنسان، أن الله تعالى بدأ خلقه من طين، وأنه خلقه من تراب ومن طين لازب، ومن سلالة من طين ومن حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار، وورد أنه خلقه من ماء، قال بعض أتباع محمد ﷺ هو الإمام الرازي أن التراب والماء أصلان للانسان أي أنه خلق منهما، فتارة تذكر النصوص هذا وتارة تذكر ذاك. وورد أن الله تعالى خلقه بيديه، وهذه العبارة تدل على أن خلقه كان بصورة ممتازة عن بقية العوالم، وورد أنه سبحانه خلق

(١) حاشية مقدمة ابن خلدون (١/ ٤٠٥).

البشر من نفس واحدة آدم وخلق منها زوجها حواء، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. فهذه النصوص تفيد ظواهرها أن الله تعالى خلق الإنسان نوعا مستقلا لا بطريق النشوء، ولم يشتقه من نوع آخر كما تقولون لا سيما النص الذي يقول بدأ خلق الانسان من طين، وقد جاء في بعض النصوص الآحادية ما هو بيِّن الصراحة، جاء بأن خلق الإنسان كان مستقلا، وليس هو مشتقا من غيره. ولا شك أن هذه النصوص وإن لم يكن عليها مدار الاعتقاد بانفرادها فلا أقل من انها تقوى ظواهر تلك التي عليها المدار وتعضدها، وأيضا يبعد كل البعد أن يكون أصل الإنسان المادة البسيطة ثم ترقى إلى العناصر، ثم إلى المادة الحيوية وهي البرتوبلازم، ثم إلى أدنى حيوان، ثم ترقى حتى بلغ القرد ثم إلى القرد الانسان ثم إلى الإنسان كما تقولون، ومع ذلك يهمل الله تعالى بيان جميع ذلك ويقتصر على قوله بدأ خلق الانسان من طين بل كان، من حكمته أن يشرح تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه في تفصيل خلق ذريته، فإنه فصَّلَه في نصوص الشريعة بأنه خلقهم تراب، أي لأن غذاء آبائهم الذي يستحيل منياً كان أصله التراب، كذا يؤخذ من الرازي، وفي تفسير آخر أن معنى خلقهم من تراب خلق أبيهم آدم، ثم من نطفة، ثم من علقة ثم من مضغة ثم أخرجهم طفلا، فإن ذلك التفصيل له وقع في النفس في الدلالة على قدرة الخالق سبحانه لما فيه من نقل المادة من طور إلى طور. فسكوت النصوص المذكورة عن بيان النشوء واشتقاق الانسان من نوع سواه، واقتصارها على ما تقدم من البيان هو ظاهر في أن الانسان خلق نوعا مستقلا ليس مشتقا لما يقولون، وإن كان كلا الأمرين من الجائز العقلي الداخل تحت تصرف قدرة الله تعالى. نعم ليس في تلك النصوص صراحة بأن الله خلق الانسان الأول من تراب دفعة واحدة أو بتكوين متمهل، على انفراده، فسبيل هذا التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين حسب النصوص التي عليها مدار الاعتقاد. وإن كان قد يظهر من بعض النصوص الأحادية أن تكوّن ذلك الإنسان وهو آدم كان بتمهل، ومرت عليه مدة من الزمان، والله قادر على كلا الطريقين، وقد صرح بعض علماء اتباع محمد ﷺ - هو الإمام الرازي - في تفسير قوله

تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾، بأن خلق الانسان كان مبتدا مستقلا ليس مترقيا من الأدنى حتى بلغ ما هو عليه. وهذا ما قال من أن إذا للمفاجأة، يقال: خرجت فإذا الأسد بالباب، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه، يعنى الأنسان من تراب بكن، فكان، لا أنه صار معدنا ثم حيوانا، ثم إنسانا فخلق الأنواع هو المراد الأول، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة، فالله تعالى جعل المرتبه الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرها. انتهى.

فهذا تصريح بأن ذلك النص يفيد أن الإنسان كان تكوينه بطريق الخلق مستقلا، ابتداء لا بطريق النشوء - كما تزعمون - وطريق الخلق هو الذي تعطيه ظواهر بقية النصوص، فاعتماد أتباع محمد ﷺ في الاعتقاد عليه لا على النشوء، ولا يجوز لهم تأويل تلك الظواهر وصرفها عن معناها الظاهر، إلا إذا قام دليل عقلي قاطع يدل على أن الله تعالى خلق الإنسان بطريق النشوء كما تزعمون هيهات هيهات، فعند ذلك يضطرون إلى تأويل ظواهر تلك النصوص كما هو القاعدة عندهم في التوفيق بين الدليل النقلي والدليل العقلي المتعارضين، وبعد ذلك لا يخفي أن النشوء عندهم لو ثبت هو غير النشوء عندكم، لأنه لو ثبت عندهم كانوا يقولون هو بخلق الله تعالى لما قام عندهم من الدليل، على أنه لا خالق ولا مؤثر سواه، والنواميس التي ترافقه ما هي إلا أسباب عادية لا تأثير لها ألبتة، وأما النشوء عندكم فهو على زعمكم بتأثير تلك النواميس فشتان ما بين المعنيين»[١].

ولقد أطلت في هذه القضية، خشية أن يحسن الظنّ بعض القرّاء، بما كتبه الأستاذ عبد الكريم الخطيب، فيأخذونه على أنه حقائق مسلمة، نسأل الله أن يبصرنا بالحقائق، وأن يمنحنا بفضله ورحمته تمييز الخبيث من الطيب، والغث من السمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) الرسالة الحميديه ص٢٤١.

ثالثاً:

كتاب (القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور) لعبد الكريم الخطيب

هٰذا الكتاب هو الكتاب الثامن من سلسلة (من قضايا القرآن) وقد صدرت طبعته الأولى في بيروت عن دار الأصالة ومؤسسة الرسالة عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

قدّم الكاتب لكتابه بالتأكيد على أن القصص القرآني هو الحقّ الذي لا يشوبه الوهم أو الخيال، فأحداثه تُبعث كما حدثت لحظة وقوعها فهو نقلٌ حيّ لها.

اختار الكاتب أمثلة من القصص القرآني فجعلها مادّة لكتابه، وهٰذه الأمثلة تتصل بعالم الحيوان كالنملة والهدهد وببعض الشخصيات كأهل الكهف وكلبهم وببعض الشخصيات الخارقة كقصة ذي القرنين والعبد الصالح صاحب موسى عليه السلام، ثم عقد مبحثاً خاصاً بالعالم غير المنظور كالجن وإبليس والشيطان.

ويوازن الكاتب بين القصة القرآنية المتصلة بعالم الحيوان وقصص البشر التي دارت على ألسنة الحيوان فيرى أن القصص البشري في هٰذا الميدان له سمات معينة لا يتجاوزها، وأن الحيوان يظل فيها هو البطل المهيمن كما في كتاب (كليلة ودمنة) فالصورة التي يظهر عليها الحيوان هنا هي محض خيال، «كما أنها لا تعني حيواناً خاصاً من جنس هٰذا الحيوان أو نوعه وإنما هي حيوان شائع في الجنس أو النوع جميعه»[١] بالإضافة إلى أن الحيوان في القصص البشري قد يكون رمزاً مستعاراً لإنسان فهو خيال بعيد عن الواقع.

أما في القصّة القرآنية فكلّ حيوان جاء ذكره فيها هو حيوان حقيقي يمثل ذات الحيوان الذي ورد ذكره في القصص القرآني، ومن مزايا القصص القرآني هنا أن فيه عبرة كغيره من القصص.

---

(١) ص٩.

اشتمل الكتاب على سبعة مباحث:

١- **سليمان والنملة**: يبين الكاتب مناسبة هٰذه القصة لقصة فرعون الذي آتاه الله الملك فتجبّر إذ تقابله هنا صورة داود وسليمان عليهما السلام اللذين آتاهما الله العلم والسلطان فاستقبلا النعمة بالحمد والولاء، ثم يتحدث الكاتب عن ملك سليمان وجنوده، ويعرض قصته مع النملة حين مرّ بوادي النمل، فيقول إن العبرة أنّ الله أراد أن يصغّر في عيني سليمان عليه السلام هٰذا الملك فلا يدخله الزهو، وعَرْضُ الكاتب فيه شيء من الجراءة في حق سليمان عليه السلام فقد غفل عن أنه كان نبياً لا مجرّد ملك كالملوك.

٢- **سليمان والهدهد**: يعرض الكاتب هٰذه القصّة المعروفة عرضاً مفصّلاً بأسلوب أدبي، غير أنه يجترىء على سليمان عليه السلام كما لو كان يتحدث عن ملك عادي ذي غرور وصَوْلة.

٣- **سليمان وملكة سبأ**: يعرض الكاتب هٰذه القصة المعروفة عرضاً أدبياً جميلاً ويرى أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام فهو الذي نقل عرش بلقيس في طرفة عين، وهٰذا القول سبقه إليه الإمام الرازي وكان حقه أن ينسبه إليه.

٤- **أصحاب الكهف وكلبهم**: يعرض القصّة والعبرة منها ويبين أن موقف أبطالها تغلب عليه السلبية فليس في القصة صراع ظاهر أو صدام محسوس بين فريقين، كما تظهر الأشياء متعاطفة حانية على هٰؤلاء الفتية.

ويشير الكاتب في هٰذا الفصل إلى قصص أخرى في سورة الكهف هي قصة الرجلين المؤمن والكافر صاحب الجنتين وما انتهى إليه أمرهما، وقصة موسى عليه السلام والعبد الصالح، وقصة ذي القرنين وما كان من شأنه مع يأجوج ومأجوج، ويبيّن خلو هٰذه القصص كلّها من عنصر المرأة وما في هٰذه القصص من عبَر. ويشير إلى عنصر الحيوان وهو كلب أصحاب الكهف فيرى أن «الكلب انحاز بطبيعته المؤمنة إلى هٰذه الجماعة» ويشير في هٰذا السياق إلى وجود صفة الإيمان لدى الحيوانات في عهد سليمان عليه السلام.

٥- ذو القرنين من هو ؟ وهل هو نبي ؟

يبين الكاتب وجود مناسبة بين قصة ذي القرنين وقصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام، فكلاهما أي العبد الصالح وذو القرنين ممّن اختصّه الله بشيء من فضله ورحمته ويشير إلى التساؤلات والتصورات بشأن ذي القرنين ويرى أنه الإسكندر المقدوني على سبيل الترجيح لا القطع. والأمر ليس كما قال، كما سنبينه لك إن شاء الله.

٦- **بين موسى والعبد الصالح**: يسوق أحداث القصّة كما هي في القرآن ويرجح أن مجمع البحرين هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبي حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالاً، ويردّ قول بعض المفسّرين إنها (طنجة) حيث يلتقي البحر الأبيض بالمحيط الأطلسي، ويبين أن انسراب الحوت من موسى عليه السلام وفتاه كان دليلهما إلى مكان لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح، ذٰلك أنهما فقدا الحوت عند الصخرة التي أويا إليها فلما عادا إليها وجدا العبد الصالح، ثم يسوق الكاتب ما حدث بين موسى والعبد الصالح ويبيّن العبر المستفادة ممّا حدث، وهو يوجه هٰذه الأحداث الثلاثة توجيهاً خاصّاً بالمشيئة، ففي خرق السفينة إرادة مطلقة للإنسان ومشيئة خالصة له يتصرف بها كما يشاء بقوله ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وفي قتل الغلام تبدو مشيئة الإنسان مختلطة مع مشيئة الله داخلة فيها لقوله ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَآ﴾ [الكهف: ٨٠] وفي إقامة الجدار يتجرّد العبد الصالح من كل مشيئة وإرادة فهو منفّذٌ لمشيئة الله فحسب لقوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢].

٧- الدابّة التي تكلّم الناس ما هي ؟ وكيف ومتى تظهر ؟

يشير الكاتب إلى دابّة الأرض المذكورة في سورة النمل وهي التي ستكلّم الناس. ويسوق أقوال المفسّرين وبعض الأحاديث بشأنها، وحكم على هٰذه الأحاديث بالوضع، ثم يفسّر الآية الكريمة قائلاً: إن الدّابة لا يراد بها دابة واحدة بل جيشها، وهي كل ما يدب على الأرض من حيوان وأنعام وطيور وغيرها، ويرى أن الله «يُخرج لكل من لا

يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أكثر من دابّة عند موته يفهم منطقها الذي يكشف عن إيمانها بالله وكفره هو بربه»[١] ويستدل بقراءة أخرى في (تكلّمهم) وهي «تَكْلمُهم» أي تجرحهم وتؤذيهم بما ينكشف لهم من سوء حالهم.

٨- **من العالم غير المنظور**: الجن، إبليس، الشيطان: يشير الكاتب إلى الآيات التي ذكر فيها إبليس والشيطان، وإلى رفض إبليس السجود لآدم عليه السلام، فيرى أن إبليس كان من الملائكة حيث دخل في الأمر الموجّه إليهم بالسجود فلو لم يكن منهم لما كان عليه سجود ولما كان في عدم سجوده ما يؤاخذ عليه، ويرى أنّ إبليس كان في درجة دنيا في العالم الروحي هي درجة الجن الذين أشبهوا عالم الملائكة في أنهم خلقوا من شعلة مقدسة إلا أن الملائكة من نورها والجنّ من نارها، ويرى أن إبليس لم يظل في جماعة الجن بل خرج من بينهم حين أبى السجود لآدم فلعنه الله وطرده من الجنة وجعل له اسم (إبليس) سمة يعرف بها، ثم إن إبليس منذ حلّت به اللعنة تحوّل خلقاً آخر هو (شيطان) مريد رجيم فإذا هو «قوّة شرّ منطلقة يتطاير منها شرر يصيب من يتعامل معه ويتبع خطاه وتلك الشرارات المنطلقة منه هي ذرّيته التي يتحدث عنها القرآن... وهي شياطين أخرى تنطلق منها شرارات شيطانية وهٰكذا تتوالد وتتكاثر كما تتوالد الجراثيم وتتكاثر».

يرى الكاتب أن إبليس «كان من عالم الجن الذي كان من عالم الملائكة، ثم نزل إلى درجة (إبليس) ثم تحوّل من إبليس إلى شيطان يلد الشياطين كذٰلك الإنسان مؤمن ومشرك وكافر».

ويبين أن الجنّ فيهم الاستعداد للخير والشرّ كما ورد في القرآن الكريم، ويورد الكاتب قول من ناقشه في رأيه ويعرض حجّته.

---

(١) ١٦٢.

رابعاً:

كتاب (سيكولوجية القصّة في القرآن) للدكتور التهامي نقرة

هٰذا الكتاب في الأصل رسالة دكتوراة قدّمت في جامعة الجزائر عام ١٩٧١م وقد نشرته الشركة التونسية للنشر عام ١٩٧٤م وجاء الكتاب في (٦٥٠) صفحة بما فيها من فهارس فنيّة شاملة.

تبدأ مقدمة الكتاب ببيان استخلاف الإنسان في الأرض الذي رافقه الصراع بين الخير والشر من بدايته كما في قصّة ابني آدم عليه السلام، كما تبين بداية التفسير الديني للكون وما شاب الإنسان من مخاوف إزاء مظاهر الكون وعزو ذٰلك إلى قوى خارجية، ثم نشأت لديه الأساطير النابعة من شعور ديني أنشأته غريزة الخوف، وهٰذه المقولة قالها من قبل عبد الكريم الخطيب في كتابه القصص القرآني في منطوقه ومفهومه.

ثم بين الكاتب دور الأديان السماوية في إنقاذ الفكر الإنساني من العقائد الفاسدة ويبيّن أهميّة القصّة التي هي من أنجح أساليب التقويم والهداية، ويبين أهم أهداف القصّة القرآنية، يبيّن الكاتب موضوع بحثه ومنهجه فيقول إن موضوع الكتاب هو دراسة القصة القرآنية وتحليلها وبيان عوامل التأثير فيها، والجديد في دراسته -كما يقول- «محاولة استخدام بعض القواعد والأصول المقررة عند علماء النفس والتربية والاجتماع، وفي استعمال المنهج التحليلي إلى جانب البحث النظري وسيلة لدراسة القصة القرآنية بشمول وعمق، وربط الجانب الفني فيها بالجانب النفسي لأنهما يلتقيان في الهدف، وهو التأثير الديني، ولأن صلة الفن بالدين عريقة ومتينة»[١]. ثم يشير إلى البحوث السابقة في القصة القرآنية ويبين باختصار أساليبها وطرقها في دراسة القصّة القرآنية.

---

(١) ص٢٣.

وبعد هٰذه المقدّمات تقع مادّة الكتاب في بابين: الأوّل هو قسم البحث النظري، والثاني هو قسم البحث التحليلي، والقسم النظري يتضمن ستة فصول هي:

١- **مصدر القصة القرآنية**: وفيه بيان أنها من عند الله تعالى ودحض شبهات المستشرقين في عزْوها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

٢- **المنهج القصصي للقرآن**: حيث يبين أن القصّة القرآنية أوّل قصّة ملتزمة عرفها الأدب العربي، إذ هي تهدف إلى الدعوة إلى التوحيد والخلق القويم وتنهى عن الشرك والضلال، ويبيّن فيه الأصل اللغوي لمادَّة (قصَّ)، ويبين الفرق بين القصّة والخبر والرواية، ويبين الأسلوب العام الذي تعتمده القصة القرآنية في اختيار لقطات حيّة من الوقائع التاريخية غير مثقلة بالجزئيات والتفصيلات غير المفيدة الصارفة عن التدبر والاعتبار، ويعقد موازنة بين التوراة والإنجيل في المنهج القصصي.

٣- **التكرار في قصص القرآن**: يبين الكاتب هنا أن القرآن لم يكرر من القصص أو حلقاتها إلاّ ما كان أشد تجاوباً مع بيئة الدعوة وأهدافها، ويقدم أمثلة لذٰلك من قصص الأنبياء عليهم السلام، وفي هٰذا السياق ينتقد رأي محمد خلف الله القائل إن تكرار قصة موسى كان بسبب سيطرة اليهود على البيئة العربية من حيث التفكير الديني. كما يشير الكاتب إلى أغراض التكرار في القرآن وهي عنده تعود إلى التأثير النفسي، فإن تكرار المعاني المقرَّرة للعقيدة شائعة في القرآن كله وهي في القصص القرآني أشد ظهوراً، وهٰذا يهدف إلى تمكين أثرها في النفس، ويبين أن التكرار في القرآن لم يؤدّ إلى تعارض.

٤- **أنواع القصص القرآني**: يبين أن قصص القرآن مبنية على حقائق ثابتة ليس فيها خيال أو وهم أو مبالغة وينفي عن القصة القرآنية الأسطورية والرمزية، ويردّ كلام خلف الله حين عدّ قصّة النملة والهدهد أسطورة أو رمزاً، لأن هٰذا يخرج القصة عن هدفها وهو إظهار القدرة الإلٰهية التي تتحدّى الإنسان مهما بلغ به العلم، ويشير الكاتب هنا إلى أن الأحداث في القصة القرآنية ليست متسلسلة الحلقات لأن التأريخ فيها غير مقصود لذاته،

بل لاستخلاص العبرة منه، ويناقش أقوال المستشرقين الذين لا يعدّون قصص القرآن مصدراً تاريخياً لخلوها من التفاصيل ولعدم اتفاق بعضها مع ما جاء في الإنجيل والتوراة قائلاً إن القرآن ليس كتاباً في التاريخ بل هو كتاب هداية وموعظة، ومع ذٰلك فكل ما فيه حقّ، ويوازن الكاتب هنا بين أخبار في القرآن وأخبار في الإنجيل.

ويشير إلى نوع مخصوص من قصص القرآن يسمّيه القصص التمثيلي ويقصد به القصص التي تساق على سبيل الاستشهاد والتقريب، مثل قصة صاحب الجنّتين، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ﴾ [يونس: ٢١] وما بعدها من آيات في سورة يونس، والصحيح أن هناك فرقاً بين المثلين اللذيْن ساقهما الكاتب، فالأولى قصة حدثت فعلاً، والثانية مثل إنساني يتكرر حدوثه.

٥- **جوانب المعرفة في قصص القرآن**: يشير إلى جوانب من المعرفة التي نتعلمها من قصص القرآن وهي تتمثل في الكون حيث نعرف سنن الله فيه، والنفس حيث نتمكن من سبر أغوارها، والتاريخ حيث نعرف ماضي الإنسان ونعتبر به، ويستشهد الكاتب بأمثلة من قصص القرآن.

٦- **عرض ونقد لمنازع المفسّرين**: ينتقد الكاتب اعتماد بعض المفسّرين على الإسرائيليات في التفسير، إذ ينبغي التثبّت من صدق الرواية عند التفسير، ويبيّن منشأ اختلاف المفسّرين، ويقدّم أمثلةً ويبين أن إقحام الخرافات والأساطير والإسرائيليات في التفسير يسيء إلى جلال وجمال النصّ القرآني، كما يشير إلى خطر التفسير الرمزي لبعض الفرق الباطنية.

ثم يأتي القسم الثاني من الكتاب وهو (قسم البحث التحليلي) الذي يشمل خمسة فصول هي:

١- **تحليل القصّة القرآنية**: يبيّن الكاتب أننا ربما توصلنا من القصّة التي يكتبها الناس إلى معرفة نفسيّة كاتبها، أمّا القصّة القرآنيّة فتختلف؛ لأن مصدرها من عند الله، لذا يمكن تحليلها من الوجه النفسيّ من باب معرفة عوامل التأثير فيها.

ولا بدّ في تحليل القصّة القرآنيّة من ثقافة دينية ومن نظرة عميقة تشمل ثلاثة جوانب هي أوّلاً: شخصية صاحب الدعوة محمد ﷺ، حيث تهدف القصّة إلى تثبيته حتى لا يتسرّب اليأس إلى نفسه ولكي يصبر على الأذى، وثانياً: البيئة التي نزل فيها القرآن، حيث خاطب الله العرب بما يفهمون، فجاءت قصص القرآن إصلاحاً وتربية، وينتقد الكاتب ناقلاً عن كتاب (التعريف بالإسلام لعبد الكريم الخطيب) قول القائلين إن القصّة القرآنيّة أدّت دورها الإصلاحي للعرب في حينها وانتهى دورها بعد ذلك، حيث يبيّن أن القصص القرآنية هي منهج تربية دائم، وثالثاً: الإنسان: فالقصّة بتجرّدها عن الزمان والمكان، وعدم إغراقها في التفصيلات والإسهاب، تعرض حقائق إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وهنا تكمن القوّة الفنيّة في الإيحاء والتأثير.

٢- **عناصر القصة في القرآن**: يبيّن أن أهم ما يشترك فيه القصص القرآني مع سائر القصص في العناصر هو الأشخاص والحدث والحوار، غير أن للقرآن منهجه الخاصّ حيث يكتفي بذكر بعض صفات الأشخاص، وأحياناً تكون الشخصية هي محور الأحداث لكن الهدف هو التأسي وليس الشخصية لذاتها، والأغلب أن ينصرف إلى الأحداث أكثر من الشخصيات لكنه يختار من عناصر الحادثة ما يخدم الفكرة الرئيسة ويخلق الجو النفسي الملائم، وأحياناً يعرض شخصية الجنس الواحد مثل بني إسرائيل، وأحياناً شخصية الإنسان عموماً، فالقرآن يذكر النفس الإنسانية بكل أبعادها كالنفس السفلى الأمارة بالسوء، والواعية الملهمة، والعليا أي النفس اللوّامة.

- ويشير الكاتب إلى (شخصية المرأة) في القصّة القرآنيّة حيث لم تفرق بينها وبين الرجل فعرضت أمثلة للمرأة سلبية وإيجابيّة.

- كما يشير إلى عنصر (الحوار) في القصّة القرآنيّة فيبيّن أننا لو نظرنا إلى قصص القرآن حسب ترتيب النزول لوجدنا أن القرآن بدأ في قصصه بإشارات خاطفة خالية من الحوار كما في سورة الفجر والفرقان، لأن الغرض آنذاك هو إثارة الوجدان وإيقاظ

الفكر، ثم تدرّج نحو التفصيل، كما أنه لا يأخذ كل الحوار ولا سطحيته بل يرسم من خلاله معالم الشخصية ويأخذ منه اللقطات الموحية.

- ويشير إلى أساليب الحوار الواردة في قصص القرآن مع التمثيل لها.

ويعرض أشد العوامل النفسية تأثيراً في القرآن وهو الحضور الإلٰهي بمعنى أن القرآن كلام الله لفظاً ومعنى، والقدَر بمعنى شعور الإنسان بوجود قوّة غيبية تحرك الأحداث، والترغيب والترهيب، ومعرفة السياق والمناسبة وهٰذه تعين في فهم القصّة فهماً دقيقاً يقوّي تأثيرها.

٣- **عوامل التأثير في قصص القرآن**: يشير الكاتب إلى اختلاف المؤثرات في الناس حسب ميولهم، ويشير إلى التأثير النفسي، ويفرّق بين التأثير الانفعالي العابر والتأثير العاطفي الذي ينمي اتجاهات وجدانية ثابتة، وهو الذي تهدف إليه القصة القرآنيّة ووسيلتها إليه التكرار، والإيحاء كما في قصة قارون، والاقتران، مثاله أن رؤية مساكن الظالمين تذكّر بمن كانوا فيها وما حلّ بهم.

- ويشير إلى جانب الإقناع في القصة القرآنيّة الذي جاء مندمجاً مع جانب التأثير الوجداني.

- ويشير كذٰلك إلى الإبداع الفني في تكامل العناصر والتأثيرات السابقة في القصة القرآنية على نحو فريد.

٤- **نظرات في سورة يوسف**: يختار الكاتب قصة يوسف عليه السلام ليطبّق عليها دراسته تطبيقاً مفصلاً نظراً لكونها قصة مكتملة العناصر والبناء الفني ولأنها أطول قصص القرآن الكريم التي جاءت كاملة في سياق واحد، ويعقد موازنة بين سياق أحداث قصة يوسف عليه السلام في القرآن وفي التوراة.

٥- **الجانب التربوي في قصص القرآن**: يبين الكاتب في هٰذا الفصل الأخير أثر

القصص في العقيدة والسلوك، وسبل تربية الله أنبياءَه لإعدادهم للرسالة، وسبل تربية الأنبياء عليهم السلام أقوامهم، ثم يشير إلى مسالك التربية في قصص القرآن مثل التربية بالأحداث، وبالحوار، وعلاج الذنب بالتوبة. والكتاب على كبر حجمه وجودته كثير الاستطراد والتداخل والعنوانات الفرعيّة مما يشتّت الموضوع نوعاً ما.

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب فضلاً على ما فيه من استطراد وعنوانات فرعية كثيرة متداخلة إلى حدّ ما، فإن موضوعاته أوسع من عنوانه، فالعنوان يقتضي قصر الحديث على الجانب النفسي وما يتصل به في القصّة القرآنية، لٰكن الأمر جاء على غير هٰذا فكثير من مباحث الكتاب يمكن أن يتضمنه أي كتاب آخر ذو عنوان آخر يتحدث عن جوانب أخرى في القصة القرآنيّة.

بقي أن أذكر بإيجاز مأخذين اثنين: **الأوّل**: عنوان الكتاب فالأولى أن يُسْتغنى عن لفظ (سيكولوجية) ليَحِلّ محلّه لفظ عربي.

الثاني: أنّ الكتاب وقد عرض للكاتبين في القصص أمثال محمد أحمد خلف الله وعبد الكريم الخطيب كان حقّه أن يبيّن ما في كتابَيْهما من سلبيات، لٰكنه لم يفعل شيئاً من هٰذا.

خامساً:

نظرات في أحسن القصص

للدكتور محمد السيد الوكيل

يقع هٰذا الكتاب في جزئين، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٤م. ولقد أثنى مَنْ أثق به على المؤلف وعرفتُ أنّ مجال اختصاصه التاريخ.

يحاول الكاتب أن يبرز بعض العبر في القصص القرآني مذكّراً المسلمين بما يجب عليهم، ولٰكنّ الطابع الذي يغلب على الكتاب طابع السرد والرواية، فهو ينقل كثيراً عن ابن جرير وابن كثير وعن بعض كتب التفسير حيث رأيتُ له نقولاً عن حاشية الجمل على الجلالين، وقد ينقل الخبر الطويل ويعلّق عليه بعد نقله بأنه لم يثبت. لقد نقل أخباراً كثيرة في قصة آدم أرى أنْ لا داعي لها وكذٰلك ذكره لشعيب وإدريس.

الجيّد في الكاتب أنه ينبّه أحياناً كثيرة على عدم ثبوت ما نقل، والكتاب فيه فوائد كثيرة، وقد يُرضي فئة خاصة من الناس.

وهناك كاتبون آخرون كتبوا مشكورين في القصّة القرآنية لم أتعمّد ترك الحديث عنهم مكتفياً بما ذكرتُ خشية الإطالة. جزى الله الكاتبين الذابّين عن كتاب الله خير الجزاء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

القصة القرآنية أهدافها وخصائصها

في القرآن الكريم أكثر من شكل تعبيريّ من خطاب وحوار وقصّة، وكلّها في القرآن معجزٌ ببيانه وبلاغته، وكلّها يلتقي على الأهداف المتوخّاة ذاتها من التأثير على عقل المتلقي وقلبه ووجدانه وهدايته إلى ما فيه خيره وسعادته في الدّارَيْن.

والقصّة القرآنيّة قصّةٌ هادفة، فهي ليست حلية للنص القرآنيّ أو ترفاً فنياً أو تأريخاً لمجرّد التأريخ أو سرداً لمجرّد التسلية والمتعة الفنيّة، وهي وإن كانت ذات خصائص فنّيّة راقية وتأثيرٍ فذٍّ في المتلقي -فإنها صدقٌ لا خيال فيه وحقّ لا زيفَ فيه، وبما أنّ مصدر القصّة القرآنية هو مصدر القرآن نفسه، وهو الوحي الإلٰهيّ -فالأهداف المتوخّاة منها هي الأهداف ذاتها المتوخاة من أشكال التعبير الأخرى في القرآن الكريم، غير أنّ للقصّة تأثيراً نفسيّاً ووجدانياً ذا طابع خاصّ لما فيها من عرضٍ حيّ للفكرة والغرض مجسّم في أشخاص يتحرّكون ويتكلّمون ويتحاورون، وفي أحداثٍ تُبثّ فيها الحياة، فتعرض أمام المتلقي كما لو كانت ماثلة أمامه وإنْ كانت لأقوام مضَوْا.

لم يُغفل القرآن الكريم أيّاً من أشكال التعبير النثريّ التي تحقّق أهدافه وغاياته السّامية كالقصّة والخطاب والحوار، كما لم يغفل أيّاً من أنماط الكلام خبراً وإنشاءً وأيّاً من أساليب المخاطبة سواءً بالأمر والنهي والزجر والوعظ والترغيب والترهيب المباشر أم ببسط الحقائق بصورة مباشرة، أم بعرض ذٰلك كلّه في شكل صورة أو مثل أو قصّة. أمّا لماذا كان هٰذا هو الشأن؟ فلأنّ البشر يختلفون في طبائعهم واستعداداتهم، فمنهم من يتأثّر بالقصّة وما فيها من تأثير وجدانيّ حيّ، ومنهم من تقنعه البراهين والحجج العقليّة، ومنهم من يتأثر بالترغيب والترهيب، لذا يأتي الحثّ على فضيلة معيّنة أو النهي عن رذيلة معيّنة في أكثر من قالب تعبيريّ، وقد ترد هٰذه القوالب التعبيريّة مستقلاً بعضها عن

الآخر، وقد تجتمع، وغالباً ما تجتمع في القصّة القرآنية، فتأتي القصّة جامعةً للأحداث والحوار والخطاب بما فيه من أمر ونهي، وربما ختمت القصة أو بُدئت بذكر الموعظة المستخلصة منها بشكل مباشر، فإذا ما اجتمع في القصّة أكثر من قالب تعبيري كانت أوسع تأثيراً لقطاع كبير من المتلقّين على اختلاف ميولهم وطبائعهم.

أهداف القصّة القرآنيّة:

إنّ أهداف القصّة القرآنية لا تنفصل عن أهداف القرآن الكريم عامّةً وعن أهداف الدعوة الإسلامية، وممّا هو جدير بالإشارة إليه أن القصّة القرآنية الواحدة قد ترد في مواضع متعددة من القرآن لهدف جديد أو عبرة جديدة، أو لتثبيت الفكرة الواحدة بعرضها بعدة أساليب أو من عدّة زوايا، وذٰلك لأن تعدّد ذكرها يفيد في تثبيت الأفكار وتحقيق الأهداف والغايات. ومن أهداف القصة في القرآن:

١- الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث وتثبيت أسس العقيدة الإسلاميّة في النفوس، وذٰلك من خلال ذكر قصص الأنبياء وبيان وحدة دعوتهم إلى هٰذا. وبيان أن ملة الكفر واحدة، وشبهاتهم واحدة على مر العصور والأزمان، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

٢- تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين من خلال عرض صورٍ لما عاناه الأنبياء السابقون وأتباعهم من أذى وتعذيب أقوامهم وكيف صبروا على ما أوذوا، وكيف كانت الغلبة للإيمان وما حلّ بأقوامهم من دمار وعذاب في الدنيا، ولعذابُ الآخرة أشدّ. فسنة الله دائما نصرة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وإهلاك المكذبين.

٣- تعليم المسلمين فضائل الأخلاق عن طريق القدوة العملية الماثلة في قصص القرآن، والزجر عن الأخلاق الذميمة والفواحش، وحماية الإنسان من الوقوع في الآثام، والحضّ على التوبة للمسيء، وهٰذا كلّه يكون بتقديم أمثلة لشخصيات تمثّل جانب

القدوة الإيجابيّة كأيوب عليه السلام في صبره، ويوسف عليه السلام في صبره وعفّته وتسامحه، وأمثلة أخرى لشخصيات تمثّل الجانب السلبي كقارون في اغتراره بالمال والجاه، وفرعون في تعاليه وغروره وإصراره على الكفر، وقوم لوط في إصرارهم على الفواحش، والقرآن الكريم يحضّ من خلال عرض قصصهم على البعد عن مسلكهم الوخيم العاقبة دنيا وآخرة.

٤- الإقناع العقلي والتأثير الوجداني لتمكين حقائق الإيمان والتوحيد والبعث في عقل وقلب المتلقي، وذٰلك من خلال أحداث بعض القصص وما فيها من حوار هادف مقنع، كما أنّ تكرار هٰذا الإقناع وذٰلك التأثير بهٰذه الحقائق في قصص متعدّدة أو في قصّة واحدة تُعرض بأكثر من قالب أو من أكثر من زاوية -هٰذا يسهم في تمكين هٰذه الحقائق في العقل والوجدان، كما يسهم في استخلاص دروس وعبر جديدة منها في كل عرضٍ جديد.

٥- الترغيب بالتأييد في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة للمؤمن الطائع، والترهيب من غضب الله وعذابه في الدنيا والآخرة للجاحد العاصي، وذٰلك من خلال عرض أمثلة لتأييد الله عباده المؤمنين وعقوبته للجاحدين في الدنيا، كقصّة إنجاء الله تعالى موسى عليه السلام والذين آمنوا معه من بطش فرعون وجنوده، وإغراق فرعون وجنوده في اليمّ، وإنجاء الله لوطاً عليه السلام وأهله إلاّ امرأته وإهلاك قومه.

الخصائص الذاتية للقصّة القرآنيّة:

١- مصدر القصّة القرآنيّة هو مصدر القرآن الكريم نفسه، فهي من وحي الله تبارك وتعالى، لذا نجدها قصّة هادفة، فهي ذات هدف ديني أخلاقي لا ينفصل عن أهداف العقيدة والشريعة، غير أنها تجمع إلىٰ سموّ الهدف رقيّ الشكل الفنيّ.

٢- المصدر الذي تستقى منه أحداث وشخصيات القصّة القرآنية هو الكون والتاريخ، غير أن القصّة القرآنيّة حقّ لا زيف فيه، ولا مدخل في أحداثها للخيال الفني ولا للخرافات والأساطير التي ادّعى بعض المستشرقين والمستغربين دخولها فيها،

ولا للرمزيّة التي حاول بعضهم -ظلماً وعدواناً- حمل قصص القرآن عليها.

فالحقائق التي ترد في القصّة القرآنية عن الكون وعن طبائع النفس البشريّة عموماً، وعن قصص أقوام وأشخاصٍ بأعيانهم هي كلّها حقائق ثابتة علمياً وتاريخياً، وإنْ لم تقصد القصة القرآنية إلى التأريخ المجرّد بل اتخذت من حقائق التاريخ مجالاً للموعظة والاعتبار والتأسّي ودروساً واقعيّة يتأملها المتلقي ويتعلم منها كما تبيّن معنا في عرض أهداف القصّة القرآنيّة.

٣- موضوع القصّة القرآنيّة هو الإنسان المستخلف في الأرض بما يدور حوله في الكون وما يحدث له وما ينبغي أن يكون عليه حاله وما ينبغي أن يعرفه من أمور العالم المنظور والغيب غير المنظور وحقائق الدين والإيمان والتوحيد والبعث، وما ينبغي أن يلتزمه من معتقدات وفضائل، وما ينبغي أن يجتنبه من معتقدات ورذائل، فالإنسان هو قطب الرحى في القصّة القرآنية مثلما هو قطب الرحى في الكون الذي استُخلف فيه.

٤- المتلقي الذي تُوجَّه له القصّة القرآنيّة هو نفسه محورها وهو الإنسان الذي تُساق له القصّة القرآنيّة نوراً لعقله وقلبه وتهذيباً لمسلكه كما تبيّن معنا في عرض أهداف القصّة القرآنيّة. ومن ثم فقد سمت القصة القرآنية بالإنسان حتى يمتاز عن الحيوان الذي يشترك معه في بعض الصفات، هٰذا السمو الذي لا يركز على جانب واحد في هٰذا الإنسان، فهو سمو روحي ونفسي يشعر به الفرد، ويجد فيه حلاوته ولذته، وهو بعد ذٰلك سمو اجتماعي تجد الجماعة فيه بغيتها وضالتها وفضيلتها.

٥- القصّة القرآنيّة ليست عرضاً مجرّداً لحقائق التاريخ، بل هي انتقاءٌ لجوانب من التاريخ إيجابيّة أو سلبيّة لتحقيق أهداف القصّة المرجوّة، ولذا نجدها تركز على الرقي المادي، وأسباب القوّة، لأن هٰذه المادة عنصر أساسي رئيس في مقومات هٰذا الإنسان، ونجدها تركز على ما هو أهم، وهو أن التدين الحق لا ينفصل عن الحياة العملية ولا ينفصم عن واقع هٰذا الإنسان وإنما هو مرتبط به ارتباطاً وثيقاً، بل هو جزء منه،

ولهٰذا نجد القصّة تفصل في أسباب السعادة الروحية وأسباب الرقي المادي حتى تتم السعادة للمؤمنين بهٰذا القصص، العاملين بتوجيهاته وارشاداته.

٦- القصّة القرآنيّة قصّة هادفة، وأهدافها لا تنفصل عن أهداف العقيدة والتشريع، وهي تمزج بين الإقناع العقلي والتأثير الوجداني لتحقيق التأثير المطلوب في نفس المتلقي وفي سلوكه.

الخصائص الفنيّة للقصّة القرآنيّة:

للقصّة القرآنيّة خصائص فنيّة راقية، فهي تجمع إلى سمو الهدف وصدق المضمون رقياً في البناء الفنّي، ومن الخصائص الفنيّة التي تمتاز بها القصّة القرآنيّة(١):

١- **تنوّع طريقة العرض**: فالقرآن الكريم لا يجري في أسلوبه على نمط واحد مخصوص في قصصه كلها، بل تتنوع طرائقه تبعاً لتنوع الأغراض، وتتنوع الوسائل البيانية تبعاً لتنوع الطرائق، فبعض المشاهد يقوم على استحضار الأحداث دون تدخل بالرواية. والاقتصار على التنبيه على عنوان المشهد أو موضوعه ثم تظهر الأحداث بصورة مباشرة مثل قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مشهد بناء الكعبة، وأكثر القصص القرآنية يعتمد الحكاية والرواية، وبذٰلك يسيطر على الموقف لينتقي من الأحداث ما يحقق الهدف وينسقها في إطار فني لا يخرجها عن الواقع، ولا يترك المجال لكل ما وقع فيخرج بها عن هدفها المسوقة لأجله، مثل قصة أصحاب الكهف وقصة سليمان عليه السلام مع الهدهد وملكة سبأ، وقصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وقد يمهّد مع هٰذا وذاك للقصّة بذكر ملخّص لها مشوّقٍ إليها ومنبّهٍ على ما تنطوي عليه من مقاصد القصة القرآنية، ويعالج ما لعله يثار حولها من تشكيك كقصّة أصحاب الكهف وبداية قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، وقد يمهّد للقصّة بمقدّمة توحي

---

(١) انظر في هٰذا الموضوع: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب؛ والبيان القرآني لمحمد رجب البيومي، والبيان القصصي في القرآن الكريم للدكتور إبراهيم عوضين.

بخاتمتها كما في قصّة يوسف عليه السلام حيث تبدأ بالرؤيا التي توحي بالخاتمة قبل عرضِ الأحداث، وقد يذكر القصة بلا مقدمات أو تمهيد مكتفياً بالإيحاء إلى محور القصّة مثل قصّة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، وربما قدّم أحداث القصّة وفق ترتيبها الواقعي مثل قصة مريم عليها السلام في سورة مريم وقصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء، وربما قدّم أحداث القصّة وفق ترتيب ما ليعجّل لنا بالكشف عن مفاجآتها كما في قصّة أصحاب الجنّة في سورة القلم، وقد يمزج البيان القرآني الشخصية بالحدث مزجاً تامّاً ثم يدير المشاهد في ذٰلك الفلك حسبما يقتضيه الغرض التوجيهيّ، فهو يمزج الشخصية بالحدث لينتج من هٰذا المزيج مركزٌ هو البطل الجديد الذي تدور حوله المشاهد، ذٰلك أن الشخصية في القصة القرآنية وسيلة لا غاية، فهي مجرد شواهد إنسانية في مختلف حالاتها من خير أو شرّ أو قوّة أو ضعف.

٢- **إقامة العرض على التصوير**: أي أَن القصّة القرآنيّة تقيم العرض القصصي على الأسلوب التصويري، فالقرآن يتخيّر من ألوان التصوير لكلّ قصّة ما يتناسب معها في موطنها، فإنْ كان للأشخاص دور رئيس في تحريك الحدث القصصي رأيته يبرز من صفاتهم العقلية أو النفسية أو العاطفية أو الجسمية ما تتطلبه أدوارهم في القصّة.

٣- **اختلاف موقع المفاجأة**: القصّة القرآنيّة لا تسير على نظام واحد في تقديم الحدث المفاجىء الذي يسهم في النهاية ويحرّك القصّة إلى حلّ عقدتها الرئيسة، بل تراعي المكان والزمان المناسبَيْن لإظهار المفاجأة، فالهيئة التي تقدّم بها القصّة في مجال العقيدة غير تلك التي تكون في مجال التطبيق العمليّ، ففي قصّة أصحاب الجنّة في سورة القلم تأتي المفاجأة بعد بدء القصّة مباشرة، فبينما هم منشغلون بالتخفي والاستتار عن المحتاجين للهرب بمحصول جنّتهم تأتيهم المفاجأة بخرابها أمام سخرية النظّارة، ذٰلك أن القصّة مبنية على نزوة نفسية هي الطمع والشحّ، أمّا قصّة صاحب الجنتين فالمفاجأة فيها تأتي في ختام الأحداث وبعد حواره مع صاحبه المؤمن، ذٰلك أن القصّة مبنيّة على نزوة عقلية هي الاغترار والتكبّر، وفي هاتين القصتين يجهل القارىء المفاجأة

قبل حدوثها، أمّا في قصة نقل عرش ملكة سبأ فالمتلقي هنا يعرف المفاجأة من أول الأمر، وفي مشهد إدخالها الصرح تكون هي والقارىء سواء في الجهل بالمفاجأة.

٤- تنوع وسائل ربط المشاهد: من أبرز الخصائص الفنيّة للقصّة القرآنية عدم الاستقصاء في عرض مشاهد القصّة ارتفاعاً بها عن وهدة السرد المعتاد، ففي القصّة الواحدة تجد بعض المشاهد متتابعة، وبعضها فيه فجوة تُترك لخيال القارىء ليملأها، ففي قصّة أصحاب الكهف يتتابع المشهد الأول والثاني، إذْ هما استمرار للحوار الدائر بينهم بشأن موقف قومهم من العقيدة، لٰكنّ هناك فجوة بين المشهد الثاني والثالث هي الفاصل بين استقرار أمرهم على الإيواء إلى الكهف وبين وقوفنا أمام الكهف نرى الشمس تطلع عليهم وتغرب وهم في فجوة منه؛ وهٰذه الأحداث التي سقطت بين المشهدين لا ضرورة لها في نموّ الحدث القصصي.

٥- عدم التزام السرد القصصي: لا يُلتزم في القصة القرآنية السرد القصصي دائماً، لٰكنّه قد يُلتزم للوصول إلى الغاية من القصة، ووفقا لذٰلك الالتزام نرى من القصص القرآنية ما تقدَّم كاملة الأحداثِ والمواقف في معرضٍ واحد كما رأينا في قصّة يوسف ومنها ما تقدم في حلقات يُخصّ بكل حلقة منها معرض يتطلب هٰذه الحلقة من القصة فحسب. ولا مانع في أثناء ذٰلك من تكرار موقف مشترك بين حلقتين.

القصص في العهدين القديم والجديد:

لا عجب إذن أن يكون هذا القصص بدعاً مما عرفته الانسانية من هذا اللون في القديم والحديث حتى ذلك القصص الذي جاء في الكتب السماوية نجده يختلف تماماً عن القصة القرآنية، فأنت تجد القصة في هذه الكتب فضلاً على ما فيها من مخالفة لقواعد العلم وقوانين التربية؛ فهي مع ذلك تذكر الله ورسله بما يأباه العقل وتشمئز منه النفس، وماذا اكثر من ان يوصف الله بالندموالبداء[١]، والظهور بصورة البشر -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- وأن يوصف الرسل بالكذب والسكر والزنا!!

---

(١) أي تبدو له الأمور بعد أن كان يجهلها.

القصة الأدبية:

أما القصة الأدبية في القديم والحديث فبعضها يقوم على الخيال الذي لا حقيقة له، وبعضها يقوم على تشويه الحقائق، وثالث ينحرف به كاتبه عن القيم والمثل والمبادىء. ونظرة إلى كُتَّاب القصة الذين اشتُهروا تجد أن الشذوذ والانحلال الخلقي والإلحاد والتهريج كان الطابع لأكثرهم، هذا عن الكتاب العالميين للقصة؛ أما الكتَّاب العرب فهم بين مترجم ترجمة حرفية، أو ناقل للفكرة؛ ليضعها في أسلوبه وقالب من الكلمات العربية، وقليل أولئك الذين ساروا بالقصة مسارها الصحيح نهجاً وموضوعاً مستوحين ذلك كله من بيئتنا وقيمنا[(١)].

---

(١) من الأدباء الأجانب صامويل بتلر (١٨٣٥-١٩٠٢) من قادة الفكر الانجليزي لكننا نرى من مبادئه التشكيك في الماضي والتحذير من المستقبل والسخرية من الأديان عامة والمسيحية خاصة أما آراؤه ففيها تقلب وشذوذ وانحراف فهو يقول: «إن الجريمة مرض يجب أن لا يعاقب عليه القانون والذي يجب أن يعاقب عليه القانون فعلا هو المرض مهما كان وراثياً».

وهناك تشارلز ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠) الذي كان يعدُّ أعظم القصاصين في عصره باعتراف النقاد أنفسهم غير أنه كان عصبي المزاج يحقد على المجتمع لذا نراه يسهب في الحديث عن جرائمه ومع ذلك كان كثير العيوب في كتابته فقصصه مليئة بالمتناقضات، وهو يطنب حيث يمكن الإيجاز، وهو في إطنابه يصل إلى حدِّ الثرثرة التي لا تجدي، وهناك «ابتمن سنكلر» في الربع الثاني من القرن العشرين: سمومه التي يبثها في كتبه لا تخرج عن الترويج للشيوعية ويدعو في كل سطر من كتاباته اليها، وغيرهم الكثير.

ومن الأدباء العرب محمود طاهر لاشين (ت١٩٥٤م) من ابرز أعضاء المدرسة الحديثة الذين أثروا في غيرهم تأثيراً كبيراً، وقد كان متعلقاً بالقصص الغربي الذي يصور حياة الأجانب بمتناقضاتها ومآسيها ومع اهتمامه بالإصلاح أساء شغفه بالأدب الغربي إلى الحياة العربية ففضلاً على أنه كان يكتب الحوار باللغة العامية ويستعمل في بعض الأحيان الأساليب العادية كان يبث في الناس بين حين وآخر سموماً تدفعهم إلى الإثم من حيث لا يشعرون.

وهناك نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي وغيرهم وهؤلاء بعضهم -حتى الآن- يكتب بالعامية بل يدافع عنها ولا يزالون يختلفون في قضايا مثل العامية والفصحى، والتخطيط والعشوائية، والمادية والمثالية، والفوضى والحرية، والكم والكيف، والفرد والمجتمع، ثم هم لم يتفقوا على منهج خاص أو عام يوجه الإنسانية عن طريق القصة الأدبية إلى حل مشكلاتها المختلفة». =

ستبقى القصة القرآنية إذن الشعلة التي تضيء لهذا الإنسان؛ لتصل حاضره بماضيه، وستبقى النفحة الربانية التي تشرق بها النفس وتعمر القلب، وستبقى الوثيقة الوحيدة الصادقة الخالدة التي يطمئن الإنسان لمصداقيتها، وستبقى النمط السويّ، الذي إن ترسمناه حقاً فَسيقينا سلبيات التشويش والتهويش والتشويه.

تلك بعض الحقائق عن القصة القرآنية؛ من شأنها أن تبعث في النفس الشوق للتفصيل، وان تجعل النفس تتشوق للوقوف مع الجزئيات والأحداث، ونرجو أن تنعم نفوسنا- ونحن نعيش مع القصة القرآنية- بمعرفة هذه الحقائق وغيرها، إلا أن الموضوع الذي نود أن نخصه بالعناية والتركيز، هو موضوع التكرار؛ التكرار في القصص القرآني، وقبل ذلك سنتحدث عن بعض الشبهات التي أثيرت حول القصة القرآنية.

= انظر« القصص القرآن رسالة مقدمة من عبده إبراهيم محمد بلبول معيد بقسم التفسير كلية أصول الدين جامعة الأزهر لنيل درجة الدكتوراة في التفسير ص١٣١-١٤٦.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

شبهات حول القصة القرآنية

كان من المتوقع، بل من الواجب وقد اتصل الشرق بالغرب أن يفيد المسلمون من ذلك التقدم العلمي الذي كان للغرب فيه قصب السبق، وكنا نرجو أن تنقل هذه التقنية العلمية حتى يفيد منها المسلمون ولكن كان الأمر على العكس من ذلك حيث وجدنا أولئك المثقفين الذين هيأت لهم ظروفهم أن يتصلوا بالغرب وقضوا فيه حقبة من أعمارهم، رجعوا حربا على هذا الدين وحضارة هذه الأمة، فوجدنا حملة مسعورة في النصف الأول من هذا القرن. وهذه الحملة المسعورة لم تكن لتقصر على زاوية واحدة من زوايا تلك الحضارة، وإنما جاءت لتشمل التاريخ والتشريع بل اللغة كذلك. . . ثم تعدت ذلك كله فتحدّت مشاعر الأمة وعواطفها لتنال من هذا القران الكريم والسنة المطهرة وقدسيتهما.

وكانت في ذلك كله حاكية مقلدة لا تصدر عن أساس من المنهجية والبحث العلمي اللذين تدعيهما هذه الفئة على الرغم من أنها لبست ـ خداعا ـ ثوب الوطنية ورفعت زورا شعار التحرير، إلا أنها كانت أشد فتكا وأكثر ضررا وأنكى إيذاءً من المستعمر الذي أرضعهم لبان حقده وكفره وفجوره.

والذي يتصل بموضوعنا هو ما أثاروه حول القصة القرانية، وكلهم يغرفون من مستنقع واحد، ويظهر أن القصة القرانية إنما كانت الهدف؛ لأنها الموضوع الذي يستطيعون أن يتسربوا من خلاله إلى الموضوعات القرانية الأخرى، **هذا أولاً**.

وأما ثانياً: فلأنهم ظنوا أن التمويه في قضية القصة قد يسهل عليهم أكثر من غيره من بقية الموضوعات.

وأما ثالثاً: فقد رأوا أن هناك عوامل مشتركة بين القصة القرآنية والقصة الحديثة؛ ومن هنا يمكنهم التخليط، كما يمكنهم أن يدسوا سمومهم وهم يتظاهرون بتطبيق قواعد القصة الحديثة على القصة القرآنية بحسن نية دون أن يثير عليهم ذلك أي عاصفة من قبل المسلمين المؤمنين بكتاب الله.

ونستدل لما نقول بأنهم نفثوا سمومهم وكفرهم، ومع ذلك فهم يعلنون مدعين أن هذا الذي قالوه لا يتنافى مع إعجاز القرآن، بل هو يصدقه ويؤكده، ويذكرني أولئك بقول النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام وهو يبين لنا المداخل التي يمكن أن يدخل منها أعداء هذا الدين دون أن يحدثوا ضجة أو يثيروا شبهة، وإنما يدخلون من مداخل مقبولة غير مستنكره. يحدثنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام محذرا «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا»[1] وهذه أسئلة معقولة في ظاهرها؛ لأن الإجابة عليها إجابة بدهية، فالله هو الخالق، ولكن الشيطان لن يكتفي بهذا، وهذا ليس بالطبع هو الذي يريده وإنما يسترسل في تساؤلاته بعد ذلك ليصل إلى غايته فيقول «من خلق الله»، وفي حديث النبي الكريم ﷺ أعظم الحكمة وهو درس يريدنا الرسول الكريم أن نعيه؛ فإن شياطين الإنس أقدر على التشكيك من شياطين الجن، ولهذا قدموا في الآية الكريمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ويقيننا أن المسلمين حري بهم أن يقفوا عند هذا الحديث العظيم الفوائد، العميق في هدفه وغايته، وأولئك القوم يسلكون ذلك النهج، فهم يأتون باسم العلم تارة، والأدب تارة، والغيرة تارة ليقرروا ما في نفوسهم من شبهات معلنين أن ذلك دفاع عن هذا القرآن أمام هذه النهضة العلمية والأدبية العارمة، فإذا تم لهم التشكيك في قصص القرآن، وأنى لهم ذلك انتقلوا إلى موضوع آخر وليكن موضوع الصلاة أو الصيام أو أمراً يتعلق بالمعاملات، ثم يصلون إلى قضية البعث واليوم الآخر، ولقد كان أبو بكر

---

(١) أخرجه البخاري في باب بدء الخلق.

-رضي الله عنه- ذا حكمة وحزم حينما لم يفرق بين من امتنع عن الزكاة مع رضاه بجميع قواعد الإسلام، وبين الذين ارتدوا عن الإسلام بكل قواعده وعقائده، رأينا من أولئك من أنكر بعض ما أخبر عنه القرآن كقصة إبراهيم وإسماعيل مدعيا أن هذه القصة إنما نسجت قبل نزول القرآن لتوثيق العرى بين العرب واليهود الذين يعيشوا في الجزيرة. ذهب إلى هذا القول الدكتور طه حسين، وقد انبرى العلماء ـ جزاهم الله خيراً ـ فردوا عليه مقالته رداً علميا مما جعله يعلن تراجعه وتوبته. والتي نرجو أن تكون توبة صادقة.

وهذا آخر يعلن أن القصص القراني، ومعجزات الأنبياء من المتشابه، وهو محمد فريد وجدي[١] وقد رد عليه صاحب المنار ـ رحمه الله وجزاه خيرا.

ثم جاء أمين الخولي، وقد تخرج الشيخ أمين الخولي في مدرسة القضاء الشرعي، وتسنى له أن يدرس اللغة الإيطالية ثم عين مدرسا في كلية الآداب، وكان له رأي يتلخص في وجوب تجديد هذه الدراسات الأدبية والذي يهمنا نظرته إلى دراسة التفسير، فالقرآن كتاب العربية الأكبر كما يقول، ومن هنا فالواجب أن يُنظر إليه أولا وقبل كل شيء من هذه الناحية.

لذا فهو لا يرضى أن يكون المقصد الأول للقرآن بيان الهداية في العقيدة والتشريع والأخلاق، وإنما واجب العرب مسلمهم وغير مسلمهم أن يدرسوا القران أولا من حيث هو فن العربية الأقدس.

لم تكن القصة القرآنية بدعا من موضوعات القرآن، وهل هناك كتاب في الدنيا تحطمت على صخرته الصلبة الشوائب والشبهات والفرى والأباطيل غير هذا القرآن؟ فلقد كان نصيب القصة القرآنية لا يقلّ عن غيرها من موضوعات القرآن الكريم بل كان لها النصيب الأوفر من خصوم الإسلام فلقد وُجّهت السهام من كلّ صوب من

---

(١) وقد رجع عن هذا القول فيما بعد.

المستشرقين والمبشرين للقصة القرآنية فتارة يزعمون أنها خليط غير متجانس من القصص الشعبية وأخبار أهل الكتاب وأنباء الأمم التي كانت معروفة في عهد النبي ﷺ وحيناً يزعمون أن النبي تلقفها من اليهود والنصارى وحيناً يقولون إنّ النبي اختلقها ويرمونه بالجهل في التاريخ وجاء مع هؤلاء وأولئك صاحب (الفن القصصي في القرآن) وهي رسالة أعدت لنيل الدكتوراة في أواخر الأربعينيّات. يزعم الكاتب أن القصص القرآني لا ينبغي أن نفهمه على أنه حقائق ثابتة قصد القرآن إلى تقريرها وإنما هي نمط من أنماط الخيال الخصب والفن المدبجّ لما تعارف عليه الناس في عصر نزول القرآن أو جاءت تحكي ما عرفه السابقون، وهذا هو الأساس الذي بنيت عليه رسالته مع وجود تفصيلات وآراء كثيرة فيها تحتاج إلى بسط ومناقشة، وسأبدأ ببسطها أولاً تمهيداً لمناقشتها.

يقول الكاتب إن القصة القرآنية هي عمل أدبي متخيّل يسوق حوادث وقعت إما لبطل لا وجود له أو لبطل له وجود، ولكن الحوادث التي ألمّت به لم تقع أصلاً، أو أنها وقعت ولكنها نُظمت على أساس فني، إذ قُدِّم بعضها وأُخّر بعضها أو حُذف بعضها وأُضيف إلى الباقي بعض آخر، أو بولغ في تصويرها إلى حدّ يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون حقيقة إلى ما يجعلها في عداد الأشخاص الخيالية، ويرى أن الأقدمين أخطأوا في عدّ القصص القرآني تاريخاً، فمنهج القرآن ـ في رأيه ـ هو معالجة القصة معالجة أدبية، ويعني بذلك خلق الصور والابتكار، ولذلك لا مانع من اختلاف تصوّر الشخصية الواحدة في القرآن.

ويفرّع على هذا قوله بوجود أساطير في القرآن زاعماً أنّ القرآن نفسه لم يَنْفِ عن نفسه أنْ تكون فيه أساطير، وإنما الذي أنكره على العرب أنهم لم يؤمنوا أنه من عندالله، فإذا قال القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٥] فليس معنى هذا أنه أنكر وجود الأساطير، ولكن الذي أنكره القرآن أن يكون النبي هو الذي اكتتبها، فكأن القرآن يقول هي أساطير ولكن ليست من عند محمد،

وإنما هي أساطير من عند الله، ويستدلّ لذلك بما جاء بعد الآية الكريمة ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فيقول إنّ هذا القول لا يفهم منه نفي الأساطير، بل كلُّ الذي يفهم منه أنّ الله هو الذي أنزلها فهي أساطير منزلة.

إنّ الكاتب يسمّي القصّة في القرآن أسطورة، حيث يقول إنّ الأسطورة في مفهوم القرآن هي ما سطره الأقدمون من أخبارهم وأقاصيصهم مستدلاً ببيان بعض المفسرين لمعنى الأسطورة بانها ما سطره الأوّلون وكتبوه من أخبار الأمم.

ويقّرر الكاتب أن النبي ﷺ لم يلتزم الصدق التاريخي في القصة، وهذا ما قرره المستشرقون ولكنهم قالوا إنه كان يجهل التاريخ فأخذ مقالتهم ولكن وضعها في قالب آخر. قال بعض المستشرقين بوجود قصص في القرآن غير موافق للواقع التاريخي فاتهموا القرآن بمخالفة التاريخ، ودليل ذلك عندهم اختلاف بعض أحداث قصص القرآن عما جاء في التوراة والإنجيل، كما اتهموا القرآن بافتراء الكذب والتزوير والتدليس، وعلّلوا مخالفة القرآن للواقع التاريخي بأكثر من سبب أهمها جهل محمد بالتاريخ حيث اخذ محمد التاريخ عن الجهلة من العبيد والأرقّاء ممّن كانوا يخدمون قريشا، وهؤلاء العبيد كانوا فقراء لا يستطيعون الحصول على نسخ التوارة والإنجيل، فكانت معارفهم مغيرة مبدلة، فأخذها محمد عنهم كما هي، وأوردها بخطئها في قصص القرآن، كما قالوا إن أغراض النبي الخاصة والظروف التي كانت تحيط به وبالدعوة الإسلامية كانت تدفعه إلى أن ينال بعض القصص بالتغيير والتبديل والحذف والإضافة لتساير الدعوة الإسلامية، أي إن محمدا كان يزوّر القصص ويزيفه، بل كان يختلق من الحوادث مالم يقع ويصوره على أنه الواقع التاريخي، فهو عندهم يفتري الكذب، فأراد الكاتب ردّ دعواهم فوقع في أكثر مما وقعوا فيه حيث سلّم بأقوالهم وزاد عليها وصف النبي ﷺ بالتدليس فيما سمّاه بالواقع النفسي وهو مجاراة القرآن لما هو مشهور متداول وليس بلازم أن يكون هذا الواقع النفسي أو المشهور متفقاً مع الحق والواقع فهو يريد اجتذاب الناس إلى الإسلام ولو بالباطل.

لقد حاول الكاتب رد دعواهم فوافقهم في عدم مطابقة القصص القرآني للتاريخ غير أنه علل ذلك بأن القصة القرآنية هي عمل الفنان الذي تلزمه الحريّة الفنّيـة والذي لا يعنيه الواقع التاريخي ولا الصدق العقلي، وإنما ينتج عمله ويبرز صوره، حسب ملكته وموهبته الفنية وقدرته على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل وهذا القول يشي بأنه يوافق المستشرقين في قولهم إنّ القرآن من صنع الرسول ﷺ بدليل قول الكاتب في موضع آخر إنّ القصص في القرآن تَدَرّجَ كما يتدرج أدبُ كلّ أديب، واعتقاده أنّ للقرآن مصادر هي التوراة والإنجيل، والأقاصيص والحكايات التي كانت متداولة في جزيرة العرب، وخليط من عناصر فارسية وإسرائيلية، فهذه المصادر تمثل العقلية العربية إبان ظهور القرآن، وليس بلازم أن يكون ما يقصه القرآن عنها صدقاً وحقاً على ما تقدم من كلامه.

ومن العجيب أن يدعي الكاتب وأضرابه أنهم ذهبوا إلى ماذهبوا إليه حتى يخلصوا القرآن مما فيه من تناقض في قصصه، ويضربون مثلا لذلك ما جاء في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أن البشارة كانت له تارة، وكانت لامرأته أخرى ويعدّون ذلك من قبيل التناقض.

لقد طعن المبشرون في صدق قصص القرآن وادّعوا أنها مخالفة للتاريخ القديم من جهه، ولما في التوراة والإنجيل من جهة أخرى، والخطأ الذي تردّى فيه خصوم القرآن أنهم وجدوا ما يوجّه إلى التوراة والإنجيل من نقد يتصل بالمتن والسند جميعا، نقد يتبين به ما فيهما من خلط وتناقض ووضع واعترافٍ من أصحابهما بذلك، فأرادوا أن يسلكوا بالنسبة للقرآن المسلك ذاته خطأ وزوراً، وكان من أدلتهم وقوع التناقض في أحداث قصصه، وعدم اهتمامه بالترتيب الزمني للأحداث، وأن القرآن يسند الأحداث لأناس بأعيانهم في مواطن ثم يسند نفس الأحداث لغير هؤلاء الأشخاص في موطن آخر، من ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩]

وفي سورة الشعراء جاء على لسان فرعون: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء: ٣٤] وكذلك ما جاء عن البشارة لإبراهيم أو لامرأته، كما أن القرآن ينطق الشخص الواحد في الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرر القصة، ومن ذلك تصويره لموقف (الإله) من موسى حين رؤيته النار، فقد نودي في سورة النمل بقوله ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل: ٨] وفي سورة القصص ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠] وفي سورة طه ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢].

ومما يدعيه المعارضون بدعوى التناقض أن فرعون عابد في قوله تعالى على لسان قومه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ومعبود في قوله ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨].

كما يتهمون القرآن بالخلط ومن ذلك عندهم أنه يقرر أن مريم أخت هارون أخي موسى مع بُعْد ما بين موسى ومريم أم المسيح.

كما يرى هؤلاء أن القرآن يفتري الكذب، ومالا أصل له من التاريخ أو من الأساطير، بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد، فمحمد كان يخطىء في الحقائق التاريخية ويختلق من الحوادث مالم يقع ويصوره على أنه الواقع التاريخي، وكان يفعل ذلك للإجابة على ما يوجهه إليه المشركون من أسئلة، فتأتي إجاباته تصويراً نفسياً عن أحداث ماضية مغرقة في القدم سواء أكان ذلك متفقا مع الحق أم مخالفا له، ومن الأدلة على التناقض في القرآن عند الكاتب أن القرآن يقرر ان الجنّ تعلم بعض الشيء ثم لما تقدم الزمن قرر القرآن أنهم لا يعلمون شيئا، ثم يقول الكاتب إن المفسرين يخطئون حين يأخذون الأمر مأخذ الجد.

وقد نظر الكاتب في قصص القرآن وراح يصدر عليها أحكامه في ضوء نظريته الفنية وفي ضوء اتّهامات المستشرقين فعمد إلى قصة موسى عليه السلام مثلاً في سورة الكهف ونفى عنها أن تكون قد اعتمدت على أصل من واقع الحياة، ووصفها بأنها ابتدعت على غير أساس من التاريخ مُظْهِراً عدم الجزم بذلك إذ صدر حكمه بحرف «لعل».

ويتجاوز الكاتب الحدّ حين يتناسي عصمة الأنبياء فيقرر أنهم أبطال ولدوا في البيئة وتأدّبوا بآدابها وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدوهم في كل ما يقال ويفعل وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا بما تدين به من رأي وعبدوا ما يُعبد من إله.

أمّا أخلاق الامم الضالة فيدافع الكاتب عنها قائلا: إنّ تصوير أخلاق الأمم كبني إسرائيل ليس واقعا بالضرورة، بل يصح أن يكون تصويراً فنيّاً يلاحظ الواقع النفسيّ أكثر من صدق القضايا.

ويهوّن الكاتب وأضرابه من شأن المعجزات وعلاقتها بإثبات النبوة والرسالة، وبما أن معجزة محمد ﷺ هي القرآن، فقد نسبوه إليه ليجعلوه كلاماً بشرياً قابلاً للنقد، بل راحوا يزيّفون أقوال العلماء المسلمين كالفخر الرازي ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا بالتقول والبتر والتحريف وتحميلها فوق ما تحتمل ليصلوا الى ما يدعون.

تلكم خلاصة لأهم ما جاء في رسالة الفن القصصي لمحمد أحمد خلف الله التي كان مشرفا عليها الشيخ أمين الخولي رحمه الله، وسأحاول أن أجمل في الرد؛ ذلك لأنّ كثيراً من هذه الشبهات ذكرت الردّ عليها في أثناء حديثي عن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين شرفت بالحديث عنهم في هذا الكتاب وبعضها فصَّلتُ الحديث في الرد عليه في كتابي «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية عرض ونقض».

وبادي بدء أقول إنّ ما ذهب إليه صاحب الفن القصصي في القرآن كان أكثر نكارة وإيغالا مما ذهب اليه المبشرون والمستشرقون، والذي يزيد النفس ألما أن يكون المشرف على الرسالة أحد علماء المسلمين الذي يرى أن القرآن كتاب العربية الأكبر.

إنّ ما ذهبا إليه ـ أعني الباحث والمشرف ـ يتعارض أوّلاً وقبل كلّ شيء مع المسلمات التي لا يختلف فيها اثنان مسلمان وأُولاها أنّ هذا القرآن الكريم صدقٌ كله وهذا ما أكّدته آيات كثيرة، وهذه أوّل آية في سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] ومثله في سورة يونس ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] كذلك آية الإسراء ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وهذه الآية الكريمة واضحة المعنى حيث ذُكر فيها الحق مرتين: أما أولاً ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فمعناه أن هذا القرآن نزل على قلب النبي ﷺ من عند الله فليس لأحد من الخلق دخل فيه فهو تنزيل من حكيم حميد. وأما ثانياً ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ فمعناه أنّ هذا القرآن نزل متلبساً بالحقّ فهو حقٌّ كلُّه لا فرق في ذلك بين قصصه وحِكَمه وأحكامه ووعده ووعيده.

لقد حدثنا القرآن عما قاله الذين نزل القرآن فيهم ردّاً على القضية الأولى وهي أنّ القرآن الكريم أنزله الله «وبالحق أنزلناه» في مثل قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وقال ردّاً على القضية الثانية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وقال رداً على القضيتين كلتيهما ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥-٦].

ولقد بلغت الجرأة بكاتب الرسالة ومنسقها (المشرف) الادّعاء بانّ في القرآن أساطير وبأنّ القرآن لم يَنْفِ ذلك عن نفسه، ولما كان مثل هذه الدّعاوى غريباً كلّ الغرابة لا يليق من منصف فضلاً على أن يكون مسلماً فضلاً على أن يكون من علماء المسلمين حاولا أن يلصقا هذه الأقوال بأئمة هم منها براء لكنهم للأسف حرفوا الكلم عن مواضعه فزعموا ان الإمام الفخر الرازي من الأقدمين وأن الإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا من المحدثين رحمهم الله جميعا يرون هذا الرأي، ويعلم الله

أنها فرية على أئمتنا مفسري القرآن الكريم، وهذا يذكرني بصنيع أحد المستشرقين حيث نسب إلى الإمام البيضاوي رحمه الله فرية الإمام منها براء ففي سورة النور جاء قوله سبحانه ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١] ذكر الإمام البيضاوي أقوال المفسرين ومنها أنّ الآية نزلت في الجهاد، وقال تعليقاً على هذا القول إنه مُقْحَمٌ هنا وليس هذا محله، يعني أنّ تفسير الآية بأنها في الجهاد لا مناسبة له، لأنه لا ذكر للجهاد في سياق الآيات، ولكن هذا المستشرق تناسى هذا القول وتجاهله ولا أقول جهله فقال إن البيضاوي يرى أن هذه الجملة مقحمة هنا وأنّ محلّها ليس سورة النور، بل سورة أخرى هي سورة الفتح. هكذا بكل تعمد وإصرار يفتري على البيضاوي، وكلام البيضاوي واضح كل الوضوح، فهو يرى أن تفسير الآية بالجهاد مقحم في الآية، وليست الآية نفسها، لكن إذا صدر هذا عن المستشرقين فكيف يصدر عن أحد رجال العلم؟ أوعن عالم مسلم؟

إن الذي يتدبر آي القرآن الكريم يدرك بلا عناء أن قضية الأساطير إنما هي اختلاق من الكافرين وأن القرآن الكريم نفاها كل النفي وردّها كل الردّ، ويكفي أنه ما نسبها إلا للجاحدين الكافرين، ويمكنك أيها القارىء أن ترجع إلى آي القرآن الكريم لتتدبر موقع هذه الجملة.

وهناك فرية لا تقل بعداً عن الحقيقة من هذه، وهي أنّ القصص القرآني إنما تعنيه اللمسات الفنية فحسب أما الصدق الواقعي والتاريخي فغير مقصود، ولذا فلقد تدرج القصص القراني كما يتدرج أدب الأديب في كل عمل فني، وأيضا إن فيه تناقضا ثم إن فيه قصصا لا أصل له ألبتة وإنه مخالف بعد هذا كله لكثير مما جاء في التوراة.

ولا ندري كيف نتعامل مع هذه الأقوال وأصحابها: أنعدهم مسلمين فنكتفي أن نقول لهم إن هذه الأقوال تتنافى مع قدسية القرآن الكريم وعصمة النبي عليه وآله الصلاة والسلام أم نرد عليهم بما نرد به على المستشرقين والمبشرين؟.

أمّا دعوى التناقض فعجيبة غريبة، إن من يعرف أولى مسلمات المنطق لا يصدر عنه هذا القول، فالمعلوم أن التناقض اختلاف القضيتين كمّاً وكيفاً، والنقيضان كما يقولون لا يجتمعان وذلك مثل السلب والإيجاب كأن يقول أحدهم (جاء أخوك) ويقول آخر (لم يجيء أخوك) أمّا ما سميّاه تناقضا فهو مصطلح خاصّ بهما، فإذا كانت البشارة حينا لإبراهيم عليه السلام وحينا آخر لزوجه، وإذا نسب القول إلى فرعون حينا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وإلى الملأ حيناً ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ فالعقلاء مجمعون على أن هذا ليس من التناقض لأنه يمكن الجمع بين هذه الأقوال، وأقول: إنّ هذا هو لبّ الإعجاز، ذلك أن القصة القرآنية تتلاءم بكل اتساق مع موضوع السورة التي ذكرت فيها، فكون البشارة لإبراهيم كما جاء في سورة الحجر، وكونها لامراته كما جاء في سورة الذاريات أمر منسجم مع موضوع كل من السورتين، وقول فرعون في سورة الشعراء متلائم مع موضوعها تماما، لأن سورة الشعراء هي أكثر السور القرآنية التي أبرزت لنا المحاورة بين سيدنا موسى عليه السلام وبين فرعون.

أما التدرج المزعوم فنقول في الرد عليه إن القصص القرآني منذ أول العهد المكي إلى آخر ما نزل في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - كان نسيج وحده نسقاً واحداً لا فرق بين الأقصوصة والقصة المتوسطة أو الطويلة، وإن هذا القول يذكرك أيها القارىء معي بما ادعي على الأسلوب القرآني من فرق بين مكيّه ومدنيِّهِ وبأن الأسلوب المكي كانت تظهر فيه القوة والجزالة أكثر من غيره، فلا فرق بين هذا القول وبين ذاك.

وأما الادّعاء بأن هناك قصصاً لا أصل له كقصة موسى مع العبد الصالح فأمر يحتاج إلى بينة.

والدعاوى إن لم تُقيموا عليها بيّناتٍ أبناؤُها أَدعياءُ

وكيف يجوز لأحد أن ينكر ما شاء ويثبت ماشاء دون دليل؟ ولو فتح هذا الباب على مصراعيه لفسدت الأرض واتخذ كل واحد الهوى مركباً والغوايةَ سلّماً.

ولعل الحجة عند صاحب هذا القول أن هذه لم تذكر في التوارة، ومتى كانت التوارة هي الحكم الذي يتحاكم إليه المسلمون أو غيرهم؟

وما ذكرته لك من قبل أيها القارىء يكفي للردّ على هذا القول.

لقد أحدثت قضية هذا الكتاب (الفن القصصي في القرآن) ضجّة كبيرة في وقتها بين العلماء والأدباء وعلى أعمدة الصحافة اليومية والمجلاّت الأدبية وبخاصة مجلة الرسالة التي كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله ومجلة الأزهر اللتين أسهم كثير من كُتّابهما في مناقشة هذه القضية والرد عليها لا من علماء وأدباء مصر فحسب، بل من العالم الإسلامي والعربي، ويحضرني من أولئك الأستاذ علي الطنطاوي وممن ردّوا ردّاً مفصَّلاً مشكورين الأستاذ أحمد الشايب رحمه الله وكيل كلية الآداب في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) والشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق، ومن الذين ردّوا هذه الرسالة الأستاذ أحمد أمين رحمهم الله جميعا.

وأختم كلمتي هذه بفتوى علماء الأزهر بشأن كاتب الرسالة والمشرف عليها حيث أجمعوا على تكفيرهما، وبنوا حكمهم على ما يلي:

١- قوله إن الحرية الفنية تقتضي عدم القيد بالصدق العقلي ولا بتصوير الحقائق تصويراً صادقاً، بل قد يتقوّل القرآن ما لم يحصل ولن يحصل.

٢- قوله إن تاريخ الأنبياء الوارد في القرآن لا ينبغي أن يؤخذ على أنه حقائق.

٣- قوله إن القصص القرآني قد يكون لتصوير واقع نفسي لا لحوادث حصلت، وإنه حرب أعصاب لا أقلّ ولا أكثر.

٤- قوله: إن القرآن يشتمل على الأساطير وما فيها من حوادث ملفقة أو مكذوبة.

٥- قوله: إن مصادر القصص القرآني هي كتب الأديان الاخرى والحكايات الشعبية والأفراد العاديّون من الناس والخلط والمزج بين عناصر القصص الشائعة في عدة أمم.

إن لوثة المادية، والشعور بالضعف، وعدم رسوخ العقيدة، وضعف الإيمان، والثقة بأعداء هذا الدين، وشهوة الظهور كانت تلك الأسباب المباشرة التي دعت أولئك فحملتهم على هذا الانحراف الخطير، ولا زلنا نسمع منهم حتى اليوم ما يتنافى مع الإسلام ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

القصة القرآنية وشبهة التكرار

الناظرون في كتاب الله تعالى من أجل تلاوته وتدبره، أو بهدف التشكيك والطعن فيه يجدون لأول وهلة ان هناك قضايا ذكرت أكثر من مرة، وفي أكثر من موضع كالقصص وموضوعات العقيدة وبعض الجمل والآيات، وسَمَّوا ذلك تكراراً.

ومع إجماعهم على هذه التسمية، اختلفت فيه مذاهبهم وتعددت مشاربهم، وتلك طبيعة في أَحوال الناس، بل هي سنة من سنن الله في هذا المجتمع البشري؛ فالكثرة الكثيرة من المتدبرين رأوا أن هذا التكرار سحرُ بيان، وتثبيت بنيان، فعدُّوه بلاغة وإعجازاً ووجدوا فيه منهجاً قويماً، وهدفاً عظيماً من مناهج التربية وأهدافها، وحاولوا أن يبرهنوا على ذلك ببراهين مما عرفته العرب في كلامها شعراً ونثراً، وأن يقيموا عليه الأدلة مما قرره علماء النفس وعلماء الاجتماع واساطين التربية، وذوو الاختصاص في فن الاعلام والدعاية.

وفئة قليلة عميت أو تعامت هيمن عليها الحقد فعدَّت هذا مثلبة ومطعناً في كتاب الله، وهؤلاء لم يظهروا إلا بعد أن فسد الذوق البياني، وضعفت السليقة العربية؛ لذا رأينا أن هذه القضية لم تظهر مبكرة، فلم نسمع شيئاً عنها حتى من أعداء القرآن الذين كانوا ذوي سلائق سليمة في اللغة، بل على العكس من ذلك وجدنا ان هذا القرآن يملك عليهم كل شيء وان لم يؤمنوا به، ولكن هذه القضية -أعني الغمز في أسلوب القصة القرآنية- ظهرت فيما بعد حينما فسد المزاج اللغوي، واجتمع الطاعنون على دين الله من كلِّ صوب، وتألبوا حسدا على دين الله؛ فبدأ الحديث عن شبهة التكرار. هذا وقد شمَّر العلماء عن سواعد الجدِّ ليردوا إلى النحور الظالمة سهام الحقد؛ فبينوا ان اللفظ حينما يكرر في الحس فإنما يقرر في النفس.

ما ذكره العلماء الأقدمون حول التكرار:

عرض المفسرون والكاتبون في علوم القرآن والدراسات القرآنية لهٰذه القضية فلم يألوا جهداً في دراستها، وإنّ من أقدم الذين عرضوا لقضية التكرار عرضاً موجزاً مركزاً إمام أهل السنة اللغوي ابن قتيبة:

قال رحمه الله: «وأما تكرار الأنباء والقصص، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة بفرض بعد فرض، تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سِنَةِ الغَفْلَةِ وشَحْذاً لقلوبهم بتجدد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ؛ استعباداً لهم، واختياراً لبصائرهم يقول الله عز وجل: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١][١].

ثم يقول: «وكانت وفود العرب تردُ على رسول الله ﷺ للإسلام فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم. وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم؛ فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هٰذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

وليست القصص كالفروض؛ لأن كتب رسول الله ﷺ كانت تنفذ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة، وعددها وأوقاتها، والزكاة وسنتها، وصوم شهر رمضان وحجِّ البيت، وهذا ما لا تعرف كيفيته من الكتاب، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين، فلما نشره الله عزَّ وجل في كل قطر، وبثَّه في آفاق الأرض، وعلّم الأكابر الأصاغر، وجمع القرآن

---

(١) تأويل مشكل القرآن ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ص١٨٠.

بين الدفتين: زال هذا المعنى، واجتمعت الأنباء في كل مصر، وعند كل قوم»[1].

ثم جاء إمام آخر من أئمة أهل السنة اللغوي المفسر المحدِّث، أبو سليمان الخطَّابي (٣١٩هـ-٣٨٨) في رسالته «بيان إعجاز القرآن» فبعد أن بيَّن وجوه إعجاز القرآن -كما يراها- كرَّ على شبهات المعارضين والمعاندين ومنها شبهة التكرار وهو ما يعنينا هنا.

فقال رحمه الله: «وأما ما عابوه من التكرار؛ فإن تكرار الكلام على ضربين: احدهما مذموم، وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول؛ لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول، ولغواً، وليس في القرآن شيء من هذا النوع.

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة؛ فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه مثل تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسُن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها. وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على الغمل: عجل عجل، ارم ارم، كما يكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب: مهم مهم مهم ونحوها من الأمور وكقول الشاعر:

هـــلاَّ سألـــتَ جُمـــوعَ كنـــ ـــــدَةَ يَـــوْمَ وَلَّـــوا أيـــن أينـــا

وقول الآخر:

يـــالِ بكـــر أنْشِـــروا لـــي كُلَيْبـــاً يـــالِ بكْـــرٍ أيْـــنَ أيْـــنَ الفَـــرارُ

وقد أخبر الله عز وجل بالسبب الذي من أجله كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن فقال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣][2].

---

(١) ص١٨١، ١٨٢.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، رسالة الخطابي بيان إعجاز القرآن ص: ٥٢، ٥٣. =

مما سبق ندرك أن أبا سليمان -رحمه الله- يحدد شرطين اثنين لكي يكون التكرار مذموماً:

أحدهما: أن لا يكون هناك حاجة إلى التكرار.

وثانيهما: أن لا يكون في التكرار زيادة، أما إذا كان في التكرار زيادة على ما ذكر أولاً، وكان في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها؛ فإن ذلك تكرار محمود -كما يقول الخطابي رحمه الله-، ونحن إذ نوافق الشيخ من جهة، لكننا نخالفه من جهة أخرى، وسنرجىء مناقشته بعد ان نستمع لعالم آخر هو الإمام الزركشي -رحمه الله- فلقد أشار في كتابه (البرهان) إلى التكرار في معاني القرآن بعامة، وإلى التكرار في القصة بخاصة، فبعد أن بيّن أن التكرار أسلوب من أساليب العرب، وأن الكلام حينما يكرر فإنه في النفوس يقرر، وعاب على الذين ينكرونه وعرّفه بقوله: «وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنىً، خشية تناسي الأول لطول العهد به؛ فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١١-١٥].

فأعاد قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ [الزمر: ١٤] بعد قوله ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١] لا لتقرير الأول، بل لغرض آخر، لأن معنى الأول: الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والإخلاص له فيها، ومعنى الثاني: أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص... واعلم أنه إنّما يحسُن سؤال الحكمة عن التكرار اذا خرج عن الأصل، اما إذا وافق الأصل فلا؛ ولهذا لا يتجه سؤالهم: لِمَ كرر «إياك» في قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥][١].

---

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ٣/ ١٠، ١١.

فوائد تكرار القصة كما يراها الزركشي:

وبعد هذا التعريف ذكر فوائد التكرار وفي مقدمتها التأكيد، ولكنه قال بعد ذلك إن التكرار أبلغ من التأكيد، وبعد ان عدَّد فوائد التكرار كما يراها عرض للتكرار في القصص القرآني وهو ما نريده هنا. ومع أن ما ذكره قد يكون بعضه متداخلاً في بعض وقد تكون بعض الأسباب التي ذكرها أكثر وجاهة من بعضها الآخر، إلا أن فيما ذكره فوائد يجمل بالقارىء أن يقف عليها، لذا رأينا أن ننقل كلامه كما جاء.

قال رحمه الله: «ومنه تكرار القصص في القرآن، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء؛ **قال بعضهم**: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه وقال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمس وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية. اهـ. وانما كرر لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:

أحدها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام، وذكرها في موضع آخر ثعباناً، ففائدته ان ليس كل حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم في آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: أن الرجل كان يسمع من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به مهاجرياً، فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيها إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين، وهم الحاضرون وعبَّر عن هذا ابن الجوزي وغيره.

الثالثة: تسليته لقلب النبي ﷺ بما اتفق للانبياء مثله مع أممهم قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

الرابعة: ان إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة، لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: انَّ الدواعي لا تتوافر على نقلها كتوافرها على نقل الأحكام، فلذا كررت القصة دون الأحكام.

السادسة: ان الله تبارك وتعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد ﷺ ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأيِّ نظم جاء وبأي عبارة عبروا قال ابن فارس: وهذا هو الصحيح.

السابعة: انه لما سخر العرب بالقرآن، قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال في موضع آخر: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود: ١٣] فلو ذكر قصة آدم مثلاً في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي بما قال الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، «ايتونا أنتم بسورة من مثله»؛ فأنزلها سبحانه في تعداد السور دفعاً لحجتهم من كل وجه.

الثامنة: ان القصة الواحدة من هذه القصص؛ كقصة موسى مع فرعون، -وإن ظُنَّ أنها لا تغاير الأخرى- فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ؛ فإن كل واحدة لا بدَّ وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد منه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها؛ فكأن الله تعالى فرّق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متكررة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع، كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصَّة، فاجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة:

منها: ان التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة، ولا أحدث مللاً، فباين بذلك كلام المخلوقين.

ومنها: انه ألبسها زيادة ونقصاناً، وتقديماً وتأخيراً؛ ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات.

ومنها: أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ- لما فيه من التغيير- ميلاً إلى سماعها، لما جبلت عليه النفوس من حبِّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في اخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد، وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرَّفهم الله سبحانه ان الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع على كلامه عدد»[1].

ومما سبق نجد أن الخطابي والزركشي متفقان على أن ما ذكر في كتاب الله تعالى أكثر من مرة كان في كل مرة زيادة معنى، ومع ذلك سمياه تكراراً، ونعجب من الزركشي إذ عرَّف التكرار؛ بأنه إعادة اللفظ أو مرادفه، وهو في موضع آخر من كتابه، ينكر الترادف في كتاب الله تعالى، ولكننا نعترف له بلمحة طيبة جيِّدة، وهي ان ما ذكر أكثر من مرة لتقرير معنى واحد هو الذي يسمى تكراراً، أما إذا كان لتقرير معنى آخر، فليس من التكرار في شيء، وكذلك قوله إنه يسأل عن حكمة التكرار لِمَ خرج عن الأصل؛ أي إذا صعب علينا ان ندرك الحكمة من ذكر اللفظ أكثر من مرة، أما مالم يخرج عن الأصل فلا يسأل فيه عن حكمة التكرار كقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ نحن إذن لسنا مع الخطابي في عدِّه من التكرار ما كان فيه زيادة معنى، ولسنا مع الزركشي في تعريفه التكرار بأنه إعادة اللفظ أو مرادفه.

فما هو التكرار الذي نعنيه؟

والتكرار -كما نراه- هو إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد، ولمعنى واحد، فإذا لم يتوافر هذان الشرطان، أي إذا لم يكن المعاد اللفظ نفسه، أو اذا ذكر اللفظ أكثر من مرة ولكن لكل موضع سياقه الخاص ومعناه الخاص؛ فإنَّ ذلك لا نسميه تكراراً أبداً. هذا هو التعريف الدقيق للتكرار كما يظهر لنا.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٣ ص٢٥-٢٨.

المحدثون والتكرار:

ولقد عرض بعض الكاتبين المحدثين لقضية التكرار، ومن هؤلاء الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابيه «إعجاز القرآن» و«القصص القرآني»، كما عرض لها الأستاذ محمد قطب في كتابه «دراسات قرآنية»، وكانت النتائج التي يمكن أن تُستفاد من هذه الدراسات أن التكرار قد يكون للتأكيد وما جاء منه في كتاب الله تعالى فإنّما قصد به التأثير في النفوس وبخاصة إذا كانت الموضوعات المكررة موضوعات مهمة؛ كالعقيدة التي أراد القرآن أن ترسخ في النفوس، وتثبت في أعماق القلوب، -وهذا الذي قرره الخطابي كما رأينا من قبل- ويذكر الأستاذ محمد قطب: ان ما في القرآن مما يظن أنه تكرار، إنما هو متشابه، ويمثله بثمار الجنة، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة من كتاب الله. أما الأستاذ الخطيب فلقد فصَّل فيما يخصُّ القصة القرآنية من التكرار مبيِّناً بعض الأمور التي توهم التكرار في القصص القرآني. وهنا كلام يستحق كاتبه التقدير والإجلال والدعاء بأن يجزيه الله خيراً عما قدم، ذٰلكم ما كتبه الأستاذ سيد قطب -رحمه الله-.

يقول سيد قطب -رحمه الله- «يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهٰذه المناسبات التي يُساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدَّى بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذٰلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني؛ لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى، ولٰكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار.

ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفا فيها، يقصد به إلى مجرد الفن -بمعنى التزويق الذي لا يتقيد بواقع- ولٰكن الحق الذي يلمسه كل من ينظر في هٰذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة مفتوح البصيرة، هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء، والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، وبالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولٰكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء.

وقصص الأنبياء في القرآن يمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل، ويعرض قصة الدعوة إلى الله، واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل، كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هٰذه النخبة المختارة من البشر، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهٰذا الفضل العظيم... وتتبع هٰذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضى ونوراً وشفافية، ويشعره بنفاسة هٰذا العنصر العزيز -عنصر الإيمان- وأصالته في الوجود. كذٰلك يكشف عن حقيقة التصور الإيماني ويميزه في الحسن من سائر التصورات الدخيلة... ومن ثم كان القصص شطراً كبيراً من كتاب الدعوة الكريم»[1].

رأينا في الموضوع:

ونود هنا أن نعرض لهذه القضية من الزاوية التي تهمنا في هذا البحث مستلهمين من القرآن الكريم ما يفتح به لنا ربنا، وهو الفتاح العليم.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٦٤).

وبادىء بدء؛ إننا لا ننكر على الذين ذهبوا الى القول بوجود التكرار في القرآن معللين هذا بأنه لا يخرج عن الأساليب التي عرفتها العربُ؛ وبأنه إنما يراد به التأثير على النفوس، حتى يقرر فيها ما يكرر، أقول: لا ننكر على أولئك؛ وليس معنى هذا أننا نتفق معهم فيما ذهبوا إليه، وإنما نؤثر أن نرجىء الحكم بعد أن نعرض لهذه القضية من جميع جوانبها فنقول وبالله التوفيق:

الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم مع كثرتها نجملها في هذه الأمور الرئيسة الثلاثة:

١- **الأحكام**: وتشمل ما اصطلح عليه فيما بعد بالعبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والحدود.

٢- **العقيدة**: وتشمل الألوهية، والرسالة، واليوم الآخر.

٣- وأما الموضوع الثالث فقصص الأنبياء عليهم السلام، وأخبار الأمم الماضية.

وقد أجمعوا على أن لا تكرار في آيات الأحكام، وإنما الذي يمكن أن يكون فيه تكرار، هما الموضوعان الأخيران آيات العقيدة والقصص. هذا من حيث الموضوع.

أما من حيث اللفظ فقد قالوا: إن هناك جملاً أو آيات ذكرت أكثر من مرة، مما يوجب القول بأنها مكررة، فالتكرار عند هٰؤلاء هو أن يذكر الموضوع، أو الجملة أو الآية أكثر من مرة، ولسنا معهم في هٰذا التعريف. والذي يهمنا هنا موضوع القصة، أما الموضوعان الآخران، وهما: آيات العقيدة، والتكرار في الألفاظ فقد تحدثت عنهما في بحث عنوانه «قضية التكرار في القرآن» ونرجو أن يخرج مع زيادات في كتاب قريبا إن شاء الله.

هل في القصص القرآني تكرار؟! ولماذا لم يعرض القصص مرة واحده؟!

لا نحب أن نتعجل الإجابة عن هذا السؤال، وإنما نرجئه حتى نلم بالموضوع من جميع الجهات، ولا بد أن نقرر هنا ما يلي:

١- لم تلتزم القصة القرآنية طريقاً واحداً من حيث الطولُ والقصرُ والإجمالُ والتفصيلُ، فهناك القصة المفصلة: كما في قصة موسى -عليه السلام- في سورة الأعراف، وقصة نوح -عليه السلام- في سورة هود.

وهناك القصة المجملة: كما في قصة نوح -عليه السلام- في سورة الأعراف، وقصة موسى -عليه السلام- في سورة هود؛ فلقد أجملت كل من السورتين ما فصلته الأخرى.

كذلك سورة يونس فصلت بعض التفصيل في قصة موسى -عليه السلام-، وأجملت في قصة نوح -عليه السلام-.

٢- إن كل قصة قرآنية مجملة أم مفصلة، قصيرة أم غير قصيرة، جاءت تفي بالغرض الذي سيقت من أجله، فليس قصر القصة يشعر القارىء بشيء من النقص؛ بل ربما يذكر في القصة القصيرة ما لا يذكر في غيرها، ولعل خير مثال على ذلك ما ذكرته قصة نوح عليه السلام في سورة العنكبوت- كما ستعرف ذلك إن شاء الله-.

٣- إن بعض القصص القرآني لم يذكر إلا مرة واحدة، وبعضه الآخر ذُكر أكثر من مرة؛ ولعلنا -ونحن نقرأ هذا القصص- ندرك السبب في ذلك، فالقصة التي ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله كانت ذات صلة وثيقة بقضية الدعوة والدعاة إلى الله تعالى.

أما التي ذكرت مرة واحدة فمع سمو الحقائق التي قررتها، وما فيها من مناهج تربوية، وغايات رائدة، الا أنها لم تكن تتحدث عن مجال الدعوة، وعما كان بين الأنبياء

-عليهم السلام- وأممهم، وما لاقاه هؤلاء من أولئك، إنما كان حديثها في مجالات اجتماعية، وجوانب إنسانية، وقيم خلقية تمد الباحثين والعلماء بقبس لا يخبو على مدى الدهر.

وهذا الضرب من القصص -أعني الذي لم يذكر كثيراً في كتاب الله تعالى- يظن بعضهم لأول وهلة أنه قليل إذا قيس بغيره، مما ذكر مرات كثيرة، لكن الأمر على العكس من ذلك، قصة يوسف -عليه السلام- لم تذكر إلا مرة واحدة، كذٰلك قصة موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح التي جاءت في سورة الكهف، وقصة موسى-عليه السلام- مع قومه في دخول الأرض المقدسة التي جاءت في سورة المائدة، ومع قومه في ذبح البقرة. ومن هذا القبيل ما جاء في شأن ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام، حيث ذكرتا مرتين، إحداهما: في مكة في سورة مريم، والأخرى: في المدينة في سورة آل عمران، وما جاء في شأن يونس -عليه السلام-، وما كان من خبر أيوب وداود وسليمان عليهم صلاة الله وسلامه؛ فلقد ذكر خبر أولئك مفرقاً على عدة سور، حيث خصت كل سورة بجانب يتلاءم مع موضوعها وشخصيتها.

والقصة الوحيدة التي خرجت عن هذه القاعدة فذكرت أكثر من مرة وليس لها صلة مباشرة بالدعوة والدعاة؛ قصة آدم، ولكن إذا عرفنا أن قصة آدم أبي البشر جاءت تحدثنا عن النواحي الفطرية والجوانب الرئيسة في حياة الإنسان، وعن الاستعدادات والغرائز التي تتكون منها طبيعته، إذا عرفنا ذلك أدركنا السر الذي ذكرت من أجله قصة آدم في أكثر من سورة.

فالقصص الذي ذكر أكثر من مرة، قصص أولئك الأنبياء الذين تحملوا المشقة ولاقوا العنت، وهم يدعون أقوامهم كنوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام. وكذٰلك قصة آدم عليه السلام كما ذكرنا.

على أن في القرآن الكريم قصصاً لغير الأنبياء، أو لمن اختلف في نبوتهم لم تذكر الا مرة واحدة؛ كقصة ذي القرنين، وما كان من حديث لقمان لابنه، ونبأ ابني آدم وقصة أهل الكهف وخبر المائدة التي طلبها الحواريون ونبأ أصحاب الجنة الذي جاء في سورة (ن).

فهذه القصص جميعها مع ما تعطيه من قيم، ومع كثرة ما فيها من عظات وفوائد، ومع ما يستنتج منها من قواعد كثيرة في الاجتماع والتربية والسياسة والحكم وغير ذلك من المجالات الحيوية المفيدة التي أراد الله تبارك وتعالى لهذه الأمة أن تفيد منها. أقول: مع ما تعطيه هذه القصص من ذلك كله إلا أنه اكتفى بذكرها مرة واحدة؛ لأنها تؤدي الغرض الذي سيقت من أجله من غير أن تذكر أكثر من مرة.

٤- إن بعض السور القرآنية ذكر فيها أكثر من قصة من هذا اللون، أعني اللون الذي لم يذكر إلا مرة واحدة، فإذا نظرنا لهذا القصص في هذه السورة وجدناه ذا ترتيب بديع، عجيب الشأن؛ إذ هو يكوّن منهجاً متكاملاً لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون أفراداً وجماعات، ولنأخذ سورة الكهف مثلاً؛ فلقد انفردت بقصص ثلاث لم تذكر في غيرها وهي قصة أهل الكهف، وقصة موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح، وقصة ذي القرنين، والذي يبدو لنا -والله أعلم بما ينزل- أن ذلك إيحاء للمسلمين ليدركوا العناصر الرئيسة التي لا بد أن تتوافر في شخصيتهم؛ فقصة أهل الكهف تمثل عنصر العبادة والعقيدة، ولما كان أكثر ما يزلزل هذه العقيدة في النفوس ويفسد هذه العبادة، أمران اثنان هما: طغيان المال واغواء الشيطان ذُكرا بعد هذه القصة مباشرة حتى يستطيع المسلمون أن يحصنوا عقائدهم ويحافظوا على عباداتهم، فذكرت قضية المال وما يسببه من طغيان في قوله سبحانه: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ [الكهف: ٣٢]، وذكر الأمر الآخر وهو اجتيال الشيطان للناس في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الكهف: ٥٠]، وبعد ذلك ذكرت القصة الثانية، وهي قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع العبد الصالح، وهذه القصة إنما تبين عنصراً آخر

لا بد أن يتوافر للمسلم وهو عنصر العلم، ذلك أن العبادة بلا علم لا يأمن صاحبها على نفسه من أن يضل ويطغى، وتزلّ قدم بعد ثبوتها، ولعل في حديث جريج الذي أخرجه الإمام مسلم[1] عن سيدنا رسول الله ﷺ ما يثبت ذلك، فلقد جاء أن جريجاً كان عابداً واتخذ صومعة له بعيداً عن الناس، وكانت أمه يهفُو إليه قلبُها، فتذهب لرؤيته؛ فتجده يتنفل في صلاته وتناديه فيأبى أن يكلمها. ففعل ذلك أكثر من مرة، وفي المرة الثالثة دعت عليه أن لا يميته الله حتى يريه وجوه المومسات، واستجاب الله الدعوة، وفي هذا الحديث تقرير لفضل العلم وأن العبادة وحدها لا تفي بما يريده الإنسان من سعادة فلقد كان جريج عابداً بغير علم، ولقد كانت أمه ذات علم ومعرفة فلم تدع عليه أن يفتن.

أما القصة الثالثة في سورة الكهف فهي قصة ذي القرنين؛ وهي تمثل العنصر الثالث في حياة المسلمين، وهو عنصر الجهاد، وهكذا رأينا هذه السورة الكريمة تحدثنا عن القضايا الاساسية التي لا بد للمسلمين منها: العقيدة والعلم والجهاد. ولذٰلك يسنُّ قراءتها في يوم الجمعة وهو أول أيام الأسبوع عند المسلمين.

٥- ان القصص الذي ذكر أكثر من مرة في كتاب الله لا نجد منه قصة واحدة ذكرت في سورتين اثنتين بطريقة واحدة، بل نجد كل قصة جاء فيها ما لم يجىء في الأخرى، ففي كل قصة من المشاهد والجزئيات والأحداث ما تفردت به السورة التي ذكرت فيها هذه القصة.

صحيح أنّ هناك قضايا مشتركة اقتضاها السياق، ولكن هذه القضايا المشتركة لم تأت على أسلوب واحد.

ولكي نصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الأمر؛ لا بد أن نلم به من زوايا ثلاث:

أولاً: من حيثُ الألفاظُ والتراكيب التي ذكرت في كل قصة.

---

(١) كتاب البر والصلة والآداب باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها رقم الحديث ٤٢٥٥/١٩٧٦.

ثانياً: من حيثُ الموضوعات والجزئيات والمشاهد والمواقف الموزعة على السور التي ذكرت فيها القصة.

ثالثاً: من حيثُ اختصاص كل سورة بما جاء فيها من هذه المواقف والمشاهد.

ولا بد أن ننبه هنا وقبل أن نواصل المسيرة في كتابنا على أمْرٍ مهم أهمله كثيرون من الباحثين الذين عالجوا قضية القصة القرآنية. وهو أن الباحث في القصة كي تكون نتائجه مقبولة، وأحكامه صحيحة، لا بدَّ له من أن يقوم بدراسته دراسة موضوعية، وهذه لا تتم له إلا حينما تكون ركيزته الأولى بحث القصة من حيثُ ترتيبُ النزول ليعرف ما الذي نزل أولاً، وما الذي نزل بعد ذلك. هذه هي الدراسة الموضوعية التي يمكننا أن نصدر بها أحكاماً صحيحة، وأن نصل بها إلى نتائج منطقية، والحق أن هذه الركيزة ليست لدراسة القصة فحسب، بل لا بد منها إذا أردنا أن نتناول أي موضوع من موضوعات القرآن الكريم سواء أكان ذلك في الأحكام أم في العقيدة أمْ في القصة، وأضرب مثلاً لذلك: إذا أردنا دراسة آيات الرِّبا في الكتاب الكريم، ولم نلتزم بالقاعدة التي ألمحت إليها، وهي دراسة الموضوع حسب ترتيب النزول، بل أخذناه حسب ترتيب السور الكريمة في المصحف فإننا سنأخذ أول آية تحدثت عن الرِّبا في سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ثم نأتي للآية التي بعدها وهي في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، والذي سينتج عن ذلك أمر خطير؛ لأنَّ آية البقرة مطلقة، والآية الثانية مقيدة بالأضعاف المضاعفة، فيحمل المطلق على المقيد، ولا يحرم الربا إلا إذا كان أضعافاً مضاعفة، وهذا ما ذهب إليه بعض المنحرفين.

وكذلك آيات الجهاد حينما نأخذها حسب ترتيب السور في المصحف، كما فعل كثير من الكاتبين المحدثين، فكانت النتائج التي توصلوا إليها حسب طريقتهم أن أصدروا أحكامهم بأن الجهاد في الإسلام دفاعي، ولا يجوز للمسلمين أن يبدأوا في القتال مهما كان حالهم، وذلك لأنهم أخذوا بعض الآيات من حيث ترتيبها في المصحف كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٠]، فجعلوها الأساس، وحملوا عليها كل ما نزل من الآيات بعد ذلك.

دراسة القصة إذن لا بد أن يُراعى فيها هذا الأمر، وسنرى ما يوصل إليه اتباع هذه الطريقة من نتائج سليمة وأحكام قويمة[١].

ماذاَ نقصد بنفي التكرار عن القصص القرآني؟:

قد يظنّ بعض الناس أن نفي التكرار عن القصة القرآنية أن تقسم القصة إلى مشاهد وأحداث، أو موضوعات، فيذكر كل موضوع أو حدث أو مشهد في سورة، بحيث لا يذكر في سورة ما يذكر في غيرها، بل تختص كل سورة بذكر شيء معيّن، فيذكر مولد موسى عليه الصلاة والسلام في سورة، وخروجه من مصر في سورة، وإرساله إلى فرعون في سورة، ودعوته لبني إسرائيل وما قاساه في سور، تختص كل سورة بحدث معيّن، وهٰكذا يقال في قصة نوح وإبراهيم وغيرهما من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

ومثل هٰذا الصنيع يذكرنا بما اعترض به بعضهم على كتاب الله، حيث قالوا ينبغي أن تقتصر كل سورة على موضوع معين فتذكر العبادات في سورة، والمعاملات في سورة،

---

(١) ولقد سلك الأستاذ سيد قطب رحمه الله الطريقة الموضوعية في دراسته لقصة موسى عليه السلام، والحق أن ما كتبه في التصوير الفني في القصة على قلة صفحاته كان الأساس الذي أفاد منه الكثيرون من بعده وبحثوا في القصة جوانب متعددة إلا أن الكثيرين منهم لم يذكر المصدر الذي نقل عنه، وهذا مما يؤسف له، وقد بسطنا هذه القضية ودللنا عليها في كتاب «إعجاز القرآن».

وأمور الزواج وغيره في سورة، والأخلاق في سورة، والحديث عن البعث في سورة، كأنما يريدون أن يجعلوا القرآن مثل كتاب من الكتب التي يتحدث كل منها عن موضوع معين.

ولقد فات هٰؤلاء وأولٰئك أن القرآن كتاب الله تعالى، أنزله الله تعالى منجما لحكمٍ كثيرة ذكرت في كتب التفسير وعلوم القرآن. والقرآن بهٰذا الترتيب الذي أراده الله تعالى منذ الأزل كان له تأثيره في النفوس وهيمنته على القلوب، ولو أن القصة ذكرت -كما قالوا- موزعة مشاهدها وأحداثها على سور متعدده، لفقدت القصة رونقها وجمالها وذهب لبّ الإعجاز، ولكان ذٰلك عملاً ميسوراً لكثير من الناس.

ليس نفي التكرار -إذن- أن لا يذكر حدث من أحداث القصة في سورة أو أكثر، إن هناك أموراً كلية وأحداثاً مهمة رئيسة، لا يجوز أن تخلو منها سورة من السور، ولو خلت منها لخلت القصة من رحيقها الشذي، وسلسبيلها العذب. وعلى هٰذا فالمنهج القصصي في القرآن الكريم هو المنهج البديع المعجز، حيث ذكرت القصة في سور كثيرة، خُصت بعض السور بذكر حدث واحد، ثم توزعت هٰذه المشاهد والأحداث على السور التي ذكرت فيها القصة، قلت أم كثرت، بحيث تجد في كل سورة ما لا تجده في غيرها، وبحيث يذكر في كل سورة ما يتلاءم مع موضوعها وسياقها، وبحيث تذكر القصة في السورة في الموضع الذي اختيرت له والذي اختير لها، وقد آثرت أن أنبه على هٰذه القضية لأنني رأيت أن بعض الناس يظنون أن نفي التكرار أن تقطع الصلات والوشائج والقربات بين السور المتعددة في كل قصة من القصص، حيث يذكر كل حدث من القصة في سورة خاصة كما بينته من قبل.

إن مجيء القصة على ما جاءت عليه في كتاب الله هو الذي يفتح للدارسين أبواباً للتأمل والاستنتاج والمقارنة ليدركوا سر العظمة في هٰذا الكتاب.

الطريقة المثلى في دراسة القصة القرآنية

ولكي نصل إلى النتيجة المرجوة المرضية، لا بد أن نسلك طريقة مثلى لدراسة القصة في السور القرآنية.

حاول بعض الكاتبين مشكورين أن يبحثوا قضية التكرار في القصة القرآنية، فبدأوا دراستهم بالسور القرآنية من حيث ترتيبها في المصحف كما فعل الدكتور القصبي زلط في كتابه «قضية التكرار في القصة القرآنية» فحاول جاهدا نفي التكرار، لٰكن دراسته لا تخلو من التكلف، ذٰلك لأن الطريقة التي سلكها هي التي كانت سبباً في ذٰلك لذا فإن الطريقة المثلى لنتذوق تذوقاً صحيحاً مواقع النجوم للقصة القرآنية، أن ندرسها من حيث ترتيب النزول، بحيث ندرس النجوم التي نزلت واحداً تلو الآخر.

ولا يضيرنا كثيراً بأن ترتيب السور ليس أمراً مقطوعاً به، ويكفينا في هٰذا أن نوازن بين الأقوال التي وردت في ترتيب السور لنأخذ أرجحها كما فعل العلماء. ثم إن هناك بعض السور يمكن أن ندرك ترتيبها بلا عناء وهٰذا هو النهج الذي سنسير عليه في هٰذا الكتاب إن شاء الله. ونرجو أن يجد القارىء نظرة صائبة، ومنهجاً قويماً ومن الله وحده العون كله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

ترتيب القَصص القرآني في السور

هناك قصص لغير الأنبياء ذكر في العهد المكي، لم يذكر سوى مرة واحدة كخبر أصحاب الجنة: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، وما تقدم لنا من قبل كقصة أصحاب الكهف وذي القرنين وسيظهر لك أيها القارىء الكريم:

١- أن بعض القصص القرآني موزعٌ على القرآن مكيِّه ومدنيِّهِ، وإن كانت مساحته في العهد المكي أوسع منها في العهد المدني.

٢- أن هناك سوراً قرآنية لم يذكر فيها شيء من القصص، كما ان هناك سوراً ذكرت فيها قصة واحدة، ولو أننا استقرأنا القرآن الكريم لوجدنا أن نصف السور المكية تقريباً لم تخل من ذكر هذا القصص، سواء أكان ذلك موجزاً أم مفصلاً.

وأما السور المدنية فإن بضع سور فقط هي التي ذكر فيها شيء من القصص بإيجاز، اللهم إلا إذا نظرنا إلى ما ذكر من أخبار بني إسرائيل في سورة البقرة.

٣- أنّ هذا القصص كان موزعاً توزيعاً موضوعياً على السور القرآنية، فسورة آل عمران مثلاً فصِّل فيها نبؤهم، وسورة مريم فصِّل فيها نبأ إبراهيم عليه السلام وبنيه، وذريته ومنهم مريم -بالطبع- وقصص الأنبياء العرب فصل أكثر ما فصل في السور المكية، هذا على سبيل الإجمال.

أما من حيث التفصيلُ فنقول:

إن السبع الطوال التي تبدأ بسورة البقرة وتنتهي بسورة براءة كانت أكثر سورة فيها نالت نصيباً من القصص **سورة الأعراف**؛ وذلك لأنها جاءت تعالج موضوع العقيدة من حيثُ تاريخُها البعيد، لذلك نجدها ابتدأت بقصة آدم عليه السلام، ثم ذكرت قصة نوح عليه

السلام بعد فصول كثيرة من الآيات، وبعد قصة نوح عليه السلام مباشرة ذكرت قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وموسى عليه السلام مع فرعون ومع بني إسرائيل، ونلحظ أن القصص في سورة الأعراف عدا قصة آدم كانت جميعها حديثاً عن الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وما لقي هؤلاء من أولئك من شدة وعنت.

أما السورة المكية الثانية في السبع الطوال فهي **سورة الأنعام**، وهذه جاءت تتحدث عن العقيدة من حيثُ ردُ الاقتراحات التي اقترحها المشركون، وعلاج الشبهات التي أثاروها، وما يتصل بذلك من أدلة الوحدانية والرسالة والبعث، ومن حيثُ ما حرَّمه المشركون على أنفسهم دون دليل، ومن هنا لا نجد في هذه السورة سوى قصة إبراهيم عليه السلام؛ ولكنها ذكرت من حيثُ استدلالُه عليه السلام على الإله الحق، وهو متسق تماماً مع موضوع السورة الكريمة.

وبقية السبع الطوال كلها سور مدنية، والقصص التي ذكرت في بعضها مع قلتها كانت حديثاً عن بني إسرائيل فحسب، فإذا تجاوزنا السبع الطوال وجدنا أن سورتي يونس وهود تحدثتا عن بعض القصص، وان كان نصيب الثانية اكثر من نصيب الأولى فسورة يونس حدثتنا حديثاً موجزاً عن نوح عليه السلام، وقد بدأت به السورة ثم حديثاً فيه بعض التفصيل عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، لكن سورة هود بدأت بالحديث عن قصة نوح عليه السلام مفصلة تفصيلاً تاماً، ثم جرت على هذا الترتيب التاريخي فذكرت قصة هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام واشارة موجزة لقصة موسى عليه السلام، ولكن قصة ابراهيم عليه السلام في سورة هود لم تكن عما جرى بينه وبين قومه، وإنما عما كان بينه وبين الرسل من الملائكة، وكأنما ذكرت مقدمة لقصة لوط التي فصلت الحديث عنه مع قومه بعض التفصيل. ثم جاءت **سورة يوسف** وهي كما نعلم خاصة به عليه السلام، لكن **سورة الرعد** خلت من ذكر هذا القصص القرآني.

ما ذكر في سورة إبراهيم من المحاورة بين الرسل وقومهم:

وتأتي **سورة إبراهيم**، وفيها إشارة موجزة لقصة موسى، وشيء من نبأ إبراهيم عليهما السلام. كدت أنتقل إلى السورة الأخرى، وهي سورة الحجر ولكنني وأنا أستحضر السورة الكريمة في قلبي وإذ بي، أُفجَأ بما يرقص القلب، ويثلج الصدر، هل سمعت عن أولئك الذين كانوا يحدثوننا عنهم، بأنهم أو بعضهم وجدوا كنزاً ففرحوا به؟، أظن ظناً يشبه اليقين، أن الذي يكرمه الله بشيء من هذا القرآن أو بقضية من قضايا العلم أكثر فرحاً، وأعظم ابتهاجاً من هذا الذي وجد كنزاً، المهم أنني وأنا أستحضر السورة الكريمة أشرفُ بإمرارها على قلبي وقفتني قضية حريٌّ بها أن تسجَّل.

حدثنا القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام، بأنه أمَّة وأنه أب الأنبياء؛ لأن أكثر الأنبياء الذين أرسلهم الله من بعده من ذريته. إن لم يكونوا جميعاً وما نعرف ممن قص الله علينا نبأهم بعده عليه السلام. أقول: ما نعرف واحداً ليس من ذريته ابتداءً بإسماعيل وإسحاق، وختماً بسيد البشر سيدنا محمد ﷺ.

وسورة إبراهيم؛ السورة التي سميت باسمه أرادها الله أن تكون أمَّة في السور كذلك فلها من اسمها نصيب. من أجل ذلك وجدنا هذه المحاضرة والمحاورة التي تنسب إلى الرسل، وما كان بينهم وبين أقوامهم، ولم نجد مثلها في غير هذه السورة الكريمة. إنهم تجمعوا ولكن في هذه السورة كما يتجمع الأبناء في بيت الأب- وهذا يعلم الله- حريٌّ بمثله أنْ يدرس وأن توجه إليه العناية، إنه لمن عجيب أمر هذا القرآن وعلو شأنه!!.

إن الإشارة في قصة موسى عليه السلام في سورة إبراهيم كانت لبني إسرائيل دون فرعون وجميل أن يذكر في قصة ابراهيم عليه السلام بنو اسرائيل الذين ينتسبون إليه دون فرعون وليس هذا فحسب، بل إنَّ ما يدعو للإعجاب حقاً ويطرب له كل فؤاد أن الرسل الذين جاؤوا بعد ابراهيم عليه السلام هم أبناؤه وذريته، ولنستمع إلى ما تقصه علينا سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [إبراهيم: ٩]

وهؤلاء كانوا قبل إبراهيم -بالطبع- ولكن لنستمع بعد ذلك يُستأنف الكلام بعد ذكر الأقوام الثلاثة: قوم نوح وعاد وثمود، يستأنف الكلام فيقول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [إبراهيم: ٩] الذين من بعد قوم نوح وعاد وثمود، وهم الذين لا يعلمهم إلا الله لكثرتهم وتعدد منازلهم، واختلاف لغاتهم، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة.

ولكن ما بال أولئك ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٩] الآيات الظاهرة، فماذا كان منهم؟ يقول الله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٩]، وهي كناية عن التقنيط والتيئيس، والحسد والغيظ، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهكذا ردَّ أولئك الأقوام أيديهم في أفواههم، معلنين للرسل أنهم لن يؤمنوا برسالتهم، وما كان ذلك إلا حسداً وغيظاً وكراهية للحق، أو ردُّوا أيديهم في أفواه الرسل حتى لا يتكلم الرسل ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٩] بهذه الصراحة الوقحة ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم: ٩] عجيب أمر أولئك جعلوا قضية الرسل المشرقة الواضحة قضية تدعو إلى الريبة والتهمة والقلق، وكذلك شأن الباطل يتهم الحق دائماً ويعجبني قول أبي العلاء:

«وعيّر قساً بالفهاهة باقلٌ» باقل الذي لا يستطيع أن يتكلم كلمتين، يعيّر الخطيب المصقع بالفهاهة وعدم القدرة على الكلام. ويرد الرسل جميعاً هذا الباطل ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠] لا ينبغي أن يكون في الله شك، وهو فاطر السماوات والأرض. ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ولكن مع هذا التحبب والتلطف لا يزيد الفريق الآخر على أن يقول للفريق الأول، وهم الرسل عليهم السلام: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وهذه هي التهمة الأولى. وأما الثانية: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

ثم يأتي دور التمحل فعلى الرغم من الحجج الواضحة فهم مع ذلك لا يكتفون ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: ١٠] وترد الرسل مقالة أولئك: نحن لا ننكر أننا بشر، نحن معترفون بهذه البشرية وهل ادَّعينا غيرها، ولكن أكُلُّ البشر سواء؟ ألستم تزعمون أنتم أنكم خير من غيركم فما دمتم ترون أنفسكم أفضل من غيركم، فلماذا تنكرون على غيركم أن يمنَّ الله عليهم بمننه وكرمه؟؟. أما ما طلبتموه من سلطان فمع أنه تمحل منكم، ولكن مع ذلك ما كان لنا أن نأتيكم بشيء مما طلبتم إلا بإذن الله، عليه نتوكل وعليه وحده يتوكل المؤمنون، ولماذا لا نتوكل عليه؛ وأي شيء يمنعنا من ذلك؟ وقد أكرمنا بالهداية. أما ما يلحقنا من إيذاء فلنصبرن عليه وعلى الله يتوكل المتوكلون.

وبعد تلك الرقة في القول والإقناع في المنطق بعد ذلكم القول الذي يمتع العواطف ويقنع العقول، ويوقظ المشاعر ويهز النفوس، يقول أولئك الكافرون لرسلهم بعد كل هذا ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم١٣] وهنا يعرض المتكبرون عضلاتهم ويلوحون بعصا القوة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ سمعناها من قوم شعيب عليه السلام، وقالها قوم لوط عليه السلام ولكنها هنا يقولها فريق الكفر مجتمعاً ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ وليس معنى هذا أن الرسل عليهم السلام كانوا على ملة أقوامهم -فمعاذ الله أن يكونوا كذلك- ولكن معنى الآية الكريمة- والله أعلم- أو لتصيرن في ملتنا.

وهنا تدرك الرسلَ العنايةُ الإلهيةُ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر: ٥١] أوحى إليهم ربهم الذي أكرمهم بعنايته ورسالته، رباهم وتعهدهم وتولاهم ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [ابراهيم: ١٣] يا لفظاعة الظلم! إنه أساس الدمار والبوار والانحراف ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١٤] وصدق الله وعده، فنجى رسله، وأسكنهم وأورثهم الأرض، والأرض لله. وذلك التأييد إنما يكون للرسل ولمن كان على نهجهم فمن اجتمع له هذان الأمران:

١- أن يخاف مقام الله تبارك وتعالى، أي أن يخاف ذلك الموقف في الآخرة الذي سيقفه، أو يخاف مقام الله: أي يخاف مراقبة الله تبارك وتعالى، وقيامه سبحانه وتعالى عليه بكل ما كسب ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

٢- أن يخاف وعيد: أن يخاف ما توعده الله تبارك وتعالى به. ويستفتح الرسل يطلبون من الله أن يحكم بينهم وبين أقوامهم ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] وفتح الله بينهم ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] خاب أولئك الجبارون المتعالون على الحق، المعاندون في آيات الله، وهو إن خسر في دنياه، فإن هناك خسارة أعظم ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] أي بين يديه سيلاقيها، ويعرض عليها ويدخلها ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]، يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وأنى له أن يسيغ مثل ذلك، نعوذ بالله ونستجير به سبحانه ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]. من كل مكان يأتيه الموت!! ما أبدعه من تصوير وما أشد وقعه على النفس!! أسباب الموت من كل ناحية وجانب ولكن لا موت، كما جاء في حديث النبي ﷺ عن شأن من شؤون القيامة «حينما سئل عنه أهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فقالوا: نعم، وجاءهم على صورة كبش فذبح وقيل: يا أهل الجنة خلوداً لا موت، ويا أهل النار خلوداً لا موت»[1]. ﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] تلك محاورة بين رسل الله؛ أهل الحق، وبين أهل الباطل.

وهذه المحاورة بين الرسل الكرام يختار لها المكان اللائق بها بيت الأب، بيت الشيخ بيت الأب العظيم، سورة ابراهيم عليه السلام، وهذا يدل على أن الأنبياء جميعاً أمة واحدة مهما اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم، وأن أهل الباطل كذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير في سورة الكهف حديث رقم ٤٧٣٠.

وجميل أن نقرأ الآيات مرة أخرى، وتلكم هي الآيات الكريمة:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ٩-١٧].

أما **سورة الحجر**، فبعد أن ذكرت **قصة آدم** انتقلت بعد فاصلٍ قصير إلى الحديث عن إبراهيم عليه السلام، لكن لا من حيثُ ما كان بينه وبين قومه، وإنما من حيث مجيء الرسل وتبشيرهم له، ثم تحدثت عن قصة لوط عليه السلام وأشارت إشارتين موجزتين خاطفتين إلى أصحاب الحجر الذين سميت السورة باسمهم وأصحاب الأيكة، ولكن بإيجاز كما قلت.

سورة الحجر إذن أشارت إلى هذا القصص بهذه الطريقة فلم تحدثنا عما كان بين الأنبياء وبين أقوامهم، اللهم إلا ما كان بين لوط عليه السلام وبين قومه. وإذا جاز لنا أن نقسم ما حدثت عنه السورة تقسيماً جغرافياً فإن الذين حدثتنا عنهم سورة الحجر كانوا

جميعاً في منطقة واحدة، وأمكنة متقاربة فقرى قوم لوط وثمود ومدين كلها في شمال الجزيرة. وكأن الحديث عنها كان تذكرة لأهل مكة؛ لأنهم يمرون بطريقهم على هؤلاء الأقوام، وعلى هذه الأمكنة.

أما سورة النحل، وهي سورة النعم، فلم نر فيها شيئاً من هذا القصص، اللَّهمَّ إلا بعض الآيات ثناءً على إبراهيم عليه السلام.

وتأتي **سورة الإسراء**، ولا نقرأ فيها إلا لمحة عن قصة آدم، وهذا يتلاءم مع موضوع السورة، ثم اشارةً متلائمة أيضاً مع موضوع السورة إلى الآية التي أعطيتها ثمود، وإشارة كذلك إلى الآيات التي أعطيها موسى عليه السلام لفرعون. سورة الإسراء إذن: هي سورة الآيات فقط، وما ذكر فيها من اشارات لبعض القصص، إنما ذكر من خلال الآيات التي تتسق مع آية الإسراء.

ثم تأتي **سورة الكهف**، وقد تحدثنا عما فيها من قصص من قبل في أول هذا الموضوع، فلا نعيد هذا الحديث هنا.

أما سورة مريم، فلقد بدأت الحديث عن زكريا عليه السلام وبشارته بيحيى عليه السلام، ثم جاءت قصة مريم، وهذا على عكس ما جاء في سورة آل عمران حيث بدأ الحديث عن مريم؛ لأن السورة الكريمة سميت باسمهم، وبعد الحديث عن زكريا وابنه عليهما السلام ومريم وابنها عليهما السلام حدثتنا السورة عن ابراهيم وأبيه وبنيه وموسى وأخيه عليهم السلام، ولكن لا من حيثُ ما كان بينهم وبين أقوامهم، وإنما هي إشارات ثناء على أنبياء الله عليهم السلام، ونلحظ أن الذين حدثتنا السورة عنهم كانوا من ذرية إبراهيم عليه السلام، اللهم إلا ما جاء من اشارة موجزة عن ادريس عليه السلام إذا لم نقل إنه إلياس عليه السلام.

وتأتي **سورة طه**، ويكون الحديث فيها عن موسى عليه السلام، وعن اكثر من جانب في حياته: رسالته وإرساله إلى فرعون وخبره مع بني إسرائيل. ثم وبعد فاصل من الآيات الكريمة تحدثنا عن قصة آدم عليه السلام.

أما **سورة الأنبياء**، ولها من اسمها نصيب، فلقد كان الحديث فيها عن الأنبياء -عليهم السلام- ثناءً ومنّةً وفضلاً... ولكن كان الحديث فيها موجزاً إيجازاً تاماً، بدأ الحديث فيها عن موسى -عليه السلام- بآيتين اثنتين، وهكذا كان الحديث عن لوط ونوح وداود وسليمان وأيوب عليهم جميعا السلام وغيرهم. كان كله موجزاً مركزاً والرسول الوحيد الذي فصلت عنه السورة الكريمة سورة الأنبياء كان ابراهيم -عليه السلام- ...وليس في ذلك شيء من العجب فإبراهيم -عليه السلام- هو أبو الأنبياء، وحريٌ أن يفصل عن الأب وأن يعطى من الحديث والإشارات ما لا يُعطى الأبناء.

وتأتي **سورة الحج**، فلا نقرأ فيها شيئاً من القصص، ولعل اسمها يشير إلى الحكمة في ذلك، أما ما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فإنما كان حديثاً ذا صلة بالحج.

وتأتي **سورة المؤمنون**، والمؤمنون تكفيهم الإشارة فتحدثنا السورة بإيجاز يكفي المؤمنين للعبرة عن نوح وهود، ولمحة عن موسى وهارون عليهم السلام، وجعل ابن مريم عليه السلام وأمه آية. إن ذلك متلائم تماماً مع اسم السورة الكريمة وموضوعها.

أما **سورة النور**، فنظن أن موضوعها الذي جاءت تتحدث عنه جعلها خالية من هذا القصص، وسورة النور هي السورة المدنية بين سور مكية.

أما سورة الفرقان، فلقد جاءت علاجاً للشبهات التي أثارها المشركون حول الرسالة والرسول، وما ذكر فيها من اشارة عن السابقين لم يكن عما جرى بين الأنبياء وأقوامهم من حوار وجدال، وإنما كان بياناً لما حل بأولئك بعبارات قصيرة موجزة.

وتأتي آل طس الثلاث: الشعراء والنمل والقصص.

أما سورة الشعراء: وهي أكثرها تعداداً لقصص الأنبياء، فلقد ابتدأت الحديث بعد ذكر القرآن والنبي وأهل مكة، ابتدأت الحديث عن موسى -عليه السلام- مع فرعون، وفصلت بعض التفصيل تفصيلاً لا نكاد نجده في غير سورة الأعراف أعني في شأن فرعون،

وبعدها تنتقل السورة للحديث عن إبراهيم -عليه السلام-، ولكن هذا الحديث يكون اكثر ما يكون عن تمجيد إبراهيم عليه السلام لرَبِّه. ثم تحدثنا السورة عن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ثم تنتقل إلى القرآن الكريم، وتنزيله بالحق: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

أما **سورة النمل**، فبعد أن تحدثنا عن القرآن والنبي تذكر شيئاً عن قصة موسى -عليه السلام- ومبدأ رسالته، ولكن بإيجاز ثم تذكر داود وسليمان عليهما السلام وتفصل الحديث عن سليمان وما كان من ملكة سبأ. ثم تحدثنا عن ثمود وقوم لوط.. ولكن بما ليس فيه تفصيل، وإنما هو أقرب إلى الإيجاز.

أما **سورة القصص**: وهي آخر آل طس، فالحديث فيها إنما هو عن موسى -عليه السلام- منذ ولادته إلى أن أرسل إلى فرعون. حتى ما جاء في آخر السورة كان حديثاً عن قارون الذي هو من قوم موسى، لكن السورة تبدأ بالحديث عن القرآن، وتنتهي كذلك ونلحظ ما يلي:

أ- **آل طس وطه**، كان الحديث فيها بادىء بدء عن موسى -عليه السلام-، بل إن منها ما قصر على الحديث عنه أو طال كـ (طه) والشعراء والقصص، ونتساءل: هذه آل طس حتى طه هذه السور التي ابتدأت بحرف (الطاء) جميعاً بدأت الحديث عن موسى -عليه السلام-، ولكن كان للحديث عن القرآن الكريم فيها شأن كذلك؟ لو كنا من عُشَّاق تفسير الحروف في فواتح السور لفهمنا أن هذه السور التي ابتدأت بحرف الطاء أو السين تشير إلى طور سيناء، وإلى ما كان من شأن النبي ﷺ ولقلنا إنها تشير إلى طور سيناء ومكة، لكن- كما قلت- لسنا من عشاق التأويلات التي ربما لا يجد لها بعضهم مسوِّغاً. المهم أن هذه السور المبدوءة (بالطاء) أو بـ (طس) جميعاً بدأت الحديث عن موسى -عليه السلام-.

وتأتي **سورة العنكبوت**، والإشارات إلى الأنبياء فيها موجزة، وقد حدثتنا عن نوح وإبراهيم ولوط عليهم السلام وآية واحدة جمع فيها عاد وثمود، وآية واحدة عن قارون وفرعون وهامان، وإشارة موجزة لمدين. سورة العنكبوت -كما سنعرف- سورة الدعاة ولا أدل على ذلك من بدايتها وخاتمتها، أما بدايتها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] أما خاتمتها، فهي قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] إذن ذكر فيها ما تدعو إليه الحاجة، ولا ننسى أنها نزلت متأخرة، فكان اكثر ما فيها تلخيصاً لما مرَّ في كتاب الله من قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع بعض الزيادات- كما سنرى -في قصة نوح مثلاً فعلى الرغم من أنهما آيتان اثنتان، إلا أنهما لاتخلوان من زيادة على ما فُصِّل في السور الأخرى.

أما **سورة الروم**، فقد اكتفت أن يشار فيها إلى الروم، وغلبتهم، ولم يذكر فيها شيء من القصص: وكذلك السورة التي بعدها **سورة لقمان** اكتفت أن تحدثنا عن وصية لقمان لابنه، وكذلك **سورة السجدة** لم تحدثنا عن شيء من هذا القصص، اللهم إلا بدء خلق الإنسان من طين.

وتأتي **سورة الأحزاب** المدنية ونعم ما ذكرته لنا من نصر الله المؤمنين وقد ابتلوا وزلزلوا زلزالاً شديداً فالله نصرهم على الأحزاب، والحمد لله أولاً وآخراً.

وتأتي **سورة سبأ**، وسبأ كما نعلم كانت لها شهرتها ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]، ولكنهم أعرضوا فأرسل عليهم سيل العرم، وبُدِّلوا بجنتيهم ذواتي الثمر الزكي الشهي، بدلوا بجنتيهم جنتين أخريين ذواتي أُكُلٍ خمط وأثل، وشيء من سدر قليل، ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

سورة سبأ هذه ذكرت فيها قصة واحدة قصة داود وسليمان عليهما السلام، ومن عجيب شأن القرآن وروعة نظمه وبديع صنعته، وجميل موضوعاته، ورائق معانيه

أن تجد هذا الترتيب المحكم. آية إعجاز ودليل صدق، وبرهان حق، ذكرت فيه قصة داود عليه السلام ثم أُتبعت بقصة سبأ، ولكن هل تعلم أن قصة داود في سورة سبأ ذكرت من حيثية يهدف لها القرآن، ان الله ذكر داود عليه السلام في سورة سبأ ليبين أنه أنعم الله عليه فشكر ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]. أظنك بدأت تدرك الروعة وتتذوق الحلاوة. بعد قصة داود عليه السلام ذكر أهل سبأ الذين أنعم الله عليهم فلم يشكروه، فجازاهم الله ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧] وهكذا نجد هٰذا التلاؤم والاتساق فسورة سبأ تذكر لنا فريقين من الناس أنعم الله عليهما، لكن منهم من شكر النعمة، ومنهم من كفرها. ولهذا يذكر عقب هاتين القصتين قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠].

أما **سورة فاطر**، فكان الحديث فيها عن آثار فاطر السماوات والأرض، ولم يأت فيها شيء من القصص.

أما **سورة يس**، فلم يذكر فيها إلا المثل لأصحاب القرية ﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٣-١٤].

لكن سورة الصافات ذكر فيها الأنبياء من حيثُ الثناءُ عليهم -كما مرَّ معنا في سورة الأنبياء- والنبي الذي فصل خبره هو إبراهيم -عليه السلام- وقد عللنا ذٰلك حينما تحدثنا عن سورة الأنبياء.

وتأتي **سورة (ص)**، فلم يكن الحديث فيها عما جرى بين الأنبياء وبين أقوامهم، وإنما عن بعض ما ابتلي به بعض الأنبياء كداود وسليمان وأيوب عليهم السلام كل ذلك كان تسلية للنبي ﷺ وثناءً بإيجاز على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام.

أما **سورة الزمر**، فلم يذكر فيها شيء من قصص الأنبياء- عليهم السلام-.

وتأتي **آل حم السبع** فيكون الحديث في السورة الأولى وهي: سورة غافر (المؤمن) عن نبأ موسى عليه السلام، وتفيض في الحديث عن مؤمن آل فرعون.

أما سورة **فصلت** ففيها إشارة -في معرض الحديث عن أهل مكة ووعيدهم إن أعرضوا- إلى عاد وثمود.

وأما **سورة الشورى** فليس فيها شيء من القصص القرآني.

وتأتي **سورة الزخرف**، وفيها اشارة عن ابراهيم عليه السلام تتلاءم مع موضوعها، وشيء عن خبر موسى عليه السلام مع فرعون، وما كان من اعتزاز فرعون وفخره بنفسه وبملكه، وهو متلائم مع موضوع السورة كذلك.

وتأتي **سورة الدخان** فتحدثنا شيئاً عن خبر فرعون متسقاً مع ما اصيب به أهل مكة حينما دعا النبي ﷺ عليهم بسنين كسني يوسف.

لكن **سورة الجاثية** نجدها خالية من القصص، اللهم إلا إشارة موجزة عن بني إسرائيل وما خصَّهم الله به، ولكنهم اختلفوا.

وتأتي **سورة الأحقاف** وهي السورة الأخيرة في آل حمَ، وفيها إشارة إلى ساكني الأحقاف وهم عاد.

ثم تأتي **ثلاث سور مدنية: وهي سورة سيدنا محمد** ﷺ **وسورة الفتح المبين** الذي أكرمه الله به، ثم **سورة الحجرات**- وبالطبع- لا يكون فيها شيء من هذا القصص.

ويبدأ **المفصل** فنجد اشارة موجزة في بعض سوره كما في **سورة** (ق) **والذاريات، والقمر**، وما جاء من ذكر موسى عليه السلام وقومه في **سورة الصف**، ومن خبر أصحاب الجنة وصاحب الحوت في **سورة (ن)**، ومن إشارات في **سورة الحاقة**.

والسورة الوحيدة في المفصل التي فصل فيها، كانت سورة نوح، حيثُ كانت كلها حديثاً عنه -عليه الصلاة والسلام-.

كل ما في المفصل إذن كان إشارات.

كما جاء في **سورة المزمل وسورة الفجر والشمس والبروج** عن أصحاب الأخدود.

وهناك سورتان كان فيهما بعض التفصيل عن بعض الأنبياء وهما: **سورة الذاريات** حيثُ فصلت في نبأ إبراهيم عليه السلام، وبعض اشارات إلى قوم لوط وفرعون وعاد وثمود **وسورة النازعات** التي أجملت الحديث عن خبر موسى-عليه السلام- مع فرعون.

وأكتفي بهذا التفصيل ومن أجال النظر، ونظم الفكر، وأكرمه الله بثاقب البصر، ستلوح له النجوم الزهر لوامح أخر. اللهم إنا نسألك فتحاً تكرمنا به بفهم وعلم، وأجز اللهم سيدنا محمداً ﷺ الذي أنزلت عليه هذا القرآن، خير ما تجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثاني

القصص القرآني عرض وتحليل

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول: قصة آدم عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثاني: قصة نوح عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثالث: قصة هود عليه الصلاة والسلام.

الفصل الرابع: قصة صالح عليه الصلاة والسلام.

الفصل الخامس: قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الفصل السادس: قصة إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

الفصل السابع: قصة إسحاق عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثامن: قصة يعقوب عليه الصلاة والسلام.

الفصل التاسع: قصة لوط عليه الصلاة والسلام.

الفصل العاشر: قصة يوسف عليه الصلاة والسلام.

الفصل الحادي عشر: قصة شعيب عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثاني عشر: قصة موسى عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثالث عشر: قصة يونس عليه الصلاة والسلام.

الفصل الرابع عشر والخامس عشر: قصة داوود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

الفصل السادس عشر: قصة أيوب عليه الصلاة والسلام.

الفصل السابع عشر والثامن عشر: قصة زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام.

الفصل التاسع عشر والعشرون: قصة عيسى ومريم عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنها.

الفصل الحادي والعشرون: القصة القصيرة في القرآن.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

قصة آدم عليه السلام

أولاً: من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهد

١- في سورة (ص).

٢- في سورة الأعراف.

٣- في سورة طه.

٤- في سورة الإسراء.

٥- في سورة الحجر.

٦- في سورة الكهف.

٧- في سورة البقرة.

ثانياً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها وشخصيتها.

ثالثاً: من جهة الألفاظ والتراكيب.

رابعاً: تعقيب على قصة آدم -عليه السلام-.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصّة آدم عليه السلام

أولاً: من حيثُ الجزئياتُ والموضوعات والمواقف والمشاهد.

إن هذه الحيثيات تتطلب منا دراسة للسور التي ذكرت فيها قصة آدم -ﷺ-، وهذه السور حسب ترتيبها في النزول[1] كما يلي:

١- ص. ٢- الأعراف. ٣- طه. ٤- بنو إسرائيل. ٥- الحجر. ٦- الكهف. ٧- البقرة.

الترتيب الذي اخترته هو الأرجح كما قال العلماء.

- **أما سورة (ص)** فبدأت الحديث عن قصة آدم بقوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]، وتحدثنا الآيات أن الملائكة سجدوا أجمعون الا إبليس استكبر وكان من الكافرين، وحينما سأله الله لِمَ لم تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين، أي ما الذي منعك عن السجود أهو استكبارك الذي لا داعي له أم كونك ترى نفسك حقيقاً جديراً بالعلو والتفضيل، فإنّ كثيراً من المستكبرين لا يكون هناك سبب يدعو لاستكبارهم؟ أجاب بأنه خير من آدم لأنه خلق من نار، وخلق آدم من طين، وقيل له اخرج مرجوماً ملعوناً إلى يوم الدين، وطلب الإنظار والإمهال إلى يوم يبعثون؛ لكنه لم يجب إلى ما طلب وانما أنذر إلى يوم الوقت المعلوم، وأقسم بعزة الله أن يغويهم أجمعين إلا المخلصين من عباد الله، وقال الله: الحق -والحقَّ يقول- بأنه سيملأ جهنم منه، ومن أتباعه أجمَعين. هذا ما جاء في سورة (ص) وهذه هي الآيات الكريمة:

---

(١) اعتمدنا في ترتيب النزول على ما رجّحه كثير من العلماء وما اختاره صاحب الإتقان رحمه الله.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٧١-٨٥].

٢- أما قصة آدم في **سورة الأعراف**؛ فلقد اختلفت بداية القصة عما جاء في سورة (ص) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١] ويسأل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] ويجيب إجابته الناشئة عن استكباره وانانيته وشعوره بالعلو فيقال له اهبط منها فما ينبغي له أن يتكبر فيها وبعد الإهباط يؤمر بالخروج ويحكم عليه بالصَغار ويطلب الإنظار فيجاب دون تحديد الوقت ثم يؤمر بالخروج مذءوماً مدحوراً، لمن تبعه منهم جهنم وله كذلك.

وقوله مذؤوماً من الذم، وقوله مدحوراً أي مطروداً، وإنما استحق هٰذين الوصفين معا، فهو مستحق للذم لاتصافه بالرذائل السيئة، واستحق الطرد ليكون بعيداً عن الأرواح الخيرة سواء أكانوا ملائكة أم من الخيرين من البشر أنبياء كانوا أم غير ذٰلك.

ولٰكنه هنا يبالغ في الانتقام كما حدثتنا سورة الأعراف، ويأخذ على عاتقه أن لا يدع ثغرة إلا ويأتيهم منها. قال تعالى ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦]، فهو أولاً أقسم أنه سيقعد لهم صراط الله المستقيم، ومعنى هٰذا أنه سيحاول جهده كله أن يحول بينهم وبين الخير، ويحول بينهم وبين الصراط المستقيم، الذي جعله الله طريق الأنبياء والصالحين، وليس هٰذا فحسب، بل إنه سيأتيهم من الجهات كلها، حتى لا يدع لهم

منفذاً من المنافذ، أو ثغرة من الثغرات؛ ولذا جاء التعبير «ثم لآتينهم»، و«ثم» هنا للتراخي الرتبي، فإن إتيانهم من هٰذه الجهات أشد وطأً عليهم من قعوده لهم صراط الله المستقيم. وهٰذا من شأنه أن يشاغلهم ليضعفهم، فهم كلما حاولوا أن يتخلصوا منه من جهة، بادرهم من جهة أخرى، فالمقصود من هٰذه الجهات الأربع، الإحاطة بهم من أجل إضلالهم وإغوائهم، وهنا يصل إلى ما يريد وقد حدثنا القرآن الكريم عن بغيته وغايته، فقال سبحانه، ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان﴾، وما نعرف معنى للاستحواذ إلا هٰذا الاستيلاء التام، بحيث لا يجد المستحوذ عليه منفذاً ما.

ولٰكن رحمة الله بهٰذا الإنسان عظيمة، وما أعظم هٰذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، فالله تبارك وتعالى يحب لعباده أن يجتنبوا مصائب الشيطان ومصايده؛ ولذٰلك نجد هٰذا العلاج النافع الناجع، ففي هٰذه السورة نفسها بعد ذكر هٰذا التوعد، يخاطب الله تبارك وتعالى بني آدم محذراً لهم، مبيناً لهم نعمه عليهم، حتى لا يجتالهم اللعين عن الحق، ليُحل لهم ما حرم الله عليهم، أو يحرم عليهم ما أحل الله لهم، نقرأ هٰذا كله في هٰذه النداءات الأربع، فكأن كل نداء فيه تبصير للإنسان، حتى يجتنب إغواء الشيطان ووسوسته، نداءات أربع تتسق تماماً مع توعد اللعين من أن يأتي الانسان من الجهات الأربع.

كان النداء الأول قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦] أما النداء الثاني فهو قوله ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أما النداء الثالث فقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢].

وكان النداء الرابع: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وأنت أخي القارىء إذا تدبرت هٰذه الآيات وجدتها منسجمة تماماً متسقة كل الاتساق مع ما جاء في الآية الكريمة ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧]، فإذا قلت إن التفسير القائل ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآخرة، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ الدنيا، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ موضع الحسنات، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ موضع السيئات، أدركت سر الترتيب وسر البيان في هٰذه الآيات، وإن أبيته فيكفيك أن تقارن بين هٰذه الجهات وبين هٰذه النداءات لتدرك أننا لا ينبغي أن نمكّن الشيطان مما يبغي، فهو إنما يأتينا من هٰذه الجهات من أجل أن يضعف إرادتنا لتخور قوانا، مع أننا نحن الذين ينبغي أن نضعفه، كما جاء في بعض الآثار الطيبة «إن أحدكم ينضي شيطانه كما ينضي إبله» أي يضعف شيطانه كما يضعف دابته التي يركبها، وقد دلّ على هٰذا كثير من الآيات والأحاديث الصحيحة.

وتحدثنا الآيات بعد ذٰلك عن مشهد آخر، فبعد أن أمر بالخروج مذءوماً مدحوراً أمر آدم أن يسكن وزوجه الجنة وليأكلا من كل شيء إلا شجرة واحدة، ولٰكن إبليس وسوس لهما ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وأكد نصحه لهما فدلاهما[1] بغرور،

---

(١) التدلية: إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل، كتدلية الدلو في البئر، ومعنى قوله ﴿فدلاهما﴾ أي جعلهما يقدمان على الأكل من الشجرة، ففقدا هٰذه المنزلة الرفيعة التي كانا فيها، وهو تمثيل حال من يطلب شيئاً من ما يرجوه فلا يجده، بحال من يدلي دلوه أو رجليه في البئر، ليستقي من =

فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١-٢٣].

والناظر في سورة الأعراف يجد أنها تشتمل على جزئيات كثيرة لم تذكر في سورة (ص)، ففي سورة (ص) ذكر الماء والطين؛ ولكنه لم يذكر في سورة الأعراف، وفي سورة (ص) ذكر القول بعنوان -وما أكثر الجديد فيها- الربوبية للنبي ﷺ ﴿إذ قال ربك﴾ لما سنعرفه فيما بعد إن شاء الله، ولكن في سورة الأعراف ذكر شيء آخر: ﴿ثم قلنا للملائكة﴾ وفي سورة الأعراف ذكر الأمر: ﴿إذ أمرتك﴾ ولم يذكر الخلق باليدين الذي ذكر في سورة (ص)، وأمر آدم أن يسكن وزوجه الجنة ذكر في سورة الأعراف ولم يذكر في (ص) وكذلك أمرهما أن يأكلا من كل شيء إلا شجرة واحدة، وكيف وسوس لهما الشيطان حتى أكلا من الشجرة، وبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فهذه مشاهد ذكرت في سورة الأعراف ولم تذكر في سورة (ص) كما رأينا ذلك.

= مائها فلا يجد فيها ماء، فيقال دلّى فلان.

٣- أما سورة **طه** فإن الجهة التي تحدثت عنها الآيات الكريمة كانت غير ما في السورتين الكريمتين (ص والأعراف)، حيث بدأت الآيات:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١١٥-١٢٤].

ثم يبين الله لآدم بأنه تتوافر له الراحة في الجنة فلن يجوع ولن يعرى ولن يظمأ ولن تزعجه الضحوة حيث الشمس في شدة حرارتها[(١)] ولكن الشيطان وسوس له موهماً إياه بأنه سيدله على شجرة الخلد وملك لا يبلى وأكل هو وزوجه من الشجرة فكان ما كان من بدو السوءات ومحاولة إخفائها من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وأمروا جميعاً بالهبوط ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

سورة طه إذن لم تحدثنا عن الماء والطين؛ والجديد في سورة طه وما أكثر الجديد فيها حديثها عن عهد الله لآدم ونسيان آدم هذا العهد، ولم تحدثنا عن المحاورة والتبكيت الذي كان من الله لإبليس؛ ولكنها حدثتنا هنا عن قضايا جديدة لم نجدها في السورتين السابقتين:

---

(١) وإنما جمع بين الجوع والعري؛ لأن الجوع خلو باطن الجسم من الغذاء، والعري خلو ظاهر الجسم من الثياب، وإنما جمع الظمأ والضحوة، لأن الظمأ حرارة في باطن الجسم، والضحو حرارة في ظاهر الجسم، من شدة حرارة الشمس؛ والمتدبر في الآية الكريمة سيجد حكما أخرى غير هذه.

(١) عن عداوة إبليس لآدم ولزوجه.

(٢) عن محاولته اخراجهما من الجنة وسيشقى إذا كان ذلك.

(٣) عن وسائل الراحة التي هيئت له في هذه الجنة.

(٤) عن المداخل التي استطاع إبليس أن يدخل منها لآدم، وهي هذه الاستعدادات الفطرية التي منحها والتي أصبحت فطرة في بنيه جميعاً، وهي حب البقاء، وحب التملك، وهما فطريان في الإنسان ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] كما حدثتنا عن عصيان آدم وغوايته ولكن بعد ذلك عن اجتباء ربه له وهدايته، كل هذه العناصر كانت جديدة في السورة الكريمة.

وسيأتي مزيد تفصيل لقصة آدم في هٰذه السورة الكريمة.

٤- **أما سورة الإسراء**، فقد حدثتنا عن هذه القصة من جانب آخر، حيث بدأت هكذا:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

سورة الإسراء إذن كان حديثها عن جانب يكاد يقتصر على ما سيكونُ من ابليس -لعنه الله- مع بني آدم «لاحتنكن ذريته إلا قليلا» وأصل الاحتناك: الاستيلاء على الشيء أو الاستئصال له، فمن الأول قولهم: حنكت الدابة إذا وضع في حنكها الرسن لقيادتها، ومن الثاني: أي الاستئصال قولهم: احتنك الجراد الأرض إذا استأصل كل ما فيها من نبات وزرع، فمعنى الآية لأستولين على ذرية آدم، ولأقودنهم إلى ما أشاء من المعاصي والشهوات إلا عدداً قليلا منهم.

أما قوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم ﴾ [الإسراء: ٦٤] فالاستفزاز: الاستخفاف والازعاج، يقال: استفز فلان فلاناً إذا استخف به وأوقعه فيما يريد منه، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤] فأصل الإجلاب الصياح، يقال: أجلب على فرسه إذا صاح به لحثه على السير، ومعنى بخيلك ورجلك أي بجنودك راجلين أو راكبين، فالمقصود من الخيل في الآية الفرسان الراكبون لها والرَجِل بفتح الراء وكسر الجيم، الذين يمشون على أرجلهم.

وأما قوله سبحانه: ﴿ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ [الإسراء: ٦٤] فالمشاركة في الأموال كونهم يجمعونها لا يتحرون الحلال في جمعها، وينفقونها في غير الوجه المشروع. ويمنعونها مستحقيها. ومشاركتهم في الأولاد تنشئتهم تنشئة فاسدة، وتسميتهم أسماء غير مقبولة، وتزيينه الزنا لهم.

قال ابن جرير -رحمه الله- في معنى الآية: «كل مولود ولدته أنثى عُصي الله فيه بتسميته بما يكرهه، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده أو بغير ذٰلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه».

وقوله سبحانه: ﴿وعدهم﴾ أي عدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة، وهٰذا تصوير دقيق لما توسوس به الشياطين، ليحذر المسلم وليستعيذ بالله دائماً من الشيطان، ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

سورة الإسراء إذن طويت فيها كثير من المشاهد التي رأيناها في غيرها وبرزت فيها عناصر جديدة تظهر في قوله:

﴿ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءً مَّوۡفُورًا﴾ [الاسراء: ٦٣] وهٰذه الأوامر مقصود بها التهديد، مثل قوله: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ [فصلت: ٤٠] ، ولقد ركز القرآن الكريم كثيراً، وهو يحذر الإنسان من مصائده ومصائبه وحبائله، ونفثه ونفحه وهمزه.

مسالك الشيطان في الإغواء ووسائله:

ومما هو قريب مما في سورة الاسراء ما حدثنا القرآن الكريم عنه في سورة النساء قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٦-١٢١].

ومعنى هٰذه الآيات الكريمة، أن هٰذا الشيطان جمع بين صفتين، فالصفة الأولى لعنة الله عليه، والصفة الثانية قوله ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وقد بيّن الله في هٰذه الآيات الكريمة، المسالك التي يسلكها الشيطان مع هٰذا الإنسان، فهو أولاً عرف بما لا يقبل الريب: أنه سيجد من بني آدم فئة تأتمر بأمره، ثم ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

أما وسائله التي يزين بها ويزينها فهي الإضلال أولا ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ ثم يمنيهم بالوعود الكاذبة، التي سيتبرأ منها يوم القيامة كما قال: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] لن أستطيع غوثكم مهما كان صراخكم، ولن تستطيعوا غوثي كذٰلك.

والوسيلة الثالثة: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهٰذا الذي كان يزينه للعرب في جاهليتهم، ثم ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وتغيير خلق الله يكون بتغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها، عقائد وعبادات، وما نجده اليوم من تعدّ على الجنس

البشري من استنساخ وهندسة وراثية لا تتفق مع خير هٰذا الانسان، تشمله الآية الكريمة، وهٰكذا نجد كتاب الله تبارك وتعالى في مواطن كثيرة، يحذّر الإنسان من شر الشيطان، لأن الشيطان أصل الشر كله. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

بقي هنا أمر لا بد من التنبيه عليه، جاء في الآية الكريمة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وجاء قوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، فكيف نجمع هاتين الآيتين؟

والمتدبر للآيات يدرك الإجابة، فالشيطان يتمنى أن يغوي الناس جميعاً، ولذٰلك لن يترك أحداً من شره، ودليل هٰذا ما جاء في الحديث الصحيح: «**ما من أحد إلا ووكّل به قرينه من الخير وقرينه من الشرّ قالوا حتى أنت يا رسول الله؟ قال حتى أنا إلاّ أنّ الله أعانني عليه فأسلم**»(١)

ولهٰذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فهو لن يترك أحداً من مصائده، لٰكنه أقر بأن فئة من عباد الله لن يستطيع إغواءها وهم الذين اخلصوا لله سرهم وجهرهم، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وهم الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

٥- **أما سورة الحجر**، فلقد أضافت عنصراً جديداً مهماً، لا بد لهذا الانسان أن يكون على علم به وهو أن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، ذلك لأن لعنصري الصلصال والحمإ المسنون في خلق الإنسان وفي حياته بعد ذلك دوراً لا يمكن إغفاله، فالصلصال لا يتماسك كثيراً، بل سرعان ما يتحطم ويتفتت؛

---

(١) انظر مسند أحمد ٦/ ١١٥.

فهو هش لأنه الطين الذي جففته الشمس، فهو لا يملك خاصية المحافظة على ذاته، فسرعان ما يتفتت، فليس في شدته كالفخار الذي سوّته النار، والحمأ المسنون: الطين الذي اشتد سواده وتغيرت رائحته تغيراً مكروهاً والمسنون المصور. هاتان خصيصتان: عدم التماسك وعدم الاحتفاظ بخاصية الصلاح وطروء الفساد والتغير، وهما ملازمتان للإنسان، إلاّ إذا تداركه الله بعفوه ورحمته، فإنه حين ذلك يكون قوياً بعيداً عن أن يطرأ عليه فساد ولعل هذا ما يشير إليه الحديث الشريف الذي روي عن سيدنا رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت: يا رب؛ هل في خلقك شيء أشد من الجبال قال: نعم الحديد؛ قالت: يا رب؛ فهل في خلقك شيء أشد من الحديد قال: نعم، النار، قالت: يارب؛ فهل في خلقك شيء أشد من النار قال: نعم الماء قالت: يا رب؛ فهل في خلقك شيء أشد من الماء قال: نعم الريح قالت: يا رب؛ فهل في خلقك شيء أشد من الريح قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه ويخفيها من شماله»[1].

سورة الحجر إذن جاءت بهذه المعلومة الجديدة ذات الشأن والخطر في حياة الانسان: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨].

وهناك أمر جديد آخر في سورة الحجر، وهو أن الله تبارك وتعالى لما سأل ابليس عن سبب عدم سجوده، وأجاب بأنه لن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون، وأمر بالخروج، وحكم عليه بالرجم واللعنة يقول: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩] فعنصر التزيين جديد في هذه السورة الكريمة؛

(١) أخرجه الترمذي / سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي / أبواب تفسير القرآن باب فضل صدقة السحر حديث رقم ٣٣٦٦ جـ٩ ص٨٩ قال ابو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا الا من هذا الوجه.

فهو سيحسِّن لهم ما يريد أن يحملهم عليه ويأمرهم به، ولكنه يعترف أنه لن يقدر، ولن يغوي بهذا التزيين عباد الله المخلصين، ويبين الله له بأن جهنم موعده وموعد من يرضى بتزيينه، وأن لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٢٨-٤٤].

٦- أما **سورة الكهف**، فقد ذكرت لنا القصة في آية واحدة، ومع كونها آية واحدة فإنها لا تخلو من جديد:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

فقد برز في هذه الآية الكريمة العناصر التالية:

(١) إن ابليس من الجنِّ: وهي الآية الأولى التي يصرح فيها بذلك.

(٢) إن لإبليس ذرية.

(٣) إنّه فسق عن أمر ربه بعد أن لم يكن كذلك.

(٤) إنّه لا يجوز لبني آدم أن يتخذوا ابليس وذريته اولياء من دون الله مع عداوته لهم.

هذه الآية الكريمة وما فيها من قضايا جديدة[1] كانت آخر الحديث عن قصة آدم في العهد المكي.

٧- ويأتي العهد المدني فنجد الحديث عن قصة آدم في سورة واحدة فحسب هي سورة **البقرة**[2] ولكنها تحدثنا عن القصة حديثاً فيه الجدة التي لم نجدها من قبل، حيث تبدأ القصة هكذا ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ويبين سبحانه أنه علَّم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة لينبئوه بهذه الأسماء، ولكنهم اعترفوا بأنهم لا يعلمون ذلك ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢] ويؤمر آدم أن ينبئهم بأسمائهم.

وهٰذه خاصية جعلها الله لآدم دون غيره، وتلكم من آثار رحمته سبحانه ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمٰن: ١-٤] وهٰذا يتناسب مع خلافته للأرض التي أرادها الله له، فالعلم -إذن- هو أول ما امتاز به الإنسان كما جاء في هٰذه الآية الكريمة من سورة البقرة، وهو أول ما تفضل به الله على الانسان، كما جاء في أول سورة نزلت على الرسول ﷺ وهي سورة القلم؛ لذٰلك كثرت الآيات التي تتحدث عن العلم، ولٰكن ما هي الأسماء التي علمها الله آدم، كثرت أقوالهم في هٰذه المسألة:

الأسماء التي عُلمها آدم:

يرى بعضهم أنه علمه أسماء الأشياء كلها التي ستعرف في هٰذه الحياة الدنيا، وقد يكون في هٰذا القول بُعد، ولعل الأقرب أن يقال: إن الأسماء التي عُلمها آدم تلك التي خلقها الله له، وكان وجودها أمراً لا بد منه لكونه محتاجاً إليه، والهدف من الآية الكريمة

---

(١) وتدل الآية على أن الجن ليسوا جميعاً كفاراً وفاسقين.

(٢) الآيات: ٣٠-٣٨.

بيان فضل الله على هٰذا النوع البشري وما خصه الله به وفضله على غيره، ولقد نقل كثير من المفسرين أقوالاً بعيدة غريبة.

ولقد كان الملائكة في قمة الأدب والتسليم لله وتعظيمه سبحانه، فهم لا يعلمون إلا ما عُلموه ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٣٢] بأسماء هٰذه المسميات التي عرضت على الملائكة، فلما أنبأهم آدم، قال الله لهم: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] وفي هٰذا توجيه للملائكة وبيان، ليدركوا السبب الذي من أجله جعل آدم خليفة في الأرض، إنه وإن كان بعض ذريته سيفعلون مالا ينبغي، لٰكن يبقى هٰذا الإنسان هو وحده الذي يصلح للخلافة في هٰذه الحياة، يستخرج خيراتها، ويرصد مجراتها، وصدق الله ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥].

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ[1] قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ

---

(١) وسؤال الملائكة هٰذا ليس اعتراضاً، كيف والملائكة عباد مكرمون؟! ورحم الله الأستاذ عبد الكريم الخطيب وسامحه الله، إذ يقول: «فلقد كانوا -الملائكة- يرون في أنفسهم أنهم أقرب إلى الله من هٰذا المخلوق الذي طرأ على الوجود، وإنهم لهٰذا أولى بأن يكون منهم الخليفة على الأرض» [القصص القرآني ص٣٨٥].

وهٰذا قول حري بالرد، إذ مؤداه أن الملائكة حسدوا آدم، فما الفرق بينهم وبين إبليس؟ ثم إن الملائكة يدركون أنهم خلقوا لما أراده الله منهم، لا من أجل عمارة الأرض وخلافتها، فلم يخطر ببالهم هٰذا الخاطر. =

وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٨].

هذه قصة آدم كما جاءت في كتاب الله تعالى، ولا نجد أي قصة في هٰذه السور الكريمة السبع تشبه غيرها فتكون صورة مماثلة لها -كما رأينا- من حيثُ الجزئياتُ وما ذكر من بعض المشاهد في أكثر من سورة فلأنه عنصر رئيس أراد الله أن ينبه عليه هذا الإنسان.

ثانياً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها وشخصيتها، مع ذكر القصة التي جاءت فيها.

فسورة (ص) التي جاءت في عنفوان خصومة قريش للنبي ﷺ، حينما عجبوا أن جاءهم منذر منهم، وعجبوا أن جعل الآلهة إلهاً واحداً، وطلب بعضهم من بعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم، بدأت القصة فيها بهذه التسلية عليه وآله الصلاة والسلام بعد قوله:

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧٠-٧١].

وهكذا نجد كل سورة تتناسب مع موضوعها وشخصيتها[١].

---

(١) نلحظ أن الآية جاءت هنا، ﴿إذ قال ربك﴾ بلا حرف عطف، كما جاءت في سورتي الحجر والبقرة ﴿وإذ قال﴾، لأنه لم يسبق ما يستدعي العطف عليه، فكأن الآية جواب عن سؤال ﴿ان يوحى إليّ﴾ كأنه قيل: فما الذي أوحى الله إلى نبيه؟ فقال ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾، أما في سورة البقرة والحجر فالمتأمل يجد سببا للعطف وليراجع القارىء تفسير هٰذه الآيات.

وأنقل هنا كلمة قيمة للعلامة شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمد الخضر حسين، يقول رحمه الله: «إنها وردت في ست سور: في البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه[١]، ففي سورة البقرة[٢] وردت القصة في سياق تذكير الناس بنعمة الله، والعجب من أنهم يكفرون به. فكانت القصة تدور على هذا التذكير من جعل آدم خليفة، وتعليمه الأسماء كلها. وفي سورة الأعراف وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلاً ما يشكرون الله الذي مكّنهم في الأرض وجعل لهم فيها معايش، ولهذا أسهبت القصة في موقف ابليس مع الانسان.

وفي **سورة الحجر**: وردت القصة في سياق خلق آدم من طين والجن من نار فليست مادة أفضل من مادة، وهذا ما ركزت عليه القصة.

أما في **سورة الإسراء**، فقد وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس، ولذلك كان الإسهاب فيها في واقعة حسد إبليس وعداوته لآدم وذريته»[٣].

ثالثاً: من جهة الألفاظ والتراكيب:

١- ما جاء في سورة (ص) ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] وجاء في سورة الأعراف ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: ١٢] وفي سورة الحجر ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] فسورة (ص) هي السورة الأولى التي نزلت فيها القصة, فبين فيها فضل آدم وتكريم الله له حيث خلقه بيديه سبحانه، أما سورة الأعراف فقد كان الخطاب موجهاً فيها لتعنيف إبليس،

---

(١) سها الشيخ رحمه الله عن ذكر سورة (ص).

(٢) وسورة البقرة كما نعلم هي سورة التكاليف التي كلفت بها الجماعة المؤمنة وهذه التكاليف لا بد لها من علم فمن علم بها وعمل كان جديراً أن يكون خليفة في هذه الأرض، ولذلك ذكر فيها ما يتناسب مع شخصية السورة وموضوعها.

(٣) لواء الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة ص٥٣٧-٥٤٠.

حيث بينت أن الله أمره بهذا السجود، فكان حرياً به أن يستجيب إلى أمر الله، وأما سورة الحجر فكان التنبيه فيها على شيء آخر, وهو خيرية أولئك الذين أجابوا داعي الله، وهكذا جاء في كل سورة ما يتلائم مع موضوعها، ففي سورة (ص) كان الهدف تكريم آدم ﴿لما خلقت بيدي﴾، وفي سورة الأعراف كان الهدف تعنيف إبليس ﴿إذ أمرتك﴾. وفي سورة الحجر الثناء على الملائكة الذين سجدوا ﴿مالك ألا تكون مع الساجدين﴾. ولقد رأينا في سورة (ص) كذلك: (لما خلقت بيدي) فذكر فيها جانب العناية بآدم؛ لأنها أول سورة يذكر فيها.

وأما سورة الأعراف فقد ذكر فيها جانب الأمر الإلهي «إذ أمرتك» وقد خلت سورة الحجر التي نزلت بعدهما من هذين الجانبين؛ لأنهما ذكرا من قبل، أعني قوله «بيدي» في سورة (ص) وقوله «إذ أمرتك» في سورة الأعراف.

٢- جاء في سورة (ص) ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧٩-٨٢].

وجاء في سورة الأعراف ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٦].

وفي سورة الحجر ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٩].

فلقد جاءت الفاء في سورة (ص) والحجر، في موضعين ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، [ص: ٧٩] ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٧]، [ص: ٨٠] وخلت منهما سورة الأعراف. ﴿قال أنظرني﴾؛ وذلك لأن الآيتين في سورة (ص) وسورة الحجر ذكر قبلهما لعنة إبليس، فجاءت الفاء كأنه قال إن حكمت علي باللعنة رب فأنظرني. وجاء الجواب له في الآيتين كذلك بالفاء «فإنك من المنظرين».

أما سورة الأعراف فلم يتقدم فيها شيء من هذا. لذلك نراها خلت من النداء «رب» كما خلت من الفاء وقد خلا الجواب كذلك «إنك لمن المنظرين» حتى يطابق السؤال.

أما قول إبليس في سورة (ص) فبعزتك، فجاء متلائما مع تكريم آدم، وإعزازه بأن خلقه سبحانه بيديه، وأما في سورتي الأعراف والحجر، فلم يذكر فيهما هذا التكريم لآدم من خلقه سبحانه وتعالى بيديه، وإنما ذكر الإغواء، إلا أن الذي ذكر في سورة الأعراف يرجح كون (الباء) للقسم، وذكر كلمة (الرب) في سورة الحجر دون (الفاء) يرجح كون (الباء) سببية، وهكذا نجد التفنن في الأسلوب مع ورود كل كلمة في الموضع الذي يتلاءم معها.

الغرض الديني والنسق الفني في القصة القرآنية (قصة آدم)

القصص القرآني هو صفوة لكل ما عرفه الإنسان من الفن القصصي، أيّاً كان نوع هٰذا القصص من حيث الموضوع، أو من حيث الحجم؛ ذٰلكم لأن الله تبارك وتعالى اختار ما يقصه على نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ والذين قص الله من أنبائهم على نبيه عليه وآله الصلاة والسلام كان قصصاً مختاراً، فالأنبياء الذين قص الله اخبارهم، لم يقصها جميعها، بل اختار منها ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ [هود: ١٢٠] أي نقص عليك بعض ما شئنا لا أنباءهم جميعها.

ولا ريب بأن الهدف الأول من هذا القصص كان دينياً، له أهدافه المتعددة كما مر معك من قبل، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ثم إننا نجد أن القرآن الكريم يعقب على كثير من القصص بأن فيه آيات وبصائر، ففي سورة الحجر يقول عقب ذكر قصة إبراهيم مع الضيف من الملائكة الكرام، وقصة لوط عليهما الصلاة والسلام ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] وفي سورة الشعراء عقب الحديث عن كل نبي مع قومه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢١] وحيناً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

ولا شك أن القصة القرآنية قد أدي فيها الغرض الديني أداءً محكماً كان قمةً في الوفاء والعبرة كما سيظهر لك ذلك وأنت تتنقل وسط العرض السخي للقصة القرآنية.

ومن عجيب أمر القصة في القرآن، أنك تقرأ القصة في السورة الواحدة، فتجدها قد بلغت الغاية وأدت الرسالة خير أداء، بحيث تكون كافية لما سيقت له من الخبر المتحدث عنه، فإذا أنت ضممت هذه القصة إلى أخواتها اتسعت البقعة المثمرة واتسع البناء المحكم.

القصة القرآنية ـ إذن ـ تؤدي الغرض الديني متسقاً مع موضوع السورة الذي جاءت فيه، أما إذا أخذت هذه القصة في السور الكريمة جميعها، فإنك ستجد نفسك بين مروج فيها من كل فاكهة زوجان، هذا كله من حيث الغرض الديني في القصة القرآنية.

أما من حيث النسق الفني، فإنك لو تأملت مُلاقٍ ما تأنس به نفسك، ويستريح له فؤادك، وتنعم عاطفة وفكرا معا، إن كل قصة في كتاب الله تكون جناحاً محكم التصميم، فإذا أنت ضممت هذه القصة التي تحدثك عن نبي من الأنبياء إلى أخواتها وجدت البناء المحكم أجنحة نُسِّقت وهُندست، لتعطي الصورة الفنية التي هي قمة الإبداع، وإن شئت قلت هو حي اتسقت فيه الأبنية، بحيث يسحرك مظهره الخارجي، فإذا ما هُيِّيء لك أن تنعم فتسير بين ردهاته وحجراته أدركت أنك إنما تسير تمتع نفسك، وتجيل نظرك في جنات حسان، كأنها ليست من جنان الأرض.

وسأضرب لك مثلا ونحن نتحدث عن قصة آدم ـ ﷺ ـ لأختار لك نماذج ثلاثة، نقف مع كل أنموذج على حدة، ولن أبادرك القول بالنتائج التي سنجدها وندركها، وإنما أترك هذا فيما بعد، أتركه لك أنت، والنماذج التي أختارها لك، حسب ترتيب النزول:ـ

١- سورة الأعراف.

٢- سورة طه.

٣- سورة البقرة.

وبدهي أن الأوليين مكيتان، والأخيرة مدنية، ولنتدبر الآيات في هذه السور.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠-٢٥].

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ١١٥-١٢٨].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

تدبر هٰذه الآيات الكريمة في كل سورة من هٰذه السور الثلاث وهي أمامك - والقرآن الكريم إنما أنزله الله ليتدبر ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وستجد أن الغرض الديني والنسق الفني متلازمان، وهٰذه هي طبيعة القرآن الكريم، فكما هو كتاب هداية، فهو معجز كذٰلك، والهداية والإعجاز لا ينفصل بعضهما عن بعض، وهٰذا عام في القرآن الكريم كله، قصصه وتشريعاته وحكمه وعقائده كل أولئك سواء.

سورة الأعراف:

البداية: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠] بدأت الآية الكريمة بهٰذا القسم: «ولقد»[1]، ولقد جاءت هٰذه الآية تعقيباً على نعمة الله على نبيه ﷺ بهٰذا القرآن، الذي لا ينبغي أن يكون في صدره الشريف حرج منه، بل ينبغي أن يبلغه بكل طمأنينة ورغبة، وأن الناس أمام الهدي الرباني فريقان، شقي وسعيد، ولن يُظلم أحد شيئاً، فالوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فهو المفلح ومن خفت فهو الخائب.

في هٰذا المضمار يذكر الله الناس جميعاً بأنه خلق أباهم آدم بعد أن هيأ لهم الأرض لتكون صالحة للحياة عليها، وهٰذا هو التمكين، وهٰذا متسق تماماً مع كثير من آي القرآن، مثل قوله: ﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]. فالتمكين في الأرض -إذن- هو أولاً تمكين آدم ﷺ، ولٰكن الناس لا يشكرون، ثم يقول الله سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الأعراف: ١١].

بداية القصة -إذن- هٰذا القسم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾، الخلق أولاً، والخلق هو الإيجاد من العدم، ثم التصوير وهو كون المخلوق على هيئة معينة أرادها الله سبحانه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧] ثم ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ ونلحظ هنا أن هناك مرحلتين: الخلق، والتصوير فصل بينهما بـ (ثم) وهو حرف يدل على الترتيب والتراخي، وهٰذا التراخي كما يقول العلماء، قد يكون زمنيا كقولنا، «أرسل الله موسى ثم عيسى» فإن بين النبيين مسافة زمنية، وقد يكون رتبياً على معنى أنه لا تراخي زمني، وإنما هو من حيث المنزلة والرتبة كقولنا (أحباب الله الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)، فأيهما في الآية الكريمة؟ أهو تراخٍ زمني؟ أي أن هناك مرحلة زمنية بين

(١) فإن اللام هنا واقعة في جواب قسم.

الخلق والتصوير أم هو تراخ رتبي؟ لأن مرحلة التصوير أدق وأعظم؟ قيل بكل من الرأيين، والذي أميل إليه أنه رتبي.

وبعد هٰذا تأتي المرحلة الثالثة: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ ولا شك أن السجود لآدم كان بعد نفخ الروح، وهٰذا ما بينته سورة (ص) التي سبقت سورة الأعراف ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يكن من أولٰئك الساجدين، ويقرّع الله إبليس، ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وهٰذه الجملة ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ تقطع كل ما أثير حول هٰذه القضية من أن الأمر كان للملائكة وحدهم، وليس إبليس منهم، إذن لم يوجه إليه اللوم؟ وبخاصة أن الأمر لم يذكر من قبل في سورة (ص)، إذن وُجِّه الأمر الإلٰهي إلى إبليس، وليس لإبليس ما يحتج به إلا هٰذا الوهم القائم في نفسه الشريرة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهي العبارة نفسها التي ذكرت من قبل في سورة (ص) وتركيز القرآن على هٰذه العبارة، لما قلت من قبل من أنه ليس عنده إلا هٰذا الوهم في نفسه الخبيثة.

ويؤمر إبليس بالهبوط والخروج منها، ولقد تحدثت عن معنى الآيات من قبل، ويذكر القرآن طلب إبليس ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وفي بعض الآيات: ﴿رب فأنظرني﴾، وقد تحدثت عن هٰذا من قبل كذٰلك، وينظر ولٰكن لا كما أراد، لا إلى يوم البعث، بل إلى ما أراده الله تبارك وهو يوم الوقت المعلوم الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، ويجدها فرصة سانحة له، ليشفي غلته من بني آدم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ما حدثنا عنه القرآن الكريم. ويرد الله سبحانه ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨] وقد شرحت لك هٰذا كله من قبل.

ثم تأخذ الآيات في بيان مشهد آخر وقد انتهت من بيان خبر السجود وما يتصل به، وقد حكم على إبليس بالخروج مذءوماً مدحوراً، فليسكن آدم الجنة، ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩] ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ فالضمير (أنت) تأكيد للضمير المستتر الذي هو الفاعل، وجيء به ليصح العطف،

ونلحظ أن أمر الأكل لم يكن كذٰلك. ﴿فكلا﴾ ولم يقل «فكل أنت وزوجك»، وهٰذا هو النسق الذي جاء في الآيات كلها، ولا ريب أن أمر السكن للزوجين يختلف عن أمر الأكل، فأمر السكنى تكون فيه المرأة تابعة للرجل، وليس كذٰلك أمر الأكل، فكل واحد يأكل حين حاجته للأكل، ونُهيا أن يقربا شجرة معينة، ولم تذكر هٰذه القضية من قبل في سورة (ص) ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، والظلم من أكثر الشرور وأكبر المعاصي التي ركز عليها القرآن الكريم، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ والوسوسة هي الفعل الخفي، ويبين القرآن الكريم علة هٰذه الوسوسة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، وهٰذه كانت العاقبة، وهٰذه هي الفرصة الأولى التي وجدها سانحة له ليبدأ تنفيذ ما توعد به آدم وذريته، ولا شك أن اللعين كان على علم بأن مخالفتهما أمر ربهما سيذهب بكثير من الثمار التي أكرمهما الله بها، وسيعرضهما لعقوبات، وهٰذا الذي كان، إن كل ما يتمناه أن يفقد آدم وزوجه آثار الروح التي كُرِّمَا بها وأسجد لهما الملائكة من أجلها، وأن يكونا أرضيين بكل ما في الأرض من كدرة وحمإ.

وبذل ما يستطيع ليتم إغواؤه، وعرف مواطن الضعف التي يأتي منها، ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] وإتماماً للإغواء، أكّد لهما مقسماً، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١] أنه ناصح لهما، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢] واستجابا له، وكان ما حدثنا القرآن الكريم مما شرحته لك من قبل... ويندما ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] ويستغيثان ليغفر الله لهما ويرحمها.

وتختم القصة ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، وهٰذه الواو واو الجماعة، إنما تكون لأكثر من اثنين أي آدم وزوجه وابليس، ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ وهٰذا الحكم لآدم وذريته، وإبليس وجنده، فهم في هٰذه الأرض حياة وموتاً وخروجاً، ثم تعقب الآيات بعد ذٰلك بنداء بني آدم، نداءات متعددة، ولقد شرحت لك هٰذا من قبل.

تلكم هي قصة آدم في سورة الأعراف بداية ونهاية، وهي تشكل بناءً محكماً متناسقاً، يتفق فيه الغرض الديني والنسق الفني.

ثانياً: سورة طه:

تدبر الآيات الكريمات، تجد أن قصة آدم في سورة طه كان لها نسق آخر، لا من حيث البداية فحسب، ولا من حيث النهاية وحدها، بل من حيث البداية والنهاية وما بينهما، بدأت الآيات الكريمة بقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وهٰذه براعة استهلال كما يقولون، تبين لنا أن هناك مسلكاً ستسلكه الآيات الكريمة في سورة طه.

إن الآية الأولى في القصة تبين لنا أن التركيز في هٰذه السورة إنما هو على آدم عليه السلام، وأن اللوم والعقاب يوجهان إليه وحده، ومن هنا بدأت القصة بهٰذه الآية الكريمة لتكون خلاصة مجملة تتشرف النفس إلى ما بعدها من تفصيل.

ثم تأخذ الآيات الكريمة بالتفصيل، كيف نسي ولم نجد له عزما؟ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [طه: ١١٦] تلحظون أن البداية هنا مختلفة تماماً عن سورة الأعراف، فليس ثمة حديث عن الخلق كما كان هناك، ثم ليس هنا حوار، وليس هنا سؤال لإبليس عما منعه من السجود، بل هنا شيء آخر ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] لم يسأل إبليس هنا عما منعه من السجود، بل وُجه الكلام إلى آدم ليكون حذراً يقظاً، ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ لك أولاً، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآيات تدلنا -اذن- على أنهما كانا في الجنة، وليس كما حدث في سورة الأعراف، ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ وليس «فتشقيان»؛ لأن شقاءه هو الذي ركزت عليه السورة هنا ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨-١١٩]. وقد شرحت لك هٰذا من قبل.

السورة هنا تركز كثيراً على آدم، فزوجه تبع له، وهو الذي يتحمل مسؤوليتها، فشقاؤها شقاؤه أولا، وكذلك جوعها وما يتصل به، . . . ثم ماذا ؟! تركز السورة على آدم وحده ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]، وأين هٰذا مما جاء في السورة السابقة؟ هناك ﴿فوسوس لهما﴾ وهنا، ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ هناك عدي فعل الوسوسة باللام، أي وسوس لأجلهما، أما هنا فقد عدي بإلى، وإلى حرف انتهاء، أي وسوس قاصداً أن ينتهي بوسوسته إلى آدم.

في سورة الأعراف كان خطابه لهما معاً «لآدم وزوجه» ﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾ أما هنا فكان الخطاب «لآدم وحده»، ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ﴾، في سورة الأعراف ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾، أما هنا فجاء قوله سبحانه ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾. في هٰذه السورة -إذن- تركيز واضح على شخصية آدم؛ لأنه ربّان السفينة، ومدير الشركة، حتى إن الخطاب الأخير ﴿وقلنا اهبطوا ﴾ إلا في هٰذه السورة ﴿ ٱهْبِطَا﴾ ولا يعقل أن يكون الخطاب لآدم وزوجه، لقوله سبحانه: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، إذن هو لآدم وإبليس، وفي هٰذه السورة تأكيد السعادة لمن اتبع الهدى، والشقاء لمن أعرض، وجاء التعقيب على القصة يتناسب مع مضمونها، ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٢٩-١٣٠] وهٰذا يتسق تماماً مع الحديث في أول القصة عن آدم عليه السلام فنسي ولم نجد له عزما.

تلكم هي قصة آدم في سورة طه جاءت نسقاً بديعاً، نسيج وحدها، تختلف من حيث العناصر والمضامين، حتى الفاصلة.

ثالثاً: في سورة البقرة:

لن نجد عناء بعد حديثنا عن القصة في السورتين السابقتين، أقول لن نجد عناء في الحديث عما امتازت به سورة البقرة، حيث بدأت ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] حيث طوي الحديث عن الخلق في هٰذه السورة، ولم تشر كذٰلك إلى ما عهد الله إليه به، بل ركزت على قضايا جديدة وهي الخصائص التي أكرمه الله بها، لتكون فيما بعد، الرصيد الذي امتازت به ذريته، خلافته في الأرض وهٰذه تكرمة من الله عظيمة، ثم اختصاصه بالعلم، وهو ما اعترف الملائكة بأنهم عاجزون عما سئلوا عنه.

أما من حيث الألفاظ فجاء في هٰذه السورة الكريمة ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] كما جاء فيها ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

ثم من الموضوعات التي جاءت في هٰذه السورة، ما أكرم الله به آدم وقد تلقى من ربه ﴿كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، الحديث هنا في هٰذه السورة ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾. حيث جاء العطف بحرف الواو، بينما في سورة الأعراف ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا﴾ [الأعراف: ١٩]، وقد ذكرت كتب المتشابه أن السكنى في سورة البقرة تختلف عنها في سورة الأعراف، إذ قد يراد بالسكنى اتخاذ المسكن وقد يراد بها الإقامة، قالوا والسكنى التي وردت في سورة الأعراف يراد منها اتخاذ المسكن، حيث جاء قبل الآية الكريمة، قوله تعالى لابليس ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ فليخرج إبليس منها ليتخذها آدم مسكناً له، قالوا: ولذا جاء العطف بالفاء، لأن الأكل إنما يكون بعد اتخاذ المسكن، فالواحد منا يبحث عن مسكن أولا، ثم يأتي دور الأكل، أما السكنى في سورة البقرة فالمقصود بها الإقامة، إذ لا ترتيب بين الإقامة والأكل، وهٰذا الذي كنت قد ارتضيته عند الطبعة الأولى لهٰذا الكتاب،

لكنني فيما بعد ارتأيت أن هٰذا القول لا يخلو من تكلف، فالتفريق بين السكنى في السورتين الكريمتين، أمر غير ظاهر، ولا يخلو من تكلف، ويظهر أن العطف بالواو في سورة البقرة، جاء يتسق مع ما فيها من زيادة تكريم لآدم؛ لأن العطف بالواو أعم؛ ولذا جاء فيها (رغداً) وهو ما لم يأت في سورة الأعراف، ولعل الذي يتأمل الآيتين، يدرك جمال موقع كل من الحرفين ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا﴾، ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا﴾ فوجود قلنا في سورة البقرة، وعدم وجودها في سورة الأعراف، جعلت كلا من الحرفين في مكانه ومكانته، والله أعلم بما ينزل.

ثم كان التعقيب في سورة البقرة على قصة آدم، كان ذكر بني إسرائيل الذين أعطاهم الله من العلم ما كرم الله به آدم، ولٰكن اختلفوا وكان العلم سبباً في شقائهم، ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [الجاثية: ١٧].

تلكم نماذج ثلاثة تآخى في كل منها الغرض الديني مع النسق الفني، فكان كل أنموذج أمة وحده، ولٰكنها كلها أمة واحدة.

تعقيب على قصة آدم

تلك هي قصة آدم، وتلكم هي السور الكريمة التي جاءت فيها هذه القصة، مرتبة حسب نزولها وتتميماً للفائدة نرى أن ننبه على بعض القضايا التي يمكننا أن نستنتجها ونستخلصها مما سبق:

أولاً مجيء قصة آدم مع غيرها من القصص:

وأول هذه القضايا: أننا رأينا السور التي ذكرت فيها قصة آدم يذكر فيها قصص غيرها من قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، يظهر ذلك جلياً في سورة (ص) والأعراف والحجر وطه والكهف والبقرة؛ والسورة الوحيدة التي ذكرت فيها قصة آدم عليه السلام، ولم يذكر فيها قصص آخر هي سورة الإسراء، ومع ذلك فلقد وجدنا إشارة لقصة موسى عليه السلام في آخر السورة، ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أن سورة الإسراء قد أشير فيها إلى قضية مهمة، وهي معجزة الإسراء التي كانت للنبي الكريم ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ.

السور التي فيها قصة آدم عليه السلام إذن كانت جميعها من السور التي ذكر فيها بعض قصص الأنبياء، ومعجزاتهم ـ عليهم السلام ـ، وهذا متسق ـ بالطبع ـ مع خلق آدم عليه السلام وإعداده للخلافة والرسالة التي أنيط بحملها، هو والصفوة المختارة من بنيه الذين جعلهم الله هداة ودعاة يدعون ويهدون بأمره... ولكن كان هناك ملحظ حري بنا أن ننبه عليه، ونشير إليه وهو أن هذه القصة لم تذكر مع قصص الأنبياء في سياق واحد وسرد واحد، بل وجدنا أنها يفصل بينها وبين غيرها من هذا القصص فقد تذكر قصة آدم قبل غيرها من القصص -كما في سورتي الأعراف والحجر- إلاّ أنّ الفرق بين السورتين أنه قد فصل بينها وبين غيرها من القصص كما في سورة الأعراف حيث جاءت قصة آدم من الآية ١١-٢٥ بينما بدأت قصة نوح من الآية ٥٩. بينما جاءت في سورة الحجر متصلةً مع غيرها من القصص.

وقد تذكر متأخرة كما وجدنا ذلك في سورة (طه) وسورة (ص)، وكان من الطبعي أن لا تذكر قصة آدم عليه السلام مع غيرها في سرد واحد؛ لأن الغرض والهدف من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلاممغاير للغرض والهدف الذي تذكر من أجله قصة آدم عليه السلام. ومن بديع نظم القرآن، وعجيب أسلوبه، أن نرى الفصل بينها وبين غيرها من القصص يطول ويقصر؛ نتيجة لقرب هذا الغرض أو بعده، ففي سورة الأعراف مثلاً يطول الفصل بين قصة آدم، وبين القصص الذي ذكر بعدها وأوله قصة نوح عليه السلام، وهذا ـ بالطبع ـ؛ لأن قصص الأنبياء بدءاً بنوح عليه السلام وانتهاءً بموسى عليه السلام في سورة الأعراف كان حديثاً عما كان بينهم وبين أقوامهم، ولكننا نرى هذا الفصل يقصر في سورة الحجر؛ ذلك لأن القصة التي ذكرت بعدها قصة إبراهيم، ولم تذكر قصة ابراهيم عليه السلام في هذه السورة من حيث ما كان بينه وبين قومه، وإنما كان الحديث عما أكرمه الله به من إرسال الملائكة وبشارتهم له، وهذا ليس غريباً عما كان لآدم ـ عليه السلام ـ ولا أود أن أطيل هنا ـ، وإنما أردت أن أنبه القارىء وأفتح له الباب ليقرأ ويستقرىء؛ فيصل بنفسه إلى ما قررته له.

ثانياً: الاستعدادات الفطرية التي منحها آدم:

إن الحديث عن آدم ـ عليه السلام ـ هو حديث عن الخصائص والميزات التي خص الله بها هذا الانسان وميزه بها عن غيره، كما أنه كان حديثاً عن تلك الاستعدادات والغرائز التي هيأها الله لهذا الإنسان أرضية كانت أم علوية؛ فقد أخرج الترمذي مرفوعاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن[1] والخبيث والطيب»[2] لاعجب إذن أن نجد آدم عليه السلام بعد أن

(١) الحزن ـ الصعب.

(٢) سنن الترمذي ابواب تفسير القرآن، من سورة البقرة حديث رقم ٢٩٥٨ جـ ٨ ص ١٥٤ =

يعهد الله إليه أن ينسى، وأن يخور عزمه ويفتر عما عهد الله إليه، ولا عجب إذن أن نجد ربنا تبارك وتعالى يهيء لآدم عليه السلام ما يصلحه ليصلح لعمارة هذه الأرض، وان يُزَوَّد بهذه الاستعدادات: الاستعداد الجنسي أولاً؛ وكان له بعد أن تم خلقه حيث أمره أن يسكن هو وزوجه الجنة. وحب البقاء ثانياً؛ وهو ما طبع الإنسان عليه من هذا الأمل، وحب التملك ثالثاً؛ ومن نتيجته هذا التنافس بين الأفراد والشعوب والأمم، والتدين رابعا حتى يستطيع أن يضبط الاستعدادات السابقة؛ فلا يطغى بعضها على بعض، ولا يبغي أحد على الآخر، وفي حديث الرسول عليه وآله الصلاة والسلام «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[1] ومن أجل ذلك يحرص إبليس على أن يغوي هذا الإنسان ويضله ويضعف هذا الوازع الديني في نفسه.

ثالثاً:ـ قضية التدين هي قضية فطرية في الإنسان منذ أن خلقه الله تبارك وتعالى، وعرفه خالقه الواحد القدير، وإنما ذكرنا هذا؛ لنرد على أولئك الذين يسمون علماء الأديان وهم الذين يدرسون الدِّين على أنه ظاهرة اجتماعية تاريخية، وتنتهي بهم دراستهم الخاطئة إلى أن عقيدة التوحيد لم يصل إليها الإنسان إلا بعد شوط طويل زاول خلاله الخرافة، وتعدد الآلهة وغير ذلك؛ مما هو بعيد كل البعد عن عقيدة الإله الواحد. إن الله خلق هذا الإنسان سليم الفطرة، حنيفاً بعيداً عن الشرك والباطل؛ ولكن هذا الإنسان انحرف عن الفطرة فيما بعد فقضية الخرافة وتعدد الآلهة قضية عارضة في الإنسان، وليست أصلاً كما يقول بعض علماء تاريخ الأديان. وقد قلنا إن إبليس أخذ على عاتقه أن لا يدع ثغرة إلا وهو يحاول من خلالها إغواء هذا الإنسان، وفي الحديث الصحيح وفي خطبة رسول الله ﷺ الخطبة الرائعة الموجزة الجامعة التي أخرجها الإمام مسلم «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كُلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عبداً حلال وإني

= قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه الإمام مسلم وقال السيوطي في الجامع الصغير حديث صحيح/ فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي جـ ٢ ص٢١٧. حديث رقم ١٦٩٨.

خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان وإنَّ الله أمرني أن أحَرِّق قريشاً فقلت ربِّ إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نُغزِك وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال؛ قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش»(١).

يراجع شرح هٰذه الخطبه القيمة شرحاً مفصلاً نافعاً في كتابنا «خماسيات مختارة».

رابعاً:ـ تكريم بني آدم ولقد كرم الله بني آدم بكرامة أبيهم، وخلق هذا الانسان في أحسن تقويم، وليس ذلك خاصاً بجانبي الجسم والروح، وإنما هناك جانب ثالث؛ وهو الجانب الفكري والعقلي الذي هيأه الله لآدم حين علمه الأسماء كلها ففضل على الملائكة بهذا الجانب فقال لآدم: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ ﴾ [البقرة: ٣٣].

خامساً:ـ الجنة التي أُسْكِنهَا آدم: الجنة التي أُسْكِنَهَا آدم ـ عليه السلام ـ، كانت مهيأة ليجد فيها راحته؛ ذلك لأن عنصر الطين الذي خلق منه لا يقوى على مقاومة المؤثرات والعواصف والصدمات سيما وإنه صلصال سرعان ما يتفتت ويتحطم؛ لذلك ضمن الله له ما يستطيع أن يقاوم به هذه المؤثرات من شدة البرودة، وشدة الحرارة، ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ . ﴾ [طه: ١١٨-١١٩] فالجوع والعري،

(١) صحيح مسلم جـ ١٧ ص١٩٦ رقم الحديث ٢٨٦٥.

ثم الظمأ وما تسببه الضحوة من شدة حرارة، كل ذلك تكفل الله به لآدم ـ عليه السلام ـ ولزوجه في الجنة.

والجنة التي أسكنها آدم عليه السلام يذهب الكثيرون إلى أنها الجنة التي وعدها المتقون، ولكن الذي نرجحه أنها جنة خاصة كانت له، وأنها كانت في الأرض، وأن الهبوط الذي أمر آدم به منها إنما هو هبوط معنوي لا مادي.

سادساً: ـ خلق ادم عليه السلام والنظريات الحديثة: ان الله تبارك وتعالى خلق آدم وأسكنه الأرض، ولكن بعد أن هيأ له كل ما يصلح له حياته على هذه الأرض ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧] وكل النظريات التي يتخرص بها أصحابها: وبخاصة عشاق التطور؛ إن هي إلا ظن لا يغني من الحق شيئاً، ويؤلمنا أن يذهب بعض المسلمين ممن يحسنون الظن بهذه النظريات إلى تأويل نصوص القرآن القطعية الثابتة، كما ذهب إلى ذلك العلامه الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله تعالى في كتابه «قصص الأنبياء» لتتفق مع النظريات الهشة.

فآدم عليه السلام ـ كما حدثنا القرآن ـ أبو البشر جميعاً، ورحم الله الإمام الشيخ محمد عبده وعفا عنه: حيث ذهب إلى غير هذا، والى أن آباء البشر متعددون، كل ذلك خوفاً من أن يثبت العلم غير ما قرره القرآن. ولقد كان يحسن الظن بالنظريات وكان إيمانه بالقرآن وحرصه على أن تكون حقائقه ثابتة هو الذي حمله على مثل هذا؛ وكنا نرجو للشيخ ـ ونحن على يقين من قوة دينه ـ أن لا يقع في مثل هذه الترهات والأوهام، كما آلمنا كثيراً تأويله لقصة آدم عليه السلام في سورة البقرة تأويلا يخرج الآيات عن ظواهرها، وسيكون لنا عودة لهذا الموضوع لنعرض إلى ما قاله كل من الإمام محمد عبده والشيخ عبد الوهاب النجار رحمهم الله تعالى.

سابعاً:ـ زوج آدم عليه السلام: لم يحدثنا القرآن الكريم عن زوج آدم أمنا الحانية الحنون، وهي التي عرفت بـ «حوّاء» لم يحدثنا القرآن الكريم عن اسمها وعن كيفية خلقها، كل الذي أشار إليه القرآن الكريم في هذا المضمار، وفي سياق غير سياق قصة آدم إشارات موجزة من مثل قول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١] وأكثر المفسرين يذهبون إلى أن الله خلقها من ضلع آدم وهذا ما أشارت إليه التوراة صراحة وربما يستأنسون لذلك بحديث عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه»[١].

وذهب بعضهم إلى أن معنى قول الله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] أي خلقها من جنسه حتى لا يكون بينهما تنافر.

القرآن لم يحمل المرأة مسؤولية الأكل من الشجرة:

ونحن لا نرى ما يلزمنا بأخذ أي الرأيين، وان كنت أمْيَلُ لهذا القول الثاني، ولا مانع من ان يكون الحديث الشريف تمثيلاً لنفسية المرأة وشخصيتها؛ ولكن القضية التي يجب التنبيه عليها هنا أن القرآن الكريم، لم يحمّل المرأة مسؤولية الإغواء، كما جاء ذلك في التوراة، حيث قالوا: إنها هي التي زينت لآدم أن يأكل من الشجرة، حيث بدأ إبليس بإغوائها أولاً.

إن القرآن الكريم لم يحمل المرأة هذه المسؤولية، ولم يخصّها بالذكر، وهذا جانب من الجوانب التي يحق للمرأة أن تفخر به؛ إذ لم تكن هي السبب في الارتماء بمصايد الشيطان الذي أدى إلى الإخراج من الجنة، وإنما آدم هو المسؤول أولاً وآخراً، وهٰذا ما أرشدت إليه آي الكتاب الحكيم، كما جاء في سورة طه، حيث كان اللوم أولاً لآدم وحده

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة باب رقم (٢) حديث رقم ٣١٥٣، وفي كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء باب (٨٠) حديث ٤٨٩٠.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، كما كان التحذير له ثانياً ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [طه: ١١٧]. وحمّله المسؤولية ثالثاً ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ ولم يقل «فتشقيان» ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] ذٰلك لأن المسؤولية تقع أول ما تقع على عاتق الرجل، وأما رابعاً فقد كان هو المقصود بوسوسة الشيطان، ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

ثامنا: ما المقصود بالشقاء:

بقيت قضية لا بد من الإشارة إليها، وهي أن الشقاء الذي ذكر في هٰذه السورة أكثر من مرة جاء متسقاً مع موضوع السورة إيقاع جرس وإيحاء نفس، فلقد بدئت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿ طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٢]، ونقيض الشقاوة السعادة، ثم ذكر قوله سبحانه: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] ومرة ثالثة: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ومن ايحاءات الآيات الكريمة ندرك أن الشقاء قد يكون مادّياً جسمانياً، وهٰذا الذي أشير إليه بقول سبحانه ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ وحجة هٰذا قوله في الآيات التي تليها ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ وقد يكون شقاء عاما لا يعاني منه الجسم وحده، بل الكيان الإنساني كله روحاً ونفساً وفكراً، وهٰذا ما أشار إليه القرآن بقوله: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾، وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

بقي أن نذكر أن قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف: ٢٠] جاء بألف التثنية، لأن اللام ليست للانتهاء هنا، وقد تكون للتعليل، أي أن وسوسته كانت لأجلهما معا، لٰكنّ غايته كانت آدم، فتحميل المرأة المسؤولية مما كان له أثر سلبي على المرأة في كثير من الديانات والقوانين الوضعية، حتى إنهم جردوها من إنسانيتها وطهارتها،

وهٰذا أمرٌ لا يقرّه القرآن الكريم والسنة النبوية، بل ينفيه الإسلام نفياً قاطعاً باتّاً، فهل تدرك المرأة هٰذا التشريف والتكريم الذي خصّها به القرآن الكريم وحده والسنة المطهرة؟

والخلاصة أن قصة آدم جاءت تقرر الركيزة الأولى في حياة الإنسان، وهي العقيدة الصحيحة؛ عقيدة التوحيد الذي لا تشوبه شائبة شرك، وقضية التدين التي يحاول بعض الناس أن ينازع في فطريتها وفي كونها من الأصول الأولى التي زود بها هذا الإنسان.

وعجيب أمر القرآن الكريم؛ فإننا نجد أن قصة كل نبي ذكرت فيه، وبخاصة أولي العزم كانت تشير إلى ركيزة جديدة، بني عليها هذا البناء الشامخ الذي نعمت فيه الإنسانية فيما بعد، لولا أنها انحرفت عن الجادة.

تاسعاً: ما هي الروح:

بقي هنا أمر كان ينبغي أن نشير إليه من قبل؛ فلقد علمنا الله أنه خلق الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون، وقد قلت من قبل أن الصلصالية تشير إلى عدم التماسك، وسرعة التفتت، أما الحمأ المسنون؛ فإنما يشير إلى سرعة التغير، وفساد العنصر، وهكذا نجد الإنسان هشاً ضعيفاً وما أكثر أن تجد منه ما يزكم الأنوف، وتنكره الطباع السليمة، ولكن الله تبارك وتعالى نفخ فيه من روحه فاستحق لذلك هذا التكريم من إسجاد الملائكة له، ولكن ما هذه الروح التي نفخها الله فيه؟! لعل المتبادر أن هذه الروح ذلك الأثر الذي تكون به الحياة، فلا بد أن تكون شيئاً آخر غير الذي في الحشرات والطيور والأسماك، إنه شيء آخر علوي النفحة، رباني الجذوة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فالروح التي نفخها الله في آدم عليه السلام وذريته من بعده كانت شيئاً فوق ذٰلك الذي تشترك فيه الأحياء صغيرها وكبيرها، والله تبارك وتعالى يقول في كتابه المحكم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥] ويقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فالحياة أمر لا يخص آدم عليه السلام وحده. الروح التي كرم بها آدم عليه السلام إذن والتي أضافها الله لنفسه

سبحانه وتعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] ذٰلكم السر الالٰهي الذي استحق به الإنسان هٰذا التكريم؛ إنها تلك الجذوة التي تنتشر في أرجاء نفسه، فتشع منها جوانب الخير.

من أجل ذلك امتن الله على هذا الانسان بالتكريم وعنفه على انحرافه عن الجادة؛ ذلكم العنصر العلوي الذي خص به آدم ـ عليه السلام ـ، فاستحق الخلافة في الأرض. فأين هذا مما يهذي به أصحاب مذهب الوجودية، أو الذين يدعون تمرغ الإنسان بأوحال الجنس، ان الانسانية لن تجد هديها، ولن تكتشف عناصر الخير، ولن تنتشل من وهدتها إلا بهذا القرآن، وصدق الله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

عاشراً: أين جنة آدم ؟؟ وما هي الشجره التي نهي أن يقربها؟

ذكرت في مقدمات الكتاب خصائص القصة القرآنية وأهدافها والعبرَ التي تتوخى منها، وقد تبيَن لنا أنّ هناك قضايا كثيرةً تتصل بالقصص عامة، لا يجد القارىء فيها عبرةً ما، ولذٰلك فقد طويت أحداث وجزئيات لم يَجْرِ الحديث عنها. وقد نجد أن هناك قضايا سكت القرآن الكريم عنها، ولٰكن لما كان حب الاستطلاع من طبيعة الانسان، تتشوف نفسه دائماً، ويتشوق إلى كشف كثيرٍ من الأمور المجهولة، فإنّ من البدهيّ أن يبحث عن بعض هٰذه الجزئيات، ولمّا كان كثيرٌ من هٰذا القصص قد ذكر في كتب الديانات قبل الإسلام، وجدنا كثيرين قد توجّهوا إلى هٰذا القصص، علّهم يجدون فيه ما تشوّفت إليه نفوسهم، حتى إن كان ذٰلك قد تشوهت به الحقائق. وهٰذا ما سمي عند علمائنا «الإسرائيليات»، فبعضهم نقل بغير ضوابط، وآخرون تحرّزوا في النقل(١). وقد يحاول بعضهم أن يبحث عن بعض ما في الكتاب الكريم والسنة المطهرة يرجح به رأيه الذي يذهب إليه.

---

(١) راجع كتابنا: «التفسير تطوره واتجاهاته، والمفسرون مناهجهم واتجاهاتهم» وهو غير مطبوع وسيظهر قريباً.

ومن هٰذه الموضوعات «جنة آدم» التي جاء ذكرها في كتاب الله، وهي قضيةٌ كنت أود أن لا أتحدث عن الخلاف فيها في كتابي هٰذا، لولا ذكر الأئمة رحمهم الله لها والسؤال عنها من كثير من النّاس. وملخّص الأقوال التي جاءت فيها جنّة آدم هي جنة المأوى التي وعد المتقون، أم جنّة خلقها الله له، كانت خاصة به وبزوجه؟ وهناك خلاف آخر: أهي في الأرض أم في السماء..؟!

لم يجزم العلماء برأي من هٰذه الآراء، لٰكن أكثرهم ذهبوا إلى أنّها جنّة الخلد التي وعد المتقون (جنة المأوى) وإلى أنها في السماء. وقال آخرون: هي جنة خاصة في الأرض.

وأقام كلٌّ الأدلة على ما ذهب إليه.

أولاً: فمن أدلة الفريق الأول: أن الجنة إن أُطلقت فالمتبادر من هٰذا اللفظ أنها الجنة المعهودة للمتقين. فقوله سبحانه: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] فالذي يسبق إليه الفكر هٰذه الجنة التي ذكرت كثيراً في كتاب الله مثل قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ثانياً: قوله سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨] فإن الهبوط إنما يكون من أعلى إلى أسفل، كما استدلّوا ببعض الآثار، وقال الآخرون إنها جنّة خاصة في الأرض: إنّ جنة المأوى ليس فيها تكليف. والتكليف إمّا أن يكون أمراً أو نهياً، والجنة التي كان فيها آدم. كان فيها تكليف. حيث نهيَ هو وزوجه أن يقربا الشجرة. وقالوا أيضاً: إن جنة المأوى لا يمكن أن يدخلها إبليس وقالوا رداً على الأوّلين: إن قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ لا يدل على أنها جنة المأوى، بل هي جنة عرفها آدم -ﷺ- وقد ذُكِر لفظ الجنة في القرآن الكريم معرفاً ومنكراً لغير جنة المأوى. أمّا منكراً كقوله سبحانه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٦٦] وقوله سبحانه: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، وذكر لفظ الجنة معرّفاً في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]

وقالوا أيضاً: لا يدل لفظ الهبوط صراحةً أنّه كان من السّماء إلى الأرض، قال تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] وقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨] وأنت خبيرٌ أيّها القارىء الكريم، بأنّ ما ذكر من الأدلة على أنها جنّة المأوى ليس مقنعاً ولا ملزماً، لذا فإن الذي يترجح عندي أنها جنةٌ خاصة بآدم ﷺ. وسواء أكانت جنة المأوى أم غيرها، فذٰلك ليس من الأمور العقدية، وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في كتابه «البداية والنهاية» هٰذه القضية مفصلاً فيها أقوال العلماء، فليرجع إليها من شاء.

بقي أن يقال: فما الشجرة؟.

ونقول إنّ هٰذا من المبهمات التي سكت عنها القرآن، ونحن أولى بالسكوت وعدم البحث.

حادي عشر: هل هناك آدمون قبل آدم؟

يسأل كثيرٌ من النّاس عن وجود آدمين أو أوادم قبل أبينا آدم ﷺ، ذٰلك انّه قد اشتهر عند كثيرين أنّ الأرض كانت معمورة قبل خلق آدم، واختلفوا في أسماء الجنس الذي كان يعمرها، ولكنّ هٰذا القول ليس له ما يؤيده أو يسنده من مصادر صحيحة ولعل الذي حمل أولٰئك على مثل هٰذا الاعتقاد أمورٌ ثلاثةٌ:

أولاً: ما أشارت إليه بعض الكتب من وجود أجناسٍ من البشر كانت تسكن الأرض قبل آدم، يسمّوْن «الحن» قالَ المعرّي:

جـائـز أن يكـون آدم هـٰذا قبلـه آدم علـى إثـر آدم

وقوله:

وما آدم في مذهب العقل واحداً ولٰكنـه عـنـد القياس أوادِمُ

وهي أخبارٌ كثيرة كان للخيال فيها أثرٌ بعيد.

ثانياً: ما أثبته علماء الآثار والحفريات من وجود هياكل بشريه تختلف اختلافاً كلياً عن هٰذا الجنس البشري الذي هو الآن على هٰذه الأرض.

ثالثاً: قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قالوا إنما قالت الملائكة هٰذا القول لوجود أجناسٍ من البشر كان هٰذا عملهم وهٰذه صفاتهم، وإلاّ من أين عرفت الملائكة هٰذا الأمر، والحقُ أنّ ما استندوا إليه لا يسعفهم فيه دليل، ولا تنهض لهم به حجة، فإنّ ما جاء في بعض الكتب كان فيه للخيال والخرافة نصيب كبير. أمّا الحفريات فما هي إلاّ حدسٌ وظن، بقيت الآية الكريمة ولا دليل لهم فيها كذٰلك، أمّا من أين عرف الملائكة؟ فيرى شيخ المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، أن الملائكة إنّما علموا ذٰلك من الله -تبارك وتعالى- فتأويل الآية كما يرى -رحمه الله-، أنّ الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ سيكون من شأنهم الإفساد وسفك الدماء، فقالوا ما قالوا، ولمّا كان القرآن الكريم حجة في البلاغة لأنّه عربي الأسلوب، ومن شأن العربية الإيجاز، فاكتفى بما قاله الملائكة، لأن الآية لو ذكرت إني جاعل في الأرض بشراً يفسدون ويسفكون، قالوا كيف تجعل في الأرض من يفسد ويسفكُ كان في الآية تكرار لا حاجة له، ويستدل ابن جرير لما ذهب إليه بكثير من أقوال العرب، وذهب بعض العلماء، إلى أنّ الملائكة إنما عرفوا ذٰلك بشفافيتهم، وقال آخرون: عرفوا ذٰلك من اللوح المحفوظ. قال العلامة الألوسي صاحب «روح المعاني» -رحمه الله-: «وحكم الملائكة على بعض هاتيك الوجوه ليس من ادعاء علم الغيب أو الحكم بالظن والتخمين، ولٰكن بإخبار من الله تعالى ولم يقص علينا فيما حكى عنهم اكتفاء بدلالة الجواب عليه بالإيجاز كما هو عادة القرآن الكريم، ويؤيد ذٰلك ما روي في بعض الآثار أنه لما قال الله تعالى ذٰلك قالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وقيل: عرفوا ذٰلك من اللوح ويبعده عدم علم الجواب، ويحتاج الجواب إلى

تكلف، وقيل: عرفوه استنباطاً عمّا ركّز في عقولهم من عدم عصمة غيرهم المفضي إلى العلم بصدور المعصية عمن عداهم المفضي إلى التنازع والتشاجر إذ من لا يرحم نفسه لا يرحم غيره، وذٰلك يفضي إلى الفساد وسفك الدماء، وقيل: قياساً لأحد الثقلين على الآخر بجامع اشتراكهما في عدم العصمة ولا يخفى ما في القولين، ويحتمل أنهم علموا ذٰلك من تسميته خليفة لأن الخلافة تقتضي الإصلاح وقهر المستخلف عليه».

ثاني عشر: هل البشر جميعاً من أب واحد.. ؟!

مما استقر في أذهان النّاس (وهو بدهي وهٰذا ما ترشد إليه الآيات والسنة النبوية مثل «كلكم لآدم وآدم من تراب»[١] «إن أباكم واحد»[٢])، أن البشر جميعاً إخوةٌ ينتسبون إلى أب واحد هو آدم -عليه السلام-، ومع هٰذه البدهية، فبعض الناس كثير الشطحات وقد تقدّم قول المعرّي:

وما آدم في مذهب العقل واحدٌ ... ولٰكنّه عند القياس أوادمُ

وإذا كان مثل هٰذا القول مستغرباً حينما يصدر عن شاعرٍ أو فيلسوف، فإنّ الغرابة تكون أشدّ حينما يصدر عن أحد علماء الإسلام الذين كان لهم بصمات في التجديد والدعوة الصالحة إلى الله سبحانه وتعالى، ورد الشبهات عن الدّين، وأعني به العلامة الإمام «الشيخ محمد عبده» رحمه الله رحمة واسعة، فعند تفسير الآية الأولى من سورة النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١] يعرض إلى هٰذه القضية، فيطيل القول فيها وخلاصة ما ذهب إليه: أن الآية لا تدل على أن النفس الواحدة المقصود بها آدم، ويحاول أن يستدل إلى ما ذهب إليه بأوجه كثيرةٍ لا تسلم كلُّها من مناقشةٍ واعتراض بل لا يسلّم له واحدٌ منها: فمنها على سبيل المثال أنّه قد يقصد بالناس أهل مكة أو العرب كما يستدل بتنكير كلمة «نفس» وبقوله سبحانه ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، ويستدل كذٰلك باختلاف الناس جنساً ولوناً.

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» ٤/ ٣٣١ حديث رقم ٥١١٦ - موسوعة الحاسوب.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٤١١.

ويعقب صاحب المنار الشيخ رشيد بما يفهم منه القارىء موافقته لما قاله الشيخ محمد عبده، وسأنقل هنا تعقيب الشيخ رشيد رضا مكتفياً به عن ما ذكره الشيخ محمد عبده لطوله، فقول الشيخ رشيد على إيجازه يكتفى به عن نقل أقوال الشيخ محمد عبده، والمسألة في أول سورة النساء كما قلت يراجعها من شاء. قال صاحب المنار:

«ثم إن ما ذهب إليه الأُستاذ الإمام يرد الشبهات التي ترد في هٰذا المقام ولٰكنه لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هٰذا لأنه لا يقول إن القرآن ينفي هٰذا الاعتقاد وإنما يقول إنهُ لا يثبتهُ إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل، وقد صرحنا بهٰذا لأن بعض الناس كان فهم من درسه أنهُ يقول: إن القرآن ينافي هٰذا الاعتقاد أي الاعتقاد أن آدم أبو البشر كلهم، وهو لم يقل هٰذا تصريحاً ولا تلميحاً. وإنما بين أن ثبوت ما يقوله الباحثون في العلوم وآثار البشر وعادياتهم والحيوانات من أن للبشر عدة أصول ومن كون آدم ليس أباً لهم كلهم في جميع الأرض قديماً وحديثاً - كل هٰذا لا ينافي القرآن ولا يناقضه ويمكن لمن ثبت عنده أن يكون مسلماً مؤمناً بالقرآن، بل لهُ حينئذ أن يقول لو كان القرآن من عند محمد ﷺ لما خلا من نص قاطع يؤيد الاعتقاد الشائع عن أهل الكتاب في ذٰلك ولٰكنه وهو من عند الله جاء في ذٰلك بما لا تستطيع اليهود أن تعارضه من قبل بدعوى مخالفته لكتبهم ولم يستطع الباحثون أن يعارضوه من بعد لمخالفته ما ثبت عندهم وليت شعري ماذا يقول الذين يذهبون إلى أن المسألة قطعية بنص القرآن فيمن يوقن بدلائل قامت عنده بأن البشر من عدة أصول؟ هل يقولون إذا أراد أن يكون مسلماً وتعذر عليه ترك يقينه في المسألة: أنهُ لا يصح إيمانه ولا يقبل إسلامه وإن أيقن بأن القرآن كلام الله وأنهُ لا نص فيه يعارض يقينهُ؟؟

هٰذا وأن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هٰذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة ولا فرق في هٰذا بين أن تكون هٰذه الحقيقة بُدِئَتْ بآدم كما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين أو بُدِئَتْ بغيره وانقرضوا كما قالهُ

أهل الشيعة والصوفية أو بدئت بعدة أصول انبث منها عدة أصناف كما عليه بعض الباحثين ولا بين أن تكون هٰذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أو خلق مستقلاً على ما عليه الخلاف بين الناس في هٰذا العصر»[١].

وكنت أتمنى والله أن لا تصدر هٰذه الأقوال عن الشيخين الجليلين العالمين الفاضلين، اللذين أحسن الظن بهما، ولا ينبغي أن ينكر أحد ما قدماه من خير للإسلام والمسلمين.

تأويل الشيخ محمد عبده لقصة آدم عليه السلام:

على أن للشيخ في الحديث عن آدم وخبره في القرآن الكريم أموراً كنا نود أن لا تصدر عنه، فقد ذهب مذهباً عجباً في تأويل الآيات في سورة البقرة، قال رحمه الله: «وتقرير التمثيل في القصة على هٰذا المذهب -مذهب الخلف- هٰكذا: إن أخبار الملائكة هو عبارة عن تهيئة الأرض... لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذٰلك. وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء في هٰذه الأرض وانتفاعه في استعمارها. وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنه، وتَنَصُّلهم في الجواب، تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدداً لا يتعدى وظيفته، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هٰذه الأرواح والقوى، ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذٰلك، وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر ويصح أن يراد بالجنة الراحة والنعيم... وبآدم نوع الإنسان... ولسكنى الجنة والهبوط منها أمر التكوين... والمعنى على هٰذا أن الله تبارك وتعالى كون النوع البشري على ما نشاهد في الأطوار التدريجية التي قال سبحانه ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فأولها طور الطفولة، وهٰذا معنى قوله ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمي، للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية، فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين.

---

(١) المنار (٤/٣٢٦).

أي أنه تعالى خلق البشر ذكوراً واناثاً وأمرهما بالأكل حيث شاءا، عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير. والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر. وهٰذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني، وهو طور التمييز، هما المراد بقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ووسوسة الشيطان وإذلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة، التي تلابس النفوس البشرية، فتقوي فيها داعية الشر. أي أن إلهام التقوى والخير، أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل ولذٰلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه. والخروج من الجنة، مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن الإعتدال الفطري.

وأما تلقي آدم الكلمات وتوبته، فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة، من الإعتبارات بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة، ورجوعه إلى الله عند الضيق والتجاؤه إليه في الشدة. وتوبة الله تعالى عليه، عبارة عن هدايته إلى المخرج من الضيق، والتفلت من شرك بعد ذٰلك الاعتبار والالتجاء. . . فحاصل القول أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة: طور الطفولة وهو طور نعيم وراحة، وطور التمييز الناقص، وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان. وطور الرشد والاستواء وهو الذي يعتبر فيه بنتائج الحوادث ويلتجىء فيه عند الشدّة إلى القوة الغيبية العليا، التي منها كل شيء، وإليها يرجع الأمر كله، فهٰكذا كان الإنسان في أفراده مثالاً للإنسان في مجموعهِ. . . وبقي طور آخر أعلى من هٰذه الأطوار وهو منتهى الكمال وأعني به طور الدين الإلٰهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الإنسانية»[1].

هٰذا ملخص ما ذكره الإمام في تفسير قصة آدم. ولقد شعر -رحمه الله- بأن تفسيره هٰذا سيثير عليه الكثيرين. فبدأ يدافع عن نفسه، كما دافع عنه صاحب المنار، ونقل مقالة كتبها الإمام بيده يبين فيها أنه لم ينكر وجود الملائكة، ولم يقل إنهم قوى غير عاقلة

---

(١) تفسير المنار ج١/ ٢٨١-٢٨٤، الطبعة الأولى.

وإنما قصد التقريب لهٰؤلاء الذين لا يؤمنون بالدين، ثم ينعى في آخر كلمة على هٰؤلاء الذين ظنوا به سوءاً، وحملوا كلامه على غير محمله وهو أعرف منهم بالله وأرسخ منهم إيماناً.

مناقشة هٰذا التأويل:

هٰذا أسلوب في التهجم ما كنا نرضاه من الإمام -رحمه الله-، وأنا أحسن الظن به ولا أقول إنه ينكر وجود الملائكة، ولٰكن ليس معنى هٰذا أن يسلم له ما جاء به من هٰذا التأويل.

ولقد أراد الإمام أن يقرب البعيدين عن الدين، ولٰكنه -رحمه الله- نسي أنه بعمله هٰذا يقرب المتدينين من غيرهم كما قال الشيخ مصطفى صبري -رحمه الله-، ولقد قدم الإمام تنازلات كثيرة حينما فتح باب التأويل، هٰذه التنازلات رأينا لها أسوأ الأثر فيما بعد، وبخاصة عند هٰؤلاء الذين لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم بينما يعجبك قولهم في الحياة الدنيا.

كنا نود من الإمام -رحمه الله- أن يكتفي بما قاله السلف والخلف، في تفسير تلك الآيات. وألا يشتط في التأويل، وهو أعلم بسنن الله من كثير من الناس من مثل قول الله: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] إن هٰذه الآيات التي أولها الإمام لا تحتمل هٰذا التأويل. وكما هي قطعية في ثبوتها فهي قطعية في دلالتها كذٰلك. نعم إن قطعية الدلالة. وإن لم تستفد من اللفظ نفسه، لٰكنها هنا تستفاد من أمر آخر وهو ذكرها أكثر من مرة فلقد ذكرت هٰذه القصة في القرآن الكريم مرات عديدة، كما ذكر أكثر منها لفظ الملائكة. وقول الإمام بأن مجموع ما ورد في الملائكة، فيه إيماء للخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، لا نرضاه منه ولا نسلمه له، ذٰلك أن عبارات القرآن غاية في الوضوح، بحيث يكون الخروج عن ظاهر معناها ذهابا إلى الرمزية والإشارات الخفية

التي يستنكرها أمثال الإمام. وإذا كانت أخبار الملائكة في القرآن يمكن أن يفهم منها ما هو أدق من عباراتها، فجائز أن يقال ذٰلك كذٰلك في آيات البعث ومعجزات الأنبياء وغير ذٰلك من الآيات.

وقوله بأن الذي لا يقول بالتوقيف يسميها قوى طبيعية، وبأن الحقيقة واحدة وبأنه يحظى بما يحظى به المؤمنون قول خطير عجيب، وأعجب منه أن يصدر من الأُستاذ الإمام.

إن ألفاظ القرآن عربية واضحة محددة المفاهيم. وتعم الفوضى حينما تفقد الألفاظ مفاهيمها ودلالتها، وهناك تفقد الحقيقة كل قيمة، وتعيش الإنسانية عيشة تعاسة وشقاء، كما رأينا عند السفسطائيين لذا كان أول عمل قال به سقراط هو تحديد مفاهيم الألفاظ، وعند الفرق الباطنية المخربة. ولقد رأينا أن الإسلام مع كونه لا يعتبر الشكليات إلا أنه راعى تماماً مفاهيم اللفظ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال لأحد الصحابة، وهو البراء بن عازب وهو يعلمه دعاء النوم، «آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت» فقال البراء ورسولك الذي أرسلت فقال النبي الكريم ﷺ قل ونبيك الذي أرسلت»[1] وهٰذه ليست أخطر مما نحن بصدده. إذا أجزنا أن نسمي الملائكة قوى طبيعية فإن من الممكن أن يقول قائل «أنا لا أؤمن بأن الله هو الخالق كما تسمونه وإنما أُسميه الطبيعة، ولا أُسمي رسولكم نبياً إنما أسميه عبقرياً أو فيلسوفاً»، وهٰذا باب إن فتح فلن تكون منه إلا معاول الهدم لهٰذا الدين.

ويستحيل كذٰلك أن نسمي الخواطر الحسان ملائكة. والتمثيل الذي أورده الإمام في القصة، فضلاً على أنه يفتح أبواب التأويل للذين في قلوبهم مرض وعلى الرغم مما في الكثير منه من تكلف ظاهر، فإنه مخالف صراحة لكثير من النصوص وعلى سبيل المثال:

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٩٧ رقم ٢٤٤/ موسوعة الحاسوب.

تمثيله سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس، بتسخير القوى الطبيعية وتحكم الإنسان فيها، إلا الشر الذي لز في هٰذا الغالم لزاً. مع أن سجود الملائكة ذكر كثيراً في القرآن وفي بعض الآيات تحديد لهوية إبليس بأنه من الجن. وهٰذه المحاورات الكثيرة في القرآن تنفي هٰذا التمثيل. وكون المقصود من آدم النوع البشري ومن الجنة الراحة والنعيم ينفيه مثل قول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

لقد عدّ الكتاب والسنة الإيمان بالملائكة ركناً من أركان الإيمان، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وفي مثل قول الرسول ﷺ رداً على سؤال جبريل: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[١]. ولقد ورد في القرآن قول الله: ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ [التحريم: ٦] ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٦]، ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]، وفي السنة المطهرة عن تعاقب الملائكة بالليل والنهار. والنصوص أكثر من أن تحصى وكلها لا تساعد، بل لا تسمح بأن يطلق على الملائكة معنى القوى الطبيعية.

كما لا تسمح أن يحظى منكر الملائكة ولو للتسمية فقط، بما يحظى به المسلمون فضلا على المؤمنين، ولقد كان جبريل -عليه السلام- يتمثل أحياناً بصفة إنسان -كما مر في الحديث السابق- وكان رسول الله ﷺ يراه أحياناً في صورته الحقيقية[٢].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان ج١، ص١٥٠.

(٢) وينبغي أن أوكد هنا أن الشيخ -رحمه الله- لا ينكر وجود الملائكة، كما فهم كثير من الناس، كيف والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، فلقد تحدث الشيخ عن وجود الملائكة في أكثر من كتاب، ولٰكنه في هٰذه الآيات الكريمة -سامحه الله- جعل ذٰلكَ من باب التمثيل، لما في الآيات من حوار بين الله والملائكة، ويا ليته لم يفعل!!.

ولا أود أن استرسل، فلقد كان تأويل الاستاذ بدعا من التأويل لما فيه من الخروج البين عن ظاهر الألفاظ، وكان من الخير أن يقف عند هٰذه الحدود، وأن يستخرج العبر الكثيرة من الآيات، بغير هٰذا المسلك الذي ينم عن مدى تأثر الأستاذ بالحضارة الغربية التي لا تؤمن إلا بما هو في دائرة الحسّ.

إن المتدبر لآي القرآن الكريم في مواضع كثيرة لا يرتاب في أن النفس الواحدة إنما هي آدم -ﷺ- وتأكيد القرآن الكريم هٰذه القضية وقد ذكرها في مواضع كثيرة يدلنا على أنها قطعية الدلالة كما أنها قطعية الثبوت؛ ففضلاً على الآيات التي ذكرت في قصة آدم عليه السلام في أكثر من سورة يقرر القرآن هٰذه القضية في سورة النساء في الآيات الأولى منها، وفي سورة الأعراف ﴿ ۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] وفي سورة الزمر ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر: ٦] وفي سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات: ١٣] هٰذا فضلا على ما جاء في السنة الشريفة من أحاديث كثيرة لا يُرْتابُ في صحتها.

على أن هناك قضية أخرى لا تقل خطورة تفهم من كلام صاحب المنار وهي قوله:

«. . .ولا بين أن تكون هٰذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أو خلق مستقلاً على ما عليه الخلاف بين الناس في هٰذا العصر» وكأن الشيخ يشير هنا إلى «نظرية داروين» التي شغلت الناس في عصره، وهٰذا سنتحدث عنه فيما يلي:

ثالث عشر: نظرية دارون:

لقد كان للنظريات الوافدة من الغرب أثر لا ينكر على كثير من المسلمين وخاصة المثقفين منهم، ولقد بدأ هٰذا الأثر يتلاشى شيئاً فشيئاً، تخفّ حدته، وتَخْلَقُ جِدَّتُهُ، ويفقد زخمه وبريقه في النصف الثاني من هٰذا القرن، لأسبابٍ كثيرةٍ لا مجال لشرحها الآن، ومن هٰذه النظريات الوافدة «نظرية داروين» التي دار عليها الزمن، فأمست طللاً

دارسا، فَقَدَ نُضْرَتَهُ، وعوداً يابساً فقد رواءه وخضرته، وفنّد باطلها كثير من أساطين الغرب والشرق، ولما كان لكل جديدٍ بهرجه، وجدنا من فتن بهٰذه النظرية أو يقال: وجدنا من يحاول التوفيق بينها وبين الآي المحكم من كتاب الله، وشتّان شتّان. ونستذكر هنا ما نقلته عن صاحب المنار وهو قريب عهده.

رأي الشيخ عبد الوهاب النجار في النظرية:

وهناك عالم آخر غير صاحب المنار له فضله ومنزلته وهو «الشيخ عبد الوهاب النجار» صاحب «قصص الأنبياء» رحمه الله تعالى، حيث يعرض في كتابه -الذي كان خير ما كتب في موضوعه في وقته- شيئاً عن هٰذه النظرية، وليته لم يعرض، بل ليته كان أكثر حزماً وأقوى شكيمةً في تفنيدها والردّ عليها، مبيناً أنّه لا يمكن أن يجمع بينها وبين القرآن الكريم، وأنها لن ترقى إلى حقائق العلم، كي نُؤول آي القرآن من أجلها. يقول رحمه الله: «ظهر رأي في البلادَ الأوروبية وقبله كثير من علمائهم: وهو أن الإنسان أصله قرد ترقى بسبب عوامل مجهولة حتى صار هٰذا الإنسان. وذٰلك يبطل أن يكون أصل الإنسان آدم، فما الرأي؟

والجواب أن النظرية لم تزل موضع بحث، للأخذ والرد فيها مجال، ولها أنصار مؤيدون، كما أنّ لها خصوماً يبطلونها. وعندنا القرآن الكريم يدل بنصوصه الظاهرة على أن أصل الإنسان آدم، ولم يكن قرداً تحول، ولا شيئاً آخر ترقى وهو الثقة، فإذا وصل أصحاب النظرية إلى الأدلة القاطعة التي تجعل هٰذه القضية بديهية تساوي في بداهتها «كل عددٍ زوجي ينقسم إلى قسمين متساويين» كان لزاماً علينا أن نؤول القرآن ليوافق الواقع كما هي القاعده القائلة: إن القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل إلاّ إذا منع من ذٰلك مانع فيعمد إلى تأويله.

فالدين الذي يعتمد على العقل في إقامة براهينه وبسط حججه، لا يمكن أن يجانب العقل وينافيه، فإذا أثبت العلماء نظرياتهم إثباتاً قاطعاً وجب علينا أن نؤول ظاهر القرآن تأويلاً يتفق مع ما أثبته العلم وقطع العقل بأنه الحق الذي لا محيص عنه».

ورحم الله الشيخ، وسامحه وعفا عنه، فالقرآن الكريم قطعي الثبوت وهٰذا يعرفه الشيخ أكثر منّا، ولٰكنّه قد يكون قطعي الدلالة، ومن المواضع التي يكون فيها كذٰلك، ذكره القضية مراتٍ كثيرة، بحيث لا يجوز تأويلها، ثم إنّ «نظرية داروين» مخالفة مخالفةً تامة، لما أقرّه القرآن من حقائق، يجعل من المحال تأويل آي القرآن ليتفق مع نظريةٍ كانت نهايتها أنها قولٌ لا مضمون له. كنت أتمنى أن لا يتنازل الشيخ هٰذا التنازل، لٰكنها الفتنة، فتنة الضعفاء للأقوياء.

رأي عبد الكريم الخطيب في نظرية دارون:

وإن تعجب فعجب قول كاتب آخر له مؤلفات كثيرة، هو الأستاذ عبد الكريم الخطيب -رحمه الله-، فلقد ضل الطريق وهو يتحدث في كتابه القصص القرآني، منهجاً واستنباطاً، وأنقل هنا ما قاله ليطلع عليه القارىء.

يقول: «وبلغة العلم الحديث: يكون الطين، فالصلصال، فالحمأ المسنون -وهو الطين المتعفن- ثلاثة أطوار تنقلت فيها بذرة الحياة، وإن هٰذا التعفن الذي أصاب الطين هو بشائر الحياة، إذ هو البكتيريا التي نضجت فيها خمائر الحياة، وظهرت بها جرثومتها»(١).

وهٰذا القول لم يحالف الكاتب فيه التوفيق، فهو ضل أولاً في فهم الآية الكريمة، فقد جعل المراتب ثلاثة مُرَتَّبَةً هٰكذا: الطين، فالصلصال، فالحمأ المسنون، والمتدبر للآية الكريمة يجد هٰذا غير صحيح، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] فالذي ترشد إليه الآية الكريمة أن المراتب هٰكذا: الطين أولاً فالحمأ المسنون ثانياً، فالصلصال ثالثاً. إذن المرحلة الأولى هي الطين، والمرحلة الثانية الحمأ المسنون، والمرحلة الأخيرة الصلصال ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وعجباً للكاتب سامحه الله كيف أخطأ هٰذا الترتيب في فهم الآية.

---

(١) ص (٤٠٤).

وقوله: «إن هٰذا التعفن هو بشائر. . .» ليس فيه للعلم نصيب، وليس فيه للحق موضع، أي بكتيريا هٰذه التي يتحدث عنها ؟!

ثم استمع إليه وهو يدعي أن داروين كان من كبار المؤمنين. يقول:

«على أن مقولات داروين التي أنكرها علماء الدين واضطربوا من أجلها، وهاجوا وماجوا إنما تقوم على علم وتجربة، وقد يكون فيها قليل من الخطأ في الاستنتاج، ولٰكن الذي ينبغي أن يكون عليه موقف العقل إزاءها هو الاحترام لها، والتقدير للجهد الذي بذل فيها، وما دامت ترجع إلى التجربة وتحتكم إلى منطق العقل، فإن كل عقل مدعو إلى الوقوف عندها والنظر فيها، وأخذ ما يطمئن إليه منها. . أما صدّ العقل عنها وفراره من بين يديها فذٰلك إزراء بالعقل، وامتهان له، وتعطيل لوظيفته التي خلق لها، وخروج على دعوة القرآن التي دعاه إليها.

وداروين الذي أثار هٰذا الإعصار العاصف في عقول رجال الدين. . . -من كل دين- لم يكن منكراً الله بل إنه فيما أرى من أشد الناس إيماناً به وشهوداً لله في آياته التي رآها رأي العين فيما أبدع الخالق وصور. .»[1].

«. . . ولعل في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] لعل في هٰذا ما يشعر بهٰذا المعنى الذي ذهبنا إليه، وهو أن الإنسان لم يجىء من الطين مباشرة، وإنما كان ذٰلك بعد سلسلة من التطورات وبعد عمليات طويلة من التصفية والانتخاب، انتهت بظهور الإنسان على تلك الصورة التي انفصل بها عن جميع الأحياء، وكان أهلاً لتلقي النفخة الإلٰهية يوم مولده، وكأنها التاج الذي توّج به ملكاً على العالم الأرضي كله»[2].

لقد أسرف الكاتب كثيراً: سواء أكان هٰذا الإسراف في الانحراف بالآيات الكريمة عن مسارها بهٰذه التأويلات البعيدة، أم كان في موقفه من داروين ونظريته،

---

(١) ص (٤٠٨).

(٢) ص (٤١٤).

فنظرية داروين لم تكن تعتمد على التجربة وتحكيم العقل -كما يقول- وداروين لم يكن من كبار المؤمنين بالله، وهٰذا أمر لا يعنينا كثيراً، بقدر ما يعنينا هٰذا الكتاب الكريم الذي أنزله الله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]. فالقول إن البكتيريا هي أول ما خلق، وعنها نشأت الأميبا، ثم تطورت إلى ذوات الخلايا المتعددة مروراً **بالأجناس** المختلفة، أخذاً من كلمة سلالة في قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، انحراف عن جميع قوانين التأويل، فكلمة سلالة، لا تُحمّل هٰذا الذي ذهب إليه الكاتب، إنها قطعة من الطين -كما مر معنا من قبل-.

ما ذهب إليه مصطفى محمود:

وما ذهب إليه الكاتب يلتقي فيه تماماً مع ما ذهب إليه مصطفى محمود، إلا أن الثاني كان أكثر جرأة على الانحراف الباطل، وادعاء الأستاذ عبد الكريم الخطيب بأن الجاحظ وغيره سبق إلى تقرير هٰذه النظرية، لا أساس له ولا ندري من أين جاء به؟!

على أننا إذا كنا نحسن الظن بالأستاذ الخطيب راجين الله أن يغفر له، فما عرف للرجل حرفة باطلة أو نحلة فاسدة، أما الدكتور مصطفى محمود فهو بهائي كما تذكر الدكتورة بنت الشاطىء -رحمها الله-، حيث ذهب مذهباً عجباً وهو يتحدث عن آدم ﷺ لا يستند إلى أثارة من علم، فقوله ليس اجتهاداً، إن أخطأ صاحبه فله أجر، بل هو أضغاث لا يسلكها عقل. يقول في كتابه محاولة لفهم عصري للقرآن:

«إن الله حينما خلق آدم في الجنة وأمر الملائكة أن يسجدوا فسجدوا إلا إبليس أراد إبليس أن يغوي آدم فلما أكل من الشجرة رده الله إلى مستنقعات الطين وبدأ هناك رحلة طويلة من الأميبا إلى الإسفنج إلى الحيوانات الرخوية[1] إلى الحيوانات القشرية إلى الفقريات إلى الأسماك إلى الزواحف إلى الطيور إلى الثدييات إلى أعلى رتبة آدمية

---

(١) يقول الدكتور مصطفى في كتابه «ولا يسعنا أن ننسى أن هنا وشائج قربى بيننا وبين أجدادنا -أجداده هو- الحمير».

بفضل الله وهديه وإرشاده، ولقد استمرت تلك الرحلة خمسة آلاف مليون سنة، وعاد آدم من جديد، على هٰذه الأرض كآدم الذي كان من قبل في الجنة. إذاً هناك آدمان: آدم الصورة والمثال: وهو الذي كان في الجنة فعصى ربه، وآدم الأرض: وهو الذي مر بتلك المراحل كلها».

ولم يحدثنا المؤلف عن حواء أمرت بما مر آدم كذٰلك. وقد حشد لهٰذا القول كثيراً من النصوص، جاء بها لتوافق ما قرره.

ومن هٰذه النصوص قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] هٰذه بعض نصوص استشهد بها المؤلف مستدلاً على ما ذهب إليه ومعلناً أن لنا وجوداً سابقاً على وجودنا.

أما الشجرة فيرى أنها «رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا»[١]، وأكرر هنا أن النظرية التي جعلها أصلاً ليطابق القرآن إنما هي نظرية أبى العلم أن يمنحها هويته، لتدخل في نطاقه، والآيات التي ذكرها حينما ننعم النظر فيها نجدها بعيدة عن المعنى الذي أراده وقصده.

فالآية الأولى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ يرى كثير من المفسرين أن التراخي فيها تراخٍ رتبي لا زمني، والتراخي في الرتبة من الأساليب التي لا يستطيع أحد أن ينكرها، حتى إذا عد هٰذا التراخي زمنياً فإننا لا نملك أن نسير مع المؤلف أو أن نوافقه ونسكت عليه،

(١) كتاب «محاولة لفهم عصري للقرآن» للدكتور مصطفى محمود ص٦٢.

حينما ذكر أن آدم مر بهٰذه الأزمنة الطويلة إلى أن تكامل خلقه. ولا يلزم من حرف التراخي أياماً أو ساعات. وفي القرآن شواهد كثيرة لهٰذا، وهٰذه حقائق لا يجوز أن ننحرف بها انحرافاً يخرجها عن مدارها الثابت.

وأما الآية الثانية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. فلقد تجاهل المؤلف ما جاء عقبها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦] فالمقصود بالإنسان هنا جنسه. هٰذا النوع الإنساني، سواء أكان الاستثناء منقطعاً أم متصلاً، فإن الآية لا تساعده على ما أراد، وتنفر من تأويله الذي ذهب إليه، وللمفسرين في الآية أقوال وجيهة، يرى بعضهم: أن معنى ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] أي «الهرم» الذي يدرك بعض الناس مثل قول الله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠] ويكون معنى الآية. ثم رددناه إلى تلك الحالة التي تغير فيها شكله وقوامه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإن لهم من الأجر في حال هرمهم مثل الذي كان لهم في حال الشباب والقوة فيكون الاستثناء متصلاً ويكون الذين آمنوا ممن ردوا إلى أسفل سافلين، إذا أدركهم الهرم. ويرى بعضهم «أن أسفل سافلين» إنما هي الدركات من العذاب يوم القيامة. فيكون المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ولٰكننا رددناه لما كفر وأعرض، ولٰكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر عظيم، فليسوا ممن ردّ إلى تلك الدركات، ويكون الاستثناء منقطعاً. وعلى كل حال فإن تأويل أسفل سافلين بالأميبا فما بعدها تأباه الآية سياقاً ونصاً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فإن هٰذا الإجمال في الآية، بينته وفصلته آية أخرى هي آية «المؤمنون» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. وآيات كثيره فصلت هٰذا الإجمال مثل آية الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ. . .الآية﴾ [الحج: ٥]. فلا يعقل أن تكون الأطوار هٰذه، ما ذكره المؤلف مع وجود هٰذا البيان والتفصيل في كتاب الله.

بقي أن يقال: إن قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] لا يساعد على ذٰلك التأويل الذي ذهب إليه، لأن المماثلة التي قال إنها وشيجة من وشائج القربى. مماثلة في غير ما ذهب إليه، فتلك مخلوقات لها طبائعها وأنظمتها والظروف الملائمة لها. فهناك صلات قوية بين هٰذه المخلوقات في أسس الحاجة والتنظيم، وليست إذن وشيجة قربى.

أما وجودنا الروحي الذي تحدث عنه واستدل له بآية الأعراف، فأمر لا نسلمه له، ذٰلك لأن الآية تقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم تقل من آدم نفسه، وهٰذا إشارة إلى ما زود به الإنسان من الفطرة السليمة كما ذهب إليه أكثر أئمة التفسير، ولو كان لنا وجود سابق على وجودنا هٰذا لتذكرناه أو تذكرنا بعضه لأن وجودنا اللاحق سوف لا ينسينا وجودنا الدنيوي، كما نص القرآن الكريم نفسه، فإننا في الآخرة سوف لا ننسى هٰذا الوجود الدنيوي.

أما آية آل عمران فإن قصارى ما تفيده: أن الله أخذ الميثاق على النبيين حينما أرسلهم إلى أقوامهم ليبشروا بهٰذا النبي الكريم ﷺ ويؤمنوا به.

وأما آية الأنعام، وهي قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فإنه عليه الصلاة والسلام أول مسلمي هٰذه الأمة، ولا داعي أن نغرب في التأويل، ونغرق في البعد عن ظاهر الآيات المحكمات.

بقيت كلمة أخيرة في هٰذا الموضوع، وهي أن تأويله للشجرة، بأنها رمز للجنس لا أخال مفهوم الزوجية نفسه يعينه على هٰذا التأويل، فالله يقول: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] فما معنى أن يكون المقصود من الشجرة

«اللقاء الجنسي» بعد أن كانت زوجا له بنص القرآن ؟!

ومن أعجب ما استنتجه المؤلف هنا أن القرآن خاطب آدم وحواء بألف التثنية قبل الأكل من الشجرة فقال «فكلا» وخاطبهما بواو الجماعة بعد الأكل -يعني به اهبطوا-[1] «لأن اللقاء الجنسي -وهو الأكل من الشجرة- أدى إلى التكاثر» فهم عجيب والله !!، وأعجب منه أن يقبله من عرف لغة القرآن وتذوق أساليب العربية !!.

ولقد كنا نود من المؤلف أن يقتصر على كلمته الأخيرة في الشجرة، وهي أنها من أمور الغيب ومن المبهمات التي لو علم الله في بيانها خيراً لنا لبينها، ونقول للمؤلف: إن ألف التثنية كانت لآدم وحواء، وأما واو الجماعة فلهما ولإبليس، بدليل قوله تعالى في الآية نفسها ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [البقرة: ٣٦] وليت المؤلف كان يقف عند كل آية ليصل نهايتها ببدايتها وآخرها بأولها، وليته كذٰلك كان يسترشد بهٰذا القرآن، وعقله ونفسه خاليان من كل نظرية تؤثر عليه في مسيرة فهمه للآيات الكريمة، لٰكنه لم يفعل !!

إن قصة آدم عليه وعلى نبينا ومن بينهما من الأنبياء صلوات الله وسلامه -كما يبينها القرآن دون تمحل أو تكلف- بينة الأهداف، واضحة المقصد والغاية، إنها قصة آدم واحد لا آدمين، إنه هو الذي أسكنه الله الجنة، وأهبطه إلى الأرض يستأنف حياة الإنسان بما فيها من جهد وكدح وراحة ونصب، فليس هناك آدم المثال وآدم الأرض. وحينما نستعرض آيات القرآن متدبرين، فإنه لا يسعنا إلا أن نقرر هٰذا.

لقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام -كما تقول الآيات- من عنصرين أحدهما: أرضي: وهو ذٰلك الطين الذي صار حمأً مسنوناً: فصلصالاً كالفخار، وأما العنصر الآخر فهو الروح. وإذن فمن اللحظة الأولى التي تكامل فيه خلقه هيىء بما يستلزمه هٰذان العنصران، وأعني هٰذه الاستعدادات الفطرية التي هي نتيجة لا بد منها، تستلزمها طبيعة هٰذين العنصرين.

---

(١) وقد بينت هٰذا من قبل وقلنا أن الأمر بالهبوط جاء تارة بصيغة الجمع، وجاء تارة بالتثنية وذكرنا سبب ذٰلك.

وها هو القرآن يحدثنا عن آدم في الجنة، وقد طمأنه الله بأن لا يخشى غائلة الجوع وحياة العري ومشقة الظمأ، وحرارة الضحوة، أفليست هٰذه كلها تستلزمها طبيعة الجسم الترابي والعنصر الأرضي !!، ثم هٰذا هو القرآن يحدثنا كذٰلك، عن هٰذه الاستعدادات الفطرية، والتي يطلق عليها بعض العلماء الغرائز، وهي: الجنس، وحب التملك، وحب البقاء، والتدين، ونقرأ قول الله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، كل هٰذا يدلنا على الاستعداد الجنسي. أما الحرص على البقاء وحب التملك فيشير إليهما قول الله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، أما التدين فيظهر في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

هٰذه هي الأمور الفطرية التي زود بها آدم في الجنة بعضها يستلزمه الجسم، وبعضها تستلزمه الروح. أفبعد هٰذا كله، يمكننا القول بأن هناك آدمين، آدم المثال، وآدم الأرض؟ وهل آدم هٰذا الذي تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، هو الذي أهبطه الله إلى الأرض سواء أكان هٰذا الإهباط مادياً أم رتبياً في أول ما تتطلبه الأرض وليس يتلاءم ويتناسب مع كرم الله، ولطف الله وحكمة الله أن يحوله بعد أن أعلن توبته من هٰذا الخلق السوي الذي سجد له الملائكة إلى الأميبا مروراً بالمراحل المختلفة التي تتنافى مع الإنسانية كل التنافي ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

هٰذا هو آدم في القرآن فإذا جاء بعد ذٰلك من يدعي، وقد بهرته النظريات، وأسرت عقله -أنه ينبغي أن تؤول الآيات حتى لا تتنافى مع تلك المقررات فإنا نرفض قوله أياً كان.

ولشيخنا محمد محمد السماحي -رحمه الله- كلامٌ جيدٌ في تلخيص هٰذه النظرية والرد عليها. يقول رحمه الله.

١- **يقول الداروينيون**: إن علم التشريح المقارن للحيوانات وعلم الأجنة وعلم الحفريات -كلها تتوافق على أن الكائنات متدرجة في نموها من أصغر ذرة إلى الإنسان تدرجاً طبيعياً على حسب قانون الترقي وبقاء الأصلح وهٰذا دليل على أنها لا تحتاج لقدرة خالقه. فمثلاً ساقوا أدلة على أن الإنسان متطور عن جده القرد من الرئيسيات التي هي حلقة من حلقات التطور في الثديات، وقالوا لا يمكننا أن نفسر وجود تراكيب أثرية في الإنسان إلا إذا آمنا بنظرية التطور فمثلا عضلات الأذن في الإنسان لا فائدة منها ولا وظيفة لها ولٰكنها تماثل العضلات الموجودة في الحيوانات التي تحرك آذانها كالكلاب والخيل لتلتقط الأصوات في الاتجاهات المختلفة، وكذا الزائدة الدودية فهي عضو أثري في الإنسان لا فائدة له بل يجر عليه أضراراً بليغة، ولٰكن هٰذه الزائدة توجد تامة لتكوين الحيوانات آكلة العشب، بينما تكاد تختفي الزائدة الدودية من الحيوانات آكلة اللحم كالقط، وكذٰلك توجد في الإنسان فقار عصعصية في مؤخرة عموده الفقري، وتشير إلى ذيل اختفى في الإنسان وإن كان المشاهد وجود أطفال يولدون ولهم ذيل يستأصله الأطباء بعملية جراحية.

٢- **ويقولون** إن الجنين في بطن أمه يأخذ الأطوار التي كانت عليها الاسلاف في الأزمنة الغابرة. فإذا كان الانسان قد خلق خلقا مستقلا خاصا فلماذا إذن نجد في جنينه خياشيم وفتحات خيشومية يندفع فيها الدم من قلب يشبه قلب الأسماك إلا إذا كان يحكي لنا علاقة أسلافه ويعيد لنا تاريخ نفسه وإلا إذا آمنا بأن التطور هو السبيل الذي سلكته هٰذه الحيوانات في ظهورها وانها والأسماك انحدرت من أصل واحد.

٣- **ويقولون** إنهم بدراسة الحفريات وجدوا أن أقدم الطبقات تحتوي على حفريات الكائنات البسيطة التركيب وكلما كانت الطبقة أحدث كانت الحفريات التي تحتويها

الكائنات أرقى وأقرب إلى الكائنات التي لا تزال حية حتى ظهرت أرقى الكائنات في العصر الحالي.

وجاء في تلخيص نظرياتهم ما يلي:

الحقيقة الأولى: تتولد الأحياء ببنية هندسية بالتكاثر.

الحقيقة الثانية: ومع ذٰلك يميل عدد الأفراد في نوع إلى أن يظل الزمن البعيد ثابتاً إلى حد ما.

استنتاج من الحقيقتين: التنافر بين الأفراد وبين الأنواع يقلل عددها.

هٰذا هو التنازع في سبيل البقاء.

الحقيقة الثالثة: جميع الأحياء تميل إلى أن تصير مختلفة اختلافاً يذكر وليس ثمة حيان متشابهان كل التشابه، وبعضها مختلف اختلافاً بينا حتى لو كانا من نوع واحد ومع أن هٰذه الاختلافات ليست جميعاً مما يورث فإن تجارب التربة تدل على أن بعضها يورث.

استنتاج من هٰذه الحقائق:

لما كان هناك تنازع في سبيل البقاء، ولما كانت الأفراد ليست جميعها متشابهة، فإن بعض وجوه الاختلاف تدوم لأنها تمنح صاحبها شيئاً من التفوق، أما الضروب الضعيفة فتبيد وهٰذا هو الانتخاب الطبيعي.

النتيجة:

يستمر الانتخاب الطبيعي ماضياً من جيل إلى جيل فتجتمع فروق قليلة حتى تصبح في مجموعها فرقاً كبيراً وهٰذا هو التطور.

هٰذه هي النظرية المادية في تكوين الأشياء وتدرجها من طور إلى طور، واشتقاقها إلى أنواع متفرقة مختلفة في النبات والحيوان لا تخضع إلا لقانون التطور القائم على تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي.

ثم يقول في رد هٰذه الشبهة:

«إن التشابه الذي اعتمدوا عليه والتطور في الجنين وعلم الحفريات والتشريح كل ذٰلك يؤيد القرآن وأنه لا يناقضه، فإذا كان المدبر هو الله تعالى وحده، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]. إذاً لقد خلق الله بطريقته الخاصة على وفق سنته التي أودعها في أرضه وسمائه في طريقة التكوين التي لا تتخلف إلا إذا أراد الله لها هٰذا التخلف ووجود هٰذه السنن مخالفة التأثيرات الطبيعية التي يقولون بها دليل أي دليل على إبطال دعواهم، وإلا فكيف تنتقل الحشرة من دودة إلى شرنقة إلى فراشة طائرة، وكيف يتكون الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث لا ينفذ منها النور ولا الصوت ولا الإحساس بما في الوجود يتكون في صورة خاصة صالحة له في الحياة بطبائع خاصة وغرائز خاصة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦] ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

انظر ما قاله العلماء في طبائع الحيوان في هجرته وغرائزه يكون ذٰلك في الطيور والأسماك وغيرها. ألا يدل ذٰلك على مدبر عليم حكيم قدير؟

ولقد نظر العلماء أنفسهم إلى نظرية النشوء والارتقاء نظر المستريب لنتيجتها وعارضوها بأمثلة من واقع الحياة، نعرض عليك منها ما يأتي:

١ - **«باستور» صاحب التجارب في الاختمار**: سأله سائل كيف يا دكتور نستطيع أن نوفق بين استكشافاتك العلمية والتعاليم الدينية؟

فأجابه قائلا: اعلم بأن دروسي بدلاً من أن تزعزع اعتقادي جعلتني في إيماني كالفلاح البريطاني (مثل فرنسي يضرب لشدة الاستمساك).

٢- «**هارفي**» **مستكشف دوران الدم في البدن قال**: ما شرحت حيواناً إلا رأيت فيه شيئاً جديداً وأدلة جديدة على العناية الإلٰهية.

٣- **الاستاذ «جولين» يقول**: إن مذهب «لامارك» ومذهب داروين يستويان في القصور فإنهما لا يقران التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ولا التحول من الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية. قال فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التي ليست له أولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور؟ وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة؟ أما مسألة الحشرة فإنها أشد استحالة من ذٰلك. فهل هناك أية علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة وبين الحشرة الكاملة التي تنقلب إليها؟ لأنّ الحشرة اعتادت الحياة الدودية تحت الأرض وفي المياه، فكيف تصل شيئاً فشيئاً إلى إيجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية عنها بل مجهولة لها؟

وأما شبهة تكوين الإنسان وأنه متدرج من فصيلة الحيوانات الفقرية بدليل ما فيه من أعضاء أثرية وبالخصوص من القرد الراقي بدليل تشابه كبير بينه وبين القردة حتى قال بعض العلماء: إن الدم الذي يجري في عروق الإنسان رغما عن كونه مخالفا للدم الذي يجري في عروق النوع المنحط من القردة، فإنه يشابه الدم الذي نجده في الراقي من نوع القردة. ولذٰلك حكموا بأنه متسلسل من النوع الراقي من القردة. فالرد على هٰذه الشبهة أنك أنت ذا ترى أن كل ما قالوه ليس فيه دليل واحد يحتم النتائج التي وصلوا إليها وإنما هي ظنون واحتمالات.

لٰكن إذا جاء خالق الكون وقال إني خلقت الإنسان على وضع كذا وثبت قوله بالدليل القطعي الذي لا مرية فيه، وجب قبول قوله، لأن المسألة مسألة سماعية وليست عقلية،

والتشابه في الأعضاء أو الخلايا أو الشعر أو الدم متى ثبت أنها من خالق واحد مبدع، فإنها لا تدل على شيء أكثر من أن خالقها عملها على طريقته الخاصة به، وأنت تجد لدم الانسان أربع فصائل وهو جنس واحد إذا اتحدت الفصيلتان كان التوافق وإذا اختلفت الفصيلتان كان الاضطراب والقلق، وهٰذه القردة من جنس واحد وأرقاها مشتق من أدناها على ما يقولون وليست دماؤهما من فصيلة واحدة. إذا لا بد من اختلاف الفصائل على أنها من أنواع متفرقة كما لا يدل اتحادها على أنها من نوع واحد متى ثبت أنها لصانع واحد. وقل مثل ذٰلك في عدد الأعضاء وتشابهها ونوع الشعر واتحاده وهٰكذا.

يقولون إن الأعضاء الصوتية في القردة الراقية تشابه التي في الإنسان لولا أن كيسين غشائيين قائمين إلى جانب حنجرة القرد يعترضانه إذا هم بالكلام.

لٰكن إذا كان الأمر كذٰلك وقد تقدم الطب والجراحة فلم لا يعملون عملية جراحية للقردة تزيل هٰذين الكيسين حتى تصبح القردة إنساناً يتكلم.

إن ملكة الكلام قائمة بالنفس الإنسانية أولاً ثم بالتعبير عنها بحركة اللسان ثانياً، ومهما كانت قدرة الحيوان من الذكاء فهو ذكاء محدود بطبيعة غدده المخية لا يتجاوزها ألبتة إلى ما أعطيه الانسان من الذكاء وحسن التصرف.

وأخيراً نقول لهم ما قاله الله تعالى في محكم كتابه ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] صدق الله العظيم.

ونختم هٰذه الرسالة بما قاله: «أ. كريس موريسون» في مقدمة كتابه (العلم يدعو للإيمان) قال: لما ظهر «داروين» طرقت فكر الإنسان نظرية جديدة هي بقاء الأصلح وتطور الإنسان وكانت دراسة «داروين» الشاملة والحقائق الكثيرة التي استشهد بها لتأييد نظريته تحمل الإقناع في طياتها وكانت البراهين التي كدسها والحقائق التي جاء بها خلفاؤه مؤيدة نظرية التطور حتى اليوم وقد وصلت بها إلى أبعد من تطبيقاته.

والآن انقضى أكثر من ثمانين عاماً على نظرية «داروين» وقد تقدم العلم تقدماً كبيراً، وبينما تقف نظرية داروين كالصخرة الثابتة التي لا تتزحزح قد تكشف لعالم الفلسفة كثير من الحقائق التي يمكن إيضاحها والتي تعمل فيها إلى نتائج حاسمة أخرى في حيز الإمكان.

فعلم الوراثة الحديث يقيم أسئلة تصعب الإجابة عنها والاكتشافات الأخرى تجعل من عمل «داروين» مجرد خطوة عظيمة في سير الفكرة الفلسفية إلى الأمام ودون إنقاص من دقة استنتاجاته أو عظمة دراسته.

لا يقدر الآن أحد أن يقول كما قال هيجل إنه لو أعطي ماء ومواد كيماوية ووقتا كافيا لاستطاع أن يخلق انساناً.

وقد وصل بعض أتباع «داروين» باستدلالاته إلى حد الإلحاد المادي وحيال ذٰلك تطرف الآخرون أولٰئك الذين ألهموا الإيمان بوجود الخالق وأن هناك غاية في جميع المخلوقات فأنكروا نظرية التطور في كفاحهم للإلحاد.

والآن لا محل لاتخاذ مثل هٰذا الموقف سواء لأنصار فكرة التطور أو لذوي العقلية الدينية لأن العلم قد أوضح الآن حقائق تصل إلى إزالة تلك الخلافات الظاهرية وتنور الفريقين.

ومن عجب أن الاكتشافات الحديثة وفرص البحث اتسعت وقد بعثت النتائج التي وصل إليها الفلاسفة الطبيعيون والتي كانت قد حجبتها نظريات «داروين» والحجج السليمة التي بينت تنظيم الإنسان للطبيعة يجب أن تتابع الآن ببحث جديد في دلائل تنظيم الطبيعة للإنسان وهو ما أغفل نسبيا في خلال الثمانين سنة الماضية. وغرضي من تأليف هٰذا الكتاب هو أن أسترعي انتباه المفكرين إلى الحقائق التي صار ممكنا إثباتها والتي ترمي إلى تأييد الاعتقاد بذٰلك التنظيم وتدل على الغاية منها.

إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة، وأن وجود الإنسان على ظهر الأرض الفاخرة لذكائه إنما هي جزء من برنامج ينفذه باريء الكون. واني لأورد قول «أوسبورن» في هٰذا المجال: بين جميع الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الكون يقف الإنسان في الطليعة وبين الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الإنسان تتركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ وذكاء وذاكرة وآمال وقوة كشف وبحث وقدرة على تذليل العقبات»..

وأني لأعتقد أن من يقرأ هٰذا الموجز من الحقائق العلمية سوف ينتهي إلى الهوة السحيقة التي بين الذهن البشري المدهش وبين جميع الكائنات الحية الأخرى التي هي أقل تمتعاً على الإدراك مما فرض «اوسبورن». حين كتب ما كتبه.

إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم غير أن تحطيم ذرة التون -التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون- إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائرة قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلاً جوهرياً ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالاً لوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة.

وهٰذا ضوء يُلقى على الخفاء الوسيع الذي يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهرياً وقد يقودنا هٰذا الضوء إلى الاعتراف بوجود عقل عام اسمى أي إلى وجود الخالق[١].

إنه من غير الممكن أن نجد صلة بين ما جاء في القرآن الكريم، وبين ما يقول الداروينيون. وما أجمل وأسدّ ما قاله الاستاذ سيد قطب رحمه الله عند قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] يقول رحمه الله:

---

(١) انظر ص: ٤٥ وما بعدها من كتاب مذكرات في التفسير الموضوعي.

إن الخلق قد يكون معناه الإنشاء والتصوير قد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص، وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان. فإن (ثم) قد لا تكون للترتيب الزمني، ولٰكن للترقي المعنوي. والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود. فالوجود يكون للمادة الخامة، ولٰكن التصوير -بمعنى اعطاء الصورة الإنسانية والخصائص- يكون درجة أرقى من درجات الوجود، فكأنه قال: إنما نمنحكم مجرد الوجود ولٰكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية، وذٰلك كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] فإن كل شيءٍ أُعطي خصائصه ووظائفه وهُدي إلى أدائها عند خلقه، ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها، والمعنى لا يختلف إذا كان معنى «هدى»: هداه إلى ربه فإنه هدي إلى ربه عند خلقه، وكذٰلك آدم صور وأعطي خصائصه الإنسانيه عند خلقه.. وثم «...للترقي في الرتبة، لا للتراخي في الزمن» كما نرجح.

وعلى أي حال فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أن اعطاء هٰذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة، كان مصاحباً لخلقه، وأن الترقي في تاريخ الإنسان، كان ترقياً في بروز هٰذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية. ولم يكن ترقياً في «وجود» الإنسان، من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان. كما تقول الداروينية.

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً -بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء- هو مجرد نظرية «ظنيّة» وليست «يقينية» لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلاّ ظناً! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها. وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها! على أنّه على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور- ليس هناك ما يمنع من وجود «انواع من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض؛ بفعل الظروف السائدة في الأرض، ومدى ما تسمح به

من وجود أنواع تلائم هٰذه الظروف السائدة حياتها. ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة. ولٰكن هٰذا لا «يحتم» أن يكون بعضها متطوراً من بعض.. وحفريات داروين وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هٰذا. لا تستطيع أن تثبت -في يقين مقطوع به- أن هٰذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية -وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها- ولٰكنها فقط تثبت أنّ هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنياً.. وهٰذا يمكن تعليله كما قلنا، أن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هٰذا النوع، فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ، ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرى فانقرض.

وعندئذٍ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة وفي الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهٰذا النوع. وهٰذا ما ترجحه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة الحياة البشرية.

وتفرد الإنسان من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية، هٰذا التفرد الذي اضطُرَّ الداروينيون المحدثون -وفيهم الملحدون بالله كلية- للاعتراف به، دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي»[١].

وإنّما أطلتُ في التعقيب على قصة آدم -ﷺ- بعامة، ومما يتصل بنظرية داروين بخاصة، لأنها القصة التي تحكي لنا سلوك الإنسان وطبيعته وآماله واستعداداته راجياً أن يجنّبنا الله الزللَ وأن ينفعني بها والقارىء الكريم، إنّ ربي سميع الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) في ظلال القرآن (٨/ ١٣٦).

توظيف قصة آدم عليه السلام - في الأمور الدعوية

تختلف قصة آدم عن غيرها من قصص الأنبياء -عليهم السلام- فقصة كل نبي كانت تأخذ جانباً من جوانب الحياة، لٰكن قصة آدم هي قصة الحياة الإنسانية كلها، وبعد تدبرنا للآيات الكريمات، لا بد أن نقف عند حقائق أرشدت إليها هٰذه الآيات، وأولى هٰذه الحقائق أن آدم أبا البشر فطره الله تبارك وتعالى على فطرته، حيث الصفاء والنقاء، والالتزام بكل ما يحفظ هٰذه الفطرة مما يشوبها، والابتعاد عن كل مواطن الانحراف والترفع عن أوحال الحمأة، ومستنقعات الرذيلة.

ولا بد أن يستثمر الدعاة والعلماء هٰذه المعاني، فلقد رأينا في الآيات الكريمة أنّ الله تبارك وتعالى خلق هٰذا الإنسان، فكرمه وفضله، وأحسن من أجله كل شيء خلقه، وسخر له هٰذا الكون الفسيح الواسع، ليكتشفوا مجاهيله، ويستخلصوا خيراته، وزوده من كل ما يمكنه من ذٰلك خير تمكين، وجعل كل هٰذا أمانة في عنقه، ولٰكنه حذره من أن يضعف أمام شهواته، وأمام كيد الشيطان، حتى لا يكون ظلوماً جهولاً، وحتى لا يستحوذ عليه الشيطان كذٰلك، وبين له أن هدف الشيطان الأول، أن ينحرف بهٰذا الإنسان عن الفطرة الإلٰهية، وذٰلك حينما يغتر بعلمه وقوته، فيسخرهما بعيداً عن مواطن الخير.

لقد عرفنا في الآيات السابقة ما بينه القرآن الكريم من الأهداف التي لم يخفها إبليس ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٩]. وهٰذه الأهداف المعلنة لإبليس هي ما تعاني منها الإنسانية اليوم، وها هو الإنسان وقد استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله، وأراد أن يبتعد به عن عنصر الخير، وإذا كان تبكيت آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، وإذا كان الإضلال والتمني، إذا كان أولٰئك جميعاً، قد فهم العلماء منها ما يتناسب مع ظروفهم وبيئاتهم، فإن هٰذا الفهم لن يقف عند حدٍّ معين. إن تغيير خلق الله رأيناه اليوم في صور كثيرة ومظاهر متعددة،

وما الهندسة الوراثية، والاستنساخ، أو أكثر ميادينهما على الأقل إلا تفسير صريح حي لهٰذه الآية الكريمة.

لقد بدأ الإنسان حينما فقد الهدي الرباني، وغابت عنه هٰذه الآيات الكريمة التي تحدثت عن آدم عليه الصلاة والسلام، لا يعنيه إلا هٰذا الثراء الماديّ. فلتشق الإنسانية كلها، وليكن هٰذا العالم الثالث حقلا للتجارب الضارة، بل ليكن الإنسان كله عرضة للأمراض الفتاكة، التي تنتج عن بعض أنواع في الهندسة الوراثية، ما دام هٰذا كله يحقق ربحا مادياً لبعض الشركات التجارية.

سمعنا قبل أيام أن بعض العلماء قد فُصل من عمله؛ لأنه أثبت أن الهندسة الوراثية في كثير من المأكولات لها أضرارها ومخاطرها الفتاكة. ولقد سمعت حديثاً إذاعياً من الاستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري، أن عالماً مصرياً فصل من عمله في بعض بلاد الغرب، لأنه أثبت أن المايكروويف له مخاطره وأضراره، ولقد قرأنا في بعض الصحف قبل أيام بأن هناك محاولة من أجل أن لا يكون الحمل خاصاً بالنساء، بل لا بد أن يشترك فيه الرجال كذٰلك.

إن الآيات الكريمة التي تحدثت عن قصة آدم تركز كثيراً على أن هٰذا الإنسان، وقد سخر الله له هٰذه المادة في الكون كله علويه وسفليه، حريّ به أن يظل في هٰذه الحدود، فلا يتجاوزها إلى ما لا خير له فيه، ولا قبل له به، فسيظل طيني المنشأ والغاية، لٰكنّ رحمة الله هي التي ترتفع به من وهدة هٰذا الطين، إننا ينبغي أن نؤكد تماماً سلامة هٰذه الفطرة في قصة آدم. وصدق الله ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ☆ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧] وهٰذه الآيات تبين جزاءين اثنين: دنيوياً وهي

المعيشة الضنك، وأخروياً. ولقد تحقق الجزاء الدنيوي، وسببه نسيان الإنسان ربه أولا، والإسراف والطغيان ثانياً، وهٰذا ناشىء عن عدم الإيمان الحق بالحق.

إن قصة الخلق توجهنا التوجيه السليم في أخطر قضيتين: قضية الفكر والعقيدة، وقضية المسلك ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ الضلال في أمور العقيدة والفكر، والشقاء في أمر المسيرة والمسلك، والضلال والشقاء مصدرهما غرور الإنسان وانخداعه بالتزيين الذي أخذه الشيطان على عاتقه ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩] وهٰذه الأمنيات كذٰلك ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ [النساء: ١٢٠].

وأخيراً إن الإرشادات في قصة آدم، لا يتسع لها الحديث هنا، فلنتدبر، ولنثبت، ولنصبر والله يتولانا، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

قصة نوح عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من اشارات قرآنية.

ثانياً: من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد:

١- في سورة القمر.

٢- في سورة الأعراف.

٣- في سورة الشعراء.

٤- في سورة يونس.

٥- في سورة هود.

٦- في سورة الصافات.

٧- في سورة نوح.

٨- في سورة المؤمنون.

٩- في سورة العنكبوت.

ثالثاً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها.

رابعاً: تعقيب على قصة نوح عليه الصلاة السلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة نوح عليه الصلاة والسلام

ذكر كثيرٌ من الكاتبين نسب نوح -ﷺ- وهو من الأمور التي لا يقطع بثبوتها كيف، ونسب سيدنا رسول الله ﷺ، لم يثبت حتى لإسماعيل -ﷺ- إنما اثبتوه إلى عدنان، لذا لن أعرض لهٰذا الأمر ومن أراد هٰذا فليراجع قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله.

أولاً: ما ذكر فيها من إشارات قرآنية:

ونوح هو الأبُ الثاني للبشر، وهو أول الأنبياء الذين تحمّلوا الأذى من أقوامهم؛ فكان مما جرى بينه وبين قومه دروس نافعة هادية للدعاة إلى الله، وهذا لا ينافي ما اشتهر من أن إدريس كان قبله ـ عليهما وعلى أنبياء الله جميعاً صلوات الله وسلامه ـ(١). ولقد ذكرت قصة نوح عليه الصلاة السلام في مواضع من سور متعددة؛ فكانت بحق تمثل ذلك الجهاد القاسي، وتحكى لنا ذلك الصراع الهائل على مدى الزمن كله بين المبادىء الصائبة التي يدعو إليها أنصار الحق، والأنانية الخائبة التي تسيطر على أنصار الباطل.

---

(١) اختلف الناس في ذلك فذهب بعضهم الى أن نوحاً هو أول الرسل على الإطلاق، وهؤلاء لم يعدوا آدم رسولاً وقالوا إن إدريس هو الياس وكان بعد نوح، وعلى هذا القول يكون نوح أول رسل الله تعالى، وذهب آخرون من القائلين بنبوة آدم وبأسبقية ادريس إلى أن نوحا عليه السلام كان أول الرسل الذين لقوا من أقوامهم العنت والمشقة، ومع ترجيحنا لنبوة آدم الا أن نوحاً عليه السلام كان أول الرسل الذين بعثوا لأهل الأرض وهذا لا يدل على عموم رسالته، إنما بعث لقومه خاصة سواء أكان على الأرض أناس غير قومه أم لم يكن لقرب العهد من آدم، والذي يترجح لي أن الأرض كان يسكنها غير قومه عليه الصلاة والسلام وذٰلك لارتيابنا في المده التي نصت عليها التوراة بين آدم ونوح عليهما الصلاة السلام حيث بينت أن المدة بين خلق آدم وولادة نوح (١٠٥٦سنة) حيث عاش آدم عليه السلام (٩٣٠ سنة) فيكون بين وفاة آدم وولادة نوح عليهما السلام (١٢٦ سنة). [القصص/ عبد الوهاب النجار ص٥٤].

وحديث الشفاعة يؤيد أن نوحاً عليه الصلاة والسلام كان أول الرسل.

ذكرت قصة نوح ـ عليه الصلاة السلام ـ في بضع عشرة سورة جاء بعضها في أثناء الحديث عن الأقوام المكذبين، أو في أثناء الحديث عن الأنبياء المؤيدين بنصر الله مجملاً دون تفصيل، بينما جاء بعضها الآخر قصصاً مستقلاً فصلت فيه بعض الأحداث والمشاهد.

فمن القسم الأول ما جاء في سورة النجم و(ص) والفرقان والذاريات والأنبياء والحاقة، ففي سورة النجم ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٢].

أما سورة (ص): فقد جاء فيها قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

ثم جاءت سورة الفرقان لنقرأ فيها قول ربنا تعالى ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧].

ثم جاءت سورة الذاريات فيها قول الله تعالى ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وأما سورة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ففيها هاتان الآيتان ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وفي سورة الحاقة جاء فيها هذا الامتنان الإلهي ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

وهذه الإشارات ـ كما قلت ـ جاء أكثرها في معرض الأقوام المكذبين، وجاءت واحدة منها في سياق الحديث عن الأنبياء؛ وهي آية الأنبياء، ومع ذلك فإنا نجد كل آية في هٰذه السور لم تكرر نفسها؛ بل كان في كل واحدة منها إشارة، ومعلومة جديدة؛ فآية النجم مثلاً، بينت أن قوم نوح كانوا أكثر من غيرهم ظلماً وطغياناً، وآية (ص)

جاءت إثر خصومة المشركين للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، تسلية له وتطميناً لقلبه الشريف ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١١-١٢].

وآية الفرقان جاءت بشيء جديد لم يذكر في السورتين المتقدمتين وهو أن قوم نوح حينما كذبوا نبيهم؛ فكأنما كذبوا الرسل جميعاً. وتلك إشارة إلى أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أمة واحدة، كما بينت السورة أن ذلك كان سبباً في إغراقهم وجعلهم للناس آية.

وجاءت سورة الذاريات لتصفهم بوصف جديد «الفسْقُ» ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

أما سورة الأنبياء؛ فقد تحدثت عن نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنه حين نادى ربه استجاب له، ونصره من القوم الكاذبين[١]، ووصفتهم بأنهم قوم سوء فأغرقوا أجمعين، وجاءت سورة الحاقة فيها الامتنان على الناس بأنهم حملوا في الجارية، فكان في ذلك تذكرة تحتاج إلى أذن واعية لتعيها وتفيد منها.

ثانياً: من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد:

أما السور التي تحدثت عن قصة نوح -عليه الصلاة والسلام- حديثاً مستقلاً مجملا تارة ومفصلا أخرى فهي: سورة القمر والأعراف والشعراء ويونس وهود والصافات ونوح والمؤمنون والعنكبوت، وسنقف مع كل سورة ـ إن شاء الله ـ لنرى أي روعة، وأي سمو وأي منهجية، تفرد بها هذا الكتاب الكريم.

---

(١) من عظمة القرآن الدالة على إعجازه وسمو أسلوبه الذي أعجز الناس بعامة والعرب بخاصة الفرق في نظم الآيات الكريمة ففعل (نصر) «يعدى بعلى، مثل قوله تعالى: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفي الآية التي معنا عدّي بمن ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ ولعل القاريء الكريم، يدرك الفرق بين الآيتين، فالمسلمون كان بينهم وبين أعدائهم حروب ومعارك، وهٰذا لم يكن بين نوح وقومه، فانظروا ارشدكم الله إلى هٰذا السمو في البيان، كأن النصر هنا إنما هو نجاته وإهلاك قومه بلا معركة وحرب.

١ - سورة القمر: جاء في هذه السورة الكريمة:

﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ [(١)] تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩-١٧].

وهذه الآيات الكريمة جاءت إثر الحديث عن تكذيب أهل مكة الذين إذا رأوا أي آية يقولون سحر مستمر، والذين كذبوا لم يحملهم على هذا التكذيب شكهم في الآيات أو عدم اقتناعهم بها، وإنما الذي حملهم شيء واحد هو: اتباع الأهواء، مع أنه جاءهم من الأنباء ما يكفي لزجرهم عن غيِّهم؛ نعم إنها حِكَمٌ بالغة، ولكن ما تُغني النذر عن الذين حكَّموا الهوى وأبوا الانصياع للحق.

بعد ذلك يحدثنا القرآن الكريم عن قوم نوح، وإذا كان أهل مكة وصفوا النبي عليه وآله الصلاة والسلام بالجنون ووصفوا الآيات الواضحات بالسحر فلم يكن النبي بدعاً من الرسل فهاهم قوم نوح يصفون نبيهم بهٰذا الوصف الظالم.

ثم تحدثنا السورة عما جرى بين نوح عليه السلام وبين قومه؛ لكنها أجملت لنا ذلك كله بعبارة موجزة ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠]؛ ونرى في الآيات بعض التفصيل فيما كان بعد هذا الدعاء، فأبواب السماء كلها فتحت؛ ينهمر منها الماء، والأرض كلها فجرت عيونا؛ فالتقى ماء السماء وماء الأرض ولكن الله تعالى حمل نوحاً على «ذات الواح ودسر». وأخذت السفينة المصنوعة من الألواح والمسامير تجري

(١) دسر: جمع دسار مثل كُتَب وكتاب وهو المسمار فعال من دسره إذا دفعه؛ لأنه يدسر به منفذه. والألواح هي ألواح الخشب.

برعاية الله تبارك وتعالى، ولقد تركت بعد آية للمتذكرين[1]، فما أعظم العذاب! وما أشد النذر! هذا ما بينته سورة القمر، وهي السورة الأولى التي تحكي لنا شيئاً عن خبر نوح - عليه الصلاة والسلام - مع قومه.

٢- **أما سورة الأعراف** فلقد كان حديثها بأسلوب آخر؛ إذ حدثتنا عن بعض ما قاله نوح - عليه السلام - لقومه، وبعض ما قالوه كذلك، إذ بدأت القصة هكذا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] ولكن الملأ ذوي الوجاهة من قومه المعجبين بأنفسهم قالوا له إنك في ضلال مبين فردَّ عليهم - بكل رقة ومنطق وتسامح - ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ[2] وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ[3] وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٢] ولماذا تعجبون أن يأتيكم رجل منكم يحب الخير لكم لينذركم لتتقوا الله فتنالوا رحمته. ولكنهم كذبوا فأنجاه الله ومن معه في الفلك، وأغرق المكذبين؛ لأنهم كانوا قوماً عمين، عميت أبصارهم وغلفت قلوبهم.

الآيات هنا لم تذكر لنا ما وجدناه في السورة التي قبلها ولكن كان حديثها عن شيء آخر - كما رأينا - وهو ما قاله لقومه وقالوه له.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

---

(١) «ولقد تركناها آية» الضمير في تركناها للسفينة أو للفعلة أي جعلناها آية يعتبر بها.

(٢) أيْ شيء من الضلالة قل أو كثر.

(٣) هو أبلغ كثيراً من قوله «انصحكم» كأنه يقول إن نصحي كله أبذله من أجلكم.

٣- ثم جاءت **سورة الشعراء**، ذات موضوع مستقل، وإذا كان الشعر يحرك كوامن العواطف، ويبعث الشجون في النفوس الرواجف، واذا كان الشعر خفقة قلب، وهمسة خاطر:

خفقةُ القلب وهمسُ الخاطرِ وشجي اللحن دنيا الشاعر

فإن الذي يتأمل هذه السورة الكريمة يجد لها من الخصائص التي تذكي المشاعر، وترهف الإحساس ما لا يجده لعيون الشعر، ولا عجب في ذلك.

بدأت هذه السورة الكريمة بقول الله تعالى ﴿ طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ١-٤].

وفي هذه السورة كثر قوله سبحانه يحرك النفوس ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨-٩] نقرؤها ثماني مرات تذكر عقب الحديث عن كل قوم، ففي كل قوم آية كان ينبغي أن يتذكرها المتذكرون.

أما ما جاء عن نوح عليه السلام وقومه في هذه السورة، فقد بدأ بقول الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ(١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٢) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ(٣) إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

---

(١) لأن تكذيب النبي لجميع الأنبياء.

(٢) أمرهم نوح بتقوى الله وطاعته مرتين: الأولى بعد قوله: ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧] والثانية بعد قوله: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وكل من الآيتين ذكرت في سياق فليس هناك تكرار.

(٣) هٰذه المقولة قالها كثير من الأنبياء لأقوامهم ابتداء من سيدنا نوح عليه السلام إلى سيدنا رسول الله ﷺ، حيث جاء في سورة الشورى ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، ولم ترو هٰذه المقولة عن إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام، ويذكر صاحب درة التنزيل رحمه الله -أن سبب ذٰلك أن إبراهيم كان يخاطب أباه، فلا يليق به هٰذه المقالة، وإن موسى أرسل إلى فرعون وربي في قصره- فلا تليق به هٰذه المقالة كذٰلك. وهو توجيه حسن. =

[الشعراء: ١٠٥-١١٠] ولكنهم تعجبهم أنفسهم ويغرهم كبرياؤهم فكيف يؤمنون له ويصدقون وقد اتبعه الأرذلون في زعمهم، ويجيبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكل تلطفٍ ورقةٍ وإنصاف ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٢-١١٥] ولكنهم يضيقون به ذرعا فيتوعدونه إن لم ينته بالرجم، وهنا يضرع إلى ربه إن قومه كذبوه؛ فليفتح بينه وبينهم فتحاً، ولينجه هو ومن معه من المؤمنين الذين احتقرهم هؤلاء المكذبون، ويستجيب الله فينجيه ومن معه في الفلك المشحون[1] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ۞﴾ [الشعراء: ١٢٢].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

فنحن نرى أن هذه السورة الكريمة أضافت إلى ما سبق جديداً سواء أكان هذا مما قاله نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه أم مما قالوه له. وليتأمل القارىء الكريم في هذه السورة، وفيما جاء قبلها ليجد ذلك بينا بأجلى صورة، وأسمى بيان.

٤- ثم تأتي **سورة يونس**[2]، ويكفي أن نقف عند الآية الأولى التي ذكر فيها خبر نوح عليه السلام لندرك ما تفردت به هذه السورة عن غيرها.

---

(١) المشحون: أي المملوء.

(٢) الآيات ٧١-٧٣.

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ[1] فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

وهكذا كذبوه فأغرقوا ونجاه الله ومن معه، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين. هذا ما جاء في سورة يونس، ونستشف منه الأبعاد النفسية، كما نستشعر منه الثقة التي كانت من نوح ـ عليه الصلاة السلام ـ بخالقه ومرسله كما ندرك منه ذلك التحدي الذي جابه به نوح قومه، ولا يستطيع أحد أن يدعي أن ما جاء في هذه السورة إنما هو مكرر من حيث الأسلوب أو من حيث الأحداث.

٥- أما سورة هود[2]؛ فهي السورة الوحيدة التي فصلت فيها قصته ﷺ تفصيلاً مطولاً يشبهها من حيث الطول ما جاء في سورة نوح التي سميت باسمه ﷺ؛ فلقد فصلت لنا السورة الكريمة الشبهات التي جابهه بها قومه، كما فصلت لنا الرد على هذه الشبهات واحدة واحدة، ثم حكت لنا هذا الحوار الذي انتهى بوحي الله لنوح من أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، ثم حكت لنا السورة شيئاً آخر يتعلق بصناعة الفلك، وما كان من سخرية قومه منه، ثم أعطتنا وصفاً دقيقاً مؤثراً لحركة السفينة،

---

(١) أيّ عظمت عليكم دعوتي إلى الله؛ لأنكم أعجبتكم أنفسكم، فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم أي أجمعوا أمركم بما عندكم من حزم، ومعكم شركاؤكم، فالواو هنا واو المعية وليست واو العطف، وشركاء مفعول معه، وليس معطوفاً على (أمركم). ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ﴾ [يونس: ٧١] تفسرها الجملة التي قبلها، أي لا تكونوا في حرج من أمركم، ولا ترددوا في محاربتي والكيد لي. ﴿ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ ﴾ يجوز أن يكون من القضاء بمعنى الفصل، أو من القضاء بمعنى الحكم وهما متقاربان، أي اقضوا في شأني بما تريدون واحكموا عليّ بما تشاءون ولا تمهلوني لحظة من الزمن.

(٢) الآيات ٢٥-٤٨.

وهي تجري بهم في موج كالجبال، ثم بينت لنا من سبق عليه القول من أهله بأنهم لن يؤمنوا وما آمن معه إلا قليل، وأخيراً حدثتنا القصة عن أمرين ذوي خطر:

أولهما:ـ ما حدث بين نوح وابنه، **وثانيهما**: ما كان من سؤال نوح لربه تبارك وتعالى وما أجابه به ربه.

ثم ختمت القصة بخاتمة بديعة، اشتملت أمرين: أحدهما خطاب الله نوحا، «قيل يا نوح» والآخر خطابه نبيه ﷺ، كما سيأتيك ذلك مفصلاً.

والحق أن في قصة نوح في هذه السورة الكريمة دروسا هادية هادفة؛ لا بد أن يقف عندها المصلحون، ورجال الدعوات، وعلماء الاجتماع، وسيدرك أولئك جميعا أن هناك قضايا أساسية يشترك فيها الناس جميعاً مهما تباعد الزمن، وتطاولت الدهور، واختلفت العصور، فالشُبَهُ التي ألقاها قوم نوح؛ هي نفسها التي نجدها اليوم من الذين يتكبرون على الحق وأهله، وأعجبتهم أنفسهم، وغرّتهم أموالهم ومناصبهم، ومكانتهم الاجتماعية، والاقتصادية، يلقونها في طريق المصلحين، فقد بينت لنا السورة هذه الشبهات وهي:

أولا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ **وثانيا**: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] وكيف أن نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ ردَّ على هذه واحدة واحدة أما رده على الشبهة الأولى بقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨][1] ثم هو لا يسألهم مالا ولا أجراً، إن أجره إلا على الله، فماذا يضيرهم بعد ذلك إن كان بشراً!.

---

(١) أي أخبروني إن كنت ذا حجة وبرهان أكرمني به ربي ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي منّ عليّ بالرسالة. ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وأبيتم أن تنقادوا لها بسبب الهوى الذي يسيطر على نفوسكم، والكبر والعجب ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي كيف نلزمكم بها مع كراهيتكم للحق.

ثم يرد الشبهة الثانية، وهي انتقاصهم من المؤمنين فيقول: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠].

أما شبهة الاتهام بالكذب التي وجهوها زوراً له فيردها بقوله ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١] فأين الكذب ومن هم الكاذبون ؟!

وحينما يرون أن الحجة تلزمهم، وقد ردت شبهاتهم واحدة واحدة، لم يجدوا مركباً إلا متن العناد والغواية، وها هم يقولون بعد ذلك كله ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] وهٰكذا يتجرد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم المصلحون الدعاة، فالأمر أولا وأخيراً إلى الله وحده، فهو الذي ينصر أحبابه متى شاء وينتقم من أعدائه وأعدائهم متى شاء، ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ [هود: ٣٣] ما أجمل هٰذه الجملة الطيبة وما أعظمه من درس للمخلصين من أئمة الهدى ؟! وها هو يضيق بهم صدره، ويتضاءل أمامهم نهيه وأمره؛ فيقول ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] وهنا يرد القرآن الكريم مقالة اجتمع عليها أعداء الحق ونفاة الأديان منذ نوح عليه السلام حتى اليوم وإلى ما بعد ذلك، وهي اتهامهم الأنبياء والدعاة بالافتراء على الله، ويرد الله عليهم ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] ويوحي الله إلى نوح -عليه السلام- ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦][1]، ويأمره الله ويوحي إليه أن يصنع الفلك برعايته -سبحانه-

(١) من لطائف القرآن الكريم التي يظهر فيها عظمته وإعجازه ودقائقه البيانية قوله سبحانه في هٰذه السورة، ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وفي السورة التي تليها قول يوسف عليه السلام لأخيه ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩] وأحد الفروق بين الفعل والعمل أن العمل إنما هو الذي يقصد إليه صاحبه، وإخوة يوسف كان فعلهم كله عن إصرار وقصد سابق، =

أما أولئك الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الحق، واحتقارهم لغيرهم من المؤمنين؛ فلا ينبغي لنوح أن يخاطب الله في شأنهم؛ فإنهم مغرقون، ويبدأ نوح صناعة الفلك؛ ولكنهم يمرون به فيسخرون منه فالفلك إنما تجري في الماء ولا ماء عندهم فلم هذا الفلك إذن؟! إن ذلك لا يعني إلا العبث والجنون، ولكن يقول لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ[١] كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨-٣٩] وتحين الساعة، ويجيء الأمر، ويفور التنور[٢]، ويؤمر نوح أن يحمل فيه من كل هذه المخلوقات التي كانت في زمنه زوجين اثنين -أي ذكراً وأنثى- وأن يحمل أهله المؤمنين أي إلا من سبق عليه القول وأن يحمل المؤمنين كذٰلك وهم قليل وهٰذا درس كذٰلك، هٰذه الفئة القليلة كانت نتيجة دعوة مئات من السنين قيل إنهم لم يزيدوا على بضعة عشر، وتسير السفينة ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[٣] [هود: ٤١]، وتجري بهم في موج كالجبال، وينادي نوح ابنه ليركب معه حتى لا يكون مع الكافرين، ولكنه يأبى؛ لأنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، ويقول نوح: لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم، ويحول بينه وبين ابنه الموج فيكون من المغرقين، ويتم أمر الله، ويبلغ الأمر غايته، وهنا يصدر الأمر للكون. ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤]، وينفذ الله أمره ويأمر الأرض أن تبلع ماءها فتنشف قشرتها وسطحها، ويأمر السماء أن تقلع عن المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي نقص ولم يبق إلا ما يحتاجه المخلوقات واستوت على جوديها الذي أراده الله لها،

= أما قوم نوح فقد كانت أفعالهم في كثير من الأحيان على غير قصد سابق، ارتجالاً لا كما كان إخوة يوسف.

وهٰكذا يجب أن تدرس القصة القرآنية تظهر منها أسرار النظم، واختيار الكلمات.

(١) وهٰذا موقف تعليمي للدعاة إلى الله، أن لا ينهزموا أمام الباطل، مهما كان قوياً منتفخاً منتفشاً، وأن لا يظهروا بمظهر الضعف، وما أجدرنا أن نفرق بين الحكمة والضعف، وبين الصبر والخور.

(٢) هو الذي يخبز فيه وأكثر المفسرين على أن التنور المقصود، هو تنور أهل بيته، وهٰذه هي العلامة، أي يفور الماء من التنور وكأنها إشارة إلى بداية الطوفان.

(٣) أي بسم الله وبركته وتوفيقه ﴿مَجْرٜىٰهَا﴾ أي جريها و﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي وقوفها.

وقد اختلفوا في تحديد مكانه فقيل إنه في الموصل وقيل غير ذلك، وقيل بعداً للقوم الظالمين أي هلاكاً.

وينادي نوح ربه فقد أمره أن يحمل أهله وابنه من أهله، ووعد الله حق وهو أحكم الحاكمين وكأن نوحا يتساءل وقد أمره أن يحمل أهله في السفينة، والابن من خاصة الأهل، فلماذا كانت هذه النهاية لابنه؟! ، ويعلم الله نوحاً درساً هو له ولذريته ما دامت الحياة، ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] إنَّ الأهلية أهلية العقيدة أولاً، وقبل كل شيء، أمَّا الوشائج وصلات القربى فكلها تتضاءل وتتلاشى إن لم تربطها العقيدة بروابطها المحكمة، وهذا من أول ما ينبغي أن يعلمه الناس، فضلاً على الأنبياء.

وهنا قضية كنت أود أن لا أعرض لها، ولا أطيل الكلام فيها، شغلت كثيرا من الباحثين قديما وحديثا، وهي: أكان هذا الولد ابنا لنوح حقيقة؟! أم كانت نسبته إليه غير صحيحة؟

والحق أن هذه القضية محسومة حسمها القرآن الكريم نفسه، حيث جاء في كلام نوح، ربّ إن ابني من أهلي، فهذه الجملة تتضمن حقيقتين اثنتين:

الحقيقة الأولى: أنه ابنه.

الحقيقة الثانية: أن الابن من الأهل.

وقد رد القرآن الكريم القضية الثانية ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ [هود: ٤٦]، أما القضية الأولى وهي كون هذا الولد ابناً له فلم يردها القرآن، وعليه فهي قضية حسمها القرآن كما قلت، ومع ذلك وجدنا الجدل فيها يحتدم بين العلماء قديماً وحديثا، وكانت هذه المسألة إحدى مسائل لجنة علماء الأزهر التي شكلت في أول الثلاثينات من هذا القرن لمناقشة كتاب قصص الانبياء للشيخ عبد الوهاب النجار[1].

(١) ص: ٦٧.

وكان الشيخ عبد الوهاب النجار -رحمه الله- يرجح أنه كان ابنه حقيقة، ولكن لا يستبعد أن تكون خيانة امرأة نوح التي ذكرت في قوله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] لا يستبعد أن تكون الخيانة خيانة زوجية، فأنكرت عليه اللجنة، قوله هذا، وذكرت قول **الرازي** -رحمه الله- يقول الامام الرازي:

اختلفوا في أنه كان ابناً له، وفيه أقوال:

القول الأول: إنه ابنه في الحقيقة، والدليل عليه أنه تعالى نص عليه فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ [هود: ٤٢] ونوح أيضاً نص عليه فقال ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ وصرف هذا اللفظ إلى أنه رباه، فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز، والذين خالفوا هذا الظاهر إنما خالفوه لأنهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافراً (وهذا بعيد، فإنه ثبت أن والد رسولنا- ﷺ- كان كافراً، ووالد إبراهيم- عليه السلام- كان كافرا) بنص القرآن، فكذلك هٰهنا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام لما قال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فكيف ناداه مع كفره؟

فأجابوا عنه من وجوه، الأول: أنه كان ينافق أباه فظن نوح عليه السلام أنه مؤمن فلذلك ناداه، ولولا ذلك لما أحب نجاته. والثاني: أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر، لكن ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل الايمان، فصار قوله﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان وتأكد هذا بقوله ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي تابعهم في الكفر، واركب معنا، والثالث: أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء. والذي تقدم من قوله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [هود: ٤٠] كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلاً فيه.

القول الثاني: إنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن علي الباقر، وقول الحسن

بالفتحة عن الألف، وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه أنه قال ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥] وأنت تقول: ما كان ابنا له، فقال: لم يقل: إنه مني ولكنه قال من أهلي وهذا يدل على قولي.

القول الثالث: أنه ولد على فراشه لغير رشدة، والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط ﴿ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو على خلاف نص القرآن. وأما قوله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا﴾ فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكروه.

قيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما كانت تلك الخيانة: فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به، ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]، وأيضاً قوله ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣] وبالجملة فقد دللنا على أن الحق هو مقول الأول»[1].

وأكرر القول هنا أن القضية حسمها القرآن الكريم، ولا يليق بمقام الأنبياء أن تتهم نساؤهم بالفاحشة، وشتان بينها وبين قضية عقدية.

ويرجع نوح عليه السلام إلى نفسه معتذراً إلى ربه تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧] ويطلب مغفرته ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين ويكرم الله نوحاً فيستجيب له ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]... إلى آخر ما في القصة من ثروات هائلة لكثير من كليات الإصلاح والقضايا الاجتماعية، وهذا ـ بالطبع ـ عدا ما فيها من فنون البيان، وبلاغة التراكيب،

---

(١) تفسير الرازي (١٨-٢٣١-٢٣٣).

وروعة الأساليب، وما على القارىء الكريم إلا أن يفتح المصحف وبالتحديد سورة هود؛ ليقرأ بتدبر هذه الآيات الكريمة، وسيجد أن كل ما جاء فيها من مواقف وأحداث كان ذا صبغة جديدة، إذا قيس بما جاء من هذه القصة في السور التي سبقت سورة هود، والتي تحدثنا عنها من قبل.

وتختم القصة بهذه الآية الكريمة خطاباً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ

ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٢٥-٤٨].

٦- **أما سورة الصافات،** فلقد عرضت للقصة من جانب آخر، ومن زاوية أخرى، فيها الجدة من حيث الموضوع والأسلوب فلم تحدثنا عن إرسال نوح عليه السلام لقومه وما قاله لهم، وما قالوه له ـ كما رأينا في سورة هود وما قبلها ـ وإنما كان الحديث يقتصر على إكرام الله تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام، وما منَّ به عليه من منن كثيرة، وما أنعم به وتفضل عليه من نعم وأفضال، والناظر في سورة الصافات يجد ذلك واضحاً بيناً أيما بيان. يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢].

هذا ما جاء في سورة الصافات من خبر نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فليس هناك ذكر للمحاورات بينه وبين قومه، وليست هناك حجج يدلي بها وشبهات يردُّها، كل ما فيها هذا الإكرام الذي تحدثت عنه من قبل ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] ثم يذكر سبحانه كيف نجاه وأهله من الكرب العظيم، وجعل هذا العالم كله من ذريته وترك عليه ثناءً حسناً سيبقى إلى يوم الدين وهذا الثناء الحسن هو قوله﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . . . وهكذا كان ما في السورة مغايراً لما جاء في السور قبلها.

٧- **ثم جاءت سورة نوح**، وما أشبهها بسورة يوسف من حيثُ اختصاصُها بالحديث عن نوح وحده ـ عليه السلام ـ، كما اختصت سورة يوسف بالحديث عن يوسف ـ عليه السلام ـ.

بدأت السورة بالحديث عن إرسال نوح لقومه، ولكنها هذه المرة بدأت بأداة التوكيد (إنَّ) وليس باسلوب القسم الذي رأيناه من قبل ـ الذي جاء فيه (ولقد أرسلنا)؛ لأن القصص السابقة جميعاً جاءت في أثناء السور، أما هنا فقد جاءت بداية السورة وفاتحتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١-٤].

ونلحظ في هذه المقدمة:

أولاً: أمر الله تعالى نوحاً بإنذار قومه، وقد كان في الآيات السابقة حديث نوح نفسه ـ عليه السلام ـ ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

ثانياً: ولأول مرة يأمرهم نوح عليه السلام بهذه الأوامر الثلاثة: العبادة، وتقوى الله، والطاعة لنوح عليه السلام، وهو سر بديع رائع اختصت به هذه السورة؛ إذ يظن الكثيرون أن العبادة والتقوى شيء واحد، ولكن شتان بينهما، فما أبعد الفرق بين العبادة والتقوى! فكم من عابد لا تصل به عبادته ولا ترتفع به إلى مرتبة التقوى!. العبادة وسيلة من وسائل التقوى يتوجه بها العبد إلى خالقه، ولكن هناك عبادات ليس فيها إلا الصورة الظاهرة للعبادة، فلا صلة بينها وبين القلب، وهذا ما نطقت به آثار كثيرة، وكم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش، وكم من صلاة لا تنهى صاحبها، أما التقوى فهي غاية

الإكرام الإلهي للعبد، ولذلك كان المتقون هم أكرم الناس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ونلحظ ثالثاً: وعد نوح لقومه بالمغفرة والتأخير إلى أجل مسمّى.

وإذا كان هذا ما نلحظه في مقدمة السورة؛ فإن ما بُنيت عليه السورة الكريمة كان كذلك جديداً من حيث الموضوعات والجزئيات والأسلوب، تحدثنا سورة نوح ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥-٩] ويستمر الحديث عما قاله لقومه ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] ثم يبكتهم ويعنفهم ويؤنبهم؛ لأنهم لا يعظمون الله تبارك وتعالى ولا يرجون له وقاراً وكان من حق الله تعالى أن يعظم ومن حقهم أن يعظموه؛ لأنه خلقهم أطواراً، ثم يذكرهم ـ بعد أن بين لهم آيات الله تعالى في أنفسهم وكيف انتقلوا من طور إلى طور ـ آيات الله في هذا الكون ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦] ثم يلفت أنظارهم إلى أن الله الذي أنبتهم من الأرض سيعيدهم فيها ويخرجهم وهو الذي ذلل لهم هذه الأرض وجعلها بساطاً ذات سبل واسعة متعددة.

وبعد هذا يخاطب نوح عليه السلام ربه تعالى معلناً عصيان قومه له، واتباعهم الذي لا يزيده ماله وولده إلا خساراً، ويتحدث عن مكرهم، وعن أقوالهم في شأن أصنامهم، ونتيجة ذلك كله: إنّ هذه الخطيئات جميعاً كانت السبب في إغراقهم ودخولهم النار، وتختم السورة بدعاء نوح ربه على قومه ويطلب المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

هذه السورة كانت نمطاً جديداً ـ كما رأينا ـ؛ وفيها من دقائق الكون، ومن حقائق العلم الكثير الكثير مثل: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، والتعبير عن القمر بأنه نور وعن الشمس بأنها سراج[1] وقوله ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2] ولم يقل إنباتاً مع أنه هو المصدر. كما قال إخراجاً، وإنما قال نباتا ليدل على أن جسم الإنسان كله وأن غذاءه ودواءه كل أولئك من الأرض، فانظروا أرشدكم الله إلى هذه الدقائق القرآنية، وهذه الحقائق من العلم، التي تذكر في قصة نوح ﷺ، وهو أول من أرسل إلى قوم، ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] ولم يقل إنباتاً. كما قرأنا فيها لأول مرة معلومات عن عبادتهم، وأسماء أصنامهم، ولا يرتاب أحد في أن سورة نوح كانت طرازاً جديداً لم يسبق له مثيل من قبل.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۞ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ

(١) لأن القمر يستمد نوره من الشمس.

(٢) لأن الإنسان ليس الا من عناصر الأرض وهذا ما تعطيه كلمة (نبات).

ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾.

٨- بقي من السور التي تتحدث عن نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ سورتان اثنتان؛ سورة **المؤمنون**(١)، وقد بدأت هكذا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣] ويجيبه الملأ الذين كفروا من قومه قائلاً بعضهم لبعض ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥] ويناجي نوح ربه معلنا تكذيب قومه له، ويوحي الله إليه بصناعة الفلك برعايته سبحانه، فإذا جاء الوقت المعين فليسلك فيه من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول، فإذا استوى على الفلك هو ومن معه فليدع بهذا الدعاء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وليقل كذلك ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] ولأول وهلة ربما يظن بعض الناس أن هذا تكرار لما جاء في سورة هود في بعض مقاطعها وأحداثها، ولكنك حينما تنعم النظر أيها القارىء الكريم؛ فإنك ستجد ما ينافي ذلك دون شك.

بدأت سورة المؤمنون بقوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ وهذه نفسها البداية في سورة هود، أما الأعراف فلقد ابتدأت بقوله «لقد أرسلنا»، فخلت سورة الأعراف من واو العطف، حيث لا مسوغ للعطف، فقد طال الفصل بين القصة وبين ما جاء في أول السورة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠-١١] وعلى هذا جاءت سورة الأعراف خالية من حرف العطف.

أما في سورة هود فلقد جاءت الآية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [هود: ٢٥]؛ لأن ما قبل هذه الآية كان حديثاً عما جرى بين النبي عليه وآله الصلاة والسلام وبين أهل مكة، فجاءت الآية بحرف العطف تعطف خبرا على خبر.

---

(١) الآيات (٢٣-٣٠).

وأما سورة المؤمنون فلقد جاءت الآية «ولقد» عطفاً على ما جاء في أول السورة ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

هذا الذي يظهر لنا في أمر حرف العطف، وليس كما ذهب إليه صاحب قضايا التكرار في القصص القرآني الاستاذ القصبي محمود زلط من أن العطف جاء من أجل قوله سبحانه قبل هذه الآية ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٢] حيث قال: إنه لما ذكر الفلك ذكر قصة نوح الذي صنع الفلك، وإذا كان الأمر كما قال الشيخ القصبي، فإن هذه الآية الكريمة يجب أن تأتي خالية من العطف وهذا ما يقرره علماء البلاغة في مبحث الفصل والوصل، فإنه لما ذكر الفلك بقوله ﴿ وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾، كأنه قيل فمن أول من حمل في الفلك ولم؟! قيل: لقد أرسلنا.

الأمر اذن ليس كما قال الشيخ، بل لما ذكرته لك، جاءت عطفا على ما سبق من الآيات، والفصل لم يكن بين هذه الآيات والتي قبلها.

كان الخطاب في سورة هود من الملأ الذين كفروا في قومه لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧]، أما هذه السورة الكريمة فتبين لنا أن الخطاب كان من بعضهم لبعض، كان من أولئك السادة المتنفذين لغيرهم ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وتلك قضية اجتماعية مهمة نجدها في مختلف العصور والأزمنة كما نجدها في مختلف الأمصار والأمكنة؛ فكم من عات مستكبر كان سبباً في إهلاك غيره من أولئك المستضعفين، ولهذا نجد القرآن الكريم قد أعطى هذه القضية عناية خاصة، وذلك حتى لا يكون كثير من الأفراد من الإمَّعات ، ويكفي أن نقرأ مثلا قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وفي سورة سبأ ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١]، وفي سورة إبراهيم ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا

لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، إلى غير ذلك من المحاورات بين المستكبرين والمستضعفين.

ومن دقائق ولطائف البيان في القصة القرآنية ما ذكره صاحب درة التنزيل -رحمه الله- وهو أنه قد جاء في سورة هود ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠] وجاء في سورة المؤمنون ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] فقد ذكر فعل السلك هنا، لأنه لم يذكر غيره، فهو يشمل الحمل والركوب والدخول، أما في سورة هود فإنه ذكر مع الحمل الركوب، وهي ملحوظة قيمة تدلنا على عظمة هذا الكتاب وخصائص القصة القرآنية من حيثياتها المتعددة.

وتأتي قصة نوح عليه السلام في سورة المؤمنون لتبين لنا تلك القضية المهمة: كما قرأنا في القصة كذلك الأثر السيء لتقليد الآباء في الباطل وكون الرسل لا يكونون إلا ملائكة كما تفردت السورة بهذا الدعاء الذي جاء في آخرها.

مشاهد القصة في سورة المؤمنون إذن ليست مشاهد مكرورة أبداً؛ بل الأمر على العكس من ذلك تماماً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٣٠].

٩- أما سورة العنكبوت، فلقد جاءت القصة في هذه اللقطة القصيرة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وإذا كانت هذه آخر سورة تُحُدِّثَ فيها عن نوح ـ عليه الصلاة السلام ـ؛ فلقد جاءت القصة فيها تلخيصاً لما مر؛ ولكنه تلخيص اشتمل على كثير من الفوائد كذلك، ويكفي بيان المدة التي مكثها نوح ـ عليه الصلاة السلام ـ في قومه ولم يسبق لها بيان من قبل: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] ما أجمل هذه اللفتة البيانية، وهي التعبير بالسنة عن المدة التي قضاها نوح عليه السلام في قومه؛ لأن السنة تشير إلى الشدة والصعوبة، والتعبير بالعام عن المدة التي لم يكن مع قومه فيها والعام فيه معنى اليسر، كما أن السنة تطلق على التقويم الشمسي، والعام على القمري وهو أقل بأحد عشر يوماً، ففي السنة إشارة إلى الطول والشدة.

الأطوار التي تمر بها القصة:

ولا بد أن نشير هنا إلى ملحظين مهمين:

أما أولا: فهو هذا الاتساق بين القصص القرآني، حيث تبدأ القصة بإشارات موجزة ثم يأتي دور التفصيل، ثم يأتي الدور الثالث وهو دور الإيجاز خلاصة موجزة للقصة، لكنها فيها أمور جوهرية كذلك، وهذه سنة القرآن الكريم في ذكر قصصه العظيم؛ أطوار ثلاثة تمر بها القصة. إنه ترتيب بديع حقاً؛ فقصة آدم ـ عليه الصلاة السلام ـ في العهد المكي رأينا أن آخر سورة تحدثت عنها سورة الكهف بلقطة قصيرة موجزة مجملة؛ لكنها لم تخل من فائدة، وكذلك قصة نوح ـ عليه الصلاة السلام ـ كانت آخر سورة تحدثت عنها سورة العنكبوت كما رأينا، ويشهد الله أن في ذلك غاية الإبداع، ونهاية الروعة، وروح الإيجاز وسر الإعجاز.

وأما ثانياً: فنجد أن قصة نوح عليه السلام لم تذكر إلا في السور المكية على العكس من قصة آدم عليه السلام، فقد ذكرت في سورة مدنية، وهي سورة البقرة وذلك لأن الحديث عن آدم عليه السلام إنما هو حديث عن خصائص الإنسان، فإن آدم عليه السلام هو الأصل وهذا لا يختص بمكان دون مكان هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فلأن قصة نوح عليه السلام كانت شبيهة بما كان في العهد المكي، من حيث الدعوة إلى الله ومن حيث الشبهات والافتراءاتُ.

وبعد، فهذه قصة نوح عليه الصلاة والسلام كانت في سور القرآن المتعددة ذات صور متعددة، كل واحدة تأخذ بحُجَزِ الأخرى؛ لتكملها، وهي والله كاملة . . .

ثالثاً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها:

وهكذا اختصت كل سورة بجانب من جوانب هذه القصة، وما بقي علينا الآن إلا أن نبذل المحاولة مستعينين بالله لنبحث عن السرِّ علَّنا ندرك السبب الذي اختصت كل سورة بما ذكر فيها، فأقول وبالله التوفيق وهو الفتاح العليم.

أما سورة القمر ذات الآيات القصار، والنبرة القوية، فإنها جاءت تحدث عن المكذبين الذين لا يؤمنون بالآيات ـ رغم سطوعها وظهورها ـ ويكفي هذه البداية: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ١-٢]. . . الآيات إذن جاءت رداً حاسماً على أولئك المعرضين، وتطميناً قوياً، وتثبيتاً مكيناً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام وللمؤمنين كذلك. وما جاء في قصة نوح عليه السلام جاء متناسباً مع موضوع السورة وشخصيتها، بل مع بدايتها كذلك «اقتراب الساعة»، والدليل على ما نقوله: هذه الفاءات المتعاقبة التي نجدها في القصة ﴿ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ ﴾ ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾ ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾، ونلحظ أن النتيجة هنا جاءت سريعة؛ لم يكن بينها وبين مقدماتها مراحل طويلة، وهذا ما يقتضيه موضوع السورة -كما قلت-، بل السورة مبنية كلها على هذه الحقيقة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾

وهكذا نجد الاتساق والتناسب التامين في السورة كلها من حيث موضوعها والقصص الذي ذكر فيها، والله أعلم.

أما سورة الأعراف، وهي السورة التي حدثتنا عن العقيدة من حيث تاريخها السحيق البعيد فقد بدئت بهذه الآية ﴿الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١-٢] فأصحاب العقيدة لا ينبغي أن يجدوا حرجاً مما خصهم الله به على الرغم مما يجدونه من العقبات والمعوقات ثم امتنت السورة على الناس بأن الله مكنهم في الأرض، وجعل لهم فيها معايش فلا بد من أن يشكروه على نعمه، وذكرت قصة آدم عليه السلام ووجهت بعدها نداءات متعددة لبني آدم، ثم جاءت قصة نوح فوجدناها تتناسب مع موضوع السورة وما يتضمنه من نعم على بني الإنسان ليشكروه، ولا أدل على ذلك من هذا الخطاب الذي يخاطب به نوح عليه السلام قومه من أنه بلغهم رسالات ربه، ونصح لهم، ومن أنه رجل منهم جاء لينذرهم حتى تنالهم رحمة الله تبارك وتعالى، وهكذا نجد السورة في بنيتها كلها تقوم على هذا الأساس، وهو التذكير بآلاء الله ونعمه.

أما سورة الشعراء، فلقد جاءت القصة تتناسب مع موضوعها وشخصيتها ـ كما تحدثنا من قبل ـ فهي التي جمعت أعظم ما للشعر من خصائص تهيج الوجدانات، وتثير المشاعر مع سموها، وعلو شأنها على الشعر، ـ ولله المثل الأعلى ـ، والتالي لقصة نوح عليه السلام ولغيرها في هذه السورة الكريمة يجد ذلك الأسلوب الأخاذ، ونكتفي بما ذكرناه من الآيات الكريمة من قبل، راجين أن يكون مصداق ما أشرنا إليه هنا.

أما سورة يونس فإنَّ موضوعها تعنت الكافرين، وعجبهم من أن يرسل الله رجالاً منهم يوحي إليهم. والمتأمل في آيات السورة يجدها كلها بنيت على هذا الموضوع، ولقد جاءت قصة نوح عليه السلام تتناسب مع ذلك الموضوع تناسباً تاماً ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [يونس: ٧١].

ولكن سورة هود، وهي التي يقول فيها النبي ﷺ وعلى آله «شيبتني هود»(1) نجدها اشتملت على ما لم تشتمل عليه سورة مثلها، وما أكثر المواقف التي اشتدت على نوح ـ عليه الصلاة و السلام ـ !! الشبهات أولا، ثم تيئيس الله له من عدم إيمانهم به، ثم سخريتهم منه، ثم ما كان من شأنه مع ابنه، ثم عتاب الله تبارك وتعالى له حينما خاطب ربه في هذا الشأن ﴿ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] كل ذلك يتناسب مع ما بنيت عليه السورة من أهوال وشدائد.

أما سورة الصافات، ـ وهم العباد المكرمون ملائكة وبشراً ـ فهي تتحدث عن طاعة أولئك العباد المكرمين لله من ملائكة ورسل ومؤمنين، وما خص الله به أولئك العباد من نعم، فنجاهم من الأهوال. وقصة نوح عليه السلام في السورة ـ كما رأينا من قبل ـ لا تخرج عن هذا الموضوع ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ إنها سورة المنن والألطاف. والمنعم في السورة يجدها كلها على هذه البنية، وربما سيمر بنا طرف من ذلك إن شاء الله تعالى.

ونظن أن الأمر في سورة نوح بيّن؛ فليس في السورة كلها إلا الحديث عن نوح، بل نلحظ أمراً آخر في السورة الكريمة، وهي أنها كلها كما كانت حديثاً عنه فهي حديثٌ له كذلك، فكل ما في السورة ليس إلا قولاً له عليه الصلاة السلام، حتى الآيات التي نسب فيها القول لقومه ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [نوح: ٢٣] جاءت محكية على لسان نوح -عليه الصلاة والسلام-، فلم تأت مجردة عن قوله وهذه هي الآيات نتأملها ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢١-٢٣] السورة كلها إذن محكية

(١) أخرجه الترمذي/ سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن/ من سورة الواقعة حديث رقم ٣٢٩٣ جـ ٩ ص٣٦ الحديث «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت»، قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.

على لسانه عليه الصلاة والسلام ابتداء من أولها ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ ثم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي﴾ ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ﴾، فهي من أولها إلى آخرها ـ كما رأينا ـ مقولة له ﷺ وعلى نبينا وعلى أنبياء الله جميعاً وسلم تسليماً كثيراً.

أما سورة المؤمنون، فلقد جاءت تتحدث عن الصفات التي تميز المؤمنين عن غيرهم، وقصة نوح في هذه السورة ـ كما قلنا من قبل ـ جاءت تتحدث عما يحول بين الإنسان، وبين الإيمان، وهو هذا الاستضعاف والاتباع والرضا بالذل والمهانة.

بقيت سورة العنكبوت، وهي سورة الدعاة؛ لأنها جاءت تبين ركائز الدعوة ومعوقاتها، كل ذلك بإشارات موجزة كافية ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢] كل ما في السورة مواقف قصيرة موجزة معبرة تبين ما يكتنف الدعوة والدعاة من شدة، وقصة نوح عليه السلام جاءت تتناسب مع موضوع السورة من هذه الحيثيات جميعها، وما على القارىء إلا أن يرجع إلى ما ذكرناه في هذه الآيات من قبل. فأنعم النظر أيها القاريء فلعل الله يفتح لك ويلهمك خيراً مما ذكرته لك وفضل الله كبير وعظيم.

رابعاً: تعقيب على قصة نوح عليه الصلاة والسلام

هذه قصة نوح، ومن خلال روضات الجنّات في محكم الآيات التي شرفنا بها، ندرك أن نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يعاني من قضيتين اثنتين يجهد نفسه من أجل أن يرشد قومه ليصلحوا خطأهم فيهما:

القضية الأولى: قضية التوحيد: عبادة الله الواحد، وقد قلنا من قبل إن الله تعالى هدى الإنسانية منذ خلق آدم عليه السلام للحق المبين، ولكن اجتالتهم الشياطين ليشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً، وهذا ما ترشد إليه الآية الكريمة ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

كان الناس أمة واحدة في عقيدة التوحيد؛ ولكنهم اختلفوا ـ كما قلنا من قبل ـ؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. وإذا كان نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد عانى كثيراً من هذا الأمر؛ فإن هناك قضية أخرى نجدها ظاهرة المعالم، بينة الأثر فيما يجد من قومه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، تلكم هي قضية التفاضل بين الناس، وهو ما عرف بعد بالنظام الطبقي، ولا عجب أن نجد القرآن يعالج هذه القضية ويسجلها عند الحديث عن أول رسول أرسل إلى قومه، وسندرك الغرض من ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

يظهر ذلك جليا في تلك الشبهات التي وجهها قومه وقد ذاقوا طعم أنفسهم ـ اللهم لا تذقنا طعم أنفسنا ـ فسولت لهم بأن هناك فوارق بين الناس؛ فمنهم الوضيع، ومنهم الحقير، ومنهم الأشرف، ومنهم الأرذل، وقد وزعت هذه الشبهة ـ كما رأينا من قبل ـ على مساحة واسعة من آيات القرآن مما كان بينه وبين قومه ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧]

ومرة أخرى ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وثالثة ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ونوح ـ عليه الصلاة و السلام ـ يحاول جاهدا، ويصبر مجاهدا أن يبدد هذه النعرة من نفوسهم، ولكن كمن ينفخ في رماد، ويصرخ في واد.

وهناك قضية أخرى ليست بعيدة عن هذه، وإنما تتصل بها اتصالاً مباشراً وثيقاً؛ فنظرة الاستعلاء تقوم أول ما تقوم على دعامة من العنصرية العرقية، ووشيجة القربى وصلة الدم؛ لذلك نجد نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ يهيأ له المثل العملي من أجل أن تُجْتَثَّ جذور هذه العنصرية، وهذا ما نعنيه بتلك القضية الأخرى ذات الصلة المباشرة بقضيتنا الأولى: نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينادي ابنه ليكون معه في السفينة، ولكن الله تبارك وتعالى يبين له أنه ليس من أهله ـ كما أشرنا لذلك من قبل ـ وأن ذلك إنما هو أثر قريب الشبه بهذه العرقية التي كانت سبباً في تعالي قومه وفخرهم ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] كما جهل قومك ونوح ـ عليه الصلاة و السلام ـ يعيب قومه بقوله ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] وحري بك أن تترفع عن ذلك الذي ألفوه وعرفوه.

ونلحظ في قصة نوح عليه السلام أنه لم يرد ذكر لامرأته، كما ورد ذكر امرأة لوط، مع أن القرآن ذكَر المرأتين معاً في سورة التحريم، ونظن هذا ـ والله أعلم ـ، لأن امرأة نوح لم يكن لها ذلك الدور الذي كانت تقوم به امرأة لوط، فقوم لوط كانت جرائمهم كثيرة متعددة من قطع السبيل، وفعل المنكرات الكثيرة، لكن قوم نوح كانت عقدتهم الشرك والتعالي، وفي هذا الجو لن يكون للمرأة دورها في مثل هذا الجو الطبقي، ولهذا كان القرآن يطوي ذكر المرأة في قصة نوح، ويكتفي بالقول ﴿ ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠].

كانت اللبنة الأولى التي ركزت عليها قصة آدم قضية العقيدة، ولا بد من اللبنة الثانية، وهي التي جاءت تركز عليها قصة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهي أن هذه العقيدة ينبغي أن تكون الأساس الذي يتفاضل به الناس وهي بعد الأمر الذي يجب أن يقرب أو يباعد فيما بينهم، وما سوى ذلك من روابط وصلات ووشائج فليس حرياً أن يكون له وزن أو أن يكون له اعتباره إذا كان يتعارض مع هذا الأساس، وإذا لم تحكم العقيدة جوانبه وتسلط عليه أنوارها، وتلك قضية جدير أن يحسب لها حسابها؛ لذلك نجد نوحاً -عليه الصلاة والسلام- يستغفر ربه من هذه الرواسب التي وجدها في نفسه من غير قصد، والتي جلبتها ودفعت إليها العواطف، عواطف الأبوة الرحيمة.

قصة نوح إذن تضع اللبنة الثانية في بناء الإنسانية المحكم الذي أراد الله للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أن يكونوا بناته ومشيّديه.

أمّا شخصية نوح -عليه الصلاة والسلام- كما نستشفها من خلال الآيات الكريمة؛ فهي شخصية النبي الصابر الحريص على جلب الخير لقومه مهما كلفه ذلك، ومهما لقي في سبيله، فها هو يدعو قومه، لا في النهار وحده، بل في الليل كذلك، وقد جعل الله الليل سكناً. ومن جهة أخرى فهو يستعمل وسيلة الإعلان تارة، والإسرار تارة أخرى وذلك درس حري بالتأمل.

ومن جهة ثالثة فهو لا يقتصر على التخويف فحسب، وإنما على الإطماع والتبشير ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١١-١٢] وهو بعد ذلك كله يناقش كل ما يأتون به من شبهات إثارات؛ ليزيلها من نفوسهم، ولكنه مع ذلك يدافع بقوة عن مبدئه، وعن المؤمنين معه وهو كذلك لا ينسى أن يستثمر الكون وما فيه من آيات، وهذا شأن الداعية الفذ، فهو يذكرهم بما في هذا الكون من أرض وسماء وبأصل نشأته، وهذه وسائل ما أجدر الدعاة أن يتبعوها

ويسلكوها ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ . وعلى الرغم من المدة التي قضاها بينهم؛ إلا أنهم لم يرعووا، وكان من الممكن أن يستمر في دعوته لولا أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن وما آمن معه إلا قليل، وهنا ـ وقد أدرك أن لا خير يرجى منهم ـ يتوجه إلى ربه بهذا الدعاء ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح: ٢٥-٢٨] حتى دعاؤه على الكافرين لم يكن تشفيا، وإنما من أجل العقيدة ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ [نوح: ٢٧]، وهو درس لو تعلمون عظيم. وهنا لا بد أن نتذكر ما كان من سيدنا رسول الله ﷺ وقد جاءه ملك الجبال من أجل أن ينزل بأهل مكة العذاب فيقول كلمته العظيمة، التي لا زالت يسري عبقها في هذا الكون هداية وتربية وحكمة نافذة، وحكمة وبصيرة (لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)(١) لقد دعا نوح ألف سنة إلا خمسين عاما وأدرك بالوحي الإلهي أن قومه لا يؤمنون ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود: ٣٦] فكان دعاؤه -إذن- نتيجة لهذا العناء الذي انتهى بهذا الوحي الإلهي. أما موقف النبي عليه وآله الصلاة والسلام، فكان أمراً آخر، فلقد كانت هذه المقولة في مكة قبل الهجرة، فكانت الهجرة بعد ذلك، وكانت الحرب سجالا.

وأخيرا كان ما توقعه النبي عليه الصلاة والسلام، فأخرج الله من أصلاب أولئك من عبده ووحده ونافح عن دينه وعن نبيه عليه الصلاة والسلام، فصلى الله على نوح، أول رسول دعا ولم يأل جهدا في دعوته وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه آخر رسول دعا، واستجاب الله له، وكانت الآخرة خيرا له من الأولى وسلم تسليما كثيرا.

---

(١) أخرجه البخاري ج٣ حديث رقم ٣٠٥٩ - موسوعة الحاسوب.

المدة التي قضاها نوح عليه الصلاة والسلام:

وأخيراً يجمل أن نشير إلى أن المدة التي قضاها نوح في قومه، وهي ألف سنة الا خمسين عاما؛ ربما يجول في بعض النفوس أنها مدة طويلة لم يعهدوا بمثلها لأحد ممن يعاصرون أو يعرفون، ونجيب:

أولا: بأن ذلك أخبر عنه القرآن الكريم، وأخباره صدق لا مرية فيها، ونجيب.

(ثانيا): لمن يعشقون تعليل الأشياء: بأن نوحاً كان قريب العهد بآدم، وفي ذلك العهد كانت الحياة بعيدة عما طرأ عليها من تعقيد فيما بعد فلم تكن تلك المؤثرات التي تنال من الأبدان والأجسام والقوى الإنسانية. ولقد قرأت حديثاً عن بعض المناطق النائية في الاتحاد السوفييتي أن هناك أناسا متوسط أعمارهم مئة وعشرون أو مئة وثلاثون أو أربعون سنة بعيدون عن تعقيد المدنية الحديثة حتى إن الكثير منهم يظن أنهم لا زالوا في عهد الدولة القيصرية. لا يظنن أحد أني أذكر هذا ليكون دليلا على صدق القرآن ـ فمعاذ الله وأستغفر الله أن أكون من الجاهلين ـ، لكن الذي أردت قوله: إن الانسان في العهد الأول كان له من حيثُ الجسمُ ما ليس لمن جاؤوا بعد، وكلمة الفصل إنه خبر القرآن الصادق الذي تطمئن إليه النفوس كاطمئناننا إلى أن واحداً وواحداً يساوي اثنين، بل أكثر من هذا. وخطأ الكثيرين وانحرافهم إنما جاء من مثل هذه القضايا التي أرادوا أن يقيسوا بها الغائب على الشاهد وتلك لوثة المادية التي أعجب بها أولئك المرتابون وصدق الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٦-٧] وهذا الجانب ليس هو كل شيء، وما أكثر الجوانب التي يجهلها كثير من الناس، بل أكثرهم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

قصة هود عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من إشارات.

١- سورة الفجر.

٢- سورة القمر.

٣- سورة الأعراف.

٤- سورة الشعراء.

٥- سورة هود.

٦- سورة فصلت.

٧- سورة الأحقاف.

٨- سورة الذاريات.

٩- سورة المؤمنون.

١٠- سورة الحاقة.

ثانياً: لم تفصل قصة هود كقصة نوح.

ثالثاً: تعقيب على قصة هود عليه السلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة هود عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من آيات:

نحب أن نقرر بادي بدء أن عاداً وثمود من القبائل العربية التي كان أمرها معلوماً حين نزول القرآن الكريم، فالمؤرخون يقسمون العرب أقساماً ثلاثة:

١- **العرب العاربة**: وهم القحطانيون من أهل اليمن.

٢- **العرب المستعربة**: وهم العدنانيون من أهل الحجاز، وهم نسل اسماعيل بن ابراهيم - صلى الله عليهما وعلى نبينا وسلم - ومنهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٣- **العرب البائدة**: كعاد وثمود وطسم وجديس.

لذلك لا نعجب إذا وجدنا القرآن الكريم يشير في كثير من آياته إلى عاد وثمود، وقد تكون هذه الإشارات مبكرة في بعض السور الأولى، كما سنرى ذلك إن شاء الله تعالى.

وقصة هود لا تخرج عن سنن القصص في القرآن الكريم كما قلت -من قبل- من حيث ذكر الإشارات أولا ثم التفصيل ثم النتائج السريعة.

وقد وردت الإشارة إلى عاد كما نرى ذلك في سورة النجم و (ق) والفرقان والعنكبوت، ففي سورة النجم ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾(١) [النجم: ٥٠-٥١]

---

(١) اختلف المفسرون في قوله سبحانه «عاداً الأولى». فذهب بعضهم إلى أن قوله سبحانه «الأولى» صفة جاءت للفصل والتفرقة بين قبيلتين إحداهما: عاد الأولى، والأخرى عاد الآخرة، وقد تبنى هذا الرأي ابن كثير وأبو السعود، في تفسيريهما، ومن المحدثين الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الانبياء -رحمهم الله تعالى-.

وذهب آخرون إلى أن الأولى ليست صفة كما قال الأولون، إنما هي صفة بيان فحسب، الهدف منها بيان قدم قبيلة عاد في جذور التاريخ ومن هؤلاء الشيخ ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير. =

وفي سورة (ق) ﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ [ق: ١٣]، وفي سورة الفرقان ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨]، وفي سورة العنكبوت ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وهذه الإشارات نجد في كل منها فائدة غير التي ذكرت في الأخرى، ولا نخال الأمر يحتاج إلى بيان، والذي يعنينا الآن أن ننظر نظرة في السور التي تحدثت عن قصة هود عليه السلام إجمالاً أو تفصيلاً، وسنجدها كلها مكية، كما قررناه من قبل في قصة نوح.

السور التى تحدثت عن قصة هود ﷺ:

١ - وأول سورة أشارت إلى هذه القصة سورة **الفجر** حيث جاء فيها قول الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ(١) ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر: ٦-٨] وسورة الفجر ـ كما نعلم ـ جاءت تطمئن المؤمنين بأن الليل المدلهم الذي يحيونه، وظلمته التي يعانون منها، وقسوتها التي تشتد عليهم، كل ذلك إلى زوال، فلا بدَّ للظلمة من أن تتلاشى، ولا بد لليل أن ينجلي بالفجر الذي يشق ظلمته.

وفي تسمية السورة طمأنينة للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، وبشارة للمؤمنين بأن

= وأصحاب الرأي الأول اختلفوا في عاد الثانية، فبعضهم رأى أنها ثمود وبعضم رأى غير ذلك.

والذي يظهر لي، وأرجحه بل أؤكده هو الرأي الثاني، فإن قبيلة عاد واحدة، ولكنها كانت الأولى لسبقها في التاريخ، ولم يقم دليل قاطع على غير هذا، والله أعلم بما ينزل.

(١) نود ان نحذر من الاسرائيليات في تفسيز هذه الآيات فعاد إرم وإرم هو الأب الذي ينتسبون إليه وصفها الله بأنها ذات العماد وبأنه لم يخلق مثلها في البلاد، وهذا وصف للقبيلة نفسها، وليس لمدينة كما توهم المتوهمون وأطالوا الكلام في وصفها وبأنها لبنة ذهب ولبنة فضة ولبنة نحاس إلى غير ذلك مما لا يصح.

الفجر آت لا ريب فيه، والتعبير بالفجر بدل الصبح، جاء متسقا تماما مع موضوع السورة ومع هذه البشارة، إذ الفجر هو الذي يشق ظلمة الليل ويؤيد هذا قوله ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، حيث جاءت منكرة غير معرفة، فهي الليالي التي يكون القمر فيها أسطع نوراً وأشد ظهورا، وهي العشر الوسط في الشهر القمري، وعلى هذا فلا أرجح ما قيل في تفسير «ليال عشر» مما ذكره المفسرون من أنها عشر ذي الحجة أو العشر الأخيرة من رمضان أو المحرم؛ لأن ذلك كله لم يكن معلوما عند نزول السورة الكريمة، وانما تحدث عن هذه في المدينة، ثم لو كان المقصود أحد هذه الأقوال لقيل «الليالي العشر».

والآيات التي ذكرت في السورة الكريمة تتناسب مع موضوعها من حيث تطمين المؤمنين، ومن حيث وعيد الكافرين الذين كانوا يظنون أن الأمر مستقر لهم. ولم يرد في الآيات ذكر لهود عليه الصلاة والسلام، وإنما هي إشارة لعاد إرم ذات العماد والقوة التي لم يخلق مثلها في البلاد، والقوم ـ كما قلت من قبل ـ كانوا يعرفون الكثير عن عاد وثمود؛ لأنهم عرب؛ ولأن مساكنهم كانت معلومة لهم، فكانت هذه الإشارة في سورة الفجر مؤدية للغرض موصلة للغاية المنشودة منها.

٢- ثم جاءت سورة **القمر** تتحدث عن عاد في هذه الآيات الكريمة: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ[١] تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ[٢] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٨-٢١]. وقد ذكر في هذه الآيات ما أهلك الله به عادا من الريح الصرصر في يوم نحس مستمر، وكيف كان شأن هذه الريح، وهي تنزع الناس. وكيف تصيرهم.

---

(١) نحس: أي مشؤوم، ومستمر: أي قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم، وهو الشديد المرارة والبشاعة.

(٢) أعجاز نخل منقعر: يعني أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال عظام كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع، ومنقعر: منقلع عن مغارسه وقيل شبهوا بأعجاز النخل؛ لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس.

وهذه السورة لم يذكر فيها هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ كذلك، لكن الذي ذكر فيها لم يذكر كذلك في السورة السابقة، فاختصت كل واحدة من السورتين بذكر شأن من شؤون عاد حيث ذكر في السورة الأولى ما يختص بهم من النعم التي منحهم الله إياها، وذكر في هذه كيفية إهلاكهم فكل قصة تتناسب مع موضوع السورة التي ذكرت فيها ولا نود هنا أن نعيد ما ذكرناه عن موضوع سورة القمر حيث تقدم لنا في قصة نوح -عليه الصلاة والسلام-.

٣- إن أول سورة ذكر فيها هود ـ عليه الصلاة و السلام ـ هي سورة **الأعراف**.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

وأمام هذه الكلمات القوية الرحيمة، وأمام هذا السمت الهادي إلى الخير نجد القوم يصرون على الإعراض، ويمعنون في التكذيب والوقاحة، وندرك من الآيات الكريمة أن قوم نوح يختلفون عن قوم هود، فالملأ من قوم نوح كانوا جميعا كافرين، أما الملأ من قوم هود فلم يكونوا جميعا كافرين، بل كان منهم مؤمنون، وقد يكونون قلة، وهذا الذي تشير إليه الآية، ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ٦٦] فهذا يدل على أن من الملأ من لم يكونوا كافرين، ومع أن شخصية هود عليه السلام، كما يدرك المتدبر للآيات

القرآنية كانت شخصية تتصف بالرزانة وحسن السمت، والوقار، والهيبة، إلا أن الملأ الكافرين تناسوا ذلك كله ووصفوه بالطيش والخفة (السفاهة) وبالكذب وقد يكون الظن على حقيقته، وهو عدم اليقين، وقد يكون مرادا به اليقين، وهذا الذي أرجحه، وذلك لقولهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:٦٦]، ودليلا على رزانته ووقاره ﷺ هذا الهدوء الهادف ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ بهذا التلطف، ﴿لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ وقد يقال: لِمَ لَمْ يرد شبهة الكذب عن نفسه؟!، والجواب: إن قوله ﴿وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ﴾ فيه بيان لصدقه ﷺ، ثم يزيل الشبهات من نفوسهم ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أي: أكان منكم الاستغراب والإنكار والعجب، ان يأتيكم رجل من جنسكم وقبيلتكم لينذركم لتستقيموا على الجادة، ثم يذكرهم بنعم الله عليه ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾، وهذا ما قرأناه من قبل ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ وهذا يدل على أن القوم كانت لديهم معرفة عن قوم نوح وما حل بهم من الطوفان، فحري بهم أن يذكروا آلاء الله ليفلحوا ويفوزوا، ولتدوم نعم الله عليهم، ولكن القوم يعرضون فلن يتركوا ما كان عليه أباؤهم، وليأتهم العذاب الذي توعدهم به، وهنا وقد أدرك عليه الصلاة والسلام أن العناد والكفر بلغا منهم مبلغا عظيماً فيقول، بأنه قد وقع عليهم من ربهم رجس وغضب إذ يجادلون في أسماء سموها هم وآباؤهم ما نزل الله بها من سلطان فلينتظروا العذاب، وتكون النتيجة أن ينجي الله هوداً ومن معه، ويقطع دابر القوم المكذبين، وغني عن القول أن القصة تتلاءم مع موضوع السورة حيث ينبغي أن يذكر القوم آلاء الله لعلهم يفلحون، وغني عن القول كذلك أن ما ذكر هنا ليس فيه ما ذكر في السورتين السابقتين سورة الفجر وسورة القمر.

٤- ثم جاءت سورة **الشعراء**، وقد تحدثنا عن موضوعها من قبل فجاءت الآيات بهذه القوة التي تخترق أعماق القلوب القاسية وتتملك المشاعر والأحاسيس، وتنفذ إلى داخل الوجدان وتتحكم في العواطف، أي والله، إن الأمر كذلك ولنتدبر الآيات بإمعان:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٥].

ها هو ﷺ يذكرهم بنعم الله عليهم التي كانت حرية أن تبعثهم على شكر الله، والريع شرف، أي المكان المرتفع، وكانوا يبنون في طرقهم، حيث الرمال المتحركة أبنية مرتفعة، حتى لا تضل المارة، ويتخذون مصانع قيل هي الجوابي التي يخزن فيها الماء وهي الصهاريج، وقيل هي القصور الشامخة، ولو أن عملهم هذا كان هدفه نبيلا، لكان في ذلك خير، ولكن لم يكن كذلك، فبناؤه كان الهدف منه العبث، واتخاذ المصانع كان الباعث عليه الكبر والتسلط، والإقبال على الدنيا إقبالا تاما ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾. ثم هم جبارون، والجبار هو الشديد في غير الحق.

قال ابن عاشور رحمه الله:

رأى من قومه تمحضاً للشغل بأمور دنياهم، وإعراضا عن الفكر في الآخرة والعمل لها، والنظر في العاقبة، وإشراكاً مع الله في إلهيته، وانصرافا عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأعمرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم، فانصرفت هماتهم إلى التعاظم والتفاخر واللهو...

وكانت عاد قد بلغوا مبلغا عظيما من البأس وعظم السلطان، والتغلب على البلاد مما أثار قولهم. ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فقد كانت قبائل العرب تصف الشيء العظيم في نوعه بأنه «عادي» وكانوا أهل رأي سديد ورجاحة أحلام قال وَدّاك بن ثميل المازني:

وأحلام عاد لا يخاف جليسهم ... ولو نطق العُوّار غَرْبَ لسان

وقال النابغة يمدح غسان:

أحلام عاد وأجساد مطهرة ... من المَعَقَّة والآفات والأثم

فطال عليهم الأمد، وتفننوا في إرضاء الهوى وأقبلوا على الملذات واشتد الغرور بأنفسهم، فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونية إرضاء الله على أعمالهم لحب الرئاسة والسمعة، فعبدوا الأصنام، واستخفوا بجانب الله تعالى، واستحمقوا الناصحين وأرسل الله إليهم هودا ففاتحهم بالتوبيخ على ما فتنوا بالإعجاب به، وبذمه إذ ألهاهم التنافس فيه عن معرفة الله فنبذوا اتباع الشرائع وكذبوا الرسول. فمن سابق أعمال عاد أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل المسافرون في تلك الرمال المتنقلة التي لا تبقى فيها آثار السائرين واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على أشراف من الأرض، وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأن فيها حفظ الناس من الهلاك في الفيافي بضلال الطرق، ومن الهلكة عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده، كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا.

فأما إذا أهمل إرضاء الله تعالى بها واتخذت للرياء والغرور بالعظمة وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله انقلبت عظمة دنيوية محضة لا ينظر فيها إلى جانب النفع، ولا تحث الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها وقصاراها التمدح بما وجدوه منها فصار وجودها شبيها بالعبث لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها؛ لأن الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته، وكانوا أيضا في الإعراض عن الآخرة والاقتصار على التزود للحياة الدنيا بمنزلة من يحسبون أنفسهم خالدين في الدنيا[١].

---

(١) التحرير (١٩/ ١٦٥).

ولكن ماذا كان أمام هذه الكلمات التي تنشق لها الأرض وتخر الجبال هدا وتتفطر القلوب، ومن القلوب ما يكون أشد قسوة من الحجارة؛ لنستمع ما الذي أجابوا به هوداً -عليه الصلاة والسلام-:

﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٤٠].

أرأيت إلى ما جاء في سورة الشعراء عن هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع قومه، ألست معي أنه نمط جديد، ونهج جديد؟! ثم ألست ترى أن هذا النمط، وهذا النهج يتسق مع موضوع السورة وشخصيتها؟ اللهم: بلى، ولا إخالك تقول غير هذا!.

٥- ثم جاءت سورة هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد تحدثنا عن موضوع السورة من قبل، وسنجد أن الآيات التي تحدثت عن قصة هود عليه السلام تتلاءم مع شخصية هود عليه السلام(٣) ومع موضوع السورة نفسها ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا

---

(١) أي وعظك وعدمه سواء فلن نستجيب لك.

(٢) «إن هذا إلا خلق الأولين» أي الذي نحن عليه، إنما هو ما عليه الناس من قبلنا، وهذا مثل قوله «إنّا وجدنا آباءنا على أمة» ، ويجوز ان يكون المعنى: «ما الذي تدعونا إليه إلا أساطير الأولين» وهذا كله على القراءة التي هي رواية حفص بضم الخاء واللام، وهناك قراءة أخرى، بفتح الخاء وسكون اللام، والمعنى ما الذي تقوله لنا إلا كذب وافتراء، أو ما نحن إلا كما مر قبلنا من الناس، موت ولا حياة فيما بعد، ويؤيد هذا «وما نحن بمعذبين».

(٣) إن قصة نوح في سورة هود كانت أوسع من قصة هود، وإنما سميت هذه السورة «هود»؛ لأن نوحا ذكرت له سورة خاصة به أولاً، ولأنه ليست هناك سورة ذكر فيها هود، كما ذكر في هذه السورة، حيث ذكر عدة مرات، «وإلى عاد أخاهم هود» «قالوا يا هود... نجينا هودا» «ألا بعدا لعاد قوم هود».

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٠-٥٢] هذا قول هود عليه الصلاة والسلام في سورة هود، ولا يستطيع أحد أن يدعي أن هذا القول نفسه هو ما جاء في سورة الشعراء أو سورة الأعراف، اللهم إلا الدعوة إلى التوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] وهذا - بالطبع - الأساس الذي لا بد منه أما غير ذلك فلا، ويكفي أن نقف عند هذه السورة حيث بين لهم أنه لا يسألهم أجرا، وإنما أجره على الذي فطره، ثم يبكتهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثم يأمرهم بالاستغفار والتوبة حتى تتوافر لهم عناصر الحياة الكريمة من إرسال السماء مدرارا كي تنمو مواشيهم وزروعهم، ومن زيادة القوة إلى قوتهم ولكن بم يجيبون؟!.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤].

هذا ما قالوه هنا وهو يختلف عما جاء في سورة الأعراف وسورة الشعراء، بل هو أقسى واشد وأنكى، ففي سورة الأعراف ما زادوا على قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠] وفي سورة الشعراء ما زادوا على قولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

أما هنا فقد أكّدوا ذلك وزادوا عليه، فأولاً: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وثانيا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ وثالثاً: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ - بهذا الأسلوب القاطع -، ولم يكفهم هذا الذي قالوه، ولئن قالوا في سورة الأعراف: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] ولئن فهم هذا من الجمل الثلاث التي جاءت هنا في قولهم ﴿ما جئتنا ببينة﴾ لكن الذي زادوه هو أنهم اتهموه بـأن آلهتهم قد مسته بسوء: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[1] وأمام هذا الاصرار على الكفر والعناد

(١) أي خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدك عنها وعداوتك لها مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء.

=

والتكذيب يقول هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] وهو يقول هذا واثقا من نصر ربه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٦].

وهو مثل يدل على القهر والتمكن، وذلك لأن هناك دواب ليس لها نواصي، فالله سبحانه بيده كل شيء وهو القاهر فوق عباده إن ربي على صراط مستقيم، فهو الحكيم العادل في كل شؤونه سبحانه وتعالى... وأخيرا يعلن أنه قد بلغ رسالته، ويتوعدهم أن الله سيستخلف قوما غيرهم، ولن يضروا إلا أنفسهم.

ويأتي أمر الله فينجي هودا والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه وينجيهم من عذاب غليظ، ويعقب القرآن على ذلك تعقيبا يدركه أولو الألباب ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] ذلك ما جاء من نبأ عاد في سورة هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ: جديداً في مضمونه وسياقه وأسلوبه، ملتئماً مع بنية السورة الكريمة، وأهدافها وأغراضها.

٦- **أما سورة فصلت**(١) وهي التي قرأ النبي عليه وآله الصلاة والسلام آياتها الأولى على عتبة بن ربيعة، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] وضع يده على فيه وقال كفى كفى يا ابن أخي، فقد ارتجف قلبه وخشي أن تنزل به الصاعقة.

---

(١) الآيات: ١٣-١٤.

موضوع السورة يتحدث عن القوة، قوة الله وقدرته رادا على كفار مكة[1] ما يجدونه في أنفسهم حينما قالوا ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١٤] وقصة عاد جاءت تتلاءم مع هذا الموضوع الذي تتحدث عنه آيات السورة الكريمة، فبعد أن تحدث القرآن عن عاد وثمود وما اصابهم من صاعقة حينما أمرتهم رسلهم ألا يعبدوا إلا الله ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤] يحدثنا القرآن عن عاد واستكبارهم في الأرض، واغترارهم بقوتهم ولنستمع:

﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦] هذا هو حديث هذه السورة عن عاد الذين غرتهم قوتهم، والقوة قد تغر كثيرا من الناس فتعميهم وتصمهم عن الحق، ونحن نرى كيف تتغطرس الدول القوية في أيامنا فتكون هذه القوة من أهم أسباب الطغيان، وكذلك كانت عاد من قبل، وهذه الإشارات في السورة الكريمة لم نجدها من قبل فيما مر معنا من السور السابقة.

٧- ثم جاءت **سورة الأحقاف** وهي من آل حم[2] كذلك، وسورة الأحقاف تتحدث عن قضية الحق الذي هو أصل في هذا الكون فبه أنزل الله الكتاب ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وبه خلق الله السماوات والأرض ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ١-٣] وسنة الله التي جرت

---

(١) لا أدل على ذلك من قوله سبحانه: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩].

(٢) آل حم: السور التي بدأت بقول الله تعالى: ﴿حمٓ﴾ وهي سبعة.

واول ما يلفت النظر ان هذه السورة سميت الاحقاف، وهي مساكن عاد كما بينت السورة الكريمة. والاحقاف في جنوب الجزيرة العربية، بين عمان واليمن، وهي قريبة من منطقة غُفار.

واستقرت في هذه الحياة أن يقصم كل أولئك الخارجين عن الحق أيا كانت قوتهم وهويتهم، وهذا ما جاء متسقاً متناسقاً منسجماً مع قصة هود عليه السلام في السورة الكريمة، أضف إلى ذلك ما جاءت به السورة من أمور جديدة لم نجدها من قبل وإليك البيان: جاء في سورة الأحقاف هذه الآيات الكريمة:

﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ[1] آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا[2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٦].

فقد وجدنا أموراً كثيرة اختصت بها هذه القصة في السورة الكريمة ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] وهي اللفتة الأولى التي تحدثنا عن مساكن عاد، كما تحدثنا عن هذا السحاب المستقبل أوديتهم ففرحوا به ظانين أنه يحمل لهم المطر الذي يفرحون به، ولكن أنى لهم ذلك، وإنها ريح ليس فيها مطر خير، وإنما فيها عذاب؛ فهي تدمر كل شيء ولكن بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم لتكون عبرة لمن بعدهم، وذلك الجزاء الذي يستحقه كل مجرم ثم تبين الآيات أنه على الرغم من تمكينهم في الأرض اكثر مما مكن به أهل مكة، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً؛ لأنهم أعرضوا عن الحق، وجحدوا بآيات الله، واستهزأوا وهذا يتلاءم مع موضوع السورة الذي أشرت إليه من قبل.

---

(١) الإفك: يقال أفكه عن رأيه إذا حوله عنه.

(٢) العارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء.

٨- أما **سورة الذاريات** ولها من اسمها نصيب فقد جاءت تشير إلى تبديد الباطل مهما بدا منتفخاً، وظهر منتفشاً، وطغى زبده وطال أمده. وفي موضوع السورة ومقاطعها ما يشير إلى ذلك: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات: ٥-١١].

وما جاء من خبر عاد يتناسب مع هذا الموضوع، موضوع الذاريات حيث تبديد الباطل. فماذا جاء في السورة الكريمة عن أولئك القوم؟! هاتان الآيتان ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا(١) تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢] وهذا الوصف للريح وما تفعله بكل ما تأتي عليه فتجعله كالرميم إنما اختصت به هذه السورة الكريمة دون غيرها.

٩- أما **سورة المؤمنون** فلم يذكر فيها هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ، كما لم يذكر فيها اسم عاد، وإنما ذكرت عقب قصة نوح عليه الصلاة والسلام، ونحن نعلم أن القرآن يذكر عقب قصة نوح قصة هود عليهما وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه، والآيات تحدثت عن أولئك القوم بصيغة التنكير:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً(٢) فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١].

---

(١) العقيم: التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر وهي ريح الهلاك.

(٢) الغثاء: حميل السيل مما بلى واسود من العيدان والورق.

فالآيات تدور كلها حول قضية البعث وهو ما يعتقده المؤمنون دون غيرهم وهذا ما جعل القصة تتلاءم مع موضوع السورة الذي أشرنا إليه من قبل، وفيها كذلك بعض الحيثيات التي منعتهم من الإيمان وهي:

أولا: الترف الذي يعيشون فيه، والترف: سوء كله ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦] كيف لا وهو الذي يصل بأصحابه إلى البطر ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨].

وثانيا: أن الرسول الذي دعاهم يأكل ويشرب مما يأكلون منه ويشربون؛ فلا ينبغي أن يطاع.

وثالثا: رأوا أن الدنيا هي الغاية، إلى غير ذلك من الإشارات التي انفردت بها السورة الكريمة.

١٠- واخيراً جاءت **سورة الحاقة** فيها هذه اللقطة القصيرة عن أولئك القوم، وهذا يتسق مع نظم القرآن حيث يأتي في آخر سورة تذكر فيها القصة ذكر مجمل موجز؛ هو إجمال لكل ما سبق، ولكن لا يخلو من فائدة كذلك، واللقطة الموجزة في سورة الحاقة جاءت كذلك متلائمة مع موضوعها منسجمة مع شخصيتها، فهي سورة الأهوال والمشاهد المؤثرة في الموضوع والفخامة في الأسلوب والجزالة في اللفظ(١) وهذه الآيات خير دليل على ما ذهبنا إليه:

---

(١) الجزالة: القوة، يقال حطب جزل وهو ما لا تأكله النار بسهولة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلۡحَآقَّةُ مَا ٱلۡحَآقَّةُ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ[(١)] عَاتِيَةٖ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا[(٢)] فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقة: ١-٨].

فلقد انفردت السورة الكريمة ببيان المدة التي سخرت فيها ريح على عاد وما أروع النسق القرآني فإن آخر سورة تحدثت عن نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي سورة العنكبوت بينت المدة التي قضاها مع قومه فانظر كيف اتفقت السورتان وأنعم ثم أنعم بهذا الإيجاز المجمل في السورة الكريمة انتهى الحديث عن عاد قوم هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ثانيا: لم تفصل قصة هود كقصة نوح:ـ

نلحظ أننا لم نجد التفصيل الذي وجدناه في قصة نوح، وهذا لا شك يرجع إلى أسباب: نحسب ـ والله أعلم ـ أن منها:ـ

١- طول المدة التي قضاها نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع قومه.

٢- ما كان لقوم نوح من معرفة في بعض قضايا الكون يدلنا على ذلك مثل قول الله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ [نوح: ١٥].

٣- التفاوت الذي كان بينهم، يدلنا على مثل ذلك قول الله ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

---

(١) الصرصر: الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق لشدة بردها.

(٢) حسوماً: نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة.

والخلاصة أننا بعد هذا التطواف الذي شرفنا به في السور الكريمة ونحن نتحدث عن قصة هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لم نجد أي أثر لما يمكن أن يسمى تكراراً، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والله ولي التوفيق.

ثالثا: تعقيب على قصة هود عليه الصلاة والسلام

هذه قصة هود عليه السلام مع قومه، والذي نلحظه من خلال ما مر بنا من آيات كريمة أن هوداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ إضافة إلى دعوة قومه للتوحيد، والإيمان بالله وعبادته كان هناك أمر آخر جدير بأن ينبه قومه عليه؛ ذلك ما كان يجده أولئك من أنفسهم من هذه الغطرسة والشدة والقوة والبطش، نجد ذلك مبثوثاً في أكثر السور التي عرضت للحديث عن عاد، والقوة حين تكون بعيدة عن الحق وحين تنبعث من النفوس المعرضة المستعلية تصير سببا من أسباب الطغيان بل من أخطر أسبابه؛ إنها تحمل أصحابها فتنسيهم أول بدهية من البدهيات، وهي أنهم خلقوا ليموتوا فبقدر ما تجدهم يبنون في الدنيا مشيدين متفاخرين، إنهم يهدمون من جانب آخر بنيانهم الإنساني فيصبح البطش طبيعتهم، والتجبر ديدنهم فلا تزداد قلوبهم إلا قسوة... ومن هنا فهم أبعد ما يكونون عن أن يتأثروا بنصح ناصح، أو برقة واعظ، لقد أعمتهم القوة عن كل شيء، ولقد كان هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ يبذل كل ما في وسعه ليستأصل من قلوبهم تلك القسوة، ويزيل بينهم وبين الحق هذه الجفوة: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الآيات: ١٢٨-١٣١] من سورة الشعراء.

ولكن القوم مع ذلك يعلنون ـ وقد استكبروا في الأرض بغير الحق ـ أن لا أحد أشد منهم قوة. أما هود عليه السلام فما جاء ببينة ـ كما ادعوا ـ ولن يؤمنوا له وسواء عليه وعظ أم لم يكن من الواعظين، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أنذر وبشر يسلك مع قومه سبيلاً رشداً وهو أمر مهم ـ لابد من التنصيص عليه والإشارة إليه ـ وهو يعلم الله ـ

درس لا بد أن يعيه كل من يدعو إلى الله فما أكثر من يخطىء فيه. ذلكم الأمر هو أن هوداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد أن لا يحارب مشاعر قومه وينال من عواطفهم بادي بدء، بل جاراهم وتلطف معهم، قد نجد قوماً ما طغت عليهم عاطفة حب المال فإذا جئنا لنسفه هذه العواطف في نفوسهم، وننال منها؛ فإن ذلك سيحدث ردة فعل لا تنتج إلا عكس ما نريده ونقيض ما نبتغيه، ولكن الطريقة المثلى إذا أردنا أن نستأصل هذه العاطفة ونبعدها أن نقوي فيهم عاطفة أخرى من العواطف الخيرة كالإنفاق في سبيل الله وبذل الخير فإن أراد الله بهم خيراً فإن ما يحدث هو أن تتصارع العاطفتان فتقوى إحداهما على الأخرى، وهذا النهج الذي كان من هود ـ عليه الصلاة و السلام ـ؛ فلقد أراد أن يشذب هذا الذي في نفوسهم، ويهذب تلك العواطف فها هو يقول لهم: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] فهو كما نرى لم يحارب مبدأ القوة فيهم ولكن القوم استعصوا على كل مصلح، لذلك نجده يعلن عليه السلام بأنه توكل على الله ربه وربهم الذي لا يخرج أي شيء عن قبضته، فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. وهكذا نجد أن هوداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أكرمه الله فوضع لبنة في بناء الإنسانية المحكم إضافة للبنتين السابقتين وهما ما تحدثنا عنهما من قبل عقيدة التوحيد وعدم التعصب لوشائج القربى وصلات الدم، اللبنة التي أضافها هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانت لبنة مهمة وقد تقدمت الإنسانية زمنا (بعد نوح) عليه السلام هذه اللبنة الثالثة هي عدم الركون إلى القوة المادية والتعويل عليها وحدها والاغترار بها حتى لا تدفع صاحبها إلى الاستبداد والتجبر.

وقبل أن نتجاوز الحديث عن هود ﷺ، يجدر بنا أن نشير إلى ما للاستغفار والتوبة من شأن عظيم، والاستغفار إنما هو طلب المغفرة وهو الستر، ومنه المغفر الذي يلبس في الجهاد ليستر به المحاربون أجسامهم، والتوبة هي الرجوع.

ويظن كثير من الناس أن فائدة الاستغفار والتوبة، الغاية منهما قضية أخروية فحسب، وهذا ظن لا بد من تصحيحه، فإن للاستغفار والتوبة هدفا آخر وفائدة أخرى، وهو أنهما يورثان أصحابهما المنعة والقوة والسعة والرخاء، فالاستغفار والتوبة فيهما خير الدنيا والآخرة، ولقد أكدت آي الكتاب العزيز والأحاديث النبوية الشريفة هذه القضية، ولا نكاد نجد نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا ويأمر قومه بالاستغفار والتوبة.

وإذا تأملنا سورة هود نجدها قد أكدت فيها هذه القضية تأكيداً تاماً، فنقرأ في أول السورة الكريمة ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [هود: ١-٤].

وقد مر معنا قول هود ﷺ ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وفي السورة نفسها نقرأ قول صالح ﷺ ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١] ولقد مر معنا من قبل قول نوح ﷺ ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

إن الاستغفار والتوبة هما خير علاج للنفوس التي اشرأبت، وكادت تعصف بها الأهواء، ويستحوذ عليها الشيطان، ويعبث بها عدوها. اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، ولقد كان سيدنا محمد ﷺ يكثر من الاستغفار والتوبة كما جاء في السنة المطهرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

قصة صالح عليه السلام

ما ذكر فيها من آيات:

١- سورة الشمس.

٢- سورة القمر.

٣- سورة الأعراف.

٤- سورة الشعراء.

٥- سورة النمل.

٦- سورة هود.

٧- سورة الحجر.

٨- سورة العنكبوت.

اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصص نوح وهود وصالح عليهم السلام.

أولاً: اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة نوح.

ثانياً: اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة هود.

ثالثاً: اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة صالح.

تعقيب على قصة صالح عليه السلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة صالح عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه:

ما ذكر فيها من آيات:

أشارت الآيات مبكرة إلى ثمود؛ قوم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك لما ذكرناه في قصة هود من قبل، لذلك نجد أكثر السور التي حدثتنا عن عاد تحدثنا عن ثمود كذلك، وإنما قلنا: أكثر السور؛ لأن هناك سوراً ذكر فيها أحد الفريقين فحسب. ومن هنا نجد أن أول سورة ذكرت فيها ثمود هي سورة الفجر التي ذكرت فيها عاد ـ كما قلنا من قبل ـ وهذه الإشارة جاءت متسقة مع موضوع السورة الذي تحدثنا عنه هناك، وهو ذلك الفجر الذي وعد المسلمون به لإنهاء الليل الدامس.

ومن هنا كانت الإشارة إلى ثمود كالإشارة إلى عاد تتحدث عن جوانب القوة ومواطن الشدة وشدة البأس ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٦-٩] وهذه لا شك صفة من صفات القوة وهي أن يقطعوا الصخر في واديهم، ويتحكموا فيه؛ ليجعلوه كما يريدون؛ وليتخذوا منه بيوتاً فارهين آمنين، فهي ترف من جهة وحصن من جهة أخرى.

ثم وجدنا إشارات في بعض الآيات كما جاء في سورة **النجم** و **(ص)** و**الفرقان**، وقد تحدثنا عن هذه الإشارات من قبل عند حديثنا عن عاد فآية النجم: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥١] وآية (ص): ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢-١٤] وآية الفرقان: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨]. ولقد مرَّ معنا ما جاء في سورة السجدة(١) والذاريات والحاقة من إشارات كذلك إلى عاد، وقد أشارت جميعها كذلك إلى ثمود.

---

(١) السجدة: أي سورة فصلت.

أما سورة **فصلت** فبعد أن حدثتنا عن عاد واستكبارهم في الأرض وتغطرسهم وتساؤلهم من أشدُّ منّا قوة؟! وما حل بهم بعد ذلك حدثتنا عن ثمود: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا[1] كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

وأما سورة **الذاريات** ـ وقد عرفنا ما جاء في آياتها الزهر عن عاد من قبل ـ، فقد حدثتنا عن ثمود بهذه الآيات: ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٥].

وأما سورة **الحاقة** فلقد جاء فيها: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٤-٥].

وهذه الإشارات على تعددها نجد كل واحدة انفردت فيها بما لم يجيء في غيرها. فآية فصلت ـ كما رأينا ـ بينت لنا أن الله منَّ على ثمود بالهداية ولكنهم أبوا واستحبوا العمى عليها فأخذتهم صاعقة العذاب الهون.

وأما آية الذاريات، فقد بينت لنا أن الله تبارك وتعالى متعهم وأمهلهم إلى حين ولكنهم عتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون إلى ما يحل بهم، فلم يستطيعوا أي حركة وهكذا حلّت بهم الهزيمة.

والناظر في هذه الإشارات يجد أن كل واحدة فيها عبّرت عن هذا العذاب تعبيراً جديداً؛ فهي صاعقة العذاب الهون في سورة فصلت، أو الصاعقة وحدها في سورة الذاريات، والطاغية في سورة الحاقة؛ والطاغية مبالغة في العذاب، وبعضهم يفسر الطاغية بالرجل الذي عقر الناقة، فإن قبل هذا التفسير كانت إشارة مغايرة لكل ما مر.

(١) صاعقة العذاب: داهية العذاب وقارعة العذاب (والهون): الهوان، وصف به العذاب مبالغة.

والسورة الوحيدة التي انفردت فيها الإشارة إلى ثمود دون عاد هي سورة الإسراء؛ ذلك لأن سورة الإسراء جاءت تتحدث حسب موضوعها وهو أن الآيات التي يؤيد الله بها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا تجدي الذين جاءت من أجلهم؛ لأنهم يكذبون بها فيحل عليهم العذاب، وها هم أهل مكة ما زادتهم آية الإسراء إلا إعراضاً، ولا عجب فمن قبلهم ثمود كذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً[1] فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] كانت الإشارة إلى ثمود هنا إذن متسقة مع سياق السورة، لذا نجد أن ثمود انفردت عن عاد، والله أعلم.

أما السور التي حدثتنا بشيء من التفصيل عن قصة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهي: ـ الشمس والقمر والأعراف والشعراء والنمل وهود والحجر وكثير من السور التي قرعت قلوبنا آياتها حينما كان الحديث عن هود ـ عليه السلام ـ، ولكننا نجد هنا أن أكثر من سورة انفردت بالحديث عن ثمود، ولعل ذلك يتصل بموضوع السورة نفسها من جهة، وبما خصت به ثمود من جهة أخرى، ولقد كان الحديث مبكراً ـ كما قلت من قبل ـ عن ثمود، أو عن عاد وثمود، فوجدنا كلاً من الفجر والقمر تشير إليهما وقد تقدم لنا بعض إشارات الفجر.

١ - **أما الشمس**: فلقد خُصَّت بالحديث عن ثمود دون عاد، ولعل ذلك يتناسب تماماً مع موضوع السورة الكريمة؛ فهي تتحدث عن وضوح الحق كالشمس وضحاها أي حينما تكون شباباً في رابعة النهار، والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها وفي أثناء ذلك كله يأتي الليل ثم يأتي الحديث عن النفس وتسويتها خلقاً وإبداعاً وعن فلاح مَنْ يزكيها:

---

(١) مبصرة: بينة واضحة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم[1] بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

هذه أول سورة أشارت إلى ثمود وحدها وبشيء من التفصيل، فقد كذبوا لا لعدم كفاية الآيات ولأنها ليست مقنعة وإنما كذّبت ثمود بسبب طغيانها ولقد بلغ هذا الطغيان مبلغه حينما انبعث أشقاهم واسمه قدار بن سالف ـ كما تقول الروايات ـ من أجل أن يعقر الناقة التي هي آية مبصرة كالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، وحذرهم رسول الله صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن كانت الآيات هنا لم تحدثنا عن اسمه؛ حذرهم بأن تلك ناقة الله لا ينبغي لهم أن يعرضوا لها بسوء ولا أن يمنعوا سقياها، ولكنهم كذّبوه واتبعوا قدارا، ولم ينكروا عليه، وسكتوا عن فعلته الشنيعة، وربما اشترك بعضهم معه في عقر هذه الناقة، فكانت النتيجة هذه الدمدمة من ربهم الذي شملهم برعايته ولكن أبوا إلا أن يحاربوه، وكانت الدمدمة بسبب ذنبهم الشنيع فسواها ولا يخاف عقباها.

٢- **ثم جاءت سورة القمر** وبعد أن حدثتنا عن عاد حدثتنا عن ثمود بهذه الآيات:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

ونحن نجد تفصيلاً في هذه الآيات عما سبق، لكن الذي نلحظه هنا أن صالحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يذكر اسمه في هذه السورة التي مرت، بل لا نجد له أي حديث

---

(١) فدمدم عليهم: فأطلق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة: إذا ألبسها الشحم (بذنبهم) بسبب ذنبهم وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر (فسواها) الضمير للدمدمة فسواها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم، (الكشاف جـ٤، ص٧٦١).

هنا، والمتأمل في الآيات الكريمة يجد أن الحديث كله عن الله تبارك وتعالى، وهو متسق تماماً مع الحديث عن قوم هود إذ لم نجد له في السورة أي كلمة، وهذا بالطبع متناسب مع موضوع السورة التي جاءت تبين أن المعرضين يكذبون بآيات الله الواضحات أياً كان الرسل الذين جاءوا بها ولهذا نجد الحديث فيها كلها عن الله تبارك وتعالى دون أن يأتي على لسان الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ شيء من ذلك.

بينت لنا السورة الكريمة أن ثمود كذَّبوا بالنذر وأنهم يربأون بأنفسهم من أن يهديهم بشر منهم، إنهم إذن في ضلال وهلاك، ولماذا خص من بينهم بالرسالة، بل هو كذاب أشر[1]، وهنا يتولى الله الدفاع بنفسه ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦] ثم يبين أنه سيرسل الناقة فتنة لهم ليختبرهم فارتقبهم يا صالح واصطبر ولا تعجل ونبئهم أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة فلا ينبغي أن يطغى بعض على بعض ـ كل شرب محتضر -أي محضور لهم أو للناقة، وقيل يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها ـ وتحدثنا الآيات أنهم نادوا صاحبهم فكان منه ما كان حينما تعاطى الفعلة الشنيعة وعقر الناقة، فلينظروا فما أهون العذاب وما أشد النذر؛ ويخبر الله بأنه أرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كلا هشيم المحتظر[2].

كل ما في السورة هنا جديد والناظر المتأمل يجد ذلك بيناً لا يحتاج إلى تفصيل.

٣- ثم جاءت سورة الأعراف، وهي أول سورة يذكر فيها اسم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونجد ونحن ننظر في الآيات عناصر جديدة على غاية من الأهمية انفردت بها السورة الكريمة:

فأولاً: ذكر اسم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) أشر: بطر متكبر.

(٢) المحتظر: الذي يعمل الحظيرة للدواب وبعد أمد تصير الحظيرة هشيماً متحطماً تطؤه الدواب بحوافرها.

وثانياً: الدعوة إلى التوحيد بصراحة ووضوح.

وثالثاً: تذكيره لهم بما جاءهم من ربهم من البينات فهذه الناقة جيء بها معجزة لهم[1]، وهي ناقة الله فليمكنوها من أن تأكل من أرض الله ولا ينبغي أن يمسوها بسوء حتى لا يمسهم العذاب كذلك.

ورابعاً: يذكرهم بما من الله به عليهم، وقد جعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوأهم في هذه الأرض يتخذون من سهولها قصوراً، وينحتون الجبال بيوتاً، فما أجدرهم أن يذكروا آلاء الله فيشكروه! وما أحراهم أن يبتعدوا عن كل ما لا يليق؛ فلا يعثوا في الأرض مفسدين!.

كما تحدثنا السورة الكريمة عن أن قومه كانوا فريقين اثنين: المستكبرين، وهم الذين تأخذهم العزة بالإثم، وهم الذين تتوجه لهم العيون والنفوس، ثم المستضعفين، وهم الذين لم يعطوا من الوجاهة والزعامة وأسباب الظهور والإنتفاش ما أعطيه غيرهم، وهؤلاء نجد بعضهم يأبى إلا أن يسير في ركاب المستكبرين، وأن يعطوا الذلة من أنفسهم، ولكن بعضهم الآخر رأى أن يتخلص من هذا الذل والاستضعاف، وذلك حينما لا يفرطون في جنب الله، ويأوون إليه، ويستجيبون له.

تحدثنا السورة الكريمة عن هذه المحاورة بين الفريق الأول وهم المستكبرون والفئة الثانية من الفريق الثاني وهم المؤمنون من المستضعفين، ثم تحدثنا السورة عن عقرهم للناقة دون أن تخص واحداً ـ كما مر معنا من قبل في السور السابقة ـ ؛ لأنهم أجمعوا

---

(١) يرى الشيخ عبد الوهاب النجار -رحمه الله- أن معجزة صالح قد تكون الناقة، وقد تكون شيئاً آخر لم يذكره القرآن، ومع علمنا بأن كل نبي لا بد له من معجزة، وبأنه لم تذكر جميع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكن الذي نعتقده أن الناقة هي المعجزة، وهذا ما ترشد إليه الآيات الكثيرة، مثل قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الاعراف: ٧٣] وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [هود: ٦٤] ولا ينافي هذا قوله سبحانه ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر: ٢٧].

عليه ورضوا به؛ فليأتهم صالح بالعذاب إن كان مرسلاً، وتأخذهم الرجفة وينتهي كل شيء.

هذا ما أشارت إليه سورة الأعراف، وهي تحدثنا عن صالح عليه الصلاة والسلام، وهو حديث متسق منسجم مع موضوع السورة التي جاءت تحدثنا عن العقيدة في بعد التاريخ وعمقه وجهاته المتعددة، ولنتدبر الآيات الكريمة قال تعالى:ـ

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ[2] فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ[3] رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

وهكذا أضافت سورة الأعراف إلى موضوع القصة جديداً يكمل موضوعها من جهة، ويبرز قضايا عقدية واجتماعية، لابد أن يعيها المسلمون بعامة، ومن يعملون في مجال الدعوة بخاصة من جهة ثانية.

---

(١) عتوا عن أمر ربهم: تولوا عنه، واستكبروا عن امتثاله عاتين، من ذلك هذه المحاورة بين المستكبرين والمستضعفين ومحاربة الحق رغم وضوحه.

(٢) الرجفة: الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها (جاثمين) هامدين، لا يتحركون موتى.

(٣) وقد أفردت الرسالة هنا ولم تجمع كما جاء على لسان نوح وهود عليهما الصلاة والسلام ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ [الأعراف: ٦٢]؛ لأن الشيء الوحيد الذي دعا إليه قومه هو التوحيد.

٤- **ثم جاءت سورة الشعراء**: سورة المشاعر والأحاسيس تأسر اللبَّ وتتملك شغاف القلب، ولكن لذوي الألباب، ولمن كان له قلب، ولنستمع إلى ما يقوله صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه بذلك الأسلوب المؤثر ويزيد في تأثيره قصر هذه الآيات؛ فكل آية حريٌّ بها أن تكون درساً ترهف حساً أو تصدِّع نفساً:ـ

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ[(١)] فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ[(٢)] مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩].

ونلمح في هذه الآيات الكريمة هذا الإقبال من صالح على قومه، فهو أخوهم، وهو لهم رسول أمين، كل ما يريده منهم: تقوى الله، وطاعته، فلا يريد أجراً ولا يبغي جزاءً؛ لأن أجره من ربه وربهم ربِّ العالمين، ثم يصل إلى أعماق نفوسهم، وهو يخاطبهم فيذكرهم بنعمة الله عليهم ولعل أهمها وأعظمها نعمة الأمن ثم هذه الطبيعة الخلاَّبة وهذه البيئة الطبيعية الجذَّابة، حيث توفرت لهم أسباب الحياة جميعها من جنات وعيون،

(١) (الطلع) اسم من الطلوع وهو الظهور وأصله ثمر النخل في أول ما يطلع (والهضيم) اليانع النضيج، أو الرطب اللين اللذيذ الذي تداخل بعضه في بعض، والمعنى أتظنون أنكم متروكون بدون حساب أو سؤال من خالقكم وأنتم تتقلبون في نعمه التي منها ما أنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة متنوعة. إن كنتم تظنون ذلك فأقلعوا عن هذا الظن واعتقدوا بأنكم أنتم وما بين أيديكم من نعم إلى زوال.

(فارهين) ماهرين حاذقين في نحتها، والمعنى أنهاكم عن انهماككم في نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة، لكي تبنوا بها بيوتاً وقصوراً بقصد الأشر والبطر لا بقصد الإصلاح والشكر.

(٢) (المسحرين) أي الذين لهم رئة يأكلون ويشربون، وسنوضح هذا المعنى فيما بعد إن شاء الله.

يجد كل واحد فيها بهجته، ويقيم الله بها عليه حجته، ثم هذه الزروع والنخل التي يجدون فيها أقواتهم ويشغلون فيها أوقاتهم، ثم هذه الأمكنة الحصينة التي خصوا بها تجعلهم ذوي بأس وتمنعهم من عدوهم، فما أحراهم إذن أن يتقوا الله على هذه النعم ويطيعوه، ويطيعوا صالحاً حتى يحفظ الله عليهم هذه النعم، ولا ينبغي أن يلتفتوا إلى الذين تأخذهم العزة بالإثم، والذين يغرهم ما هم فيه من نعم هؤلاء المسرفون الطاغون دأبهم الإفساد في الأرض شأنهم في كل زمان، ولكن مع هذا التحبب والتقرب، ومع وضوح الآيات، ومع التذكير بالنعم بأبلغ نظم وأعذب نغم مع هذا كله، رأوا بشريته مانعة من أن يكون نبياً ورسولاً؛ فليأتهم بآية حتى يصدقوه وتأتي الآية إرخاءً للعنان، وهي معجزة حري أن تكون كافية لمن له مسحة من عقل؛ لانها أمر غير مألوف، وحدث غير معروف؛ ناقة وما أكثر النياق عندهم! ولكن لها شرب ولهم شرب يوم معلوم دون أن يؤثر ذلك على حاجتهم للماء؛ فلا ينبغي أن يقربوها بشر ولا يمسوها بسوء، ولكن كان الأمر على العكس من ذلك فأخذهم العذاب.

هذا ما جاء في سورة الشعراء، وهو بحق يحدثنا عن جانب جديد، ومن زاوية جديدة كذلك، ونلحظ أن سورة الشعراء هي أكثر السور التي رأينا فيها حديثاً لصالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهي كذلك بالنسبة للأنبياء جميعاً الذين ذكروا في هذه السورة عليهم صلوات الله وسلامه وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً. وإذا كان الشعراء يطربون الناس بشعرهم، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٥-٢٧٧]؛ فإنَّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ جاءوا بما يجلُّ عن الشعر وإن كان له أعلى ما للشعر من خصائص وتأثير مع تميزه بالصدق والحق، ولئن كان أعذب الشعر أكذبه ـ كما يقولون-؛ فإن في كلام الأنبياء ما هو أكثر عذوبة فيما هو صدق كله.

٥- **وجاءت بعد ذلك سورة النمل** ونلحظ هنا:

أن قصة صالح- عليه الصلاة والسلام ـ أفردت عن قصة هود حيث ذكرت في سورة النمل وحدها، وقد ذكرت عقب قصة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع ملكة سبأ، ويلوح لي أن قرب المكان ووحدة الجنسية ووحدة الموضوع، جاء كل ذلك بقصة صالح بعد ذكر ملكة سبأ، أما قرب المكان فبين سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين قوم صالح. فهما في مكانين متقاربين وهما الحجر وفلسطين وكلاهما من بلاد الشام وأما وحدة الجنسية فبين ملكة سبأ وبين ثمود، وأما وحدة الموضوع؛ فلأن السورة كلها مبنية على حكمة الله وعلمه؛ فكثير مما يبدو غريباً على الناس بعيداً من أن تتصوره عقولهم؛ ويحيطوا به علماً اقتضته حكمة الله تبارك وتعالى، وأحاط به علمه فهو هيِّن عليه سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ، كما رأينا في قصة موسى وقصة داود وسليمان عليهم السلام وخبر النمل والهدهد وعرش ملكة سبأ.

تحدثت السورة إذن عما يخص بني إسرائيل، وما كان بين موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفرعون أولاً، وما كان بين بني إسرائيل وبين بعض العرب كما جرى مع سليمان عليه السلام وملكة سبأ ثانياً ثم تحدثت عما يخص العرب وحدهم ثالثاً وهي قصة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وسنرى فيها من عجائب الحكمة الإلهية ما يجعلنا ندرك السر الذي من أجله أفردت قصة صالح وسبب ذكرها مع القصص التي ذكرت معه في السورة من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة سنلحظ القضايا الجديدة التي عرضت لها القصة في هذه السورة الكريمة:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا

لَصَٰدِقُونَ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٥٣].

فالآيات الكريمة تشير إلى الفريقين المختصمين، وسواء أكان هذان الفريقان صالحاً وقومه ـ كما يرى بعض المفسرين ـ أم قومه فحسب، ـ كما يرى بعضهم الآخر ـ وهو ما نرجحه؛ فإننا نرى أن صالحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينكر عليهم استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، ويحثهم ويحضهم على استغفار الله؛ لينالوا رحمته، ويجيبونه بأنهم يتشاءمون منه، وممن آمن معه، ويردُّ عليهم بأن ما يصيبهم من خير أو شر لم يكن بسببه هو ومن آمن معه، وإنما طائرهم عند الله، ثم يخبرنا القرآن الكريم أنه كان في مدينة صالح؛ وهي الحجر تسعة رجال طبعوا على الفساد، وقد تقاسموا فيما بينهم أن يبيتوه وأهله أي حلفوا أن يغيروا عليه وعلى أهله ليلا فيستأصلوهم ويبيدوهم جميعاً، ثم ليقولن لوليه الذي يطالب بدمه ليس لنا دَخْلٌ في هلاكه ولا هلاك أهله وأنهم بُـرَآء من دمه ودم أهله، ويؤكدون ذلك بأنهم صادقون فيما يقولون، ولكن مكر الله كان أسرع من مكرهم حيث دمرهم وقومهم قبل أن يلحقوا بصالح عليه السلام أذى وهذه بيوتهم خاوية خالية منهم، وكل ذلك إنما هو نتيجة ظلمهم، وفي ذلك آية لقوم يعلمون. أما من آمن بصالح عليه السلام فلقد نجاه الله تبارك وتعالى.

هذه هي قصة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ في سورة النمل لا نجد فيها ذكراً للناقة؛ ولكنها تقص علينا شيئاً جديداً ـ كما قلنا من قبل ـ فتحدثنا عن تشاؤمهم بصالح عليه السلام ومن معه، وعن عزم الرهط منهم ان يهلكوه ليلا ثم يتبرءوا من دمه، ولكنهم جوبهوا بالعقاب قبل أن ينفذوا ما بيتوه.

٦- **ثم جاءت سورة هود** تحدثنا عن القضايا الجديدة التالية: فبعد أمر صالح لهم بتوحيد الله، يبين لهم نعمه سبحانه عليهم بأنه أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها

فليستغفروه ثم يتوبوا إليه فربه قريب مجيب، وهذا فيه وعد ووعيد؛ لأنهم إنْ فعلوا ذلك فذلك من قبيل الوعد، وان أعرضوا فهو من قبيل الوعيد، فهو قريب من صالح عليه السلام مجيب دعوته، ولكنهم ردُّوا على صالح عليه السلام بقولهم: قد كنت فينا مرجواً قبل هذا، كنا نظنك ذا حصافة في العقل وأصالة في الرأي لقد خاب ظننا فيك، كيف تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا إننا لفي شك مريب مما تدعونا إليه، ويجيبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ متلطفاً يا قوم أخبروني إن كنت على بينة من ربي ومنَّ علي برحمة من عنده وأمرني أن أبلغ رسالته، كيف أخالف أمره، من ينصرني من الله إن عصيته؛ إنني إن خالفت ربي وأرضيتكم فما يزيدني ذلك إلا خساراً وبواراً -أي وبالاً-، ولكنكم إن كنتم في شك فهذه آية على صدق رسالتي، ناقة الله، ذلكم ما قاله القوم لنبيهم وما قاله لهم، وما أجدرنا أن نقف عنده لنفيد مما فيه من عبر ولننعم بما فيه من ثمر، إنهم يحترمون صالحاً عليه السلام ما دام بعيداً عن أن يمسَّ واقعهم السيِّء ولا ينال من عقيدتهم، ولقد رأينا هذا الأمر عند قريش وقد كانوا يصفون النبي عليه وآله الصلاة والسلام بكل أوصاف الخير وهكذا أهل الباطل دائماً يزينون لكثير من الناس أوصافهم وأعمالهم حتى يثنوهم عن الحق ويردوهم عن مبادئهم، وربما تأثر اصحاب النفوس الضعيفة بهذا الثناء كأن يقال: هذا هو الفكر المستنير، هذا ما يتفق مع روح العصر، هذا الذي ليس فيه تشنُّج، وشخصية صالح عليه السلام؛ الشخصية الفذة القوية الحكيمة، نلمس هذا مما رد به على قومه وما أكثر الدروس في قصص القرآن، وما أحوجنا إلى الإفادة منها.

ويبين ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه أمر الناقة، وما ينبغي أن يكون موقفهم منها حتى لا يأخذهم العذاب القريب ولكنهم مع ذلك يعقرونها فيقول لهم: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام فذلك وعد صادق غير مكذوب وتنتهي الأيام الثلاثة ويجيء أمر الله تبارك وتعالى فينجي صالحاً عليه السلام والذين آمنوا معه أما الظالمون فتأخذهم الصيحة فيصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها. كل هذا بسبب ظلمهم وكفرهم.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]. وهذه هي الآيات الكريمة:

﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦١-٦٨].

٧- **ثم جاءت سورة الحجر** لتحدثنا عن قصة صالح عليه السلام، ولم تخرج عن السنن الذي ألفناه من قبل، وعن النهج الذي عرفناه، وهي أن آخر سورة تحدثنا عن قصة أي نبي من الأنبياء يأتي الحديث فيها مجملاً كأنّما هو تلخيص لكل ما سبق، ولكنه - كما رأينا من قبل - فيه كثير من الفوائد التي لم نجدها فيما فصل من قبل، وكذلك الآيات التي حدثتنا عن ثمود في سورة الحجر وهذه الآيات هي:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤].

والجديد في هذه الآيات - على الرغم من إيجازها وإجمالها - أنها بينت لنا مكان ثمود لأول مرة، وهو أن مدينتهم كانت الحجر، وأنهم ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين، وهذا يختلف عن الأمن الذي ذكر في سورة الشعراء ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦] ويختلف عن النحت كذلك، اذ ذكر قوله ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا

فَرِهِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٤٩].

٨- **ثم جاءت سورة العنكبوت** تشير إلى عاد وثمود معاً بآية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] والله يذكر الناس هنا بعامة والعرب بخاصة بأنه قد أهلك عادا وثمود، وقد تبين لكم أيها العرب ويا أهل مكة هذا الإهلاك؛ لانكم تمرون بمساكنهم دائماً؛ لأنها الحجر من شمال بلادهم، والأحقاف من جنوبها، ولكن الشيطان زين لهم أعمالهم فصدهم عن سبيل الخير مع أنهم كانوا مستبصرين، منحوا من العقول ما يكفيهم ليميزوا الخير من الشر، وكذلك كانوا مستبصرين يدركون أن العذاب نازل بهم ولكنهم لجوا وأعرضوا.

هذه قصة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ من حيث الموضوعات التي اشتملت عليها كل سورة، ومن حيث اختصاص كل سورة بما يلائمها. وهذه القصص الثلاث ـ أعني قصة نوح وهود وصالح ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هي أكثر القصص ذكراً بعد قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد وعدنا ـ من قبل ـ أن نتكلم عن هذه القصص من جهات ثلاث:

أولاً: من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد والمواقف التي ذكرت موزعة على السور.

ثانياً: من حيث اختصاص كل سورة بما يلائم موضوعها.

ثالثاً: من حيث الألفاظ والتراكيب التي ذكرت في القصة الواحدة في أكثر من سورة.

---

(١) وإذا رأينا السورتين الأخريين اللتين تحدثتا عن نوح وهما سورة العنكبوت وسورة الحاقة قد بينت كل منهما الزمان الذي أهلكت فيه عاد فإن هذه السورة قد بينت لنا مكان ثمود.

وكان حديثنا فيما مضى عن الناحية الأولى والثانية، وبقيت الثالثة، وهي التي تخص الألفاظ والتراكيب، وهو ما سنتحدث عنه إن شاء الله تعالى.

من حيث الألفاظ والتراكيب:

أولاً- ما جاء في قصة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه جاء في سورة المؤمنون وسورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥] وجاء في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] وجاء في سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] أما سورة نوح فالأمر فيها ظاهر؛ لأنها فاتحة السورة وبدايتها فجاءت بالحرف الدال على التوكيد وهناك سور ابتدأت كذلك بهذا الحرف كسورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] وسورة الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] وسورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ولحرف التوكيد محسناته في كل سورة من هذه السور(١).

أما سورة المؤمنون، فلقد جاء فيها قبل الحديث عن نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ثم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧] ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٢٣] فكأن قصة نوح عليه السلام جاءت معطوفة على قصة خلق الإنسان ولما كان العطف يقتضي التغاير والاشتراك وهما متوافران هنا حسن العطف. وهذا ما أشرت إليه من قبل، وبينت أننا لسنا مع الدكتور القصبي فيما ذهب إليه.

---

(١) فهو في سورة نوح جاء تسلية للنبي الكريم ﷺ وبشارة للمؤمنين وإنذارا للكافرين ومن محسنات هذا الأسلوب في السورة الكريمة أنها لم يذكر فيها قصص آخر بل كانت خاصة بقصة نوح عليه الصلاة والسلام.

وأما سورة هود فلأن سياق الآيات التي قبلها يتحدث عن رسالة النبي ﷺ بدليل قوله في أول السورة: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] وقوله بعد ذلك: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ١٢] وقوله بعد ذلك: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: ١٣] ثم قوله سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾ [هود: ١٧] لا عجب إذن أن تأتي قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - معطوفة على ذلك كله ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥].

وأما سورة الأعراف فإنها تختلف عن السورتين السابقتين إذ لم يذكر فيها كلام يمكن أن تعطف عليه قصة نوح، كل الذي ذكر يختص بخلق الله سبحانه وتعالى وإبداعه وقدرته، صحيح أنه ذكر في أول السورة قصة آدم، ولكنها لم تعطف عليها قصة نوح لتغاير الموضوعين تغايراً تاماً ولما بينهما من بعد كذلك؛ لذا جاءت القصة بدون الواو، كأنما هي كلام جديد لم يتقدم عليه ما يمكن أن يشرك معه في الحكم؛ فجاء التعبير القرآني هكذا: ﴿لقد أرسلنا ﴾.

٢- ومن تغاير الألفاظ في قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - ما جاء في سورة المؤمنون وسورة هود ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [هود: ٢٧] وما جاء في سورة الأعراف ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ [الاعراف: ٦٠] وسبب ذلك أن سورتي المؤمنون وهود جاء قول الكافرين فيهما مرتباً على دعوته لهم بالتوحيد، ففي سورة هود ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ [هود: ٢٧] أما سورة المؤمنون، فلقد جاءت هكذا ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] أما سورة الأعراف فقد جاءت كما يلي ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٠] فالذي جاء في سورة الأعراف جاء على طريق

الاستئناف وهذا كثير في كتاب الله تعالى كأنه قيل: فماذا قالوا له حينما دعاهم إلى توحيد الله؟؟ فقيل: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. اما ما جاء في سورة هود والمؤمنون، فقد جاء على سبيل التعقيب، أي بعد أن دعاهم إلى توحيد الله لم يتريثوا، فكان جوابهم كذا وكذا. وقد يتساءل المتسائلون هنا لم جاء قولهم في سورة الأعراف على سبيل الاستئناف، وفي غيرها على سبيل التعقيب؟! ويجاب عن ذلك: بأن ما قالوه في سورة هود والمؤمنون ليس أمرا يستنكره النبي أما ما قالوه في سورة الأعراف فهو أمر مستنكر فالذي قالوه في سورة هود: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وكذلك الذي في سورة المؤمنون ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ولهذا ناسب أن يعقب به على كلام نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالفاء العاطفة لأنه في الحقيقة كذلك أي بشر مثلهم أما ما قالوه في سورة الأعراف فكان ناشئا عن حمق وسماجة وهو قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يلق أن يعقب به على كلامه عليه السلام، وإنما ناسب أن يكون كلاما مستأنفاً، ونستأنس لهذا بما جاء مما كان بين موسى عليه السلام وفرعون ـ عليه اللعنة ـ فقال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٦].

٣- وفي قصة نوح كذلك ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كما سنرى في سورة الأعراف وسورة المؤمنون أما في سورة نوح ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ففي السورتين السابقتين عطف القول على الإرسال بالفاء التعقيبية أما في سورة نوح فقد جاء بدون الفاء لأنه جاء في الآية الكريمة ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] فكان الاستئناف أولى؛ كأنه قيل: فماذا فعل نوح؟؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثانياً: ما جاء في قصة هود:

جاء في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الاعراف: ٦٦] وجاء في سورة المؤمنون: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ

مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

والجواب عن هذا هو الجواب عما قبله، وهو أن سورة الأعراف جاءت على سبيل الاستئناف؛ لأن الكلام الذي قالوه ناتج عن سفه وغيظ وانتفاء ذوق وعدم لياقة، بينما الذي قالوه في سورة المؤمنون لا ينكره نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ثالثاً: ما جاء في قصة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

١- فمن ذلك قوله ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ بالإفراد دون الجمع؛ وذلك لأن دعوته كانت إلى التوحيد فحسب، وكان للأنبياء السابقين أمور أخرى يدعون إليها.

٢- ومن ذلك أنه عبر عن عذاب قومه تارة بالصيحة وتارة بالرجفة ولا تنافي بينهما فقد تكون الرجفة أولا ثم الصيحة بعد ذلك.

وأخيراً في سورة الأعراف عند الحديث عن نوح ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ وعند الحديث عن هود وصالح ﴿قَالَ﴾ وذلك لأن نوحا كان أول الأنبياء فجاء القول معطوفاً على رسالته بالفاء أما فيما بعد جاء القول مستأنفاً لأنهم قد عرفوا خبر نوح مع قومه وهناك عبارات آثرنا أن لا نعرض لها؛ لأنها أقوال في أوقات متعددة كقول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] ومرة ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ وكقول هود ـ عليه السلام ـ لقومه تارة ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ وأخرى ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وثالثة ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وكقول صالح عليه السلام: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ وأخرى ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وثالثة ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ كل هذا يمكن أن يتعدد بتعدد المواقف؛ لذا رأينا أن لا نعرض له، وقد يتكلف له المتكلفون مع أنّا لا نرى ضرورة لذلك ويبقى للكتاب الخالد أسراره، وتبقى عجائبه التي لا تنقضي، وتبقى جدة ألفاظه ومعانيه ييسر الله فهمها لمن شاء من عباده ويفتح بها لمن أراد من خلقه، نسأله سبحانه أن لا يحرمنا حلاوة هذا الفتح، وأن لا يحول بيننا وبين هذا التيسير وهو بالإجابة جدير.

تعقيب على قصة صالح عليه الصلاة والسلام

ويح ثمود! لقد قربت من الهداية والجنة حتى لم يبق بينهما إلا باع أو ذراع ولكن سبق عليها القول؛ لأنها استحبت العمى على الهدى.

من خلال الآيات الكريمة التي شرفنا بها،ـ ونحن نتدبر قصة صالح تدبراً موضوعياً، أقول من خلال تلك الآيات ـ نستنتج بعض الجوانب التي هدتنا إليها الآيات الكريمة: فصالح ـ عليه السلام ـ كان عند ثمود ذا العقل الراجح، والخلق الكريم ينال احترامهم، وينعم بإجلالهم وتقديرهم له، وكان من الممكن أن يستمر ذلك التقدير ويزداد ذلك الإجلال؛ ولكنها النفوس التي خلقها الله تبارك وتعالى فأودع فيها الاستعداد لأحد الأمرين: التزكية أو التدسية وصالح ـ عليه السلام ـ أكرمه الله بالرسالة؛ ليرشد أولئك المنحرفين عن الفطرة، والذين وجدوا من جمال البيئة الطبيعية ومن سعة العيش ورغد الحياة ونعمة الأمن وزهر الروض وخرير الماء وجدوا في ذلك كله وغيره من علو الأماكن وسعة المساكن مما به يتحصنون ما يحملهم على الترف فبطروا في معيشتهم، وكرهوا، بل مقتوا كل من ينغص عليهم لذاتهم لذا فليس عجباً أن تتغير نظرتهم لصالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن يقفوا منه موقفاً آخر، وهم يعلنون هذا بصراحة ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴾ [هود: ٦٢] وهكذا بين عشية وضحاها، وبين لحظة وأختها تتغير المواقف، وما أكثر أولئك الذين كان بوسعهم أن يحافظوا على مودة الآخرين لولا حق يصدعون به؛ فيوغر عليهم الصدور، ويملأ القلوب حقداً والنفوس اشمئزازاً ولكن أصحاب الدعوات لا يكترثون بذلك:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غضابُ

وليت الذي بيني وبينكَ عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكل الذي فوق التراب ترابُ

أبى صالح إلا أن يصدع بالحق، وهو إذ يذكر قومه بهذه النعم التي من شأنها أن تكون باعثا للشكر ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٠] يذكرهم كيف جعلهم الله خلفاء في الأرض فسخر لهم سهولها وجبلها يتخذون من السهول قصوراً، وينحتون الجبال بيوتاً... ولكن كل ذلك لم يجد شيئاً ما دام البطر قد تملك النفوس، ومادام اللهو قد بلغ منها مبلغاً. والابتلاء بالسراء قد يكون أشد عاقبة وأنكى من الضراء، وهذا ما وجدناه من ثمود الذين استحبوا العمى على الهدى، والذين بطرت معيشتهم. والأمر الذي يدعو إلى العجب والاستغراب أن صالحاً الذي كان مرجواً في قومه وإذ به يصبح بين عشية وضحاها الكذاب الأشر... ما أضيع النعم وما أفسد الجده!!

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده

ولكننا نجد صالحاً ـ عليه السلام ـ يتلطف مع قومه، فما ذنبه وقد كان مهيب الجانب فيهم! ماذنبه أن اختاره الله للرسالة ومن ينصره من الله إن عصاه! إنهم لا يزيدونه إلا خسراناً؛ إن استجاب لهم. ويطلب القوم آية، وتأتيهم الناقة آية مبصرة، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. وهذا عنصر جديد في الحديث عن القوم، وهو تكذيب الآيات الواضحات، وهناك عنصر جديد آخر في قصة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو أن قومه ينحون باللائمة عليه، وعلى من آمن معه من بعض المستضعفين؛ فهم المستغرقون في اللهو واللذائذ؛ فما يمكن أن يلحق بهم من سوء وشر إنما هو بسبب صالح ومن معه، وقد رأينا وسمعنا من يعلل الهزائم التي أصابت أمتنا بوجود المتدينين؛ وتلك فرية ساقطة ـ بالطبع ـ ولكن أصحاب الباطل حينما لا يجدون منطقا يهرعون لاختراع أي باطل ـ حتى لو كان هشا ـ لا يقوى على الوقوف وحده، وهناك عنصر ثالث في قصة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ يظهر في طغمة من

أهل الشر كانوا الحائل بين قومهم وبين الهداية، هذه الطغمة تأخذ على عاتقها أن تخلص الناس من صالح وأهله؛ وذلك بالتصفية الجسدية ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] وعنصر رابع: وهو أن هذه الطغمة لا يجدون من يعكر عليهم؛ فيتقدم بعضهم لعقر الناقة؛ الآية المبصرة.

أما صالح المرجو فيهم من قبل، والذي وصفوه بشر الصفات فيما بعد ـ وإذا لم يرفع من قدره ما قالوه أولا فلن يغض منه ما قالوه فيما بعد ـ. . . أقول أما صالح ـ عليه السلام ـ فشخصيته من خلال الآيات هي هي؛ المترفق بهم الحاني عليهم حتى في آخر لحظة من لحظات الغي، وهم يقدمون على عقر الناقة نجده لا يزيد على أن يقول لهم ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣] وهو خلق رفيع نقبسه من هذا الرسول الكريم، ولكنهم يمعنون في غيِّهم ويقدمون على جريمتهم؛ فلا يزيد على أن يقول لهم ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. . . وهكذا نجد أن صالحا ـ عليه السلام ـ قد أحكم لبنة صالحة في هذا البناء المحكم، إضافة إلى اللبنات السابقة؛ هذه اللبنة كانت تحذير الإنسانية من مغبة البطر، ونتيجة الترف، وعدم شكران النعمة، وهذه ـ بالطبع ـ تختلف عن الشعور بالقوة التي كانت تتصف بها عاد من قبل.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

مقدمات حول سيدنا إبراهيم ﷺ

أولاً: ما ذكر فيها من آيات مكية.

١- سورة مريم.

٢- سورة الشعراء.

٣- سورة هود.

٤- سورة الحجر.

٥- سورة الأنعام.

٦- سورة الصافات.

٧- سورة الزخرف.

٨- سورة الذاريات.

٩- سورة النحل.

١٠- سورة ابراهيم.

١١- سورة الأنبياء.

١٢- سورة العنكبوت.

ثانياً: حديث السور المدنية عن إبراهيم عليه السلام.

١- بناء إبراهيم للبيت العتيق وما يتصل بذلك من دعواته لهذه الأمة.

أ- سورة الحج.

ب- سورة البقرة.

جـ- سورة آل عمران.

٢- تبرئته ـ عليه السلام ـ من أن يكون يهودياً، في سورة البقرة.

٣- براءته ـ عليه السلام ـ من المشركين.

أ- سورة الممتحنة.

ب- سورة براءة.

ثالثاً: تعقيب على قصة إبراهيم عليه السلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ليس بدعا أن يكون لأبي الأنبياء وشيخ الحنفاء، أبينا ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يكون له في هذا القرآن الحظ الأوفى، والنصيب الأوفر، ونبي هذه الأمة ﷺ دعوة من دعواته، كما جاء في السنة الصحيحة، بل هذه الأمة مدينة له بهذه التسمية الطيبة الكريمة. ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨][١] ويقول النبي ﷺ إني عبد الله وخاتم النبين، وان آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم»[٢].

وقبل أن نواصل الحديث مع القرآن الكريم، نود أن نقف مع القارىء الكريم بعض الوقفات أرى لزاماً علينا أن نتبين فيها وجه الحق.

الوقفة الأولى: اسم أبي إبراهيم ﷺ:

على الرغم من أن القرآن الكريم لم يعن كثيرا بذكر الأسماء؛ أسماء الآباء والأمهات، لكننا وجدنا أنه قد يذكر بعض هذه الأسماء، كما ذكر اسم مريم أم عيسى ـ ﷺ ـ وذكر اسم آزر ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] ومع ذلك فلقد وجدنا كثيرين يرون أن آزر ليس اسما لأبي إبراهيم، وذكروا أن اسمه. تارح، جريا على ما ذكرته التوراة وبعض المؤرخين، وحاولوا تأويل الآية الكريمة تأويلات كثيرة لا تخلو من تكلف كما سنرى.

---

(١) الناظر في السنة المطهرة يجد إجلال النبي عليه الصلاة والسلام لأبينا إبراهيم في غاية من الوضوح والظهور كقوله. نحن أولى بالشك من إبراهيم.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٢٧، ١٢٨، ٥/ ٢٦٢).

ولم يكن هذا ما ذهب إليه خصوم الإسلام وأعداؤه، بل هو ما ذهب إليه كذلك فضلاء من علماء الأمة وأنقل ما كتبه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «القصص القراني ص١٠٦-١١٠» قال:

«هو ابراهيم خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاذ بن سام بن نوح عليه السلام.

هذا هو نسبه الموجود في التوراة والتواريخ.

وقد جاء في الكتاب الكريم قوله تعالى: ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] اختلف المفسرون في اسم أبي ابراهيم - قال بعضهم إن لفظ آزر في الآية بَدَلٌ من لفظ «أب» في أبيه، ويكون مقول القول ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] إلخ وقال آخرون اسمه «تارح» وان لفظ آزر كلمة ذم في لغته ومعناه أعْرج قاله السهيلي في التكملة.

وقال آخرون إن معناه: الخاطىء والخرف. وفي التكملة «يا مخطىء يا خرف» وقيل معناه يا شيخ أو هي كلمة زجر عن الباطل (راجع ص١٢ ج٣ تاج العروس).

أقول: بعيد في نظري أن يكون ابراهيم عليه السلام قد واجه أباه بكلمات فيها تحقير أو عيب أو زجر كأعْرج وخرف؛ لأن والد ابراهيم عليه السلام لما هدده بقوله ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] لم يكن له جواب على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلا أن قال لأبيه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. وقال آخرون: إن تارح اسمه العلم، وإن آزر وصف له كما قال البيضاوي.

أقول: إذا صح أن والد إبراهيم كان له اسم علمي واسم وصفي، يكون معناه القوي أو الناصر أو المعين، لأن لفظ آزر من الأزرِ أي القوة والنصر والعون ومنه الوزير

أي المعين. وهي كذلك في اللغات السامية التي منها لغة إبراهيم ومن ذلك عازر وعزير وعازر في العبرية. فإن هذه المادة تفيد التقوية والنصر والإعانة في تلك اللغة كما هي اللغة العربية. قال تعالى ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومعلوم أن العين والهمزة يتعاوران على موضع واحد.

وفي أسماء ملوك الأشوريين «أسرحدون» ولفظا «اسر» و«آزر» في غاية القرب.

وفيهم أيضاً «توخلات ابال ازار» وعلى ذلك فلا يبعد عن علماء الفيلولوجيا وعلماء اللغات السامية على الخصوص أن يثبتوا النسب بين هذه الألفاظ في اللغات السامية.

وقد وجد في دائرة المعارف الإسلامية ما نصه: «آزر» اسم أبي إبراهيم في القرآن [الأنعام: ٧٤] ويظهر أن في هذا بعض الخلط لأن اسم آزر لم يرد مطلقاً على أنه أبو ابراهيم في غير هذا الموضع كما أن تارح أو تارخ قد ورد في روايات بعض المؤرخين والمفسرين من المسلمين على أنه أبو إبراهيم أيضاً. ولذلك لجؤوا إلى التحايل للتوفيق بين هاتين الروايتين ولكن هذا التحايل لا قيمه له.

ويقول مراتشيProdrani Maracci (جـ٤-ص٩٠) إن صيغة آزر نشأت عن قراءة خاطئة لكلمةAgac التي وردت في تاريخ الكنيسه ليوز بيوس، إلا أنه لم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه الفقرة التي ورد فيها هذا الاسم. أضف إلى ذلك أن هذا المؤرخ قد ذكر في مواضع متعددة ومهما يكن في شيء فإن ما ذهب إليه مراتشي بعيد الاحتمال.

ولمعرفة حياة آزر وابنه إبراهيم نحيل القارىء إلى مقال: «إبراهيم» (جـ١ ص٢٥) الذي ذكرنا فيه المصادر الخاصة بهذا الموضع أيضا اهـ فنسنك.

وقد علق على هذه النبذة صديقنا الأستاذ الفاضل الشيخ أمين الخولي مساعد أستاذ بالجامعة المصرية في دائرة المعارف الإسلامية بما يأتي.

١- إطلاق القول بأن آزر اسم أبي ابراهيم في هذه الآية غير صحيح، لأن الآية قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معاني كلمه «آزر» باختلاف إعرابها.

وفي بعض هذه القراءات يتعين ألا يكون آزر اسما لأبي ابراهيم وفي بعضها يحتمل ذلك وإليك طرفا من بيان هذه القراءات والأعاريب.

كتبت الكلمة في المصحف بعد (هكذا): آزر أتتخذ أصناما... وقرئت «أأزرا» بالنصب مع التنوين و«أزر» بالنصب بلا تنوين و«أزر» بالضم. ففي القراءة الأولى تفسر الكلمة على أنها عربية بمعنى القوة والهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري، والمعنى ألأجل القوة تتخذ أصناما؟ كقوله تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩] وإن فسرت «أزر» في هذه القراءة باسم علم بل صفة، فليست كذلك اسم أبي إبراهيم. وقد تعرب بَدَلٌ أو عطف بيان فيحتمل أن تكون اسماً له. وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل كذلك أنها اسمه فهذه أربعة أوجه نقلت في تخريج قراءات الآيات ـ على نظر في بعضها ـ يتعين في اثنين منها ألا يكون آزر اسم أبي ابراهيم ويحتمل في اثنين فليس من الصنيع العلمي أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن «آزر» اسم أبي إبراهيم.

٢- التسليم بأن أكثر الأوجه التي ذكرها من تصدوا للتوفيق بين آية الأنعام ورواية المؤرخين في اسم أبي إبراهيم لا تقع عندي موقعاً. فإني ألاحظ على كاتب المادة ملاحظتين:

أ- إطلاق القول بأنهم لجؤوا إلى التحايل للتوفيق. مع أن منهم من جهر برد رواية النسابين وضعف إجماعهم؛ لأنه إجماع ينتهي إلى خبر واحد او اثنين منهم. فلم يتكلف التوفيق لا في تحايل ولا في غير تحايل. وقد نقل هذا الرأي في كثير من كتب التفسير المتداولة، فالإطلاق غير صحيح وكان الحق أن يقال: منهم من وفق أو تصدى للتوفيق ومنهم من رد الرواية التاريخية.

ب- استعمال لفظ الحيلة والتحايل في وصف عمل المفسرين فإن هذه الكلمات النازلة والتي يتصدىّ فيها للحكم الخاطىء على النوايا الخفية ليست من عبارات العلماء الذين ينقدون بل هي من عبارات غيرهم.

٣- من الإنصاف الصادق للعمل أن يعرف القارىء أن مراتشي قسيس إيطالي عاش في القرن «السابع عشر» وأن ترجمته للقرآن لم يسمح بنشرها إلا بعد إلحاق معارضات القرآن بها وقد قدم لها بحث في القرآن والإسلام انتهى فيه إلى الحكم للمسيحية على الإسلام ثم نشرت هذه الترجمة بعنوان: «عقيدة الرسول الكاذب محمد بن عبدالله...» جازاهم الله بما يستحقون عن الحق والعلم.

وبعد: فإني ألاحظ ـ دون مجاوزة حدود النقد العلمي النزيه، أن المادة لم يكتب فيها شيء: النقول الاسلامية غير محررة، وفرض مراتشي مردود فالواجب الحق في درس الاية أن نستوفي القول في كلمة «آزر» أو «أزر» هذه واستعمالها العربي وأصلها اللغوي والتاريخي على نحو عملي عميق نرجو أن تتضافر عليه قوى نزيهة تستجيب على الأقل لقول قدمائنا إن علم التفسير لم ينضج ونحن أهل الواجب الأول في ذلك اهـ كلام الأستاذ أمين الخولي.

أقول: ذهب فريق من المفسرين إلى أن «آزر» اسم صنم كان يعبده تارح والد إبراهيم وكان سادناً له.

قال السيد المرتضى الزبيدي.

وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ [الأنعام: ٧٤] قال لم يكن بأبيه ولكن آزر اسم صنم فموضعه نصب على إضمار الفعل والتلاوة كأنه قال: وإذ قال إبراهيم أتتخذ آزر إلهاً أي أتتخذ أصناماً آلهة.

وقال الصغاني: التقدير أتتخذ آزر إلهاً، ولم ينتصب «أتتخذ» الذي بعده لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله ولأنه قد استوفى مفعوليه: اهـ.

وقد نقل شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي باشا عبارة تاج العروس السابقة في أول كتابه «تكملة كتاب الأصنام لابن الكلبي».

وهذا القول الذي قاله مجاهد أولى الأقوال عندي بالقبول. وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر باسمه العلمي في القرآن الكريم.

ومما يستأنس له بأن «آزر» اسم إله أننا نجد في الآلهة القديمة عند المصريين الإله «أزوريس» ومعناه الإله القوي المعين. وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضاً في أسماء الآلهة»[1] انتهى كلام الشيخ النجار.

ولنا على ما ذهب إليه الشيخ ونقله أكثر من ملحوظة:

أولى هذه الملحوظات: أنه حين ذكر نسب إبراهيم، وهو نسب لم يثبت قال إنه إبراهيم بن تارح، وما كان لمثل الشيخ أن يذكر مثل هذا.

ثانياً: الذي يقرأ كلام الشيخ يجد أنه يرجح أن آزر ليس أبا ابراهيم، وينقل عن الشيخ أمين الخولي هذه المقولة مستدلا بما جاء من قراءات في هذه الكلمة، وكان على الشيخ -رحمه الله-، أن لا يأخذ كلام الشيخ الخولي على علاته، كان عليه أن يرجع إلى كتب القراءات، وليته رجع لأدرك أنه ليس في الآية قراءات متواترة أخرى يعوّل عليها إلا هٰذه القراءة التي اجمع عليها المسلمون ولا أدري لماذا يحرص الشيخ أمين الخولي على القول بأن آزر ليس أبا إبراهيم، ولماذا يتأثر بكلام القسيس الإيطالي (مراتشي) وبأقوال المؤرخين التي لم تثبت.

(١) القصص القرآني/النجار (١٠٦-١١٠).

ثالثاً: لقد أحسن الشيخ عبدالوهاب النجار -رحمه الله- عندما رد الأقوال التي تفسر (آزر) أنها كلمة يقصد منها الذم، لأن هذا لا يتفق مع أبينا إبراهيم أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء.

رابعاً: إن من أكثر ما يعجب منه المرء أن يرجح الشيخ ما نقله عن المرتضى الزبيدي -رحمه الله- وما نقل عن مجاهد من أن آزر اسم صنم، والمعنى: وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها، أتتخذ أصناما آلهة ؟!. هذا ترهل في الأسلوب لا يرضاه ذكي من الناس، فكيف نجعله قولا معتمداً في كتاب الله.

وإننا إذ ننكر على الشيخ أمين الخولي ـ رحمه الله ـ أن يحتج لما ذهب إليه من أن آزر ليس أبا إبراهيم لوجود قراءات كثيرة في الآية، مع أن هذه القراءات لا وجود لها لا عند القراء السبعة فحسب، بل عند القراء العشرة كذلك. أقول إننا إذ ننكر ما ذهب إليه أمين الخولي، لنعجب كثيرا كل العجب مما رجحه الشيخ عبد الوهاب النجار قولا لمجاهد رضي الله عنه. وإنني لأرتاب كل الريبة في إثبات هذا القول عن مجاهد، فضلاً على ما قلته من قبل، إنه لا يتفق مع نظم القرآن البديع، ولا أدري لماذا نذهب في فهم الآية الكريمة هذه المذاهب البعيدة، مع أن الآية لا تحتمل هذه الروايات التي قيلت.

ولا نرضى ما يقوله الدكتور محمد السيد الوكيل في كتابه «نظرات في أحسن القصص» وأرى أنه خلاف لا طائل بعده، فسواء كان اسم أبيه آزر أم تارخ فإن ذلك لا يؤثر في مدلول القصة شيئا ولا يؤدي إلى خلاف جوهري في بحث الموضوع على إننا نرى في القرآن الكريم إطلاق اسم الأب على غير الأب كما جاء في الآية الكريمة ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. فقد ذكر إسماعيل على أنه من آباء يعقوب وهو ليس أباه على الحقيقة وإنما هو عمه»[١].

(١) (١/١٤٤).

وليس الأمْر كما ذهب إليه الأخ الدكتور محمد السيد الوكيل -جزاه الله خيراً-، بل إنه خلاف جوهري، فقد رأينا ما ذهب إليه خصوم الإسلام، وقد أرادوا أن يجعلوا من هٰذه القضية مطعنا في كتاب الله. إن حقائق القرآن الكريم هي الثابتة.. ولقد اتفق الكتاب الكريم والسنة الصحيحة على تسمية أبي إبراهيم آزر، وبهٰذا قطعت جهيزة قول كل خطيب، وعند جهينة الخبر اليقين.

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله:

«وأما أبو إبراهيم فقد سماه الله تعالى في الآية الأولى من هذه الآيات (الآيات: ٧٥-٨٠) (آزر). وفي سفر التكوين أن اسمه (تارح) بفتح التاء وحاء مهملة وقالوا إن معناه (متكاسل) ومن الغريب أن نرى أكثر المفسرين والمؤرخين واللغويين منا يقولون إن اسمه تارخ بالخاء المعجمة: أو المهملة وإن آزر لقبه أو اسم أخيه أو أبيه أو صنمه ونقل عن الزجاج والفراء أنه ليس بين النسابين والمؤرخين اختلاف في كون اسمه تارخ أو تارح ولا نعرف لهذه الأقوال أصلاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولا منقولاً من العرب الأولين، وإنما هو منقول فيما يظهر عمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب كوهب بن منبه وكعب الأحبار اللذين أدخلا على المسلمين كثيرا من الإسرائيليات فتلقوها بالقبول على علاتها. وعن مقاتل بن سليمان المجروح بالكذب الذي قال ابن حبان فيه كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم - ففي التفسير المأثور عن مجاهد: قال: آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم - وعن السدي: اسم أبيه تارح واسم الصنم آزر. وعن ابن عباس في إحدى الروايتين عنه قال: آزر الصنم وأبو ابراهيم اسمه يازر، وفي الأخرى أن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر وإنما اسمه تارح. رواهما عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ - عن ابن جريج أن اسمه تيرح. وجزم الضحاك بأن اسمه آزر واعتمده ابن جرير، وروي عن الحسن أيضاً.

وقال البخاري في التاريخ الكبير: إبراهيم ابن آزر وهو في التوارة تارح، والله سمّاه آزر، وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك. اهـ. فقد اعتمد أن آزر هو اسمه عند الله أي في كتابه فإن أمكن الجمع بين القولين فيها وإلا رددنا قول المؤرخين، وسفر التكوين لأنه ليس حجة عندنا حتى نعتد بالتعارض بينه وبين ظواهر القرآن بل القرآن هو المهيمن على ما قبله نصدق ما صدقه ونكذب ما كذبه، ونلزم الوقف فيما سكت عنه حتى يدل عليه دليل صحيح.[١]

ويقول الدكتور أحمد حجازي السقا في كتابه (إعجاز القرآن) رداً على «الفن القصصي في القرآن» وقوله ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ [الأنعام: ٧٤] يشير بآزر إلى اختلاف التوراة السامرية والعبرية فإن آزر هو الأب الحقيقي لا تارح[٢].

وأقول: ليتدبر القارىء هذه الآية، ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أليس في نص القرآن الكريم وتحديده لاسم أبي إبراهيم ما يغنينا عن كل هذه التمحلات؟! أفيجوز أن نترك ما جاء في كتاب الله إلى روايات لم تثبت؟!.

وبعد أن كتبت هذه الكلمات، اطلعت على ما كتبه الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه لكتاب المعرب[٣] من الكلام الأعجمي على حروف المعجم لأبي منصور الجواليقي، وما كتبه في (كلمة الحق، اصدع بما تؤمر)[٤]، فأحببت أن أنقل كلامه هنا لا أنقص منه شيئا يقول:

---

(١) ، المنار (٥٣٦/٧).

(٢) ص١٨.

(٣) ص٢٩ ـ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦١هـ.

(٤) دار الكتب السلفية/ الطبعة الأولى س١٤٠٧ ص٣٠٢.

وعدنا في التعليق على مادة «آزر» ص ٧٦-٧٧ أن نذكر هذا البحث فى آخر الكتاب[١]، ونفي الآن بما وعدنا، تحقيقا لبحث اضطربت فيه أقوال العلماء والمفسرين والمؤرخين، من المتقدمين والمتأخرين:

ونص لسان العرب فى هذه المادة: «وآزر اسم أعجمي، وهو اسم أبي إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام. وأما قوله عز وجل: ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] قال أبو إسحق: يقرأ بالنصب «آزر»، فمن نصب فموضع خفض بدل من «أبيه»، ومن قرأ «آزر» بالضم فهو على النداء. قال: وليس بين النسابين اختلاف أن اسم أبيه كان تارخ. والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر. وقيل آزر عندهم ذم فى لغتهم، كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه الخاطئ.

وروي عن مجاهد فى قوله: ﴿ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ قال: لم يكن بأبيه، ولكن آزر اسم صنم. وإذا كان اسم صنم فموضعه نصب، كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها أتتخذ أصناماً آلهة».

وأبو إسحق الذى قلده الجواليقي وصاحب اللسان، هو أبو إسحق الزجاج، إبراهيم بن السري، المتوفى سنة ٣١١، وقد قلده عامة العلماء فيما زعم من أنه لا خلاف في أن اسم والد إبراهيم «تارح» أو تارخ».

وقد أخطأ الزجاج فى هذا خطأ شنيعاً، فإن العلماء بالنسب لم يجمعوا على ذلك بل حكى ابن جرير فى التفسير (٧: ١٥٨) عن السدي وابن إسحق أنهما سمياه «آزر»، وعن سعيد بن عبد العزيز أنه قال: «هو آزر» وهو تارح، مثل: إسرائيل ويعقوب». أي لأن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم يسمى أيضا «إسرائيل»، كما هو معروف ثابت. وقد رد الإمام فخر الدين الرازي فى تفسيره (٣: ٧٢ من الطبعة الأولى ببولاق) على الزجاج

---

(١) وهو كتاب «المعرب ـ للجواليقي»، نشر دار الكتب المصرية. الطبعة الثانية.

أحسن رد فقال: «أما قولهم أجمع النسابون على أن اسمه كان تارح. فنقول: هذا ضعيف، لأن ذلك الإجماع إنما حصل لأن بعضهم يقلد بعضا، وبالآخرة يرجع ذلك الإجماع إلى قول الواحد والاثنين، مثل قول وهب وكعب وغيرهما. وربما تعلقوا بما يجدونه من أخبار اليهود والنصارى، ولا عبرة بذلك في مقابلة صريح القرآن».

ثم هاب العلماء أقوال النسابين، وأزعجتهم دعوى الإجماع، فذهبوا يتحيلون للجمع بين الدليلين! فمنهم من تأول إعراب «آزر» أنه مفعول مقدم، وأنه اسم صنم كالقول المنسوب لمجاهد.

ومنهم من تأوله بأنه وصف، معناه المعوج، أو المخطىء، أو الشيخ الهرم، أو نحو ذلك. ومنهم من تأوله بأنه لقب لوالد إبراهيم. ومنهم من تأول قوله (لأبيه) بأن المراد «لعمه» وأن العم يطلق عليه أنه أب. ومنهم من روى قراءات غريبة شاذة للكلمة، فإنها رسمت فى المصحف هكذا «آزر أتتخذ»، فرويت قراءة: «أأزراً تتخذ»، «بهمزة استفهام وفتح الهمزة بعدها وسكون الزاي ونصب الراء منونة وحذف همزة الاستفهام من أتتخذ». قال ابن عطية: «المعنى: أعضدا وقوة ومظاهرة على الله تتخذ». ورويت قراءة: «ءَإِزراً تتخذ» وهى كالسابقة فى الضبط إلا أن الهمزة الثانية مكسورة. قال ابن عطية: «ومعناها أنها مبدلة من واو، كوسادة وإسادة. كأنه قال: أوزرا أو مأثما تتخذ أصناما، ونصبه على هذا بفعل مضمر».

وقد غلا صديقنا الأستاذ الشيخ أمين الخولي في الاعتماد على هذه الغرائب، حتى قال في التعليق على (دائرة المعارف الإسلامية) فى مادة «آزر» رداً على المستشرق ونسنك: «فهذه أربعة أوجه نقلت في تخريج قراءات الآيات ـ على نظر في بعضها ـ يتعين فى اثنين منها ألا يكون آزر اسم أبي إبراهيم، ويحتمل ذلك فى اثنين. فليس من الصنيع العلمي أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن آزر اسم أبي إبراهيم فى سورة الأنعام»!! ونقل كلامه كله أستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص

الأنبياء (ص٦٤-٦٦) ثم رجح القول المنسوب إلى مجاهد، بأن «آزر» اسم صنم، وقال: «وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر باسمه العلمي فى القرآن الكريم»!!.

وهذه كلها أقوال كما ترى!.

أما ما نسب إلى مجاهد من أن «آزر» اسم صنم - فغير صحيح، من جهة الإسناد والثبوت، ومن جهة العربية. قال الحافظ ابن حجر فى فتح الباري (٨: ٣٨٣): «وحكى الطبري من طريق ضعيفة عن مجاهد: أن آزر اسم الصنم، وهو شاذ». ووصفه إمام المفسرين ابن جرير الطبري فى تفسيره (٧: ١٥٩) بأنه «قول من الصواب من جهة العربية بعيد، وذلك أن العرب لا تنصب اسما بفعل بعد حرف الاستفهام، لا تقول أخاك أكلمت؟ وهى تريد: أكلمت أخاك؟» يعني لأن الاستفهام له الصدارة دائماً.

وأما من زعم أنه وصف، فإنه إن صح ما قالوا كان وصفا لا يصدر من نبي لأبيه، وابراهيم خليل الله يقول له أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] فيقول له إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦-٤٧]. أفمن يتأدب مع أبيه هذا الأدب فى حدة الجدل والمناظرة بعد التهديد من أبيه -: يعقل منه أن يبدأ دعوة أبيه إلى دينه قبل الجدال بالشتم والسب؟! اللهم غُفراً. ومما يرد هذا القول أيضا ما قال أبو حيان في البحر المحيط (٤: ١٦٤) أنه «إذا كان صفة أشكل منع صرفه ووصف المعرفة به وهو نكرة». وإن حاول بعد ذلك توجيهه بتكلف.

وأما تأول الأب بالعم فإنه خروج باللفظ عن ظاهره وحقيقته، إلى معنى يكون به مجازاً، من غير قرينة ولا دليل على إرادة المجاز ولو ذهبنا نتأول النصوص الصريحة بمثل هذا بطلت دلالة الألفاظ على المعاني. ثم آيات القرآن متكاثرة فى جدال إبراهيم لأبيه فى الدين، ودعائه إياه إلى الهداية، وإباء أبيه، من ذلك قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: ١١٤]. وانظر أيضا سورة مريم (٤١-٥٠) والأنبياء (٥١-٥٢) والشعراء (٦٩-٨٦) والصافات (٨٣-٨٧) والزخرف (٢٦-٢٧) والممتحنة (٤). ففي هذه المواضع كلها التصريح بأن جدال إبراهيم كان مع أبيه، فكيف يمكن حملها كلها على إرادة المجاز من غير دلالة أو قرينة؟!.

وأما ما سموه قراءات في لفظ «آزر» فإنها روايات لا سند لها ولا قوام، وليس تثبت عند أهل العلم بالنقل بحال.. فهي أضعف من أن توسم بأنها قراءات شاذة، وإن حكاها أبو حيان وغيره في تفاسيرهم، والقراءات الصحيحة المعروفة، العشرة، بل الأربعة عشر، لم ينقلوا فيها إلا قراءة «آزر» بفتح الراء. وقرأ يعقوب «آزر» بضمها، وليس في كتب القراءات ولا تفسير الطبري سواهما، وانظر النشر لابن الجزري (٢: ٢٥٠) وإتحاف فضلاء البشر (ص: ٢١١) وغيرهما. وحكى الطبري قراءة الضم أيضا عن أبي يزيد المدني والحسن البصري، وحكاها أبو حيان عن أبي وابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم. وهذه القراءة حجة واضحة في أنه علم، لأنه منادى، قال أبو حيان: ولا يصح أن يكون صفة، لحذف حرف النداء، وهو لا يحذف من الصفة إلا شذوذا». ومع ذلك فإن الطبري لم يرض هذه القراءة، قال: «والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأ بفتح الراء من آزر... وإنما أجيزت قراءة ذلك لإجماع الحجة من القراء عليه».

وبعد: فإن الذي ألجأهم إلى هذا العنت شيئان اثنان: قول النسابين، وما في كتب أهل الكتاب.

أما قول النسابين، فإن هذه الأنساب القديمة مختلفة مضطربة، وفيها من الخلاف العجب! وقد روى ابن سعد في الطبقات (ج١ ق١ ص٢٨) بإسناده عن ابن عباس: «أن النبي عليه السلام كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: كذب النسابون، قال الله عز وجل: ﴿ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨].

وذكر ابن سعد بعد ذلك أقوالا في النسب إلى إسماعيل، ثم قال: «وهذا الاختلاف فى نسبته يدل على أنه لم يحفظ، وإنما أخذ ذلك من أهل الكتاب وترجموه لهم فاختلفوا فيه. ولو صح ذلك لكان رسول الله ﷺ أعلم الناس به. فالأمر عندنا على الانتهاء إلى معد بن عدنان، ثم الإمساك عما وراء ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم».

وأما كتب أهل الكتاب فإن الله سبحانه وصف هذا القرآن فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. و«المهيمن»: الرقيب فهذا القرآن رقيب على غيره من الكتب، وليس شيءٌ منها رقيباً عليه. ولذلك قال ابن جرير الطبري في شأن الخلاف في «آزر» أهو اسم أم نعت: «أولى القولين بالصواب عندي قول من قال هو اسم أبيه، لأن الله تعالى أخبر أنه أبوه. وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم، دون القول الآخر الذى زعم قائله أنه نعت. فإن قال قائل: فإن أهل الأنساب إنما ينسبون إبراهيم إلى تارح، فكيف يكون آزر اسماً له، والمعروف به من الاسم تارح؟ قيل له: غير محال أن يكون كان له اسمان، كالكثير من الناس فى دهرنا هذا، وكان ذلك فيما مضى لكثير منهم. وجائز أن يكون لقبا. والله تعالى أعلم». وهذه الإجابة من الطبري ليست تسليماً بصحة الاسم الآخر، وإنما احتاط فأجاب على فرض صحته، كما هو واضح من كلامه.

والحجة القاطعة في نفي التأويلات التى زعموها في كلمة «آزر»، وفي إبطال ما سموه قراءات تخرج باللفظ عن أنه علم لوالد إبراهيم، الحديث الصحيح الصريح في البخاري: «عن النبي ﷺ: قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك» إلى آخر الحديث، في البخاري (٤: ١٣٩ من الطبعة السلطانية) وفتح الباري (٦: ٢٧٦ من طبعة بولاق). وشرح العيني (١٥: ٢٤٣-٢٤٤ من الطبعة المنيرية). فهذا النص يدل على أنه اسمه العلم، وهو لا يحتمل التأويل ولا التحريف.

ووجه الحجة فيه: أن هذا النبي الذي جاءنا بالقرآن من عند الله، فصدقناه وآمنا أن لا ينطق عن الهوى، هو الذى أخبر أن «آزر» أبو إبراهيم، وذكره باسمه العلم في حديثه الصحيح، وهو المبين لكتاب الله بسنته، فما خالفها من التأويل أو التفسير باطل.

وهذه الأخبار عن الأمم المطوية في دفائن الدهور، المتغلغلة في القدم، قبل تأريخ التواريخ، لا نعلم عنها خبراً صحيحاً، إلا ما حكاه النبي المعصوم، إخبارا عن الغيب، بما أوحى الله إليه فى كتابه، أو ألقى في روعه في سنّته، وحيا أو إلهاما إذ لا سبيل غيره الآن لتحقيقها تحقيقاً علمياً تاريخياً.

وما ورد في كتب أهل الكتاب لم تثبت إلى من نسب إليه، بأية طريق من طرق الثبوت، فلا يصلح أن يكون حجة لأحد أو عليه.

وليس لمعترض أن يشكك في صحة الحديث الذي روينا، فإن أهل العلم بالحديث حكموا بصحته، وكفى برواية البخاري إياه في صحيحه تصحيحاً، وهم أهل الذكر في هذا الفن، وعنهم يؤخذ، وبهم يقتدى في التواثق من صحة الحديث.

وأسأل الله العصمة والتوفيق[١].

الوقفة الثانية: هل يكون آباء الأنبياء كافرين؟

أثار بعض العلماء قديما وحديثا كون أبي ابراهيم الذي تحدث عنه القرآن الكريم كافرا، قائلين إنه لا يعقل أن يكون أباه حقيقة، محتجين بأن آباء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز أن يكونوا كافرين، ولقد قرأنا هذا القول عند كثير من المفسرين قديما، وهو ما نقل عن الشيخ محمد الشعراوي ـ رحمهم الله جميعا ـ. ومما استندوا إليه أن العرب يطلقون على العم أباً، واستدلوا لهذا بما جاء في الآية الكريمة:

(١) كلمة الحق/اصدع بما تؤمر -أحمد محمد شاكر- دار الكتب السلفية الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ولقد كان اسماعيل عم يعقوب، لأن أباه إسحاق وجده ابراهيم عليهم جميعا صلوات الله وسلامه.

وقد احتجوا لما ذهبوا إليه كذلك ببعض الآثار التي سيأيتك خبرها بعد حين، وما كان أغنانا عن مثل هذه الخلافات، فمن المبادىء المسلمة في هٰذا الدين وكتابه الكريم، قوله سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وإنني أتساءل أي الأمرين أكبر، أمسؤولية الأب عن ابنه، أم الابن عن أبيه؟ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]. إن مسؤولية الأب عن ابنه من الأمور البدهية التي لا يرتاب فيها أحد.

ولقد حدثنا القرآن الكريم أن ابن نوح - ﷺ - كان كافرا، فإذا جاز أن يكون الابن كافرا، فلم نختلف في جواز أن يكون الأب كافرا؟ ثم إن هذه القضية ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله، والقضية حينما تذكر مرات كثيرة، فإن ذلك يدل على أنها قطعية الدلالة، فضلا على كونها قطعية الثبوت، وهذه بعض الآيات الكريمة:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [براءة: ١١٤] ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤١-٤٢] ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦] ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤-٥] مع الآية التي تحدثنا عنها ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

إن هذه الآيات الكريمة كلها تنطق بكل صراحة، بأنه كان يخاطب أباه، فلماذا الخروج عن هذا الظاهر، والبعد عن هذه الحقيقة، إن إطلاق العم على الأب لا يكون إلا بقرينة دالة على ذلك، فإذا علمت هذه القرينة فلا إشكال، والآية التي احتجوا بها لا تقوم لهم بها حجة، لأنها ذكرت الأب الحقيقي ليعقوب وهو اسحاق، فذكر إسماعيل يدل على أنه ليس أبا له حقيقة، بل إنه قدم في الذكر على أبيه حقيقة، ويظهر هذا التقديم لكونه أكبر منه سنا «اسماعيل واسحاق»، ولقد كان هذا الأمر المشتهر فى بلادهم لا فرق في ذلك بين مصر والشام، ولا زلت أذكر أننا ما كنا ننادي العم أخا الأب إلا أباً، ولكن بقرينة، ولقد وجدت هذا كذلك في مصر عندما كنت أزور بعض الأحباء والأخوة في البلاد المصرية، كان الواحد حينما ينادي أباه يقول (يابا) وحينما ينادي عمه يقول (يابا محمد) مثلا، أو (يابا بكر) إذا كان بكر عمه. هذا أمر لا أنساه أبداً، وأظن هذا التقليد قد ذهب الآن، بل كان ينادي امرأة أبيه بقوله (ياما) ولكن يذكرها باسمها، أما أمه الحقيقية فيناديها (ياما) دون تعيين. ذلك أمر لا ينكره أحد.

وعلى هذا فكون العرب تطلق على العم أباً أمر صحيح ولكن بقرينة، وهذا ما نقلناه عن صاحب المنار.

ومما تقدم ندرك أن القول بأن إبراهيم كان يخاطب عمه قول غير مقبول، وإن قاله قوم من ذوي الفضل والعلم، فإن المرجع كتاب الله.

بقي أن يقال: ما الذي احتج به أولئك من الآثار، وأنقل هنا ما ذكره الشيخ رشيد رضا -رحمه الله-.

«ومن الناس من استدل على أن آزر لم يكن والد ابراهيم ﷺ بل عمه بالجزم بأن آباء الأنبياء كافة أو نبينا خاصة لم يكونوا كفاراً وبأن ابراهيم خاطب آزر بالغلظة والجفاء ولا يجوز ذلك من الأنبياء. وقد عزا الرازي هذا القول إلى الشيعة وأطال في بيانه واختصر في بيان (زعم الصحابة) ـ أي الأشاعرة أو أهل السنة كافة ـ أن آزر كان والد ابراهيم وكان

كافراً وفي ردهم قول الشيعة. وقال الألوسي: والذي عول عليه الجمّ الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد ابراهيم عليه السلام، وادعوا أنه ليس في آباء النبي ﷺ كافراً أصلاً لقوله عليه الصلاة والسلام «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» والمشركون نجس، وتخصيص الطهارة بالطهارة من السفاح لا دليل له يعول عليه والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وقد ألفوا في هذا المطلب الرسائل واستدلوا له بما استدلوا والقول بأن ذلك قول الشيعة كما ادعاه الإمام الرازي ناشىء من قلة التتبع، وأكثر هؤلاء على أن آزر اسم لعم ابراهيم عليه السلام وجاء إطلاق الأب على الجد في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وفيه إطلاق الأب على الجد أيضا. وعن محمد بن كعب القرظي أنه قال: الخال والد والعم والد وتلا هٰذه الآية ثم ذكر السيد الألوسي آثاراً استدلوا بها على ما ذكر أخذها فيما يظهر من بعض رسائل السيوطي التي ألفها في نجاة الأبوين الشريفين وجمع فيها الذرة وأذن الجرة ـ كما يقال ـ ورجح الآثار الواهية والمنكرة على الأحاديث الصحيحة، المؤيدة بالآيات الصريحة وهي التي أشار إليها الألوسي بقوله: وألفوا في هذا المطلب الرسائل. . الخ واعتمد عليها فيما ادعى أنه هو الذي عول عليه أهل السنة ومن الغريب وقوع هذه الهفوة من مثل هذا النقاد، وإنما أوقعه فيها هوى صادف ما في الفؤاد، وهو من آيات الإيمان بهما: أن يحب المؤمن نجاة أصولهما، ولكن إذا ثبت أن بعضهم أصر على الكفر وقضت حكمة الله أن يبينه لنا في محكم الذكر، وأن يطلع رسوله على عاقبته في النار فيخبر امته به لكمال التوحيد والاعتبار أفيكون مقتضى حب الله ورسوله هو الإيمان بذلك وبيانه كما بيناه أم يكون حبهما تحريفه وتأويله مبالغة في تعظيم نسب الرسل واستعظاما لهلاك أقرب الناس منهم نسبا مع كرامتهم عند الله؟ وتأثرا بأقوال أهل الملل الذين جعلوا نجاة الخلق وسعادتهم في الآخرة تجاه أنبيائهم وتأثيرهم الشخصي عند الله؟ لا باتباعهم والاهتداء بما جاءوا به من أصول الإيمان وفضائل الأعمال

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وأما استدلال الألوسي تبعا لغيره بحديث «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» على إيمان آباء النبي ﷺ من عبد الله أولهم ـ إلى آدم عليه السلام فهو معارضة لظاهر القرآن والأحاديث الصحيحة بحديث واه رواه أبو نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس بلفظ «لم يلتق أبواي في سفاح لم يزل الله عز وجل ينقلني من أصلاب طيبة إلى أرحام طاهرة صافياً مهذبا لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرها» هكذا في نسخة الدلائل التي بأيدينا وذكره السيوطي عنه بلفظ «من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة» بالتعريف ولا نعرفه باللفظ الذي ذكره الألوسي عن أحد من المحدثين وإنما يذكره بهذا اللفظ من لا يتحرون نقل الأحاديث بضبط مخرجيها بل يتساهلون بنقلها حيث وجدوها ككثير من المفسرين والمتكلمين وقد سبق الفخر الرازي الألوسي إلى ذكره بهذا اللفظ من غير عزو ولا ذكر لاسم الصحابي الذي (رفعه)- كعادته واللفظ المروي لا معنى له إلا كون ابائه ﷺ ولدوا من نكاح لا من سفاح وهو معنى صحيح وردت فيه أحاديث أخرى. ولو فرضنا أنه روي باللفظ الذي ذكراه لاحتمل هذا المعنى أيضا وكان حمله عليه جمعا بينه وبين القرآن والأحاديث الصحيحة أولى من جعله أصلا وإرجاعها إليه بالتأويل والتكلف والذي خرجه إنما جعله في دلائل طهارة نسبة لا إيمان أصوله ومما ذكر السيوطي من الدلائل في معنى هذه ـ المسألة قوله تعالى ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] لقول بعضهم إن معناه في أصلاب الطاهرين أي المؤمنين وروى أبو نعيم أنهم الأنبياء ويبطل ذلك ما ذكرنا من المعارضة وقوله تعالى قبل الآية ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي ويرى تقلبك في الساجدين فهو لا يحتمل الماضي وإنما معناه كما قال ابن عباس وغيره: الذي يراك حين تقوم في الصلاة ويرى تقلبك في المصلين أي معهم وبينهم وما روي عنه من أن المعنى تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً لا يصح سندا ولا متنا ولا لغةً. وتفصيل ذلك سيأتي في محله اهـ.

وأنا أستريح لما قاله الشيخ رشيد -رحمه الله- حتى إن أردنا أن نأخذ بهذا الحديث الذي رواه أبو نعيم، فإننا نحمله على أن أولئك الأنبياء مطهرون من السفاح، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولا أدري لماذا يصر كثير من الكاتبين قديما وحديثا وهم يتحدثون عن نسب أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يذكر أنه ابن تارح، ورضي الله عن شيخ المحدثين الإمام البخاري، وشيخ المفسرين، ابن جرير الطبري، وقد التزم كل منهما بما جاء في كتاب الله.

الوقفة الثالثة: ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية:

«كان شبرنجر «جـ٢ ص٢٧٦ وما بعدها» أول من لاحظ أن شخصية (إبراهيم)- كما في القرآن ـ مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية الأمر مؤسسة للكعبة.

وجاء سنوك هجرونييه «ص٢٠ وما بعدها» بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال: إن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي (الذاريات: ٧٤ وما بعدها. الحجر: ٥٠ وما بعدها، الصافات: ٨٢ وما بعدها، الأنعام: ٧٤ وما بعدها، هود ٧٢ وما بعدها مريم ٤٢ وما بعدها الأنبياء ٥٢ وما بعدها العنكبوت ١٥ وما بعدها). هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل، ولم تذكر لإسماعيل صلة به وإلى هذا يشار إلى أن الله لم يرسل من قبل إلى العرب نذيراً (السجدة: ٢ سبأ اية ٤٣ يس٦) ولم يذكر قط أن إبراهيم واضع البيت ولا أنه أول المسلمين.

أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك فإبراهيم يدعى حنيفا مسلما وهو واضع ملة إبراهيم، ورفع مع إسماعيل قواعد بيتها المحرم ـ الكعبة ـ (البقرة: ١١٨ وما بعدها آل عمران ٦٠، ٨٤. . . الخ).

وسر هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة. فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء، فلم يكن له بُدٌّ من أن يلتمس غيرهم ناصراً هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم ولذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم تلك اليهودية التى كانت ممهدة للإسلام، ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضاً المشيد لبيت هذه المدينة المقدس اهـ فنسنك.

١- والذي أقوله: إن هجرونييه وفنسنك كغيرهما ـ ومن على شاكلتهما ـ إن يقولوا إن الإسلام في مكة غير الإسلام في المدينة بالنسبة لإبراهيم عليه السلام. فإن إبراهيم في مكة أو في القرآن المكي لم تكن له صلة بالعرب فليس أبا لهم ولم يكن باني البيت ولا صلة له باسماعيل ولا بالعرب[1]».

وأود أن أذكر القارىء الكريم هنا بما يجب عليه من الحيطة والحذر، وهو يقرأ أو يستمع إلى ما كتب في هذه الموسوعات التي تسمى كل منها دائرة معارف، فدائرة المعارف البريطانية، التي يعدونها حصناً من حصون العلم مليئة بمثل هٰذه الترهات والأكاذيب، والافتراءات، ولقد بينت ذٰلك في كتاب قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية رد ونقد.

وهٰذه دائرة المعارف الإسلامية التي كتب بعض موادها -مع كل اسف- بعض علماء المسلمين لا تقل انصرافاً عن الحقيقة، وبعداً عن النزاهة من دائرة المعارف البريطانية. وهٰكذا هٰذه الموسوعات كلها أيا كانت جنسيتها ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]. ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]. إن ما ذكر هنا كثير منه قريب مما ذكر في دائرة المعارف البريطانية، وقد رددته في كتاب قضايا قرآنية ولن أطيل الرد هنا، فإن الكذب فيه واضح، ظاهر كل الظهور،

---

(١) قصص الأنبياء (ص١١١).

گوهذا الكذب ليس ناشئا عن جهل، بل أساسه الحقد والهوى. كيف يتجاهل أولئك أن السور المكية قد عرضت لقضية إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة، وأنها لم تنف عن أبينا ابراهيم - ﷺ - كونه يهوديا أو نصرانيا. إن هناك إجماعاً على أن سورة إبراهيم سورة مكية ولقد جاء فيها خبر البيت ومكة وإسماعيل وسنشرف بدراسة هذه الآيات الكريمة دراسة مفصلة لنبين افتراءات أولئك وبعدهم عن الحقيقة. ويؤلمنا هذا الحقد الذي لا زلنا نعاني منه، في كل مجال من مجالات الحياة، في الفكر والسياسة والاقتصاد والحرب والعلم، والكيان الصهيوني، وقضايا البلقان، وسرقات خيرات الخليج، ومحاولة إثارة الفتن في الدول الإسلامية بين المسلمين وغيرهم، وإلقاء الشبه في قضايا الإسلام كتابا وسنة وفقهاً وتراثا، وإغراء بعض السفهاء للنيل من مقدسات الإسلام؛ كتابا ونبيا ولا يجهل أحد قضية سلمان رشدي. هذه كلها وغيرها كثير لا تزال صيحات تنذر المسلمين بما يجب عليهم ليلموا شعثهم ويجمعوا شملهم، ليعتزوا بدين الله الذي لا عزة إلا به، ورضي الله عن سيدنا عمر «نحن قوم أعزهم الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله» ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]. وما أجدر أولئك الذين يتخذون الكافرين أولياء أن يتذكروا قول الله ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

أما موقف النبي ﷺ من اليهود، وكون هذا الموقف اختلف بين مكة المكرمة والمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فلقد فصلت هذا القول تفصيلا في كتاب قضايا قرآنية[١] وهو قول يحمل بطلانه في طياته، فموقف النبي عليه وآله الصلاة والسلام من اليهود كموقفه من غيرهم، دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وجدال بالتي هي أحسن، إلى أن ظهر القوم على حقيقتهم فنقضوا العهود، وظهر منهم الغدر،

---

(١) يراجع كتابنا قضايا قرآنيه.

وتواطؤوا مع غيرهم من الوثنيين على محاربة هذا الدين.

ودعوى أن إسماعيل وإبراهيم ليسا رسولين إلى العرب تحتاج إلى شيء من التفصيل، فإبراهيم - ﷺ - أرسل أول ما أرسل إلى غير العرب، القوم الذي هو منهم، ولكنه حينما بنى الكعبة - ومعه إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - بدأت دعوة التوحيد إلى العرب كما سيأتي معنا في سورة إبراهيم. وكان من البدهي أن يكون اسماعيل ﷺ - وقد نشأ في القبائل العربية، أرسله الله إلى العرب، كما سيأتي معنا في سورة مريم عليها السلام.

وإليكم السور الكريمة التي حدثتنا عن أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من إشارات:

لم يكن ذكر إبراهيم في كتاب الله تعالى كذكر الأنبياء السابقين؛ فكان النبي يذكر من جانب واحد، وهو ما يكون بينه وبين قومه، ولكن شيخ الحنفاء ذكر في كتاب الله من جوانب متعددة؛ ولا عجب فمآثره كثيرة، ومناقبه أجل من أن تعد، ولا عجب أن ترد الإشارات مبكرة حديثا عن أبي الأنبياء؛ فهذه إشارات نجدها في سورة الأعلى وفي سورة النجم، وفي سورة (ص) ففي سورة الأعلى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] ولكن سورة النجم تزيد على ذلك ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ[1] أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٤١] وفي هذه السورة نقرأ أول صفة من الصفات الخيرة لأبي الأنبياء ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ ثم تأتي سورة (ص) وهي التي تحدثت لنا عن بعض الأنبياء عليهم الصلاة السلام فنجد فيها اشارات لإبراهيم وبنيه ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾[2] [الآيـات: ٤٥-٤٨]

---

(١) «وفى» مبالغة في الوفاء أو بمعنى (أتم)، وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية، من ذلك تبليغه الرسالة واستقلاله بأعباء النبوة، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه.

(٢) ﴿أُو۟لِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي جمعوا بين العمل الجاد، والفكر المستنير. وهما قوام الحياة الكريمة. ﴿أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي جعلناهم مخلصين بسبب عملهم للآخرة، فقد أثنى عليهم؛ لأنهم جمعوا بين الدنيا والآخرة وان كانت الثانية هي الغاية ويمكن أن تكون ذكرى الدار ما جعل لهم من الثناء في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ الذين اصطفاهم الله فهم المصطفون الأخيار، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]. وهم من أهل الخير وأي خير أعظم مما تقدم.

ففي هذه الآيات نقرأ من الصفات لإبراهيم ﷺ أوسع مما رأيناه في سورة النجم، فهم أولو الأيدي والأبصار، وهم المخلصون المصطفون الأخيار.

السور التي فصلت عن إبراهيم ﷺ:

١ - أول سورة حدثتنا حديثاً فيه شيء من التفصيل عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد هذه الإشارات الوافية، **هي سورة مريم** ـ عليها السلام ـ وهي سورة نزلت مبكرة بعض الشيء[1]، وفي هذه السورة التي لها من اسمها نصيب كبير، في هذه السورة الكريمة، يحدثنا ربنا عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام ثم ينتقل الحديث عن إبراهيم عليه السلام وبعض الأنبياء من بنيه، ومما يأخذ باللب ويأسر القلب؛ ولكن هذا القلب يأبى إلا أن يتفلت ليرقص إعجاباً ثم يلين خشوعاً، ذلك أن الحديث في سورة مريم عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يدور حول ذلك الحوار المؤثر بينه وبين أبيه، ولعل الناظر في السورة الكريمة وهو ينعم النظر، ويجيل الفكر، ويدقق في الموضوع، يدرك هذا السر الذي يأبى إلا أن ينتثر شذاه، وينتشر أريجُـهُ، أن سورة مريم التي جاءت بدايتها تحدثنا عن زكريا الوالد ويحيى الولد، وعن مريم الأم وعيسى الابن عليه السلام، وهي التي ستحدثنا في آخرها بما يهز القلوب والمشاعر، كيف لا وهي ما تكاد السماوات تتفطر له، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمٰن ولدا وقبل هذا حدثتنا السورة الكريمة عن الذي ﴿ كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، لا عجب إذن أن نجد ما حدثت به السورة الكريمة عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان جله بل كلّه يتصل بهذا الجانب، وهو حديث إبراهيم عليه السلام مع أبيه، ولنقرأ الآيات الكريمة لنرى بعد حديثنا ـ عن هذا السر الرائع ـ لنرى أي تأثير، وأي فعل يمكن أن تفعله الآيات:

---

(١) ويدل لهذا أن جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قرأها على النجاشي ومن عنده من رجال الدين النصارى.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٩].

ونظن أن هذه الآيات بينة المعاني، ولكن جدير بنا أن ننظر إلى هذا التدرج الذي تدرج به ابراهيم عليه السلام مع أبيه في هذه النداءات التي تمتلىء عطفاً وحناناً: فأولها: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ وثانيها: ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وثالثها: نهيه عن عبادة الشيطان ورابعها: الخوف أن يمس أباه عذاب من الرحمٰن ثم يجري ذلك الحوار بينه وبين أبيه، هذا الحوار الذي تظهر فيه قسوة الأب كأنما نزعت الرحمة من قلبه ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ وعلى العكس من هذا تظهر فيه رحمة الابن وحبه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾(١) ولم يجد ابراهيم عليه السلام بدأ من أن يعتزلهم ومعبوداتهم ويدعو ربه فلن يكون شقيا بدعاء ربه ويكرمه الله فيهب له الأنبياء من ذريته.

٢- **ثم تأتي سورة الشعراء**: ولئن كان اختيار الجانب الذي تحدثت عنه سورة مريم يأسر القلب ويدعو إلى الإجلال ـ كما قلنا من قبل ـ فإن الجانب الذي تحدثت عنه سورة الشعراء لا يقل عن ذلك أبداً، وقد تحدثنا من قبل عن مزايا سورة الشعراء وتأثيرها في القلوب من حيث نظمها، والحديث عن إبراهيم يحكي لنا بكل أمانة ودقة ورقة وموضوعية موضوع السورة؛ لأنه حديث الأحاسيس، حديث الأعماق ـ كما يقولون ـ،

---

(١) الحفي: البليغ في البر والإلطاف، أي لطيف وبار بي.

الحديث الذي له ذلك التأثير على النفس وله تلك الحلاوة إقرأه بتدبر أو استمع إليه إن شئت بتدبر، وستجد أكثر مما وصفت لك لأن الكلمات لا تفي بالغرض ولا توفي الموضوع حقه وإذا كان الحديث في سورة مريم وجدنا فيه رقة الولد وبره بأبيه وحرصه كل الحرص على أن لا يصيب أباه سوء؛ فإننا نجد في سورة الشعراء هذا الطود الشامخ الذي يتحدى كل المؤثرات، هذه العقيدة الراسخة التي تتفاعل مع العقل والقلب وكذلك العقيدة الصادقة القوية، سنجد ذلك كله في سورة الشعراء كيف أن ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعطي الحجة القوية الدامغة يرد بها أباطيل قومه، ثم هذه الصلة الوثيقة بربه التي ستبقى وستظل الأساس الذي يرجع إليه المؤمنون والقبس الذي به يستنيرون ولنعد أنفسنا لاستماع الآيات وقراءتها:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ[1] وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٩].

---

(١) يمكن أن يفسر اللسان بالذكر الحسن، أي واجعل لي ذكرا حسنا في الأمم التي ستأتي بعدي، فقد عبر باللسان عن الذكر، وهو مجاز مرسل علاقته الآليه، لأن اللسان آلة الذكر، وقد يكون المعنى اجعل لي من ذريتي من يصدقني فيما دعوت إليه ويذكرني بخير، فيكون المقصود به سيدنا محمد ﷺ فيكون قد عبر باللسان وأراد الرسول الكريم وحينئذٍ يكون هذا مجازاً مرسلاً علاقته الجزيئة، لأن اللسان جزء من الإنسان، وهذا موافق لقوله﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

يالروعة النفوس المبتهجة بآيات الله، ويالبهجة النفوس التي اختارت نزهتها في رياض القرآن، سندع الآن ما قاله القوم من مكابرات ولجج؛ فلنا لمثله عودة ـ إن شاء الله ـ ولكننا نقف مع ما قاله أب الأنبياء وشيخ الحنفاء، أبونا ونحن نتشرف بهذا النسب، هذا الذي يدل على حصافة عقل، وقوة عقيدة، وإرهاف إحساس، ورقة مشاعر، إي والله تأمله معي!! ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥].

ماذا يجدي: إن العقيدة ليست مما ينبغي فيها تقليد الآباء ثم يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلمته التي تدل على بعد نظر ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] وإنما قلنا: تدل على بعد نظر؛ لأنه قال ﴿عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء: ٧٧] ولم يقل «عدو لكم»، كأنما يريد منهم أن يفكروا في أنفسهم، وفي تعريض ليس مثله التصريح، وذلك كما يسألك أحد عن شيء؛ فتعلمه أنك قد اخترته لنفسك، فهو تعريض منك أن يختار مثله هو؛ لأنك مادمت أنت قد ارتضيته فمن باب أولى أن تنصح غيرك ليرتضيه.

ثم يعظم أبو الأنبياء ربه وهو يذكر نعمه فيذكر نعمتين أوليين: أولاهما نعمة الخلق، وقد جاءت خالية من الضمير. والثانية: نعمة الهداية، وقد جاءت مقترنة بالضمير (هو) ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ثم ذكر نعمتين أخريين وهما: الطعام والشراب ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ ونلحظ أنه قد جيء بالضمير هنا كذلك أعني (هو) وكانت النعمة الثالثة نعمة الشفاء من المرض، وقد اقترنت كذلك بالضمير ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ثم ذكر أمرين من أثر القدرة الإلهية غير مقترنين بالضمير ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ثم ذكر الغاية التي يبتغيها ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ثم توجه إلى الله يدعوه لما يصلح دنياه وآخرته وأن يجنبه الفضيحة والخزي يوم يبعثون ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ومع رقة هذه الكلمات وتأثيرها في النفس نجد القوة والرصانة. فهذا الضمير مثلا (هو) إذا بحثنا عنه نجده قد اقترن مع الأمور الآتية: الهداية، الطعام والشراب، الشفاء من المرض. وإنما اقترن بهذه الأمور الأربعة،

كأنما هو رد عليهم وعلى أمثالهم ممن يرجون الخير من غير الله، إنه رد عليهم حينما ينسبون لأصنامهم الهداية، وهو رد عليهم حينما يطلبون منها الرزق من طعام وشراب وحينما يطلبون منها أن تشفيهم من أمراضهم كذلك.

أما الأمور التي لم تقترن بالضمير وهي: الخلق، والإماتة، والإحياء؛ فإنه لا حاجة بها لهذا الضمير؛ لأن أحداً لا يزعم أن الصنم الذي صنعه بيده هو الذي خلقه، وهو الذي سيحييه ويميته ويغفر له. ثم لا ننسى هذا الأدب الرائق والذوق الراقي الرفيع وهو نسبته المرض لنفسه لا إلى الله تعالى ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل الذي يمرضني كما قال يطعمني، ولكنه نسب إليه سبحانه الشفاء ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ثم هذه الدعوات الجامعة التي دعا بها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربه أن يهب له الحكم أولاً، وأن يلحقه بالصالحين، إلى آخر هذه الدعوات وهي والله جمعت بين خير الدنيا وخير الآخرة، والسلامة من شر الدنيا وشر الآخرة، وتلك هي السعادة التي أكرم الله بها خليله عليه وعلى نبينا صلاة الله وسلامه.

ولقد أعجبني ما قاله الزمخشري ـ رحمه الله ـ فأحببت أن أسجله ليفيد منه القارىء وما أظنه إلا كذلك قال رحمه الله: «وما أحسن ما رتب إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون، سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمنّي الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا»(١).

---

(١) الكشاف جـ٣، ص٣٢١.

٣- ثم تأتي سورة هود تحدثنا عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكما قلت من قبل الحديث عن ابراهيم عليه السلام يختلف عن الحديث عن غيره ـ إذ الحديث عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جوانب كثيرة، لذلك وجدناه في مكي القرآن ومدنيّه. تأتي سورة هود؛ ولكنها لن تحدثنا عما كان بينه وبين قومه، وإنما جاءت **تحدثنا عن** طيب الخلال، وشريف الخصال التي يتمتع بها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكذلك عما أكرمه الله به.

ويظهر أن الحديث عن إبراهيم عليه السلام في سورة هود كان مقدمة للحديث عن قوم لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ، هذا ما تشير إليه الآيات، وهذا ما يتفق مع موضوع السورة الذي تحدثنا عنه من قبل؛ فالرسل الذين جاءوا ابراهيم عليه السلام بالبشرى كانوا في طريقهم إلى لوط ـ عليه السلام ـ، ولكنهم مروا به إكراما له، وهذا أمر متعارف عليه بين الناس ـ حتى في زماننا هذا ـ أن ينزل الضيفان أو أصحاب الشأن أولا عند الكبير صاحب النفوذ.

تحدثنا آيات سورة هود أن الرسل جاءوا ابراهيم عليه السلام بالبشرى ﴿ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ ﴾ [هود:٦٩] والقرآن يدلنا على كرم ابراهيم عليه السلام، وجميل صفاته؛ فإن سلام الملائكة جاء منصوباً وسلام إبراهيم عليه السلام جاء مرفوعا، كما تلحظ -أيها القارىء- سلام الملائكة جاء منصوباً فلا بد له من فعل ناصب، وهنا تكون الجملة فعلية ـ كما يقول علماء اللغة ـ «أي نسلم سلاما»، ولكن سلام ابراهيم عليه السلام جاء مرفوعاً؛ لأنه مبتدأ، أي: سلام عليكم، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ لأن جملته اسمية وليست فعلية، والفرق بين الجملتين: أن الفعلية تدل على الحدوث، بينما الاسمية تدل على الثبوت والدوام، فسلام الملائكة لإبراهيم عليه السلام حادث متجدد، ولكن رد إبراهيم عليه السلام كان يتسم بالثبوت والدوام والاستمرار فكانت تحيته أبلغ من تحيتهم، وهذا هو الأدب الذي علمنا إياه القرآن ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ ﴾ [النساء:٨٦] وبعد هذه التحية الطيبة بادر مسرعاً لإكرامهم؛ فجاءهم بسيد الطعام

﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ[1] ﴾ [هود:٦٩] ولكنه لما رآهم لا يتناولون الطعام أنكر ذلك منهم، ودارت في نفسه الهواجس، وهذا أمر متعارف عليه فالذي لا يتناول طعاماً قُدِّم له يرتاب صاحب البيت في أمره، ونحن نعرف أن هناك عادات مستمرة حتى اليوم، فقد لا تشرب القهوة إذا كان هناك داع لعدم الشرب حتى يعطى الضيف ما يريد. . . وقد قلنا من قبل إن مجيء الرسل كان مقدمة للذهاب إلى لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يدلنا على ذلك ما كان من الملائكة حينما رأوا ابراهيم عليه السلام أنكر ذلك منهم ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود:٧٠] وامرأته تسمع ما يقال فيبشرونها بإسحاق ولداً، وبيعقوب نافلة أي حفيداً لها وتعلن ما تتعجب منه وتجهر به؛ إذ كيف تلد وهي عجوز وهذا بعلها تقدم به الزمن، إن هذا لأمر عجيب لم تجر به العادة.

اشتهر عند بعض الناس وهو أمر عجيب جدا أن ضحكت بمعنى حاضت، وهذا قول متكلف بعيد، والضحك في الآية هو المعلوم عند الناس وقد يتساءل: كيف قيل هنا ضحكت، وفي سورة أخرى فصكّت وجهها؟ وأقول: إن هذا يرد إذا كان الضحك بعد البشارة وهذا ما ذهب إليه بعض اللغويين من أنّ في الآية تقديما وتأخيرا، والأصل بشرناها فضحكت، وهذا تكلف نجلّ القرآن الكريم عنه ونحذر الدارسين لكتاب الله من أن يقبلوا شيئاً من هذا مما يرد في بعض كتب التفسير، فإن نظم الآية الكريمة هنا يدل على أن الضحك كان قبل البشارة بدليل الفاء التي هي للتعقيب ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا ﴾ [هود: ٧١] فالبشارة عقب الضحك إذن وقد ذكروا للضحك أسباباً كثيرة منها: أنها ضحكت لإهلاك قوم لوط، وقد كانت تكرههم لفعلهم الشنيع، أو حينما علمت أنهم ملائكة، وقد ذكروا أسبابا كثيرة يرجع إليها في كتب التفسير.

---

(١) (حنيذ): مشوي على الرضف وقد حفرت له حفرة، وهو من الطعام الشهي، ويعرف في بلادنا «بالزرب» فيأكله الآكلون دون عناء لأن النار التي حفر لها قد هيأته لذلك.

ولكن أولئك الرسل من الملائكة يخبرونها أن لا عجب في ذلك؛ فهو أمر الله، والله تبارك وتعالى قد منّ عليهم برحمته، ومن عليهم ببركاته، فهم أهل بيت النبوة، والله حميد مجيد، فلما عرف إبراهيم ذلك ذهب عنه الروع الذي كان يستولي على قلبه، وبعد هذه البشرى الطيبة أخذ يجادلهم في شأن قوم لوط لعلهم يرجعون عن غيهم ولعل الملائكة يرجعون عما سيقومون به من عذاب أولئك، وهذا يدل على صفات خيرة لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فهو حليم أولاً، والحلم من الصفات التي يحبها الله، وهو أواه منيب[1] كذلك، ولكن الملائكة يخبرونه أن لا حيلة في الأمر؛ فليعرض عما يجادل فيه؛ لأن ذلك أمر الله تبارك وتعالى وقضاؤه، ولا راد لقضائه، ولا بد من أن يأتيهم عذاب غير مردود، وهنا ربما يرد هذا التساؤل: إن الآيات في السور السابقة حدثتنا عن شأن ابراهيم مع أبيه وقومه، وكان ذلك في بلده الذي نشأ فيه قبل أن يهاجر إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، فلسطين، فكيف جاءت الآيات في سورة هود تتحدث عن إبراهيم في البلد الذي هاجر إليه دون أن يسبق له ذكر من قبل؟! ونجيب على هذا التساؤل بأن الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن ينتقل القرآن الكريم هذه النقلة التي لم يسبق لها ذكر، ولكن الذي يقف مع الآيات السابقة يجد أن القرآن الكريم أشار إلى هذه الهجرة إشارة مجملة وذلك ما حدثتنا عنه آيات سورة مريم حينما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨] وهٰذه طريقة القرآن الرائعة حيث ذكر ذٰلك مجملاً أولاً ثم يجيء التفصيل بعد ذٰلك، وهٰذه الآيات من سورة هود نقرؤها متدبرين وسنرى أن ما جاءت به جديد من حيث الموضوع والأحداث والجزئيات:

---

(١) (أواه): كثير التأوه من خشية الله، (منيب): راجع إلى الله بما يحبه سبحانه من الإنابة وهذه الصفات تدل على الرحمة فهو حليم لا يسرع بالانتقام ممن أساء له، أواه منيب وهذه الصفات له عليه السلام ترضي الخالق والمخلوق.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٦٩-٧٦].

إن هذه الآيات الكريمة حين نتدبرها تدل على جوانب خيرة متعددة في شخصية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فهذا الإحسان إلى الضيف لا من حيث القرى وحده وكرم الضيافة، وإنما من حيث البشاشة كذلك، وقد تغني البشاشة عن القرى، ومن أقوالهم: «البشاشة خير من القرى» ومن الكلمات الشعبية التي جرت هذا المجرى: «لاقيني ولا تغديني» ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ جمع بينهما فتحيته خير من تحيتهم، ثم إن إبراهيم عليه السلام بشر، لذا يسوؤه ما يسوء الناس حينما يرى أنهم لا يقربون زاده، ولا يتناولون منه شيئاً وربما يكون إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أدرك بحسه المرهف، وبصيرته أنهم ملائكة فنكرهم وأوجس منهم خيفة أي أضمر في قلبه خوفاً دون أن يشعرهم؛ لأنه ظن أنهم أتوه لأمر سيحل به. والقائلون هنا يستدلون بقول الله ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠] فكأنهم أدركوا معرفته لهم فأخبروه أنهم ما جاؤوه، وأنهم جاؤوا قوم لوط، وهذا يدل على بصيرة منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. والأول ـ ونعني ظنه بهم بشراً لا ملائكة ـ يدل على رجاحة عقل؛ لأنه أوجس منهم خيفة أضمرها في نفسه دون أن يظهرها لهم ويشعرهم بها، ونجد السياق هنا يسدل فيه الستار على ما كان بينهم وبينه ليحدثنا عما كان بينهم وبين امرأته بهذه القوة من الأسلوب، ولو لم يكن إلا هذه الميزة الطيبة، وهو أن الله تبارك وتعالى أكرمهم برحمته وبركاته فجعلها عليهم ينعمون بها لكفاهم ذلك.

ثم هذه الصفات التي جمعها الله لخليله ـ عليه السلام ـ، وهو ما أكرمه الله به، فارتكز في نفسه من حب للخير وعفو عن المسيء، وخشية لله؛ فإذا أضيفت هذه إلى ما سبق من الصفات نجد أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ جمع من الصفات ما لم يجمعه أحد، فلا غرو أن يكون أبا للأنبياء، ولا عجب أن نجد هذا الحب والإجلال والتقدير من سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ لأبيه إبراهيم يدرك ذلك كل من أجال نظره في السنة المطهرة... إنه إبراهيم وكفى ـ ﷺ ـ، اللهم إنا نشهدك أننا نحب نبيك ﷺ ونحب أبانا إبراهيم شيخ الحنفاء وأبا الأنبياء ﷺ الذي أحبه نبيك ﷺ، فأكرمنا اللهم بهٰذا الحب في الدنيا والآخرة.

٤- **ثم جاءت سورة الحجر** بعد سورة هود، والحديث فيها عن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يتلاءم مع موضوعها الذي تحدثنا عنه من قبل، وسورة الحجر هي السورة التي تبين لنا خلق الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون، فهو كثير التقلب سريع التغير لا يستطيع أن يقف في مهب الرياح، لولا عناية الله تبارك وتعالى.

وقصة إبراهيم في سورة الحجر تحدثنا عن صفات هذه الصفوة المختارة، وكيف أن الله تبارك وتعالى تداركهم بعنايته.

يبدأ الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الحجر بعد قصة آدم عليه السلام، ولكننا نجده مبدوءاً بهذه الجملة المسندة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لينبىء عباد الله من أجل أن يعيشوا بين الخوف والرجاء، ولا بد منهما في حياة العبد المخلص؛ فإن الله تبارك وتعالى لا يجمع لعبد بين أمنين، ولا بين خوفين، فمن أمنه في الدنيا لم يأمنه في الآخرة، ومن خافه في الدنيا لم يخفه في الآخرة يقول الله تبارك وتعالى ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٤٩-٥١] هكذا جاء الحديث عن إبراهيم... وإذا كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام كثير الخوف من ربه، أواهاً كما حدثتنا سورة هود، وإذا كان عظيم الأمل في

رحمة الله؛ فإن الآيات تحدثنا عن جانب من هذه الصفات في شخصية إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الحجر لا تحدثنا عما جرى بينه وبين قومه، وإنما عن جانب مما كان بينه وبين الملائكة، فتأتي قصة إبراهيم عليه السلام في الحجر مقدمة للحديث عن لوط عليه السلام... لكن القصة هنا تطوى فيها كثير من المشاهد التي وجدناها في سورة هود... ومع ذلك ففي القصة دروس جديدة.

تطلب الآيات من النبي ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ أن يحدثنا عن ضيف إبراهيم عليه السلام في وقت دخولهم عليه محيين مسلمين، ولكن ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجد في نفسه منهم مقدمات الخوف، وهو الوجل فيؤانسونه بأن لا داعي لهذا الوجل، فنحن نبشرك بغلام عليم، ويستفهم متعجباً ما هذا الذي تقولون وقد مسّني الكبر فبأي شيء تبشرون؟! ويجيبونه بأن ما سمعه حق فلا ينبغي له أن يعجب ويستغرب، وحري به أن لا يكون من القانطين، ويسارع ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليرد هذه الصفة عن نفسه وهي صفة القنوط؛ لأنها من الصفات التي لا يحبها الله تبارك وتعالى، ولا يليق أن يتصف بها عباده، فالقنوط ليس صفة أولئك الذين ملأ اليقين قلوبهم وأشرق نور الإيمان في جوانب نفوسهم، وإنما هو صفة أولئك الضالين الذين لم يكرموا بقبس الهداية فهم في حيرة وتردد ثم يسألهم عن شأنهم وخطبهم وبهذا تنتهي قصة ابراهيم عليه السلام في هذه السورة لتبدأ قصة لوط عليه السلام وهذه الآيات الكريمة:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر: ٥١-٥٧].

والمتدبر للآيات الكريمة يلمح الجدة فيها لأول مرة دون عناء، فأولا: يسميهم القرآن ضيفا، وثانياً: يطوى فيها ذكر الطعام وما يتصل به، وثالثا: يطوى فيه ذكر المرأة، ورابعا: يشعرهم ابراهيم هنا بوجله، وهو مقدمات الخوف ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر:٥٢] وفي السورة السابقة أوجس منهم خيفة خامسا: يوصف الغلام الذي بشر به هنا بأنه عليم، سادساً: نقف عند هذه العبارة المصورة المعبرة ﴿مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [الحجر: ٥٤]، سابعاً: نجد هنا صفة زائدة على ما تقدم في سورة هود وهي (عدم القنوط) إنما الذين يقنطون هم الضالون فقط، وإبراهيم عليه السلام ممن أكرمهم الله بالهداية.

ألا ترى - أخي القاريء - أن ما في السورة كله جديد لا تحوم حوله شبهة تكرار، ولا تشوبه شائبة إعادة، وأن الذين يدعون التكرار إنما هم واحد من اثنين؛ إما أنهم لا ينعمون نظراً، وإما أنهم لا يفقهون خبراً.

٥- **ثم جاءت سورة الأنعام**، وسورة الأنعام تتحدث عن العقيدة، لا من حيث تاريخها البعيد العميق - كما رأينا في سورة الأعراف - وإنما تتحدث عن العقيدة من حيثية أخرى، وهي رد الشبهات وإقامة الحجج، وتقدير الأدلة لإلزام المشركين، بل لإلزام أولئك الذين يجحدون الحق في شأن الألوهية والرسالة في كل زمان.

ومن هنا فليس عجيباً أن لا يذكر في سورة الأنعام أي قصة من قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ولكن الخبر الوحيد الذي ذكر في هذه السورة هو خبر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وقد ذكرت هذه القصة من الجهة التي يعالجها موضوع السورة وهو إقامة البراهين على وحدانية الله تبارك وتعالى، وإبطال كل ما يعبد من دونه، هكذا جاءت قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في سورة الأنعام، وهي إقامة الحجة على أولئك الذين يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، ومع ذلك يعبدون الأصنام، ويستهجنون أمر التوحيد، وهكذا بدأت قصة ابراهيم عليه السلام، فهو ينكر على أبيه آزر أن يتخذ أصناما آلهة إن هذا لضلال مبين يتبعه آزر وقومه.. وتحدثنا الآيات أن الله تعالى

أكرم إبراهيم عليه السلام بأن أراه ملكوت السماوات والأرض ليحاج قومه من جهة، وليزداد يقيناً من جهة أخرى. ويظلم عليه الليل فيرى كوكباً بازغاً فيقول على سبيل الاستهزاء وإلزام قومه بالحجة «هذا ربي» بصيغة الاستفهام الإنكاري دون أن تذكر أداة الاستفهام، فلما ذهب ضوؤه قال: لا أحب الآفلين، وكان قومه يعظمون الكواكب وهذا لا يتنافى مع عبادتهم الأصنام لأنها هي صورها القريبة منهم وهكذا رأى القمر فأعاد مقالته الأولى، فلما غاب بيّن لهم أن الهداية ليست إلاَّ من الله. وهٰكذا حينما رأى الشمس تساءل منكرا على قومه هٰذا ربي ؟، إن هٰذا الضوء أكثر سطوعاً من غيره؛ ولكنها حينما غابت وغربت وجد أن ذلك كان كافياً لتبكيت قومه وإلزامهم بالحجة، وهنا يعلن براءته مما يعبد قومه، كما يعلن أنه لا يوجه وجهه إلا للذي خلق السماوات والأرض مبتعداً عن كل اعوجاج، وعن كل جنف حنيفاً متجهاً نحو الحق بعيداً عن لوثة الشرك، وحاجَّه قومه وجادلوه؛ ولكنه أنكر عليهم ذلك كلَّه فكيف يحاجونه ويجادلونه في دين الله؟ ! وقد هداه الله إلى الحق، ولذلك فهو لا يخاف شيئاً من أصنامهم أو معبوداتهم أو كيدهم؛ فلن يكون إلا ما يشاؤه الله تبارك وتعالى، ويقرعهم ويعنفهم فما بالهم يعرضون عن الحق فلا يتذكرون؟!.

ثم يأتيهم بهذه الحجة الدامغة، والدليل القاطع، والبرهان الساطع، فكيف يخاف من أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة؟ وكيف يخاف كيدهم ومكرهم؟ وهم لا يخافون الله تبارك وتعالى الملك الحق المبين؛ فيشركون دون أن يكون معهم حجة أو سلطان، لم يخاف إذن وهم لا يخافون؟؟ إنهم أولى بالخوف من إبراهيم عليه السلام بل إنهم هم الذين ينبغي أن يخافوا؛ أما هو فلينعم بالأمن؛ لأنه يأوي إلى ركن شديد، وهكذا كل من آمن بالله، ولم يخلط عبادته بشرك، هو الحريّ بالأمن الجدير بالهداية، وهذه بحق حجة عظيمة، أكرم الله بها إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلاة الله وسلامه ـ فأقامها على قومه فلم يبق لهم منفذ، وهكذا يرفع الله درجات من يشاء من عباده؛ فإنه سبحانه المربِّي

لهم الحكيم العليم، وهكذا أكرم الله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فجعل كثيراً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ذريته.

تلك هي قصة إبراهيم في سورة الأنعام كانت أحداثها جميعها متسقة مع موضوع السورة الكريمة ذلكم لأن سورة الأنعام هي سورة الحجج والأدلة على العقيدة الصحيحة، -وكما قلت من قبل- إنها القصة الوحيدة من قصص الأنبياء التي ذكرت في هذه السورة، وفيها الحجة الدامغة على أولئك الذين انحرفوا عن ملة إبراهيم عليه السلام فجلبوا الأصنام للبيت الذي بناه.

وهذه الآيات الكريمة كما حدثتنا عنها سورة الأنعام نجد في آخرها بعد ذكر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بياناً شافياً كافياً تاماً كاملاً بأن أولئك هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة؛ فإن أبى العربُ إلا الكفر؛ فإن هناك من أكرمهم الله بالإيمان وأولئك هم الذين هداهم الله تبارك وتعالى؛ فبهداهم يقتدى ويهتدى.

ولا بد أن ننبه هنا على أنه قد وردت أقوال كثيرة في تفسير هذه الآيات يفهم منها أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان جاداً حينما قال عن كل واحد من هذه الكواكب هذا ربي قاله على سبيل الإخبار والاعتقاد؛ لأنه لم يكن يعرف شيئاً غير هذا، ولكننا نجل شيخ الحنفاء، وأبا الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن مثل هذه الأقوال وهي مما حشيت بها الكتب ـ مع كل أسف ـ فينبغي أن نضرب عنها صفحاً وأن نبتعد بها عن الآيات الكريمة تفسيراً وشرحاً وإنما قال: «هذا ربي» منكراً على قومه ساخراً منهم:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٤-٩٠].

وهذه الآيات الكريمة تدل على أمر آخر أكرم الله به نبيه وخليله، فَفَضْلاً على ما أكرمه به من يقين وقد أراه ملكوت السماوات والأرض، فلقد أكرمه بهذه الحجج والبراهين والأدلة التي لا يوفق لها إلا ذو بصيرة نفاذة، ومن هنا فنجده أولا بدأ في الترقي وهو ينفي الألوهية عن الكواكب بدءاً ببعض النجوم ثم القمر ثم الشمس، ولو أنه بدأ بالأكبر منها، وهي الشمس ما أمكنه أن يتحدث عن القمر والنجوم ولكنه بدأ من الأصغر إلى الأكبر، وهذا من حسن الاستدلال، ودلالة الرشد، ثم نجده بعد ذلك استدل على عدم إلاهية هذه الكواكب بالأفول دون السطوع ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦] ونجده يعلق براءته من الشرك حينما أثبت أن أكبر الكواكب وهي الشمس لا تصلح لأن تعبد، ثم يعلن أنه وجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، والحنف هو الميل عن الباطل والجنف هو الميل عن الحق فانظر إلى هذه اللغة المحكمة، لغة القرآن فبين

المعنيين المتضادين نقطة واحدة، وبعد أن يحاجه قومه ينكر عليهم محاجتهم فقد هداه الله؛ ولئن خوفوه أصنامهم وآلهتهم فإنه لن يخافها ـ كما قلنا من قبل ـ إذ كيف يخاف ما لا ينفع ولا يضر، وما بالهم لا يخافون الله الذي بيده ملكوت كل شيء.

نعم إن المؤمن الذي صفى إيمانه من كُدورات الشرك والشك والإخلاد إلى الأرض ولوثة المادة، هو الذي يكرمه الله بأعظم منتين، وأكبر نعمتين وهما الأمن والهداية. الأمن حتى لا يروع قلبه، والهداية حتى لا يضل عقله. ويقيني: أن ما بعدهما تابع لهما. وتلك هي الحجة التي آتاها الله ابراهيم على قومه فهو سبحانه يرفع درجات من يشاء من عباده وهو الحكيم العليم بمن يستحق ذلك من أولئك.

ثم يبين ما أكرم به نبيه من أنه جعل أكثر الأنبياء من ذريته وجعله هو من ذرية نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهذه الآيات من سورة الأنعام جمع فيها ثمانية عشر نبياً من أنبياء الله: ابراهيم واسحق ويعقوب ونوح عليه السلام، هؤلاء أربعة ثم ذكر أربعة عشر نبياً في مجموعات ثلاث كما تجد ذلك في الآيات السابقة. وهنا لفتة نقدرها لصاحب المنار عن سر الجمع بين هذه الفئات الثلاث.

قال رحمه الله: **فالقسم الأول**: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع بين هؤلاء أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان لأنهما كانا ملكين غنيين منعمين وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميراً غنياً عظيماً محسناً، والثاني وزيراً عظيماً حاكماً متصرفاً، ولكن كلاً منهما قد ابتلي بالضراء فصبر كما ابتلي بالسراء فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة يمتاز بمزية، والترتيب بين الأزواج على طريق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين؛ فداود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين

وأعباء النبوة من أيوب ويوسف، وأن هذين أفضل من داود وسليمان بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء ـ والله أعلم ـ وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق وهداية الدين وإرشاد الخلق وهذا كما قال الله تعالى عن أحدهم وهو يوسف[1] ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] فهو جزاء خاص بعضه معجل في الدنيا، أي ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا قبل الآخرة ومنهم من يرجىء الله جزاءه إلى الآخرة.

والقسم الثاني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وهؤلاء قد امتازوا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم وإن كان كل نبي صالحاً ومحسناً على الإطلاق.

والقسم الثالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، وأخّر ذكرهم لعدم الخصوصية؛ إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا، أو سلطانها ما كان للقسم الأول ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني، وقد قفى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذي جعله الله تعالى لكل نبي على عالِمي زمانه»[2].

ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشرك أولئك لحبط عملهم ولكن الله علم أنهم لم يشركوا فهو تحذير لغيرهم، وهؤلاء هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، فإن أبى أهل مكة وغيرهم إلا الكفر، فإن الله وكّل بها أقواماً يذبون عنها، وهؤلاء هم الذين هداهم الله فبهداهم اقتده، وهذا فيه ما فيه من الذكرى للعالمين.

---

(١) وقد أغفل الشيخ رشيد موسى عليه الصلاة والسلام فلقد جاء في حقه كذلك، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

(٢) تفسير المنار جـ٧، ص٥٨٧.

ذاك خبر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في سورة الأنعام؛ السورة التي نهجت أكثر من أسلوب في تقرير العقيدة؛ أسلوب التقرير تارة؛ كقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٨] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ ﴾ [الأنعام: ٩٧] إلى غير ذلك.

أو الأسلوب التلقيني: وهو المبتدأ بكلمة (قل)، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٤٠] ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٤٧] ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ [الأنعام: ١٩] ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٦٣].

والأسلوب الثالث هو هذا الأسلوب؛ أسلوب إبطال حجة الخصم، كما رأينا في قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقد تمثلت الروعة والدقة فيما أعطيه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هذا التدرج في إقامة الحجة. يقول الزمخشري رحمه الله: «وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب؛ فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً؛ لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها محدثاً أحدثها وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها»[1].

٦- **ثم تأتي سورة الصافات**، وهي مكية كذلك، وسورة الصافات ـ كما تحدثنا عن موضوعها من قبل ـ تحدثنا عن إكرام الله أنبياءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ. . . وهكذا كان الحديث عن إبراهيم ﷺ فبعد الحديث عن نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد مر معنا من قبل ـ تحدثنا آيات الصافات أن ابراهيم عليه السلام كان من شيعة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن كلاً منهما كان صُلباً في دين الله لم تلن قناته، وأنه أخلص لربه بقلب سليم خال من كل صفات النقص، وقد أنكر على أبيه وقومه ما يعبدون، وكل هذه الآلهة التي يدعونها من دون الله؛ إنما هي إفك وباطل وهذا كله؛ لأنهم لا يرجون لله وقاراً؛

(١) الكشاف جـ٢، ص٤٠.

ولأنهم ما قدروا الله حق قدره، فكان ظنهم برب العالمين غير منسجم مع براهين العقل، ويقين القلب.

كما تحدثنا الآيات كذلك عن يقظة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورجاحة عقله، وبعد تفكيره، وحسن تخلصه، وشدة حرصه على دينه، وشدة قوته في محاربة الباطل، فلقد أراد أن يشاغل قومه حتى لا يسير معهم إلى حيث يريدون فيحملهم على تركه لينفذ أمراً عزم عليه، لذلك نظر نظرة في علم النجوم وقد كانوا يعولون على هذا العلم؛ فأخبرهم أن به سقماً يمنعه من أن يشاركهم مسيرتهم، ولا يظنن ظان أن ذلك كذب من إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وإنما ذلك من باب التعريض والتورية؛ فهو سقيم لعدم إيمانهم وتصديقهم بالحق وعبادتهم الباطلة، وهذا شأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، بل هو شأن الدعاة إلى الله والمصلحين، وقد حدثنا القرآن الكريم عما كان يختلج في نفس النبي ـ ﷺ ـ من ألم، وما يشعر به من حسرة حتى لقد كان ربه تبارك وتعالى يهون عليه ذلك ويسليه في كثير من آياته فيقول له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] كما يقول له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وفي آية أخرى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] والآيات كثيرة، تلك التي جاءت تبدد الألم الذي كان يساور النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من عدم إيمان قومه به.

وكذلك إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فهو سقيم حقاً؛ ولما سمع القوم ذلك من ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تولوا عنه؛ فأدبروا إلى حيث يريدون، وهنا رأى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ أنها فرصة سانحة لا ينبغي أن تفوت أو تضيع؛ لأنها ربما لا تعوض فأسرع فذهب في سرعة وخفاء إلى آلهتهم وقد ترك القوم عندها المآكل الطيبة حتى ينعموا بها حين رجوعهم فخاطبهم متهكما مستهزئاً ألا تأكلون؟! كما يأكل الذين يعبدونكم. ثم بكتهم مستهزئاً ما لكم لا تنطقون؟! ألا تتكلمون؟! وهنا وبكل سرعة وخفاء،

وبكل قوة وشدة، يأخذ بتحطيم هذه الأصنام. ويأتي القوم ليروا ما حل بأصنامهم فيقبلون مسرعين، وقد جن جنونهم؛ يقبلون مسرعين إلى إبراهيم عليه السلام، ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يباغتهم فيلزمهم الحجة، فكيف يعبدون هذه الأصنام التي ينحتونها هم بأيديهم مع أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلقهم وخلق كل ما يعملون، خلق عملهم وهو الذي خلق هذه المواد التي ينحتونها، ويرى القوم أنه قد سُقط في أيديهم فلا يستطيعون أن يحيروا جوابا وهذا باطلهم قد دمغ بهذا الحق الذي قذفه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلما لزمتهم الحجة ورأوا أنهم بعيدون عن الحجة لجأوا إلى القوة والبطش، وكذلك أهل الباطل في كل زمان حينما يعجزون عن مجابهة الحجج، وحينما يدركون أنهم في عماية ولجج؛ فإنهم يعمدون إلى النكاية المادية ومحاولة التصفية الجسدية، ذلك ما حدثنا عنه التاريخ، بل ذلك ما يشهد به الواقع لا سيما حينما لا يجد الحق عنه أي مدافع، كذلك قوم ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فما وجدوا خيراً من استعراض العضلات فتواصوا ببنيان يبنونه، وكيد لإبراهيم عليه السلام يريدونه؛ فليسعروا ذلك البنيان بالنار حتى تصير جحيماً، فليلقوا فيها إبراهيم عليه السلام. . . ولكن كما بطلت حجتهم من قبل فلم يستطيعوا أن يقابلوا إبراهيم عليه السلام بمنطق. . . أبطل الله كيدهم الذي أرادوه كذلك، فلم يصب إبراهيم عليه السلام بسوء، ورأى أنه لابد أن يهاجر من أجل الله وهو واثق من أن ربه سيهديه إلى ما فيه صلاح هذا الدين، وكذلك الأنبياء ومن بعدهم الدعاة حينما يرون الأرض التي هم فيها أمحلت من الخير، وحينما يرون الجو الذي يعيشون فيه عقيماً؛ فإنهم يبحثون عن تربة صالحة تنبت فيها الكلمة الطيبة. ويسأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يهب له من الصالحين ذرية طيبة فيستجيب الله دعاءه ويبشره بغلام حليم هو اسماعيل ﷺ ـ ولا عجب فالحلم صفة لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كذلك ـ والولد سر أبيه ـ ويولد هذا الغلام لإبراهيم ويشتد عوده حينما يبلغ مبلغاً يمكنه من أن يسعى مع أبيه في قضاء حوائجه، يحدثنا القرآن عما يدل على حلم الولد من جهة، وحلم الأب من جهة أخرى، والحلم صفة يحبها الله،

ولقد وصف بها إبراهيم عليه السلام في أكثر من آية وأي حلم أعظم من أن يبتلى الأب بذبح ابنه؛ فيتغلب على كل عاطفة وحنان، وأي حلم أعظم من أن تطيب نفس هذا الابن المذبوح بما يريده أبوه فيذعن لهذا الحكم بكل رضى ومحبة من غير مداورة وتردد، تحدثنا السورة الكريمة عن هذا المشهد حينما أخبر ابراهيم عليه السلام ابنه أنه رأى في المنام أنه يذبحه، فما كان من الابن إلا أن يعلن لأبيه بأن يفعل ما يؤمر به وسيجده إن شاء الله صابراً محتسباً.

ويسلم كل من الأب والابن لله بكل خضوع وطمأنينة، وتباشر عملية الذبح بكل جدية وحزم، وحقاً إنه لمشهد مؤثر، وقد أبدع القرآن تصويره البياني في هذه القصة وينادى إبراهيم عليه السلام وقد تل ولده للجبين قد صدقت الرؤيا وحقا إنها أعلى مراتب الإحسان من الأب والابن معا، ولا بد للمحسن أن يجازى بإحسانه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وحقا أنه لابتلاء عظيم، ويكرم الله إبراهيم عليه السلام بالفداء، ويفدى الولد البار بذبح (كبش) يقوم بذبحه الأب القانت، ويكرم الله ابراهيم عليه السلام الذي جمع بين عز الإيمان وخضوع العبودية وهما مقاما الافتقار، والافتخار.

ويبشره الله تبارك وتعالى بولد آخر هو إسحاق نبيا ويبارك عليهما[1]، أما ذريتهما ففيها المحسن الخير والظالم المسيء.

تلك هي قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في سورة الصافات، ومع ما فيها من مشاهد مؤثرة ووقفات تربي الضمائر، وتهذب النفوس فترتفع بها وهي تلقنها أروع الدروس، ومع ذلك فلا نرى في القصة أي أثر من آثار التكرار، على الرغم مما فيها من أحداث عديدة إلا أنها مع ذلك كله جديدة ثرية بالعظات، ولله الحمد والمنة. . .

---

(١) ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ في هذه الواو ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾ سر عظيم من أسرار الإعجاز، وهو أن الذبيح كان اسماعيل ﷺ، ولولا هذه الواو لكان يظن أنه إسحق، إذ يصير المعنى بعد أن فدينا هذا الابن بشرناه به نبينا، ولكن هذه الواو الدالة على التغاير تدل على أن إسحاق كان غير الذبيح عليهم جميعا صلوات الله وسلامه.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه على أن الذبيح كان إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

١- لأن الرسول ﷺ «ابن الذبيحين» وهما إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ووالده عبد الله؛ فلقد نذر عبد المطلب أن يذبح أحد أولاده فخرجت القرعة على عبد الله ثم فداه بمئة من الإبل.

٢- لأن إسماعيل كان بمكة.

أما ما نقل عن بعض الأئمة من أنه إسحاق ـ عليه الصلاة السلام ـ، فهو مردود يستند إلى بعض الإسرائيليات، وهو ما يدعيه اليهود وإن كانت توراتهم تناقض نفسها؛ ذلك لأنه جاء فيها: «أن اذبح ولدك الوحيد» وبالطبع لم يكن إسحاق الوليد الوحيد؛ لأن إسحاق جاء بعد إسماعيل ـ عليهم الصلاة السلام ـ جميعا، فإسماعيل هو الولد الوحيد قبل أن يولد إسحاق.

وقد أشرنا إلى أن الواو في قوله ﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾ دالّة على هذا ونثبت هنا الآيات الكريمة التي جاءت في سورة الصافات من أجل أن يتدبرها المتدبرون:

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ[1] أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ[2] وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ

(١) جاء في هذه السورة ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وجاء في سورة الشعراء ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، وذلك لأن ما في هذه السورة كان التقريع فيه واللوم والأحداث أكثر مما في سورة الشعراء. فانظر إلى هذه الأسرار البديعة إيجازاً وإعجازاً لهذا الكتاب البديع.

(٢) وتله للجبين: صرعه على شقه فوقع أحد جنبيه على الأرض تواضعا على مباشرة الأمر بصبر وجلد ليرضيا الرحمن. =

نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصافات: ٨٣-١١٣].

وفي الآيات ـ كما رأينا ـ مشاهد مؤثرة؛ فضلاً على ما فيها من الأسلوب القوي الجزل. والعجيب الذي يحتاج إلى وقفة وتأمل أن كلمة (راغ) وهي الذهاب بسرعة وخفاء نجدها تستعمل كثيراً مسندة لابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذه السورة، وفيما مر معنا من قبل، وما نظن ذلك إلا لحكمة وهدف كما نلمح في صفات خيرة لإبراهيم تضاف إلى ما سبق.

ولقد تجلت صفة الصبر هنا وهو يغالب عواطفه، ويلقي ابنه على الجبين وقد شحذ شفرته ليذبحه امتثالا لأمر الله ولا ندري أيهما كان أكثر صبرا الأب أم الابن؟!... ذرية بعضها من بعض وقد أثنى الله عليه بالإيمان والعبودية والإحسان وأكرمه بالبشرى ـ ﷺ وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً ـ.

٧- **ثم جاءت بعد ذلك سورة الزخرف،** وفيها إشارة موجزة متلائمة مع موضوع السورة، داخلة في ثناياها. وسورة الزخرف إحدى آل حم؛ ولكن المتأمل في موضوعها يجد أنها من أول وهلة جاءت تضيق على أولئك المشركين كل مسرب يمكن أن يسيروا فيه جدلين خصمين؛ فهي ترد على شبهاتهم بحجج نيرة، وتبطل ما ادعوه من تقليد الآباء ذوي النفوس السيئة؛ لأنهم كان حريا بهم أن يتبعوا ذوي النفوس الخيرة، والسورة كلها مبنية على العقل الذي كان حريا بهم أن يستعملوه ﴿حمٓ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١-٣].

وبعد أن تناقشهم السورة فيما ادعوه من جعل الملائكة بنات الله، وعبادتهم لها، مدعين أن تلك مشيئة الله، يرد القرآن عليهم من أين لهم هذا؟ هل لهم مستند عقلي؟ وإن لم يكن، ألهم مستند نقلي؟! الحق أن لا مستند لهم، لا من العقل، ولا من النقل،

نقرأ ذلك في السورة الكريمة: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] ثم يرد القران عليهم ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠] وهذا نفي للحجة العقلية، فليس عندهم دليل يستندون إليه وإنما هو خرص وكذب وظن، ثم يقول ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١] وهذا نفي للحجة النقلية أن يكون عندهم كتاب، فالحق أن ما ادعوه ليس له برهان من عقل أو دليل من نقل، ولكن من أين جاؤوا به إذن، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وبعد مناقشة ومحاورة تأتي الآيات تشير إلى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؛ فكأنها تقول لهم: إذا كنتم صادقين في اتباع آبائكم فكان حريا بكم اتباع أبيكم الأول الذي تدعون الانتساب إليه، وتزعمون أنكم على دينه، ثم إن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنتم تعترفون أنه أرجحكم عقلا وأبعدكم نظرا وأصدقكم خبراً ـ كان يبرأ مما يعبد أبوه وقومه، فكيف تدعون أنكم من أتباع إبراهيم ومع ذلك تصرون على تقليد آبائكم فيما هو باطل، وإبراهيم نفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يبرأ من فعل الآباء، فهو يدعو إلى التوحيد لعبادة الله وحده فهو الذي فطره وخلقه، حري بأن يُعبد، وهو الذي يهدي، إن الذي أنعم بنعمتي الخلق والهداية، وهما أعظم النعم هو الذي ينبغي أن يتوجه إليه الناس بالعبادة وحده، وهذه الكلمة؛ كلمة التوحيد جعلها إبراهيم باقية في نسله من بعده؛ لعل المعترضين ـ وأنتم منهم ـ (أي أيها المشركون) يرجعون عن غيهم وشركهم.

ما جاء في سورة الزخرف إذن يتطلبه موضوعها ـ كما ألمحنا إليه ـ وهذه هي الآيات الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

٨- **ثم جاءت سورة الذاريات** تتوعد المكذبين بالعذاب، فهو وعد صادق، وجزاء؛ لابدَّ أن يقع، ولهذا فهي تضرب لهم الأمثال بمن سبقهم، أمَّا ما ذكر فيها من قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فإنما هو توطئة لذكر العذاب الذي حلَّ بقوم لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومع أن الجانب الذي عالجته سورة الذاريات من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام تقدم في سورتي الحجر وهود إلاَّ أننا مع ذلك نجد أن لكل واحدة لونا خاصا بها وهدفا يبعد شبهة التكرار في القصتين، صحيح أن هناك تشابهاً في بعض الأحداث، وهذا أمر لا بد منه؛ لأن هناك قضايا أساسية رئيسة تشترك فيها كثير من الموضوعات ـ تماماً كما نرى ذلك في الكون والإنسان ـ لكن لا يستطيع أحد أن يدعي أن ذلك يعني التماثل بين هذه الأشياء، كما بينت في المقدمات.

بدأت القصة في سورة هود بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [هود: ٦٩] وفي سورة الحجر: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحجر: ٥١]، لكن القصة هنا بدأت بداية أخرى ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤] فنرى هنا أن التعبير عنهم بأنهم ضيوف مكرمون، ثم إن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أنكرهم، وسواء أكان هٰذا الإنكار من حيث هيئاتهم أم من حيث تحيتهم، إلا أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع ذلك أسرع في خفية عنهم، فجاءهم بعجل سمين(١)، ولما قربه إليهم أنكر عليهم مرة أخرى عدم أكلهم، فأوجس منهم خيفة فبشروه بغلام عليم، فأقبلت امرأته في صيحة تضرب وجهها لغرابة ما سمعت، كيف وهي عجوز عقيم! ويجيبونها بأن ذلك هو قضاء الله الحكيم العليم.

نجد هنا أشياء جديدة في هذه القصة لم تذكر في سورة هود والحجر، وكثير مما ذكر في سورة هود والحجر لم يكرر هنا وعلى سبيل المثال قد ذكر الوجل في سورة الحجر

---

(١) عجيب أمر هذا القرآن الكريم، جاء في سورة هود «عجل حنيذ» أي ما شوي على الرضف وهي قطع من الحجارة، وهنا قال «سمين» فانظروا إلى هذه الدقة ـ يرحمني الله وإياكم ـ.

وهو غير الخوف وذلك لسرٍ بديع، أما هنا فلم يذكر الوجل، وفي سورة هود كان العجب من امرأة إبراهيم ولكنها عبرت عن ذلك بما أخبرت به من قول، وتحدثت به من كلام أما في سورة الحجر فلم يرد لامرأة إبراهيم ذكر، وإنما كان العجب منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكن هذه السورة تبين لنا طريقة أخرى عبرت بها المرأة عما في نفسها حينما أقبلت في صرة فصكت وجهها. العجب هنا كان فعلا والعجب هناك كان قولا. . . هذا مع تنوع البداية لكل قصة وإيرادها بما يتسق مع شخصية السورة التي ذكرت فيها. وهذه هي الآيات الكريمة:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ[(١)] ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

٩- **أما سورة النحل**، وهي من أواخر ما نزل في مكة، وسورة النحل ـ كما نعلم ـ تسمى سورة النعم، ولقد جاءت الإشارات فيها عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ متفقة تماماً مع موضوع السورة، فإبراهيم الذي أكرمه الله وأنعم عليه كان شاكراً لهذه الأنعم، فمن الله عليه بأن زاده من نعمه وأدامها عليه، وهذا على عكس ما كان من اليهود الذين لم يشكروا النعم حينما كانت تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً فأبوا شكر هذه النعمة:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا[(٢)] وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ

(١) وهذا يتمشى مع السنن القرآني الذي حدثتك عنه، وهو أن القصة في آخر سورة تتحدث عنها يأتي موجزا مجملا، ومع ذلك لا يخلو من جديد، كما رأينا هنا في حديثها عن إبراهيم ﷺ والملائكة وكما عرفنا من قبل.

(٢) القانت: القائم بما أمره الله.
الحنيف: المائل إلى ملة الإسلام، غير الزائل عنه.

إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٤].

١٠- **ثم جاءت بعد ذلك سورة ابراهيم** - عليه الصلاة والسلام -، وهي مكية كذلك، والحديث فيها عن إبراهيم جاء في سلسلة هذه الإلزامات الكثيرة التي تنعى على أهل مكة وغيرهم من العرب استمرارهم في عبادة الأصنام، وكان من حقهم أن يعبدوا الله الذي من عليهم بهذا الأمن في بلدهم، وأن يتذكروا دعوة إبراهيم عليه السلام حينما سأل ربه أن يجعل هذا بلدا آمنا، وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ويصرفهم عنها؛ فإنها أضلت كثيرا من الناس، ويبين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بأن الرابطة الحقيقية التي تربط بنيه به إنما هي رابطة العقيدة ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦] كما تبين الآيات الكريمة حرص ابراهيم على هذا البلد الآمن وساكنيه، كل ذلك من أجل أن يشكروا نعم الله عليهم، فلا يكفروها ولا يكفروا بالله الذي أنعم بها، ويعطي القدوة من نفسه على هذا الشكر فهو يحمد الله الذي وهب له على الكبر ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ويسأل ربه سميع الدعاء أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته كذلك وأن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين.

فنحن نرى أن ما جاء في سورة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان جانباً جديداً من خبر إبراهيم عليه السلام، فهو متسق مع موضوع السورة من جهة، ومع شخصيتها واسمها من جهة أخرى، وهذه هي الآيات الكريمة التي جاءت في سورة إبراهيم عليه السلام نتلوها ونتدبرها:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن

شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤١].

وفي هذا أبلغ رد وخير دحض لما يقوله خصوم الإسلام من أعداء وأدعياء، والذي أشرنا إليه من قبل في أول الحديث عن قصة أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا ﷺ، من أن صلة إبراهيم عليه السلام بالبيت وصلته بإسماعيل عليه السلام، لم يعرفا إلا في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

١١- **ثم جاءت سورة الأنبياء** ـ عليهم الصلاة والسلام ـ تحدثنا عن قصة أبي الأنبياء، ويعلم الله أن في هذه القصة من النسق الفني، وروعة البيان، ودقة التعبير، كما فيها من جدة الموضوع ما تأنس له النفس خير إيناس، ويخشع له القلب، ويأسر اللب ساطعاً بالحق على ما لهذا الكتاب الكريم من عظمة التأثير على الجنة والناس. ذكرت قصة إبراهيم عليه السلام في هذه السورة الكريمة بعد حديث موجز عن موسى ـ عليه السلام ـ. وقد تكلمنا من قبل عن ترتيب القصص في القرآن الكريم فارجع إليه.

وتبدأ القصة بما أكرم الله به ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الرشد، وهي كلمة جامعة لكل ما يصلح شؤون الحياة المادية والروحية والدنيا والآخرة. والرشد يقابل الغواية، كما أن الهدى يقابل الضلالة، ومن عظمة القرآن الكريم أنه تستعمل الكلمة فيه مع غيرها، فيكون لها معنى خاص، فإذا أفردت كان لها معنى أعم، وذلك كثير في كتاب الله تعالى. كالإسلام والإيمان، والبر والتقوى، والفقير والمسكين، والكفر والشرك، والرشد والهداية، فإذا استعملت هاتان الكلمتان معاً كان لكل منهما معناها الخاص بها ألا ترى أن قول الله تعالى ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ ﴾ [الحجرات: ١٤] فلا يشك أحد بأن كلا من الإيمان والإسلام في الآية الكريمة له معنى خاص له، وكذلك قوله سبحانه ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢] وقوله ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠]

وكذلك قوله سبحانه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢] فإن كل كلمة في هذه الآيات لها معناها اللائق بها.

أما إذا ذكرت الكلمة وحدها فإنها تكون شاملة لمعنى الكلمتين معاً فإن ذكرت كلمة الإيمان دون كلمة الإسلام كانت شاملة للمعنيين، وكذلك إذا ذكرت كلمة الفقراء دون كلمة المساكين، أو كلمة الكفر دون كلمة الشرك. والذي يعنينا هنا أن كلمة الرشد في سورة الأنبياء ذكرت وحدها دون كلمة الهداية؛ فهي إذن كلمة عامة تدل على سلامة العقيدة والسلوك الخير، إنها تدل على التوفيق في العلم والعمل، وصدق الظاهر والباطن.

وتحدثنا الآيات عن هذه المحاورة التي كانت بين إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبين قومه. ولا بد أن ننبه قبل كل شيء على هذه الموضوعات التي نجدها في القصة القرآنية لقد تحدثنا عن هذه المحاورات في سور قرآنية سابقة، فرأينا في إحداها قول إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ويبين لهم أن هذا إفك، وفي بعضها الآخر يقول لهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وما أعظم الفرق بين الأسلوبين. وكان جوابهم كما تحدثنا سورة الشعراء حينما سألهم إبراهيم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ قالوا ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

وتأتي سورة الأنبياء التي نتحدث عنها فلا يكون التساؤل فيها عن العبادة، وإنما عما أجابوا به من قبل حينما قالوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] فيأتي التساؤل في سورة الأنبياء بهذا الأسلوب الذي هو استكمال لما ذكر في السور السابقة ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] إنه يستنكر عكوفهم ولزومهم لهذه التماثيل. وفي هذه التسمية ما يدل على حقارة شأنها؛ لأن التماثيل ما هي إلا أشكال صنعت لتشبه صوراً مخصوصة. وهذا كاف في ضآلتها وكونها غير مستحقة لهذا العكوف، ولا يجد القوم ما يجيبون به عن أحقية هذه التماثيل بعبادتهم وعكوفهم، ولكنهم يتهربون من الإجابة مدعين أنهم إنما قلدوا في عبادتها والعكوف لها آباءهم

دون أن يكون لهم نظر مستقل في شأنها. ويجيبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أنهم هم وآباؤهم مستغرقون في الضلال، منغمسون فيه؛ وكأنه يبين لهم أن الباطل لا يمكن أن يصير حقاً مهما كثر أتباعه وتعدد أنصاره وتتابعت عليه الأجيال، ويردون عليه متجاهلين الحديث عن هذه الأصنام والتماثيل، متسائلين: ترى أجئتنا بالحق أم أنت لا تزال منغمسا في لهوك ولعبك، ويجيبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ جواب الداعية الواثق من دعوته الذي لا ينتقم لنفسه، لكن همه كله أن يبلغ عقيدته ورسالته، وهذا شأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل هو شأن تلامذتهم من الدعاة إلى الله كذلك، إنهم يتناسون كل شيء في سبيل إيصال الرسالة والدعوة إلى الناس، وهذا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ حفيد إبراهيم عليه السلام حينما يسأل عن تأويل الرؤيا من صاحبي السجن. نجده قبل أن يؤولها يقول ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ولقد كان له أسوة في جده ـ عليه الصلاة والسلام ـ. لذلك نراه يجيب قومه حينما اتهموه بالاستغراق في اللعب واللهو يجيبهم بأن ربهم الذي رباهم وأنعم عليهم حري به أن يعبد وهو رب السماوات والأرض، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. ويعلن أن هذه هي عقيدته وهذا هو دينه، فهو على ذلك كله من الشاهدين.

ثم تحدثنا السورة الكريمة عما قرره إبراهيم في نفسه، وأعلنه ليسمعه بعض أولئك، فهو يقسم أن يدبر أمراً لأصنامهم بعد أن يذهبوا للهوهم ولعبهم في عيدهم، وهذا لا يتعارض مع ما ذكر من قبل في سورة الصافات، ففي قوله تعالى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٣٧]؛ لأن هذا القول لا ينافي أنه سيذهب لتحطيم الآلهة متخفياً مسرعاً، ويظهر أن القسم الذي أقسمه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليكيد أصنامهم ويدبر لها أمراً يسوؤهم، إنما سمعه بعضهم كما نفهم من الآيات.

وقد بر إبراهيم عليه السلام بقسمه فحطم الأصنام وجعلها جذاذا وقطعها قطعا. ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان ذا رأي وحنكة وحجة، فقد أبقى كبير هذه الأصنام

دون أن يصيبه بأذى، وذلك لأمر في نفسه؛ ليرجع إليه أولئك بعد مجيئهم من عيدهم؛ ليسألوه عن شأن الأصنام فيلزمهم الحجة ويدمغهم بالبرهان، وهكذا كان. . . فلقد رجع القوم ووجدوا ما امتعضت منه نفوسهم وطارت منه عقولهم، وماذا أكثر من هذا الذي حل بآلهتهم، ويتساءلون من الذي فعل بآلهتهم هذا الفعل؟؟! إن ذلك لظلم عظيم، ويقول بعضهم ـ الذي سمع إبراهيم حينما أقسم قسمه ـ إنهم قد سمعوا ذلك الفتى يذكر أصنامهم بسوء وهو ذلك الذي يقال له إبراهيم عليه السلام، ويقررون أن يأتوا بإبراهيم ـ عليه السلام ـ أمام جموعهم وعلى أعينهم، ويجاء به ويسأل ليقرروه بما فعل ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]. وهنا تظهر حنكته ومهارته في إقامة الحجج ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وهذا ليس كذبا في حقيقته، وإنما هو من باب التعريض والتورية، فليسألوهم إن كانوا يستطيعون جوابا، ويدرك القوم ما هم فيه من خطأ، وما هم عليه من انحراف ويرجعون إلى أنفسهم، يرجع بعضهم إلى بعض، إنكم أنتم الظالمون، كيف تعبدون مثل هذه الآلهة التي لا تستطيع أن تدفع عن نفسها سوءا ولا تقدر على أن ترد ما أريد بها من ضر، فكيف ترد عنكم أنتم السوء والضر، ولكن هذه الجذوة من الحق لا تلبث أن تنطفىء، وإذ بهم يرجعون إلى غيهم فينكسون على رؤوسهم يطرقونها خجلين مفكرين، كيف نسألهم وأنت تعلم أنهم لا يستطيعون نطقاً، ولا يحرون جواباً.

ويستغل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذه الكلمات في اعترافهم هذا وهٰذا هو شأن الدعاة فكيف بشيخ الدعاة أبي الأنبياء ليلزمهم الحجة مرة أخرى، وإذن أتجهلون فتعبدون ما لا يجلب لكم نفعا ولا ضراً، إن ذلك يدعو إلى التضجر والتأفف منكم ومما تعبدون، كان حريا بكم أن تستعملوا عقولكم التي منحكم الله إياها، ولما لم يجد القوم ما يدافعون به عن ضلالهم، ولما رأوا أنهم لا يملكون حجة وليس لهم منطق سليم يمكن أن يجابهوا به الحق يهرعون إلى القوة، وكذلك شأن الطغاة في كل زمان ومكان،

يقول بعضهم لبعض والغيظ يملأ قلوبهم «حرقوه» بهذا الأسلوب الدال على الغيظ والشدة حرقوه وانتقموا لآلهتكم وانصروها وهذا درس ينبغي أن يعيه أهل الحق وهم يرون كيف يدافع أهل الباطل عن باطلهم.

وهنا تكون المعجزة، فهذه النار التي أضرموها وجمعوا لها كل ما يستطيعون، يوحي الله تعالى لها ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وهكذا أذهب الله من هذه النار الحرارة والإحراق واستبدل بهما الإضاءة والإشراق ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠][(١)] وهكذا نجّى الله إبراهيم ولوطا ـ عليهما الصلاة والسلام ـ إلى الأرض التي باركها، وهي أرض فلسطين، ووهب له من وهب من ذرية صالحة.

ذكر الشهاب الألوسي[(٢)] رحمه الله: «ما روي عن أبي بن كعب قال: حين أوثقوه ليلقوه في النار قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك، ثم رموا به فأتاه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟! قال: أما إليك فلا. قال جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فاسأل ربك فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ويروى أن الوزغ كان ينفخ في النار وقد جاء ذلك في رواية البخاري»[(٣)].

---

(١) من أسرار الحكمة البيانيه أنه جاء هنا: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ وجاء في سورة الصافات ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أما الفاء فجاءت تعقيبا على قولهم.

(٢) روح المعاني ١٧-٦٨.

(٣) أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس قال «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقي في النار [كتاب التفسير/ سورة آل عمران باب ١٣ حديث ٤٥٦٣]». وأخرج البخاري عن أم شرف أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ قال كان ينفخ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام «في كتاب احاديث الانبياء» حديث ٣٣٥٩.

هذه قصة إبراهيم في سورة الأنبياء، وهي ـ كما قلنا من قبل ـ فيها من بديع البيان، وروعة الفن القصصي وجدة الموضوع، ودقة التعبير ما لا يخفى. ولقد أشير إلى هذه القصة إشارة مجملة في سورة الصافات كما مر معنا من قبل. لكن ما جاء في هذه السورة كان تفصيلاً جديداً لا من حيث الموضوع فحسب بل من حيث بعض المفردات كذلك. كما رأينا في أول القصة. وعلى سبيل المثال ذكر في سورة الصافات ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ عقب ذكر البنيان الذي أرادوا أن يجعلوه بأسفله، وذكر هنا «الأخسرين» بعد محاولتهم نصر آلهتهم. وذكر هناك ما أكرمه الله به من إسماعيل وخبر الفداء، وذكر هنا ما أكرمه الله به من إسحاق، وهكذا لكل قصة نسقها.

والخلاصة التي ينبغي أن نقررها، ومعنا كل المنصفين، هي أن أمر التكرار بعيد كل البعد، وتلك هي الآيات التي ذكرت في هذه السورة:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٣].

١٢- **ثم تأتي سورة العنكبوت** بعد ذلك، وهي آخر السور المكية التي تحدثت عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان الحديث فيها عما كان بينه وبين قومه وبينه وبين الملائكة بإيجاز، وسورة العنكبوت سورة الدعاة ـ كما قلت من قبل ـ ولذا فإن الحديث فيها يأتي على سبيل الإيجاز والعناية بالقضايا الكلية التي تهم الدعاة إلى الله... وقد رأينا فيما مضى أن قصص الأنبياء تكون موجزة مجملة في السور الأخيرة التي ذكرت فيها هذه القصص، رأينا ذلك واضحا مثلا في قصة آدم عليه السلام وقد ذكرت آخر ما ذكرت في سورة الكهف، وفي قصة نوح عليه السلام التي ذكرت آخر ما ذكرت في سورة العنكبوت... إلا أن الذي يلفت النظر هنا أن السور السابقة كانت تحدثنا عن جانب من جوانب قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وإذا كان قصص الأنبياء الذي مرّ معنا ليس له إلا جانب واحد، وهو ما كان بينهم وبين أقوامهم فإن الحديث عن إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام تكتنفه جوانب كثيرة مهمة، فتارة يكون عما بينه وبين أبيه وقومه، وتارة عما جرى بينه وبين الملائكة حينما جاؤوا مبشرين وهم في طريقهم إلى قوم لوط عليه السلام، وتارة كان الحديث عما جرى بينه وبين ابنه في شأن الذبح ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وتارة كان حديثا عن صفاته وخصاله وشكره بعد أن عرفنا الكثير عن صبره، وستأتي جوانب أخرى في السور المدنية إن شاء الله... أقول الذي يلفت النظر ويثير الاهتمام أن سورة العنكبوت حدثتنا عن جانبين اثنين من جوانب العبرة في قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا عجب فهي سورة الدعاة كما قلت ـ كان الجانب الأول: عما كان بينه وبين قومه. وكان الجانب الثاني: عن مجيء الرسل من الملائكة[(١)].

تحدثنا الآيات في الجانب الأول: أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر قومه أن يعبدوا الله ويتقوه، وهذه إشارة يحرص الأنبياء أن يبينوها لأقوامهم؛ ليدركوا أن التدين

(١) وهذا يتناسب مع شخصية السورة وموضوعها فهي إذ تبين ما تحمله الأنبياء وما ينبغي أن يتحمله الدعاة ورثتهم تبين النتائج الطيبة التي يكرم الله بها هؤلاء الأنبياء وأولئك الدعاة.

الحق لابد له من إصلاح الظاهر والباطن، ولما كانت العبادة أمرا ظاهرا يمكن أن يدعيه كثير من الناس كان لا بد من أمر آخر يكون ثمرة لهذه العبادة، وهو التقوى فكثير من أولئك الذين يتظاهرون بالعبادة بعيدون كل البعد عن أن يكونوا متقين، ولعل في الأحاديث الكثيرة لسيدنا رسول الله ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ التي تبين لنا أن المفلس من هذه الأمة من يأتي بصلاة وصيام وزكاة، وأنه كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش، وأن هناك أناساً يأتون بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء يجعلها الله هباء منثورا، مع أنهم يقومون الليل، إلا أنهم قوم إذا خلوا إلى محارم الله انتهكوها.

ثم يبين إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه أن ما يعبدونه من دون الله ليس إلا أوثانا وأنهم إنما يفترون كذبا في هذه العبادة... فهذه الأوثان لا تملك لهم رزقا فحري بهم أن يطلبوا الرزق من الله، وأن يعبدوه ويشكروا له نعمه، أما إن اختاروا التكذيب فليسوا بدعا من الأمم فقد كذبت من قبلهم أمم كثيرة وليس هو بدعا من الرسل فقد كذبت من قبله رسل كثيرة، وهو كغيره ممن سبقه من الأنبياء ليس عليه إلا البلاغ ويذكرهم بالبعث، وأنهم إلى الله وحده سيرجعون، وأن هذا البعث ليس فيه شيء من الصعوبة فالذي بدأ الخلق هو الذي سيعيده، والذي كان قادراً على البداية الأولى لا تصعب عليه النشأة الآخرة، ولا بد من هذا البعث ليأخذ كل إنسان ما يستحقه من عذاب أو ثواب، والناس ليسوا معجزين في الأرض ولا في السماء إن استطاعوا أن يصعدوا إلى الجو والذين يكفرون بآيات الله وينكرون هذا البعث أولئك هم الذين يئسوا من رحمة الله، فلهم ما لهم من العذاب والنكال.

ثم يبين إبراهيم عليه السلام لقومه قضية مهمة، وهي لا تقل أهمية عما سبقها من القضايا ذات الحيوية والحساسية التي ينبغي أن يذكرها الدعاة دائما، هذه القضية التي يبينها إبراهيم عليه السلام أخيراً لقومه هي أن هذه الأوثان التي اتخذوها من أجل أن تكون رباطا لهم يربط بعضهم ببعض، ومن أجل أن تجعل المودة بينهم في هذه الدنيا،

وكذلك أنصار الباطل في كل زمان ومكان يجدون في باطلهم الرابط الذي يشد بعضهم إلى بعض. . . وهذا ما نجده في واقعنا الذي نحياه، ينبه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قومه إلى أن هذا الباطل الذي اجتمعوا عليه رجاء أن يجمع شملهم سوف يزول ويتبدد ويتلاشى؛ لأنه ليس له أساس ولا حقيقة وسيكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضا دون أن يجدوا ناصراً ينصرهم. . .

ويحدثنا القرآن الكريم أنه على الرغم من كل هذه العظات، على الرغم من هذه الدروس والحجج إلا أن قومه لم يزيدوا على أن قال بعضهم لبعض اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار، وفي ذلك آيات عظيمة لأولئك الذين ثبتوا على الحق، فإيمانهم متجدد دائما، وتجدد الإيمان أمر لا بد منه للدعاة إلى الله، وفي الحديث[1] عن سيدنا رسول الله ﷺ «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق فسلوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم» هذا ما تشير إليه الآية ﴿لقوم يؤمنون﴾.

وتحدثنا الآيات أنه آمن له لوط عليه السلام لم يؤمن غيره وبعد أن يئس من قومه ولم يؤمن له إلالوط، قال ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ [العنكبوت: ٢٦] وهاجر بعيداً عن قومه، وأكرمه الله بما وهب له من ولد وحفيد، وأكرمه الله بما جعل في ذريته من نبوة وكتاب، وأكرمه الله بالأجر العظيم في الدنيا وبالجزاء العظيم في الآخرة.

أما الجانب الآخر من قصة إبراهيم عليه السلام الذي حدثتنا عنه سورة العنكبوت فهو جانب موجز كذلك، وكل من الجانبين له أهميته في حياة الدعاة إلى الله، هذا الجانب هو ما كان بين إبراهيم وبين الرسل من الملائكة وتشير إليه الآيات إشارة سريعة بهذه الآية الكريمة ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢] هكذا بهذا الإجمال والإيجاز التام

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٥.

يذكر هذا الجانب في هذه السورة الكريمة فما هي البشرى؟ لقد مر ذلك من قبل، ولكن هنا شيئاً آخر، وهو الدفاع عن لوط عليه السلام ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وتطمئنه الملائكة بأنهم يعلمون ذلك وسينجى لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته.

ونجد أن ما حدثتنا به سورة العنكبوت كان جديدا لا من حيث الموضوع فقط، بل من حيث الجزئيات، والقضايا التي ذكرت في هذه السورة الكريمة وهذه هي الآيات الكريمة:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧].

ذلكم هو حديث السور المكية عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

حديث القرآن المدني عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

ثم يأتي دور السور المدنية، فنجد فيها إشارات متعددة قد تطول وقد تقصر، ولكنها في مجملها تشمل موضوعات ثلاثة:

الأول:ـ بناء إبراهيم للبيت العتيق، وما يتصل بذلك من دعواته لهذه الأمة.

الثاني:ـ تبرئته ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أن يكون يهودياً أو نصرانياً.

الثالث:ـ براءته صراحة من أبيه بعد أن تبين له ما تبين من شركه.

هذا مع بعض الأمور التي تتصل بالعقيدة والدعوة مما ستعرفه إن شاء الله.

ونجد أن هذه الموضوعات الثلاثة تقتضيها طبيعة العهد المدني؛ لأنها ذات صلة مباشرة بما كان بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الكتاب، كما أنها ذات صلة مباشرة بتحويل القبلة، وهي كذلك ذات صلة مباشرة بالتأكيد على نوع العلاقة التي ينبغي أن تكون بين المؤمنين وبين أقربائهم وذويهم إذا اختار أولئك الأقرباء الكفر على الإيمان، ومع هذا كله نجد أن شائبة التكرار منتفية انتفاء تاماً، بعيدة كل البعد وإليكم البيان:ـ

١ - حدثتنا **سورة الحج**، وسورة الحج مختلف في مكيتها ومدنيّتها حدثتنا السورة أن الله أكرم إبراهيم عليه السلام فبوأ له مكان البيت، وأمره أن يعبده وحده وأن يطهر بيته للطائفين والقائمين والركع السجود، وأن يؤذن في الناس بالحج.

هذه الإشارة التي اكتفت بها سورة الحج ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

وإذا أخذنا بالقول الذي يذكره الكثيرون من أن سورة الحج نزلت بعد سورة البقرة تكون هذه إشارة موجزة على عادة القرآن ـ كما رأينا من قبل ـ حينما تذكر القصة في سورتها الأخيرة، وتكون سورة البقرة هي السورة الأولى التي حدثتنا عن هذا الجانب؛ جانب بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق.

٢- والحديث في **سورة البقرة** عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتلاءم مع موضوعها، وسورة البقرة ـ كما عرفنا من قبل ـ هي أطول السور، وأكثرها علما، وأحكاما، لذلك وردت في فضلها أحاديث كثيرة، وقد ذكر الأئمة أن ابن عمر رضي الله عنهما مكث سبع سنين في تعلم هذه السورة الكريمة؛ هي كبرى الزهراوين، وهي سورة التكاليف والأوامر.

ومن هنا جاء الحديث عن إبراهيم عليه السلام يتلاءم مع موضوع السورة، فقد بينت لنا أول ما بينته أن الله تبارك وتعالى اختبر إبراهيم عليه السلام وابتلاه بأوامر ونواه فقام بحقهن وأتمهن، فاستحق أن يكون إماماً ويسأل ذلك لذريته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكن الله تبارك وتعالى يبين له أن ذلك الشرف لا يكون للظالمين الخارجين عن الحق.

وتتحدث الآيات عن البيت، وكيف أن الله جعله مثابة للناس وأمنا يرجعون إليه، ويأمنون عنده، وخصه بآيات فليتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وأن الله عهد إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام أن يطهرا هذا البيت للطائفين، والعاكفين، والركع السجود، وأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سأل ربه أن يجعل هذا البلد آمنا، وقد مر معنا في سورة ابراهيم قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ [ابراهيم: ٣٥] حيث ذكر البلد معرفا أما هنا فقد جاء النص هكذا.﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا﴾ [البقرة: ١٢٦] ولعل السبب ـ والله أعلم ـ أن ما ذكر في سورة إبراهيم كان إبراهيم عليه السلام قد دعا به بعيدا عن مكة قبل أن يصلها، ولعله حينما أمر أن يتوجه إليها مع ابنه اسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وذلك بدليل قوله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أما ما ذكر في سورة البقرة ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ فكان منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو في مكة نفسها، وذلك بدليل قوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] هذا الذي يبدو لي والله أعلم وهناك أكثر من قول في هذا ذكر في كتب

التفسير، فليراجعها من شاء[1] وكتب المتشابه اللفظي في القرآن ككتابي البرهان في متشابه القرآن للكرماني وملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير.

ويسأل ربه كما أكرم أهله بالأمن أن يمن عليهم بالرزق كذلك من الثمرات.

وفي سورة إبراهيم ذكر الزرع هناك على أن هنا قضية حرية بالمعرفة، جديرة بالتأمل، لا بد من التنبيه عليها والإشارة إليها، وهو أنه جاء في سورة إبراهيم ﷺ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وجاء في سورة البقرة ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ما أعظم شأن هذا القرآن، وما أجدر الخلق أن يتعلموا منه، ندرك ونحن نتدبر الآيتين الكريمتين أنهما اشتركتا في امر، وانفردت كل منهما في أمر آخر، أما الأمر الذي اشتركتا فيه فهو الأمن ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ في ابراهيم ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ في البقرة. وأما ما انفردت به كل آية، فآية ابراهيم جاء فيها ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فهو أمر العقيدة وإخلاص التوحيد لله. وأما سورة البقرة فذكر فيها ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

هذه أمور ثلاثة؛ الأمن ذكر في السورتين، وما ذلك إلا لأن الأمن أمر أساسي جوهري في الحياة، لابد منه حتى يستطيع الإنسان أن يحيا ليجد لذة الروح في عبادته، ولذة الرزق في طعامه وشرابه؛ ولذا ركز القرآن الكريم على الأمن كثيراً ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾[النحل: ١١٢]؛ لذا كانت دعوة الخليل ﷺ أولا وقبل كل شيء: الأمن في الآيتين الكريمتين.

ثم ذكر أمر العقيدة في الآية الأولى وهو الجانب الروحي الذي لا بد منه لهذا الإنسان، ليذوق طعم السعادة، ولتكون زاده إلى الآخرة. أما في الآية الثانية فكان مع الأمن الرزق وهو الجانب المادي الذي لابد منه للإنسان في حياته الدنيا التي هي مزرعة للآخرة، فانظروا إلى هذا الترتيب البديع.

---

(١) ينظر درة التنزيل ص٢٩.

وإلى هذا العمق الصائب والحكمة في فقه أبي الأنبياء؛ الأمن أساس في الآيتين الكريمتين، ثم جوهر الروح وبعده مستلزمات المادة. وصدق الله. ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الانبياء: ٥١].

ثم تحدثنا الآيات عن كيفية بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام للبيت وهو حديث اختصت به وأكرمت به سورة البقرة، وهما يرفعان القواعد يدعوان الله أن يتقبل منهما فهو السميع العليم، وأن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما كذلك، وأن يعلمهما مناسكهما، وأن يبعث في الأمة رسولا منهم يتلو عليهم الآيات، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ويستجيب الله دعاء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ثم تبدأ الآيات في حجاج أهل الكتاب فهذا هو إبراهيم عليه السلام الذي أسلم لله رب العالمين، والذي وصى بنيه جميعا بكلمة التوحيد:ـ

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٦-١٣٣].

٣- وتحدثنا **سورة آل عمران** بإشارة موجزة عن أن أول بيت وضع للناس، لهو هذا البيت العتيق الذي ببكة مباركا، وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم، ومن دخله كان آمنا.

الموضوع الثاني: تبرئته من أن يكون يهوديا أو نصرانيا:

أما الموضوع الثاني فنجده في كثير من الآيات في سورة البقرة مثل قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقوله سبحانه ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقوله سبحانه ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ومثل قوله في سورة النساء بعد قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾ [النساء: ١٢٣] يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] كما تحدثنا سورة الحديد عن إرسال الله نوحا وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام وجعله سبحانه في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ثم تذكر السورة بعد ذلك خبر أهل الكتاب وما ابتدعوه واستحدثوه.

أما الموضوع الثالث وهو براءته ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المشركين بعامة وأبيه بخاصة فنجده في سورتين اثنتين من السور المدنية إحداهما:

١- سورة **الممتحنة** وهي التي نهي فيها المؤمنون أن يتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء، وللسورة سببها وهو ما جرى قبيل فتح مكة من أحد الصحابة(١) رضي الله عنهم ويأتي ذكر إبراهيم عليه السلام في هذا المقام متسقا مع ما جاءت السورة من أجله:

(١) حديث حاطب بن أبي بلتعة يراجع في كتب السنة.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٤-٥].

٢- وأما السورة الأخرى، فهي سورة **براءة**، وهي السورة التي ذكر فيها المنافقون، وما كان من استغفار المؤمنين والنبي لهم، فتذكر السورة نبأ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

ونجد ما جاء في سورة براءة ليس هو ما جاء في سورة الممتحنة؛ لأن سورة الممتحنة تبين أن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار مع أنه لا يملك له من الله شيء، ولكن سورة براءة بينت لنا أنه تبرأ منه بعد أن تبين له ما تبين.

وهناك قضيتان أشارت إليهما سورة البقرة بآيتين اثنتين؛ وهما دالتان على رشد إبراهيم -عليه السلام- دلالة بينة ظاهرة.

أما **القضية الأولى** فقد جاءت بهذا الأسلوب الدال على التعجيب: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهذه الجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ كثيرا ما تذكر في كتاب الله تعالى، تقريرا وتعجيبا، وهذا الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه وقد آتاه الله الملك فكان حرياً به أن يشكر لا أن يكفر؛ قيل إنه نمرود، والقرآن لم يذكر اسمه؛ لأن القرآن إنما يُعنى بموطن العبرة فحسب، قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وهو يصدع بالحق أمام هذا الظالم ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ولكن ذلك المتغطرس الأحمق قال أنا أحيي وأميت، ومثل هذا ليس غريبا على أولئك الذين منعوا الهداية،

وأحاطت بهم الغواية، وما أكثر ما يلاقي الدعاة إلى الله من أمثال أولئك، وهم يعذبونهم، ويقولون لهم أين الله الذي تؤمنون به؟ لم لا يأتي لينقذكم؟ وأين نبيكم؟! آدعوه ليخفف عنكم، قالها ذلك الصليبي الحاقد وهو يحكم الكرك في أيام صلاح الدين ـ رضي الله عنه - فأقسم صلاح الدين ـ رضي الله عنه - أن يقتله، وبر بقسمه وكانت معركة مشهودة من يوم الجمعة في السابع عشر من ربيع الثاني سنة ٥٨٤.

ولا زالت تقال اليوم ولكن ممن يسمون مسلمين، قال أنا أحيي وأميت؛ لقد غره ما أعطيه من ملك وقوة، وهنا يكمل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حجته فيقول: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] قال صاحب المنار «فهذا إيضاح لقوله الأول وازالة لشبهة الخصم، لا أنه جواب آخر، والمعنى أن ربي الذي يعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته، هو الذي يطلع الشمس من المشرق، أي هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نشاهدها عليها، فإن كنت تفعل كما يفعل فغير لنا نظام طلوع الشمس وأئت بها من الجهة المقابلة للجهة التي جرت سنته تعالى لظهورها منها ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾ اي ادركته الحيرة وأخذه الحصر من نصوع الحجة وسطوعها فلم يحر جوابا. . . .

من فهم الاية على الوجه الذي قررناه يعلم أن لا محل للشبهة التي يوردها بعض الناس على حجة ابراهيم عليه السلام، وهي أنه كان لنمرود ان يقول له إذا كان ربك هو الذي يأتي بالشمس من المشرق وهو قادر على ما طالبتني به من الإيتان بها من المغرب فليأت بها يوما ما. قال بعض المقلدين ولا يمكن أن يسأل ابراهيم عليه السلام ربه ذلك؛ لأن فيه خراب العالم، وقال بعض المرتابين إنه لو قال له نمرود ذلك لألزمه. وقد فهم نمروذ على طغيانه وغروره من الحجة مالا يفهم هؤلاء القائلون، فهم أن مراد إبراهيم أن هذا النظام في سير الشمس لابد له من فاعل حكيم، إذ لا يكون مثله

بالمصادفة والاتفاق، وان ربي الذي اعبده هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قضت حكمته بأن تكون الشمس على ما نرى ومن فهم هذا لا يمكن أن يقول اطلب من هذا الحكيم أن يرجع عن حكمته ويبطل سنته، كذلك لا محل لقول بعضهم لم سكت إبراهيم عليه السلام عن كشف شبهته الأولى، إذ زعم أن ترك القتل إحياء، فقد علمت أن مسألة الشمس قد كشفت ذلك انكشافا لايخفي إلا على من تخفى عليه الشمس»[1].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨] وما أروع ما ختمت به الآية الكريمة.

أما **القضية الثانية**؛ فهي في قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الذي نعجب منه. بل نرده ونرفضه، أن نجد بعض الكاتبين[2] المحدثين يفهم من هذا أن إبراهيم كان شاكا؛ فأراد أن يذهب هذا الشك، وإنما نعجب حقا لأن هذا الكاتب ليس غريبا على أسلوب القرآن، فلقد كتب كثيرا حول القرآن الكريم، وكان يكفيه أن ينظر في أسلوب الآيات قبل أن يقرر ما قرر، أو أن يكتفي بهذه الآية وحدها فهي كافية إن أراد، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يطلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى، ويقول أولم تؤمن وهو يعلم إيمانه سبحانه، ويقول إبراهيم عليه السلام (بلى)، وهذه الكلمة ـ كما نعلم ـ تدل على الإيجاب، أي: «بلى قد امنت» ولكن ليطمئن قلبي؛ ولعل هذا الذي حمل الكاتب على ان يقول ما قال؛ لكنه ـ رحمه الله ـ غفل عن أشياء كثيرة، فنحن نعلم أن الله تبارك وتعالى قد أرى ابراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض، ليحاج قومه، وليكون من الموقنين هذا **أولاً**.

وأما **ثانياً**؛ فإن طمأنينة القلب لا تعني الشك والارتياب، ونحن إذا استعرضنا بعض الآيات التي ذكرت فيها الطمأنينة نجد أن الذين نزلت فيهم لم يكونوا شاكين أبداً،

---

(١) المنار (٣/ ٤٧).

(٢) هذا ما كتبه صاحب القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه.

فمثلا قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وهذا خطاب للرسول ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ وللمؤمنين الصادقين، أفيمكننا أن نتهم أولئك بالشك. إن قضية الطمأنينة لاتدل من قريب ولا بعيد على شك يساور النفوس أو ينسول للقلوب.

وأما ثالثاً: فنحن نعلم أن الإيمان يمكن أن يزيد أو ينقص من جهات ثلاث والذي يهمنا إحدى هذه الجهات، وهي الأدلة؛ فكلما كانت الأدلة أكثر ظهورا، وأقوى تأثيرا، كلما ازداد إيمان صاحبها، «ما راءٍ كمن سمع» وشتان بين علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فكل الذي أراده إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يرى هذا الدليل معاينة؛ ليطمئن قلبه به طمأنينة معاينة ومشاهدة.

رابعاً: ومما يشهد لذلك خير شهادة، شهادة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام «والله أكبر شهادةً» في مثل قوله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] ثم شهادة النبي ـ ﷺ فقد جاء في الحديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»(١) يا للروعة! وياللعظمة!، عظمة النبي ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إنه نفي بحزم وقوة للشك عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول النبي الكريم: «إن كان إبراهيم شاكا فنحن أولى بالشك منه ومع ذلك فنحن لم نشك أبداً فمن الأحرى والأولى أن لا يشك إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا أدري كيف يغيب كل ذلك عن أولئك الذين يسمحون لأنفسهم أن يتهموا إبراهيم عليه السلام بالشك، ولو أن الله تعالى علم شكا من إبراهيم عليه السلام لعاقبه، أو عاتبه، ولكنه مع ذلك يكرمه ويجيبه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي ضمهن واجمعهن، وإنما أمر بذلك حتى يعرف

---

(١) أخرجه الإمام مسلم/ صحيح مسلم بشرح النووي، جـ٢ ص١٨٣، كتاب الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الآيات.

أشكالها وأحجامها وصفاتها، ثم أمر أن يجعل على كل جبل منهن جزءا بعد أن يذبحهن أو يقطعهن، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] والمفسرون مجمعون على أن إبراهيم فعل ذلك، ثم دعاهن فجئنه يسعين، ولكن القرآن الكريم لم يشر إلى ذلك صراحة، ويلوح لي خاطر في النفس، وهو أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، قد يكون فعل ذلك، وقد تكون الثانية؛ أي أنه لم يفعله. ونحن وإن كنا لا نجزم بواحدة، إلا أننا لا نرى بأسا، ولا نرى مانعاً من أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يفعل ذلك استحياء من الله تبارك وتعالى، ورجوعا عما طلب، لا نهدف بذلك أن نخالف المفسرين، ولكن نرى أن ذلك غير مستبعد والقرآن لم يبين ذلك ويغلب على الظن أن النبي عليه السلام لو فعل ذلك لبينه القرآن ويبقى الأمر أولا وآخرا لله تبارك وتعالى.

هذه هي قصة إبراهيم في كتاب الله تعالى، شجرة مباركة ذات فروع باسقة، كل فرع له ما يخصه من الثمر، وهكذا رأينا هذه القصة لأبي الأنبياء، كأنما تفرعت عنها أخبار الأنبياء جميعا الذين كانوا من ذريته ـ عليهم الصلاة السلام ـ، ولا عجب؛ فهو الأصل، ومع ما في هذه القصة من جوانب متعددة انتقلنا من خلالها بين هضاب عالية لا يتسلقها إلا أصحاب القوة وذوو البأس، وكذلك شأن المؤمنين، كما تنسمنا من خلالها النسيم الطيب الذي يفوح عرفه وشذاه، وتفيأنا ظلالا عديدة، فمن شدة في الحق، وعنف على الباطل إلى ثبات في الأمر وعزيمة على الرشد، مع صبر وشكر، وحجة في القول وأسوة في العمل، ودفاع عن المؤمنين، مع كرامات ربانية يزين ذلك كله أسلوب قرآني أخاذ جذاب، ومع ذلك فكل آية في موضعها، وكل قصة في سورتها التي تتفق مع موضوعها ما بين إجمال وتفصيل، دون شبهة ترديد أو شائبة تكرار ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] تبارك الله رب العالمين.

ثانياً: تعقيب على قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

هذه هي الإنسانية، وقد قاربت أن تبلغ أشدها، وتستكمل رشدها، كيف لا، وها هي رحمة الله تعم هذا الكون بأبي الأنبياء، وشيخ الحنفاء، إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام وإذا كان الحديث عن إبراهيم عليه السلام فيما مضى متعدد الجوانب؛ فإن ما يمكن أن نعقب عليه من خلال ما مضى مستلهمين مستنتجين لابد أن يكون كذلك.

والحق أن شخصية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانت طرازاً جديدا، فهي نبع معين لا ينضب لما تحيى به القلوب، ولذلك لا نعجب إذا سمعنا سيدنا رسول الله ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ يقول عن نفسه بأنه أشبه الناس بأبيه إبراهيم.

رقته ورأفته مع أبيه:

ومن خلال ما عرفناه رأينا هذه النجوم الزهر ذات الفخامة والقدر التي تضيء جوانب الحياة المتعددة؛ رأيناها تظهر في شخصية هذا النبي الكريم نمطا جديدا في حياة الناس.

بعض الناس يكون ذا عاطفة مشبوبة متقدة عطفا ورحمة، وبعضهم يكون ذا منطق قويم، وبرهان ساطع، وحجة واضحة؛ تبدد كل مافي طريقها من شبهات وبعض آخر يكون ذا قوة وشكيمة، ونمط رابع يمتاز بالصبر، وخامس: يكون من أبرز صفاته ما من الله به عليه من جود، وأكرمه به من سخاء وبذل. وأبونا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجمع ذلك كله، وأكثر من ذلك مع قوة يقين، وبشاشة إيمان، وصلته بربه خير صلة وأكرمها وكذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ فلا عجب فهو خير ابن لخير أب. ولعل مما يلفت النظر أولا ما وجدناه من إبراهيم الابن عليه السلام وها هو لا يترك مدخلا من المداخل يمكن أن يتلطف من خلالها حتى يزحزح أباه عما هو فيه من شرك، ولعل ما قصه القرآن علينا مما ذكرناه آنفا خير دليل على هذه العاطفة التي تتأجج في نفسه بهذا المنطق الذي يتدفق رقة، ويترقرق صفاء ويمتلىء وفاء وينضر رواء ويتفتق حياء:

﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢] ثم يترقى بعد ذلك، وفي كل مرة يبدأ بعبارة الحنو ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣] ومما ارتكز في الطبائع أن الناس لا يرضى واحدهم أن يكون من هو خير منه ـ اللهم ـ إلا ابنه.

موقفه مع أبيه وابنه:

ومن هنا فلقد عمد ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى هذا الأسلوب مع أبيه، ثم نجده مرة ثالثة يأتيه من جانب آخر: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [مريم: ٤٤] ومرة رابعة: يظهر من خلالها الإشفاق ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [مريم: ٤٥] ومع قسوة الأب فإننا نجد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام - لا يزيد على أن يقول لأبيه ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧] وبمقابل هذا نجد صورة أخرى، لاتقل روعة، إن لم تزد والآباء يجدون استمرارا لهم في الأبناء. وإبراهيم المشفق على أبيه نجده في هذا الجانب الآخر يقف من ابنه موقفا آخر. فها هو يلقيه ليضع السكين على عنقه كما تذبح الشياه، وذلك لرؤيا رآها في نومه كان يمكن أن يتأولها، وهو الذي عرفناه من قبل تتجلى الرحمة فيه وهو يجادل عن قوم لوط، ولكنه أمة منّ الله عليه بالرشد. ذلكم هو إبراهيم الابن والأب.

صفاته عليه الصلاة والسلام:

أما جوده وكرمه، فلا أدل عليه مما عبر به القرآن الكريم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات: ٢٦] ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩] وأما بشاشته ولين معاملته، فلا أدل عليها من التحية التي رد بها على أضيافه حيث كانت خيرا من تحيتهم. وإذا كانت تلك جوانب شخصيته، ومع أننا لا يمكن أن نفصل بين الجانب الشخصي وبين جوانب الدعوة إلى الله، إلا أن الذي ينبغي أن نقف عنده تلك الدروس القيمة الرائعة التي يمكن أن نفيد منها في جانب الدعوة إلى الله. ويمكن أن تكون القاعدة التي ننطلق منها، من ذلك ما وصف الله به ابراهيم خليله ـ عليه الصلاة والسلام ـ،

من أوصاف، وذلك في قوله تعالى ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥] وقوله ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١] وما منّ الله به حين أراه ملكوت السماوات والأرض. فلقد كان ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يضرب المثل، فهو يدعو إلى الله بكل ما منحه من وسائل وما أصدق قول الله ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾. لقد كان يحارب المنكر بكل الآلات والجوارح، وإذا كان المنكر ينبغي أن يغير باليد أو باللسان، فمن لم يستطع فبقلبه؛ فإن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يغير المنكر بهذه جميعاً مع قوة، ودون ضعف، فهاهو يعلن سقمه من عبادات قومه الباطلة وهو سقم القلب بغضاً لما يفعل أعداء الله، وهاهو ينتهز الفرصة؛ ليحطم المنكر بيده كذلك، فها هو يسرع لتحطيم الأصنام ضرباً باليمين فيجعلهم جذاذاً، ذلكم هو عمل القلب واليد عند إبراهيم عليه السلام.

ويبقى بعد ذلك ما هو حريٌّ بالتأمل، وهو ذلكم المنهج الذي انتهجه إبراهيم عليه السلام، وهو يدعو إلى الله؛ ـ ويعلم الله أن ذلك يحتاج إلى مُؤَلف على حدة ـ لقد وجدناه لا يضيع أيَّ فرصة تسنح له، وإنما هو ينتهزها ليقيم بها الحجة على قوم كان العناد واللجج وتقليد الآباء أبرز ما لهم من صفات، ومثل أولئك بحاجة إلى لسن ورشد، وبصر ومعرفة، وثبات وحزم. ولقد منَّ الله على إبراهيم عليه السلام فأكرمه بذلك كله. ها هو ينتهز مجيء الليل ليقف مع بزوغ الكواكب والقمر، ويستغل مجيء النهار ليقف مع بزوغ الشمس. ويخلص من ذلك كله لإبطال حجج القوم بمنطق تتضاءل أمامه براهين الفلاسفة، ثم لا يكتفي بهذا، وها هو يرد على قومه كل ما حاولوا أن يقيموه عليه من حجج ـ وما هو إلا اللجج ـ يخوفونه بأصنامهم فينكر ساخراً «كيف تخوفونني بالباطل ولا تخافون الله الحق»، وها هو يلزم خصمه الحجة، حينما ادعى أنه يحيي ويميت ـ كما مر معنا من قبل ـ . . . ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والذي يتتبع خبره ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدرك ما منَّ الله به عليه من هذه المنن، قوة الحق، ترتكز على الرشد واليقين والمنطق. ولنأخذ موقفين مما كان بينه وبين قومه؛ لنرى أي رشد ذلكم الذي أكرمه الله به: ها هو يحاج قومه، وهو ينهاهم عن عبادة الأصنام؛ لأنها لا تسمعهم إذ يدعون، ولا تنفع ولا تضر. ها هو يجليٍّ لهم هذه الحقائق التي هي غاية في فقه الدعوة، يقول لهم: إن الذي تعبدونه من دون الله إنما هي أوثان، وأنتم مفترون بهذه العبادة. هذه الأصنام لا تملك لكم رزقاً. فهو يشير لهم إلى قضية حساسة ذات شأن، وأمر الرزق يشغل الناس أكثر من غيره، ولكنه لا يكتفي بذلك؛ فهاهو يزيد هذا المعنى تفصيلاً، هو يعلن لهم أن هذه الأوثان التي اتخذتموها مودة بينكم في الحياة الدنيا هي التي جمعتكم على الباطل، ولقد رأيتم فيها رابطة لكم مع أنها لا تصلح لذلك، إن مثل هذه الإشارات بحاجة إلى درس وتأمل، ونحن نجد أن أعداء الإسلام يجتمعون من كل صوب، لا شرقاً وغرباً فحسب، يجتمعون وهم يحاولون أن يختلقوا أي أمر يجمعهم لينطلقوا منه لعداء الإسلام والمسلمين. إن ما ذكره القرآن عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر خطير لا ينبغي أن نتجاوزه فنمر به، لا أقول مرور الكرام؛ لأن مرور الكرام إنما هو عما لا خير فيه ولكن أقول مرور الغافلين.

أما الموقف الثاني: فنختاره من مواقف أبي الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حينما حطَّم الأصنام وقد أقسم على ذلك وبر بقسمه، ولكنه انتهز الوقت الذي يُمَكِّن فيه مما أراد، وما أكثر من يخطىء التقدير!، إذ لا يحسن تخير ما يريد أن يفعل من حيث الزمان أو المكان أو غيرهما فيسيء أكثر مما يحسن، لقد أحسن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام اختيار الوقت الذي يبر فيه بقسمه، ونذكر ونحن نقرر هذه القضية ما كان من ذلك الغلام الذي جاء خبره عن النبي ﷺ في صحيح الإمام مسلم[1]، هذا الغلام الذي حاول الملك الجبار قتله فلم يستطع؛ فدله الغلام على الطريقة التي تمكنه من فعل ذلك واختار الوقت

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢٢٩٩ حديث رقم ٣٠٠٥ - موسوعة الحاسوب.

الذي رأى أن فيه خيراً لدعوته، دعوة الحق؛ ولعله اقتدى في ذلك بأبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام، والله يلهم من يشاء ما يشاء إلى الخير.

وتتجلى الحكمة في أروع صورها في هذا الموقف، ها هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ يحطم الأصنام جميعاً؛ لكنه يبقي واحداً منها وهو كبيرها، نحن حينما نقيس الأمور بمقياسنا، وندعها لأمزجتنا فإن أول ما نقوم به تعبيراً عن السخط على الباطل وأهله، إن أول ما نقوم به أن نحطم هذا الصنم الكبير؛ لأننا نجد ذلك يشفي صدورنا ولكن صدق الله ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الانبياء: ٥١]، وقل لي ـ بربك ـ أي فطنة تلك التي أكرم بها شيخ الحنفاء!، يدع هذا الصنم الكبير وآلة التحطيم معلقة به كما يقال، ويسألون فيكون جوابه ـ عليه السلام ـ ﴿ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣] لقد كان هذا الفعل من إبراهيم جديراً به أن يحملهم على الإيمان، وقد كان، فلقد راجع القوم أنفسهم، وكادوا يرجعون عن الغي لولا عنجهية الجهل. إن الذكاء والحنكة والحكمة من الأمور الضرورية التي ينبغي أن تتوافر لأصحاب الحق حتى يكون تصرفهم صحيحاً في كل شيء، فلا يهدمون أكثر مما يبنون.

هذان الموقفان مما كان بينه وبين قومه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، رأيناهما تتجلى فيهما الحكمة مع قوة وحزم، وصدق عزيمة، ولنختر موقفين من جانب آخر، وذلك حينما جاءته الرسل بالبشرى، فماذا كان منه؟ لن نتحدث عن الجود وحسن الاستقبال، وكرم الضيافة، والمبالغة في التحية؛ فلقد تحدثنا عن هذا من قبل وإن كان التفصيل فيه يحلو ويجمل.. وإنما نستوحي موقفين ونحن نتلو الآيات الكريمة.

أما **الموقف الأول** فها هو إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يقدم الطعام إلى ضيفه وقد اختار الطعام الذي يقدمه ولكنهم لا يأكلون، فيوجس منهم خيفة؛ هكذا يقول القرآن، وللقرآن كلماته المعبرة التي لا يصلح غيرها محلها. أوجس منهم خيفة؛ ولكنه كظمها في نفسه، وحاول إخفاءها عنهم، أراد أن يتجمل بالصبر وأن يكتم كل ما يتفاعل

في نفسه وهذه رباطة جأش ـ يعلم الله ـ أحوج ما يكون لها المصلحون، ونحن نرى أن بعضهم تخور قواهم، وتنهار شخصياتهم لاقل الأسباب وأبعد المقدمات، ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي أكرمه الله في الدنيا والآخرة كان يستحق أن نصلي ونسلم عليه، ونحن نصلى ونسلم على نبينا ﷺ كان يستحق ذلك كله[1]، ونحن نستلهم منه هذه الدروس والعبر.

هذا هو الموقف الأول وإذا كان هذا الموقف نابعاً من الحكمة؛ فإنا نختار الموقف الثاني دالاً على الرحمة، وما أجمل الحكمة والرحمة، حينما لا تطغى إحداهما على الأخرى. يبشر الملائكة إبراهيم بغلام، وإذا رأينا امرأته تارة تصك وجهها؛ وتقول عجوز عقيم، وتقبل في صيحة وضجة، وتارة تقول يا ويلتا! تستغرب ذلك متعجبة، وهي تلقي ظلالاً على نفسية المرأة، حينما تتعرض لما هو غير مألوف، وما يمكن أن تحدثه من حركات وكلمات. ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يزيد على أن يقول ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، وهذا يدل على الوقار والهيبة.

أقول: لما كان ذلك كله، نجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجادل عن قوم لوط، يجادل عن أولئك الذين يعلم أكثر من غيره ما لقيه منهم ابن اخيه أو ابن عمه، ولكن الشيخ الوقور تتفجر الرحمة من جوانبه؛ فلعلهم يرجعون. هذه الرحمة التي كانت كرامة للأب، وطبيعة ثابتة في الابن، سيدنا رسول الله ﷺ، وهو يقول كلمته التي لا زالت وستبقى تنتشر أريجاً، وتسطع نوراً (اليوم يوم المرحمة)[2] وما قاله من قبل: (لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله)[3].

---

(١) اللهم صلِّ على سيدنا محمد ﷺ كما صليت على إبراهيم ﷺ وبارك على سيدنا محمد ﷺ كما باركت على سيدنا إبراهيم ﷺ.

(٢) أخرجه ابن عساكر في التاريخ ٦/ ٤٠٤ وذكره الحافظ في الفتح ٨/ ٨-٩ الطبعة السلفية.

(٣) سبق تخريجه.

وبعد هذين الموقفين هناك جانب آخر نختار منه موقفين اثنين كذلك، هذا الجانب عند بناء الكعبة، وقد ابتلاه الله بكلمات فأتمهن ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] ولكنه أراد أن يكون من ذريته أئمة كذلك ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

أما الموقف الأول، فها هو إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد سأل الله أن يجعل مكة بلداً آمناً، وأن يجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام. ها هو إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، هاهو الشيخ الكبير يأبى إلا أن يقف هو، ليبني اول بيت وضع الناس، ألم يقل الله ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] يقف هو، ويؤتى بحجر ليقف عليه يالروعة الشيخ!! حقا إنها لا تشيخ قلوب يملؤها الإيمان والحكمة والرحمة، يذكرنا هذا الموقف بما كان من أكثر الناس به شبها ـ ﷺ ـ حينما كان يبني مسجده الشريف، والبناؤون كثر؛ ولكنه يأبى ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ وقد نيّف على الخمسين إلا أن يشارك لا مشاركة شكلية فحسب(١)، وإنما يشارك مشاركة فعلية، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وسلم تسليماً كثيراً يارب العالمين، تلكم هي القدوة الحسنة.

أما الموقف الآخر فيتمثل لنا في حرص إبراهيم على الحق، وحبه لاستمرار الخير ورغبته وبذله كل إمكاناته وجهده من أجل أن لا يطغى الباطل ومن أجل أن يبقى الحق هو المهيمن. إن تفكيره ليس لعصره الذي يعيش فيه، وإنما يتسع ويمتد ليشمل تلك العصور البعيدة الآتية. ها هو إبراهيم يضرع إلى ربه ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] ثم لا يكتفي بهذا، بل يريد أن يكون له لسان صدق في الآخرين ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

---

(١) كما نجده من بعض الناس في أيامنا هذه، حيث يكون الهدف الدعاية والتهريج والتهويش.

ذلكم هو حرص إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أن تستمر أعلام الحق خفاقة وضاءة. وأذكر وأنا أكتب هذه السطور، ما كان من حرص أشبه الناس به سيدنا رسول الله ﷺ، ما كان من حرصه على أمته، بل على الناس، وما أكثر ما كان يحذرها من أن تضل بعده عن الطريق، ومن أن تنحرف عن الجادة، ومن أن يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، كان يحذرهم أن تتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، كان يحذرنا من الوهن. كان ـ ﷺ وآله وسلم ـ يحذرنا من أن نعظم الدرهم والدينار، فتعس عبد الدرهم، وتعس عبد الدينار، يحذرنا من أن نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحذرنا من أن نركن إلى الدنيا حينما تبسط علينا فنتنافسها فتهلكنا وصدق الله ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨] وما أحيلى وأميلح الحديث عن أبي الأنبياء، وخاتم الأنبياء ﷺ. ولكننا نختتم هذه المواقف التي اخترناها، بذلكم الموقف وإن كنا قد أشرنا إليه من قبل. ذلكم الموقف الذي يقف فيه الأب يحد شفرته، لا ليذبح عجلا يقدمه لأضيافه ولكن ليذبح ابنه الوحيد امتثالا لأمر ربه، وماذا يمكن للقلم أن يكتب، وماذا يمكن للكلمات أن تعبر، إي والله ما نظن ذلك ﴿يَٰبُنَىَّ﴾، سبحان الله! لقد كان من قبل يقول يا أبت حريصاً على هداية أبيه، ولكنه اليوم يقول: يا بني لا من أجل أن يرشده لأمر خفي عليه، ولا من أجل أن يمنحه منحة جاء بها إليه، وإنما ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] ياالجلال الموقف! ويالاضطراب الكون!! بل يالضجيج الملائكة! يالكل ما يمكن أن يتصوره الحس المرهف! والعاطفة الجياشة! يالتجلد الشيخ الرحيم!! الذي لم يطل مكثه مع ابنه ويالروعة الإيمان! ويالصبر الابن الذي عاش طفولته، وأيام صباه بعيداً عن أن يقبس من عاطفة أبيه ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣].

إن الموقف بحق يصور لنا ضآلة كل شيء أمام الإيمان، التضحية بكل غال ونفيس في سبيل العقيدة، هكذا نتعلم من أبي الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومن ابنه من بعده أن الدين لا يصلح له إلا أولئك الذين يجيدون فن التضحية قولا وعملا :ـ

وَلَستُ أُبالي حينَ أُقتل مُسلماً على أيِّ جنب كَان في الله مصرَعِي

وما أصيب الناس بهذا الشر وما انحسر عنهم هذا التأييد الرباني إلا حينما جعلوا الدين تكأة في حياتهم لا يخصونه إلاّ بما فضل عندهم من وقت وجهد وعاطفة، وربما مالٍ عند بعضهم. إننا لا بد أن نعطي هذا الدين زهرة ما منَّ الله به علينا، وما منحنا إياه سبحانه.

هذه بعض المواقف والجوانب في قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ـ وكما قلت من قبل ـ يعلم الله أن مؤلفا كبيرا لن يكون كثيراً على الخيِّر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، هذا فضلاً على ما سجله القرآن له من حمد وشكر للنعمة، وجزاء الشاكرين عند الله عظيم، ولا نجد أحداً مَنّ الله عليه بالمكارم، وأكرمه بالأنعم الكثيرة، فشكرها شكراً ليس قولياً فحسب؛ وإنما شكراً قولياً وعملياً معاً، فتعددت أنواع الجزاء الخير الذي أكرمه الله به من أجر في الدنيا واجتباء وهداية، وناهيك عما في الآخرة مما لا يمكن وصفه. لانجد واحداً كان له ذلك كله كما كان لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ. واذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يعرف هذا القدر لأبيه إبراهيم ﷺ، وتلك المنزلة السامقة الرفيعة فيقول ـ كما مر معنا من قبل ـ «نحن أولى بالشك من إبراهيم» إذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يعرف ذلك كله فحري بنا أن نعكف على سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما أخبر عنه القرآن الكريم؛ لنستخلص العبر التي لن نستغني عنها أبداً في جميع مواقفنا ومعاملاتنا ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ إِذْ

قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ولنستمع اليه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١] ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤-٥] ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٩] ذلكم هو دعاء إبراهيم ـ عليه الصلاة السلام ـ فما أجمله! وما اجمعه! وما أجدره من دعاء يحفظ ليدعو به الداعون. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

ونتساءل بعد ذلك كله، ما هي تلك اللبنة التي أضافها إبراهيم عليه السلام لهذا البناء المحكم... والحق أنها كانت لبنة عظيمة مميزة، كما امتاز الحجر الأسود الذي وضعه إبراهيم عليه السلام في بناء البيت، كذلك كانت اللبنة التي وضعها في بناء الإنسانية المحكم.. لقد عرفنا اللبنات السابقة، ومع مالها من خطر ودور وشأن... إلا أن اللبنة التي وضعها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا البناء المحكم كانت تمتاز، لا من حيث مساحتها فحسب، وإنما من حيث الموضع الذي وضعت فيه كذلك. لقد كانت اللبنة التي وضعها الأنبياء بعد آدم عليه السلام تختص بالشؤون المادية للإنسان من حيث تقديسه للصلات العرقية، أو بطشه وقوته أو ركونه إلى ما يجعله في ترف وبطر... ولكن اللبنة التي وضعها ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانت غير ذلك كله؛ فهي شيء جديد في حياة الإنسانية؛ إنها نعمة الرشد التي لابد أن ترقى الإنسانية إليه وتعول في تعاملها عليه؛ إنها النعيم العقلي ولذة الروح. ثم ماذا؟؟ إنه رقي الإنسان لينعم بالحجة الدامغة وأمام هذا الرشد وذلك اليقين وتلك اللذات العقلية والروحية، أمام ذلك كله

يتهاوى كل صرح من صروح المادية البغيضة. فصلة الدم ـ رأيناها ـ تتلاشى عند إبراهيم عليه السلام، وهو يتبرأ من أبيه، ويريد ذبح ابنه. أما الركون إلى القوة، والاغترار بالأمن والترف، فهما يتبددان كذلك. وها هو إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لايعبأ بوعيد قومه، وهاهم يبنون له بنياناً ليلقوه في الجحيم، وتكون الصفعة لأولئك الذين يغترون بالقوة والأمن، ويريدون به كيداً فيكونون الأسفلين والأخسرين.

إن اللبنة التي وضعها إبراهيم عليه السلام في بناء الإنسانية المحكم كانت أوسع مساحة، وأعظم أثراً، وأكثر تلاؤماً مع تقدم الإنسان. والحق أنها كانت بداية لعصر جديد وطور جديد، يؤهل الإنسانية لتصل إلى ما وصلت إليه فيما بعد.

وإذا كانت سيرة إبراهيم عليه السلام متعددة الجوانب؛ فلقد كانت اللبنة التي وضعها كذلك. فالأنبياء قبله كانوا يهددون من قِبَل أقوامهم، ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم تكن قضيته قضية تهديد وإبعاد؛ لكنهم نفذوا ما يستطيعونه فألقوه في النار؛ فكانت برداً وسلاماً. هذا جانب من تلك اللبنة التي وضعها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مضافاً إلى الجوانب التي تحدثنا عنها، إنها جوانب يشرق بها الإيمان في نفوس المؤمنين من جهة، وتتسع دائرة تفكيرهم من جهة، ويكونون أصلب في مقاومة الباطل والشر من جهة ثالثة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس والسابع والثامن

اسماعيل واسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام

حدثتنا آي الكتاب الحكيم عن هذه الثلة الطيبة والكوكبة الكريمة، حديثاً فيه الشذى الطيب، فلقد مرّ معنا قول الله تبارك وتعالى ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٨]. كما مر معنا قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]. وقوله سبحانه: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ﴾، أي على إسماعيل وعلى إسحق. وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

هذه الآيات الكريمة وغيرها، تبين لنا جميل الخلال، وطيب الخصال التي يتصف بها أولئك الذين كرمهم الله، كيف لا؟ وهم ذرية أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا ابراهيم صلى الله عليه وعليهم وعلى نبينا وآله أفضل صلاة وسلم أزكى تسليم.

وكأن هذه الصفات الطيبة تغني الكثير من غيرها عن الأنباء، حيث لا نجد في كتاب الله سبحانه وتعالى أخباراً مفصلة.

أما إسماعيل وإسحق فهم ابنا أبينا إبراهيم عليهم الصلاة والسلام وأما يعقوب فهو ابن إسحق عليه الصلاة والسلام وهذا ما ترشد إليه الآية السابقة ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ وقوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

اسماعيل ﷺ

أما إسماعيل ﷺ فهو الابن الأكبر لأبينا إبراهيم عليه السلام، وأُمه هاجر التي أهداها ملك مصر لسارة امرأة إبراهيم عليه السلام. والتي لم تكن قد أنجبت إسحق عليه السلام. ويقولون إن بين إسماعيل وإسحق بضع عشرة عاماً، وهذا ما تعترف به التوراة كذلك. فإسماعيل عليه السلام هو الولد الوحيد الذي فداه الله بذبح عظيم، ثم كانت المعجزة بولادة إسحق عليه السلام من «ساره». ولم يأتِ خبر مفصل عن إسماعيل في كتاب الله. ولكن الخبر الذي نأنس به ونطمئن إليه هو ما جاء في السنة الصحيحة عن الذي لا ينطق عن الهوى من أعطي جوامع الكلم سيدنا محمد رسول الله ﷺ وآله الصلاة والسلام. وإليكم إخوتي القراء الفضلاء ما جاء في صحيح البخاري رضي الله عنه قال: حدثني عبد الله بن محمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب السختياني وكثير ابن كثير بن المطلب بن أبي وداعة، يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير: قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بهم إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب و تتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيه حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ـ حتى بلغ ـ يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها،

وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابنُ عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت، فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بِعَقِبِهِ، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة. فإن ماهنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابيه، تأتيه السيول. فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرهُم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكه فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه من ماء، فأرسلوا جرياً أو جَرِيَّيْن فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل وجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا. فسألنا عنك فأخبرته. وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه. فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر: قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت

السميع العليم» قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»[1].

وهذا الحديث فيه علم جم، وخير كثير، يرجع إليه في شروح الحديث، في فتح الباري للحافظ ابن حجر وغيره من شروح السنة، ولقد كان إسماعيل ﷺ أبا العرب

---

(١) (المنطق) بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء، هو ما يشد به الوسط، وكان السبب في ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم، فحملت منه بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء، فاتخذت هاجر منطقا فشدت به وسطها وهربت، وجرت ذيلها لتخفي أثرها على سارة.

«دوحة» الشجرة الكبيرة (أعلى المسجد) أي مكان المسجد؛ لأنه لم يكن حينئذ بناء. (سقاء فيه ماء) السقاء قربة صغيرة وجاء في رواية (ومعها شنة) وهي القربة العتيقة.

(فجعلت تنظر إليه ويتلوى أو قال يتلبط) أي يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض (ثم سعت سعي الإنسان المجهود) أي الذي أصابه الجهد وهو الأمر المشق (سبع مرات) وكان ذلك أول ما سعي بين الصفا والمروة، (فلم تقرها نفسها) أي لم تتركها نفسها مستقرة فتشاهده في حال الموت فرجعت، وهذا في المرة الأخيرة (فقالت صه) كأنها خاطبت نفسها فقالت لها اسكتي (إن كان عندك غواث) بفتح الغين المراد به المستغيث (عينا معينا) أي ظاهرا جاريا على وجه الأرض، قال ابن الجوزي، كان زمزم نعمة من الله محضة بغير عمل عامل، (قوله لا تخافوا الضيعة) بفتح الضاد وسكون الياء أي الهلاك. (قوله فكانت أي هاجر كذلك) فيه إشعار أنها كانت تغتذي بماء زمزم فيكفيها عن الطعام والشراب.

(حتى مرت بهم رفقة) بضم الراء وسكون الفاء الجماعة المختلطون سواء كان في سفر أم لا (فرأوا طائرا عائفا) هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه (فأرسلوا جريًا) بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد الياء أي رسولا، ويطلق على الوكيل والأجير، سمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجري مسرعا في حوائجه (فألفى ذلك) وجد أم إسماعيل، وهي تحب الأنس بضم الهمزة ضد الوحشة، وبكسرها أي تحب جنسها (وتعلم العربية منهم) فيه إشعار أن لسان أمه وأبيه لم يكن عربيا. (قوله وأنفسهم) بفتح الفاء بلفظ أفعل التفضيل من النفاسة، أي كثرت رغبتهم فيه (يطالع تركته) بكسر الراء أي يتفقد حال ما تركه هناك (فقالت خرج يبتغي لنا) أي يطلب لنا الرزق (قوله عتبة بابك) كناية عن المرأة، وسماها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة لما هو حفظ الباب وصون ما هو داخله وكونها محل الوطء.

[فتح الباري (٧/٢٠٨-٢١٥)].

المستعربه، وقد تعلم العربيه من جرهم. وهي من العرب العاربة. كما كان عليه الصلاة والسلام صادق الوعد. ويكفي منه استجابته لأبيه حين قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. كما كان حريصاً على تربية أهله تربية صالحة وتنشئتهم تنشئة صالحة، فكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ومع هذه الصفات الحميدة، كان يحسن الرمي، فكانت الفروسية من شيمته.

فقد جاء في صحيح البخاري رحمه الله عن سلمة بن الأكوع[(١)] رضي الله عنه قال: مرّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان» قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله: مالكم لا ترمون» قالوا: وكيف نرمي وأنت معهم، قال النبي ﷺ: «ارموا فأنا معكم كلكم».

---

(١) سلمة بن الأكوع، كان من الذين يحسنون الرمي والجري، وحديثه مشهور «خذها وانا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع». والحديث في البخاري ٣/ ١٠٦٢ حديث رقم ٢٧٤٣/ موسوعة الحاسوب.

الفصل السابع

«إسحق» ﷺ

الولد سر أبيه، ولقد حمد إبراهيم عليه السلام ربه، أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحق عليهما السلام ودعا الله ـ وهو سبحانه سميع الدعاء ـ أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته، واستجاب الله دعوة خليله ونبيه ﷺ، فقد كان إسحق عليه السلام إماماً يدعو إلى الله على بصيرة، يحب الخير، كان الخير سجيةً من سجاياه عابداً، مقيماً للصلاة، مؤدياً للزكاة، كما نطقت الآيات الكريمة، ولم يحدثنا القرآن الكريم حديثاً مفصلاً عن إسحق ﷺ سوى ذكر الصفات الطيبة. فقد بارك الله عليه وعلى أخيه إسماعيل عليهما السلام. ولكن سيدنا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. حدثنا وهو الصادق المصدوق: أن إسحق عليه السلام بلغ الذروة، وارتقى القمة في الكرم والجود والسخاء. كيف لا؟! وهو ابن خليل الله، اختصهم الله بالبركة. فقال سبحانه مبيناً لنا ما قالته الملائكة لأمه ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. ففي صحيح البخاري رضي الله عنه. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم وأتقاهم» قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «فعن معادن العرب تسألونني» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»(١). مفارقات عجيبة. ما أتعس الأبناء الذين يخرجون عن سنن الآباء الخيّرين. انظروا أرشدكم الله وإياي إلى هذه المفارقات العجيبة، هذه سلسلة الكرم. كما يبين من أعطي جوامع الكلم ﷺ أكرم الناس إبراهيم وذريته ابنه إسحق وابن إسحق يعقوب ويوسف بن يعقوب عليهم الصلاة والسلام. وهذا الشرف العظيم، الذي ليس بعده شرف.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء حديث رقم ٣٣٧٤ الطبعة السلفية مع الفتح جـ٦/ ٤١٤.

اليهود ليسوا كأنبيائهم

ما كان أجدر اليهود أن يشرفوا به ويفيدوا منه، ولكن الأمر كان على العكس من هذا كله، فلم توجد أمة أشد بُخلاً وأشد حرصاً على الحياة وملذاتها من اليهود، وصدق الله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] وصدق الله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [البقرة: ٩٦] ولهذا قطع اليهود صلاتهم كلها من الصفوة المختارة من إبراهيم وذريته عليهم السلام لا من حيث الكرم وحده، ولكن من جميع الحيثيات الطيبة، إخلاص الدين لله، والوفاء بالوعد، وصدق العهد والرحمة والبركة، وحب الخير، وإعانة البائس وإغاثة اللهفان، كل أولئك وغيره من الصفات الطيبة، التي كانت سجايا أبينا إبراهيم، وأبنائه المصطفين عليهم السلام، قطع اليهود كل صلة لهم بها، ولقد حاولت فئة من أمتنا اليوم أن تقطع صلاتها بماضينا العظيم، لكننا نعوذ بالله أن يترسخ ذلك في هذه الأمه، كما ترسخ في يهود.

لم وصف إسماعيل بالحلم وإسحاق بالعلم ؟:

ولا بد أن أعرض هنا إلى قضية يسأل عنها كثير من الناس، تتصل بقوله سبحانه في سورة الصافات حديثاً عن إسماعيل ﷺ. ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، وفي سورة الحجر حديثاً عن اسحاق ﷺ ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وفي سورة الذاريات ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ فلِمَ وصف اسماعيل ﷺ بأنه حليم في سورة الصافات، ووصف إسحاق ﷺ بأنه عليم في سورتي الحجر والذاريات؟ وهو تساؤل جدير بالاهتمام، وسأحاول الإجابة لك عليه أخي القاريء مستمداً من الله العون، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فأقول:

إن العلم من منن الله تبارك وتعالى على أنبياء الله جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم. يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] ويقول في شأن آدم ﷺ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. ويقول في شأن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ١٥]. والآيات الكريمات في هٰذا كثيرة. فالوصف بالعلم من مقتضيات النبوة، فالنبوءة في أصل معناها إنباء وتعليم، ورفعة؛ ولذا وصف الله إسحاق ﷺ بقوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وصف إسحاق بالعلم -إذن- إيذان بنبوته، والعلم صفة يشترك فيها الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام، لٰكن هناك أوصافاً أخرى غير العلم، خص الله بها بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمنها وصف الرأفة والرحمة، خص الله بهما سيدنا محمد ﷺ في قوله ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومنها الوصف بالحلم، خص الله به نبيين من أنبيائه، إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليها وسلم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ وقال في شأن اسماعيل: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أما حلم إبراهيم فظاهر يدركه من فقه خبره، وحذق قصته في كتاب الله، وما جرى بينه وبين أبيه كافٍ لبيان هٰذا الحلم، وأما حلم اسماعيل ﷺ فأوضح من الشمس في رابعة النهار، فها هو -ولم يبلغ مبلغ الرجال بعد- يقول له أبوه ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فيجيب غير متعتع ولا متردد على الفور، ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فأيّ حلم هٰذا من غلام لم يبلغ الحلم بعد؟

إن وصف إسحاق بالعلم -إذن- بشارة بنبوته، وإن وصف إسماعيل بالحلم -إذن- يبنيه السياق الذي وردت فيه الآيات. ذٰلكم هو ما أفهمه من الآيات الكريمات، والسياق من الأسس التي لا بد منها في فهم القرآن الكريم.

ولا تلتفت إلى ما يقال من أن وصف إسحاق بالعلم يفهم منه ما يتمتع به اليهود من علم، فهٰذا الفهم يرده التاريخ والواقع، أما التاريخ فإن هٰذه الأمة هي التي تربعت على كراسي الأستاذية للدنيا كلها حقبا طويلة من الزمن؛ كانوا يحملون العلم للناس حتى في رؤوس حرابهم، العلم النافع، الممتزج بالخلق والرحمة.

وأما الواقع فهاهم العلماء المسلمون في الفلك والذرة والطب، وفي شتى المجالات المتعددة يملأون رحاب الأرض، تشهد بذٰلك المؤسسات العلمية في القارتين الأوروبية والأمريكية، وهما أكثر القارات علما. لٰكن من سوء الحظ أن الأمة لا زالت في سبات، ولما تستيقظ.

ذٰلكم هو شأن الأنبياء في إجلالهم وشأن القرآن الكريم في بيانه. وصلى الله على سيدنا إسماعيل وإسحاق وأبيهما وأبنائهما. اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

الفصل الثامن

سيدنا يعقوب ﷺ

قلت إن القرآن الكريم لم يفصل خبر هذه الصفوة المختارة إسماعيل وإسحاق ويعقوب ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وفضلا على ما ذكرته مما ورد في شأنهم في آيات كريمة وأحاديث شريفة، فإني أذكر هنا بعض ما ورد في حقه:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

ونفهم من هذه الآيات الكريمة أن إبراهيم عليه السلام وصى بنيه بالثبات على هذا الدين، وأن يعقوب عليه السلام وصى بنيه كذلك، ثم تحدثنا الآية عن شأن من شؤون يعقوب عليه السلام ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] وهذه الآية الكريمة تحدثنا عما كان يعتصر في نفسه ﷺ، ويملك عليه تفكيره، ويتفاعل في كيانه عن مصير ذريته من بعده، وها هو وهو في الرمق الأخير، وفي اللحظات التي تفصل بين الدنيا والآخرة، وقد حضره الموت يحب أن يطمئن على بنيه، ولكن لا كما يطمئن كثير من الناس من حيث حطام الدنيا، فلم يكن ذلك يدور في خلده ولا يخطر له على بال، ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣] لكن الذي كان يعنيه ويهيمن عليه، أي شيء ستحدثه ذريته من بعده، ما تعبدون من بعدي؟ وتطمئن نفسه إلى أنهم لن يخرجوا عن منارة التوحيد، العقيدة الحق، ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ ذلكم موقف تشتعل

النفوس الخيرة به وله. إنه درس تعليمي وتربوي يبين للآباء ما الذي ينبغي أن يحرصوا عليه لذرياتهم من بعدهم. ذلكم موقف من المواقف العظيمة التي سجلها القرآن الكريم ليعقوب عليه الصلاة والسلام.

موقف آخر:

وفي سورة آل عمران نقرأ قول الله تعالى ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣] ويقول المفسرون إنه كان مريضا، فنذر إن شفاه الله أن يحرم أحب الأطعمة إليه وكان ألبان الإبل ولحومها، وأياً كان المرض، وأيا كان الذي حرمه، فإن في الآية معلما عظيما ينبئنا عن عزمه ﷺ، فهو يحرم أحب الأشياء إليه، غير مبال بلذائذ هذه الدنيا، فإذا جمعنا هذا الموقف إلى الموقف الأول الذي تحدثنا عنه، فإننا نستطيع أن نستكشف الجوانب العظيمة في حياته عليه الصلاة والسلام.

وهناك جوانب كثيرة تستحق أن يدرسها الدارسون ليتعلموا منها دروس الحياة الفاضلة، فتمر بنا ونمر بها في قصة ولده يوسف عليه الصلاة والسلام، لكنني قبل أن أغادر الحديث عن هذا النبي الكريم، عَنَّ لي أمر لا بد أن أنبه عليه؛ لأن له صلة بكثير من جوانب حياتنا.

الحكمة في تسميته يعقوب واسرائيل:

فيعقوب هو ابن إسحاق، والقرآن الكريم عرفنا اسمه هذا، ولكن القرآن الكريم علمنا أن له اسماً آخر «إسرائيل» وقالوا معناه عبدالله وصفوة الله، ولقد وقفت عند هذه الآيات الكريمة التي تسميه تارة يعقوب وتارة إسرائيل، والذي أكرمني الله به ـ وهو أعلم بما ينزل ـ أن القرآن حينما يذكر إبراهيم وذريته عليهم السلام، فإنه يسميه يعقوب عليه السلام، والذي يتدبر الآيات الكريمة يجد مصداق ما أقول. ولكن عندما يكون الحديث يخص ذريته، يسميه إسرائيل، أي إذا كان الحديث عمن ولدوه يسمى يعقوب وعندما

يكون الحديث عمن ولدهم يسمى إسرائيل، ولا أرى ذلك والله أعلم إلا لتذكير بني إسرائيل القاسية قلوبهم بهذا العنوان الطيب (إسرائيل) وذلك ليلهب مشاعرهم وعواطفهم، ويصلهم بماضيهم، وهو يحدثهم عن أبيهم إسرائيل عبد الله وصفوته، فكأن في هذا الاسم ما يحفزهم إلى أن يرتفعوا من وهدتهم، فيخلصوا في عبادتهم، ويتخلقوا بأخلاق الآباء الطيبة، ذلكم ما يبدو لي في هذين الاسمين الجليلين، فإن كان ذلك حقا فإن المنة والحمد والفضل لله وحده. وسيمر معنا كما قلت بعض نبئه ﷺ في قصة يوسف ﷺ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل التاسع

قصة لوط عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر في قصة لوط منْ آيات.

١- في سورة النجم.

٢- في سورة ق.

٣- في سورة القمر.

٤- في سورة الأعراف.

٥- في سورة الفرقان.

٦- في سورة الشعراء.

٧- في سورة النمل.

الفرق في القصة بين سورة النمل وسورة الأعراف.

٨- سورة هود.

٩- سورة الحجر.

١٠- سورة الصافات.

١١- سورة الذاريات.

١٢- سورة الأنبياء.

١٣- سورة الحاقة.

١٤- سورة العنكبوت.

ثانياً: تعقيب على قصة لوط.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل التاسع

قصة لوط عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر في القصة من آيات:

لوط عليه السلام هو ذو القرابة القريبة لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فهو ابن أخيه او ابن عمه كما قيل، وهو من المقربين إليه كذلك، بل لعله الوحيد من أقربائه الذي آمن به وهاجر معه. ومساكن قوم لوط لم تكن بعيدة عن العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم أول مانزل، فهم يمرون عليها في طريقهم الى الشام في تجاراتهم وأعمالهم.

ولذلك نجد اشارات مبكرة في كتاب الله تعالى من حيث النزول تتحدث عما حل بهم، ولعلَّ في ذلك تشويقاً لكي يعرف المخاطبون ماذا كان بين نبيهم وبينهم، وهذه ـ لا شك ـ قضية تربوية مهمة فيها من التشويق ما تتشوف له النفوس، وتتهيأ لمعرفته وتستعد لتلقيه؛ لذلك كنا نجد هذه الاشارات كثيرة في كتاب الله تعالى عن الامم السالفة قبل أن يحدثنا القرآن عن أحوالهم مفصلة، فهذه اشارات مبكرة في سورتي النجم وق.

١- **ففي سورة النجم:** ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [٥٣-٥٥] وهذه الإشارات ـ بالطبع ـ تتحدث عن قوم لوط عليه السلام دون أن تذكرهم باسمهم، فهم يعرفون بهذا الاسم، وهذه الإشارة متفقة مع سورة النجم، وما أشد التلاؤم بين قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] وبين قوله ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] وقوله ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤] وان كان هناك فرق كبير بين هُوِيٍّ وهُوِيٍّ، بين هُوِيّ النجم ليسطع نوره وبين إهواء قراهم وقلبها رأساً على عقب لتكون موعظة، وما أعظم الفرق بين التغشيتين! ما غشى السدرة مما لا يعلمه إلاّ الله مخافةً وعظمةً، وما غشى قراهم من عذاب.

٢- **أما سورة (ق)** فلقد جاءت فيها هذه الإشارة تسلية للنبي ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ، وتثبيتاً للمؤمنين ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤].

ذهب البهائي الهالك محمد رشاد خليفة، إلى أن السر في ذكر «إخوان لوط» في هذه السورة، حتى يستقيم نظام التسعة عشر الذي ابتدعه، فان القافات في السورة الكريمة تنقسم على تسعة عشرة فلو أنه قيل في هذه السورة وقوم لوط لاختل هذا النظام. وقد افتتن كثير من الناس بمقولاته هذه، قبل أن تظهر حقيقته.

والحق أن كل كلمة في كتاب الله تعالى مختارة منتقاة لها سرها وبيانها، يطلع الله من شاء عليه متى شاء، وقد يحاول بعض الناس، وقد يوفق، وقد تكون الثانية الى أن يشاء الله أن يظهر السر المكنون.

والذي يبدو لي أن التعبير القرآني، له أسبابه ومسوغاته، فالأنبياء الذين أرسلهم الله- عليهم الصلاة والسلام جميعا نشأ كل منهم في قومه، فهم أهله وعشيرته، وأهل بيئته الذين نشأ منهم، إلا لوطا ﷺ، فمن المعلوم أنه جاء مع إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فالذين أرسل فيهم ليسوا من عشيرته، ولما كانت هذه السورة أول سورة يذكر فيها أولئك الناس حل محل كلمة القوم كلمة (إخوان) إشارة الى تلك الاخوة الإنسانية، ولم نجد في كتاب الله تبارك وتعالى هذا الوصف (إخوان) إلا في هذه السورة، ثم رأينا السورالكريمة بعد ذلك يذكر فيها القوم مثل ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾ [الشعراء: ١٦١] خلاصة القول أن كلمة الإخوان هنا ذكرت لحكمة كان لابد منها، لا من أجل نظام التسعة عشر. والله أعلم بما ينزل.

٣- **ثم تأتي سورة القمر**، ولعلها السورة الأولى التي تحدثنا عن قوم لوط وتكذيبهم لنبيهم وبالنذر التي جاءتهم، والسورة تحدثنا عما حل بهم من عذاب، وعما انعم الله به على آل لوط عليه السلام، وعن الوقت الذي نجوا فيه، وتجمل لنا الأسباب التي

استحقوا من أجلها هذا العذاب، وتبين لنا سببين اثنين:

١- المماراة والجدال.

٢- مراودتهم له عن ضيفه وهذه اشارة مجملة كذلك ستفصل فيما بعد. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[1] إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا[2] بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

٤- **ثم تأتي سورة الأعراف**، وفيها بعض البيان لما قاله نبيهم لهم وما قالوه، تبين السورة الكريمة أخبار الأنبياء: نوح وهود وصالح عليه السلام متتابعة، ثم يأتي الحديث عن لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهنا قضية نلحظها من خلال دراستنا للسور القرآنية، وهي أن قصة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكرت مع قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بل عقبها مباشرة، وذكرت تارة في بعض السور دون ذكر قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وثالثة: ذكرتا معاً في سورة واحدة، ولكن مفصولاً بينهما بقصص بعض الانبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والطريقة الأولى: هي التي تذكر مجيء الرسل لإبراهيم من الملائكة بالبشرى، ثم ذهابهم للوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهي التي تذكر لنا هذه المحاورات بين لوط وبين الرسل. وأما الطريقة الثانية والثالثة: فتقتصران على ذكر المحاورات بينه وبين قومه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسننبه على هذه الطرق الثلاث في كل سورة نعرض للحديث عنها ان شاء الله تعالى.

---

(١) حاصباً: ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم.

(٢) فتماوروا: فكذبوا.

وسورة الأعراف التي نتحدث عنها ذكرت فيها قصة لوط عليه السلام دون أن تذكر قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ينكر لوط عليه السلام على قومه اتيان الفاحشة مبيناً شناعة هذه الفاحشة؛ وبأنهم هم المبتدئون والمبتدعون لها فلم يأتها أحد قبلهم من الناس، ويبين هذه الفاحشة بأنها اتيان الرجال شهوة من دون النساء، وهم بذلك متجاوزون لحدود العقل والذوق والشرع والعرف، وهو الإسراف الذي يذم صاحبه؛ ولكن القوم كانوا غير مبالين بأي قيمة من تلك القيم التي يمتاز بها الإنسان؛ فيستحق التشريف والتكريم، فلا يزيدون على أن يقولوا مستهزئين أن أخرجوهم من قريتكم إنهم اناس يتطهرون.

ومثل هذا التسيّب والسقوط والتمرغ في أوحال الرذيلة والتهكم بكل فضيلة هو شر ما يمكن أن تصل إليه الانسانية حينما يكثر فيها أمثال أولئك، ولكن لوطاً عليه السلام لا يجيبهم بشيء، وإنما تبين السورة الكريمة أن الله تبارك وتعالى قد أنجاه ومن آمن من أهله وأمطر على قومه مطراً بسبب إجرامهم، وأي إجرام أعظم مما قصه القرآن عنهم!.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

٥- **ثم تأتي سورة الفرقان**، وهي سورة الحجج التي تمحو كل الشبهات التي يتمسك بها الكفر وأهله، والتي تدور حول القرآن، وحول شخص الرسول الكريم -عليه وآله الصلاة والسلام-، كقولهم: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤] وقولهم ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥] إلى غير ذلك من شبهاتهم.

من هنا ما كنا لنستمع في سورة الفرقان لما قاله الانبياء، وما قيل لهم؛ ولكن ما ورد فيها يتناسب مع موضوع السورة نفسها، وهو إقامة الحجج على أولئك المكذبين،

والذي يعنينا ماورد في خبر قوم لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ، واننا لواجدون هذه الاشارة ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ(١) أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠]. كل هذا في معرض التذكير، ولا شك أن القرية التي أمطرت مطر السوء، وكان العرب يرونها في مسيراتهم انما هي قرى قوم لوط.

٦- **ثم تأتي سورة الشعراء**، فيكون الحديث عن لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقومه متناسباً مع مزاياها التي تحدثنا عنها من قبل، أسلوب جذَّاب له طابعه الخاص به، وسورة الشعراء من السور التي ذكر فيها نبأ ابراهيم ولوط عليه السلام معاً، ولكن ليسا متعاقبين، ـ وقد حدثناك عن ترتيب قصص الأنبياء في السور ذلك الترتيب البديع فارجع إليه ـ فبعد ذكر قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكرت قصة نوح وهود وصالح، ثم ذكرت قصة لوط عليهم الصلاة والسلام جميعاً، ولذا وجدنا فيها المحاورات بينه وبين قومه ـ كما قلنا من قبل ـ والمحاورات في سورة الشعراء تبدأ كما بدأت أكثر القصص بإشارة موجزة لتكذيب الأقوام، كما رأينا في الحديث عن القصص السابق، حينما تحدثنا عن نوح وهود وصالح عليهم الصلاة والسلام هكذا بدأت قصة لوط ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

ولأول مرة تحدثنا الآيات عما قاله لوط عليه السلام لقومه غير نهيهم عن الفاحشة؛ فالذي رأيناه في سورة الأعراف كان إنكاره عليهم إتيان الفاحشة فحسب، أما هنا فهو يحدثهم عن رسالته وأمانته ويأمرهم بتقوى الله وطاعته، ولا يريد على ذلك أجراً منهم؛ فخراج ربه وأجره خير، ثم يوبخهم صراحة على فعلتهم القبيحة بإتيان الذكور وترك الأزواج أنه من شر انواع الاعتداء، اعتداء على الحرمات، اعتداء على الذكور، وهو مع ذلك اعتداء على النساء بحرمانهن حقوقهن.

---

(١) القرية: قرية سدوم من قرى قوم لوط، ﴿ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾: أي الحجارة، والمعنى أن قريشاً مروا مراراً كثيرة في تجاراتهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء.
والنشور: البعث.

وتحدثنا السورة هنا حديثاً جديداً، وهو انهم توعدوه بالرجم إن لم يكف عن ذلك، وهنا؛ ـ وبعد ذلك كله ـ يعلن ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنه لما يعملون من المبغضين المستنكرين، ويطلب من الله أن ينجيه ومن آمن معه من عملهم، ويستجيب الله تبارك وتعالى دعاءه، فينجيه واهله الا من يستحق العذاب منهم، ثم تذكر الآيات بأحوالهم، كما هي السنة في سورة الشعراء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٤] وهذه هي آيات سورة الشعراء:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ[(١)] رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ[(٢)] ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥].

٧- **ثم تأتي سورة النمل**، ويبين فيها لوط عليه السلام لقومه أنهم يأتون هذه الفاحشة، وهم يبصرون آثارها السيئة وما يمكن أن تلحقه بهم، ويبصر بعضهم بعضاً دون أن ينكر أحد على الآخر وهم يبصرون كذلك ماحل بالأمم المخالفة لهدي الله تبارك وتعالى، ويبين هذه الفاحشة بأسلوب المنكر المستقبح المستهجن! وهي إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء! ثم ينتقل من هذا الإنكار الى وصفهم بالجهل، وهذا لا ينافي ما وصفوا به من الإبصار في قوله ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]؛ لأن علم الإنسان وبصيرته اذا لم يوجهاه توجيهاً عملياً في الحياة فوجودهما وعدمهما سواء، ولذلك وصف الله المعرضين عن الحق من المنافقين والكافرين بأنهم صم بكم عُميٌ فهم لا يرجعون،

---

(١) القلى: البغض الشديد، كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد والمراد القلى من حيث الدين والتقوى.

(٢) عجوزاً في الغابرين: صفة لها في الغابرين، في العذاب والهلاك، أي غير الناجين.

وهم لا يعقلون، فلا يكون جواب قومه إلا هذا الاستهزاء والتهكم وعدم المبالاة والتنكر لكل حق ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ [النمل: ٥٦] لأنهم يتنزهون ويترفعون عما تعملون، ويكرم الله لوطا عليه السلام ومن آمن من أهله إلاّ امرأته حيث كانت في قدر الله من الهالكين.

وأود أن أنبه القارىء هنا قبل أن يتساءل هو عن هذا التشابه الذي نجده بين سورتي الأعراف والنمل، وكأني به يقول: أليس هذا التكرار بعينه؟!؛ ولكني أقول: مهلاً، فنحن مع معرفتنا بمقاصد التكرار وفوائده، ومع يقيننا بأنه من الأساليب التي يمكن أن تؤدي غرضاً ما لم يكن ممجوجاً متكلفاً، إلاً أننا مع ذلك لانحكم على ماجاء في كتاب الله تبارك وتعالى بأنه من التكرار، وقد سبقت هذه المسألة في أول الكتاب، فراجعها هناك ان شئت، ولكن لنبقَ مع الآيات التي تحدثنا عن سيدنا لوط -عليه الصلاة والسلام- في سورتي الأعراف والنمل وقد عرفنا من قبل أن القضايا الرئيسة التي جاء بها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ سواء أكانت عقدية كعبادة الله وحده أم اجتماعية، وهذه تختلف باختلاف الأقوام كتطفيف المكيال عند مدين وإتيان الفاحشة عند قوم لوط عليه السلام، مثل هذه القضايا لابد أن يكون كل رسول أمر قومه بتركها وحذرهم مغبتها وعاقبتها أكثر من مرة في أكثر من مكان وزمان، وحينما نقلها القرآن إلينا صاغها بأسلوبه فأضفى عليها مع روعة الإعجاز جمال الإيجاز، فيظن القارىء لأول وهلة أن ذلك هو التكرار، ولكنه بتكرار التلاوة المتدبرة سيبدد هذا الوهم ويغير ذلك الفهم، ولنقف مع ما بين القصة في السورتين من فروق:

ما بين سورتي الأعراف والنمل من فروق.

١- سورة الأعراف: ١- أنكر لوط الفاحشة على قومه مبيناً أنهم لم يسبقوا بها من

قبل ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] بهذا التعبير الرائع «من أحد»، كأنما يريد أن يبين لهم أنها لم يسبق لأي فرد من أفراد الناس صغيراً كان أو كبيراً أن زاول مثل هذه الفاحشة «من أحد». ٢- ثم يبين لهم هذه الفاحشة على جهة الإخبار «إنكم»، ٣- ثم يصفهم بالإسراف، والوصف بالإسراف متلائم متناسب مع فعلتهم للفاحشة دون غيرهم من البشر ودون ما سَبقهم من الناس مع كثرة الذين سبقوهم من حيث الزمان والمكان ٤- ثم يأتي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بهذا الحرف من حروف العطف وهو (الواو) ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ والواو: لاتدل على ترتيب ولا تعقيب، ٥-ثم يذكر ربنا قول قومه ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ بهذا الضمير الدال على الغيبة. ٦- وأخيراً يبين الله تبارك وتعالى أنه أنجى لوطاً وأهله الا امرأته كانت من الغابرين، يعبر بهذا الفعل فعل الكون «كانت».

٢- **سورة النمل** أما ما جاء في سورة النمل فنجده مغايراً لهذا النظم الذي وجدناه هناك:

١- ينكر لوط عليه السلام على قومه إتيان الفاحشة دون أن يعرض لكونهم أول من فعلها في هذه الدنيا، وإنما ينكر عليهم هنا إتيان هذه الفاحشة، وهم يبصرون أي: وهم يعلمون عواقبها، أو ما حل بالأمم أو يبصر بعضهم بعضاً كما مر من قبل.

٢- ثم نجده ينكر عليهم مرة أخرى «أئنكم لتأتون» بهذه الهمزة الدالة على تشنيع الفاعل وتقبيح العمل وكأن لوطاً بدأ يضيق ذرعاً؛ لأن إصرارهم على قبائحهم لا يزيده الا إنكاراً ولأن انكاره عليهم لايزيدهم إلا إصراراً.

٣- ثم يصفهم بالجهل. وما أجمل الطباق والمقابلة بين الجهل وبين البصر في الآية السابقة.

٤- ثم يأتي قوله تعالى ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالفاء، ولا شك أن هذا مقام يختلف عن قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ في السورة السابقة،

بينما جاءت الواو هناك بعد الجملة الاسمية ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ وهذا يختلف عن غيره[1].

٥- أما قولهم الذي يذكره الله هنا فهو: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ ﴾، فلم يستعمل الضمير الذي استعمل من قبل (أخرجوهم) لقد خلع القوم رداء الحياء وانتهوا من كل كناية ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ ﴾.

٦- وأخيراً يذكر الله تعالى عن امرأة لوط عليه السلام: ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا ﴾ وفي سورة الأعراف (كانت) وما أعظم الفرق بين العبارتين «كانت» ـ وهو فعل ناقص يحتاج إلى اسم وخبر ـ (وقدرناها) حيث تدل العبارة الثانية على أن ذلك تقدير الله تبارك وتعالى الذي لا يمكن أن يرد. ومن لطيف التعبير أن هذا التقدير جاء بعد قوله (كانت) وفي ذلك من العدل الإلهي ما فيه.

مما سبق نجد أن ماذكر في سورة النمل فيه زيادة على ما كان في سورة الأعراف من الوجوه الستة التي رأيناها، وهو يدل دون أدنى شك على أن القصة في سورة النمل نزلت عقب القصة في سورة الأعراف لما فيها من اختلاف الأسلوب الذي رأيناه، والعجب من صاحب درة التنزيل ـ رحمه الله تعالى ـ الذي ذهب إلى عكس ذلك وهو أن سورة النمل نزلت أولا؛ لكن ما ذكره مدفوع بما بيناه، وما عليك إلا أن تراجع قوله في درته التي نسأل الله أن يجزيه عنها خيراً. «درة التنزيل»[2] التي لا ننكر أننا أفدنا منها في هذا الكتاب: وإخالك بعد أن تقرأه لا أظنك إلا أن تذهب إلى أنّ القصة في سورة النمل نزلت متأخرة.

وهذه هي الآيات التي جاءت في كل من السورتين ليتدبرها القارىء.

---

(١) ذكر صاحب المنار مع هذا الرأي رأيا آخر فليراجعه من شاء.

(٢) ص: ٦٠.

في سورة الأعراف:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

أما آيات النمل فهي:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٤-٥٨].

٨- **ثم جاءت سورة هود** وهي أول سورة تذكر فيها قصة لوط عقب قصة إبراهيم ـ عليهما الصلاة و السلام ـ، ففي السور السابقة ذكرت وحدها دون قصة إبراهيم عليه السلام، اللهم إلا في سورة الشعراء حيث ذكرتا معاً إلا أنه فصل بينهما بعدة قصص.

عرفنا من قبل عند الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام في سورة هود أنّ الرسل جاءوا بالبشرى وهم في طريقهم إلى قوم لوط، كما حدثتنا السورة هناك أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لحلمه الذي طبع عليه وأكرمه الله به، بدأ يجادل في شأن قوم لوط حتى قيل له: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٦].

وتحدثنا الآيات بعد ذلك أن الرسل لما جاءوا لوطاً أصابته المساءة، ولحق به الضيق من كل جانب حتى إنه لم يجد أي حيلة، وأي منفذ للخروج من هذا المأزق، وما أصعبه بل ما أعصبه من يوم! وهنا وقد رأى قومه أضيافه في صورهم البهية جاءوا

مسرعين من كل جانب، ومن طبعهم عمل السيئات، فهو أمر مستقر فيهم، ويبدؤنم لوط ـ عليه الصلاة و السلام ـ بأن أولئك أضيافه بعيدون عن هذه البلاد، وقد جعل الله لهم من النساء ما يسد عوزهم ويزيل عجزهم، وهؤلاء بناته ليزوج كل واحد من وجهاء القوم بواحدة منهن فليتقوا الله، اراد أن يحرك هذا الجانب في نفوسهم، أن يوقظ هذه المشاعر، وان يوقد هذه الجذوة كي لا يخزوه في ضيفه، ثم يهيب بهم علّهم يرتدعون عن غيهم، الا يوجد فيهم رجل رشيد عاقل يمنعهم من الغواية، ولكنهم وقد جردوا من كل عرق يمت بصلة للإنسانية الكريمة يعلنون ويعلمون لوطا بأنه يعلم كل العلم أن ليس لهم حق في بناته، وهو يعلم كل العلم كذلك مايريدون.

وهنا وقد أعيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحيل كلها، وسدت دونه الطرق والمنافذ يقول ما يقوله كل واحد مثله ولعل كل واحد منا يدرك هذا الضيق الذي أصابه -عليه الصلاة والسلام- فيتمنى أن يكون له قوة ليجابه أولئك الذين تجردوا من إنسانيتهم، أو أنه يأوي إلى ركن شديد يستعين به على صلافة أولئك، وسلام الله على لوط فلم يكن هناك ركن أشد من الركن الذي يأوي إليه ولهذا يقول رسول الله ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ: «يرحم الله لوطاً فلقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1] وهنا يكون الفرج ويرى الأضياف ماحل بصاحبهم فيكشفون له هويتهم ويعرفونه بأشخاصهم ما أعظم الفرج بعد الشدة! اللهم إنا نسألك الفرج بعد الشدة فيخبرونه بالحقيقة وبأنهم رسل ربه الذي لا يتخلى عنه فلا يهولنه الأمر، وليسر بأهله بقطع من الليل، وهذا القطع كما بينته سورة سابقة -سورة القمر- هو وقت السحر ولا يلتفت منهم أحد، أما آله الذين ينبغي أن يسري بهم فهم جميع أهله، وأمروا أن لا يلتفتوا فانجاهم الله الا امرأته من أهله الذين

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة جـ٢، ص١٨٣.

وأخرجه البخاري كتاب الأنبياء وباب قوله تعالى: ﴿ ۞لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ ﴾ حديث رقم ٣٢٠٧.

أسري بهم ولكنها التفتت فأصابها ما أصابهم، هذا ما يرجحه كثيرون ودليلهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١] وذهب آخرون إلى أن امرأته ليست مع أهله الذين أسري بهم وإنما كان الاختلاف لأن في الآية قراءتين «امرأتك» بالنصب وبالرفع فعلى النصب يمكن ان يكون الاستثناء من قوله «فأسرِ بأهلك» وعلى الرفع يمكن أن يكون الاستثناء من (أحد)، والإعراب فرع المعنى كما يقولون والله اعلم بمراده، وعلى كلا القولين فإن المرأة كانت من المهلكين أُسري بها أو لم يسر، إنه الصبح، وكثيرون أولئك الذين يعانون من القسوة والبلاء والشدة والتنكيل وإلى أولئك جميعاً يسوق الله هذه البشارة: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، بلى ما أعظمها من بشارة للمستضعفين! وما أشده من وعيد لأولئك الذين حسبوا أن القسوة والعتو هما كل شيء!.

ويجيء أمر الله بإهلاك المعذبين، وتقلب قراهم رأساً على عقب، ويمطر الله عليها حجارة من سجيل وما هي ببعيدة عن الظالمين. نعم ما هي عن الظالمين ببعيدة، لكنهم لايرعوون.

وهذه هي الآيات في سورة هود:

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (١) مُّسَوَّمَةً (٢) عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٦-٨٣].

---

(١) منضود: نضد في السماء نضداً، معداً للعذاب وقيل يرسل بعضه في إثر بعض متتابعاً.

(٢) مسومة: معلمة للعذاب.

٩- **ثم جاءت سورة الحجر**، وتذكر فيها قصة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ عقب قصة إبراهيم ﷺ، ونجد أن السياق في سورة الحجر يختلف عما جاء في سورة هود حيث بدأت القصة في سورة الحجر تبين لنا أنه لما جاء آل لوط المرسلون من الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ خاطبهم لوط عليه السلام بأنهم قوم منكرون؛ وذلك لأنه يخشى أن يطرقوه بِشرٍّ أو أن تحدث له بسببهم مساءة؛ ولكنهم يجيبونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن الأمر ليس كما توقع، بل هو على العكس من ذلك، بل إنهم جاءوا بهذا العذاب الذي كان قد توعد به قومه، وأتوه بالحق الذي لا مرية فيه؛ ولكي يستلوا كل ظن يمكن أن يعتريه، وكل حزن يمكن أن يصيبه أكدوا له صدقهم بما قالوه بمثل هذا الاسلوب ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٤] ، المشتمل على أكثر من تأكيد.

والذي جاء في سورة هود أن الرسل جاءوا لوطاً عليه السلام أما هنا فذكر أن مجيئهم لآل لوط، وفي هذا من الإيناس والإكرام له ـ عليه الصلاة والسلام ـ مالا يخفى، ثم تذكر الآيات الكريمة بعد ذلك في سورة الحجر ان اهل المدينة جاءوا مستبشرين فرحين.

دعوى أن في الاية تقديماً وتأخيراً.

ويرى بعض المفسرين أن ما في الآيات من باب التقديم والتأخير؛ فمجيء أهل المدينة كان قبل بشارة الملائكة لوطا بأنهم جاءوه بعذاب أولئك، والواو لا تفيد ترتيباً. ونقل صاحب روح المعاني عن ابن عطية أن ما قاله لوط عليه السلام لأهل المدينة مما قصته السورة الكريمة من أن أولئك ضيفه فلا ينبغي أن يفضحوه بالاعتداء عليهم، وأمره لهم بتقوى الله ونهيه لهم عن خزيه وإذلاله؛ إنما كان على سبيل التبكيت لهم، وإخفاء العذاب الذي سيصيبهم عنهم، وعلى هذا فالكلام على ترتيبه الطبيعي ليس فيه تقديم ولا تأخير، ولكن الشهاب الألوسي -رحمه الله- الذي لم يرتض ما ذكره ابن عطية سار مع الجمهور فيما قالوه من ان باقي القصة فيه تقديم وتأخير .

ردّ هذه الدعوى:

ولكن الذي يبدو لي بعد اجالة وإمعان - والله أعلم بما ينزل- أن تضعيف علاّمة الرافدين لما قاله علاّمة الأندلس[1] رحمهما الله، فيه نظر، ولا نستطيع أن نسلمه له، بل قول علامة الأندلس جدير بالتأمل والنظر، والذي يظهر لي أنه أولى بالقبول، وأن ليس في الآية تقديم وتأخير، وأن ما في سورة الحجر فيه من الأحداث والمشاهد ما ليس في سورة هود، وأستدل لذلك بما يلي:

إن الذي ذكر في سورة هود ان الرسل لما جاؤوه - عليه الصلاة والسلام - سيء بهم، وضاق بهم ذرعاً، وقال: هذا يوم عصيب، وجاءه بعد ذلك قومه يهرعون إليه، وكل هذا لانجده في سورة الحجر، لذلك فالذي يبدو لي - والله أعلم - أن ما حدثتنا عنه سورة هود غير الذي حدثتنا عنه سورة الحجر، ففي سورة هود جاءه قومه يهرعون إليه - وكان بينه وبين قومه ما تحدثنا عنه من قبل. أما هنا في سورة الحجر، فقد جاءه أهل المدينة مستبشرين فرحين. فهناك مجيئان: .

المجيء الأول: لقومه، وهم فئة جاءت مسرعة لتظفر بالغنيمة - قاتلهم الله - فسيء بهم - عليه السلام - وضاق بهم ذرعاً، وطمأنه الملائكة، ثم جاء بعد ذلك أهل المدينة بعد أن وصل إليهم النبأ وكان لوط عليه السلام قد اطلع على أمر من الملائكة - عليهم السلام - فقال لهم ما قال على سبيل التبكيت وتعمية الخبر عنهم.

والذي يرجح ما قلناه أن آيات سورة الحجر لم تحدثنا بشيء عن ذلك الألم الذي كان يكتنف نفسه - عليه الصلاة والسلام -، وما ذهبنا إليه أولى بنظم الكتاب العزيز ونسقه.

---

(١) يراجع المحرر الوجيز لابن عطية.

والخلاصة: أن الحديث في سورة هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان غير الحديث الذي في سورة الحجر؛ ولعل مما نستأنس به ـ كما قلناه ـ زيادة على ما تقدم من قول لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ هنا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [الحجر: ٧١] قالها بصيغة الشك الذي تدل عليه كلمة (إن) ولم نجد ذلك التقريع الذي وجدناه في سورة هود، ثم يقسم الله تبارك وتعالى بحياة سيدنا محمد ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ بأنهم في غوايتهم وسكرتهم وقد عميت بصائرهم ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢][1] فجاءهم العذاب، واخذتهم الصيحة في وقت يجد الناس فيه أنسهم وهدايتهم، وهو وقت شروق الشمس فقلبت قراهم رأساً على عقب، وأمطرت عليها حجارة وفي ذلك آيات كثيرة لذوي الفكر والنظر والتوسم، وان هذه القرى قرى قوم لوط عليه السلام في طريق باق غير مندرس يمر به أهل مكة وغيرهم من العرب، واذا كان في ذلك آيات كثيرة للمتوسمين الذين كانوا في زمن لوط عليه السلام، لأنهم رأوا هذه الفعلة تامة غير ناقصة فإن فيما بقي من هذه الآثار للمؤمنين بالله ورسوله ﷺ لآية عظيمة، وفيها ما يكفيهم.

ومما انفردت به سورة الحجر كذلك طلب الرسل من لوط عليه السلام أن يقدم أهله حينما يسري بهم بقطع من الليل فيجعلهم أمامه ويكون خلفهم حتى يتأكد من خروجهم جميعاً ولكي يضمن عدم التفات أحد منهم، وهذا معنى قول الله له في السورة الكريمة ﴿ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ [الحجر: ٦٥] أي سر وراء أهلك الذين سريت بهم ولا تجعل أحداً منهم وراءك.

وقضى الله له ذلك الأمر العظيم الحازم وهو أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.

ومما انفردت به السورة كذلك قول قومه له وقد حدثهم في شأن ضيفه ﴿ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٠] فهم ينكرون عليه أن يستقبل أحداً من الناس؛

---

(١) هذا أحد الأقوال في الآية، وهناك قول آخر أنّ (لعمرك) خطاب للوط عليه الصلاة والسلام.

لأنهم يخشون أن يستجيبوا لدعوته. وهناك أمر آخر يقصدونه وهو أن لا ينكر عليهم حينما يريدون أن يحققوا فعلتهم الشنيعة مع من يمرون بديارهم، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يمنعهم من ذلك، وهذه هي الآيات في سورة الحجر:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ[(١)] مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ[(٢)] فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ[(٣)] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٥٧-٧٧].

١٠- **ثم تأتي سورة الصافات** بعد ذلك: وسورة الصافات ـ كما قلنا من قبل ـ تحدثنا عن إكرام الله أنبياءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فهم في مصاف المكرمين، بل هم المكرمون، وهذا ما اقتصرت ـ عليه السورة ـ من الحديث عن لوط ـ عليه السلام ـ، فهي لا تحدثنا عما جرى بينه وبين قومه؛ ولكنها تكتفي بالحديث عما خصه الله به وما أصيب قومه به ثم تذكّر العرب الذين يمرون بديارهم صباح مساء وتنعى عليهم عدم تذكرهم، وتعنفهم لأنهم لم يستعملوا عقولهم فيما هو خير لهم، وهذه هي الآيات الكريمة:

---

(١) دابر هؤلاء: أي اخرهم يعني يستأصلون عن اخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

(٢) مشرقين: داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس.

(٣) للمتوسمين: للمتفرسين المتأملين وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى لا يعرفوا حقيقة سمة الشيء. «بسبيل مقيم» أي ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الاثار وهو تنبيه لقريش.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٨].

١١- أما **سورة الذاريات** التي جاءت بعد ذلك فإن الحديث فيها عن قوم لوط عليه السلام لم يأت من خلال قصته ـ عليه الصلاة والسلام ـ معهم، وإنما جاء في ثنايا حديث إبراهيم ﷺ حينما جاءه الرسل من الملائكة مبشرين؛ فبعد أن هدأ خاطره، وذهب روعه يسأل الرسل من الملائكة ما شأنكم وما خطبكم؟ فيجيبونه بأنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين ليعذبوهم بنوع من العذاب خاص لمن أسرف وتجاوز الحد وأن هذا العذاب لم ينج منه إلا بيت واحد أولئك الذين ثبت الإيمان في قلوبهم، وانقادوا لأوامر الله تبارك وتعالى، ولا زال في هذه الفعلة وفي تلك القرى آية لأولئك الذين يخافون أن ينزل بهم العذاب.

ما جاء في سورة الذاريات إذن كان استكمالاً للحديث عن إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام:

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٣].

١٢- أما **سورة الأنبياء** فجاءت فيها إشارة موجزة متسقة مع موضوعها وهو آيات الله، وحججه سواء أكانت هذه الحجج كونيه بصرية أم انسانية سمعية. تأمل السورة الكريمة تجد ذلك واضحاً فيها ويكفي أن نذكرك بمثل قول الله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وما بعد ذلك من آيات ولها من اسمها نصيب، ولذلك كان الحديث فيها عما أكرم به الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

فبعد أن نجى الله إبراهيم ولوطاً عليهما السلام إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين وبينت الآية ما خص الله به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بينت بعد ذلك ما خص به لوط عليه السلام كذلك ولأول مرة يبين الله ما اكرم به لوطا عليه السلام من الحكم

والعلم مما منّ به عليه فأدخله في رحمته، وفي زمرة الصالحين من عباده ففي السورة الكريمة:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

١٣- أما سورة الحاقة فكان الحديث فيها مندرجاً في ذكر بعض السالفين المكذبين، ومع ذلك الإيجاز فلقد كانت هناك جدة في تسمية قرى قوم لوط بالمؤتفكات(١)، وهي بعض آية في قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً(٢)﴾[الحاقة: ٩-١٠].

١٤- **ثم جاءت سورة العنكبوت**، سورة الدعاة كما سميناها من قبل، وعلى رغم إيجاز القصة في هذه السورة إلا أنه والحق يقال، ذكر فيها الكثير مما لم يذكر في غيرها من السور السابقة، وهذا يقيناً متسق مع شخصية السورة الكريمة.

تبدأ القصة في السورة الكريمة بتقريعه لقومه بهذا الأسلوب الذي لم يمر بنا من قبل، وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقرعهم، إنهم يأتون الفاحشة، ولم يسبقهم بها أحد من الناس.

ثم بيّن معايبهم ومثالبهم ومساوءهم بهذا الأسلوب الجامع بين التأكيد والإنكار، ولئن كانت الآيات السابقة تبين أن فعلتهم الفاحشة التي يذمون عليها إتيان الرجال؛ فإن السورة الكريمة تبين هنا عيوباً كثيرة فهم يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ما تنكره الطباع والعقول والشرائع جميعها؛ ولئن كان جوابهم فيما مضى ﴿**أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ**﴾ [الأعراف: ٨٢] إلا أنهم هنا يتركون هذه المقالة ويستبدلون بها غيرها

---

(١) المؤتفكات: قرى قوم لوط.

(٢) رابية: شديدة زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح.

وهي أن يأتيهم بعذاب الله إن كان من الصادقين في ذلك ويضرع لوط عليه السلام إلى ربه أن ينصره على القوم المفسدين.

ثم تحدثنا الآيات الكريمة عن مجيء الرسلِ إبراهيمَ عليه السلام بالبشرى، ولكن هذه البشرى تذكر مجملة هنا تلاؤماً مع موضوع السورة؛ ولأنه قد مر في السورة نفسها ما خص الله به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكن الآيات هنا تقتصر على ماكان بين إبراهيم وبين الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في شأن لوط عليه السلام بما لانراه في سورة أخرى، فيبلغون إبراهيم أنهم يريدون إهلاك أهل هذه القرية، وذلك لهذا الظلم الشائن الذي يصدر عنهم، ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخشى أن يصاب لوط بأذى فيبادر إلى القول: كيف تهلكونها إن فيها لوطاً!؟ ويجيبه الملائكة بأنهم يعلمون من فيها، وإنهم سينجونه وأهله إلا امرأته.

ثم تبين الآيات مجيء الرسل لوطاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما أصابه حين مجيئهم ويبينون له أنهم منجوه وأهله إلا امرأته، كما بينوا لإبراهيم عليه السلام من قبل، وأنهم منزلون على أهل هذه القرية عذاباً من السماء بسبب فسقهم، ثم يبين الله تبارك وتعالى أنه ترك من هذه القرية ومن هذه العقوبة أثراً لمن كان ذا عقل ولب، والحق أن أسلوب القصة في سورة العنكبوت أسلوب فريد، لا من حيث الألفاظ وحدها ولكن من حيث الجزئيات التي ذكرت فيها كذلك، ولعل في ذكر الآيات الكريمة خير دليل على ما ذهبنا إليه وهذه هي آيات سورة العنكبوت:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ

وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ[1] رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٤].

صفات قوم لوط.

ونرى أن من المفيد أن ننبه هنا على ما ذكر لقوم لوط عليه السلام من صفات قد لا نجدها لغيرهم من الأقوام ومن يستعرض الآيات يجد ذلك في أجلى بيان، وأوضح صورة، فالتكذيب، والجدل، وإتيان الفواحش، والاعتداء، والإجرام، والإسراف، وعمل السيئات والخبائث وإتيان المنكر، وقطع السبيل والجهل والفسق والظلم، وتلك لعمر الحق هي أسوأ الصفات التي يمكن أن يتصف بها قوم.

فلقد كان قوم لوط عليه السلام مثل سوء جرت به الركبان، وسار على مر الزمان، يقول المعري[٢]:

وأيّ امرىء في الناس أُلفي قاضيا ... فلم يُمض أحكاما لحكم سدومِ

أبت فاقدات الحسّ حمل رزية ... وهل راب صخرا نحته بقدوم

وسدوم إحدى مدن قوم لوط.

وكان المعري يشير بهذا البيت إلى ما حُكي عن القوم من استغراق في الباطل، كما وصفهم القرآن الكريم ولقد قالوا إن سارة زوج ابراهيم ﷺ بعثت (لعازر) كبير العبيد،

(١) جاء في سورة هود «ولما جاءت رسلنا» فلم تذكر كلمة (أن) وسامح الله الذين يرون زيادة بعض الحروف في القرآن الكريم، حيث ذهبوا إلى أن (أن) هنا زائدة، ويعلم الله أن لها من الدقائق البيانية والحكم والأسرار ما يثلج الصدر، ويطرب الأذن، ويخشع له القلب (راجع كتابنا لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن) عند الحديث عن (أن)].

(٢) اللزوميات (٢/ ٤٤٢).

ليطمئنها عن لوط عليه السلام، وذلك لما بينهما من صلة وقرابة، فلما وصل (سدوم) عرض له بعض أهلها وضربه حجراً أدمى به رأسه، ولم يقف الأمر به عند هذا الحد، بل قال له بعد ذلك: إن هذا الدم لو بقي في جسمك لضرك ضرراً كبيراً، ولقد صنعت بك خيراً أن أنزلت هذا الدم من رأسك، وأود أن تعطيني أجراً على هذا الخير الذي أسديته اليك، ولم يتركه بل ذهب به إلى القاضي، ولما سمع ما قاله كل منهما، حكم للسدومي على (لعازر) وقال لا بد أن تعطيه أجره، فما كان من لعازر إلا أن أخذ حجراً وضرب رأس القاضي وأدماه، وقال له: أرجو أن تعطي الأجر الذي ثبت لي عليك للسدومي، بدل الأجر الذي حكمت به عليّ.

وهذه حكاية قد يجدها القارىء غريبة كل الغرابة، ولكن ليس هناك أمرٌ مستغرب. والمتبصر والمطلع على الأوضاع السياسة والاقتصادية وغيرهما في عصر العلم والتقدم، والتغني بحقوق الانسان، أقول إن المتبصر بالأمور المطلع على الأشياء ليجد أن ما تفعله الدول الكبرى وبخاصة أمريكا وبعض صويحباتها، ما يفعلونه بالدول النامية، وبخاصة الإسلامية والعربية لن يجد أي غرابة في هذه الحكاية، فإنهم والله ليفعلون ما هو أشد غرابة واستبعاداً مما فعله قاضي سدوم. وما أكثر الأحداث التي تدل على مثل هذا.

قتـل امـرىء فـي غـابـة   جـريمـة لا تغتفـر
وقتـل شعـب آمـن   مسـألـة فيهـا نظـر
يا رب هبت شعوب من منيتها   واستيقظت أمم من رقدة العدمِ

أفلا تستيقظ أمتنا؟!.

أنـا لا ألـوم المستبـد   إذا تـجـهـم واستـبـدا
فسبيلـه أن يستبـد   وشـأنـنـا أن نستعـدا

وصدق الله ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [النساء: ١٠٢] ويعجبني قول القائل في مديح سيدنا رسول الله ﷺ.

بجيش الحقّ أمنت البرايا وجيش الحق تخشاه الأسودُ

تلك هي قصة لوط عليه السلام كما جاءت في كتاب الله تبارك وتعالى، نجد لكل سورة فيها جانباً من الجوانب، وجزئيات وأحداثاً وأسلوباً، يضفي عليها صبغة البيان وظاهر الإعجاز وعظيم الروعة وتأثير الموعظة، وإلى جانب ذلك كله هذه الدروس الاجتماعية التي لابد لأي مجتمع خير أن يدعيها، وهو ينظر في تلك الصفات التي تعصف بكل من يتصف بها كما عصفت بقوم لوط عليه السلام.

ثانياً: تعقيب على قصة لوط عليه الصلاة والسلام

إن أول ما يقفنا ونحن نقرأ قصة لوط ـ عليه الصلاة و السلام ـ هذا الصلف والترهل، بل هذا التدني والانحدار، بل التعري من كل رداء من أردية الإنسانية. ذلك بحق ما كان عليه أولئك القوم الذين ابتلى الله بهم لوطاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأرسله إليهم. لقد كان القوم ممعنين في الغي مستغرقين في الفحش لا يبالون بما يمكن أن يقال.

بدأنا نسمع في العقدين الأخيرين من هذا القرن عن تسَيّب يشبه تسيّبهم. قد نجد أناساً يفعلون الرذيلة، ولكنهم قد يستخفون أو أقل مافي الأمر لا يفتخرون مجاهرين بما يعملون ولكن أولئك القوم لم يكونوا ليعلنوا المنكر فحسب، بل يسخرون من كل من يرشدهم ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الاعراف: ٨٢] تلك هي قولتهم الهازئة ويبذل لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ طاقته وجهده دون جدوى، والأنكى من ذلك كله أنهم أرادوا الحيلولة بينه وبين الناس، وإلا فإن أراد غير ذلك فليتحمل ما يترتب عليه من نتائج.

ويحدثنا القرآن لأول مرة عن امرأة لوط عليه السلام وكونها مقدرة من الغابرين. ونحن نعلم أن لوطا ـ عليه الصلاة والسلام ـ هاجر مع إبراهيم ﷺ، فكان إبراهيم عليه السلام شديد الحرص عليه؛ لذلك يسهل عليهم أن يهددوه بالرجم؛ لأنه ليس منهم؛ ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يزيد على أن يقول بعد ذلك إني لعملكم من القالين المبغضين الكارهين المنكرين. رب نجني وأهلي مما يعملون، ويستمر لوط عليه السلام دون أن يؤمن به أحد منهم.

وإذا كان من لبنة يضيفها لوط عليه السلام للبناء الإنساني المحكم ـ وقد أحكم ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ اللبنة كما رأينا من قبل ـ وهي كائنة لا محالة، فإنها تتلخص في هذا الدرس وإن كان قاسياً كل القسوة، ولكنه درس نافع مفيد يمكن أن يكون تسلية وعزاء لأولئك الذين شاء الله لهم أن يحاولوا الإصلاح في أرض خبثت

فلا تخرج إلا نكدا ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف:٥٨] وما أشده من درس أن لا يجد المصلح قلوباً صاغية! وآذاناً واعية! على الرغم من مرور الزمن وتحمل المحن:

على المرءِ أن يَسْعى إلى الخَير جهده وليس عليهِ أنْ تتم المطالبُ

وهكذا خرج لوط عليه السلام بأمر ربه دون أن يؤمن معه أحد فلا عليه، فالله قد من عليه وأدخله رحمته، إنه من الصالحين.

وإذا كانت الفاحشة التي كان يأتيها قوم لوط عليه السلام لم يسبقهم إليها من العالمين غاية في السوء، موغلة في المنكر، ينكرها كل ذي لب، يمقتها الشرع والعقل والعرف، فإننا نرى اليوم أن هذه الفاحشة، أمست يزاولها ذوو الخبائث بقوانين وتشريعات لحماية أولئك، حتى أن ما كان محرما عليهم، وما كانوا يمنعون منه في كثير من الأعمال والوظائف العسكرية والمدنية، وجدنا من المسؤولين في مجالس النواب وغيرهم من ينادون بدفع هذا المنع، لينتشر هذا الشذوذ، كما نقلته لنا وسائل الإعلام في كثير من بلاد الغرب مثل أمريكا وإنجلترا وغيرهما، ونسأل الله أن يظل هذا الخبث بعيدا عن بلادنا وعن المجتمعات الاسلامية.

ما أسوأ حظ الإنسانية! كثير من أولي الشأن في البلاد الراقية يجعلون لهذا الشذوذ قوانين وأنظمة حماية لأولئك الذين خرجوا عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

أين مكان قوم لوط: أهو البحر الميت؟

وأود ان أختم الحديث عن قصة لوط ﷺ، فاعرض لقضيتين اثنتين:

القضية الأولى: وهي تتصل بمكان قوم لوط عليه الصلاة والسلام- أهي في البحر الميت؟ ويكثر سؤال الناس عن هذه القضية، وقد صار البحر الميت مكانا يكثر ذهاب الناس إليه.

والأصل في هذه القضية ما روي عن ابن عمر ان رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك امرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء. وعنه: أن النبي لما مر بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا ان تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم»(١).

فإذا كانت مساكن أولئك الناس مكان هذه البحيرة، فينبغي أن تحكم بحرمة الذهاب إلى ذلك المكان؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال، أبين ما يلي:

أولاً: إن القرآن الكريم أمر المسلمين أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وقد ورد هذا في آيات كثيرة، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾ [الأنعام: ١١] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ [غافر: ٢١]. ونفهم من الآيات الكريمة أن السير إذا قصد منه الاعتبار والايقاظ فهو عبادة يؤجر عليها المسلم.

ثانياً: إن السير في الأرض لا ينبغي أن يكون للهو واللعب، ولا يجوز أن ترتكب فيه المحرمات، وفي الحديث الذي أخرجه رزين: « اوصاني ربي بتسع خصال أوصيكم بها: أوصاني بالاخلاص في السر والعلن والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وان أصل من قطعني، واعطي من حرمني، واعفو عمن ظلمني، وأن يكون صمتي فكرا ونطقي ذكرا، ونظري عبرة» والشاهد في هذه الوصية الأخيرة هو أن يكون نظرك في ملكوت الله في سيرك وإقامتك من أجل الاعتبار والموعظة؛ ذلكم لأن الصمت إذا لم يكن فكر، فهو سهو، والنطق اذا لم يكن فيه ذكر فهو لغو، والنظر إذا لم يكن فيه عبرة فهو لهو، وحري بالمسلم ان يتجنب السهو واللغو واللهو.

وهذا ما تفهمه من الحديث السابق، «إلا أن تكونوا باكين»، وهذا الحديث عام يشمل جميع الأمكنة والآثار، كآثار جرش وبعلبك والبتراء، التي جعلها الناس اليوم أمكنة للهو

---

(١) اخرجهما البخاري في كتاب الانبياء باب قوله وإلى ثمود أخاهم صالحا رق ١٩، حديث رقم ٣١٩٨-٣٢٠١. (٣/١٢٣٦).

وأقاموا فيها المهرجانات، التي تبدد فيها الأموال، وتنهك فيها الحرمات، تستساغ فيها المعصية باسم الفن، والإسلام كما نعلم لا يحارب الفن النظيف.

بعد هذه التوطئة أقول: إن سيدنا رسول الله ﷺ- وقد أخبر الناس عندما مروا بمساكن ثمود علم ذلك من الوحي، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣-٤]. ولا نملك الدليل القاطع على أن البحر الميت كان بالتحديد مساكن قوم لوط، وعلى هذا فنحن لا نحرم الذهاب إلى البحر الميت، إذا لم تنهتك الحرمات من جهة، وإذا كان في ذلك ذكرى وموعظة من جهة ثانية، وهذا الحكم ليس للبحر الميت وحده، بل هو لجميع الآثار الدارسة التي جعل الناس منها معالم تاريخية، وما أحوجنا أن نتذكر قول الله ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[إبراهيم: ٤٤-٤٦] فما أجدرنا ان نجعل السياحة رحلة عملية؛ نزهة للروح والعقل، لنأخذ من الماضي ما نتزود به لحاضرنا ومستقبلنا، ولنجعل السياحة مما يستوجب الثناء كما جاء في كتاب الله تعالى حيث ورد هذا الوصف ثناء من الله فقال سبحانه ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]. وفي قوله «مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

القضية الثانية: كثير من الناس ينسبون الذين يفعلون هذه الفاحشه الشنعة، فيقولون فلان لوطي، وقوم لوطيون. ولا أرى هذه النسبة مقبولة، فاللوطي نسبة إلى لوط، كما أن المحمدي والابراهيمي نسبة إلى محمد وإبراهيم، والهاشمي نسبة إلى هاشم، فالصحيح أن يقال في نسبة أولئك: الذين يفعلون فعلة قوم لوط، بدلاً من أن يقال لوطيون.

فلنتعلم من القصة في كتاب الله الدقة في القول، والموضوعية في الحديث، فذلك خير لو كانوا يعلمون.

الفصل العاشر

قصة يوسف عليه الصلاة والسلام

إذا كان صحيحاً ما يقوله المحدثون من الأدباء وهم يتحدثون عن القصة في الأدب فيقسمونها إلى أقصوصة وقصة متوسطة وقصة طويلة يسمونها الرواية فإنّ قصة يوسف عليه الصلاة والسلام هي من النوع الأخير فليس في قصص القرآن ما هو أوسع منها دائرة وأكثر منها أحداثاً اختصّت بها سورة واحدة.

لقد ذكرت هذه القصّة في سورة سميت سورة يوسف وهذا برهان ساطع على إعجاز هذا القرآن، فالله تبارك وتعالى قد يذكر القصّة موزعة على سور متعدّدة وقد يذكرها في سورة واحدة، ولو حاول البشر أيّاً كانت قدرتهم الأدبية أن يصنعوا هذا الصنيع لوجدت أمارات الضعف وركاكة الأسلوب بادية في عملهم، ولكنه الكتاب الكريم.

وقصّة يوسف، ونحنُ ننعم في رحابها ونتفيأ ظلالها سنجدها قصّة مليئة بالعبر والدروس دروس الحياة في كل مجالاتها؛ سنجد فيها دروس التربية والأخلاق والاجتماع والتاريخ والسياسة والاقتصاد ومجالات اخرى، كما سنجد فيها الشخصيات والأحداث والمفاجآت، وهذه القصّة لم تُذكر إلاّ في هذه السورة الكريمة، وقد قلتُ في مقدّمة هذا الكتاب إنّ القصص ذا الصلة بالدعوة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقوامهم وما لاقوا من أولئك الأقوام من إعراض وعنت ذُكر مرات كثيرة في كتاب الله، أمّا القصص الذي ليس كذلك فكان ذكره أقلّ فقد يُذكر مرّة أو مرتين وإضافة إلى هذا يرى بعض الكاتبين أن قصّة يوسف لم تُذكر إلاّ مرّة واحدة لمافيها من مراودة امرأة العزيز. وأقول إن فيها كذلك إستعصام يوسف وإباءه وهذا من شأنه أن يذكر كثيراً. وقد ذُكر الحديث عن قوم لوط على فحش صنيعهم، في أكثر من سورة، والذي يبدو لي أن ذكرها في سورة واحدة لما قلته من قبل، ولقد كانت القصة حلقات متصلاً بعضها ببعض

وسأحاول إن شاء الله أن أبرز ما استطعت مما يكرمني الله به من عِبر وعظات ودروس وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه انيب.

بدأت سورة يوسف عليه السلام بالحروف المقطعة (الٓر)، وبذكر الكتاب المبين الذي أنزله الله قرآناً عربياً لعلهم يعقلون.

وتبدأ القصة بقول الله تبارك وتعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] إنه احسن القصص انتقاءً واختياراً، وإنه أحسن القصص نظماً وترتيباً، إنه أحسن القصص شهادة صدقٍ وبرهان حق، وإنه أحسن القصص حكماً وأحكاماً.

ويبدأ الحديث عن قصة يوسف ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف: ٤] وسنجعل القصة في حلقات كما يبدو لنا، تبدأ الحلقة الأولى من هذه الآية الكريمة، وتبدأ الحلقة الثانية بقوله سبحانه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ [يوسف: ٢١]، وتبدأ الحلقة الثالثة من قول سبحانه ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦] أمّا الحلقة الرابعة فبدايتها قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣] أما الحلقة الخامسة فتبدأ من قوله سبحانه ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ﴾ [يوسف: ٥٨] وتبدأ الحلقة السادسة بقوله سبحانه ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٦٩] وتبدأ الحلقة السابعة بقوله سبحانه ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ﴾ [يوسف: ٨٧].

الحلقة الأولى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ. إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ. إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ. قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ. إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ.

ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ . قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ . قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ . قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ . فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ . قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ . وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ . وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ . ﴾ .

تبدأ الحلقة الأولى برؤيا يوسف التي قصّها على أبيه عليهما الصلاة والسلام ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴾ . ويدرك الأب النبي وقد سمع ما سمع أنّ ابنه سيكون له شأن عظيم، ولم يخف تأويل هذه الرؤيا على يعقوب النبي عليه السلام، فهي واضحة المعنى، ليست بعيدة التأويل. أليس أبناؤه غير يوسف أحد عشر، وإذا كانوا كواكب أليس من شأنه أن يكون هو وزوجه الشمس والقمر لذا وجدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام يطلب من ابنه ألاّ يقص على إخوته هذه الرؤيا حتى لا يدبروا له أمر سوء، ويغرس في نفس ابنه كي يحذره من كل ما يؤذيه ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥]. وفيها إرشاد ليوسف عليه السلام كذلك ليحذر مكائد الشيطان ويطلع الأب الابن على ما في نفسه، وبما تستشرفه نفسه من أن الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحق ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦]. والاجتباء هو النبوة التي تقتضي التعليم، وفيها اتمام النعمة، وذكّره بأبويه إبراهيم وإسحق عليهما السلام،

ولم يذكر يعقوب عليه السلام نفسه، ذلك لعظم شأنهما أعني إبراهيم وإسحق عليهما السلام. وفي هذه الآيات الثلاث تلخيص لما سيكون ليوسف في البداية والنهاية. ألم تكن النهاية إتمام نعمة ربه عليه؟ ثم تبدأ الآيات بالتفصيل، فتبيّن أن أمر يوسف واخوته كان حديثاً لكثير من الناس، تتوق أنفسهم للعلم بأحوالهم، ويتشوّقون لمعرفة أخبارهم، وما فيها من أحداث متلونة الجوانب، ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧] ما أبدع النظم لقد كانت هذه الآية القصيرة المدخل للتفصيل بعد الإجمال، فها هو يعقوب عليه السلام بعد أن سمع من ابنه رؤياه، بدأ يخصّه بعطفه، ويوليه رعايته وعنايته، ولم يكن ذلك خافياً على الإخوة، كيف وهم يعيشون في بيتٍ واحد، ولا يبقى هذا حبيساً في نفس كل واحد منهم، وهاهم يجلسون يبثّون الشكوى، يتشاورون في أمرهم ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف: ٨] ولا يرضون ذلك من أبيهم، فيتجرؤون على أن يؤكدوا خطأه ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ولكن ماذا يفعلون؟ لا بد من أن يتخلصوا من يوسف إمّا بالقتل، وإما بشيء آخر، فإذا فعلوا ذلك صفت حياتهم مع أبيهم، واستقر أمرهم فيما بعد، ولكن أليسوا من بيت النبوة، أليس القتل جريمةً تحذر منها الديانات كلها؟ أليس فيهم رجل رشيد؟ ويبرز أحدهم لعله أكبرهم يصدّهم عمّا قالوه، هذه المحاورة تبرز في الآيتين ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ . قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ ويجد هذا الرأي صدىً في النفوس، وما عليهم الآن إلاّ أن يسعوا لينفذوا هذا الامر، وأنّى لهم ذلك، فهم يرون من أبيهم الحرص كلّ الحرص، على أن يجنّب يوسف الاختلاط الزائد بهم. والأب من قبل يستشرف موقف أولاده من أخيهم ولكن لا بّد أن ينتهي هذا الصمت. ويصارحون أباهم بما يشعرون به سائلين لمَ لا يأمنهم على يوسف وهو أخوهم يحبون له الخير والنصح؟ وها هم يخرجون كل يوم يرتعون ويلعبون ويرعون أغنامهم، فلمَ يحرم يوسف؟ وهم مصممون على حفظه من كلّ أذى.

ويسمع الأب كلامهم ولكنه لا يستطيع أن يخفي ما في نفسه، إنّه يخاف أن يغفلوا عنه، فيحدث له سوء وربما يأكله الذئب، ويحاولون أن يطمئنوا أباهم إلى أن ذلك لن يكون. كيف وهم عصبة؟ إنهم عشرة رجال. إنهم إذاً لبعيدون عن كل خير. لن يحصل له سوء، ويجيبهم الأب على الرغم مما يتفاعل في نفسه، ويدركون أنّهم قد بلغوا هدفهم، ويذهبون بيوسف عليه الصلاة والسلام. وتعود فكرة قتله من جديد، ولكن لا يطول هذا الاختلاف، ويجمعون بعد ذلك أن يجعلوه في غيابة الجب، وقلت هذا أخذاً من الآية الكريمة ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ﴾ [يوسف: ١٥] لأن الإجماع لايكون إلا بعد اختلاف خصوصاً في مثل هذا الأمر، وفي هذا الخضم، خضم الاخوه الذين يظنون أن كل الأحداث تصب فيما يريدون، تبرز العناية الإلهية أمراً حتى توقن النفوس، التي غرّها ما هي فيه من غفلة، وما تظن بها من قدرة، فنقرأ قوله سبحانه في هذه الأثناء التي ليست في الظاهر لمصلحة يوسف ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] ولعل هذا الوحي كان ليوسف لا لأبيه، ولا شك أن هذا الوحي سيكون الأساس الذي يحتفظ به يوسف فيما يمرّ به من أزمات، وما يعانيه من ضيق وما أجمل قوله سبحانه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ نعم لقد كان هذا الوحي المطمئن ليوسف عليه الصلاة والسلام، وهم سادرون في غيّهم، مصممون على إنفاذ تآمرهم، ويطوي القرآن كثيراً من الأحداث في سورة يوسف: ويلقونه في الجب وتغرب الشمس، ويغيب الشفق ويدخل الليل، ويختارون هذا الوقت للمجيء عند أبيهم؛ لأنه وقت لا يمكن فيه البحث عن يوسف، لذا يحرص القرآن الكريم على إبرازه ﴿عِشَآءً﴾ يجيئون يبكون والبكاء في كثيرٍ من الأحيان لا يعبر عما في النفس، بل يكون لهدفِ التعمية.

وتعبير القرآن بالجملة الفعلية ﴿يَبْكُونَ﴾ له دلالته وإيحاءاته، والجملة الفعلية تدل على الحدوث، فهو بكاءٌ ليس فيه حزن؛ لأنه ليس من القلب، بل غايته أن يخدعوا أباهم. هذا ما تعطيه الجملة الفعلية يبكون، ويبينون أنهم ذهبوا يستبقون وتركوا يوسف عند المتاع،

لأنه لا يقوى مثلهم على الاستباق من جهة وليحفظ المتاع من جهة أخرى، ولكن كان ما كان فأكله الذئب. وهذا القول الذي قالوه يشعرون أنّه لن يغني عنهم شيئاً، لأنهم لن يقنعوا أباهم بهذا حتى لو كانوا صادقين. وحتى تكمل المؤامرة يجيئون على قميصه بدم ليكون برهاناً على صدقهم، ويصفه القرآن بأنّه ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ وهنا يظهر القرآن الكريم حكمة يعقوب عليه السلام وتحمله وتصبره وشفافيته. فيعلن أن الأمر ليس كما قالوا ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] وبل حرف إضراب كما يقول اللغويون يقصد به ابطال ما قبله. فيقول يعقوب لا ليس الأمر كما قلتم بل سولت لكم انفسكم أمرا. أمّا هو فسيصبر الصبر الجميل، وهو الذي لا يشكو صاحبه إلاّ لله وحده، وأنه يستعين بالله على ما دبروه، وتترك الآيات هذا المشهد وترجع للحديث عمّا كان ليوسف. ويبين القرآن الكريم ذلك بقوله ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: ١٩] وهم جماعة من المسافرين، وللمسافرين مواقف ومحطات يستريحون فيها، وغالباً ما تكون قريبة من الماء ليشربوا، ويسقوا دوابهم التي يسيرون عليها ويرسل أولئك واردهم ليأتيهم بالماء، ويدلي الدلو ويرفعه لكن إن فيه لثقلاً ليس هو الماء، ويمسك يوسف بالدلو، ويخرج من البئر لأنّ الإقامة في البئر لا يقوى عليها مثله، ويصيح صاحب الدلو ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ ويضمونه إلى بضاعتهم التي يريدون بيعها، والله وحده أعلم بما يعملون.

ويبيعونه بثمن بخس يبينه القرآن بأنه ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وأكثرَ المفسرون القول في عددها، ولو كان في ذلك خيرٌ لبينه الله تعالى، وكانوا فيه من الزاهدين لأنهم يودون ان يتخلصوا منه. ويقول بعض المفسرين إن الذين باعوه هم اخوته. وفي ذلك بعد ما إخاله يتفق مع القرآن الكريم.

وبهذا تنتهي الحلقة الأولى، لتبدأ الحلقة الثانية، وقبل ان نتجاوزها نشير إلى درس له شأنه وخطره في التربية متصل بالآباء والأبناء.

دروس هذه الحلقة:

إن إخوة يوسف فعلوا ذلك لما رأوه من معاملة أبيهم وتفضيله يوسف عليهم، وهي من القضايا التي تغرس في الأسرة البغض والكراهية وتقطيع الأواصر، وما نظن إلا أن الآيات الكريمة كانت تهدف إلى تقرير هذه الحقيقة، وهي تعليم الآباء أن لا يشعروا الأبناء بتفضيل أحد على أحد، ونجد سيدنا رسول الله ﷺ يؤكد هذه القضية في أحاديثه وأحكامه فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أن أباه وهبه بستاناً وأن أمه أعجبها أن يشهد النبي ﷺ على ذلك فأخذه أبوه وقال يا رسول الله: إني نحلت ابني هذا بستاناً وإن أمه أعجبها أن تشهدك على ذلك ويقول الرسول الكريم ألك غيره؟ قال نعم. قال: ءأعطيتهم كلهم مثل ما أعطيته؟ قال: لا فيقول النبي الكريم: أرجعه -اي أرجع ما أعطيته له- فإني لا أشهد على جَورْ، ثم يقول ﷺ: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»(١).

ولا بدّ من التنبيه هنا على أنّ الآباء ليسوا كلهم مثل يعقوب عليه السلام ولا الأبناء كلهم مثل يوسف عليه السلام، فيعقوب عليه السلام نبيّ قد آتاه الله من العلم ما يخص به أنبياءه، ولقد علمه الله أن يوسف عليه السلام سيكون له شأن ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦] ولقد كان هذا دأب يعقوب فحتى في أحلك الظروف وأشدها قسوة كان يدرك أن لابنه شأناً.

ألم يقصّ علينا القرآن الكريم عن يعقوب عليه السلام وهو يعاني من الحزن والفرقة قوله ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣] وقوله وقد ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ [يوسف: ٨٧] وقوله وقد عاد الركب من مصر ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الهبات حديث رقم ١٦٢٤/ شرح النووي على مسلم ١١/ ٦٨-٦٩ طبع مصر.

لقد كان يعقوب عليه السلام يدرك إذَنْ أن حبّه ليوسف عليه السلام ليس عاطفة أبوّة فحسب، ولكن وراء هذه العاطفة شيء آخر: النبوّة المتسلسلة في هذا البيت الكريم.

أقول: وعلى الرغم من أنّ هذا الحبّ والتفضيل الذي كان مبنياً على أسس وراء العاطفة فكان له ما يسوّغه قد أحدث في نفوس الإخوة ما أحدث، فما بالنا إذا كان هذا التفضيل عاطفياً فحسب؟.

الحلقة الثانية:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ. وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ. وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ. وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ. فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ. ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ. قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ. قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ. فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ. ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ. ﴾.

هذه الحلقة في حياة الكريم ابن الكرماء. الصديق ابن الصديقين هي اكثر الحلقات خطراً وأشدها صعوبة، وأقساها امتحاناً، وأعظمها منّة فلئن ابتلي في الحلقة الأولى بتشريده الأسري والنفسي، فلقد كان ابتلاؤه في هذه الحلقة من حياته للجانب الروحي والخُلُقي نتيجة الجمال الخَلْقيّ، ونفهم من الآية الكريمة أن يوسف عليه الصلاة والسلام بيع في مصر وذلك يفهم من قوله سبحانه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٢١] والقضية التي يجب ان نقف عندها، ما قاله هذا الرجل لامرأته ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] وهذه العبارات تذكرنا بما قالته امرأة فرعون من بعد يوسف لفرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

نحن نعلم أن الخدم ليس لهم ذلك الشأن والتقدير عند السادة، فكيف إذا كانوا عبيداً أرقاء؟ فَلِمَ هذا الاحتفاء من العزيز السيّد بهذا الفتى؟ لا بدّ أنه تفرس في يوسف ﷺ، فرأى فيه من الصفات، ما حمله على أن يحبّه ويجله، فيكون حب يوسف عليه السلام قد دخل إلى قلبه قبل أن يدخل إلى قلب زوجه، وها هو يطلب من امرأته أن تيسر له سبل الراحة الجسمية والنفسية، فلا تكلفه ما لا يطيق، ولا تسمعه ما لا يرضى، وتترفق في معاملته. ويفصح الزوج ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] ويظهر أنهما كانا لا يرزقان الأولاد لعقم في أحدهما، ونترك قول العزيز لامراته لنستمع التعقيب الرباني. وفي قصة يوسف عليه السلام تعقيبات ربانية كثيرة. مرّ بعضها من قبل. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٥]. وسيمر غيرها فيما بعد. هذا التعقيب قوله سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

مثلما نجينا يوسف من الجب فإننا سنمكن له في الأرض أي نجعله ذا مكانة، تهيء له أسباب الرخاء والخير، وننزله المنزلة الرفيعة السامية، هذا من حيث الأمور الدنيوية، وسنزيده شيئاً آخر وهو العلم «ونعلمه من تأويل الأحاديث». وهذه التي بَشَّر بها يوسف عليه السلام أبوه من قبل.

وقوله سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ذكرت مرتين، المرة الأولى هنا. وذلك بعد أن أراد إخوته أن يزيلوه عن ظاهر هذه الأرض فألقوه في غيابة الجب. والمرة الثانية بعد أن بدا لذوي المرأة أن يحولوا بينه وبين رحابة الحياه وسعة الأرض إلى غياهب السجن. فانظروا أرشدني الله وإياكم إلى التدبير الرباني والإحكام القرآني، حيث كان التعقيب على هاتين كلتيهما. أعني اخراج يوسف ﷺ من غيابة الجب واخراجه من غياهب السجن بهذه العبارة القرآنية ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلاّ أن النعمة التي ذكرت بعد الجملة الأولى ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وذلك للحاجة الماسة إليها، وكان تعقيبه بعد الجملة الثانية التي سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦] والله غالب على أمره، وصدق الله، فكل ما في هذا الكون مغلوب له سبحانه، فكل ما قدره نافذ لا محالة «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» وصدق رسول الله ﷺ وتختم الآية بهذه الجملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهي خاتمة للآية لن يصلح غيرها في مكانها. إنّها خاتمة تصلح تعقيباً على ما مضى، وتبصيراً لما سيأتي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولو كان يعلم إخوة يوسف ما يخبئه الله لهم في قدره. ولو كانت تعلم امرأة العزيز شيئاً من العواقب لكان الأمر على غير ما فعلوه جميعاً. وصدق الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وبعد هذا التعقيب ترجع الآيات لتتحدث عن يوسف عليه السلام. يوسف الذي لم يبلغ أشده بعد، أكرمه الله بما يتناسب مع هذه المرحلة من حياته، وما يتسق مع وضعه الجديد فآتاه الله حكما وعلماً والحكم هو فصل القول والإصابة في العمل ليجتنب الهوى، والعلم والمعرفة ليجتنب الجهل، وذلكم جزاء الله لمن علم الله إخلاصهم في عبادته، وخشيتهم له، وحياءهم منه ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وما أجمل تعقيب الآية الكريمة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٦٠].

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣] لم يبين القرآن الكريم المدّة التي مكثها يوسف عليه السلام في بيت العزيز قبل أن يبلغ أشدّه،ولن نعتمد الروايات التي ذُكرت في كتب اليهود ولكن الذي نرجّحه أنّها كانت بضع سنين، لأنه حينما أُلقي عليه الصلاة والسلام في الجب ما كان ليزيد عمره على بضع سنين. ولقد عرفت امرأة العزيز متى تحكم الخطة التي تُمنّي بها نفسها وكيف تُحْكمها. أما الزمن فيحدثنا القرآن الكريم عنه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ [يوسف: ٢٢] وأمّا كيف تحكم الخطة فهذا ما حدثتنا عنه الآيات الكريمة ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ الآيات.

والرَّوْد: التردّد في فعل الشيء بمعنى معاودته مرّةً بعد مرّةٍ. والرّائد: الذي يرسله القوم ليبحث عن الكلأ. وفي المثل: «إن الرّائد لا يكذب أهله». ومن هذا المعنى جاءت الإرادة، والمراودة بين اثنين إرادة أحدهما ما لا يريده الآخر: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١] ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] فهم يودّون شيئاً لا يودّه أبوهم، وكذلك امرأة العزيز. ولقد كان التعبير القرآني محكماً غاية الإحكام يدلّنا على ذلك هذا النظمُ البديع. وأوّل ما يبادرنا هذا الاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾.

وهذه المحاولة من امرأة العزيز التي عاشتها ردحاً من الزمن وتودّ الآن وقد بلغ الأمر بها مبلغه أنْ تُحكم الخطّة إحكاماً بحيث لا تترك ثغرة إلاّ وتسدّها وها هي المحاولة الثانية بعد قوله ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ وهي في قوله سبحانه ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ وهذه الصيغة صيغة التضعيف تنبئنا عمّا يهيمن على نفسها، وليس الإعجاز النفسي إلاّ هذا أيْ تصوير ما في النفس، فلم يقل مثلاً «أغلقت» أو «سدّتْ».

وماذا بعد هاتين المحاولتين؟ لم يبق إلاّ تلكم الصراحة المكشوفة التي تشبه الجنون إنْ لم تَكُنْه، وهي في قوله تعالى ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ هلمَّ، فليس هناك مجال بعد الآن. وما نشُكُّ أنها ما كانت تنتظر من يوسف عليه الصلاة والسلام إلاّ أن يُقبل نهماً كما يُقْبلُ السبع الجائع على فريسته، ولكن الإنسان عدوّ لما يجهل، ولقد جهلتْ السيدة

العزيزة ذات الحبّ العارم أنها مهما بلغ بها الحبّ فإن هناك حباً آخر وهو حبّ يوسف عليه السلام لربه تعالى، ولذلك نجد يوسف عليه السلام ردَّ على محاولاتها الثلاث بقواطع ثلاثٍ: أمّا أوّلاً فبقوله ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ونلحظ هذا الأدب العظيم من الصدّيق الكريم حيث قال ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أيْ أعوذ بالله معاذاً أي ألجأ إليه سبحانه. هذا الأدب والتوّكل حيث لم يقل ﴿أعوذ بالله منك﴾ كما قالت العذراء البتّول ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨] وما أعظم الفرق بين العبارتين.

وأمّا ثانياً فبقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]. ويذهب بعض المفسرين إلى أنه يعني العزيز الذي قال لها: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ وتكون كلمة الربّ هنا على ما عهد في ذلك المجتمع من قول العبد لسيده (ربي)، ويرى آخرون أنه يعني بقوله «ربه» الذي خلقه وسوّاه، ويبدو لي أن الجمع بين القولين ممكن، حيث يكون معنى الآية ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ فهيأ لي الإقامة في هذا البيت الذي لقيت فيه كل تكريم من سيدي وسيدك، وأمّا ثالثاً فبقوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وتجاوز الحدّ ظلم وجحد النعمة ظلم، وتُصْدَمُ المرأة، ولئن كانت أُنثى وهي تدلّ بنفسها شِكْلاً وغَنْجاً فإنها بعدما سمعت وكان من حقها بعد الذي سمعته أن ترعوي وتخمد ثورتها في نفسها ويتلاشى شبقها - ولكنها بعدما سمعت ما سمعته تحولت إلى حيوان كاسر شرسٍ عَقور، فها هي تهمّ به، ويوسف عليه الصلاة والسلام لم تكن فيه عِنّةٌ ولم يكن خالياً من فحولة الرجال، فلم لا يمر مثل هذا الفكر على نفسه؟ وهنا تبين العناية الإلهية أنه أُكرم ببرهان ربّه ليصرف الله عنه السوء والفحشاء لأنه من عباده المخلصين.

ويحاول يوسف الهرب ليخرج من الباب، ولكنها - وقد عَزَمت على ما أرادت وركبت متن الغواية -تحاول أن تسبقه إلى الباب فتقدّ قميصه من دبُر، والقدُّ هو الشقّ طولاً والقطّ هوْ الشقّ عَرضاً، ويبدو أنها تبعتهُ فَشَقَّت قميصه شقّاً طُوليّاً. وهنا -ولله الحكمة- يصل في هذه اللحظات الحرجة صاحب البيت ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يوسف: ٢٥]، وتبادرهُ القول ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ دون أن تبين له هذا السوء

وتستعطفه بهذه الكلمة «بأهلك». ولكن يوسف عليه الصلاة والسلام لا يجد بُدّاً من أن يقول كلمته الصريحة ﴿ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ أيْ لستُ أنا الذي أردتُ السوء، وهٰذا يُفهم من قوله ﴿ هِيَ رَٰوَدَتْنِي ﴾ حيث ذُكر الضمير العائد عليها مرتين. ويطوي القرآن بعض ما كان، وهذا كثير في سورة يوسف. ولا ندري ماذا كان بين الثلاثة وكيف جاء الشاهد فيمابعد. إنّ القرآن الكريم يطوي ما يتم المعنى بدونه.

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ ويظهر أنّ هذا الشاهد كان من ذوي الحكمة والفصاحة والعقل، وليس صبياً في المهد كما يقول بعضهم، حيث بنى شهادته على خبرة ومعرفة ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [يوسف: ٢٦].

ويتبين أن القميص لم يُقدّ من قبل إنما قُدّ من دبر. وهنا وبكلّ مرارة وألم يقول الزوج كلماته التي تتلعثم في فمه ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ويطلب من يوسف أن يُغَيِّب هذا الحديث وينصحها أن تستغفر لذنبها ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾. نعم الخاطئين ولم يقل «المخطئين» لأن المخطىء من يحدث منه الخطأ عن غير قصد. أمّا الذي يتعمد الإساءة فهو الخاطىء. قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة: ٣٧] وقال تعالى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق: ١٦]. ولقد اختلف الناس كثيراً في معنى قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٤]. اختلفوا في مقامين اثنين:

أوّلاً: اختلفوا في معنى الهمّ.

ثانياً: اختلفوا في المراد من «برهان ربه».

أمّا الهمّ فقد ذهبوا فيه مذاهب مختلفة: قال قائل -وياليته لم يقُلْ- إنّ يوسف قد همَّ بفعل ما طُلب منه وأعدّ العدّة لهذا، لكنّه امتنع على الرغم منه، لأنه رأى ما يخيفه وهو برهان ربّه.

وقال قائلٌ إنّ يوسف همّ بها ليضربها، فكان همّه مختلفاً عن همّها وعجيبٌ أن هذا القول قد ذهب إليه صاحب المنار -رحمه الله- محاولاً أن يستدل له من اللغة وغيرها ولكنه لن يتمّ له ما أراد.

وقال آخرون إنّ يوسف لم يحدث منه هَمٌّ لأنهم وقفوا عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ وابتدأوا بقوله تعالى: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾. والمعنى عندهم: «لولا أَنْ رأى برهان ربه لهَمَّ بها».

وهناك قولٌ رابعٌ وهو أنّ يوسف عليه الصلاة والسلام حدث منه همٌّ، ولكنّ هذا الهمّ ليس عزماً، وهو ممّا لا يؤاخذ الله عليه، ويقول هؤلاء إنّ الفعل قبل أن يخرج يمرّ بمراحل خمسٍ في النفس: الهاجس، والخاطر، وحديث النفس، والهمّ، والعزم، والذي يحاسب الله عليه هو العزم فحسب، ويقول أصحاب هذا الرأي إنّ هذا يدلّ على عظمة يوسف عليه السلام حيث استطاع أن يكبح جماح الشهوة في هذا الظرف العصيب، وهو درس اراد الله سبحانه وتعالى أن يتعلمّه الشباب الذين هم مثل يوسف عليه السلام ويتعرّضون لمثل ما تعّرض له. وهذا قول ذهب إليه كثير من المحقّقين وهو قولٌ يتفق مع منطق الأشياء. أمّا اختلافهم في (برهان ربه) فقد ذهبوا فيه مذاهب كثيرة جدّاً جلّها لا يتفق مع ما أكرم الله به يوسف عليه الصلاة والسلام فمن قائلٍ إن الأبواب قد فُتِّحت ومِنْ قائلٍ إنّه رأى جبريل يحذّره، ومِنْ قائلٍ إنّه رأى أباه ينذره، ومِنْ قائلٍ إنها نُزِعتْ منه الشهوة، وكلّها أقوالٌ -كما قلتُ- لا تتفق لمن آتاه الله حكماً وعلماً. إنما برهان ربه ذلكم النور الذي ملأ الله به قلبه فانبثق عنه الحبّ والخوف والرّجاء. وهذا الذي يتفق مع معنى البرهان الوارد في كتاب الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤] ذلكم هو برهان الله الذي أكرم الله به يوسف عليه السلام فصرف عنه السوء وهو الصبوة والفحشاء وهي طاعة المرأة، ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] بفتح اللام أي ممّن استخلصهم الله تبارك وتعالى وهذه شهادة من الله

والله أكبر شهادةً، حتى إنّ إبليس اللعين شهد لأولئك المُخْلَصين حيث اعترف بأنه لن يقدر على إغوائهم.

وقد أعجبني كلامٌ جيد طيّب للكاتب الإسلامي الذي وقف قلمه على الدفاع عن العربية والإسلام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله وأجزل مثوبته- أنقله لك لتمتع نفسك وفكرك بقراءته[1].

عَجَبا للحب! هذه ملِكَة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجُها بثمنٍ بَخْس؛ ولكنْ أين مُلْكُها وسطوةُ مُلْكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي﴾ و«التي» هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنةً من كانت؛ فلم يَبْقَ على الحبّ مُلْك ولا مَنْزِلة؛ وزالَتِ الملِكةُ من الأنثى!.

وأعْجَبُ من هذا كلمة ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لَوْنٍ بعدلون؛ ذاهبةً إلى فن، راجعةً من فن؛ لأن الكلمةَ مأخوذة من رَوَدَان الإبل في مشيتها؛ تذهبُ وتجيء في رِفْق. وهذا يُصَوِّر حَيْرَةَ المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها؛ ومحاولتها أن تنفُذَ إلى غايتها؛ كما يصوّر كبرياء الأنثى إذ تختالُ وتترفّقُ في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيءٌ آخر غيرُ طبيعتها؛ فمهما تتهالكْ على مَنْ تحب وَجَب أن يكون لهذا «الشيء الآخر» مَظهرُ امتناعٍ أو مظهر تحيُّر أو مظهرُ اضطراب، وإن كانت الطبيعةُ من وراء ذلك مندفِعةً ماضيةً مصمِّمة.

ثم قال: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ليدُلّ على أنها لا تطمع فيه، ولكن في طبيعته البشرية، فهي تَعرِض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآية مصرِّحةٌ في أدبٍ سامٍ كلَّ السموّ، منزَّهٍ غايةَ التنزيه بما معناه: «إن المرأة بذلتْ كل ما تستطيع في إغرائه وتَصبيته،

(١) انظر وحي القلم: ١/ ١٠٤-١٠٦.

مقبِلةً عليه ومتدللةً ومتبذلةً ومُنْصَبّة من كلّ جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضة كل ذلك عرض امرأةٍ خلعتْ -أول ما خلعتْ- أمام عينيه ثوبَ المُلك».

ثم قال: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ولم يقل «أغلقت» وهذا يُشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولةَ الانصراف، أسرَعتْ في ثَورة نفسها مهتاجةً تتخيّل القُفلَ الواحدَ أقفالاً عِدّة، وتجري من باب إلى باب، وتضطربُ يدُها في الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكَةً ولا امرأة، بل أنوثة حيوانيةً صِرْفةً، متكشّفة مصرِّحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغلَيانها.

هذه ثلاثةُ أطوار يترقى بعضُها من بعض، وفيها طبيعةُ الأنوثة نازلةً من أعلاها إلى أسفلها. فإذا انتهت المرأةُ إلى نهايتها ولم يَبْقَ وراء ذلك شيءٌ تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثَمّ عظَمةُ الرجولة السامية المتمكِّنةِ في معانيها، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وهذه أسْمَى طريقةٍ إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذ كان أساسُ ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفةَ الجميل، وكراهةَ الظلم. ولكنّ هذا التنبيهَ المترادفَ ثلاثَ مرّات لم يكسر من نَزْوَتِها، ولم يَفْثأ تلك الحِدّة، فإن حبَّها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمن، في مكانٍ، في رَجُل، فهي فكرةٌ مُحْتَبَسَة كأن الأبوابَ مغلقةٌ عليها أيضا؛ ولذا بقيت المرأة ثائرةً ثورةَ نفسها. وهنا يعود الأدبُ الإلهي السامي إلى تعبيره المعجز فيقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ كأنما يُوميءُ بهذه العبارة إلى أنها ترامَتْ عليه، وتَعَلَّقَتْ به، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهي لَمْسُ الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرةِ في الهشيم...!.

جاءت العاشقةُ في قضيتها ببرهان الشيطان يقذفُ به في آخر محاولته. وهنا ينبع ليوسف عليه السلام برهانُ ربّه كما وقع لها هي برهانُ شيطانها. فلولا برهانُ ربّه لكان رجُلاً من البَشَر في ضعفه الطبيعي.

قال أبو محمد[1]: وههنا المعجزه الكبرى، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفي عن يوسف عليه السلام فُحولةَ الرجولة، حتى لا يُظَنَّ به، ثم هي تريد من ذلك أن يتعلم الرجال وخاصة الشبانَ منهم، كيف يتسامَوْن بهذه الرجولة فوق الشهوات، حتى في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة؛ حالةِ مَلِكةٍ مطاعةٍ فاتنة عاشقةٍ مُخْتَلِية مُتَعرِّضة متكشِّفَة متهالكة. هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرى شيئاً من هذا -هي أن يرى برهانَ ربّه.

وهذا البرهانُ يُؤَوِّله كلُّ إنسان بما شاء، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلِّها فيفُضُّها كلها؛ فإذا مثل الرجلُ لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتَصِبان أمام الله يراهما، وأن أماني القلب التي تهجِس فيه ويظنها خافيةً إنما هي صوتٌ عالٍ يسمعه الله؛ وإذا تذكرَ أنه سيموت ويُقْبَر، وفكَّر فيما يصنعُ الثرى في جسمه هذا، أو فكر في موقفه يوم تَشْهَدُ عليه أعضاؤه بما يعمل، أو فكر في أن هذا الإثم الذي يقترِفُه الآن سيكون مَرْجعهُ عليه في أخته أو ابنته -إذا فكّر في هذا ونحوه رأى برهانَ ربِّـه يُطالعه فجأة، كما يكون السائرُ في الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية، ثم ينظر فجأة فيرى برهانَ عَيْنِه؛ أترونْه يتردى في الهاوية حينئذ، أم يقف دونها وينجو؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثرُ الكلام، وأكثرُ الموْعِظة، وأكثرُ التربية، والتي هي كالدِّرْع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان، كلمة «رأى برهانَ ربه» اهـ. كلام الرافعي.

(١) يعني عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه.

ويصل الخبر إلى النسوة، ويظهر أنهن من ذوي الشأن كذلك ويتحدث بعضهن لبعض، ونحن نعلم حديث المرأة عن المرأة ﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ ﴾ استولى على قلبها وكيانها، إنّها موغلةٌ في الضلال، مغرقة في الخطيئة، ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾، ويصل إليها خبرهنّ وقولهنّ، ولكنها تكون أكثر منهن ذكاءً، وأشد منهن مكراً، فتدبر لهن ما حدثنا القرآن الكريم عنه فتعد العدة لاستقبالهن، وتعد لهن المجالس الفاخرة، وفاكهة مما يتخيّرن وتعطي كلاً سكيناً، لتقطع بها ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام، ويوسف داخل البيت وما نظنه غافلاً عمّا يكاد له، وإلا فلماذا تطلب منه إن يخرج على النسوة ﴿ وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ ﴾ [يوسف: ٣١]، ويخرج مَن ملك حسن الظاهر، ومنّ الله عليه بطهارة الباطن، وتكون لَحْظة الذهول منهن، وقد رأين ما لم يكن لهن في الحسبان، وها هي عواطفهن، وخفقات قلوبهن تبلغ مبلغاً، يذهل فيه العقل وتُتناسى فيه اللياقة، فيجرحن أيديهن، وهكذا حينما تطغى العاطفة ويهيمن الهوى، وتتراجع ضوابط العقول والفكر.

يا للدهشة! ويا لخفقات القلب! ويا للجمال الأخّاذ، ويا لشراسة العاطفة، ويا لقوة الضعف، وضعف القوة! ماذا رأين؟ رأين من استولى علىقلوبهن فأكبرن طلعته، وماذا قلن؟ ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾. لقد بلغت امرأة العزيز ما تريد ولقد كان نجاحها باهراً فيما فعلت ودبرت، ولقد شعرت أن اللواتي قلن ما قلن ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ شعرت أنّهن الآن يتمنين كلهن ما تمنّته، لقد ظَنَنَّ وهنّ يَلُمْنَها أنّ يوسف بشر كغيره، أمّا وقد رأينه الآن، فلَمْ يسبق أن رأَيْن بشراً يشبهه، فلا لوم عليها إذَنْ، وهذا الذي دفعها، أن تهتك كلّ حجاب وأن تزيل كلّ مخبوء حتى لا يبقى هناك سرّ مكتوم، ولِمَ تخفي في نفسها ما دام النسوة جميعاً، تمنت كل مُقطّعةٍ يدها أن تُسْعد نفسها؟ فلتخبرهن إذن بكل صراحة ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾ ما أجمل هذه الكلمة ﴿ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾ [يوسف: ٣٢] إنها برهان العظمة، ودليل القوة «استعصم»

كان أقوى من كل شيء، أقوى من الشهوة العارمة، «استعصم» ارتفع فوق كل مظاهر ما يعجب به النّاس، «استعصم» فلم يعبأ بكل مظاهر الأبهة والسلطان والترف. وهذا الترفع والتمنع لا بد أن يقابل بما يبدّده، إذا كان يستعصم، ويأبى، ولا تحرك لوعات القلب له ساكناً، فلا بدّ له من عقاب شديد يتلاءم مع تمنعه وترفعه وتصرّح امامهن بهذا العقاب ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾. هكذا ﴿ءَامُرُهُۥ﴾ فأنا ذات السيادة، والمقام الرفيع ﴿ءَامُرُهُۥ﴾ فما عليه إلاّ أن ينفذ الأمر، فإن لم يفعل ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ما أعظم وما أبدعَ التصوير وما أحكمَ النّظم، وهل الإعجاز النفسيّ إلاّ التعبير عن كوامن النفس بحيث تصور الكلمات كل ما يجول في النفس، وهذا ما صورته هذه الكلمات ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] ولقد توعدته بنوعين من العقاب، الأول هو لها ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ والثاني ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، ولعلك تلحظ أخي القارىء أن كلّاً من العقابين أُكِّد بالنون، لكنّ العقاب الأوّل أُكّد بنون التوكيد الثقيلة ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ وأمّا العقاب الثاني فأُكّد بنون التوكيد الخفيفة ﴿وَلَيَكُونًا﴾ وإذا قرأت الآية الكريمة أدركت الفرق بين النونَيْن، فنون التوكيد الثقيلة مفتوحة مشددة وأما النون الخفيفة فساكنة، فإذا وقفت على نون التوكيد الثقيلة سكنتها أما إذا وقفت على النون الخفيفة، فإنك تقلبها ألفاً تقول ﴿ليكونا﴾ وكذلك قوله سبحانه ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥] وإذا وقفت عندها تقول ﴿لَنَسْفَعَا﴾، وبعد أن بينت لك الفرق بين النونين يسهل علينا الآن أن نتلمس الحكم العظيمة في اختصاص كل عقاب بما ذكر، أما السجن فعقاب ترجو أن تصل منه إلى بغيتها، وهو أمر يسير عليها، كيف لا وهي امرأة العزيز، ثم إن سجنه قد يكون سبباً في الاستجابة لها، لأن الناس يضجرون من حياة السجن، لذلك أكدته بنون التوكيد الثقيلة، أما العقاب الثاني وهو الإذلال والصغار والهوان فهو شيء لا تقدر عليه، ولن تقدر عليه كذلك، سبحان الله إنها تقدر على سجنه ولا تقدر على هوانه وصغاره. إنّ السجن أمر يسير، أما هوانه وصغاره وإذلاله فأمر صعب صعب دونه فرط القتاد، وشيب الغراب. لماذا؟ لأنها تحبه، وهل سمعتم أن حبيباً يستطيع أن يذل حبيبه أو يهينه بل لا يستطيع أن يسمح

لأحد أن يذله ويهينه، لذلك أكدت العقاب الثاني بنون التوكيد الخفيفة هذان نونا التوكيد «ليسجنن» و«ليكونَنْ» وليست هناك نون ثالثة في هذه الآية، أقول هذا، لأني قرأت في كتاب «الوحدة الموضوعية في قصة يوسف» للدكتور حسن باجودة قوله إنّ النون في«ذلكنّ» نون التوكيد وهذا عجيبٌ حقّاً أن نخلط بين نون التوكيد ونون النسوة، ونون التوكيد كما نعلم لا تدخل إلاّ على بعض الأفعال، أمّا الأسماء فلا تدخل عليها نون التوكيد وهذه النون ليست نون التوكيد يقيناً، وهنا أطلب من الإخوة وبخاصة طلاب الدراسات الشرعية، أن تكون لهم عناية بدراسة العربية نحواً وصرفاً وبياناً.

وكأن يوسف عليه الصلاة والسلام كان يستمع إلى هذا الوعيد الذي أَشْهَدتْ عليه، فما كان منه إلاّ أن أصرّ على ما كان منه من استعصام، لكنّه إن لم يثبته الله فقد يضعف عن المقاومة ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾ [يوسف: ٣٣] وكأن يوسف ﷺ أدرك أنه إن أطاع امراة العزيز، فإن وراء ذلك ما وراءه ولن يقف الأمر عندها وحدها ولكن قال ﴿ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾ ولم يقل «ما تدعوني إليه» ويدعونني فعل مضارع لجماعة النسوة، فهو فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة ونون النسوة فاعل أمّا قولنا «الرجال يدعونني» فهو فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، فيوسف عليه الصلاة والسلام أدرك أن الدعوة ليست من امرأة العزيز نفسها بل من النساء كلهن يشهد لهذا ما ذكره القرآن الكريم فيما بعد ﴿ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ﴾ [يوسف: ٥١].

وقد يقول قائل: ألا يدل قول يوسف ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾ [يوسف: ٣٣] على أن دعوتهن كانت أمراً محبباً إليه؟ لأن «أحب» أَفعل تفضيل يقتضي اشتراك أمرين في صفة وزيادة أحدهما على الآخر في تلك الصفة، فإذا قلنا «زيدٌ أعلم من عمرو» دلّ على أنهما يشتركان في صفة العلم، لكن أحدهما زاد على صاحبه.

ونقول: إنّ يوسف عليه الصلاة والسلام لا يفاضل بين هذين الأمرين. إنما يدعو ربّه أن يصرف عنه كيدهن ولم يسأل الله أن يُسْجن، وكأنه يقول: إن السجن أحب إلي من

دعوتهن حينما أُرغم على شيء ولا أودّه أما إذا ترك الأمر لاختياري فأنا لن ألبّي لهنّ دعوةً أبداً. ولذلك سأل ربّه أن يصرف عنه كيدهن حتى لا يصبو إليهنّ، والصبوة: غلبة الهوى، والذي يصبو كأنّما يفعل فعل الصبيان، ويظهر أنّ هذا هو أصل الكلمة.

ويستجيب الله دعاءَ يوسف. سبحانه لا حول ولا قوة إلا به، مقاليد السموات والأرض بيده، إنْ أطاعه العبد فهو فضل منه سبحانه، وإن امتنع عن معصيته فهو بفضل منه سبحانه. وما أجمل ما جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في معنى لا حول ولا قوة إلاّ بالله: اللّهم لا حول عن معصيتك إلا بعصمتك، ولا قوة على طاعتك إلاّ بتوفيقك، فنسألك اللهم أن تحول بيننا وبين معصيتك بعصمتك وأن تقوينا على طاعتك بتوفيقك. ويظهر أن الحديث فيما كان من المرأة لم ينته، لذا وجدنا العزيز وذويه ومعهم المرأة يتشاورون فيما بينهم، فعلى الرغم من براءة يوسف عليه السلام التي اعترفوا بها هم، والتي كانت أوضح من الشمس في رابعة النهار، وعلى الرغم من الآيات الكثيرة التي رأوها تثبت براءته عليه الصلاة والسلام على الرغم من هٰذا كلّه هيمنت عليهم الحمية فاتخذوا قرارهم وأجمعوا أمرهم على أن يسجنوا يوسف حتى حين إلىأن تسكن العاصفة فينسى الناس هذه القضية، وقد أقسموا على ذلك وهذا يُفهم من قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥] إذ اللاّم واقعة في جواب القسم والذين اتخذوا هذا القرار هم المرأة وزوجها وذووها، وليس أزواج النساء اللواتي قطعن أيديهن كما يرى صاحب كتاب «الوحدة الموضوعية في سورة يوسف».

تلكم هي الحلقة الثانية وهي كما قلت لكم من قبل كانت أكثر الحلقات إثارة وعناءً في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام.

وفي ختام هذه الحلقة -ولمن يعشقون القول المفصّل في معنى همّ يوسف وما يتصل به- أحب أن أنقل صفحات من تفسير الميزان للعلاّمة السيّد محمد حسين الطباطبائي رحمه الله حيث توسع كثيراً في هذا الموضوع ونقل أقوال المفسرين أقدمين ومحدثين

ابتداءً من الكشاف إلى المنار، مع أنّ ما ذكرته من قبل كافٍ، ولكن تتميماً للفائدة، ولأن الناس ليسوا سواءً في حب الاقتضاب والإطناب، فإن كنت أيها القارىء ممن يميلون إلى التفصيل فإليك ما ذكره صاحب الميزان:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] التدبر البالغ في أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط العاملة فيها يعطي أن نجاة يوسف منها لم تكن إلا أمراً خارقاً للعادة وواقعة هي أشبه بالرؤيا منها باليقظة.

فقد كان يوسف ﷺ رجلاً، ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شاباً بالغاً أشده وذلك أوان غليان الشهوة وثوران الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب، والجمال والملاحة يدعو إلى الهوى والترف، وكان مستغرقاً في النعمة وهنيء العيش محبوراً بمثوى كريم وذلك من أقوى أسباب التهوس والإتراف، وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال وكذلك تكون حرم الملوك والعظماء.

وكانت لا محالة متزينة بما يأخذ بمجامع كل قلب، وهي عزيزة مصر وهي عاشقة والهة تتوق إليها النفوس وتتوق نفسها إليه، وكانت لها سوابق الإكرام والإحسان والإنعام ليوسف عليه السلام وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان، وقد تعرضت له ودعته إلى نفسها والصبر مع التعرض أصعب، وقد راودته هذه الفتانة وأتت فيها بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألحت عليه فجذبته إلى نفسها حتى قدت قميصه والصبر معها أصعب وأشق، وكانت عزيزة لا يرد أمرها ولا يثنى رأيها، وهي ربته خصه بها العزيز، وكانا في قصر زاه من قصور الملوك ذي المناظر الرائقة التي تبهر العيون وتدعو الى كل عيش هنيء.

وكانا في خلوة وقد غلقت الأبواب وأرخت الستور، وكان لا يأمن الشر مع الامتناع، وكان في أمن من ظهور الأمر وانهتاك الستر لأنها كانت عزيزة بيدها أسباب الستر

والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كان مفتاحاً لعيش هنيء طويل، وكان يمكن ليوسف عليه السلام أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها إلى كثير من آمال الحياة وأمانيها كالملك والعزة والمال.

فهذه أسباب وأمور هائلة لو توجهت إلى جبل لهدّته أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعاً إلا الخوف من ظهور الأمر أو مناعة نسب يوسف عليه السلام أو قبح الخيانة للعزيز.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان في أمن منه. ولو كان بدا من ذلك شيء لكان في وسع العزيزة أن تؤوله تأويلاً كما فعلت فيما ظهر من أمر مرادوتها فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاء فلم يؤاخذها بشيء وقلبت العقوبة ليوسف عليه السلام حتى سجن.

وأما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت إخوة يوسف عليه السلام عما هو أعظم من الزنا وأشد إثماً فإنهم كانوا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أمثال يوسف عليه السلام فلم تمنعم شرافة النسب من أن يهموا بقتله ويلقوه في غيابت الجب ويبيعوه من السيارة بيع العبيد ويثكلوا فيه أباهم يعقوب النبي ﷺ فبكى حتى ابيضت عيناه.

وأما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية والقوانين الاجتماعية إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة، وذلك إنما يتم فيما إذا كان الانسان تحت سلطة القوة المجرية والحكومة العادلة، وأما لو أغفلت القوة المجرية أو فسقت فأهملت أو خفي الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين كما ستتكلم فيه عن قريب.

فلم يكن عند يوسف ﷺ ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه إلا أصل التوحيد وهو الإيمان بالله. وإن شئت فقل المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلاً ولا موضع إصبع. فهذا هو ما يفيده التدبر في القصة. ولنرجع إلى متن الآية.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] لا ريب أن الآية تشير إلى وجه نجاة يوسف من هذه الغائلة، والسياق يعطي أن المراد بصرف السوء والفحشاء عنه إنجاؤه مما أُريد منه وسئل بالمراودة والخلوة، وإن المشار إليه بقوله: «كذلك» هو ما يشتمل عليه قوله: «أن رآى برهان ربه».

فيؤول معنى قوله: «كذلك لنصرف» إلى آخر الآية الى أنه ﷺ لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء والفحشاء بما رأى من برهان ربه، فرؤية برهان ربه هي السبب الذي صرف الله سبحانه به السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام.

ولازم ذلك أن يكون الجزاء المقدر لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ هو ارتكاب السوء والفحشاء، ولازم ذلك أن يكون «لولا أن رآى» الخ قيداً لقوله: «وهم بها» وذلك يقتضي أن يكون المراد بهمه بها نظير همها به هو القصد الى المعصية ويكون حينئذ همه بها داخلاً تحت الشرط، والمعنى أنه لولا أن رآى برهان ربه لهم بها وأوشك أن يرتكب فإن «لولا، وإن كانت ملحقة بأدوات الشرط وقد منع النحاة تقدم جزائها عليها قياساً على إن الشرطية إلا أن قوله: «وهم بها» ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف على قوله: «ولقد همت به» وهو في معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا: والله لأضربنه إن يضربني والمعنى: والله إن يضربني أضربه.

ومعنى الآية: والله لقد همت به والله لولا أن رأى برهان ربه لهم بها وأوشك أن يقع في المعصية، وإنما قلنا: أوشك أن يقع، ولم نقل: وقع لأن الهم -كما قيل- لا يستعمل إلا فيما كان مقروناً بالمانع كقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ [التوبة: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقوله صخر:

أهمّ بأمر الحزم لا أستطيعه   وقد حيل بين العير والنزوان

فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ولم يقل: لنصرفه عن السوء والفحشاء فتدبر فيه.

ومن هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهمّ بها والميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهي الزنا فهو ﷺ لم يفعل ولم يكد، ولولا ما أراه الله من البرهان لهمّ وكاد أن يفعل، وهذا المعنى هو الذي يؤيده ما قدمناه من الاعتبار والتأمل في الأسباب والعوامل المجتمعة في هذا الحين القاضية لها عليه.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ اللام فيه للقسم، والمعنى وأقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه ولا يكون الهم إلا بأن تشفع الإرادة بشيء من العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ معطوف على مدخول لام القسم من الجملة السابقة، والمعنى أقسم لولا رؤيته برهان ربه لهمّ بها وكاد أن يجيبها لما تريده منه.

والبرهان هو السلطان ويراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزة قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] وهو الحجة اليقينية التي تجلي الحق ولا تدع ريباً لمرتاب.

والذي رآه يوسف ﷺ من برهان ربه وإن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه -على أي حال- كان سببا من أسباب اليقين لا يجامع الجهل والضلال بتاتاً، ويدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف ﷺ فيما يناجي ربه كما سيأتي: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، ويدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال وقبحها ومصلحتها ومفسدتها أن هذا النوع من العلم قد يجامع الضلال والمعصية وهو ظاهر. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

فالبرهان الذي أراه به وهو الذي يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف واليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعة لا تميل معها الى معصية أصلاً، وسنورد فيه بعض الكلام إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٥٤] اللام في ﴿لِنَصْرِفَ﴾ للغاية أو التعليل والمآل واحد و﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلق بقوله ﴿لِنَصْرِفَ﴾ والإشارة الى ما ذكر من رؤية برهان ربه، والسوءهو الذي يسوء صدوره من العبد بما هو عبد وهو مطلق المعصية أو الهمّ بها، والفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعة كالزنا، وقد تقدم أن ظاهر السياق انطباق السوء والفحشاء على الزنا والهمّ به.

والمعنى: الغاية -أو السبب- في أن رآى برهان ربه هي أن نصرف عنه الفحشاء والهمّ بها.

ومن لطيف الإشارة في الآية ما في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ حيث أخذ السوء والفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفاً عنهما، لما في الثاني من الدلالة على أنه كان فيه ما يقتضي اقترافهما المحوج الى صرفه عن ذلك، وهو ينافي شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين وهم الذين أخلصهم الله فلا يشاركه فيهم شيء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أي داع يدعو من دون الله سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ الخ والمعنى: عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين، وهم يعاملون هذه المعاملة.

ويظهر من الآية أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم، وأن الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقترفون معصية ولا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه، وهذه هي العصمة.

ويظهر أيضاً أن هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفة المعهودة لنا.

وساق العلامة الطباطبائي -رحمه الله- أقوالاً للمفسّرين في تفسير الآية:

١- **منها**: ما ذكره بعضهم ونسب إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وغيرهم: أن المعنى أنها همت بالفاحشة وأنه هم بمثله، لولا أن رآى برهان ربه لفعل.

وقد وصفوا همه ﷺ بما يجل عنه مقام النبوة ويتنزه عنه ساحة الصديق فذكروا أنه قصدها بالفاحشة ودنا منها حتى حل السراويل وجلس منها مجلس الخائن فأدركه برهان من ربه أبطل الشهوة ونجاه من الهلكة، وذكروا في وصف هذا البرهان أموراً كثيرة مختلفة.

قال الغزالي في تفسيره لهذه السورة: اختلفوا فيه -يعني في البرهان- ما هو؟ قال بعضهم: إن طائرا وقع على كتفه فقال في أذنه: لا تفعله فإن فعلت سقطت من درجة الأنبياء. وقيل: إنه رأى يعقوب عليه السلام عاضاً على إصبعه، وهو يقول: يا يوسف عليه السلام أما تراني: وقال الحسن البصري: رآها وهي تغطي شيئاً فقال لها: ما تصنعين؟ قالت: أغطي وجه صنمي لئلا يراني فقال يوسف عليه السلام: أنت تستحيين الجماد الذي لا يعقل ولا يرى فأنا أولى أن أستحي ممن يراني ويعلم سري وعلانيتي.

قال أرباب اللسان: إنه نودي في سره يا يوسف اسمك مكتوب في ديوان الأنبياء، وتريد أن تفعل فعل السفهاء. وقيل: رأى كفا قد خرج من الحائط مكتوب عليها: ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا. وقيل: انفرج سقف البيت فرأى صورة حسنة تقول: يا رسول العصمة لا تفعل فإنك معصوم. وقيل: نكس رأسه فرأى على الأرض مكتوباً: ومن يعمل سوءاً يجز به. وقيل: أتاه ملك ومسح جناحيه على ظهره فخرجت شهوته من أصابع رجليه. وقيل: رأى الملك في البيت وهو يقول وقيل: وقع بينهما حجاب فلا يرى أحد صاحبه. وقيل: رأى جارية من جواري الجنة فتحير من حسنها فقال لها: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يزني.

وقيل: جاز عليه طائر فناداه: يا يوسف لا تعجل فإنها لك حلال ولك خلقت. وقيل: رأى ذلك الجب الذي كان بحذائه وعليه ملك قائم يقول يا يوسف أنسيت هذا الجب. وقيل: رأى زليخا على صورة قبيحة فهرب منها. وقيل رأى شخصا فقال: يا يوسف انظر الى يمينك فنظر فرأى ثعباناً أعظم ما يكون فقال: الزاني في بطني غداً فهرب منه. انتهى.

ومما قيل فيه أنه تمثل له يعقوب فضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من أطراف أنامله رواه في الدر المنثور عن مجاهد وعكرمة وابن جبير الى غير ذلك من الوجوه المختلفة التي أوردوها في التفسير بالمأثور.

والجواب عنه مضافا الى أنه ﷺ كان نبيا ذا عصمة إلهية تحفظه من المعصية، وقد تقدم إثبات ذلك، أن الذي أورده الله تعالى من كرائم صفاته وإخلاص عبوديته لا يبقي شكا في أنه أطهر ساحة وأرفع منزلة من أن ينسب إليه أمثال هذه الألواث فقد ذكر تعالى أنه كان عبداً متقيا صبوراً في الله غير خائن ولا ظالم ولا جاهل، وكان من المحسنين وقد ألحقه بآبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

وكيف تستقيم هذه المقامات العالية والدرجات الرفيعة إلا لإنسانٍ طاهر في وجدانه منزه في أركانه صالح في أعماله مستقيم في أحواله.

وأما من ذهب لوجهه في معصية الله وهم بما هو أفحش الإثم في دين الله وهو زنا ذات البعل وخيانة من أحسن إليه أبلغ الإحسان في عرضه وأصر عليه حتى حل التكة وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فأتته لصرفه آية بعد آية فلم ينصرف، وازدجر بنداء بعد نداء من كل جانب فلم يستحي ولم يكف حتى ضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من رؤوس أصابعه، وشاهد ثعباناً أعظم ما يكون من عن يمينه فذعر منه وهرب من هول ما رأى، فمثله أحرى به أن لا يسمى إنساناً فضلاً أن يتكىء على أريكة النبوة والرسالة، ويأتمنه الله على وحيه، ويسلم إليه مفاتيح دينه، ويؤتيه حكمه وعلمه ويلحقه بمثل إبراهيم الخليل عليه السلام.

لكن هؤلاء المتعلقين بهذه الأقاويل المختلفة والإسرائيليات والآثار الموضوعة إذ يتهمون جده إبراهيم ﷺ في زوجته سارة لا يبالون أن يتهموا نجله ﷺ في زوجة غيره.

قال في الكشاف: وقد فسر همّ يوسف عليه السلام بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع، وبأنه حلّ تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها وفسّر البرهان بأنه سمع صوتا: إياك وإياها فلم يكترث له فسمعه ثانياً فلم يعمل به فسمع ثالثا: أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على أنملته، وقيل ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله.

وقيل: كل ولد يعقوب عليه السلام له اثنا عشر ولدا إلا يوسف عليه السلام فإنه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته حين هم، وقيل: صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها: «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين» فلم ينصرف ثم رأى فيها: «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا» فلم ينته ثم رأى فيها: «واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله» فلم ينجع فيه فقال الله لجبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟

وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة الى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحيي منه أن يرانا فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحيي من السميع البصير العليم بذات الصدور؟

ويردّ الطباطبائي هٰذا الرأي قائلاً:

ولو وجدت من يوسف ﷺ أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم عليه السلام زلته، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون عليهم السلام وذكرت توبتهم واستغفارهم كيف وقد أُثني عليه وسمي مخلصا؟

فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم ناظرا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته، وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين كما جعله لجده الخليل إبراهيم ﷺ. وليقتدي به الصالحون الى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقع العثار.

فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي الىأن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها، وفي أن ينهاه ربه ثلاث مرات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أُنثاه وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا يتنبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأجلحهم وجهاً لقى بأدنى ما لقي به مما ذكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك، فياله من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه. انتهى.

وما أحسن ما قال بعض أهل التفسير في ذم أصحاب هذا القول إنهم يتهمونه عليه السلام في هذه الواقعة وقد شهد ببراءته وطهارته كل من له تعلّق ما بها فالله سبحانه يشهد بذلك إذ يقول: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ والشاهد الذي شهد له من أهلها إذ قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ﴾ الى آخر الآيتين، والعزيز إذ قال لامرأته. ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ وامرأة العزيز إذ قالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] والنسوة إذ قُلْنَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ ويوسف ينفي ذلك عن نفسه وقد سماه الله صديقا إذ قال: ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

وعمدة السبب في تعاطيهم هذا القول أمران:

أحدهما: إفراطهم في الركون الى الآثار وقبول الحديث كيفما كان وإن خالف صريح العقل ومحكم الكتاب فلعبت بأحلامهم الإسرائيليات وما يلحق بها من الأخبار الموضوعة المدسوسة، وأنستهم كل حق وحقيقة وصرفتهم عن المعارف الحقيقة.

الثاني: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ بناء على ما ذكره النحاة أن جزاء «لولا» لا يتقدم عليها قياسا على إن الشرطية، وعلى هذا يصير قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جملة تامة غير متعلقة بالشرط، وجواب لولا قولنا «لفعل» أو ما يشبه ذلك والتقدير: ولقد همت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام وهم يوسف عليه السلام بها لولا أن رأى برهان ربه لفعل، وهو المطلوب.

وقد عرفت فساد ذلك وأن الجملتين معاً أعني قوله: «ولقد همت به» وقوله: «وهم بها» قسميتان، وأن جزاء لولا في معنى الجملة الثانية حذف لدلالتها عليه، والكلام على تقدير: وأقسم لقد همت به. وأقسم لولا أن رأى برهان ربه لهم بها نظير قولهم: والله لأضربنه إن ضربني.

على أن الذي قدروه من المعنى كان الأنسب به أن يقال: «ولولا أن رأى برهان ربه» بالوصل، ولا وجه ظاهرا من جهة السياق يوجه به الفصل.

٢- **ومن الأقوال** في الآية أن المراد بهمه ﷺ ميل الطبع وانتزاع الغريزة قال في الكشاف: فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها؟ قلت: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر إلى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم.

ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمّها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين.

ويجوز أن يريد بقوله: «وهم بها» وشارف أن يهم بها كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يريد مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه.

ثم قال: فإن قلت: لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها، وهلا جعلته هو الجواب مقدماً. قلت: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل أنه في حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز.

فإن قلت: فلم جعلت لولا متعلقة ب(همّ بها) وحده؟ ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: «ولقد همت به وهم بها» لأن الهم لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني فلا بد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا باثنين معاً فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما.

قلت: نعم ما قلت ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمَّيْن على سبيل التفصيل حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ فكان إغفاله إلغاء له فوجب أن يكون التقدير: ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها، على أن المراد بالمخالطتين توصلهما الى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه، وتوصله الى ما هو حظه من قضاء شهوته منها لولا أن رأى برهان ربه فترك التوصل الى حظه من الشهوة فلذلك كانت «لولا» حقيقة بأن تعلق ب(همّ بها) وحده انتهى. ولخصه البيضاوي في تفسيره حيث قال: المراد بهمه ﷺ ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفة الهم كقولك: قتلته لو لم أخف الله. انتهى.

وردّ هذا القول بأنه مخالف لما ثبت في اللغة من معنى الهم وهو القصد الى الفعل مع مقارنته ببعض الأعمال الكاشفة عن ذلك من حركة الى الفعل المراد أو شروع في بعض مقدماته كمن يريد ضرب رجل فيقوم إليه، وأما مجرد ميل الطبع ومنازعة القوة الشهوانية فليس يسمى همّاً ألبتة والهم بمعناه اللغوي مذموم لا ينبغي صدوره من نبي كريم، والطبع وإن كان غير مذموم لخروجه عن تحت التكليف لكنه لا يسمى همّاً.

أقول: هذا إنما يصلح جواباً لقولهم: إن المراد بهمه ﷺ ميل الطبع ومنازعة الشهوة، وأما تجويزه أن يكون المراد بالهم الإشراف على الهم فلا، بل هو قول على حدة في معنى الآية وهو أن يفرق بين الهمَّيْن المذكورين فالمراد بهمها القصد العمدي الى المخالطة وبهمه إشرافه ﷺ على الهم بها من دون تحقق للهم بالفعل والقرينة عليه هو وصفه تعالى إياه بما فيه مدح بالغ، ولو كان همه حقيقاً بالقصد العمدي إلى مخالطتها كان فعلاً مذموماً لا يتعلق به مدح أصلاً فمن هنا يعلم أن المراد بهمه ﷺ إشرافه على الهم لا الهم بالفعل.

والجواب: أنه معنى مجازي لا يصار إليه إلا مع عدم إمكان الحمل على المعنى الحقيقي، وقد تقدم أنه بمكان من الإمكان.

على أن الذي ذكروه في معنى رؤيته برهان ربه وأن المراد بها الرجوع الى الحجة العقلية القاضية بوجوب الانتهاء عن النواهي الشرعية والمحارم الإلهية معنى بعيد من اللفظ إذ الرؤية لا تستعمل الافي الإبصار الحسي أو المشاهدة القلبية التي هي بمنزلتها أو أظهر منها، وأما مجرد التفكير العقلي فلا يسمى رؤية ألبتة.

٣- ومن الأقوال في الآية: أن المراد بالهمَّيْن مختلف فهمّها هو قصدها مخالطته وهمه بها هو قصده أن يضربها للدفاع عن نفسه، والدليل على التفرقة بين الهمَّيْن شهادته تعالى على أنه من عباده المخلصين وقيام الحجة عقلا على عصمة الأنبياء عليهم السلام.

قال في مجمع البيان: إن الهم في ظاهر الآية قد تعلق بما لا يصح تعلق العزم به على الحقيقة لأنه قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ فعلق الهم بهما وذاتاهما لا يجوز أن يراد ويعزم عليهما لأن الموجود الباقي لا يصح أن يراد ويعزم عليه فإذا حملنا الهم في الآية على العزم فلا بد من تقدير أمر محذوف يتعلق العزم به. وقد أمكن أن نعلق عزمه بغير القبيح، ونجعله متناولا لضربها أو دفعها عن نفسه فكأنه قال: ولقد همت بالفاحشة منه وأرادت ذلك وهمّ يوسف بضربها ودفعها عن نفسه كما يقال هممت بفلان أي بضربه وإيقاع مكروه به.

وعلى هذا فيكون معنى رؤية البرهان أن الله سبحانه أراه برهانا على أنه إن أقدم على ما هم به أهلكه أهلها أو قتلوه أو ادعت عليه المراودة على القبيح وقذفته بأنه دعاها إليه وضربها لامتناعها منه، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء اللذين هما القتل وظن اقتراف الفاحشة به، ويكون التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك، ويكون جواب لولا محذوفاً كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠] انتهى موضع الحاجة.

والجواب: أنه قول لابأس به لكنه مبني على التفرقة بين الهمَّيْن وهو خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن حملهما على معنى واحد وقد عرفت إمكان ذلك.

على أن لازمه أن يكون المراد بالبرهان الذي رآه ما يدل على أنه إن ضربها استتبع ذلك هلاكه أو مصيبة أخرى تصيبه ويكون المراد بالسوء والفحشاء القتل والتهمة -كما أشار إليه في المجمع- وهذا خلاف ما يستفاد من السياق قطعا.

وأما ما ذكره في المجمع من عدم جواز إرادة العزم على المخالطة من الهمَّيْن معا، ومحصله أن الهم إنما يتعلق بمن لا ينقاد للعازم الهامّ فيما يريده، وإذا فرض تحقق الهمّ من أحد الطرفين لم يصح تحققه مع ذلك من الطرف الآخر إذ لا معنى لتعلق الإرادة بالمريد والطلب من الطالب وبعث من هو مبعوث بالفعل.

ففيه أنه لا مانع من تحقق الهم من الطرفين إذا فرض تحققهما دفعة واحدة من دون سبق ولحوق أو قارن ذلك عناية زائدة كإنسانين يريدان الاقتراب والاجتماع فربما يثبت أحدهما ويتحرك إليه الآخر، وربما يتحركان ويقتربان ويتدليان معا، وجسمين يريدان الانجذاب والاتصال فربما يجذب أحدهما وينجذب إليه الآخر وربما يتجاذبان ويتدانيان.

٤- **ومن الأقوال في الآية**: أن المراد بالهم في الموردين معاً الهم بالضرب والدفاع فهي لما راودته وردها بالامتناع والاستنكاف ثارت منها داعية الغضب والانتقام وهاج في باطنها الوجد الممزوج بالسخط والأسف فهمت به لتضربه على تمرده من امتثال ما أمرته به، وهو لما شاهد ذلك استعد للدفاع عن نفسه وضربها إن مسته بسوء غير أن ضربه إياها ومقاومته لدفعها لما كان ربما يتهمه في أنه راودها عن نفسها ودعاها الى الفحشاء أراه الله سبحانه بفضله برهاناً فهم منه ذلك وأُلهم أن يختار للدفاع عن نفسه سبيل الفرار فقصد باب البيت ليفتحه ويخرج من عندها فعقبته فاستبقا الباب.

ولا مساغ لحمل الهم على الهم بالمخالطة أما في قوله: «ولقد همت به» فلأن الهم لا يكون إلا بفعل للهام، والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به، وإنما نصيبها منه قبولها لمن يطلبه منها بتمكينه منه. هذا أولا.

على أن يوسف لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه همّاً لها فإن نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئـهُ من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضاً. وهذا ثانياً.

على أنّ ذٰلك لو وقع لكان الواجب في التعبير عنه أن يقال:

ولقد همّ بها وهمت به لأنّ الأوّل هو المقدّم في الطبع والوضع وهو الهمّ الحقيقي، والهمّ الثاني متوقف عليه لا يتحقق بدونه. وهٰذا ثالثاً.

على أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلبا جازما مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضى له، فإذن لا يصح أن يقال: إنها همت به مطلقا حتى لو فرض جدلا أنه كان قبولا لطلبه ومواتاة له إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه، وأما الهم بمعنى قصدها له بالضرب تأديباً فيصح ذلك فيه بأهون تقدير. وهذا رابعا. انتهى ملخصا مما أورده صاحب المنار في تفسيره.

والجواب: أنه يشارك القول السابق في معنى همه بها فيرد عليه ما أوردناه على سابقه، وأما ما يختص به أن المراد بهمها به قصدها إياه بضرب ونحوه فمما لا دليل عليه أصلاً، وأما مجرد اتفاق ذلك في بعض نظائر القصة فليس يوجب حمل الكلام عليه من غير قرينة تدل على ذلك.

وأما ما ذكره من استبعاد أن يراد من قوله: «ولقد همت به» الهم على المخالطة أو عدم صحته فوجوه سخيفة جداً فإن من المعلوم أن هذه المخالطة تتألف عادة من حركات وسكنات شأن المرأة فيها الفعل دون الانفعال والعمل دون القبول فلو همت به بضم أو ما يناظره ليلتهب بذلك ما خمدت من نار غريزته الكامنة، وتلجئه الى إجابتها فيما تريده منه صح أن يقال: إنها همت به أي بمخالطته وليس من الواجب أن يفسر همها به بقصدها خصوص ما هي قابلة له حتى لا يصح به إطلاق الهم عليه.

وأما ما ذكره أخيراً أنها كانت جازمة غير مترددة فلا يصح أن يراد بهمها الهم على ما تريده من المخالطة ففيه أنها إنما كانت جازمة في إرادتها منه وعزيمتها عليه، وأما في تحقق الفعل ووقوعه على ما قدرته فلا كيف؟ وقد شاهدت من يوسف الامتناع والإباء عن مراودتها، وإنما همت به لما قابلها بالاستنكاف ولا جزم لها مع ذلك بإجابته لها ومطاوعته لما أرادته منه وهو ظاهر.

٥- **ومن الأقوال في الآية**: حمل الكلام على التقديم والتأخير ويكون التقدير: ولقد همت به لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ولما رأى برهان ربه لم يهم بها، ويجري ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت لولا أني تداركتك، وقد كنت قتلت لولا أني خلصتك، والمعنى: لولا تداركي لهلكت -ولولا تخليصي لقتلت وإن كان لا يقع هلاك وقتل، ومثله قول الشاعر:

فلا تدعني قومي ليوم كريهة　　　لئن لم أُعجل ضربة أو أُعجل

وفي القرآن الكريم: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] نسبه في المجمع الى أبي مسلم المفسر.

والجواب: أنه إن كان المراد به ما ربما يقوله المفسرون: إن في القرآن تقديماً وتأخيراً فإنما ذلك فيما يكون هناك جمل متعددة بعضها متقدمة على بعضها بالطبع فأهمل النظم واكتفى بمجرد العدّ من غير ترتيب لعناية تعلقت به كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] إنه من التقديم والتأخير، وأن التقدير: فبشرناها فضحكت وأما قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فالمعنى يختلف فيه بالتقديم والتأخير فهو إذا قدم كان هما مطلقا من غير تقييد لعدم جواز كونه جواباً للولا مقدما عليها على ما ذكروه، وإذا أُخّر كان همّاً مقيداً بالشرط.

وإن كان المراد أنه جواب للولا مقدم عليها فالنحاة لا يجوزونه قياسا على إن الشرطية ويؤولون ما سمع من ذلك، اللهم إلا أن يكون ذلك خلافا منه لهم لعدم الدليل على هذا القياس، ولا موجب لتأويل ما ورد في الكلام مما ظاهره ذلك.

٦- **ومن الأقوال في الآية**: ما ذكروا أنها أول ما همت به في منامها وهم بها لأنه رآها في منامه فعند ذلك علم أنها له فلذلك هم بها. أورده الغزالي في تفسيره قال: وهذا وجه حسن لأن الأنبياء كانوا معصومين لا يقصدون المعاصي. انتهى.

والجواب أنه إن أُريد به أن قوله: «وهم بها» حكاية ما رآه يوسف ﷺ في المنام فهو تحكم لا دليل عليه من جهة اللفظ ألبتة، وإن أُريد به من أنه ﷺ رآها في المنام وهم بها فيه، واعتقد من هناك أنها له وخاصة بناء على أن رؤيا الأنبياء وحي، ثم هم بها في اليقظة في مجلس المراودة بالمضي على اعتقاده فيها فأدركته رؤية برهان من ربه يبين له أنه قد أخطأ في زعمه ففيه إثبات خطأ الأنبياء في تلقي الوحي، وليس ذلك بأقل محذورا من تجويز إقدامهم على المعاصي.

على أن الآية السابقة - وقد عدّ فيها المخالطة ظلما لا يفلح صاحبه واستعاذ بالله منه- تناقض ذلك.فكيف يزعم أنها له وهو يعده ظلما ويستعيذ منه بالله سبحانه؟

فهذه عمدة الأقوال في الآية وهي مع ما قدمناه أولاً ترتقي إلى سبعة أو ثمانية، وقد علمت أن معنى رؤية البرهان يختلف بحسب اختلاف الأقوال فمن قائل إنه سبب يقيني شاهده يوسف ﷺ، ومن قائل إنه الآيات والأمور التي ظهرت له فردعته عن اقتراف الخطيئة، ومن قائل إنه العلم بحرمة الزنا وعذابه، ومن قائل إنه ملكة العفة، ومن قائل إنه العصمة والطهارة وقد عرفت ما هو الحق منها[1].

---

(١) تفسير الميزان: ١٢/ ١٢٦-١٤٠.

الحلقة الثالثة:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦-٤٢].

وقول الله تعالى ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ إشارة طيبة إلى أنّ هناك قواسم بين الناس من أجلها يألف بعضهم بعضاً، فيوسف عليه السلام فتى وهما فتيان وهم عبيد أرقاء كذلك وهذا كافٍ لإيجاد وشائج بينهم في السجن الذي يجمع عادةً بين نزلائه على اختلاف طبائعهم.

ويوسف عليه الصلاة والسلام الذي دخل السجن حتّى لا يصبو لا رغبةً في السجن يدرك أنّ هذه رحمة من ربّه حيث أجاب دعاءه ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ ﴾ [يوسف: ٣٣]. وأقول: يوسف عليه السلام في هذا السجن ينبغي أن يكون حركة دعوية والقرآن الكريم بإيجازه وإعجازه يطوي كثيراً من الأخبار التي تُفهم من السياق وقد كثر هذا في قصتي النبيين يوسف وموسى عليهما الصلاة والسلام كما سيظهر لنا في هذه السورة سورة الكريم وفي سورة القصص التي تحدّثنا عن الكليم، ويظهر أن العلاقة قد توطدت بين

يوسف عليه السلام والفتيَيْن فعرفا شيئاً من علومه ومن صفاته الطيّبة وحكم الله لا تُحصى، وبعد أن أدرك الفتيان ما لصاحبهما من حصافةِ رأي ورجاحة فكر وكريم خلق وطيب معدن كيف لا وقد قال الله ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٢١]، وقد قالها له أبوه يعقوب من قبل ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦]. نعم عليم حكيم، ومن حكمته سبحانه أنْ هيّأ للفتيَيْن أن يرى كلّ منهما رؤيا ليستمع إليها يوسف فيؤوّلها له. ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦]. وهذه الشهادة منهما ليوسف عليه الصلاة والسلام ما كانت لتكون وليدة لحظات من جهة ولا قولاً عن غير بصر ودليل من جهة أخرى، بل كانت نتيجة خبرة ومعرفة ومشاهدات.

سر التعبير بالماضي ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾ والمضارع ﴿ أَرَىٰنِىٓ ﴾:

وهنا لا بدّ أن نقف مع النظم المعجز، فلقد كثرت مادة الرؤيا في هٰذه السورة الكريمة إلاّ أن التعبير عنها تارةً كان بالفعل المضارع ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ ﴾ ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ ﴾ وقال الملك ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ ﴾ كل ذٰلك جاء التعبير عنه بالفعل المضارع، على حين قرأنا في أول السورة الكريمة قول يوسف ﷺ ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾ حيث جاء التعبير بالفعل الماضي. يقول الدكتور حسن باجوده «وليس لذٰلك من تعليل في اعتقادي، والله أعلم، سوى أن الغلام الصغير يوسف ذا النفس البريئة المشرقة يريد أن يقصّ في براءة الرؤيا التي رأى دون أن يكون بطبعه شيء من اهتمام لما تدلّ عليه أو يترتب عليها. لهٰذا جاء الفعل في صيغة الماضي الذي يشعرنا بأنّ كلّ شيء عن الرؤيا ينتهي بقصّها على والده. أمّا فيما يتصل بالساقي والخباز والملك فإن الأمر يختلف، فهم بحكم السن والتجربة مُهيّؤون بطبعهم للتمثّل الدائم للرؤيا حريصون على تعبيرها، لهذا جاء الفعل «أرى» مراتٍ ثلاثاً لما ذكرنا، وليس الفعل «رأى» الذي انفرد باستعماله الغلام البريء يوسف والله أعلم»[1].

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام للدكتور حسن محمد باجودة: ص٣٣٩.

وقد أغرب الكاتب الفاضل فيما ذهب إليه فالخبرة أو عدمها لا صلة لهما بالماضي والمضارع، بل قد يقال عكس ما ذهب إليه الكاتب من أن صاحب الخبرة ينبغي أن يعبّر بالماضي لتأكده من الأمر، والسرّ البياني الذي يظهر -والله أعلم بما ينزل- أبيّنه فيما يلي:

كثيراً ما يُعبر بالمضارع عن الماضي، وقد كثر هذا في القرآن الكريم قال تعالى ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧] وقال ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٩] وقال ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ [الأنفال: ١١]. وهذه الأمور التي عُبّر عنها بالفعل المضارع أمور قد مضت كلّها، ولكن القرآن الكريم يختار الفعل المضارع لأكثر من سبب فحيناً ليدلّ على الاستمرار وحيناً يكون التعبير بالمضارع لاستحضار صورة الماضي إذْ يريد أن يصورها تصويراً آنياً لتكون أكثر تأثيراً في النفس، ألا ترى أنك حين تشاهد مسرحية تاريخية تكون أكثر تأثيراً في نفسك من أن تقرأ مضمونها خبراً من الأخبار، وهذا الذي يعنينا هنا. لقد عُبّر بالفعل الماضي مرة واحدة وهي رؤيا يوسف؛ ذلك لأن يوسف عليه الصلاة والسلام كان طفلاً صغيراً، فما كان يعنيه ما رأى كثيراً فلا حاجة لأن يستحضره في نفسه ليعبر بالفعل المضارع، أمّا التعبير بالمضارع فنجده عند الفتيَيْن وعند الملك، أمّا الفتيان فقد كان أمر الرؤيا يؤرّقهما؛ لذا عبّرا عنه بالمضارع استحضاراً للصورة وكذلك كان شأن الملك. ويقال إن رؤياه تكررت. ألا تتدبر أيّها القارىء قول الخليل الكريم جدّ الكرماء أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] حيث عبر بالفعل المضارع، ذلك لأنها رؤيا أحدثت في النفس أثراً يصعب عليها فأراد الخليل استحضار هٰذه الصورة التي كان لها شأن عنده فعبر بالمضارع. ذلكم هو السرّ في التعبير بالماضي والمضارع كما يبدو ولله درّ التنزيل.

دعوة يوسف الفتيين إلى الله:

ويستمع يوسف عليه الصلاة والسلام من صاحبَيْه وهنا يعلّمنا القرآن الكريم كيف نجلّ ذوي النفوس الكبيرة وفي مقدّمتهم أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام. قبل أن يعبر لهما الرؤيا بين أن من شأنه أنه ينبِّهما بكثير من شؤونهما ممّا لا يعرفان، وهذا كله إنما هو بفضل ربه تبارك وتعالى، فربّه هو الذي علّمه وتلكم دعوة لهذين الفتيَيْن ليُسلما وجهيهما إلى الله تبارك وتعالى، ويبين لهما أنه ينبذ ويترك كلّ عقيدة وملّة فيها انحراف عن الحق وعن توحيد اللهتبارك وتعالى وما يستتبعه من الإيمان باليوم الآخر وهو لأول مرة يفخر بنسبه الزكيّ لا فخر ذوي الحمية الجاهلية، ولكن فخر المؤمن الذي يعتزّ بعزّة الله ويشكر الله على أن جعله من ذرية هذه الصفوة المختارة التي كرّمها الله بالاصطفاء: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام وهم الذين قال الله فيهم ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧] ويعترف عليه الصلاة والسلام لله وحده بالفضل ولئن كان أكثر الناس غير شاكرين فإنه يشكر الله على نعمائه، وبعد هذا البيان الذي يدور بين الصراحة والتلميح ينتقل إلى دعوة صريحة ويحب أن يشركهما في التفكير ليستنتجا بأنفسهما الحق الذي لا محيد عنه، وها هو يوجّه إليهما السؤال بهذه الصيغة المؤثرة: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. يستثمر يوسف عليه الصلاة والسلام هذا الموقف لدعوتهما إلى الله قبل أن يعبر الرؤيا، وبعد إقامة الحجة على توحيد الله سبحانه وتعالى الواحد القهار وبيان أنّ له وحده الحكم يؤول رؤيا كل منهما ويظهر أن صاحب الخبز لم يرضه ما سمع، فادعى الكذب فيما رأى، ونفهم هذا من قول يوسف ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

ولا بدّ أن نقف هنا وقفة قبل أن نواصل المسيرة الخيّرة مع الكريم ابن الكرماء. إنّ أحد السجينَيْن سيخرج إلى رحاب الحياة لينادم الملك، ودعوته إلى التوحيد فيها خير له ولغيره من الناس إن استجاب ولبّى، ولكنّ أيّ ثمرةٍ من دعوة صاحبه الذي سيخرج من

الحياة لا يلوي على شيء؟ ويوسف عليه الصلاة والسلام يوجّه الدعوة لهما معاً وتلكم هي نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خيّرة زكية لا تستريح إلاّ حينما تتغلغل دعوتهم إلى الله في نفوس الآخرين وإنّ ممّا يسعد يوسف عليه السلام ويشعره بالطمأنينة ليشكر ربّه أن ينقذ الله به رجلاً من النار وتلكم شيمة الأنبياء، وهذا يذكرنا بما كان من سيدنا رسول الله ﷺ وقد ذهب ليزور غلاماً يهودياً كان يخدمه وكان في حالة احتضار فقال له النبي: أسْلِم، فنظر الغلام إلى أبيه. قال له أبوه: أطعْ أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ فرح النبي ﷺ ثم قال: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»[1]. إنها كوكبة الأنبياء الذين جعلهم الله جُنّةً لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً.

ويطلب يوسف عليه السلام إلى الذي ظنّ أنّه ناج منهما أن يذكره عند ربه الذي سيسقيه خمراً بعد خروجه من السجن، ولكن النسيان طبيعة في هذا الإنسان، ثمّ إنّ الوفاء لا يتصف به كثير من الناس، فينسى هذا الساقي صاحبه الذي في السجن ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢] فلبث يوسف في السجن بضع سنين. ولبعض المفسرين قول آخر وهو أن هذه الجملة الكريمة تتصل بيوسف عليه الصلاة والسلام، ومعنى الآية عندهم أن يوسف عليه الصلاة والسلام طلب إلى الساقي أن يذكره عند ربه، مع أن يوسف عليه الصلاة والسلام كان ينبغي أن يعتمد على الله وحده، ولكن الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربه سبحانه فلبث في السجن بضع سنين. وهذا قول بعيدٌ وقد سمعنا من يوسف عليه الصلاة والسلام دعوته إلى الله واعتماده عليه وشكره له، وقوله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] أفيقال بعد كل هذا إن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه؟ وبهذا تنتهي الحلقة الثالثة من قصة يوسف عليه الصلاة والسلام لتبدأ حلقة أخرى.

---

(١) انظر مسند أحمد ٣/ ٢٢٧.

الحلقة الرابعة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٤٣-٥٧].

وقال الملك: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ يظهر أنّ هذه الرؤيا -أرّقت نفس الملك. لما فيها من الغرابة. فالبقرات السبع السمان يأكلهن سبع عجاف وهذا على غير ما ألف الناس، وهناك سبع سنبلات خضر وأخرُ يابسات ولم يحدد القرآن عددهن أهنّ سبع كذلك؟

ولا ريب أن الرؤيا كان لها في نفس الملك شأن وخطر، ولهذا يوجه السؤال إلى الملأ، وهم أشراف القوم من كهنة وغيرهم، وسمّوا كذلك لأنهم يملؤون العيون والمجالس، وكأنهم يريدون أن يهوّنوا على الملك ما رأوا من تأثره بهذه الرؤيا فيقولون

أضغاث أحلام والأضغاث جمع ضغث. وكما قال الراغب: «الضغث ريحان أو حشيش أو قضبان وجمعه أضغاث، قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤]، وبه شبه الأحلام المختلفة التي لا تتبيّن حقائقها ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ حزم أخلاط من الأحلام انتهى. فلا ينبغي لك أن تشغل بها، ولكنهم أدركوا أن حديثهم هذا لم يجد صدى في نفس الملك فقالوا ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

وهنا يعود الساقي إلى نفسه، تعود به الذكريات: لقد تذكر صاحبه في السجن ذلكم الصدّيق الأمين الذي تحقق ما أخبره به، ويقيني أنه أخبر الملك بما كان من خبره وخبر صاحبه حيث تحقق ما أخبر به يوسف عليه السلام فكان مطمئنّ القلب واثق النفس بأنّ هذه الرؤيا ليس لها إلا يوسف عليه السلام فقال قولة الواثق ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] وكأن لقاء يوسف عليه السلام كان أمراً غير مرغوب فيه لما يبث من عقيدته بين الناس، ونحن نرى في عصرنا هذا أنّ كثيرين قد تخرجوا في السجون دعاة مخلصين حتى إن السجّانين وذوي السلطة تنبهوا لهذا فكانت الزنزانات والسجن الانفرادي.

ويتوق الملك إلى معرفة ما يقوله يوسف عليه السلام، ويذهب الساقي مُجِلاً ليوسف عليه السلام معتذراً عمّا كان منه من تقصير، وها هو يخاطبه بهذه الصفة الخيرة: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ...﴾ وهذا يدل على تمام الثقة حيث لم يقل «عبر لنا هذه الرؤيا» إنها الفتوى التي تعتمد اليقين فهي حقيقة إذَنْ، ويقصّ عليه الرؤيا ويقول في آخرها ﴿أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]. ما أبدع النظم القرآني المعجز ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث ذكرت (لعلّ) مرّتين. ونعجبُ من الدكتور عبد الفتاح لاشين إذْ يقول إنّ (لعلّ) الثانية زائدة والتقدير «لعلّي أرجع إلى الناس فيعلموا».

فجيء بلعلّ الثانية ليرتفع الفعل المضارع (يعلمون) مراعاةً للفواصل. وكنّا نودّ من الكاتب الفاضل أن يجنب القرآن الكريم هذا التمحّل، فمراعاة الفاصلة أوّلاً لا يمكن أن تكون على حساب المعنى وأمّا ثانياً فإنّ لكلٍّ من حرفي الترجّي (لعلّ) غرضاً رئيساً

يحتّمه المعنى[1]، ويؤول يوسف عليه الصلاة والسلام الرؤيا، ونلحظ أنّ النفوس الكبيرة تنسى أو تتناسى كثيراً من حظوظها، لأنّ لها عناية بما فيه خير الآخرين وصلاحهم، وها نحن لم نسمع كلمة من يوسف عليه السلام فيها شيء من التأنيب بل العتاب لذلك الساقي الذي طلب منه يوسف عليه السلام أن يذكره وتمرّ السنون ولا يخطر له ببال ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي عملاً متواصلاً فيه جهد وتعب، وهكذا النوازل الملمّات لا بدّ لها من الجدّ والاجتهاد ويشير إلى حقيقة قد يستغنى عنها بتعبير الرؤيا، وهذه هي الامانة ذلكم قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ وهذه حقيقة علمية جيدة، أيْ لا يُدْرَسُ القمح بل يوضع في مخازنه حبّاً غير مقشور لئلا يلحق به التلف ويصيبه التسوّس وتعضّه الآفات و «ما» يمكن أن تكون شرطية ويكون «حصدتم» فعل الشرط والأصل في فعل الشرط أن يكون مضارعاً لكنه يُجعل ماضياً لأغراض بيانية[2] ويكون قوله سبحانه «فذروه» جملة جواب الشرط في محل جزم، ويمكن أن تكون «ما» موصولة مبتدأ في محل رفع متضمنة معنى الشرط، فتكون الفاء واقعة في خبرها لما فيها من إبهام وغرضها التأكيد، وهذا كثير في الكتاب الكريم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٧].

وعلى هذا فما ذكره صاحب «الوحدة الموضوعية في سورة يوسف» غير دقيق حيث رأى أن «ما» إن كانت موصولة فلا داعي للفاء، والأَوْلى أن تكون شرطية لأن كونها موصولة لا تبين فيه حرارة إخلاص يوسف[3]. والحق أن لا صلة لكونها موصولة

---

(١) راجع كتابنا (لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن).

(٢) راجع كتابنا «البلاغة فنونها وأفنانها -علم المعاني» مبحث الإطلاق والتقييد.

(٣) ص٣٩٨.

أو شرطية بالإخلاص أو الحرارة، وفي آيتي البقرة والحج خير دليل لما قلت، وقوله إن (ما) لو كانت موصولة فلا داعي للفاء تردّه آيتا البقرة والحج حيث جاء فيهما اسم موصول (الذين) ولا يجوز أن يكون شرطاً.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] يدلّنا على كثرة الخيرات في أرض مصر من جهة وعلى وجوب الاقتصاد فيما يأكلون من جهة أخرى، وبعد سنيّ الخصب السبع يأتي سبعٌ شدادٌ يأكلن كل شيء إلا قليلاً ممّا يحصنون، ايْ ما يضعونه في أمكنة كأنما هي الحصن وهي التي تُعرف بالصوامع في أيامنا هذه، ثمّ يأتي بعد ذلك عام خصب فيه يُغاث الناس ويعصرون[1] وهذا دليل على كثرة الخيرات في هذا العام من زروع وثمر ولقد قلت من قبل إنّ سورة يوسف عليه الصلاة والسلام يجد من يتدبرها أنها تطوي كثيراً ممّا يُعْلَمُ من السياق من أخبار، فبعد أن سمع الساقي هذا التأويل من يوسف عليه السلام ذهب إلى الملك وأخبره بما قال يوسف عليه السلام فعجب الملك وسُرَّ من هذا القول وطلب من خاصّته أن يأتوه بيوسف عليه السلام كلُّ هذا طواه القرآن الكريم لكونه معلوماً ويذهب الرسول بالبشرى إلى يوسف ليخرجه من السجن لأنّ الملك يودّ لقاءه، وهنا يبرز مالم يكن في الحسبان، هنا تصغر الحياة وتتلاشى. كلّ هذه الزخارف والمآثر التي يطمع فيها كثير من الناس تتلاشى أمام عظمة النفوس الكبيرة التي اختارها الله لتؤدي الرسالة وتقوم بالعبء

وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين الكبير العظائم

فمن ذا الذي يتصور أو يدور في خلده أنّ سجيناً قضى في السجن سنين طويلة ظلماً وعدواناً يأبى الخروج من السجن والخروج إلى أين؟ إلى حيث اللقاء بالملك سيّد البلاد كلّها، ولكنه يوسف الكريم ابن الكرماء عليه السلام ولنستمع إليه ماذا يقول لرسول الملك: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] يعني الملك فَسَلْهُ عن خبر كان له في الناس

---

(١) يغاثون بالنبت والكلأ ويعصرون أي يستخرجون الماء مما يعصر كالعنب والقصب والسمسم.

شأن وهو خبر النسوة اللاتي قطعن أيديهن قبل سنين طويلة والذي كان سبباً في زجّه في هذا السجن ما بال أولئك النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]. ويلتقيهن الملك ويسألهن ويجبن مجمعات «حاشا لله» تلك الكلمة التي قلنها يوم أن التقين بيوسف عليه السلام لأول مرة في بيت امرأة العزيز ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] كانت الكلمة تنم عن إعجابهن بجماله وحسنه وبهاء طلعته، ولكنهنّ يقلنها الآن إعجاباً بالجانب الخلقي ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وهكذا أكرم الله يوسف فجمله خَلْقاً وحسّنه خُلُقاً ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي لم نعلم عليه أيّ سوء قليلاً أو كثيراً. فمن هذه استغراقيّة كما يقول علماء اللغة ويؤتى بها لتأكيد النفي وتأكيد عمومه أيْ ليس عليه ذرّة سوء. ومثل هذه قوله سبحانه ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] فمنْ هذه للاستغراق ايْ لا نشرك بالله أيّ شيء وهي لتأكيد النفي وعمومه.

وقد ذهب الأخ الفاضل صاحب «الوحدة الموضوعية في تفسير سورة يوسف» مذهباً عجباً حيث قال إن (من) في الآيتين تبعيضيّة وإنّ نفي الأخص أبلغ من نفي الأعمّ، ولكنّ المعنى لا يستقيم على هذا القول، ثمّ إنّ من المعلوم بداهةً أن نفي الأعمّ أبلغ من نفي الأخصّ.

وهنا تتحدث امرأة العزيز ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ولم تقل هذه العبارة لأول مرة بل قالتها أوّل مرة في حضرة النسوة ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٢]، وها هي تقولها الآن مرة أخرى ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾. والفرق بين القولين أن القولة الأولى جاءت مؤكدة بمؤكَّدات كثيرة وهي القسم وقد، لأن اللام واقعة في جواب القسم، وأمّا هنا فليس فيها إلاّ تأكيد واحد وهو ذِكْر الضمير مرّتين (أنا والتاء) ولم تقل ﴿روادته عن نفسه﴾ بل قالت ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾. ويبدو أنّ الفرق بين الموضعين والله أعلم بما ينزل أنها قالتها في المرّة الأولى وهي تنبع من عواطفها ورغبتها وإحساساتها.

قالتْها متوعدةً مهدِّدة تريد أن تظهر قوّتها وبطشها وترّفعها ليستجيب لها، ولذا قالت ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾ الآية. وليس الأمر هنا كذلك، فهي الآن في معرض الاعتراف والإقرار بالحقيقة، ولذلك شفعت هذا الاعتراف بقولها ﴿وإنه لمن الصادقين﴾. فهي تؤكد صدقه هنا بمؤكدات كثيرة.

من هو قائل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٢-٥٣].

اختلف المفّسرون في القائل، فبعضهم قال إنّه يوسف عليه السلام: اي ليعلم زوج المرأة أنني لم أخنه بالغيب، ﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ﴾. ومِنْ قائلٍ إنّ هذا قول امرأة العزيز وهو ما أرجحه بل أؤكده لما يلي:

أولاً: إنّ الحديث متّصل بكلام امرأة العزيز، ولم يكن يوسف عليه السلام موجوداً بينهم ليقول هذا القول، وهل كان يوسف عليه السلام يعلم الغيب ليقول قولته هذه؟

ثانياً: إنّ المرأة اعترفت بأنّها راودته عن نفسه في حضوره وحضور النسوة وأنكرت هذا أمام زوجها حين قالت ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥] أمّا الآن فيوسف غائب عن المجلس، لذا تريد أن تعترف في غيبته علّها تكفّر عن خطيئتها ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] أي ليعرف يوسف عليه السلام أنني اعترفتُ بالحقيقة في غيبته.

ثالثاً: إذا كان هذا قول يوسف عليه السلام فمؤدّاه أنّه يريد أن يعلم عزيز مصر أنّ يوسف عليه السلام ما اعتدى على عرضه وما خانه في غيبته، وهذا مردود لأمرين:

١- أنّ الزوج كان يعلم الحقيقة كما حدّثتنا الآيات الكريمة من قبل ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩].

٢- قوله سبحانه ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [يوسف: ٣٥] ومعنى هذه الآية الكريمة أنهم رأوا الآيات التي تثبت براءته عليه الصلاة والسلام فما معنى قوله الآن ﴿ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ فقد علمه من قبل. ثمّ لا ندري أكان الزوج على قيد الحياة أم لم يكن.

رابعاً: قوله سبحانه ﴿ ۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] هذا القول أولى بامرأة العزيز من يوسف عليه السلام، لأن نفسها هي التي أمرتها بالسوء أمّا هو فلا.

وقد يسأل سائل: ألاّ يرجّحُ قوله ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ وقوله ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ إسناد هذا القول إلى يوسف لفساد عقيدة المرأة؟ وأقول: ليس هذا مرجّحاً لأن المعروف أن قدماء المصريين كانوا يؤمنون بالله. صحيح أنه كان في عقيدتهم شيء من الزيغ حيث لم تكن صافية، لكن ليس معنى هذا أنهم لا يعترفون بإله يعبدونه فقولها منسجم كلّ الانسجام مع معتقداتهم في ذلك الزمن.

وبعد هذه الشهادات الصريحة المؤكدة من النسوة جميعاً ومعهن امرأة العزيز لم يسع الملك إلاّ أن يزداد إعجاباً بيوسف عليه الصلاة والسلام وشوقاً إلى لقائه لقد فرض يوسف عليه السلام إجلاله وتقديره على ملك مصر، وها هو في هذه المرة لا يقول ﴿ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ فحسب كما قال في المرّة الأولى بل يقولها بكلّ جدّية وصراحة واعتراف ﴿ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾. ما أجمل النظم القرآني في تعبيره وإيحاءاته وأسراره النفسية والبيانية ﴿ أَسۡتَخۡلِصۡهُ﴾ فما أبدع هذه الكلمة في موضعها.

قال الزمخشري رحمه الله: أستخلصه، ويقال استخصّه إذا جعله خالصاً لنفسه خاصّاً بها. ولقد كان الملك جيّد الإدراك حسن الاستنتاج فما سمعه عن يوسف عليه السلام وما عرفه عنه جعله يصمّم على أن يجعله من خاصّته.

ويذهب الرسول مرّةً ثانية وفي هذه المرّة يأتي يوسف عليه السلام متسربلاً بثوب العزة مرفوع الرأس مطمئن النفس نقي الصفحات وصدق الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، قد تكون ثياب يوسف ثياباً لا تليق كثيراً بلقاء الملك فهي ثياب من قضى في السجن سنين عدداً، ولكن ماذا يضيره ونفسه تتألق طهراً وذكره ينتشر أريجاً وعبيراً، يجد فيه الملك عَرْفاً فوّاحاً وما الثيابُ إذا تسربلت النفوس سربال العلوّ والسمو؟ ورضي الله عن الشافعي:

عليَّ ثيابٌ لو تُباعُ وتشترى بفلسٍ ... لكان الفلس منهـنّ أكثـرا

وفيهـنّ نفسٌ لو تُقـاس بمثلها ... نفوس الورى كانت أعزَّ وأكبرا

ويصارحُ الملكُ يوسف عليه الصلاة والسلام بما يضمر له في نفسه من رفعة مكانةٍ وخالصِ مودّة وحسن اصطفاء ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، أمّا الأمين فمعلوم وهو ذو الأمانة الذي يأتمنه الناس على أموالهم وأعراضهم، وأمّا المكين فهو ذو القدْر والمنزلة المتمكن في قلوب الناس.

سر تقديم التمكين على الأمانة:

وهنا دقيقة قرآنية من لطائف البيان وبدائع النظم. قد يُظنّ أنه كان ينبغي أن يقال أمين مكين فتقدم الامانة أولاً ولكنّ النظم القرآني جاء على غير هذا، ويظهر أنّ السبب -والله أعلم بما ينزل- أنّ أمانة يوسف عليه الصلاة والسلام كانت أمراً بدهياً يعرفه هو وغيره، وأيّ أمانة أعظم مما حدث منه عليه الصلاة والسلام في بيت العزيز ومع النسوة اللواتي يرفلن بالعز نؤومات الضحى. أمانته إذن أمرٌ بدهيّ، لكنّ الأمر الذي أراد الملك أن يبادره به هو أنه مكين عنده، له منزلته ومكانته في قلبه. ويدرك يوسف عليه الصلاة والسلام صدق الملك وأنّ الملك يريد أن يستخلصه حقاً وهو يعلم ما سيحل بالبلاد وهو يعلم كذلك أنه أحرى الناس ليقوم بما تحتاجه البلاد وهو يدرك كذلك أنّ الله أعده ليصل به إلى غاية يريدها سبحانه ويقيناً لم ينس يوسف عليه السلام ولا يُعقل أن ينسى ما فعله

إخوته ولن ينسى أباه الشيخ الكبير النبي الصالح عليه السلام وكان من السهل أن يغادر مصر إلى فلسطين، ولكنها النبوة أو إرهاصاتها، وإنها الحكمة العظيمة، ويستثمر يوسف عليه السلام ما عرفه من صدق الملك وما عرفه من حسن قيامه وإدارته فيقول قولته قولة العزيز بالعزة الإلهية قبل أن يكون عزيزاً من حيث المنصب والوظيفة: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]. ما أجمل هذه المقابلة بين ما قاله الملك عنه ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ وما قاله هو عن نفسه ﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾.

سر تقدم الحفظ على العلم:

وقد يقال هنا: لم لم يقدم العلم؟ ونقول ما قلناه من قبل إن قضية العلم معروفة عند القوم: ألم يؤول لهم الرؤى بما استقر في نفوسهم؟ لكن الأمر الذي يريد أن يبادرهم به هو أنه حفيظ، وقد أثار صاحب التفسير الموضوعي لسورة يوسف قضية كان ينبغي أن لا تثار حيث قال: كيف يطلب يوسف عليه السلام هذا من الملك؟ أكان العزيز على قيد الحياة أم كان ميتاً؟ ويرجح الكاتب حسن باجودة أن يوسف عليه السلام لم يطلب هذا المنصب من العزيز إلا لأن المنصب شاغرٌ كما يقول سواء أكان عزيز مصر حياً أم ميتاً ويرجح الكاتب أنه كان حياً لقوله ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وقد عرفتم أن هذا القول ليس ليوسف عليه السلام بل هو لامرأة العزيز وكان ينبغي ألا يثير الكاتب الفاضل هذا التساؤل، لأن منصب العزيز ليس كما يظنّ منصباً واحداً لا يشغله إلاّ شخص واحد، ويظهر أنّ كلمة (عزيز) في ذلك العصر كانت تشبه كلمة وزير في أيامنا، فهناك وزير الأمن ووزير الصحة ووزير التموين... الخ. وقد قالوا إن العزيز الذي تحدثت عنه الآيات وهوزوج المرأة كان مسؤولاً عن الشرطة، ولم يحدّثنا القرآن الكريم عمّا أجاب به الملك يوسف عليه الصلاة والسلام لكنه معروف من السياق فلقد استجاب الملك، ولهذا كان التعقيب القرآني بديعاً فيه الطمأنينة للذين يتّقون ربهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٥٦] وهذه المرّة الثانية التي يكرم الله بها يوسف عليه السلام.

لقد قرأنا هذه الجملة الكريمة من قبل حينما كان يوسف عليه السلام في بيت العزيز وقد أراد أخوته أن يجعلوه في غيابة الجب وها هي تقال الآن بعد أن أخرج من غياهب السجن وما أشبه غيابة الجب بغياهب السجن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]. وها هي النعمة تُذكَر مرّة أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] ولكن التعقيب على كلّ من النعمتَيْن كان مختلفاً عن الآخر. كان لكلّ منهما سياقه الذي جاء فيه والحاجة الداعية إليه، أمّا التعقيب الأول ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وأمّا هنا فقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]. أليست هذه نقلة جديدة في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام؟ أليس ذلك جزاء الصابرين؟

ثمّ يعقب القرآن على هاتين النعمتين ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، هذا كلّه في الدنيا أمّا في الآخرة فالأجر أكبر وأعظم ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ اللهم اجعلنا من أولئك.

وقبل أن نتحدث عن الحلقة التالية حريّ بنا أن نقف لنتدبر هذه الصفات التي أكرم الله بها يوسف عليه الصلاة والسلام: مكين أمين، وحفيظ عليم، فإذا ضممنا إلى هذه الصفات الأربع أربعاً أخرى: الإحسان ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، والإخلاص ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، والإيمان والتقوى ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أدركنا سرّ العظمة ومصدر السموّ في شخصية الكريم ابن الكرماء تلكم الصفات التي جَمعت فأوعت فلم تفُتْها فضيلة من فضائل الأخلاق ولا مكرمة من مكارم الاجتماع. هذه الصفات الثماني التي كرّمه بها الله فازداد رفعةً وعظُم منزلةً وشَرُف مكانةً ومكاناً. وشاء الله كما منّ عليه بهذه الصفات التي تنتظم جمال الخُلق- أن يكرّمه بجمال الصورة والخَلْق وشتان بين ما لاقاه نتيجةً لجمال الخُلق والخَلْق فجمال الخَلْق كان سبب بلائِهِ، وكانت عاقبة جمال الخُلق رفعةً وحسن مآلٍ.

وبهذا تنتهي هذه الحلقة من قصة يوسف عليه السلام لتبدأ حلقة جديدة، ما أجملها من حلقات متسلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض.

الحلقة الخامسة:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۞ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٥٨-٦٩].

وتمر الأيام وتبدأ السنون صعوبة وقحطاً وشدة، وتكون مصر مقصد البلاد المجاورة ويجيء إخوة يوسف عليه السلام، ما أعظم حكم الله!! سبحانك ربنا!! نختار ما اخترت لنا لا نستبدل به غيره يجيء إخوة يوسف عليه السلام وتلك في ظننا لحظة من اللحظات الفريدة في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام، إنها البداية التي كان يترقبها، يعرفهم ولكنه يتمالك نفسه، ويستطيع على رغم كل ما يتفاعل فيها أن يخفي الأمر، وهو موقف لا يستطيعه كثير من الناس، ياللحصافة والحكمة! ياالأصحاب النُّهى وأولي الألباب!!

أما هم فلا يمكن أن يدور بخلدهم أو أن يمر في نفوسهم أنه هو يوسف عليه السلام فلقد مضى على فراقهم أكثر من عشرين سنة منذ أن ألقوه في الجب، منها سنون في بيت العزيز ومنها بضع سنين في السجن وبضع سنين أخرى منذ خروجه من السجن، ثم كيف يعرفونه وقد ألقوه في غيابة الجب؟ ومن يدري ألازال على قيد الحياة ؟ وإن كان ففي أي بيت يخدم أو أي عمل شاق يقوم به ؟ وما درى أولئك أن الحكمة العليا تتصرف في هذا الكون وتصرفه بما يغفل عنه كثير من الناس ؟!.

وقد طوى القرآن بعض الأحداث التي لا تتعلق فيها العبرة، ولكن الذي يفهم من السياق أنه سألهم وقد رآهم كثراً فعرّفوه أنهم إخوة، ولعله أبدى استغرابه لذلك أنتم عشرة إخوة؟ فقالوا له: إن لنا أخا آخر ولكن من أبينا(1)، فأبدى استغراباً لذلك وهذه من حصافته وحكمته وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة لا دليل عليها لذا أعرضنا عن ذكرها، وقد عرّفوه أنهم من بيت النبوة وإن جدهم إبراهيم عليه السلام ولم يكن خبر إبراهيم بعيداً عن مصر وأهل مصر فرحب بهم وأكرمهم، ولكنه طلب منهم وألح عليهم أن يأتوه بالأخ الذي لهم من أبيهم ورغّبهم في ذلك، ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩-٦٠]، والقوم يشعرون بما فعلوه بيوسف عليه السلام لذلك لم يعزموا على الأمر وقالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون وتقدم معنى (الرَّوْد)، وهم يدركون أنّه ليس من اليسير والسهل أن يستجيب لهم أبوهم، فلا زالت تَملأُ نفسَه حسرةً وألماً غيبةُ يوسف عليه السلام، لذا عبّروا بكلمة «سنراود» ثم قالوا سنراود عنه أباه، ولم يقولوا أبانا. وهي التي قالوها من قبل ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١]. وهذا كله من أجل أن يبيّنوا ليوسف أن الأمر ليس يسيراً، لكنهم سيبذلون جهدهم . وأكدّوا هذا بقولهم ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

---

(١) ذكر ياقوت رحمه الله في معجم البلدان عن حديثه عن العريش وأنها أول بلاد مصر من ناحية الشام أن إخوة يوسف حينما جاءوا مصر ارتاب فيهم الحرس وأرسلوا إلى يوسف ينبئونه خبرهم وبني لهم عريش يمكثون فيه حتى يأتي الاذن لهم وسميت البلد هذا الاسم من ذاك اليوم. وهذه الحادثة وإن لم نستطع أن نثبتها تاريخيا لكنها تلقي ضوءاً نفهم منه قول يوسف عليه السلام ﴿ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾.

أمر يوسف عليه السلام فتيانه أن يجعلوا في رحالهم بضاعتهم التي جاؤوا ليشتروا بها مؤونتهم، جعلها في رحالهم ليكون ذلك أدعى لرجوعهم ومجيئهم مرة أخرى وإحضارهم أخاهم معهم.

ويرجع الإخوة إلى أبيهم ليحدثوه عما لقوا من إكرام، ويجدون بضاعتهم قد ردت إليهم حينما يفتحون أمتعتهم، ويكون ذلك أدعى لهم ليقنعوا أباهم بإرسال أخيهم معهم، إنهم مصممون على أن يصدقوا مع عزيز مصر الذي أحسن وفادتهم وأكرم نزلهم. ثم إنهم سيُمنعون الكيل إن لم يلبّوا رغبته. وها هم يخبرون أباهم بذلك. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، وهنا تمرّ الذكريات في نفس يعقوب عليه السلام لوعة وألماً. ألم يقولوا هذا الكلام من قبل؟ لقد سمعه يعقوب عليه الصلاة والسلام منذ أيام يوسف عليه السلام. ألم يقولوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]؟ ولم يكن من ذلك شيء، فلا نصح ولا حفظ بل كان بكاءً مزيفاً ودماً كذبا.

ويفتحون متاعهم. ويفجأ القوم، إذ يجدون مالم يكن في الحسبان. فهذه بضاعتهم الأموال التي أخذوها ليشتروا بها ردت إليهم. ومن الذي يملك ردّها إلا العزيز إنّه حريٌّ إذن أن يصدقوه القول. ويأخذوا أخاهم. ولكن الأمر كما يعلمون دونه عقبات كأداء. لا بدّ إذن من بذل الجهد علهم يقنعون أباهم.

معنى (ما نبغي):

وها هم يقولون وقد وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾ [يوسف: ٦٥] وللمفسرين في قوله ﴿مَا نَبْغِى ۖ﴾ أكثر من قولٍ واحد. ذهب جمهورهم إلى أنّ ما استفهامية أيْ، أيّ شيء نبغيه ونطلبه. وها هو عزيز مصر أكرمنا فردّ إلينا بضاعتنا التي أخذناها ثمناً للطعام. ثم نحن بعد ذلك ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ والميرة جلب الطعام وإحضاره ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ ولعل تعبيرهم هنا بالجملة الفعلية ﴿وَنَحْفَظُ﴾

إشارة إلى أن حفظهم يتجدد لحظةً بعد لحظة بحيث لن يغفلوا عنه، وهناك فائدةٌ جليلةٌ الحاجة إليها ماسّة. سيزدادون كيل بعير إذا كان أخوهم معهم ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ميسّر وترجع الذكريات ليعقوب عليه السلام. كيف سيطمئن لهم والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين كيف وقد أمنهم على أخيهم من قبل. ولكنّ الشيخ الوقور الصبور يبين لهم أنهم إن لم يرحموه هم بما فعلوا بيوسف عليه السلام وإن لم يحفظوه ويحفظوا يوسف عليه السلام من قبل فإن الله يحفظه ويرحمه ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] هو خيرٌ من كل أحد حفظاً وأكثر من كل أحد رحمةً. ويلح الأبناء. وبعد هذه المحاورة القاسية. يعلن الأب: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، بهذا التصميم والتأكيد الذي تدل عليه كلمة «لن» ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتوثقوا أقوالكم بشهادة الله سبحانه وتعالى على أن تأتوني به إلا إذا كان هناك أمر فوق إرادتكم لا تستطيعون ردّه.

وهذه نَصَفَةٌ من يعقوب عليه الصلاة والسلام. فقد يصيب ابنه شيءٌ لا قِبَل لهم به ويشهد الأبناء الله علىأنفسهم ويعطون الموثق أباهم. وهنا تظهر قوة إيمان الشيخ الصبور الوقور بل النبي الرسول؛ فها هو بعد أخذه الأسباب جميعها يبين أن هذه الأسباب لا تغني شيئاً إن لم تكن مبنية على التوكل على الله، ونرى هذا بارزاً من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي على ما أقول أنا وأنتم. ونقرأ في الآية التي تليها ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ويظهر حرص الشيخ على أبنائه وعاطفة الأبوة تتأجج في نفسه. وهو يعظهم. ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ﴾ ويظهر أن هناك حكماً كانت بخلد الشيخ النبي. فهم أَحَدَ عشر رجلاً. قد تصيبهم عين عائن أو حسد حاسد أو قد تُظن بهم الظنون والوقاية خيرٌ من العلاج. ولكن يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو الذي لم ينقطع قلبه عن ربه أيقن أن أمر الله نافذ، سواء أدخلوا من بابٍ أم من أبواب ولـكـنـهُ الأخذ بالأسباب، وهذا ما يرشد إليه قوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾

ويحقق الأبناء رغبة أبيهم فيدخلون من أبواب متفرقة ولكنّ هذا لم يغنِ عنهم من الله من شيء حيث حدث لهم ما حدث فأُخذ أخوهم الذي أعطوا موثقاً من أجله، وبقي كبيرهم في مصر فذهبوا أحد عشر ورجعوا تسعة. ولكنها حاجة في نفس يعقوب عليه السلام قضاها.

وما أجمل التعقيب القرآني يحدثنا عن فضل يعقوب عليه السلام وكرامته عند ربه وإكرام الله له ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ وهنيئاً لمن أكرمه الله فعلمه، ولكن العلم الذي أساسه التقوى وليس العلم العام الذي يعلمه الناس جميعاً ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وبهذا تنتهي الحلقة الخامسة من هذه السيرة العطرة من حياة الصديق ابن الصديقين، الكريم ابن الكرماء ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

الحلقة السادسة:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ

عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٦٩-٨٧].

ويدخلون على يوسف عليه الصلاة والسلام، وهنا يطوي القرآن ما كان عند دخولهم، وكيف انفرد يوسف عليه السلام بأخيه وأعلمه الحقيقة، وقد قيل إنه أكرمهم فوضع كل اثنين على خوان، وهو ما يوضع عليه الطعام وبقي أخوه وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف عليه السلام حياً لجلست معه، فقال لهم: أنا أجلس مع أخيكم هذا، لأنه ليس له من يجالسه، فقال له: لا تحزن ألا ترضاني أخاً لك فقال أخوه: ومن لا يرضاك أخاً، ولكن لم يلدك يعقوب عليه السلام.

فبين له الأمر وسواء صحت هذه أم لم تصح إلا أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- انتهز الفرصة ليخبره بأنه أخوه دون علمهم.

﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩] ومن لطائف الإعجاز ما أبيّنه لكم. جاء في سورة هود قول الله لنوح -عليه الصلاة والسلام-. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. وفي هذه السورة ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وبين العمل والفعل فروق. أحدها: أن العمل هو الفعل الذي يكون نتيجة اصرار وتصميم، لكنّ الفعل قد يكون كذلك وقد يكون غير هذا. أيْ ليس مسبوقاً بتصميم وقصد.

وإخوة يوسف عليه السلام قرروا وعزموا على إلقائه في الجُبّ. وليس قوم نوح جميعاً كذلك فانظروا أرشدكم الله إلى هذه الدقائق القرآنية التي تأخذ باللبّ وتأسر القلب، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

ولما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وقد يسأل سائل: كيف يتأتي ليوسف عليه السلام أن يفعل مثل هذا؟ وأقول: إنّ يوسف عليه السلام نبيّ وما فعله إلا لحكمة وليس في فعله ظلم لأحد ولا انتقاص من أحد. وبعد أن سارت قافلتهم تبعهم هو وبعض فتيانه ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى منادٍ فيهم ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فوقفوا مشدوهين وعجبوا من ذلك كلّ العجب وأقبلوا على ذلكم المنادي ومن معه ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ نحن لم نأخذ شيئاً ويقال لهم ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وإحكاماً لما قصده يوسف قيل لهم ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢] أي من يجيء به منكم معترفاً بما كان منه فإن له حمل بعير من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي كفيل كلّ ذلك من أجل أن تكون الحلقات محكمة، ويقول إخوة يوسف ﴿تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه تعجب ما جئنا لنرتكب الآثام ونتجاوز الحدّ وما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين فإن السرقة من شر أنواع الفساد والذي يسرق الصواع يمكن أن يسرق شيئاً آخر، وتظهر حصافة يوسف عليه السلام مرة أخرى، وكل ذلك تقدير العزيز العليم. يقول لهم ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤] أي فما جزاء الصواع المسروق أو ما جزاء السارق؟ فيقولون: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥] وتلكم هي شريعة يعقوب عليه الصلاة والسلام أن يسترقّ السارق بسرقته أي أن يؤخذ رقيقاً (عبداً) أمّا شريعة المصريين فكانت شيئاً آخر وهو أن يغرّم السارق ضعف سرقته لكنه تقدير الله عز وجل، وهذا ما أرشدت إليه الآية الكريمة ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. ونفهم من الآية الكريمة أن كل ما حدث تدبير من الله تبارك وتعالى:

يا حاكمي وحكيمي … أفعالُك الكلُّ حكمه

وتظهر حكمة يوسف مرّة أخرى فها هو يبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم يستخرجها من وعاء أخيه. وأنبّه هنا علىأنّ السقاية التي وضعت في رحل أخيه هي نفسها الصواع إلا أن السقاية ما يسقى به والصواع ما يكال به ويظهر أنها كانت تستعمل لهما معاً لذا ذكّرت تارة وأنثت تارة، ويكشف القوم عن طباعهم وخلجات نفوسهم ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: ٧٧]، وللمفسرين أقوال كثيرة فيما نسبه إخوة يوسف عليه السلام له ويظهر أنها كلها لا تستند إلى حق ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ أي تجاهل قولهم ولم يناقشهم، وهو من حكمته. وهذا يدلّ على أنهم لا زالت نفوسهم تمتلىء حسداً من يوسف عليه السلام وأخيه.

يذهب أكثر المفسّرين إلى أن قوله ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ [يوسف: ٧٧] إلى آخر الآية. هذه هي التي أسرّها يوسف عليه السلام في نفسه، فلم يبدها لهم، أي قوله أنتم شرٌ مكاناً بقي حبيس نفسه دون أن يسمعهم إيّاه، ولكنّ الذي رجحته لك غيرُ هذا. فالذي أسرّه يوسف في نفسه كما يبدو والله أعلم ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ فلم يشأ أن يرد قولهم عليهم. ثم ما المانع أن يكون قوله ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ أن يقوله لهم مشافهة قاصداً إسماعهم هذا القول والآية تحتمل المعنين، لكني أرجّح ما سمعت والله أعلم بما ينزل. ويحاولون جاهدين أن يتشفعوا عند يوسف علّه يعفو عن أخيهم لأن له أباً شيخاً كبيراً وإلا فليأخذ أحدهم مكانه ويتوسلون إليه بقولهم ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨] ويقول: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩].

ولقد كان يوسف منصفاً كلّ الإنصاف دقيقاً كل الدقة مهذّباً كلّ التهذيب وهو ينطق بهذه الكلمات ﴿وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل «لن نأخذ إلا من سرق» لأنه يعلم أنّ أخاه ليس سارقاً ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾.

ويستيئس الإخوة وينفردون ليتناجوا فيما بينهم ويذكّرهم كبيرهم، ونظنه هو الذي قال لهم من قبل: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] يذكر بأمرين اثنين:

بالميثاق الذي أخذه أبوهم عليهم، وبتفريطهم من قبل في يوسف عليه السلام، ويبين لهم أنه لن يغادر أرض مصر إلا بعد أن يأذن له أبوه أو يحكم الله له بما يشاء وهو سبحانه خير الحاكمين، فليرجعوا إلى أبيهم فينبئوه بأن ابنه سرق وأنهم إنما يشهدون بما علموه وما هم بحافظين للغيب، ويحاولون تبرئة أنفسهم فليسأل القرية التي كانوا فيها ولم يقولوا «سل أهلها» لأنهم يريدون «سل القرية» كلها: أرضها وسماءها، أحياءها ونباتها وجمادها، وليسأل العير التي أقبلوا فيها، ويؤكدون ما أمكنهم التأكيد ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ويصلون إلى أبيهم ونسمع منه عليه الصلاة والسلام ما سمعنا منه من قبل: مقالته التي قالها يوم أن ألقوا يوسف في غيابة الجب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ولكننا نسمع منه شيئاً آخر يدلنا على ثقته بربّه ورباطة جأشه وصادق توكّله. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾. وقوله بهم يعني يوسف عليه السلام وأخاه وكبير أولاده. وهذا يدلنا على رجائه الكبير في الله سبحانه. ولكنّه مع ذلك أب امتلأت حياته بالمفاجآت الحزينة؛ لذا فهذه غمامات الأسى تحيط به فيتولى عنهم وتعود به الذكريات، ويستبد به الحنين والشوق ليوسف عليه السلام، وتبيض عيناه من الحزن في هم وكرب، وكأنهم يعجبون منه. كيف لا يذكر إلا يوسف عليه السلام ولا زالت لوعته بابنه الآخر قريبة العهد ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ والحرض هو المشرف على الموت، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

ويُهرع إلى ربه يتضرع إليه، فهو لا يشكو بثّه وحزنه إلا إلى الله، والبثّ ما انطوت عليه النفس من الغم، ولكنّه نبي فهو يعلم من الله ما لا يعلمون.

والمتأمل في شخصية يعقوب عليه السلام كما هي في السورة الكريمة يدرك أنه عليه الصلاة والسلام كان على بيّنة من أمره ومن أن الله لا بد أن يجمعه بيوسف عليه السلام. كيف لا؟ وهو لا تزال تملأ نفسه ذكرى يوسف عليه السلام وذكرى رؤيا يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

أمّا الابن الآخر فهو غير قلق عليه، لأنه ليس مجهول مكان الإقامة وبهذا تنتهي الحلقة السادسة، ولنشرف النفس بما يختلب الآذان ويجتلب الأذهان. فنكمل قصّته ﷺ.

الحلقة السابعة في قصة الكريم ابن الكرماء:

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ
مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ
أَجۡمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ قَالُواْ تَٱللَّهِ
إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل
لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ قَالَ سَوۡفَ
أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ
ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ
رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن
نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي
مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي
مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ
يَمۡكُرُونَ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ
لِّلۡعَٰلَمِينَ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ وَمَا يُؤۡمِنُ
أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ حَتَّىٰٓ
إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ

ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧-١١١].

استمعنا إلى الحق تبارك وتعالى يحدثنا عن يعقوب عليه السلام حديث الواثق بربه، وهو يشكو بثه وحزنه إلى الله ويعلم من الله ما لايعلمون. وها هو يؤكد هذا المعنى، وهو يطلب من أبنائه أن يتحسّسوا من يوسف عليه السلام وأخيه.

يمعنون في البحث، والتحسّس مثل التجّسس إلا أنّ الأول بالخير والثاني قد يكون بالشر، وأصله: استعمال الحواسّ بدقة وذكاء وكما أمرهم بالتحسّس فإنه حذرهم اليأس من رَوْح الله فإن اليأس من شأن الكافرين، وأن لا يقنطوا من رحمته، وليطمئنوا إلى ما عنده سبحانه وقول يعقوب يذكرنا بقول جدّه إبراهيم - صلى الله وسلم عليهم جميعاً- ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦] ويستمع الأبناء قول أبيهم دون أن يراجعوه في شأن يوسف عليه السلام، مدعين أنه أكله الذئب، وعدم مراجعتهم أباهم في هذا الشأن اعتراف منهم بتزوير ما قالوه من قبل، حينما جاءوا على قميصه بدم كذب. ويستعدّ الإخوة للرحيل. ولم يحدثنا القرآن الكريم عن رحيلهم إلى (مصر) أذهبوا جميعاً؟ أم بقي بعضهم عند يعقوب عليه السلام؟

ويدخلون على يوسف عليه السلام ولكنهم يدخلون هذه المرة بنفوس منكسرة تختلف عن سابقها، يدلّنا على ذلك هذا الحديث الذي نستمع إليه من كتاب الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ﴾ بإظهار حرف النّداء، ويبادرونه هذا القول ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ وعلامة ضرّهم أنّهم جاءوا ببضاعة مزجاة قليلة غير معتدّ بها. ويودّون أمرين اثنين، أولاً: أن يوفي لهم الكيل مع كون بضاعتهم مزجاة.

ثانياً: وأن يتصدق عليهم. وفي هذا تلميح ليطلق أخاهم ليرجعوا معاً إلى أبيهم، ويختمون قولهم بهذا الدُّعاء ليثيروا في نفسه عوامل وكوامن حتى يستجيب لهم: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: ٨٨] ألست معي بأنها تفجر الحجارة القاسية، ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ جاءوا ببضاعة مزجاة لماذا؟

لضيق ذات اليد، إنّها الحاجة الملحّة، ثم استمع إلى هذه الكلمة: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾، وهم سلالة بيت كريم يعطي ولا يأخذ، لابدّ أن يكون الأمر وصل بهم إلى ضنك شديد. نعم إنّها تتفجر لها الحجارة القاسية أنا لا أرتاب وأظنك لا ترتاب معي بأنّه ارتجف قلبه واهتزت نفسه وملأهما الحزن فلم يتمالك وقد هزّته هذه الكلمات وبلغت منه مبلغها وأثارت فيه شجوناً تجمع بين الماضي والحاضر، وكأن نفسه الشريفة تدرك وتعاين ما يعيشه أبوه، وبخاصة بعد فقده ابنه الآخر، وما أظهر أنه -عليه الصلاة والسلام- يستطيع في هذه اللحظات التي اهتزت لها جوانب النفس إلا أن يكشف عن حقيقة الأمر، ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

وهنا تكون المفاجأة التي تذرف لها العيون، وترتجف الأفئدة ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ وما ألطف هذا الأسلوب وأعذبه[١]. إنه كلام الأنبياء، وقد عرف القوم أن هذا كلام لا يصدر إلا عن الحنفاء ذوي الدين ولا يعلم أحد من أهل مصر بما فعلوه فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] فيقول يوسف -عليه السلام- ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ ثمّ يبين السّبب في ذلك، وهي قاعدة ينبغي أن نعضّ عليها بالنواجد، تلك هي قول يوسف -عليه السلام- ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نعم إن التقوى والصبر اساس لكل خير، ويعتذر القوم ويقول يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ ما أجملها من كلمة! صار عبقها في أعماق التاريخ، وذهب أريجاً يعطّر الأيام والسنين، كيف لا؟ وها هو خاتم الأنبياء سيدنا -رسول الله- ﷺ- يتمثل بها ويرددها في يوم مرحمة يوم فتح مكة، وما أشبه هذا الموقف بذاك: «ما تظنون أني فاعل بكم»؟ وينطق الأهل والعشيرة: «أخ كريم وابن أخ كريم». فيقول -عليه الصلاة وأتمّ التسليم-: «لا أقول إلا كما قال يوسف، لا تثريب عليكم اليوم»[٢] إنّها النفوس الكبيرة الكبيرة التي يصغر فيها كل ما

---

(١) كأنما هو يعتذر لهم عن أنفسهم بأنّ الذي فعلوه كان صادراً عن جهل، فهو يخفّف عنهم ما يحسونه من حرج وضيق.

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة في خبر الفتح ٢/ ٢٧٤.

يعظمه الناس ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ويعرف يوسف عليه السلام ما حلّ بأبيه، إنه ما زال يعاني منذ أن رأى القميص الذي عليه دم كذب. ولكن لا بد أن ينتهي هذا العناء. فيرسل إليه يوسف عليه السلام قميصاً آخر يشم منه ريح الروح الطاهر، ونسمات الروح العليل روح يوسف عليه السلام وريحه وريحانه. إنها كرامة الله لأنبيائه. ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] نعم يأتي بصيراً. ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولما فصلت العير ورجع الإخوة يحملون قميص يوسف، قال الشيخ الوقور النبي الرسول ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ لقد ذهبت مرارة اللّوعة. وتلاشت أسباب الحزن، هباءً منثوراً، فلتبصر العين، ولن تجمد بعد اليوم، ألا زلت تذكر يوسف عليه السلام، ولقد مضى عليه ما يزيد على عشرين سنة ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

وما أشبه هذه الكلمة بما قالوه من قبل، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأظنك تدرك أيها القارىء الكريم أن المقصود ليس الضلال في العقيدة، فهذا محال على الأنبياء.

ولكن أي الفريقين في ضلال؟ أهو أم هم؟ وها هي الحقيقة تنادي على نفسها وضوحاً وإشراقاً وتصل العير، ويجيء البشير. وتكون لحظة تتصل فيها أنوار السماء بالأرض. ويلقى القميص على وجه يعقوب فيرتدّ بصيراً، ويعلن يعقوب ما أعلنه من قبل ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويعتذر الأبناء إلى أبيهم. ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧] وقد قلت من قبل إن الخاطىء هو الذي تعمد الخطأ، ويعدُ الأب الأبناء بالاستغفار ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

و(سوف) تدلّ على الاستقبال، وقد يكون استقبالاً بعيداً، لأن الاستقبال القريب يكون بحرف السّين كما يقولُ اللّغويون. ويختلف المفسرون في سبب هذا التسويف أأخّره إلى السَّحر؟ أم حتّى يُشاهد يوسف عليه السلام؟ أم كان ذلك لشيء آخره يضمره في نفسه؟!. على كل حال. لقد وعدهم. ووعد الأنبياء حقّ ويزمعون على الرّحيل.

وحينما يشرفون على أرض مصر يخرج يوسف عليه السلام مع الملك والأعيان لاستقبال الشّيخ الجليل ومن معه. ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ما أجمل هذه الكلمة ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وهذا يذكرنا بالآية الكريمة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] ويصل الركب إلى مقرّ يوسف عليه السلام، ويرفع أبويه على العرش يجلسهما إلى جانبه ويخرّون له سجداً تحية إكبار وإجلال، لا سجود عبادة، فهم الرسل المكرمون ويذكر ما قصّه على أبيه في طفولته ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ والفضل كلّه لله فقد أحسن به إذ أخرجه من السّجن وجاء بأهله من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته وما أجمل هذا الذوق! وما أعظم تلك اللياقة! إنهم المصطفون الأخيار.

ما أحوج الناس أن يتعلموا من الأنبياء، دروس الذوق ودروس الصّفح، ومبادىء اللّياقة. إنه ذكر الخروج من السّجن، وليس لإخوته أيّ علاقة في سجنه ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يذكر -عليه الصلاة والسلام- الخروج من الجّب الذي رموه فيه. إنه لا يريد أن يحرجهم في هذه اللحظة الطيبة التي تسير فيها نسمات الصبا، والتي يشعر فيها جميعهم بفرحة الروح، وطيب اللّقاء. إنّ ذكر الجُبّ سيذكرهم بجريمتهم. وسيثير في نفس أبيه كذلك أشجاناً، حري بها أن تطوى أرأيتم إلى عظمة الانبياء! ألست معي بأنه كما قال -الرسول- ﷺ. الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم»[1] ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ نعم إنه اللطيف سبحانه، وأيّ لطف خصّ به يوسف -عليه الصلاة والسلام- وهو يتفضل عليه في أوقات الشدّة والكرب. إنه اللطف الخفي ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «أليست هذه هي التي سمعها يوسف عليه السلام وقد أخبر أباه بما رأى فقال له أبوه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ إلى آخر الآية التي جاء فيها ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]. وماذا كانت النهاية؟ ماذا يريد يوسف عليه السلام بعد ذلك من الدّنيا؟ هنا لا بدّ أن يُعمل كل إنسان فكره، هنا تتلاشى الحياة بكل مفاتنها وزخارفها، وزينتها.

---

(١) سبق تخريجه بمعناه.

ها هو يوسف عليه السلام وقد بلغ منزلة لم تكن إلاّللقليل من النّاس. ولكن ماذا يريد بعد ذلك كله؟ كل ذلك إلى زوال. إنّه والله لدرس عظيم حريّ أن لا يغفل عنه أحد. وبخاصّة اولئك الذين منحهم الله نعمة في هذه الحياة. كلمات ستبقى مترددة الصدى في أثير هذا الكون. إي والله. ستظل نوراً كاشفاً لأولئك الّذين يودون أن تُستلّ أحقادُ صدورهم. ما أعذبهما نغمات روحية ملائكية! كلمات تهزّ النفوس ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

تلك هي الغاية التي يبحث عنها الأنبياء الصدّيقون. إنها هي الأساس. إنّها هي السعادة التي لا تفنى إنّها غاية الأنبياء أوّلاً ثم من بعدهم من عباد الله الحنفاء ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لقد سألها من قبلُ جدُّ يوسف الأعلى أبو الأنبياء وشيخ الحنفاء أبونا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]. و﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ولا تحدّثنا الآيات عمّا كان من يعقوبَ عليه السلام بعد أنْ رفعه ابنه على العرش ولكنّ الدرس الذي لا ينبغي أن يُنسى ما أشرنا إليه من قبل في الحديث عنه -عليه الصلاة والسلام- حينما حضره الموت. وللموت كربات وغمرات وسكرات ولكنّ القرآن الكريم يحدثنا أن يعقوب -عليه الصلاة والسلام- وقد حضره الموت يتناسى سكراته وصعوباته. ولكنّه وكأنّه يشعر ماذا ستحدث ذريته من بعده نجده وهو في آخر لحظات الحياة يهيمن عليه شيء واحد وهو أنْ لا تنصرف ذريّته عن التوحيد بعده. قل لي بربّك أيها القارىء أيّ عظمة لهٰذه النفس؟ يعاني سكرات الموت، ولكنّه يهيمن عليه شيء واحد ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ ويطمئنه بنوه ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وكأني به تقرّ بهٰذا عينه وتطمئن نفسه، فهو لا يريد بعد ذلك شيئاً من الدنيا، وتلكم هي غاية الأنبياء. وهذا سيدنا رسول الله -عليه الصلاة والسلام-

كما تحدثنا السّنة الصحيحة وسيرته العطرة، وهو في آخر عهده بالدنيا يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم! لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا.

ولا يحدثنا القرآن الكريم شيئاً عن موت يوسف عليه السلام. ويعقب القرآن الكريم بقوله للرسول -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]».

نعم: إنّه الوحي. أليس في قصّة يوسف عليه السلام آيات كثيرة حري بالناس أن يتدبروها غير معرضين؟ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

إنّ رسل الله هم الصفوة المختارة. أرسلهم الله لينقذوا النّاس من ظلمات الشّرّ إلى النور المشرق وإلى الخير العميم في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩] وإنّ نهاية هؤلاء الأنبياء على الرغم من كل ما لاقوه. نهايةٌ حميدة. ولا أدلّ على ذلك ممّا حدث ليوسف عليه السلام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وما أجمل ما ختمت به سورة يوسف عليه السلام وما أجمل ما بدئت به! وأجمل من هذا وذاك أن نجمع البداية إلى النهاية.

أما البداية ففي قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ وأمّا النهاية في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

تعقيب على قصة يوسف عليه السلام

في أول السورة الكريمة قرأنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، وفي آخرها قرأنا قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وما أجمل أن نقف عند أحسن القصص نتلمس فيه العبرة! والمتدبر للسورة الكريمة يجدها ثريّة بما تعطيه من قيم، وبما تفرزه من نتائج، وما تبرزه من مبادىء، وبما تشتمل عليه من ألوان المعرفة المتعددة اجتماعية ونفسية وخلقية وعقدية واقتصادية.

ابتدأت القصة من الأسرة ذات البيت الواحد والأب الواحد، والأسرة آية صلاح المجتمع أو فساده، بدأت القصة بالرؤيا، رؤيا يوسف -غليه السلام- وإذا كانت السورة الكريمة لا تحدثنا بادي بدء عن حب يعقوب ليوسف عليه السلام، إلا أن قول الأب لابنه: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾، إشارة إلى هٰذا الحب، ولا عجب أن يستشف يعقوب النبي عليه السلام بعض حجب الغيب، وتلك منّة من الله يمنّ بها على من يشاء من عباده، ولقد دفع يعقوب عليه السلام ثمن هذا الحب الذي لم يستطع أن يخفيه عن الآخرين، دفعهُ لوعةَ ألم وسُقْمَ جسد، ومرارة فراق، وتلك قضية لا زالت أُسَرٌ كثيرة تجني من آثارها البغضاء والحقد والغل، ولقد أشرنا إلى هذا من قبل.

وقد تحدثنا عن العبر الكثيرة التي يمكن أن نستنتجها من السورة الكريمة وعن القضايا العلمية والقيم الأخلاقية، والإشارات النفسية النفيسة، ونحب أن نقف بعد كل ذلك عند قضية واحدة، وهي اللبنة التي أضافها يوسف -عليه السلام- لقد مرّ يوسف عليه السلام بأطوار مختلفة، فما أحبه إلى أبيه! ولكن ما أبغضه إلى إخوته! وبين عاطفتي الحب والبغض كان هذا التاريخ المليء بالمتناقضات فمن غيابة الجبّ إلى غيابة السجن، ومن بضاعة بيعت بثمن بخس مع زهد من بائعيه إلى غير ذلك من أطوار الضيق، من ذلك كله إلى حفيظ عليهم مؤتمن على خزائن الأرض يقول فيستمع له، ويأمر فيطاع، هذه الأحوال المختلفة التي مرّ بها -عليه السلام- لم تغير من جوهره شيئاً فلم يضعفه الابتلاء، ولم تُطْغِهِ النّعماء ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، ولَعَمْرُ الحق لن يطيق ذلك إلا أصحاب النفوس الكبيرة وهم الذين رسخت العقيدة في قلوبهم، وهذا يذكرنا بقول

النبي ﷺ: «عجبت من قضاء الله للمؤمن إن أمر المؤمن كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»(١).

وها هو القرآن يحدثنا عن محنته، ولكننا لم نسمع كلمة واحدة منه تحدثنا عن ضيق نفس أو تسرب يأس، وإنما الكلمات التي استمعنا إليها منه كانت صرخات يتضرع بها إلى ربّه أن يعصمه فلا يفتنه لنستمع إليه وهو يقول لامرأة العزيز ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولنستمع إليه وهو يناجي ربه ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، حتى إنه كان يطوي كثيراً من المواقف والمشاهد التي تذكرالآخرين بجرائمهم ولنستمع إليه وهو يشكر ربه ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾، مع أن إخراجه من الجب كان أولى أن يذكر، ولكنه طوى ذكره حتى لا يذكّر أباه بما فعل إخوته ولا يذكرهم بما أقدموا عليه ومن قبل هذا لم يزد على أن قال لإخوته ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ ولنستمع إليه وهو يشكر ربه وقد آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

تلكم لبنة عظيمة أضافها يوسف إلى اللبنات التي وضعها الأنبياء -عليهم السلام- من قبله وهي جديرة أن تحفظ لمن أراد أن يحفظ الله عليه دينه، وما أجمل الصبر في موضعه، والشكر في موضعه، وما أجمل هذا القول من يوسف حتى وهو في السجن ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وأرى تتميماً للفائدة والنّفع أن أطلعك أيها القارىء على مدى الحقد والتزوير الذي يرمي به أعداء الإسلام ظلماً وعدواناً هذا القرآن العظيم، وأولئك ليسوا من المستشرقين والمبشرين فحسب، بل ممّن تسربلوا سربال العلم، وأعني بهم كتّاب الموسوعة البريطانية التي يفاخرون بأنها حصن من حصون العلم دقّةً وموضوعيةً وأمانةً. وسأنقل لك ما جاء في كتابنا «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن وردّ شبهات».

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ٦، ص١٥ عن صهيب رضي الله عنه.

قصة يوسف عليه السلام:

جاء في دائرة المعارف (إن أطول هذه السور التي تتحدّث عن موضوع واحد هي سورة (١٢) والتي تسرد قصة يوسف، وهي تضيف إلى المعلومات التي وردت في الكتب الدينية تفصيلات خرافية معظمها جاءت من مصادر يهودية).

أحبُّ أن أؤكد هنا أمرين اثنين أشرت إليهما من قبل:

الأمر الأول: أننا نسير في بحثنا هذا على منهج علمي نزيه مجرد بعيد عن كل المؤثرات، اللهم إلا ما يحتمه حماس لفطرة سليمة، أو انتصار لحق ظاهر، أو ردّ فرية ظاهرة البطلان، وأننا ندع القرآن نفسه -يحاجّ عن حقائقه، ويدافع عن موضوعاته وسوره.

الأمر الثاني: أن القصص القرآني بعضه يشترك القرآن فيه مع الكتب السابقة، وبعضه ليس كذلك، وأن القسم الأول ليس متحداً اتحاداً تاماً بين القرآن وتلك الكتب. ومن هذا القسم قصة يوسف عليه السلام، التي تدّعي دائرة المعارف فيها دَعْوَيَيْن اثنتين:

إحداهما: أن ما جاء في القرآن من سورة يوسف هو نفسه ما جاء في التوراة.

ثانيهما: أنّ في القرآن زيادات خرافية أخذت من أخبار يهودية. ولعلهم يعنون بها القصص والحكايات التي يتناقلها الأفراد بعضهم عن بعض. ولذا فسيكون الحديث في مقامين اثنين:

أحدهما: المقارنة بين التوراة والقرآن في هذه القصة.

الثاني: الأمور التي تفرد بها القرآن الكريم وحده.

أولاً: المقارنة بين القرآن والتوراة في قصة يوسف:

سنفيد في هذه المقارنة مما ذكره المفكر الكبير، والكاتب المسلم الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- في كتابه الظاهرة القرآنية[١].

فلقد ذكر النصوص التي جاءت في التوراة، والآيات في سورة يوسف، وما تفرد كل منهما به على حدة ثم سجل بعض النتائج لهذه المقارنة وسنلم بخلاصة ما ذكره عن تلك المقارنة، وذلك الاستنتاج.

أولاً: المقارنة بين القرآن والتوراة في قصة يوسف:

الرقم	الرواية القرآنية	الرواية الكتابية	ملاحظات
1-3	مدخل يضع القصة في إطار الظاهرة القرآنية.	مدخل يضع القصة في الإطار العائلي.	اختلاف.
4-6	رؤيا واحدة ليوسف.	رؤيتان ليوسف.	اختلاف.
7-15	ذهاب يوسف بموافقة يعقوب عقب التآمر عليه.	ذهاب يوسف بأمر يعقوب.	اختلاف.
10-18	ارتياب يعقوب في أولاده وأهله عقب المؤامرة.	سرعة تصديق يعقوب ويأسه عقب المؤامرة.	اختلاف.
19-20	بيع يوسف ووصوله إلى مصر.	نفس الروية.	القرآن يؤكد أكثر تدخل إرادة الله.
24	هم يوسف بالمعصية وبرهان الله له.	لم يرد.	
257	القميص تقده المرأة.	القميص تأخذه المرأة.	
27-29	إدانة خلقية من الزوج لزوجته.	غضب الزوج على يوسف.	اختلاف.
30-31	فضيحة في المدينة واجتماع النسوة.	لم يرد.	
34	دعاء يوسف أمام إلحاح المرأة.	لم يرد.	النبي يتحدث أكثر في القرآن.
36-40	وعظ يوسف لأصحابه.	لم يرد.	
41	تعبير الرؤيين يطلب من يوسف.	تعبير الرؤيين يتقدم به يوسف.	اختلاف.

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٩٠-٢٩٤.

48-42	حل نفسي لعقدة السجن باعتراف المرأة.	حل سياسي مترتب على رؤيا فرعون.	الروح تتكلم أكثر في القرآن.
49	تكهن بعام الرخاء والنجاة.	لم يرد.	
53	وعظ في حضرة الملك.	لم يرد.	شخصية النبي أكثر ظهوراً في القرآن.
54	رد اعتبار يوسف.	مهمة معهود بها إلى يوسف.	عدالة في القرآن. وسياسة في التوراة.
55	يوسف يطلب مسؤولية الخازن.	مسؤولية الخازن تعرض عليه.	اختلاف.
57	اهتمام بالآخرة.	لم يرد.	الدين يتكلم أكثر في القرآن.
67-63	بواعث العودة إلى مصر: مسعى أبناء يعقوب لديه.	بواعث العودة إلى مصر: أمر يعقوب الذي يبدو كأنما ترك شمعون لمصيره.	الاتهام بالجاسوسية، اعتقال شمعون غير وارد في القرآن.
69-68	وصولهم إلى مصر وتآمر يوسف.	نفس الصورة.	
79-70	رحيل إخوة يوسف واعتقال بنيامين.	مع بعض التصرف.	
80	تشاور الأخوة.	لم يرد.	
87-81	عودة الأبناء إلى يعقوب الذي يستعين بالأمل والمصابرة.	لم يرد.	
88	عودة إلى مصر لدى يوسف.	لم يرد.	
92-89	مشهد الحل بعفو يوسف عن إخوته.	حل الموقف بانفعال يوسف.	اختلاف.
93	إرسال قميص يوسف إلى أبيه.	لم يرد.	
95-94	وجدان يعقوب.	لم يرد.	
99-96	شفاء يعقوب ودعاؤه وعفوه عن بنيه.	لم يرد.	
101	ختام يوسف للقصة بحمد الله والثناء عليه.	لم يرد.	المعالم الروحية في القرآن.

والذي ذكره الأستاذ الكاتب -رحمه الله- قد فاته فيه بعض الحقائق سهواً، وسننبهك عليها:

١- منها ما ذكرته التوراة من كراهية إخوة يوسف عليه السلام له، لأنه أخبر أباهم عنهم بريبة شنيعة، أما القرآن فبين أن سبب هذه الكراهية هو حسدهم له.

٢- ومنها كذلك أمر الشاهد الذي كان من أهل المرأة، والذي كانت شهادته تبرئة ليوسف عليه السلام، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [الآيات: ٢٦-٢٨].

أما الاستنتاجات التي استنتجها الكاتب فهي ما ننقله لك. قال رحمه الله:

في هاتين الروايتين اللتين فرغنا من عرضهما يمكننا أن نقارن بعض العناصر المتشابهة، بطريقة تبرز لنا الطابع الخاص بالقرآن، ثم إنه يلزمنا أن نبحث قضية هذا التشابه بين الكتابين، وهو أمر جد مفيد لموضوعنا.

إن مدى التاريخ واحد تماماً في كلتا الروايتين، ومع ذلك فإن مجرد التأمل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حدة، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني. فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن، فهو نبي أكثر منه أباً، وتبرز هذه الصفة علىالأخص في طريقته في التعبير عن يأسه عندما يعلم باختفاء يوسف عليه السلام كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف عليه السلام وأخيه. وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم، وأرغمته طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها، وتقر بخطيئتها. وفي السجن يتحدث يوسف عليه السلام بلغة روحية محلقة، سواء مع صاحبيه، أم مع السجان، فهو يتحدث كنبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها.

وفي مقابل ذلك نجد الرواية الكتابية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات لمصرية -الوثنية بالطبع- بأوصاف عبرانية، فالسجان يتحدث كموحد، وفي القسم لخاص بتعبير الرؤيا في القصة يرتسم رمز المجاعة في صورة أقل إجادة فعبارة التوراة مي: (فابتلعت السنابل الجياد) أما في الرواية القرآنية فإنها تعقبها فحسب.

والرواية الكتابية تكشف أيضاً عن أخطاء تاريخية تثبت صفة «الوضع التاريخي» للفقرة لتي نناقشها، فمثلاً فقرة (لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين) يمكننا التأكيد بأنها من وضع النساخ الميالين إلى أن يذكروا فترة المحن، لتي أصابت بني إسرائيل في مصر، وهي بعد زمن يوسف عليه السلام.

وفي رواية التوراة استخدم إخوة يوسف عليه السلام في سفرهم «حميراً» بدلاً من «العير» في رواية القرآن، على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل، بعد ما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين، وفضلاً على ذلك فإن ذرية إبراهيم عليه السلام ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة لرحل رعاة الأغنام والمواشي.

وأخيراً فإن «حل» عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية، حيث يشتمل في الفصول الأخيرة -التي آثرنا حذفها كيما نتجنب الإطالة المملة- على تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين في مصر.

أما في القرآن فإن هذا الحل يدور حول الطابع المميز للشخصية المحورية: يوسف عليه السلام الذي يختتم هذا الختام المنتصر: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آية: ١٠٠][1].

---

١) الظاهرة القرآنية / مالك بن نبي ص٢٩٢-٢٩٤.

ويقيني أن ما ذكره الكاتب: كافٍ لإعطاء قناعات عما يتمتع به القرآن من منطق العلم، وسمّو الخلق، ودقة تتفق مع واقع التاريخ.

ثانياً: الأمور التي تفرد بها القرآن:

ولقد آن لنا أن نتحدث عن المقام الثاني، ونعني بها هذه الأمور التي تفرد بها القرآن عن التوراة، لنرى أين هي من الأشياء الخرافية التي نقلت عن اليهود -كما ذكرت دائرة المعارف-، مع أن كثيراً منها بعيد عن أسلوب الحكاية وعناصرها، وهي بحق قضايا ذات أثر تربوي في حياة الإنسان.

١- وأول ما يقابلنا في سورة يوسف عليه السلام درس تربوي للأجيال جميعاً، وهو ما ينتج عن تفضيل الآباء بعض أبنائهم على بعض، وهي قضية عالجتها السنة المطهرة، وقد بيّنت سورة يوسف ما لذلك من أثر يمكن أن تعاني منه الأسرة، فماذا في ذلك من خرافة يا ترى؟!

٢- كذلك تفرد القرآن بخوف يعقوب على يوسف عليه السلام أن يذهب مع إخوته، ولذا لم يرسله معهم حينما طلبوه أول مرة.

٣- ولقد تفرد القرآن كذلك بارتياب يعقوب عليه السلام بما ذكره أبناؤه حينما جاؤوا على قميص يوسف عليه السلام بدم كذب ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [آية:١٨] فماذا في هذا أو ذاك من خرافة يا ترى؟!

٤- كما تفرد القرآن بهم يوسف عليه السلام وهو ما كان يجول في خاطره كشاب سوي، إذ من الطبيعي أن يفكر من هو مثل يوسف عليه السلام في أمر الشهوة، ما دامت بنيته صحيحة، وحياة الرغد مهيأة له، ولكنه مع ذلك استطاع أن يكبح جماح هذه الشهوة، وقد رأى برهان ربّه وهو ما أودعه الله في نفسه من خشية لله، وبغض للخيانة؟ لأن الله أراد أن يصرف عنه السوء والفحشاء ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [آية:٢٤]، وهو بحق درس سجله القرآن الكريم ليفيد منه كل أولئك الذين سنحت لهم الفرص فتسنى لهم فعل الشهوة، فيذكروا ما كان من يوسف عليه السلام، فماذا في ذلك من خرافة يا ترى؟!:

٥- ولقد تفرد القرآن كذلك بقدّ قميص يوسف عليه السلام، والذي ذكرته التوراة هو أخذ القميص، ولا شك أنّ قضية ورواية القدّ هي التي تتفق مع منطق الأحداث، وما كان من ذلكم الرجل الحصيف العقل، النافذ البصيرة، السليم المنطق، المستقيم الفكر، وهو من ذوي المرأة وقرابتها، حينما شهد شهادته التي تدل على تلك الصفات التي ذكرناها. وهو درس يمكن أن يفيد منه رجال الأمن وجماعات القضاء في استنتاج الأحكام لما يعرض لهم من قضايا، فهل تلك خرافة يا ترى؟!

٦- ومما تفرد به القرآن خبر النسوة وقد تسرب الخبر ورشحت بعض أحداثه إليهن، وهذه قضية اجتماعية، فأخبار مثل هؤلاء في كل زمان ومكان سريعة التسرب، سريعة الرشح، يفتح الناس آذانهم لها، فكان من خبرهن بعدما رأين يوسف عليه السلام أن اصابتهن الدهشة فجرحن أيديهن، أفينكر علم الاجتماع وعلم النفس مثل هذه القضية؟!

٧- ومما تفرد به القرآن الكريم تضرع يوسف عليه السلام لربه أن يصرف عنه كيد النسوة حتى لا يصبو إليهن، ويكون من الجاهلين، وما ذلك إلا لأنه بشر، فيستجيب له ربه، فيصرف عنه كيدهن، فماذا في ذلك من خرافة؟!

٨- ومما انفرد به القرآن هذه الدعوة التي كان يحمل يوسف عليه السلام لواءها، وهي رسالة التوحيد، وها هو قبل أن يجيب صاحبي السجن يعظهما ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩] ويعترف بأن ما عنده إنما هو من تعليم ربه له ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [الآيات: ٣٧-٣٨] أليس هو الذي يتلاءم مع شرف النبوة ومنزلة الرسالة؟!

٩- ومما انفرد به القرآن عدم تلبية يوسف عليه السلام نداء الملك حينما طلبه أول مرة، فأبى يوسف حتى تُسْأل النسوة عن شأنه. وتُسألُ النسوة ويبرئن يوسف عليه السلام ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾ وتعترف امرأة العزيز بالحقيقة ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ٥١] أيمكن أن يكون ذلك خبر خرافة ونسج حكايات

يتناقلها جهلة القصاص؟ أم أنه سرّ كشف لثامه القرآن وحده؟! أليست تلك حصافة من يوسف عليه السلام تدل على رفعة نفس، واعتزاز بالكرامة؟ ثم ماذا كانت نتيجة هذه الحكمة التي أُلهِمَها عليه السلام؟ لقد كبر في عين الملك؛ ولذا نجد القرآن يصرح بهذا ويشير إليه، فبعد اعتراف النسوة ببراءة يوسف عليه السلام، يقول الملك ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [آية: ٥٤] وهذه الجملة ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ لم يقلها الملك أول مرة في الآية، وإنما قالها في هذه المرة الثانية فحسب، حينما رأى من يوسف عليه السلام هذا الاعتزاز بكرامته وهذا الصدق مع نفسه. ولقد سجل الرسول الكريم ﷺ كما جاء في السنة المطهرة: «رحم الله أخي يوسف، لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي»(١): وهذا تقدير من النبي سيدنا محمد ﷺ لما كان من يوسف عليه السلام.

١٠- ومما انفرد به القرآن رجوع إخوة يوسف عليه السلام في المرة الثانية لأبيهم، وقول أبيهم لهم تحسسوا من يوسف عليه السلام وأخيه، ولا غرو من ذلك ولا عجب فلقد كان الرجل نبياً، يُلْهَمُ الكلمةَ التي يقولها.

١١- ومما انفرد به القرآن هذا الدرس الذي أعطاه يوسف عليه السلام لإخوته ولغيرهم، وسيظل درساً يفيد منه كل أولئك الذين يعرضون للأخطار، وتحيط بهم المصاعب، وتظللهم الكروب، هذا الدرس الذي هو بحق خير علاج لأمراض الحياة الاجتماعية، ونعني به قول يوسف عليه السلام ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٩٠].

وهكذا يعلم إخوته وغيرهم أن الذي يكون مع الله لا يخذله الله، ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ وهذه الكلمة نفسها قالها النبي ﷺ. قال: ما تظنون أني فاعل بكم، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: لا أقول اليوم إلا كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، وأخرجه البخاري كتاب الأنبياء باب قوله تعالى ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ حديث رقم ٣٢٠٧.

١٢- ومما انفرد به القرآن ما كان من يعقوب عليه السلام حينما ألقوا القميص على وجهه فارتد بصيراً وهي قضية أترك لعلماء النفس وعلماء الطب على السواء، أن يقولوا فيها قولتهم. ولا تنسَ أنها من نبي لنبي، من الأب لابنه. إنّ الطب النفسي في أيامنا يذكر مثل هذه، وما يزيد عليها كذلك.

١٣- ومما انفرد به القرآن هذا الفضل الذي اعترف به يوسف عليه السلام لخالقه وربه، وهذا الأدب الذي أظهره يوسف عليه السلام، وهذا السموّ في الصفح وهو يقول ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ -فهو ينسب الإحسان إلى ربه- ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ -هذا الأدب الجم فقد نسب ما كان من إخوته إلى نزغ الشيطان، حتى يذهب عنهم الضيق النفسي- ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠٠-١٠١].

أين الخرافة في هذا كله؟! إن قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم لخير دليل على حقية هذا القرآن، وعلى صدق النبي الأمي، ولهذا أقول: ما أروع مجيء الآية التالية بعد انتهاء قصة يوسف عليه السلام تؤكد تلك الحقيقة ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

إننا نود من كل المنصفين أن يقفوا مع أحداث قصة يوسف عليه السلام وحقائقها ليوازنوا بين هٰذه الأحداث والحقائق، وبين ما ذكرته دائرة المعارف، وإننا على يقين من أن طلاب الحق لن يخفى عنهم نوره.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الحادي عشر

قصة شعيب عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من آيات:

١- سورة الأعراف.

٢- سورة الشعراء.

٣- سورة هود.

٤- سورة العنكبوت.

ثانياً: تعقيب على قصة شعيب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة شعيب ﷺ

قيل إن شعيبا -عليه الصلاة والسلام- هو أحد الأنبياء من العرب، كهود وصالح -عليهم الصلاة والسلام- وذلك لحديث عند ابن حبان: أن الانبياء العرب أربعة: هود وصالح وشعيب ومحمد ﷺ»(١). ويقال انه كان خطيب الانبياء، لحسن مراجعته.

ولقد ذكرت قصة شعيب عليه السلام في أكثر من موضع، وإنْ كانت أقل ذكرا من قصص الأنبياء «وكل شيء بقدر» ولكن الأمر المستغرب ما ذكره الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه، من أن أهل مدين كانوا اسرائيليين، ومعلوم أن الاسرائيليين كانوا من نسل يعقوب عليه السلام، ومع أن مدين كما يقال الذي نسبت إليه القبيلة، وأطلق على البلدة كذلك، كان أحد أبناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى كل حال فالذي أكدته الكتب الدينية والتاريخية أن أهل مدين ليسوا اسرائيليين.

من هو مدين؟

ولقد اختلف العلماء، فذهب كثير منهم إلى أن مدين هو ابن ابراهيم ﷺ، واستند هؤلاء إلى ما جاء في سفر التكوين من أن ابراهيم ﷺ تزوج امرأة تسمى قطورة ولدت له ستة ابناء منهم مدين، وذهب آخرون إلى أن مدين كان من الذين آمنوا بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذهبت فئة ثالثة إلى أن مدين عَلَمٌ على البلد التي كان فيها شعيب عليه السلام. وقد رجح صاحب المنار(٢) القول الأول، وهو أنه من أبناء إبراهيم ﷺ.

وفي النفس شيءٌ بل أشياء من هذا القول؛ فنحن نعلم أن أبا الأنبياء وشيخ الحنفاء ﷺ، بشره الله بإسماعيل عليه السلام ثم بشره بإسحاق عليه السلام على الكبر، وحمد الله على ذلك ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢/ ٧٦ رقم ٣٦١ كتاب البر والاحسان.
(٢) (٨/ ٥٢٤).

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [الحجر: ٥٤]، فمتى تزوج هذه المرأة، وولدت له هذا العدد من الأولاد، إن القضية تحتاج إلى تحقيق تاريخي؛ لذا فإني لا أستريح إلى ما رجحه صاحب المنار -رحمه الله- لكني لا أجزم برأي لأن الجزم يحتاج إلى تحقيق.

ألا يمكن أن يكون اليهود قد وضعوا مثل هذا، ونحن نعلم أن التوراة كتبت بعد موسى عليه الصلاة والسلام بزمن، وضعوه من أجل أن تكون هناك صلة بينهم وبين القبائل. على كل حال القضية ليست من الجوهريات التي تعنينا دائما في هذا الكتاب، مع أنني أود التحقيق دائماً فيما أكتب، ولعل الله ييسّر لنا ما نطمئن إليه.

ولم تكن مساكن قوم شعيب عليه السلام بعيدة، كما لم يكن خبرهم غريبا عن الذين بعث الرسول عليه وآله الصلاة والسلام فيهم.

واننا لنجد بعض الإشارات المبكرة تحدثنا عنهم، وهي تنظمهم في سلك المكذبين المعاقبين، نجد ذلك مثلا في سورة (ق) وسورة (ص) وقد مرت الآيات من قبل، وهناك إشارة ذكرت في سورة متأخرة بعض الشيء، وهي سورة الحجر، وقد جاءت عقب قصة لوط- عليه الصلاة والسلام-، وهي قوله سبحانه:

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩].

والإشارة- والله أعلم- لهم ولقوم لوط؛ فهم في طريق ظاهر يسلكه المارة ويؤمّونه في مسيراتهم.

١- وأول سورة حدثتنا بالتفصيل عن سيدنا شعيب- عليه الصلاة والسلام- **سورة الأعراف**، وسورة الأعراف إحدى السبع الطوال، ولقد ذكرت فيها أخبار الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- مرتبة ترتيباً زمنياً، حيث ذكر فيها خبر آدم، كما مر من قبل منفصلا عن غيره من أخبار الأنبياء، ثم ذكر خبر نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى صلى الله على نبينا وعليهم، وعلى جميع الأنبياء وسلم.

فذكرت قصة شعيب عليه السلام معطوفة على ما قبلها من القصص وفيها يبين الله تبارك وتعالى لنا خبره، وتبدأ القصة كما بدىء غيرها ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ثم ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥] ويبين شعيب عليه السلام ما بيّنه إخوته الأنبياء لأقوامهم، فيأمر قومه أن يعبدوا الله وحده فليس لهم من إله غيره، فهو سبحانه الجدير بالعبادة والتوحيد، ويحثهم على هذا الإيمان، فقد جاءتهم المعجزة الدالة على صدقه -عليه الصلاة والسلام-. والقرآن الكريم لم يبين لنا نوع هذه الآية التي جاءتهم، فنسكت عما سكت الله عنه، وبعد أمرهم بالتوحيد الذي هو الأصل لسعادة الدارين نجده- عليه الصلاة والسلام- يخطو خطوة أخرى تتصل بالجوانب الحياتية: اجتماعية واقتصادية، تلك التي كانت تنتشر فيهم، وهي من السيئات التي لا تنتج إلا البوار والدمار. وهكذا نجد الأنبياء- عليهم الصلاة و السلام- كانوا لا يغفلون شؤون الحياة التي تتصل بواقع أقوامهم ذلك لأن الدين في حقيقته ليس كما يفهم بعضهم، أو يريده بعضهم على أنه علاقة فردية بين الإنسان وخالقه، ولا صلة له بعد ذلك بدنيا الناس؛ لذا كان أول ما أمرهم به بعد التوحيد هو إيفاء الكيل، وإيفاء الوزن بكل قسط وعدل، ويظهر أن البخس والتطفيف كان الديدن لأهل مدين، ثم ينهاهم بعد ذلك عن أن يبخسوا الناس حقوقهم، وهي خصلة لا تقل عن سابقتها سوءاً، ثم ينهاهم بعد ذلك أن يظهروا في الأرض الفساد، وبعد هذه الخصال الأربع أعني الشرك، والتطفيف، وبخس الحق، والإفساد في الأرض، ينهاهم عن خصلة خامسة لا تقل خطراً عن سابقاتها، فإذا كانت الخصال السابقة تتعلق بالقضايا المادية فإن هذه تتصل بجانب آخر من جوانب الحياة، وهو الجانب الفكري والروحي. فلقد كانوا لا يدعون أي ثغرة، أو أي طريق إلا ويقعدون به لإغواء الناس، يوعدونهم، ويخوفونهم، ويصدونهم عن الحق، وهم يشككون فيه، وما أشبه هذه المهمة- لعمر الحق- بما جرد إبليس نفسه له! والذي ذكر في أول هذه السورة، حينما قال: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، وقد تحدثت عن هذا من قبل.

وبعد هذا النهي والتحذير والإرشاد من شعيب- عليه الصلاة و السلام- أهاب بهم أن يتذكروا نعم الله عليهم، فيذكروها ويشكروها، وقد كانوا قلة فكثرهم الله، أذلة فأعزّهم، ثم نبههم إلى أن يعتبروا بغيرهم من الأمم الذين أَفسدوا فأُهلكوا، ولقد لانت قلوب فأذعنت وأجابت داعي الله، وبقيت قلوب غلف في أكـنّـةٍ، أبت الانصياع إلى الحق؛ لذلك وجدناه- عليه الصلاة والسلام- يتلطف في خطابهم بهذا الأسلوب الذي يمتليء رقة وإشفاقاً، فإن كان منكم قوم آمنوا بما أرسلت به، وآخرون اختاروا الكفر والبقاء على ما هم فيه من باطل، فليصبر هؤلاء وأولئك، ليصبر الكافرون على ما يسوءهم من إيمان المؤمنين، وليصبر المؤمنون على ما يلحقهم من أذى الكافرين، فلن يدوم الأمر إلى مالا نهاية، ولا بد له من غاية، حينما يحكم الله تبارك وتعالى بين الفريقين، وهو سبحانه خير الحاكمين، وأحكم الحاكمين، أعدلُهم حكماً، وأعظمهم حكمة. وهنا تثور نعرة الباطل، وتظهر حمية الكفر ويُبرز أولئك ما مُنحوه من قوة مادية؛ ليحاربوا بها الحق ويسكتوه، ويخرسوا صوته، فيتوعدون شعيباً عليه السلام، ومن آمن معه، فهم بين أمرين: إما أن يرجعوا عن دينهم الجديد ليسيروا في ملة الكفر، وإلا فإنهم سيخرجونهم من بلدهم بالقوة يجردونهم من جنسيتهم، فيسلبونهم كل ما يترتب عليها من حقوق، ولكن خاب ظنهم وما أشبه الليلة بالبارحة!، وهم وقد لوَّحوا بهذا التهديد، وأرعدوا، وأزبدوا بهذا الوعيد، وقد حسبوه مجدياً؛ فكثير أولئك الذين جردوا من جنسياتهم في القرن العشرين، وصودر كل ما يمكّنهم من التنقل؛ إلا أن شعيباً- عليه الصلاة والسلام- يردُّ عليهم مقالتهم بثبات الداعية الصادق، الرسول الواثق: أنعود في ملتكم، ولو كنا كارهين لها، نافرين منها؛ لأنها نحلة سوء، وملة شر، والله إننا لمفترون كاذبون على الله إن عدنا فيها، وكيف نعود، وقد أكرمنا الله- تبارك وتعالى- فنجَّانا من حمأتها، وأوحالها، وفتنتها، وقد من علينا بالهداية؟! لن نعود أبداً إلا أن يشاء الله ربُّنا ذلك.

وهذا أمر غيبي لا نعلمه -ومعاذ الله أن يضلَّ من فتق ذهنه بالحق، وشرح صدره للهداية- والله يعلم حالنا وحالكم، وسع ربنا كل شيء علماً، عليه وحده نتوكّل ونعتمد، ثم يدعو عليه السلام ربَّه أن يحكم بينه وبين قومه بالحق، وان يفصل بينهم، فهو سبحانه خير الفاتحين، وحينما يجد أئمة الكفر أن لا مطمع لهم في شعيب عليه السلام يتوجهون إلى الذين آمنوا معه رجاء إغوائهم، فلعلهم أقل من شعيب عليه السلام تمسكاً بهذا الدين، يتوجهون إليهم منذرين محذرين بأنهم إن اتبعوا شعيباً عليه السلام فسيكونون من الأخسرين، سيخسرون المال والجاه وغيرهما من الحقوق، وهنا تحق عليهم الكلمة، ويأخذهم العذاب، ويبين الله تبارك وتعالى أن أولئك الذين كذَّبوا شعيباً عليه السلام، وحكموا على الذين اتبعوه بالأخسرين، هم الذين حل بهم ماتوقعوه لغيرهم، كأن لم يكن لهم وجود ولا حياة، وهم الذين وقعوا في الخسران، أما شعيب- عليه الصلاة والسلام- فيعرض عنهم، وقد بلغهم رسالات ربه، وعمل كل ما في وسعه ناصحاً لهم. أما وقد اختاروا طريق الضلال والغواية، فلماذا يأسى، ويحزن عليهم؟. تلك هي قصة شعيب عليه السلام، كما صورتها سورة الأعراف، وهي بحق صفحة مليئة بالعظات، ولوحة ذات مناظر خلابة، وحقائق مجسمة مؤثرة:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ

مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ[1] عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣].

٢- ثم تأتي **سورة الشعراء** ذات النبرة المثيرة، والآيات القصيرة، تبدأ قصة شعيب عليه السلام بما بدأت به أخواتها، ولكنها هنا تذكر لنا أصحاب الأيكة بدل أصحاب مدين ويظهر أنهم قوم كانوا على مقربة من مدين، وأن شعيباً أرسل لهم كذلك، وان كان من مدين- عليه الصلاة والسلام-، وليس من الأيكة.

يدلنا على ذلك هذا التغاير في الاسلوب، ففي سورة الأعراف ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، وفي سورة الشعراء عند الحديث عن أقوام الرسل نجد هذه الآية ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤٢] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [الشعراء: ١٦١] أما عند الحديث عن أصحاب الأيكة فنجد هٰذه الآية: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧] وهٰذا يرجح ما قلناه: من أن شعيباً- عليه الصلاة والسلام- كان أخاً لمدين وقد أرسل إلى أصحاب الأيكة كذلك.

يأمر شعيب عليه السلام قومه بتقوى الله فهو الرسول الأمين الذي أرسل إليهم، ولا يسألهم على ما يريد أجراً، إنما أجره من رب العالمين.

وبما تمتاز به سورة الشعراء من أسلوب يفوق ماللشعر من خصائص كما قلنا من قبل، يوجه لهم هذه الأوامر التي اشتهرت فيهم بكل إيجاز: إيفاء الكيل، والوزن بالقسطاس،

---

(١) الأسى: شدة الحزن، اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل.

وعدم غمط الناس حقوقهم، وعدم الفساد في الأرض، فالأسلوب مغاير تماما لما جاء في سورة الأعراف، بل ليس الأسلوب وحده، وانما كثير من الجزئيات كذلك، هذا من حيث قوله- عليه السلام-، أما من حيث قولهم له فالأمر فيه أظهر، فلقد أجابوه بهذا الأسلوب الذي فيه أداة القصر كما يقول علماء البلاغة، وبهذه الأداة التي تدل على البدهية، كأنما الأمر مفروغ منه وهي ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥] إنما أنت من أولئك الذين أصابتهم لوثة في عقولهم بسبب السحر، هذا أولا.

وأما ثانيا فبأسلوب آخر من أساليب القصر، اختلفت فيه الأداة عن الأول حيث جاءت الأداة هنا أداة النفي وأداة الحصر موسطا بين الأسلوبين بحرف العطف ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وإنهم ليظنونه من الكاذبين أما إن كان صادقاً فليسقط عليهم قطعا من العذاب من السماء، ولا يجيبهم- عليه الصلاة والسلام- إلا بهذه الكلمة ﴿ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨] فهو سبحانه يعلم عملهم، وهو الذي يعلم ما يناسبهم من العذاب كذلك، ويصرون على تكذيبه؛ فيرسل الله عليهم سحابة ظنوا أنها ستظلهم من شدة الحر، ولكنها كان فيها العذاب، وهو بحق عذاب يوم عظيم، وفي ذلك آية تدعو إلى الإيمان، وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربنا تبارك وتعالى عزيز لا يهمل ظالماً، ورحيم يمهلهم لعلهم يرجعون.

تلك قصة شعيب عليه السلام في سورة الشعراء. فقل لي هل ترى فيها شائبة تكرار؟؟ أم أنك تجد لكل واحدة لونها في لوحتها البديعة، كما تجد أن لكل واحدة منها على أذنك، وعلى قلبك قرعاً في صنعتها الرفيعة مع جزئيات، ومواقف، ومشاهد يتلاءم موضوعها مع موضوع السورة، ويعلم الله أن الذي يتوهم التكرار ليس الا كمن يتوهم الماء في سراب بقيعة.

وهذه آيات سورة الشعراء:

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٩٠].

٣- أما **سورة هود** التي يقول في شأنها الرسول ﷺ: «شيبتني هود»[١]، فلن نتعجل فيها الحكم إلا بعد أن نشنف الآذان ونشرف اللسان بما جاء في قصة شعيب عليه السلام من أحداث، وما يمكن أن يستنتج منها من أهداف.

بدأت السورة الكريمة الحديث عن شعيب عليه السلام بعد الحديث عن نوح، وهود وصالح، وإبراهيم، ولوط عليهم الصلاة والسلام، وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً صلوات الله وسلامه. ومن نافلة القول أن نذكر أن القصة تبدأ بأمر شعيب عليه السلام قومه بالتوحيد، ثم ينهاهم بأسلوب موجز عما اشتهروا به من خصال سيئة، وهو نقص المكيال والميزان، فلا حاجة لهم في ذلك كله، وقد من الله عليهم بهذا الخير، وهو يخاف عليهم عذاباً محيطاً، يحيط بهم من كل جانب، ويطوقون به من كل جهة، فحري بهم إذن أن يوفوا المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس ما عندهم، وأن لا يعثوا إفساداً في الأرض، ثم يلفتهم إلى قضية مهمة، وهي أن ما أبقاه الله لهم من حلال، وما أكرمهم به من رزق طيب هو خير لهم، ويقسم هذا الخير حينما يجمعون بين هذه البقية وبين الإيمان،

---

(١) أخرجه الترمذي/ سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن، من سورة الواقعة، حديث رقم ٣٢٩٣ جـ٩ ص٣٦، الحديث: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس الا من هذا الوجه.

إنه خير الدنيا وخير الآخرة، ولكننا نجد أقوالهم في سورة هود فيها من الشدة والعنف والتهكم، مالا نجده في سورة أخرى، فما الذي قالوه يا ترى؟ لقد اقتصر قولهم في سورة الأعراف على أن خيَّروه بين أن يخرجوه من بلده؛ فيجردوه من الجنسية ويحرموه من جواز السفر!!، أو أن يصير في ملتهم هو وقومه.

أما في سورة الشعراء فلقد اقتصر قولهم على أنه من المسحرين، وأنه بشر مثلهم، وليأتهم بالعذاب إن كان من الصادقين، لكننا نرى هنا نمطاً آخر، فهم أولا وقد عرفوه- عليه الصلاة والسلام- كثير العبادة فهم يخاطبونه منكرين مستهزئين:ـ عجباً لك أصلواتك وعبادتك هي التي سوّلت لك، وخوّلتك أن تأمرنا بهذه الأوامر التي من شأنها أن تأتي على كل ما نعتز به، وإن أعز شيء لدينا أن نستمر على عقائد آبائنا أولاً، وأن نتمسك بما نشأنا عليه من عادات وتكون لنا حرية التصرف في أموالنا ثانياً. أفهذه نتيجة صلواتك التي حملتك على أن تأمرنا أن نترك عبادة الآباء، ونترك التصرف في أموالنا كما نشاء؟ ثم يزيدونه تهكماً بوصفهم له بالحلم والرشد، آلحلم الذي جعلك تأمرنا بالعبادة، والرشد الذي دعاك أن تطلب منا أن نحسن التصرف بالأموال؟ ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]؟ وهذا الأسلوب ليس غريباً على الرسل أن يستمعوه، ومن ثم فليس غريباً على ورثتهم من الدعاة كذلك، ولقد مر معنا من قبل ما قاله قوم لوط عليه السلام لنبيهم، وسيمرّ معنا- إن شاء الله- ما سيقال من أقوام آخرين؛ بل إن واقعنا مليء بهذه الأساليب. ويجيبهم- عليه الصلاة والسلام- بما يدل على حلمه ورشده: يا قوم، أخبروني إن كان الله قد أكرمني بالبينة والنبوة، فوجب علي شكره وعبادته، ورزقني من لدنه رزقاً حلالاً حسناً طيباً، أفاضرب عن تذكيركم صفحاً؟ أءترككم في غوايتكم تعمهون؟ وأنا حينما أنهاكم عن الاعتداء على حقوق الناس فلن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، أي لا أنهاكم عن شيء، لأكون له من الفاعلين، بل أنا أكثر تجنباً لما أنهاكم عنه، فما أريد إلا الإصلاح قدر طاقتي واستطاعتي مستمداً التوفيق من الله، فعليه وحده أتوكل،

وإليه وحده أنيب وأرجع، ويا قوم لا يحملنّكم بغضي ومخالفتي على أن يصيبكم ما أصاب الأمم قوم نوح وهود وصالح وما قوم لوط منكم ببعيد لا من حيث المكان ولا من حيث الزمان، ورغم تهكمكم فإني آمركم أن تستغفروا ربكم من ذنوبكم، ثم تتوبوا إليه؛ فربي رحيم ودود كثير الرحمة، عظيم الودّ لعباده إن أحسنوا التوبة. . .

على الرغم من هذا التلطف، وعلى الرغم من هذه المراجعة الحسنة الطيبة، إلا أنهم يمعنون في الغي ويزدادون عتواً. فماذا يقولون: لقد كانوا أولا متهكمين ساخرين فماذا يقولون ثانياً: إنهم الآن متهددون متوعدون. قالوا له: يا شعيب لسنا نفقه كثيراً مما تقول وأنت ضعيف لا يخفى ضعفك علينا وكان حرياً بنا أن نرحمك وما جزاؤك إلا أن نرجمك، ولكننا امتنعنا عن رجمك من أجل قرابتك، وهم قلة في العدد لا يتجاوزون عشرة رجال، لكنهم على ملتنا؛ من أجل ذلك يعزون علينا، أما أنت فلن نعزك، ولن نجلك كما تعلم. ولم يكن- عليه الصلاة والسلام- أقل حلما ورشداً بعد الوعيد والتهديد منه بعد التهكم والاستهزاء، ولكنه هذه المرة وقد أدرك أن لا سبيل لهدايتهم، يقول منكراً عليهم قولهم، مستنكراً فظاظتهم: أرهطي الذين امتنعتم عن رجمي من أجلهم أعز عليكم من الله الذي أكرمني بالنبوة وقد نبذتم أوامره، وتركتم شرعه وراء ظهوركم؟! إنه ربي محيط بكل أعمالكم، وإذا كان نصحي لا ينفعكم فلتعملوا على مكانتكم، وإني عامل، وسوف تعلمون من سيصيبه العذاب ومن هو كاذب، وانتظروا فإني معكم من المنتظرين!!

ويجيء أمر الله، وينجي شعيباً عليه السلام والذين آمنوا معه، وتأخذ الذين ظلموا الصيحة؛ فيصبحوا جاثمين على ركبهم خامدين، كأن لم يقيموا فيها بالأمس فهلاكاً لمدين، كما هلكت ثمود من قبل، فكل من الأمّتين أخذ بالصيحة.

هذه قصة شعيب في سورة هود- عليهما الصلاة والسلام-، وإخالني لست بحاجة لأذكر ما اختصت به كل سورة من السور الثلاث: الأعراف، والشعراء، وهود، من حيث الأسلوب، ومن حيث الموضوعات. ما قاله شعيب عليه السلام، وما قيل له،

ومن حيث نوع العذاب الذي أصيب به كل من أصحاب الأيكة وأصحاب مدين، ومن حيث النهاية التي ختمت بها كل قصة:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٨٤-٩٥].

٤- ثم تأتي **سورة العنكبوت** بعد ذلك، وهي آخر سورة تذكر فيها قصة شعيب عليه السلام، ولا أود أن أكرر هنا ما قلته عن سورة العنكبوت من قبل، وما قلته عن كل قصة في سورتها الأخيرة التي تذكر فيها. وقصة شعيب عليه السلام في سورة العنكبوت منسجمة تماماً مع القصص الأخرى، فلقد جاءت القصة فيها مجملة موجزة.

يأمر شعيب عليه السلام قومه فيها أن يعبدوا الله، ويرجو اليوم الآخر، وهو بهذا النص يُذكر هنا لأول مرة، ولكنهم يكذبونه فتأخذهم الرجفة:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦-٣٧].

وبهذا تنتهي قصة شعيب عليه السلام، وهي كما رأينا في سورها المتعددة ثرية بما تعرضه من جوانب، وبما يستنتج منها من أهداف، إلى جانب الروعة في التعبير والخصائص البيانية في أسلوب كل قصة، كل ذلك بعيداً عن شبهة التكرار، وشائبة الإطناب ولله در التنزيل، وهو حسبنا، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم.

ثانيا: تعقيب على قصة شعيب- عليه الصلاة والسلام

هذه قصة شعيب عليه السلام. ونلمح من الآيات الكريمة ما كان عليه شعيب- عليه الصلاة و السلام- من مهارة في القول، وحكمة في الدعوة، وحسن مراجعة لما يريد تقريره من أمور، والقضية التي كان يعالجها في قومه مع قضية التوحيد من أكثر القضايا عسراً وصعوبة؛ إنها قضية المال الذي طبعت النفوس على حبه. لذلك نجد أن هذه القضية قد أخذت مساحة غير قليلة من دعوته؛ ومن هنا اشتد إنكارهم عليه، ونيلهم منه فهم لا يفقهون ما يقول، كيف وقد أراد أن يقيدهم في التصرف بهذه الأموال حسب قواعد رشيدة، ومبادىء سديدة؛ لذلك لم يحل بينهم وبين رجمه- في زعمهم- إلاَّ رهطه وجماعته.

والحق أن قضية المال من أشق وأشد القضايا التي تحتاج معالجتها إلى حكمة ولطف؛ لذا إن لم تكن النفوس قد أضاءت جوانبها العقيدة الحقة، فمن الصعب بل من المحال أن تكون هناك استجابة لأصوات المصلحين مهما ارتفعت. وقد تحدثنا من قبل عن مساوىء أهل مدين والأيكة، ونود أن نزيد هنا أن أصحاب الباطل يعز عليهم أن

يجدوا من يجادلهم في باطلهم. وكذلك كان قوم شعيب عليه السلام؛ لذلك عملوا جاهدين على أن يردوا شعيباً عليه السلام، ومن آمن معه إلى ملتهم تارة بالوعيد ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وتارة بالإغراء: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]، ستخسرون الكثير من مال، وجاه، ومنصب، وعز وفخر. ولكن شعيبا- عليه الصلاة والسلام-، وأمام هذه الوسائل المختلفة يحث من آمن معه على الصبر حتى يحكم الله بين الفريقين، ويحكم الله بينهم، وينجي شعيباً عليه السلام والذين آمنوا معه.

وإذا كان من لبنة يضيفها شعيب عليه السلام للبناء المحكم فإنها تتمثل في هذا الصبر والثبات، كما تتمثل في قضية أخرى، وهي قضية مهمة، تلكم هي محاربة هذا الجشع الذي يسيطر على النفوس لتستولي على الأموال بأي طريقة من غير تفريق بين الحق والباطل، وما يحل وما يحرم، وقضية ثالثة، وهي عدم الاكتراث بهذه النظرة الاجتماعية التي ينظرها أهل الباطل لأهل الحق، وقوم شعيب عليه السلام كانوا يرونه فيهم ضعيفاً لا يستحق أن يعزوه ويجلوه، ولكنه- عليه الصلاة والسلام- صبر وصابر، وثبت على أمر ربه إلى أن أخذتهم الصيحة، وذلك جزاء المعرضين المكذبين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني عشر

قصة موسى عليه الصلاة والسلام

موسى عليه الصلاة والسلام وافتراءات (فرويد):

إن مما يشتد منه العجب أن أهل الباطل يظنون أن بإمكانهم تغيير الحقائق، وإن كانت مثل الشمس سطوعاً وضياء، وما ذلك إلا ليلفتوا أنظار الناس إليهم، ولا زلنا بين الحين والحين نسمع أولئك يطلعون علينا مستغرقين في زيفهم -بكل غريب وعجيب، بعيد كل البعد عن الحقائق التاريخية والدينية والكونية من أولئك: فرويد الذي اراد أن يجرد الإنسانية من كل ما أكرمها الله به من شرف رفعة، وعلو منزلة، وروحانية مضيئة، ونفحات إلهية، ولم يُبْقِ لها من هذه الاستعدادات التي منّ الله عليها بها وقد تحدثت عنها من قبل في قصة آدم -لم يبق لها إلا غريزة الجنس، وياليته الجنس البريء.

فلقد ذهب فرويد مذهباً لم يسبق إليه، فلقد ذكر الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار- رحمه الله في كتابه قصص الأنبياء:

«نشرت جريدة الأهرام بعددها الخاص في ١٠ مايو سنة ١٩٣٩ خبرا لمراسلها في لندن جاء فيه: موسى عليه السلام هل كان مصريا؟ لندن في ٩ مايو لمراسل الأهرام الخاص- أشارت جريدة «نيوز كرينكل» إلى الطبعة الألمانية التي نشرت في أمستردام لكتاب: «موسى والتوحيد» من تأليف الأستاذ سجموند فرويد من علماء تحليل النفس المشهورين ومما قالته الجريدة أن من أهم آراء الأستاذ فرويد في هذا الصدد، قوله إن النبي موسى لم يكن يهودياً بل كان مصريا من أتباع أخناتون، وهو يعتقد أن اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة أخناتون للشمس. وستنشر الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب يوم ٢٦ مايو الحالي ونشرت الأهرام بعددها الصادر في ١٣ مايو سنة ١٩٣٩ تعليقاً عن

الخبر السابق للأستاذ منصور وهبة جاء فيه:

موسى عليه السلام هل كان مصرياً؟

نشرت «الأهرام» أخيراً برقية لمراسلها في لندن عن كتاب «للعالم النفساني «فرويد» يقول فيه إن سيدنا موسى عليه السلام كان مصرياً وليس عبرانياً من بني اسرائيل، وإني -أي فرويد- يرى أن موسى كان من أتباع أخناتون، وأن الدين اليهودي والدين المسيحي اشتق كل منهما من كلمة أخناتون للشمس.

وفضلاً عما في هذا الرأي من تناقض تاريخي وديني وفلسفي أيضاً، فإن المرء لا يسعه إلا الاستغراب من صدور هذه النظرية من علامة مثل فرويد، ذلك أن أساس الدين الاسرائيلي وهو التوحيد بالرب الواحد الأحد، قائم من أيام سيدنا إبراهيم الخليل قبل المجيء إلى مصر بزمن بعيد، وقبل أن تقوم لأخناتون قائمة. ثم إن أخناتون قد عبد الشمس ولم يعبد الرب الواحد القهار. يضاف إلى هذا أن موسى عليه السلام لم يأت بجديد علىأصول الدين الإسرائيلي سوى الوصايا العشر.

ومما يدعو إلى الدهش أن يقال إن سيدنا موسى ليس من سلالة إبراهيم، مع أن إبراهيم جده -ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤] وقوله جل شأنه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ [يونس: ٨٤] وفي آية أخرى ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الجاثية: ١٦] فهذه الآيات تدل دلالة صريحة على أن الكتاب والنبوة لم ينزلا على رجل من آل يعقوب، وأن موسى عليه السلام كان من بني إسرائيل، وأظنني لست في حاجة إلى أن استشهد بآيات التوراة والإنجيل فكلها ناطقة بأن النبوة لم تخرج من بيت إبراهيم عليه السلام.

أما من ناحية التاريخ فلعله قد فات «فرويد» ان الإسرائيليين كانوا يعبدون الله قبل مجيئهم إلى مصر أيام الهكسوس وقبل أخناتون بزمان، وكانوا في مصر يكرهون عبادات

المصريين الوثنية، ولم يختلطوا بهم قط، وظلوا محافظين على طقوسهم ودينهم ووحدتهم، بل لعل أخناتون هو الذي تأثر فأخذ فكرة مشوشة عن أمه «تاي» فتجسّمت في ذهنه بعبادة قرص الشمس على أنه في أثناء ذلك العهد، ومن قبله بأزمنة بعيدة، أي من عهد ابراهيم واسحق ويوسف كان الاسرائيليون لا يعرفون إلا عبادة الرب الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ولم يذكر إنسان عاقل أن بني اسرائيل قد عبدوا قرص الشمس في اي عصر من العصور.

ونشرت الأهرام أيضاً بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٣٩م تعليقاً على الخبر أيضاً للدكتور جلال فارحي جاء فيه:

«موسى عليه السلام هل كان مصرياً؟»

نشرت الأهرام لمراسلها في لندن منذ أيام أن جريدة «نيوزكرينكل» أشارت إلى طبعة كتاب «موسى والتوحيد» الألمانية، وما جاء في هذا الكتاب من أن مؤلفه الأستاذ سيجموند فرويد من علماء تحليل النفس يعتقد أن النبي موسى عليه السلام لم يكن يهودياً بل كان مصرياً من أتباع أخناتون وأن اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة أخناتون للشمس.

هذا ما يقوله الأستاذ فرويد وما من شك في أنه انفرد بين سائر العلماء والمؤرخين في العالم، بهذا الاعتقاد الغريب الشاذ. ذلك أن كتب التاريخ والكتب المنزلة تؤيد الاعتقاد السائد منذ آلاف السنين بأن موسى كان يهودياً أبا عن جد ومع أنه تربى وتثقف في بلاط مصر، فقد قام مع أخيه هارون يناصر إخوانه اليهود ضد رعمسيس. ثم تولّى زعامة اليهود إلى أن أخرجهم من مصر. فقد جاء في صفحة ٦٣ من تاريخ يوسيفوس المؤرخ الشهير الذي عاش في ٣٧-١٠٠م: «وكان رجل اسمه عمرام من أشراف العبرانيين وولد لهُ ابن آخر بعد هارون ومريم، وبعد صدور أمر فرعون بإعدام كل مولود ذكر للعبرانيين بإلقائه في النيل. والتقطته ثرموسيس ابنة فرعون وتبنته وسمته «موريس»

وهذه العبارات تقارب ما ورد في التوراة (خرد): وذهب رجل من بيت لاوى وتزوج من بيت لاوى وولدت لهُ ابنا. . .ودعته ابنة فرعون «موشه» من الفعل ماشه انتشله أي منتشلاً» فلو كان موسى مصرياً لما طبق عليه فرعون بقتل المواليد الذكور ولا اضطرت والدته ان تخبئهُ.

ثم إننا لو بحثنا عن اسم أبيه عمرام (اي شعب سام) وأجدادهُ: فتاهت من لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي اليهود واسم أمه «يوكابد» من «كابود» أي الكرامة والاحترام وجدناها عبرية محضا. وأما ما زعم فرويد من أن موسى كان من أتباع أخناتون فهو أيضاً مناقض للحقيقة لأن موسى ثبت عقيدة جده إبراهيم بتوحيد الله، ثم جاء بالتوراة أساس الشريعة الموسوية ووصاياها من أوامر ونواه من بينها الوصايا العشر التي نهت عن عبادة آلهة أخرى من أي نوع كانت وكذلك ما زعمه فرويد أن الديانة اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة أخناتون، مناقض للحقيقة وقد سبق أن دحض الأستاذ منصور وهبة فيما نشرته لهُ «الأهرام» هذا الزعم بالأدلة والنصوص القيمة من الكتب المنزلة.

يضاف إلى هذا أن أول من آمن بوحدانية الله إبراهيم وذريته. وأنه هاجر من بلاد الكلدان. فرارا من الوثنية وزار مصر في عهد امنحت ٢ من الأسرة ١٢ نحو ٢٢٠٠ ق.م وذلك قبل أخناتون بزمن طويل وهو أمينوفيس٤ ١٣٧٥-١٣٨٥ق.م والأسرة ١٨ حموتوت عنخ آمون.

على أن كثيرين يعتقدون أن أخناتون قد أخذ توحيد الآلهة عن العبريين. فإن لفظة «آتون» أي قرص الشمس الذي اختاره معبوداً لهُ لكونه إلهاً منظوراً مأخوذة من «أدون وأدوناي» بالعبرية اي سيد والسيد والله. الإله غير المنظور. وقد سمّى نفسه أخناتون أي انعكاس قرص الشمس تيمناً به -وترك طيبة وعبادة آمون وبني معبداً لأتون في تل العمارنة ووضع أنا شيد للشمس.

وقد يبدو للمطالع أن بعض آيات من فرمور ١٩ و١٠٤ و٢٤ وغيرها من مزامير داود، لكثرة مشابهتها لإحدى أناشيد أخناتون مثل «ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت» وقد أخذت عهد أخناتون. وهذا أيضاً بعيد عن الصواب وما هو إلا توارد الخواطر لا أقل ولا أكثر.

الإشارات المبكرة التي ذكرت في قصة موسى عليه الصلاة السلام

السر في ذكره أكثر من غيره من الأنبياء:

ليس غريباً أن يكون الحديث عن سيدنا موسى ـ عليه الصلاة و السلام ـ في كتاب الله تعالى أكثر من غيره من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فهو من أولي العزم، ذو شريعة مستقلة.

ومع أن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أولي العزم إلا أن شريعته ليست كذلك؛ ولذلك نقرأ في القرآن عن القرآن ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢]، مع أن الذي كان قبله مباشرة كتاب عيسى عليه السلام؛ ولكن لما كانت رسالة عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكملة للرسالة الموسوية، فهي فرع عنها، كان الذي يُذكَر قبل القرآن الكريم كتاب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنه هو الذي يشبهه من حيث الأصل والاستقلال وليس غريباً أن يكون موسى عليه الصلاة والسلام أكثر ذكراً من غيره كذلك؛ لأنه أرسل إلى فئتين كانت كل منهما إلى جانب من العناد والقسوة والكفر: فئة ممعنة في التكبر والطغيان (فرعون وملؤه)، وأخرى استمرأت الذلة والتبعية والاستضعاف (بنو إسرائيل).

وليس غريباً أن يكون أكثر من غيره ذكراً كذلك؛ ذلك لأن الذين أرسل إليهم كان لبعضهم آثاره الباقية الدالة على قوتهم، وبطشهم، وهم الفراعنة. أما بعضهم الآخر، وهم بنو إسرائيل فإن لهم شؤونا مع المسلمين أصحاب القرآن منذ فجر الرسالة المحمدية على صاحبها صلاة الله وسلامه إلى يومنا هذا. والله وحده يعلم إلى أي مدى سيستمر

هذا الصراع، وتدوم تلك الشؤون، ونرجو أن يكون ذلك الأمد قريباً الذي تكتشف هذه الأمة فيه عناصر قوتها الكامنة في هذه الرسالة: كتاباً، وسنة، وتاريخاً، وتراثاً.

وليس غريباً أن يكون موسى عليه السلام أكثر ذكراً من غيره في كتاب الله كذلك، ذلك لأن الحديث عنه لم يكن من زاوية واحدة، كما هو شأن اكثر الأنبياء -عليهم الصلاة و السلام-، وإنما تعددت الزوايا، وكثرت الجوانب التي عرضت للحديث عنه -عليه الصلاة والسلام-؛ وذلك لما في كل منها من عظات ودروس حري بها أن تتناول وتدرس، فبعض الجوانب حدثتنا عن رسالته- عليه الصلاة والسلام - إلى فرعون، وبعضها حدثتنا عن رسالته إلى فرعون، وبني إسرائيل.

وفي جانب ثالث اكتُفي بالحديث عن شأنه مع بني إسرائيل. وجانب رابع رأينا الحديث فيه عن ميلاده، وطفولته، وشبيبته، وما حدث له في هذه الأثناء، وعن مبدأ رسالته ونبوته، وجانب خامس حدثنا عن هذا الأخير فحسب أعني مبدأ الرسالة. وأخيراً كانت هناك أحداث خاصة في حياته- عليه الصلاة والسلام-.

هذه جوانب ستة في حياة موسى عليه السلام حدثنا عنها كتاب الله تعالى. ومن هنا رأينا أن الحديث عنه لا يقتصر على السور المكية كما هو شأن الحديث عن كثير من الأنبياء، وإنما وجدناه في السور المدنية بل ربما في آخر هذه السور نزولاً، كما سنتبين ذلك فيما بعد- إن شاء الله-.

ومهما يكن من أمر فلقد كانت هناك اشارات مبكرة كما مر معنا لكثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلم يكن خبر اليهود غريباً عن العرب، وبينهم جوار ومعاملات، وهذه الإشارات كان بعضها يذكره باسمه - عليه الصلاة والسلام -، وبعضها الاخر يعرض لفرعون وقومه.

وأول هذه الإشارات تأتي في سورة المزمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦] وهي تهديد لأهل مكة وإيناس للنبي -عليه وعلى آله الصلاة والسلام-، والقلة المؤمنة معه.

أما سورة الأعلى فذكر فيها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

ثم جاءت سورة الفجر تؤنس المسلمين وتتوعد قريشاً بالأمم المهلكة، وتذكر أمماً ثلاثاً: عاد وثمود وقد تبين لنا من قبل ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠]. وهذا الوصف متفق مع وصف عاد وثمود في السورة الكريمة، فقد وصفت إرم بأنها ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، ووصفت ثمود بأنهم الذين جابوا الصخر بالواد، أما فرعون فهو ذو الأوتاد وسواء أكانت الأوتاد قد أريد بها الجنود والأعوان، وركائز القوة، أم أريد بها الأهرامات كما يرى بعضهم، فإن الغاية بيان قوتهم، وما كانوا عليه من تمكين في الأرض.

وكذلك سورة (ق) حينما ذكرت المكذبين قبل قريش، بينت أن من جملتهم قوم فرعون ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٢، ١٣].

أما سورة القمر فربما كانت الإشارة فيها زائدة على ما تقدم حيث بينت أن آل فرعون جاءتهم النذر، وأعطوا الآيات الكثيرة، ولكنهم كذبوا بها جميعاً؛ فاستحقوا أخذة قوية. قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١-٤٢] وهذا متسق مع موضوع السورة كما قلنا من قبل، فقد ذكر في أولها عن أهل مكة قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٢-٤].

أما سورة (ص) فقد ذكرت فيها اشارة كما ذكرت في سورة (ق)، ولا يظنّن ظان أن هاتين الإشارتين شيء واحد، ففي سورة (ق) ذكرت كلمة فرعون فحسب، أما سورة (ص) فقد ذكر فيها قوله سبحانه: ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾.

ومهما يكن من أمر فإن سورة الأعراف إحدى السبع الطوال كانت أول السور الكريمة تفصيلاً لخبر موسى عليه السلام مع فرعون، ومع بني إسرائيل كذلك، ولعلها أكثر السور تفصيلاً كذلك، ونعجب من بعض الكتاب قدامى ومحدثين الذين ذهبوا إلى أن سورة الأعراف مبنية على الاختصار، وسورة الشعراء مثلاً مبنية على البسط، والذي أوقعهم في هذا ـ فيما يظهر لي ـ تفسيرهم لبعض الكلمات، وبعض المواقف التي خصت بها سورة دون أخرى، وهذا يرجع إلى ما قررته من قبل، وهو عدم النظر إلى ما نزل أولاً، وما نزل أخراً؛ لذلك كان للطريقة الموضوعية التي نسلكها الفضل في عدم الوقوع في مثل هذه الأوهام.

الجوانب المتعددة في قصة موسى عليه الصلاة والسلام

ونرى قبل أن نفصل الحديث تتميما للفائدة أن نجمل هنا السور التي تحدثت عن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والجوانب التي اختصت بها كل سورة حتى يسهل علينا، وعلى القراء الإفادة من هذه القصة المتعددة الجوانب، ومن الله التيسير والتسهيل:

١- **الأعراف**: عرضت لجانبين: موسى عليه السلام مع فرعون، وموسى عليه السلام مع بني إسرائيل.

٢- طه: ذكرت فيها جوانب ثلاثة: مبدأ الرسالة، وفرعون، وبنو إسرائيل.

٣- **الشعراء**: ذكر فيها جانب واحد وهو خبر فرعون.

٤- **النمل**: ذكر فيها جانب واحد وهو الرسالة.

٥- **القصص**: ذكر فيها ثلاثة جوانب: الميلاد، والرسالة، وفرعون.

٦- **يونس**: خبر فرعون.

٧- **الصافات**: تكريم وامتنان.

٨- **غافر**: نبأ فرعون.

٩- **الزخرف**: نبأ فرعون.

١٠- **الدخان**: نبأ فرعون.

١١- **الكهف**: جانب خاص مع العبد الصالح.

١٢- **إبراهيم**: بنو إسرائيل.

١٣- **النازعات**: نبأ فرعون.

١٤- **البقرة**: أنباء مع بني إسرائيل.

١٥- **المائدة**: مع بني إسرائيل.

وقد نجد في هذه الجوانب إشارات عن جانب آخر؛ لكنها ليست مفصلة، وهذا ما جعلنا نخصها في جانب دون آخر، وسيظهر ذلك جلياً- إن شاء الله-.

من هذا الإجمال ندرك أن قصة موسى- عليه الصلاة والسلام - مع فرعون ذكرت في السور التالية: الأعراف، وطه، والشعراء، والقصص، ويونس، وغافر، والزخرف، والدخان، والنازعات.

أما خبر موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ففي السور: الأعراف، وطه، وإبراهيم، والبقرة، والمائدة.

أما الميلاد وما يتصل به فذكر في سورة واحدة وهي القصص. أما مبدأ الرسالة فذكر في: طه، والنمل، والقصص.

أما سورة الكهف فقد انفردت بقصة خاصة، وهي نبأه مع العبد الصالح. وسيكون كلامنا عن هذه الجوانب كالتالي:

١- مولده ﷺ.

٢- مبدأ الرسالة.

٣- خبره مع فرعون.

٤- خبره مع بني إسرائيل.

٥- جانب المنن الإلهية.

٦- مع العبد الصالح.

الجانب الأول: مولده ونشأته:

أما الجانب الأول من قصة موسى عليه السلام، فهو الجانب الذي يتحدث عن مولده ونشأته عليه الصلاة والسلام، وهٰذا الجانب ذكر في سورتي طه والقصص.

١- جانب مولده ﷺ.

ذكر مولدموسى ﷺ مفصلاً تفصيلا تاما في سورة القصص، ولكنه ذكر مجملا في سورة طه. وسورة طه حدثتنا عن أكثر من جانب في حياة الكليم ﷺ، حيث حدثتنا عن جانب الرسالة، ورسالته إلى فرعون، وما كان منه مع بني اسرائيل، لكن حديثها عن ولادته جاء في معرض ذكر نعم الله عليه، فبعد أن سأل الله أن يشرح له صدره وييسر له أمره، إلى غير ذلك من الكرامات التي أكرمه الله بها، استجاب الله له بقوله ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ثمّ بيّن له مننه عليه وبدأ بهٰذه المنّة العظيمة التي كانت عند ولادته ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه:٣٧]، أي قبل هذه المنن التي أكرمناك بها، حيث نجوت من الظالمين ويسّرنا لك المأوى، وأكرمناك بالرسالة، وجعلنا لك وزيرا من أهلك هارون أخاك، أنعمنا عليك قبل هذا كله، ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه:٣٨]

وفي هذا من الفخامة والتنويه والتعظيم الكثير الكثير. ولكن ما الذي أوحاه الله إلى أمه؟ الوحي هنا الإلهام الذي يجد فيه الشخص الصدق كل الصدق، والشعور بالراحة والطمأنينة وليس هو وحي الأنبياء ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٩] وهو فرعون. أمّا عداوته لله فكفره به وتجبّره وتكبّره، وأما عداوته لموسى عليه السلام فلأنه من بني إسرائيل، وفي هذا وغيره رد بليغ على فرويد.

يقول الزمخشري: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩] روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه، وجصصته وقيّرته، ثمّ ألقته في اليمّ. وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت فأمر به، فأخرج ففتح، فإذا صبي أصبح الناس وجهاً، فأحبّه عدوّ الله حبّاً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه، وظاهر اللفظ أنّ البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه، لأنّ الماء يسحله أي يقشره، وقذف به ثمة فالتقط من الساحل، إلا أن يكون قد ألقاه اليمّ بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون، ثمّ أداه النهر إلى حيث البركة (منّي) لا يخلو إمّا أن يتعلّق بألقيت فيكون المعنى على: إني أحببتك ومن أحبه الله أحبّته القلوب. وإمّا أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبّة، أي محبّة حاصلة أو واقعة منّي قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها، فلذلك أحبّك فرعون وكلّ من أبصرك. روي أنه كانت على وجهه مسحة جمال وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] لتربّى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به»[1]. ثم يتبين الله نعمه العظيمة على الكليم فيذكر نعمتين اثنتين: الأولى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ وما أعظمها من نعمة، وأيّ نعمة أعظم من أن تُلقى محبة الله على أحد من خلقه؟

والنعمة الثانية «ولتصنع على عيني».

---

(١) الكشاف ٢/٥٣٦ طبعة دار الفكر سنة ١٩٨٣.

قال الزمخشري: لتُرَبىّ ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع على عيني أنظر اليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي»[1].

ثم تستمر الآيات بتذكير موسى عليه السلام بنعم الله عليه. ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤٠-٤١] وذلك لما أنعم به عليه من تقريب وتكريم وتكليم، أي أستخلصك لنفسي ماناً عليك بالكرامة، حيث آثرتك على كثير من غيرك من الناس[2].

هذا ما جاء في سورة طه مجملاً عن ولادته ﷺ. والسورة التي فصلت هذا تفصيلا هي سورة القصص وقبل أن نتحدث عن مولده في سورة القصص، نقف عند دقائق التعبير القرآني.

جاء في سورة (طه) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٨-٣٩] وجاء في سورة القصص ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]. وقد يطلق القذف على الإلقاء والوضع والرمي، ولكن يبقى لكل كلمة معناها الألصق بها. ويظهر أن في القذف من الشدة والقوة ما لا يوجد في الإلقاء وقد تحدثت في كتابي إعجاز القرآن الكريم عما بينهما من فروق، مستشهداً بقوله تعالى في سياق الحديث عن غزوة بدر. ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢] وفي بني النضير ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦] وحاولت تلمس الفروق وبيان سر الاعجاز بالتعبير بكل من الكلمتين في سياقها الذي جاءت فيه، فليرجع إليه من شاء.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٦ طبعة دار الفكر سنة ١٩٨٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٣٧ بتصرف.

وفي هاتين الآيتين الكريمتين يُعبر في سورة طه بالقذف والإلقاء، ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩] أما في سورة القصص ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]. والحادثة واحدة، وإذا أردنا ان نتلمس الفرق، ونبحث عن السبب فلا بد أن نقف مع سياق كل من الآيتين.

إن آية القصص كانت حديثا مع أمّ موسى فقد أمرها الله أن ترضعه، فإذا خافت عليه -والتعبير بإذا هنا يدلّ على تحقّق خوفها، كيف لا وهو فلذة كبدها؟ ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾. إنّ الخطاب لأم موسى جدير أن يكون فيه لطف ومؤانسة، لذلك كان من الحكمة التعبير بالإلقاء، لأن الإلقاء ليس فيه من الشدة والقوة ما في القذف كما قلت من قبل.

أمّا ما جاء في سورة (طه) فانما كان حديثا مع موسى ﷺ بعد أن أكرمه الله بالرسالة وبين له النعم العظيمة التي أنعم بها عليه، ومن هذه النعم أنه نجاه من كربات كثيرة، ولقد اقتضى السياق ان تذكر هذه النعم في معرض التهويل. ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [طه: ٣٩] إنها إشارة إلى ما أكرم الله به موسى عليه السلام حيث نجاه من الغم وفتنهُ فتوناً كثيراً، . . . وهكذا نجد الحدث الواحد يُعبر عنه في القرآن بأكثر من لفظ وهذا يرجع إلى السياق الذي ورد فيه الحدث. وانظروا كيف ذكرت كلمة القذف وقد كان الحديث مع موسى ﷺ، وهو في طريقه إلى فرعون، ليوطن نفسه على ما يلقاه من صعاب، ولقد نجّاه الله من كروب عظيمة حيث قذف في التابوت وقذف في اليم، فليعتمد على الله فيما أمره به، وليخش الله وحده!!

٢- وجاءت **سورة القصص** لتتحدث في أولها بعد قوله تعالى. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فمهّدت لذلك بالحديث عن استعلاء فرعون في الأرض، وجَعْله أهلها شيعاً ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

كما بيّنتْ أن الله يريد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين، ويمكن لهم في الأرض، ويُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

العلو في الأرض يؤدي إلى الفساد:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

ولا بد من وقفة عند الآية الكريمة، وما أعظم القرآن الكريم في إرشاداته وتوجيهاته، وما أحوج أمتنا اليوم، بل العالم كله إلى هذا القرآن، الذي يهدي للتي هي أقوم. تبين الآية الكريمة أن العلو في الأرض يمقته الله تبارك وتعالى؛ لأنه يؤدي إلى الفساد، وتبين الآية الكريمة أن الناس جميعاً أبناء هذه الأرض، خلقوا منها، فيها يستقرون ويتمتعون إلى حين، وفيها يعودون فليس أحد أولى من أحد بهذه الأرض، بل الناس فيها سواء، وإن كل الفوارق على اختلافها لا ينبغي أن تجعل لفئة امتيازات دون فئة أخرى، فالقبليّة والقوميّة واللغة ليس من شأنها أن تعمّق الفوارق على هٰذه الأرض، ولقد كان يعيش في أرض مصر القبط، والإسرائيلون، ولكن فرعون عمق الفوارق بين هاتين الفئتين، فَعَلا وتكبر، وجعل أهل الأرض وسكانها شيعا، كان لفئة العلو، ولأخرى الاستضعاف، تحيا فئة بمظاهر الترف، وأخرى تعيش على فتات العيش.

ونحن نرى اليوم كثيراً من أولي الأمر في بلدان العالم الثالث، ومنه الدول العربية الإسلامية وإلى الله وحده الشكوى -نرى أولي الأمر في هذه الدول هم الذين يفرقون بين الناس، ولقد نقلت لنا وسائل الأعلام أخباراً مؤلمة مزعجة، وعلى سبيل المثال، هذه الملايين التي ذهبت في بعض الدول الإفريقية بين قبائل الهوتو والتوتسي، وغيرها كثير.. ونحن نقرأ ونسمع ما يحدث في باكستان بين المهاجرين وغيرهم، ولا ننسى ما كان بين باكستان الغربية والشرقية قبل انفصالهما، والدول العربية بالطبع لا تخلو من كثير من هذا!! فما أجمل ما في الآية الكريمة من توجيه لذوي السلطة والسلطان،

ومن يليهم من أولي الأمر، ليحسنوا التصرف فيغرسوا الأمن والطمأنينة، بين من يحيون علىالأرض، حتى لا تكون فتنة.

إن الشعوب لا تميل إلى ما يعكر صفوها، وهي أقل ميلا لسفك الدماء لولا ما تجده من تحريش وتحريض وتفاضل، حيث يكون لفئة من النحل عسله، ولفئات أخرى من النحل لسعه. ألم تحدثنا هذه السورة الكريمة أنه جاء من أقصى المدينة رجل من آل فرعون ينبىء موسى عليه السلام بما أزمع عليه الملأ من آل فرعون. . . الله الله في هذا الكتاب العظيم!! إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً. . ما أحوج المسلمين وغيرهم إلى أن تتلاشى فيهم هذه الفوارق على اختلاف أسبابها، وتاريخنا يفاخر الدنيا كلها بهذه المآثر الطيبة. وما أجمل كلمة رسول الله ﷺ «اليوم يوم المرحمة»(١) وقوله «أتعيره بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية(٢)». وما روي عن عمر رضي الله عنه للقبطي «اضرب ابن الأكرمين، إنه ما ضربك إلاّ بسلطان أبيه»!!

إن في الآية الكريمة دروسا وعظات . ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾! ليتها تجد آذاناً صاغية لتكون تذكرة، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

وهذا يذكّرني بقول رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه او ينصرانه»(٣) وهذا ما يفعله أولو الأمر.

الاعجاز في نظم الآية القرآنية:

وبعد هذا الإجمال المحكم المركز بدأت تتحدث السورة عن مولد موسى -عليه الصلاة والسلام-، وذلك لما فيه من العبرة والعظة والحكمة والقدرة، بدأت بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]، وما أعظم هذه الآية في إيحائها

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية حديث رقم ٣٠ الطبعة السلفية مع الفتح ١/ ٨٤.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز حديث رقم ١٣٨٥ الطبعة السلفية مع الفتح ٣/ ٢٤٥.

وألفاظها وإعجازها!، ونعجب من الذين تحدثوا عن الإعجاز والبلاغة القرآنية، لِمَ يقتصرون على التمثيل لهذا الإعجاز بقول الله تعالى﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤]، لِمَ يقتصرون على هذا التمثيل بهذه الآية وحدها فحسب يتبع لاحقُهم سابقَهم، وخلفُهم سلفَهم، ولعمر الحق إن آيات القرآن كلها تصلح للتمثيل، لتقف شامخة دليلاً على الإعجاز والبلاغة وآيتنا هذه فيها من الألفاظ والمعاني، والنظم الكثير الكثير مما لا يسعنا الحديث عنه الآن، ولكنها كما قالوا اشتملت على أمرين ونهيين وبشارتين في آن واحد.

وتحدثنا الآيات أنه التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، هكذا كانت العاقبة التي لم يكونوا يعرفونها، ولقد عقب القرآن على ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨]، ثم يتحدث القرآن عما دار بين امرأة فرعون وفرعون ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩]، ويعقب القرآن بعد ذٰلك بهٰذا التعقيب الرائع الموجز المعبر ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

ثم يحدثنا القرآن عن مشهد آخر يتعلق بإرضاع موسى عليه السلام، وما كان من شأن أمه وقد أصبح فؤادها فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين، وقولها لأخته قصّيه، وكيف أنهابصرت به عن جنب دون أن يشعر القوم بشيء، وكيف أن الله أراد أن يتم أمره ويصدق وعده ويكرم التي امتثلت أمره فقد حرم عليه المراضع من قبل وقالت أخته: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص: ١٢]، كل هذا دون أن يشعر القوم بما يدبره الله تبارك وتعالى ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١٣]. نعم لا يعلمون، ويسدل الستار على حلقات كثيرة لم يذكرها الله تبارك وتعالى؛ لأن الله لا يذكر من القصص إلا ما تتعلق به الحكمة والعظة والعبرة فمن زمن الرضاع إلى أن يبلغ أشده، ويستوي ناضجاً، ويشب قوياً يؤتيه الله الحكم والعلم، وذلك هو الجزاء الذي يجزي الله به المحسنين دائماً في كل زمان ومكان،

وفي كل عصر ومصر فيدخل المدينة على حين غفلة من أهلها فيجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته، وهذا من عدوه، إسرائيلي وقبطي، ويستغيثه الإسرائيلي على القبطي. فيهب موسى عليه السلام لنجدة المظلوم، وتلك إشارة إلى ما كان يعتمل في نفسه فيضربه ضربة خفيفة، يعبر القرآن عنها «بالوكز» ليس من شأنها أن تقتل، ولكن شاء الله أن تكون هي النهاية[1] فقضى عليه، فلما رأى ذلك قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين.

وهنا تسطع في نفسه أنوار العلم والحكم ليعبر عن ندمه وأسفه، ولكن هذا الندم إنما هو من أجل الله ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ٣٦]. ويدرك أن النعمة ينبغي أن تسمو بصاحبها لتدخله في زمرة الأبرار والمتقين لا أن تصيبه بالبطر فيكون عوناً للفجار والمجرمين.

هذا ما أدركه موسى -عليه الصلاة والسلام- ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، وتصورالآيات الكريمة نفس موسى -عليه الصلاة والسلام-، وقد حدث ما حدث بهذه الكلمات البديعة الرائعة ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] ما أجمل الجمع بين الصباح والخوف ان لهما مغزى عظيماً، ودلالة تخترق كل الحجب، والصبح يبعث في النفس الأنس والأمن، ولكنه أصبح خائفاً ثم ماذا؟ يترقب!! ما أعظم وقعها في صيغتها وهي التّفعّل ومادّتها التّرقّب. يفاجأ بأن الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه اليوم مرة أخرى، ولكن موسى عليه السلام الذي ما كانت النعم لتبطره وتجعله ظهيراً للمجرمين، يقول لصاحبه الذي استنصره ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] إن الإغواء طبيعة فيك ولكن ماذا كان بعد ذلك؟ تقول آيات ربي ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [القصص: ١٩][2].

---

(١) وهذا لا ينافي عصمة الأنبياء، لأن موسى لم يقصد القتل ولم يضربه ضربة تَقْتُل في العادة.

(٢) إن شئت أن تدرك جمال موقع كلمة ﴿أن﴾ ودقتها في النظم الكريم فراجع كتابنا لطائف المنان =

(ولقد اختلف المفسرون من هذا الذي أراد أن يبطش به موسى -عليه الصلاة والسلام-.

يذهب بعضهم إلى أنه أراد أن يبطش بالقبطي؛ لأنه هو العدو لموسى عليه السلام وللإسرائيلي.

ويرى بعضهم أنّه الإسرائيلي، أما عداوته للقبطي فظاهرة، وأما عداوته لموسى عليه السلام؛ فلأنه أغواه بالأمس ومع أن القرآن الكريم ترك الباب مفتوحاً كي يشحذ الهمم لإعمال الفكر. فإن الذي يبدو أننا يمكن أن نعدّ الإسرائيلي هو الذي أراد أن يبطش به موسى وذلك لما يلي:

١- انه دخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان كان ذلك على حين غفلة من الناس.

٢- قوله -عليه الصلاة والسلام- لن أكون ظهيراً للمجرمين.

٣- قوله للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨] فكيف يريد أن يناصره بعد ذلك.

٤- قوله ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩]، ونحن على يقين أن القبطي لم يكن يعلم بما كان من موسى -عليه الصلاة والسلام-، بل كان الأمر مجهولاً، ولقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار -رحمه الله- أنهم لما وجدوا القبطي مقتولا ذهبوا إلى فرعون، فقال لا بد أن تتحسسوا لتعرفوا القاتل، ولكنهم لم يعرفوه، إلا عندما قال الإسرائيلي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ فسمعها القبطي وذهب بها إلى قومه فلما علموا أن القاتل موسى عليه السلام ائتمروا به ليقتلوه، وهذا الذي يتمشى تماما مع ما ورد في كتاب الله.

= وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن». =

٥- نظن ذلك منسجماً تماماً مع طبيعة اليهود الذين لا ينطلقون فيما يعملون ويذرون إلاّ من مصالحهم الخاصة، فكأن هذا الإسرائيلي حينما رأى ما يريده موسى -عليه السلام- أحبّ أنْ يشي به، وقد كان. وهكذا جعل الإسرائيلي نفسه داعية إصلاح فهو يكره التجبّر في الأرض والبغي والاعتداء. يكره ذلك كله ويحب الصلاح والإصلاح والخير ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ عجباً لك يا موسى.

ليت شعري أليست تلك نفسيتهم؟! أليس هذا هو الواقع الذي يصدرون عنه؟! أليسوا هم الذين يريدون أن يشعروا الدنيا بأنهم دعاة حق وأمن فجيشهم يسمونه جيش الدفاع، ولهذه التسمية الحاضرة ما يربطها برباط نفسي، ورباط تاريخي؛ أليسوا يطلقون على غيرهم المخرِّبين؟ إن الذي يثور من أجل حقّه مخرِّب، وإن الذي لا يخضع لكل ما يريدون محبٌّ للحرب.

إيهِ على واقع مظلم تعيشه أمتنا المقطّعة مقطّعة الأوصال!! أكتب هذه السطور وعيناي -يعلم الله- مغرورقتان بالدمع. لماذا ابتعدنا عن هدي القرآن وإرشاداته النفسية والاجتماعية والتاريخية؟ ولو أنّا التزمنا بذلك لكان خيراً لنا وأشد تثبيتاً. يا للضياع والمهانة!! ولكن وكما تبدد الشمس الغيوم لا بد أن تبدد شمس الحق في نفوسنا كل عفارات اليأس، وما ذلك على الله بعزيز ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وماذا كان بعد ذلك؟ كلُّ سر جاوزَ الاثنين شاع، وهكذا انتشر الخبر، ويحدثنا القرآن الكريم أن موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهو الحسنُ سيرةً، الطاهرُ سريرةً لم يعدم من يسدي له النصح من قوم فرعون، شتان بين الموقفين. بين موقف الذي وشى به وهو من أهله وجماعته، وبين موقف ذلكم الرجل من آل فرعون يأتي ليخبره بما يبيَّتُ له ويُدبَّر.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]، وتذوقاً لحلاوة البيان تعود بنا الذاكرة لنقرأ قول الله في سورة «يس» ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠] لنجد هذا التغاير بين الاثنين. فمع أن للبعد أثراً لا يُنكر، فهو من أقصى المدينة ولكن الذي يستحق التقدير حقاً أن يكون رجل من آل فرعون هو الذي جاء موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا جاءت الآية الكريمة على هذا النظم ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ نعم إن التقديم والتأخير في الآيات القرآنية له مدلوله وإرشاداته ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] وما أجمل هذه الكلمة ﴿يَسْعَىٰ﴾ فالسعي يدل على أمرين، أمر نفسي وهو أنه يقصد هٰذه الحركة، وأمر مادي، إذن هو ليس مشياً فحسب، بل مشي له غاية، وفيه سرعة حركة. وإذا أردنا أن نتذوق جمالها فلنقارن بينها وبين كلمة «تمشي» في الآية التي ستأتي قريباً ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى﴾ [القصص: ٢٥]. يقول الناصح لموسى عليه السلام إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، إنهم الملأ أشراف القوم، وإنهم يأتمرون. والله إن هذا التعبير لترقص له القلوب والعواطف نظماً ومعنى ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] ويخرج موسى -عليه الصلاة والسلام- خائفاً يترقب.

ماذا يمكن أن تلقي هذه الكلمة من ظلال؟؟ وبماذا يمكن أن تمد السمع والقلب؟؟ بالكثير الكثير ﴿يترقب﴾ إنها تصور ما كان يجول في نفسه -عليه الصلاة والسلام-، ولكن هذا الترقب مهما كان تملكه للنفوس إلا أن المؤمن يستطيع أن يتملك كل أسبابه حينما يتوجه إلى الله، وهكذا كان موسى عليه السلام ولهذا توجه إلى ربه ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١] ويخرج من مصر قاصداً أرض الشام، هي مسافة ليست بالقصيرة في زمننا نحن، فكيف إذا كانت في زمنه هو، ولم تكن هناك وسائل المواصلات؟! فما بالنا بمن خرج وحيداً يترقب، وللإيمان جذوة تمد صاحبها دائماً، ولكنها تكون أكثر مدداً في أوقات الشدة.

وهكذا نجد موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما يتوجه تلقاء مدين تمتلىء نفسه بالرجاء، رجاء الخير من ربه ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وتطوى المسافات بكل ما لقي فيها موسى وبكل ما كان يجول في خاطره من أفكار وخواطر، كل ذلك يطويه القرآن الكريم. ويَرِدُ موسى ماء مدين ويجد عليه أمة من الناس يسقون ويكون ذلك بدءاً لحلقة جديدة في حياة موسى -عليه الصلاة والسلام-. إيه ما أعظم الحِكَم! وما أعظم الحكيم! يا حاكمي وحكيمي جميع فعلك حكمة!!

فماذا وجد موسى؟ وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان، تمنعان غنمهما عن الماء، وهنا تبدو في موسى عليه السلام نوازع الخير. موسى عليه السلام الذي أكرمه الله بالحكم والعلم وجعله من المحسنين، موسى عليه السلام الذي لن يكون ظهيراً للمجرمين، موسى عليه السلام الذي توجه لربه بقوله ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]، موسى عليه السلام الذي يعترف بنعم الله، ولن يكون ظهيراً للمجرمين، موسى عليه السلام الذي يكره الغواية والظلم، موسى عليه السلام الذي يعده ويهيّئه الله لحمل عبء لا يستطيعه أكثر الناس، ولا يصلح له إلا الصفوة المختارة، يدرك أن هاتين المرأتين، والتعبير القرآني له قصده ودلالته، فلم يقل فتاتين أو صبيتين، وإنما امرأتين(١) يدرك موسى الذي أنهكه السفر أن هناك خيراً ينتظر من ربه حينما يعين ضعيفاً، ويعمل لأخرق ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص:٢٣] وتظهران ما يحمل النفس على إعانتهما ومساعدتهما، وهو أسلوب حكيم جيد فيه من الإثارة ما فيه. الإثارة لعمل الخير والإشفاق ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣] فسقى لهما، ولكن أين ذهب بعد ذلك؟

---

(١) فإن لفظ امرأة انما يطلق على الانثى التي بلغت مبلغ النساء، وليس على المتزوجة وحدها كما يظن كثير من الناس.

سر استعمال كلمة ثم:

كأنما وقف موسى -عليه الصلاة والسلام- ينتظر لعل هناك من هو بحاجة إلى معونة مثل هاتين المرأتين لعل هناك من يستطيع موسى عليه السلام أن يقدم له خيراً. لعل هناك ضعيفاً محتاجاً إلى ما منّ الله به على موسى عليه السلام من قوة، كل هذه يصورها حرف واحد من كتاب الله ﴿ثُمَّ﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل «فسقى لهما فتولى إلى الظل» أو «تولى»، وإنما قال ﴿ثُمَّ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ كما يقول علماء العربية تدل على التراخي إنه يريد أن يشكر الله بما أنعم به عليه، ولكنه بعد ذلك كله وبعد أن اقتنع وتأكد أنه ليس هناك حاجة لبقائه عند الماء يتولى إلى الظل يناجي ربه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ما أعظم هذا التضرع! وما أوصله إلى الله! إنه محتاج أيما حاجة، وفقير أيما فقر، لأي خير ينزله الله إليه، ويسوقه له سبحانه كيف وقد أحاطت به مرارة الاغتراب وكآبة الفرقة والوحدة وشدة الجوع، كل هذا إنما يشف لنا شفافية صادقة عما يتمتع به موسى عليه السلام من نفس صادقة الإيمان محبة للخير.

وقد رأيت كلاماً للزمخشري بعد كتابة هذه السطور يدل على طول باع الرجل وتذوقه لكتاب الله تعالى، أحببت أن أنقله حتى يهنأ به القارىء، قال جار الله الزمخشري -رحمه الله- عند تفسيره هذه الآيات:

«والمعنى أنه وصل إلى ذلك الماء، وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيماتهما مترقّبتَيْن لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما. . وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب،

ترغيب في الخير، وانتهاز فرصِهِ، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم»[(١)].

ومن روعة الأسلوب في الآيات الكريمة، وإن كنا ندرك أن هذا ليس محله، لكن معانيه تتدافع في النفس تأبى أن تظل حبيسة النفس، وهو ما أشار إليه علامة البيان الإمام عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- من حذف المفعول في هذه الآيات الكريمة، وهو قوله تعالى ﴿ يَسْقُونَ ﴾ ﴿ تَذُودَانِ ﴾ ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ ﴿ لَا نَسْقِي ﴾ حيث لم يقع «لا نسقي غنما» أو «يسقون أنعامهم» أو «تذودان شياههما»؛ لأن ذكر المفعول لا تتعلق به الفائدة ولو ذكر فربما يغير ذكره المعنى. فلله در التنزيل!!

فماذا كان بعد ذلك؟ يقول القرآن الكريم: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص: ٢٥] إن الحياء زينة المرأة، وللقراء طريقتان في الوقف على الكلمة:

فبعضهم يقف على كلمة ﴿ تَمْشِى ﴾ ثم يكون بدء الكلام ﴿ عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ ﴾ فيكون الاستحياء من القول وبعضهم يقف على كلمة ﴿ ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ فيكون المعنى جاءت تمشي مستحيية.

وأقول: إن وضع كلمة ﴿ عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ بين الجملتين بين جملة المشي، وجملة القول، تلمح إلى أن الاستحياء ينبغي أن يكون طبيعة في المرأة الخيّرة قولاً وعملاً.

ويذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- ويقص على الشيخ الكبير[(٢)] القصص فيقول

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٠٤ طبعة مصر.

(٢) ذهب الكثيرون إلى أن الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام ولعل الذي دفعهم لهذا أن شعيباً عليه السلام كان من مدين، وذهب بعضهم إلى غير ذلك وهو ما نرجحه وذلك لأن موسى عليه السلام لبث سنين في مدين فلو كان الشيخ شعيباً لكان لموسى عليه السلام بعض شأن معه ولرأيناه يذكر شيئاً من هذا ولأشار لذلك القرآن الكريم، ولا نحب أن نطيل في مثل هذه القضايا فليست ذات فائدة تذكر. ولكن ننبه على أن كثيراً ممّا اشتهر عند الناس مما ليس له سند وليس عليه دليل لا ينبغي ان يعول عليه، وأكاد أجزم بأن الشيخ الكبير ليس شعيباً عليه الصلاة والسلام، فان المعركة بين شعيب =

﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، وتقول إحداهما لأبيها ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، ما أجمع هذه الكلمة وما أدعاها لكل مقومات الحياة وركائز الأمم: القوة والأمانة، فهما الأساس للراعي والرعية، وحينما تعدم إحداهما ينفرط نظام الأمم وتدول الدول، وتدور الدوائر على الأفراد والجماعات. فما بالنا إذا عدمتا معاً؟

وما أحوجنا ونحن نعاني ضعفاً ونضعف معاناةً ما أحوجنا للقوة والأمانة!! ويكون بين الشيخ الكبير وبين موسى عليه السلام ما حدثنا عنه القرآن:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ وَلَهُمْ عَلَىَّ

= وقومه كانت علىأشدّها والرجل هنا شيخ أقعدته الشيخوخة، ولو انه كان شعيباً لأشارت ابنتاه إلى شيء من هٰذا، ولا يعقل أن تخفيا كونه رسولاً لتختارا له هٰذين الوصفَيْن «شيخ كبير» والاستدلال على كونه نبياً بأنه استأجر موسى عليه السلام غير مقبول، فموسى عليه السلام لم يكن نبياً في ذلك الوقت. على كل حال فإن كثيراً من المفسرين من العلماء قديماً وحديثاً لا يرون أن الشيخ الكبير هو شعيبٌ والله أعلم وأتساءل هنا: إن كان الشيخ الكبير شعيباً، أكان مجيءُ موسى عنده قبل رسالته أم بعدها؟ لا يعقل أن يكون قبل الرسالة، لقول ابنتيه «وأبونا شيخ كبير». ونحن نعلم أن للرسالة أعباء لا يقوم بها الشيخ الكبير. لا بد أن يكون بعد النبوة -إذن- ونتساءل أكان ذلك إبان الدعوة إلى قومه أم بعد أن نجّاه الله. لا يعقل أن يكون بعد أن نجّاه الله، لأن المؤمنين الذين نجّاهم الله معه لا يرضون لأنفسهم أن ترعى ابنتا نبيّهم الغنم أو أن تؤجّلا السقي حتى يسقي الجميع. هٰذا ليس من خلق المؤمنين يقينا، وكذلك لا يعقل أن يكون إبان دعوته إلى قومه؛ لأن تلك الحقبة التي قضاها موسى عليه السلام وهي عشر سنين، أو ثمان، لا يذكر منها شيء في كتاب الله، ولا يذكر موسى عليه السلام منها شيئاً، عند دعوته فرعون.

ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ١-٢٨].

وبهذه الحلقة ينتهي هذا الجانب من جوانب قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- وتستمر السورة تحدثنا عن الجانبين الآخريْن، جانب الرسالة، وقصته مع فرعون، وسيأتي الحديث عن ذٰلك لاحقاً إن شاء الله.

الجانب الثاني: جانب بدء الوحي:

إن رسل الله عليهم الصلاة والسلام -الذين اصطفاهم الله لاقوا كثيراً من الشدة والعنت من أقوامهم، وكان أكثرهم عناء أولو العزم، وهم الذين ذكروا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. وموسى ﷺ من أولي العزم، وقد يكون أكثر الرسل معاناة بعد النبي عليه وآله الصلاة والسلام؛ ذٰلكم أن الله أرسله لأهل مصر، وكانوا فئتين: الفئة المستعلية الحاكمة المتغطرسة، والفئة المضطهدة المحكومة المستضعفة. ولا ريب أنها مهمة ليست باليسيرة.

ولٰكن قد يقال: إن القرآن الكريم ركز كثيراً على إرساله إلى فرعون، أكثر من إرساله إلى بني إسرائيل؟ ونقول: إن هٰذا أمر بدهي، لأن آل فرعون كانوا هم الحاكمين من جهة، ولأن بني إسرائيل كان التوحيد أساس عقيدتهم من جهة أخرى، والمتدبر آي القرآن الحكيم، يجده ﷺ أرسل لكل من الفئتين، أما إرساله إلى فرعون وقومه،

فقد بينته سور كثيرة من سور القرآن، وأما إرساله لبني إسرائيل، فقد جاء في بعض السور المكية والمدنية، ففي سورة الإسراء المكية ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١] وفي سورة الصف المدنية نقرأ قوله سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ[١] يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف: ٥] و(قد) في الآية الكريمة كما يجمع عليه علماء البيان للتحقيق والتأكيد، وليست كما يستعملها بعض الناس للتشكيك وفي سورة البقرة: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] وفي هٰذا الجانب من حياة موسى ﷺ سوف أتحدث عن بدء الوحي، مبيناً السور التي تحدثت عن هٰذا الجانب، وسأخص كلاً من الفئتين اللتين أرسل إليهما ﷺ بجانب خاص، فأتحدث عن إرساله إلى فرعون، ثم عن إرساله إلى بني إسرائيل. ومن الله وحده العون.

أمّا جانب بدء الوحي فإننا نجد الحديث عنه في سور ثلاث: طه، والنمل، والقصص.

١- سورة طه كانت أكثر السور تفصيلاً لهذا الجانب؛ إذ بدأت الآيات بقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ٩-١٠]، هكذا تبدأ القصة في هذه السورة ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ إذ ليس الإيناس الإبصار وحده، فيكون حسياً فحسب، وإنما هو أمر حسي ونفسي معاً، فطلب من أهله المكث، -وهو غير اللبث لأن ذلك محدد الزمن مبين المدة وغالباً ما يكون ذا أمد بعيد مثل: ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وليس كذلك المكث الذي ذكر هنا -لعله يأتيهم منها بقبس أو يجد على النار هدى[٢]،

---

(١) قومه هم بنو إسرائيل.

(٢) (بقبس) شعلة من النار (او أجد على النار هدى) أي أجد أحداً أسأله فيهديني إلى الطريق الأمثل.

إنه يرجو ألا يرجع بغير فائدة ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه: ١١] هكذا بلا مقدمات ولا وسائل ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢][1] ويفاجئه الخبر السار باختيار الله له، وإذا كان الأمر كذلك، فهي الرسالة فليُلْقِ لها بالاً وليفتح لها قلبه وأذنيه، ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]، ويبدأ الوحي بكلمات التوحيد والأمر بالعبادة وبيان الساعة والبعث، تلك هي أمهات العقائد التي يشترك فيها الأنبياء جميعاً ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٤-١٥]، ولما كان أمر الساعة أمراً يحاج فيه المرتابون حذر الله منهم موسى عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، فالحائل بين الناس وبين الإيمان بالساعة، إنما هو اتباع الأهواء. وهذا الذي يوقعهم في الردى والهلاك. ولقد كان موسى عليه الصلاة والسلام صادق الحدس حينما قال ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠] فأي هدى أعظم من هذا الذي وجده، حيث أكرمه الله بأنوار الوحي، ونعم الهداية له ولغيره، إنها إرهاصات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وبعد أن تمت الرسالة، واشرقت أنوار الحق في جنبات نفس موسى -عليه الصلاة والسلام-، وملأت قلبه، وذاق لذائذ الأنس، يلقى عليه هذا السؤال ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] فتحمله لذة الأنس على أن يسهب في قوله، ويطنب في حديثه، وهي قضية نفسية ما إخالها يغفل عنها أحد، فكم من موطن يجد أحدنا فيه نفسه تواقة لأن يطيل الوقفة، فكيف إذا كانت بين موسى عليه السلام وخالقه الذي أنعم عليه! فيقول ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٨] ولم يقل عصاي فحسب- بل تطوع للتحدث عما يجنيه من هذه العصا من فوائد، وكل ذلك إنما هو تمهيد للمعجزة، ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٩]

(١) طوى: اسم للواد.

وتكون المفاجأة ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] ويشعر موسى بالخوف عند ذلك، فيولي مدبراً فيقال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]، ثم تكون الآية الثانية آية اليد يضمها إلى جناحه؛ فتخرج بيضاء من غير سوء. كل هذا ليريه الله من آياته الكبرى لتكون حجة له عند فرعون. ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]. ويكلف بالأمر والإنذار.

وهكذا نجد أن مرحلة الإنذار إنما هي المرحلة الثانية بعد مرحلة الإرسال. وهنا يعود موسى عليه السلام وقد ملأ قلبه الأنس ليسأل ربه أن يعينه على ذلك ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى هَٰرُونَ أَخِى ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥-٣٢] وسنفصّل خبره مع فرعون فيما بعد إن شاء الله.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٩-٢٣].

٢- أما السورة الثانية التي تحدثت عن بدء الوحي لموسى عليه السلام فهي سورة **النمل**: فبعد قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] تبدأ القصة ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، والذي نجده هنا أن موسى يقول لأهله ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾،

فقد عبر هنا «بالسين» الدالة على الاستقبال، بينما عبر في سورة طه، بحرف «لعل» الدالة على الترجي، ولنا عودة لهذا إن شاء الله.

ثم يبين هنا الغرض من الشهاب بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨-٩]، ولا نريد أن نشقشق الحديث هنا فيما ذكره المفسرون وأطالوا الحديث فيه، عمن هو في النار ومن حولها، فليرجع إليه من شاء[١] في كتب التفسير. المهم اننا لا نجد التفصيل الذي فسرته سورة طه. ولكن الذي ذكر هنا هو تنزيه الله تبارك وتعالى لأن التسبيح هو التنزيه كما ذكر وصف الله هنا بالعزة والحكمة.

وبدون المقدمات التي ذكرت في سورة طه يؤمر بإلقاء العصا، ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠] ثم يطمئن بعفو الله عنه عما صدر منه ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١].

ثم يأتي دور الآية الثانية، وهي آية اليد، ولكنها هنا جاءت بصيغة غير الصيغة التي جاءت بها سورة طه ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢] ويبين له بأن هناك آيات أخر ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾. وسنذكر فيما بعد أن قوم فرعون الفاسقين جحدوا بالآيات وقد استيقنتها أنفسهم، ولكن جحدهم كان ظلماً وعلواً. والظلم والعلو: أصل لكل انحراف، وسبب في كل مفسدة؛ فالظلم: سلب لحق الآخرين وإنكار له وحرمان لهم ممّا منحهم الله في الحياة. والعلو: اختيال ينشأ عن شعور سيء ممقوت يجانب الحق والصواب فهو إعطاء للنفس أكثر مما هو لها، ونذكر هنا قول الله لنبيه ﷺ في سورة الأنعام ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] حقاً إنّهم لا يكذّبون الرسول ﷺ،

(١) الذي يظهر لنا والله أعلم أنْ هذه البركة لمكان النار وكل ما هو حولها فهو حديث عن بركة أرض فلسطين، وقيل غير ذلك.

ولكنه الظلم دفعهم إلى جحد الآيات. الظلم إذن هو منع الآخرين حقهم، والعلو: إعطاء النفس ما ليس لها به حق.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [النمل: ٧-١٢].

٣- ثمّ تأتي سورة **القصص**، وهي السورة الوحيدة التي تحدثت عن مولد موسى عليه السلام وما كان بعده من حلقات كما بينا من قبل. صحيح أن سورة طه قد أشارت إلى ذلك، ولكنها كانت إشارة موجزة أولاً، وكانت في معرض الحديث عن النعم التي أنعم الله بها على موسى عليه السلام ثانياً، ونتحدث عن جانب الرسالة في سورة القصص، حيث جاء فيها قوله تعالى:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [القصص: ٢٩-٣٢].

ويهمنا الآن أن نبين أن سورة القصص قد حددت المكان الذي نودي منه موسى عليه السلام، وهذا ما لم نجده في سورة أخرى وهو قوله سبحانه: ﴿ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

من دقائق التنزيل:

ولكن لا بد من وقفة عند بعض القضايا، ففي سورة طه ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠] وفي سورة النمل ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وفي سورة القصص ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]. هذا أولاً.

وأما ثانياً: ففي سورة طه ﴿ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] أما في سورتي النمل والقصص فقد ذكر قوله سبحانه: ﴿ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾.

أما ثالثاً: ففي سورة طه ﴿ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ﴾ [طه: ٢٢]، وفي سورة القصص ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [القصص: ٣٢] هذه قضايا ثلاث لا بد من الوقوف عندها.

أما أولاً: فقد ذكر علامة الرافدين الألوسي -رحمه الله- أن «السين» و«لعل» يؤديان معنىً واحداً، ولسنا معه في هذا، وما نظن الفرق بين الكلمتين يحتاج إلى دليل وبرهان، والذي نظنه -والله أعلم- أن موسى -عليه الصلاة و السلام- كانت تتعاوره حالات نفسية مع أهله، فهو تارة يعبر بحرف الترجي والتوقع، وتارة يود أن يطمئن أهله بأنه آتيهم لا محالة بما هو خير لهم حتى لا يكونوا في انشغال وقلق، كيف لا وهو سيدعهم وحدهم؟! فلا بد إذن من أمر يشعرهم بالراحة والطمأنينة ولا شك أن «السين» يكمن فيها كل ذلك، فكأنه لا يريد أن يقطع بالأمر ويجزمه ولا يريد أن يؤكد النتيجة حتى لا يصاب بخيبة أمل، فتارة يذكر الترجي وتارة يؤكد القضية، فهو يُعدُّ أهله إعداداً نفسياً لتقبل ما يحدث من النتائج، ونظن أن أي واحد منا حينما يجابه بموقف مثل هذا -إن وفقه الله- فسيسلك هذا المسلك.

أما تعدد العبارات، فلقد ذهب الاستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «القصص القرآني» إلى أن الذي قاله موسى عليه السلام، إنما هو عبارة واحدة فقط، أما العبارتان الأخريان فكانتا مما يدور في خلده ويجول في خاطره -عليه الصلاة والسلام-.

ونحنُ بالطبع لسنا معه فيما ذهب إليه، لأن الله لا يمكن أن يسجل خواطر دارت في خلد موسى عليه السلام يثبتها حديثاً بينه وبين أهله، وما نظن ذلك يتفق مع موضوعية القرآن الكريم وواقعيته!،ولكنها عبارات قالها موسى -عليه الصلاة والسلام- ليوطن نفسية أهله -كما قلنا من قبل- وهو الذي سيتركهم دون أحد معهم يؤنسهم في غيبته.

ولقد اطلعت على ما كتبه جار الله الزمخشري -رحمه الله- بعد أن سطرت ما سطرت فوجدته -رحمه الله- قد أدرك بحسه المرهف، وقريحته الوقادة، وطبيعته المسترسلة المنقادة، وفهمه النفاذ، أدرك هذه اللمحة الدقيقة فها هو يقول عند تفسيره لآية النمل ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

فإن قلت: سآتيكم منها بخبر، ولعلي آتيكم منها بخبر كالمتدافعَيْن؛ لأن أحدهما ترجٍّ والآخر تيقُّن.

قلت: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبة.

فإن قلت: كيف جاء بسين التسويف؟ قلتُ: عِدةً لأهله أنّه يأتيهم به وإنْ أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. فإنْ قُلتَ: فَلِمَ جاء «بأو» دون «الواو»؟ قلت: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بعادة الله، أنّه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده. وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكلّيتين جميعاً وهما العزّان: عزّ الدنيا وعزّ الآخرة»(١).

أما قوله تعالى ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] في سورة طه، وقوله في سورة القصص ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] فيقول فيها جار الله عليه الرحمة: «فإن قلت: ما معنى قوله ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] قلت: فيه معنيان:

---

(١) الكشاف جـ٣، ص٣٤٩.

أحدهما: أن موسى -عليه الصلاة والسلام- لما قلب الله العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. . والمراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه.

والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه: تجلده وضبطه نفسه، وتشدّده عند انقلاب العصا حيّـة حتى لا يضطرب ولا يرهب. استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وارخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران. . .

ومعنى قوله ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ من أجل الرهب، أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك، جعل الرهب الذي يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه. ومعنى ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ وقوله ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ [القصص: ٣٢] على أحد التفسيرين: واحد، ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني: إخفاء الرهب.

فإن قلت: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه، وذلك قوله ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص: ٣٢] وقوله ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] فما التوفيق بينهما؟

قلت: المراد بالجناح المضموم ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص: ٣٢] هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما: جناح»[1].

---

(١) الكشاف جـ٣، ص٤٠٨-٤٠٩.

أما القضية الثالثة: وهي قضية العصا، فنرى المفسرين قد أكثروا فيها القول وخلاصة ما قالوه:

أن العصا وصفت بأوصاف ثلاثة: تارة بأنها حية تسعى، وأخرى كأنها جآن، وثالثة هي ثعبان مبين.

وقالوا إن هذه الأوصاف الثلاثة شيء واحد، فهي ثعبان مبين في ضخامتها، وهي حية تسعى كذلك، ولكنها جان في خفة حركتها؛ والجان صغار الحيّات -كما يقولون-.

والذي يبدو لي -والله أعلم- ان الأمر ليس كما قالوا ولكلٍ وجهة -والله أعلم بما ينزل- فوصف العصا بأنها ثعبان مبين إنما ذكره القرآن الكريم في سياق الحديث عن فرعون ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٢]. ولا شك أن هذا الوصف ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ يتسق منسجماً مع السياق؛ لأن ما تعطيه هذه الكلمة تجد فيه النفس من الرهبة ما ليس في الوصفين السابقين، والمقام مقام تخويف ورهبة.

أما في سياق الرسالة فلم يأت ذكر الثعبان وإنما الحيّة والجان، ولا شك أن الحيّة تشمل الصغيرة والكبيرة فهم يعرفون الجان بأنها صغار الحيات، إذن هي حية صغيرة،والقرآن الكريم حينما قال حية تسعى لم يشر إلى صغرها أو كبرها؛ لذا فإن الذي نميل إليه أن قوله سبحانه ﴿هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] غير قوله ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] ونرجح تفسير الجان هنا لا بصغار الحيات -كما يقول المفسرون أو جلهم- وإنما نفسره بالجان الذي هو مقابل للإنسان، وهو من الجن. وقد قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمٰن: ١٤-١٥] ونستأنس لهذا التفسير بما يلي:

١- أن كلمة ﴿الجان﴾ ذكرت في القرآن أكثر من مرة، ولا تعني إلا هذا النوع الذي خلق من النار، ولم يرد تفسير الجان بصغار الحيات إلا في هذا الموضع الذي هو وصف

للعصا على ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأي، فلم يرد تفسير الجان بصغار الحيات في موضع آخر، -ولا يظن ظان هنا أننا ننكر أو نستبعد أن تأتي الكلمات القرآنية في أكثر من موضع، وأن يكون لها في كل موضع، تفسير غير الذي تفسر به في الموضع الآخر، كما لا يظن ظان أننا ننكر أن يفسر الجان لغةً بصغار الحيّات-، ولكن الذي يتبادر لنا أن الجان هنا إنما هو المخلوق المعروف، وربما يقول قائل: إن المشبه به يجب أن يكون أمراً حسياً معلوماً للمخاطبين، ونقول: إن هذا هو الكثير الغالب أن يكون أمراً محسوساً، ولكنه قد يكون غير ذلك كذلك. نعم لا بد أن يكون معلوماً للمخاطبين، وما نظن أحداً يجهل خفة الجان وقدرته على الحركة.

٢- ذكر بعد هذا الوصف قول الله تعالى عن موسى -عليه الصلاة والسلام- ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠] ولكن هاتين الجملتين -أعني ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾- لم تذكرا في سورة طه بعد قوله ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]. كل الذي ذكر ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١] وقد ذكر ما هو قريب من هذا في السورتين الأخريين.

٣- وهذا الذي نركز عليه أنه جاء في سورة طه ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، فالعصا إذن قد خرجت عن طبيعتها فصارت حية تسعى، ودليل هذا قوله سبحانه ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] وهذا معناه أن طبيعة العصا قد تغيرت، وسيعيدها الله كما كانت عصاً. لكن الذي في سورتي النمل والقصص إنما جاءت بأداة التشبيه كأن ولا شك أن التشبيه لا يخرج الشيء عن حقيقته ونظن ذلك أمراً بدهياً، ومن نافلة القول. وإذا كان هذا الذي أراه في هذه الآيات الكريمة -والله أعلم بمراده- فلست أقصد مخالفة المفسرين -معاذ الله-، ولست أريد حمل أحد على ما أرتئيه إن لم يجد فيه مَقْنَعاً.

ذلك هو جانب بدء الوحي في قصة موسى -عليه الصلاة والسلام-، والذي يهمنا أن كل سورة كان لها حديثها الخاص بها، هذا إلى جانب تعدد الأساليب البليغة.

الجانب الثالث: إرساله إلى فرعون:

١- سورة **الأعراف** -كما قلنا- هي السورة الأولى التي فسرت ذلك النبأ في نيف وثلاثين آية، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣] إلى قوله سبحانه: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٣٦] وهي آيات متوسطة من حيث الطول.

فبعد قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب -عليهم الصلاة والسلام-، يبين الله تبارك وتعالى أنه بعث من بعد أولئك الرسل موسى عليه السلام[1] مؤيداً بالآيات البينات إلى فرعون وملئه، ولكن إفسادهم في الأرض حال بينهم والإيمان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣] وما لحق بهم من دمار وإهلاك، وبعد هذا الإجمال يحلو التفصيل ويجمل. ويأتي التفصيل مبتدئاً بالواو ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾، وهذا يختلف عن الأسلوب في القصص السابقة، لأن هذه الآية الكريمة وحدها، أجملت قصة موسى مع فرعون، فالقارىء يمكنه أن يستخلص النتائج من هذه الآية الكريمة.

ويبدأ موسى عليه السلام تبليغ الرسالة تبليغاً مباشراً لفرعون، فينبئه أنه رسول الله رب العالمين ويعتز موسى عليه السلام بهذا الحق فحقيق عليه أن لا يقول غيره.

---

(١) تلحظ أن الأسلوب الذي جاءت به قصة موسى يختلف عن القصص السابق فأولاً جاءت القصص السابقة «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه»، و«إلى عاد أخاهم هوداً»، «وإلى ثمود أخاهم صالحاً»، «ولوطاً إذ قال لقومه»، و«إلى مدين أخاهم شعيباً»، أما هنا «ثم بعثنا». فالفرق من جهتين:

أولاً ثم الدالة على التراخي وقد يكون تراخياً زمنياً لأن موسى عليه السلام متأخر عنهم وقد يكون تراخياً في الرتبة فهو ترتيب تصاعدي، لأن رسالة موسى عليه السلام كانت لفئتين.

ثانياً: ذكر كلمة البعث دون الرسالة فهي تدل على أكثر مما تدل عليه كلمة ارسال؛ لأنه (أي البعث) انما يكون في الأمور المهمة. والمتأمل لورود هذه الكلمة في القرآن يدرك ذلك، ويكفي إطلاقها على بعثة النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

وان لم يقل موسى عليه السلام الحق فمن للحق أن يقوله ﴿حَقِيقٌ[1] عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥] وهي من النظم البديع الذي لا يكون إلا في هذا الكتاب المعجز، ثم يبين له أنه قد جاء بمعجزه من ربه بينة ظاهرة، فليخلّ فرعون بينه وبين قومه من بني إسرائيل، وهذا رد على فرويد كذلك.

ولكن فرعون يقول بلهجة الشّاك المرتاب في مجيء البينة، والمتشكك المرتاب في صدق موسى، كذلك يدلنا على هذا الشك كلمة (إنْ) التي ذكرت مرتين في آية واحدة ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، وجاء موسى بالآيات من غير بطء، ولا تهيّب، وكانت هذه الآية تتمثل بالعصا ألقاها، وإذ بها تتحول إلى ثعبان مبين، كما كانت تتمثل باليد كذلك نزعها فإذا هي بيضاء، ذات شعاع لا يراها فرعون وحده، وإنما كل من شاهد معه هذه الآية، فماذا كان بعد أن أظهر موسى عليه السلام الآيات؟ يحدثنا القرآن الكريم عما كان بعد ذلك، قال الملأ من قوم فرعون: إنّ هٰذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم، فماذا تأمرون؟ وما الذي تشيرون به؟ هذا ما يقوله بعضهم لبعض، وهذا يدلنا على ما كان بين قوم فرعون من القبط، وبين بني إسرائيل من حساسية، وكيف كان ينظر أهل مصر إلى بني إسرائيل. ويجمعون على رأي واحد، وهو أن يطلبوا من فرعون أن يؤخره وأخاه، ويرسل في البلاد جامعين كي يأتوا له بذوي الخبرة والمهرة من السحرة ويجيء السحرة. والقرآن المبني على الإيجاز يطوي كثيراً من الجمل للعلم بها. يجيء السحرة فرعون وأول ما يبدؤونه به من القول هو ما يريدونه من أجر مجزٍ إن كانت لهم الغلبة ويعدهم فرعون بالأجر، وبشيء آخر، وهو أنهم سيكونون من المقربين عنده، وهذا يدلنا دلالة واضحة صريحةً على أن فرعون كان يسخّر الناس فيما يقومون به من أعمال، حيث لا يأخذون أجراً على أعمالهم، ومن قرأ التاريخ وكيفية بناء الأهرامات لا يرتاب في هذا الأمر فتأكيد السحرة هذه القضية

(١) حقيق: أي حريص على أن لا أقول على الله غير الحق.

وهي أن لهم أجراً إن غَلبوا ينبىء عما في نفوسهم، فقد رأوا أن فرعون في أمسِّ الحاجة إليهم من أجل غلبة موسى عليه السلام، فاستغلوا هذا الموقف ليأخذوا من فرعون إقراراً بما يريدون. ولو أن فرعون لم يكن بأمسِّ الحاجة إليهم ما كان ليعدهم ويقرّ لهم.

وبعد هذا الوعد يُخاطب السحرة موسى عليه السلام ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ [الأعراف: ١١٥]. والقرآن الكريم يبين لنا ثقتهم بأنفسهم واعتزازهم، وتأكدهم بأنهم هم الأعلون. هذا الذي يجول في خواطرهم ينطق به النظم القرآني حيث لم يقولوا: إما أنْ تلقي، وإما أن نلقي، ولكنهم قالوا: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾. وهذا ليس من أجل الفاصلة كما يُظنّ، وإنما يدلنا على أن القوم كانوا يرون أنفسهم أحقاء بالإلقاء قبل موسى عليه السلام فهم كثرة، وهو واحد، وهم أشد منه مراساً وأعلم بهذه الحرفة.

ويقول موسى عليه السلام: ألقوا، فما كان منهم حين ألقوا إلا أن سحروا أعين الناس، واسترهبوهم رهبة مروعة، وجاءوا بسحر عظيم في نوعه وكثرته، وأوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧] فإذا هي تلقف كل هذا الإفك الذي جاءوا به -تلقف حبالهم وعصيهم تبتلعها لتتلاشى كلها دون استثناء، فوقع الحق، وبطل هذا الذي عملوه من السحر، إذ جاء موسى عليه السلام وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر، فغُلب القوم، ورجعوا أذلاء صاغرين. وهنا يكون الانقلاب وإذ بالسحرة الذين ألقوا ما ألقوا يُلْقون جباههم ساجدين، معلنين إيمانهم لرب العالمين؛ لأنهم أدركوا أن ما كان من موسى ﷺ ليس من قبيل السحر، وهم أخبر من فرعون؛ لأنهم هم السحرة فهم أقدر على التمييز بين السحر وغيره.

ويشتط فرعون غضباً ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣][1]، إن هذه خديعة منكم إنه مكر دبرتموه في هذه المدينة من أجل أن تخرجوا منها أهلها،

---

(١) قوله (قبل ان آذن لكم) فيه مكر وخداع، وكبر وبطر، فهو يوهمهم أنه يمكن أن يأذن لهم لو طلبوه ذلك، وهو كذب وافتراء. =

ولكن ذلك لن يتم لكم، ولسوف تعلمون ما سيحل بكم، لأقطعن أيديكم، وأرجلكم من خلاف، ولأدعنكم تعذبون بعد هذا القطع قبل أن تأتي نهايتكم، ثم تأتي هذه النهاية: ولأصلبنكم أجمعين؛ ولكن السحرة يعلنون لفرعون أنهم إلى ربهم وحده راجعون منقلبون، وحينما تشتد عاطفة الإيمان في النفس لا يقف في طريقها أي تيار مهما كان عاتياً[١]، ثم يقَنّطون فرعون قائلين إنه لن يستطيع أن ينال منهم فهو ما ينقم منهم إلا أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم ويضرعون إلى الله تبارك وتعالى أن يفرغ عليهم صبراً، وأن يثبتهم على الحق، فيتوفاهم مسلمين، ويعود الحديث عن الملأ من قوم فرعون الذين قالوا من قبل: إن هذا لساحر عليم.

ونلحظ أن سورة الأعراف ركزت كثيراً -كما قلنا من قبل- على قضية الأتباع. فالملأ هم الذين أوغروا صدر فرعون أكثر مما فيه حينما قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠] وها هم بعد أن بطل ما دبَّروه، وانقلب الأمر وبالاً عليهم يعودون مرة ثانية لإيغار صدر فرعون، فماذا بعد ما حدث؟ ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ[٢] وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧][٣]، أتمكنه من أن يفسد في الأرض هو وقومه ويخرجوا عن طاعتك، فيتركوك، ويتركوا آلهتك؟ ولكن فرعون لا يخيب أولئك، بل يجيبهم وقد فهم ما أرادوه، فيقول لهم: لا. لن نمكنهم من ذلك كله، ولا من بعضه سنعاقبهم بكل شدة نقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم،

---

(١) ولقد صدق الشاعر المسلم:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي

(٢) يذر: يترك الشيء بدون اهتمام.

(٣) من شبهات المستشرقين وأمثالهم التي سنعرض لها فيما بعد إن شاء الله، ما قالوه في هذه الآية الكريمة، إنكم تقولون إن فرعون كان إلهاً معبوداً، وهذه الآية تبين أنه كان عابداً له آلهة؟ وليس في هذا إشكال يستحق هذه الشنشنة، ففرعون كانت له آلهة يعبدها، كان يعبد الكواكب من جهة وكان يأمر الشعب بعبادته من جهة أخرى.

وستكون لنا الغلبة، والقهر عليهم، فماذا كان من شأن موسى -عليه الصلاة والسلام-؟

كان من شأنه ما حدثنا عنه القرآن بعد أن سمع قومه ما سمعوه. قال لهم موسى: استعينوا بالله واصبروا فالاستعانة بالله تمد الإنسان بطاقات من الصبر. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، ولكن قومه لا يجيبونه بما طلب، وانما يكررون الشكوى، فلقد أُوذوا من قبل أن يرسله الله إلى فرعون، لقد استعبدهم فرعون استعباداً تاماً، وأُوذوا كذلك من بعد رسالته، ويكرر موسى إرشاده لقومه، ويطمئنهم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، أتشكرون فتدوم لكم النعم، أم تكفرون فتعاقبون وتهلكون؟!

وبعد هذه المحاورة بين موسى -عليه الصلاة والسلام- وبين قومه، يعود الحديث إلى آل فرعون، فيقص الله تبارك وتعالى علينا نبأهم، وهو أنه قد أخذهم بالشدة والقحط، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون هذه الآيات، فيرتدعون عن الغي، ويرجعون عن الكفر، ولكنهم لا يزالون مصرين على وصف موسىعليه السلام بالسحر يقولون له: أي شيء، وأي آية تأتينا بها لتسحرنا فلن نؤمن بك أبداً، ويرسل الله عليهم أنواعاً من العذاب: الطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم آيات مفصلات كل لها مهمتها وعملها، ولكن القوم يستكبرون مصرين على جرائمهم وحينما يلم بهم العذاب ويحيط بهم، يهرعون إلى موسى -عليه الصلاة والسلام- طالبين منه أن يدعو لهم ربه بما له من عهد عنده لئن كشف عنهم العذاب ليؤمنن أولاً، وليرسلن بني إسرائيل[1] ثانياً. فلما كشف عنهم العذاب فاجأوا بالنكث والكذب، فانتقم الله منهم، فأغرقهم في اليم، وهي نتيجة حتمية لمن كذب بآيات الله.

---

(١) أي سيمنحونهم شيئاً من الحرية ليؤمنوا بموسى ويخرجوا معه إن شاؤوا ذلك.

هذه قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف، أو هذا هو الجانب الذي يتحدث عن إرساله إلى فرعون، وبقي الجانب الآخر نأتي له فيما بعد -إن شاء الله- وكي نصدر حكماً على ما نحن بصدده من قضية التكرار، فلا بد أن نلم بالآيات التي حدثتنا عن فرعون في سورها المتعددة قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ

سَيِّئَةٌ[1] يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٣٦].

٢- وبعد سورة الأعراف جاءت **سورة الفرقان**، ولكن ما ذكر فيها عن قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون جاء في معرض رد شبهات الكافرين! فكان اشارة موجزة وهي قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٦].

والحق: أن سورة الفرقان -ولها من اسمها نصيب- جاءت لعلاج الشبهات التي أثارها المشركون على القرآن، والنبي الذي جاء به، لذلك كان ما ذكر فيها من قصص الأنبياء إشارات تتلاءم مع هذا الموضوع[2].

٣- ثم تجيء سورة **طه** بعد ذلك، والذي يهمنا من سورة طه جانب الإرسال إلى فرعون؛ لأننا آثرنا أن نتحدث عن كل جانب من جوانب حياة سيدنا موسى -عليه السلام- على حده، وهذه هي الطريقة المثلى كما نظنها، والله أعلم.

---

(١) أي إذا أصابهم رخاء ويسر، وعاشوا في رخاء وسعة قالوا هذا شيء نستحقه، وان تصبهم سيئة من قحط وسَنة وضيق وكرب يطيّروا بموسى ومن معه، أي يقولون إنما أصابنا ماأصابنا بسبب موسى ومن آمن معه، ألا إنّما طائرهم عند الله. أي ان الله تبارك وتعالى هو الذي يأخذهم بأنواع العذاب ليذكروا ويعتبروا ولكن أكثرهم لا يعلمون. وفي الآية بيان بديع يتمثل في ذكر (إذا) في جانب الحسنة و(إن) في جانب السيئة وغير ذلك من أنواع البيان ليراجعه من شاء في التفاسير البيانية مثل الكشاف وغيره.

(٢) انظر كتابنا في الإعجاز.

تبدأ هذه الآيات الكريمة بعد الحديث عن الرسالة بقوله سبحانه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤][1]، والحق أن اللون الذي سنجده في سورة طه مغايرٌ لذلك الذي مر معنا في سورة الأعراف، وإليكم بيان ذلك:

يسأل موسى ربَّه أموراً يتقوى بها على الذهاب إلى فرعون، فهو يسأله أن يشرح له صدره، وييسر أمره، ويحلَّ عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وبعد هذه الثلاث الخاصة به -عليه الصلاة والسلام- يسأله أن يجعل له وزيراً من أهله، وعلى الخصوص هارون عليه السلام أخاه؛ ليشد به أزره، ويشركه في أمره كي يتقوى كل بالآخر على ذكر الله: تسبيحاً، وذكراً، والله بصير بهم، مطلع على ما في قلوبهم. ويمن الله على موسى -عليه الصلاة والسلام- بأنه قد استجاب له، وأعطاه سُؤله، ثم يمتن الله عليه مرة أخرى، فليست هٰذه المرة الأولى التي أجيب سؤلك فيها، وأمنّ عليك فلقد مننت عليك مرة أخرى قبل هذه المرة، وذلك فيما مضى من الزمن حينما أوحيت لأمك ما أوحيت من هذا الأمر العظيم العجيب، أن اقذفيه في التابوت، فاقذفيه في اليم، فليلقه اليم بالساحل؛ ليأخذه عدو لي وعدو له، ويمتنّ عليه بعد ذلك بأنه ألقى عليه سبحانه محبة منه، ومعنى ذلك أنه أحبه سبحانه حباً عظيماً، وجعله محبوباً لكل من يراه من ذوي القلوب السليمة، ثم أخبره غن عنايته، ورعايته به، وحفظه له في قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وامتن عليه بعد ذلك بما كان من خبره يوم كان عند فرعون،

---

(١) من آية ٢٤-٧٩: ذكر في هذه السورة إرسال موسى إلى فرعون، بينما ذكر في السورتين الآتيتين النمل والقصص إرساله إلى فرعون وقومه (النمل) وإلى فرعون وملئه (القصص)، وقد اقتصر على فرعون في هذه السورة؛ ذلك والله أعلم- بسبب تركيز السورة هنا على التبعية، تبعية قوم فرعون له، ففي آيات هذه السورة حوار بين موسى وفرعون، حيث تبرز شخصية فرعون، نقرأ مثلا ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧]، ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠] ثم جاء الحديث عن قومه بعد أن جمعهم؛ ولهذا غير الخطاب، فبعد أن كان مع فرعون وحده، صار الخطاب له ولقومه، ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

ولم يقبل أن يرضع من أي امرأة فمشت أخته تدلهم على من يكفله ويرضعه، ورجعه سبحانه إلى أمه، ثم امتن عليه بأنه حينما قتل نفساً نجاه من الغم وفتنه فتوناً، وابتلاه بأنواع كثيرة من الابتلاء، ولبث سنين في أهل مدين، ثم جاء على قدر، واصطنعه لنفسه فأكرمه بالرسالة.

وبعد هذه المنن يأتي دور التكليف، فيأمره أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون من غير ما إبطاء ولا تأخّر ولا غفلة عن ذكره أو توانٍ في إبلاغ رسالته، ولئن أمره أولا أن يذهب إلى فرعون وحده، فإنه الآن يأمره أن يذهب هو وأخوه، ويعلمهما كيف يأتيانه بجانب اللين فلعل في هذا اللين ما يدعوه إلى التذكر، ويدفعه إلى الخشية، ويقول موسى عليه السلام بلسانه ولسان هارون عليه السلام: بأنهما يخافان أن يفرط عليهما، أي أن يسبق إلى عقوبتهما، أو أن يطغى، ولكن الله يطمئنهما فلا ينبغي أن يخافا، وهو سبحانه معهما يسمع ويرى، ويعلمهما ماذا يقولان له حينما يأتيانه: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم فيكفي ماذاقوه منك في هذه الدنيا فلا تعذبهم بالصدّ عن الإيمان؛ فتكون سبباً في عذابهم الدنيوي والأخروي وقد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى.

وبعد هذا التلطف يلمحان له بالقول بأنه قد أوحي إليهما: أن العذاب إنما يقع على المكذبين المتولين عن الحق، وبعد هذا العرض يقول فرعون: فمن ربكما يا موسى؟ ويجيبان ممجّدَيْن الله بآثار قدرته وحكمته: ربنا الذي أعطى كل شيء فطرته التي تلائمه ثم هدى، فهو سبحانه الذي خلق فسوى، وقدر فهدى؛ ثم يسأل فرعون سؤالاً آخر عن الأمم الغابرة: ما شأنها وما حالها؟ فيجيب -عليه الصلاة والسلام-: بأن ذلك من أمور الغيب وعلمها عند ربه في كتاب لا يضيع صغيرة ولا كبيرة، لا يضل ربي ولا ينسى.

ثم يبين له نعم الله تبارك وتعالى في هذه الحياة، فهو الذي مهد الأرض لتصلح للحياة، وسلك لكم فيها طرقاً متعددة كثيرة، ثم أنزل من السماء ماء بعد ذلك؛

فأخرج به أصنافاً من الثمرات، ومن هذا النبات لكم ولأنعامكم، وفي ذلك آيات وعبر لأولى النهى أي العقول الحصيفة التي تنتهي بأصحابها إلى الخير، وتنهاهم عن السوء ثم يذكرهم باليوم الآخر بعد هذه النعم، فالله الذي خلقكم من الأرض وسيعيدكم فيها تارة أخرى.

وإلى هنا نجد أن ما في سورة طه جديد من حيث الأسلوب، ومن حيث الموضوع، ومن حيث الجزئيات والأحداث، وهو لعمر الحق علم مرتفع من أعلام الإعجاز لهذا الكتاب، ثم يقول الله بعد ذلك، وبعد الذي سمعه فرعون من هذا الإرشاد، ومن تلك البراهين ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦] لذلك فهو يخاطب موسى ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧] ونلحظ هنا أن الذي كان يهيمن على فرعون، ويخيفه ويزعجه، ويقلقه ويرعبه هو ذهاب ملكه، فلقد أكد القرآن هذا المعنى في أكثر من سورة هذا الذي يزعج ذوي السلطة والسلطان من إعلاء كلمة الله ولعل في ذلك درساً لا بد أن يعيه المصلحون الذين يريدون وجه الله والدعوة إليه، ويعد فرعون موسى عليه السلام بسحر مثل الذي جاء به، ويطلب إليه أن يضرب موعداً بينهم وبينه، موعداً لا يخلفه أحد منهم، ويحدد موسى عليه السلام الموعد يوم الزينة(١)، يوم أن يجمع الناس، وفي ضحوة ذلك اليوم يمكن أن يتم كل شيء، ويتولى فرعون، ويجمع كيده ثم يأتي. وهنا يعاود موسى عليه السلام التذكير والإرشاد: ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى، ويتنازعون أمرهم بينهم، ويتسارون متناجين: فما هذان إلا ساحران، كل ما يريدانه أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويذهبا بطريقتكم المثلى فما لكم إلا أن تجمعوا كيدكم، ثم تأتوا صفاً، فهذا هو يومكم، يوم فلاح المستعلين، ولا شك أنكم أنتم الأعلون.

---

(١) في هذا حسن تصرف ورجاحة عقل؛ لأنه اختار الوقت الذي يتجمع فيه الناس ليميزوا بين الحق والباطل.

ويسأل السحرة موسى عليه السلام: إما أن تلقي وإما أن نكون نحن أوّل من ألقى. ولعل هذا موقف متشابه مع ما في سورة الأعراف إلا أن هنا تصريحاً بهذه الأولية التي تحدثنا عنها هناك أخذاً من النظم، ويقول موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٦]، وهذه الكلمة «بل» لم توجد في سورة الأعراف؛ فإذا حبالهم وهذه مادة سحرهم وتذكر هنا لأول مرة، وهذه الحبال والعصي حينما ألقيت فإذا هو يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فيضمر في نفسه موسى عليه الصلاة والسلام شيئاً من الخوف، وهذا جديد كذلك في سورة طه، فيقول الله له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، بكل هذه المؤكدات، ويأمره أن يلقي ما في يمينه وهي العصا، كما عبر عنها في سورة الأعراف، تلقف ما صنعوا، فالذي صنعوه كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى، ولعلّ الموقف المتشابه هو موقف إلقاء السحرة وجوههم سجداً لله بعد إلقاء عصيهم وحبالهم، وشتان بين الإلقاءين، ولكن مع ذلك التشابه فإن هناك ملامح وفروقاً تخص كل سورة ما يناسبها: هناك ﴿سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] وهنا ﴿سُجَّدًا﴾، وشتان بين الوصفين، ثم هنا ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠][(١)] ويقول فرعون بعد ذلك: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، وفي سورة الأعراف ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، ويقول هنا ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وفي سورة الأعراف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: ١٢٣] وكان في سورة الأعراف قد هددهم بأمرين اثنين، أما هنا فقد هددهم بأمور ثلاثة: الأمرين المتقدمين إلا أنّه هناك عطف الثاني على الأول بـ «ثم» وهنا بالواو.

والذي يظهر لي أن سبب ذلك -والله أعلم- إنما هو مجيء الأمر الثالث هنا، فبعد مجيئه ليس هناك حاجة لـ «ثم» الدالة على التراخي، وهو قوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١] وقد قال المؤمنون بعد تركهم السحر قالوا هناك ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥] أما هنا فيخاطبون فرعون بقولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢] أي لن نفضلك على هذه البينات التي جاءتنا وعلى الذي فطرنا

---

(١) انظر كتابنا في الإعجاز في الفرق بين ساجدين وسجداً وفي بيان تقديم هارون على موسى.

وخلقنا؛ لذا جعلنا الواو عاطفة، ويمكن أن تكون الواو للقسم، أي: وفاطرِنا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، فهو قسم بالله تبارك وتعالى.

ثم يقولون افعل ما تريد فعله، واقض ما تريد قضاءه فإن قضاءك وفعلك لا يتجاوز الحياة الدنيا التي لا يخلد فيها أحد، ونحن سنموت سواء أكنت أنت السبب أم لم تكن، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا هذه الخطيئات، وهذا السحر الذي أكرهتنا عليه والله خير وأبقى، ثم يرشدون فرعون علّه يرعوي بأن الذي يأتي ربه مجرماً له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، كل ذلك جزاء للمتطهرين الذين زكوا نفوسهم.

وتختم قصة موسى عليه السلام بهذا المشهد، وهو أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن يسري بعباده فيضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، لا يخاف أن يدركه فرعون ولا يخشى غرقاً، ولكن فرعون تبعهم بجنوده فغشيهم من اليمّ وغطاهم ما غشيهم. ما أعظمه من هول! وهكذا أضل فرعون قومه وما هدى.

تلكم هي قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون في سورة طه. وما أظن أحداً يزعم أن هناك تكراراً، اللّهم إلا تشابهاً في بعض الأجزاء الرئيسة، ومع ذلك فلكل جزء خاصيته، جِدّة في العرض بعيدة عن التعارض، وعرض فيه تشابه بعيد عن أي شبهة.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى هَٰرُونَ أَخِى ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ

يَٰمُوسَىٰ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ
قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ
أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن
رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا
يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي
كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ
وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ
أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانٗا سُوٗى قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم
بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ
وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ فَأَوۡجَسَ فِي
نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ
وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ
لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ
ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ
قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ
وَأَبۡقَىٰٓ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ وَلَقَدۡ
أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ فَأَتۡبَعَهُمۡ
فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٢٤-٧٩].

٤- ثم جاءت سورة **الشعراء** تحدثنا عن نبأ موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون؛ وإذا كانت سورة الأعراف قد ذكرت فيها قصة موسى عليه السلام بعد ذكر قصص كثير من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-. وإذا كانت سورة طه التي بدئ الحديث فيها عن ذكر الرسالة، وكيف تلقاها موسى -عليه الصلاة والسلام-، ثم جاء بعد ذلك خبر فرعون. إذا كان لكل من السورتين طراز جديدٌ، فإن سورة الشعراء التي ذكر فيها قصص كثير من الأنبياء نجد قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- كانت أولى هذه القصص، والجانب الذي ذكر فيها هو ما يختص بفرعون.

بدأت القصة مباشرة بعد ذكر الكتاب المبين، وبعد الإشفاق على النبي ﷺ، مما يلاقيه من صعوبات نفسية؛ لعدم إيمان قومه ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وبعد إيناسه -عليه وآله الصلاة والسلام-. ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] بعد بيان طبيعة الذين أرسل إليهم، وتكذيبهم بالحق، وتهديدهم بالعذاب، وتذكيرهم بنعم الله، وفي ذلك كله آية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨-٩]، ولعل هذا معنى تكذيبهم بالحق، وتهديدهم بالعذاب، وتذكيرهم بنعم الله هو السبب الذي كانت فيه قصة موسى هي أول القصص في هذه السورة.

تبدأ الآيات بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠] فإذا قارنا هذه البداية بما سبقها وجدنا ذلك النظام المحكم، والأسلوب البديع.

ففي سورة الأعراف كان بعث موسى عليه الصلاة والسلام بالآيات إلى فرعون وملئه، وفي سورة الفرقان إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا، أما سورة طه فكان الإرسال فيها إلى فرعون وحده، وأما في هذه السورة التي معنا فكان الإتيان إلى القوم الظالمين قوم فرعون.

أرأيت هذا التنوع الحاذق الذي يدركه كل ذي ذوق وبصيرة، كيف اختصت كل سورة بل كل قصة بعنوان ومقدمة تكوّن منهجاً متعدد العبر، متنوع العظات؟ هؤلاء القوم الظالمون هم قوم فرعون ألا يتقون.

ولأول مرة يحدثنا القرآن الكريم عما كان يجول في خاطر موسى -عليه الصلاة والسلام- وما تتوقعه نفسه أن هناك أموراً أربعة يتوجس منها خيفة:

أولها: أنه يخاف أن يكذّبوه، وثانيها: ما يعرض له من ضيق الصدر، وثالثها: ألا ينطلق لسانه، ولهذه الثلاثة رجا من ربه أن يرسل إلى هارون عليه السلام؛ ليكون نبياً مثله، فإن هارون عليه السلام يمكن أن يهون عليه هذه الأمور جميعاً. ولكنْ هناك قضية رابعة ربما لا يهوّن من شأنها إرسال هارون عليه السلام؛ ولهذا أفردها على حدة وغاير بينها وبين سابقتها في الأسلوب، وهي أن لهم عليه ذنباً فيخاف أن يقتلوه، ويطمئنه الله تبارك وتعالى بقوله: كلا لن يكون شيء من ذلك وكأنه يعلمه بإجابة دعوته بإرساله إلى هارون؛ لذلك يقول له: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الشعراء: ١٥] فنحن معكما -عندها تأتي أنت وأخوك إلى فرعون- مستمعون غير غائبين وما عليكما إلا أن تأتيا فرعون فتخبره بأنكما رسول رب العالمين من أجل أن يؤمن، وأن يرسل معكما بني إسرائيل.

وهنا جزئيات وأحداث جديدة تحدثنا عنها سورة الشعراء لأول مرة ندرك منها بعض الملامح لشخصية موسى -عليه الصلاة والسلام-: شجاعة، وفكراً مقابلاً كل حالة بما يناسبها، هذا ما تعرض إليه الآيات الكريمة. يقول فرعون منكراً على موسى عليه السلام قوله مستعلياً ممتناً كأنما يريد أن يقرر موسى عليه السلام بهذه الأحداث: ألم نربِّك فينا وليداً؟ أما نشأت وترعرعت في أنعمنا، وظلِّ رعايتنا ولم يكن ذلك مدة يسيرة بل لبثت فينا من عمرك سنين كثيرة، ثم فعلت فعلتك[1] التي فعلت، وأنت من الكافرين بأنعمنا، ولم تكن صاحب رسالة كما تدّعي الآن.

---

(١) يعني قتل القبطي.

وهنا تظهر هذه الملامح من شخصية موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما يرد على فرعون بهذه القوة والمنطق: فعلتها إذ فعلتها ولكنني لم أكن كافراً كما زعمت، وإنّما كنت من الضالين التائهين عن غير قصد ودون إصرار، وبعد ذلك فررت منكم لما خفتكم فأكرمني الله حينما وهبني حكماً ومنَّ علي بالرسالة، ثم عجباً لك يا فرعون كيف لك أن تمنّ عليّ وتعد بقائي فيكم، وتربيتك لي نعمة من النعم! وهذه لم تكن لولا أنك استعبدت بني إسرائيل وظلمتهم، فكنت تقتل كل مولود منهم، من أجل ذلك كان ما كان، فتربيتك لي، وبقائي فيكم لم يكن أمراً برغبتي، ولكن سببه المباشر استعبادك لبني إسرائيل وظلمك لهم، وماذا يقول فرعون بعد ذلك؟ ما وراء ذلك إلا التعنت، ويدلنا على هذا التعنت سؤاله، ما رب العالمين؟ وكأنه يظنه شيئاً من الأشياء التي يمكن لموسى عليه السلام أن يشرح حقائقها، فيبين -عليه الصلاة والسلام- أنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان من شأنكم أن يهديكم الله وتكونوا من الموقنين فستعرفون ذلك.

ويشير فرعون إلى ملئه، وأشراف قومه الذين كانوا حوله مستغرباً: ألا تسمعون! كأنما الذي يقوله موسى عليه السلام أمر يدعو إلى العجب والاستنكار والغرابة، فيجيبهم موسى إجابة عليه السلام فيها شيء من التخصيص؛ لعل ذلك يكون ألصق بهم، فبعد أن قال: رب السماوات والأرض يقول هنا: ربكم ورب آبائكم الأولين. فماذا قال فرعون يا ترى؟ يقول مستهزئاً ساخراً: إن رسولكم الذي ارسل إليكم لمجنون، يؤكد هذا لملئه بهذا الأسلوب الذي بينه القرآن حيث الحقد والاستهزاء والغرور، هذه الثلاثة هي أكثر عناصر الشر خطراً وأشدها ضرراً. ولكنه استهزاء بقومه قبل أن يكون بموسى عليه السلام، حيث سلبهم شخصيتهم، واستخفّهم فأطاعوه يا لضياع الشعوب حينما تفقد أعظم ما منح الله الإنسان ألا وهو الحرية -حيث الناس سواء- لله وحده الكبرياء. فماذا قال موسى عليه السلام يا ترى؟ هل رد هذه التهمة عن نفسه؟ هل كان لنفسه حظ فيما قال فرعون؟ اللهم لا. ولكنه ردّ على فرعون وملئه ردّاً فيه الحمية لدينه من جهة،

وردّ التهمة إليهم من جهة ثانية، قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨]، إن الذي يدعو إلى الله وعبادته وتوحيده ليس هو المجنون، ولكن الذي لا يدرك آثار هذه الربوبية هو الذي لا يعقل!وهذا درس ما أحوج الدعاة إلى الله إليه، العزة، لكنها ليست العزة بالإثم بل هي العزة المستمدة من الله. وصفه فرعون بالجنون، فرد عليه وعلى من معه، أولئك الذين ذابت شخصيتهم بقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨] يا لعظمة الإيمان! حيث تصل صاحبها برب العالمين، فتنزع منه الخوف، وتملأ قلبه جرأة ولكن مع حكمة.

وهنا يشتط فرعون بعد هذه الأجوبة المسكتة فيقول: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، أي من أولئك الذين استغرق السجن حياتهم، فيقول موسى -عليه الصلاة والسلام-: أتجعلني من المسجونين ولو جئتك بشيء مبين؟ فيقول فرعون: فأتِ به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين؛ فقال للملأ من قومه: إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟ ويقول الملأ أرجه وأخاه، وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحّار عليم، ويجمع السحرة لميقات يوم معلوم، ويُنادى الناس ويُطلب منهم أن يبادروا إلى الاجتماع ليشهدوا ما سيكون من أحداث ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:٣٩]؟ أي اجتمعوا لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين.

ولما جاء السحرة يسألون فرعون: أئِنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين[1]، فيجيبهم نعم وإنكم إذن لمن المقربين. ويقول لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ويلقون حبالهم وعصيهم ويقسمون بعزة فرعون إنهم هم الغالبون، ويلقي موسى عصاه فتلقف ما يأفكون.

---

(١) ذكرتُ سببَ ما طلبه السحرة في سورة الأعراف.

وهنا يلقي السحرة جباههم على الأرض ساجدين معلنين الإيمان لله رب العالمين رب موسى وهارون، ويقول ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الشعراء: ٤٩] أي اليد اليمنى، والرجل اليسرى وبالعكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ويجيبونه ﴿لَا ضَيْرَ ۖ﴾ [الشعراء: ٥٠] أي لا ضرر علينا من ذلك كله إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع من ربنا أن يغفر لنا خطايانا أن كنا أول من آمن بموسى ورسالته.

الفروق بين السور الثلاث طه والشعراء والأعراف:

ذلك المشهد الذي يتحدث عن السحرة، والذي آثرت أن لا أطيل الحديث فيه. وهذا المشهد أكثر ما يظهر فيه التشابه في قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون، مع أن هناك فروقاً من حيث الأسلوب في السور الثلاث:

من ذلك: ما جاء في سورتي طه والشعراء. حيث جاء في سورة (طه) ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] بالتثنية. وجاء في سورة الشعراء، ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] بالإفراد على إرادة الجنس، والذي يظهر لي -والله أعلم بما ينزل- أن هذا التغاير البديع المعجز الذي جاء متلائماً مع موضوع كل من السورتين، سببه ما يلي:

المتأمل في سورة الشعراء يجدها السورة التي كانت أكثر السور تحاوراً بين موسى ﷺ وفرعون ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠] ثم يبدأ الحوار بعد ذلك: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٧-١٨] قال فعلتها إذاً . . . الخ ما جاء في الآيات الكريمات.

أما سورة طه، فلقد كان عنصر التثنية واضحاً فيها كل الوضوح، ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ [طه: ٤٢]، ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣]، ﴿قَالَا رَبَّنَآ﴾ [طه: ٤٥]، ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: ٤٩]، ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]،

إلى آخر ما هنالك من آيات كريمات؛ لذا جاء في سورة طه ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧]، تثنية،وفي سورة الشعراء ﴿انا رسول﴾ على ارادة الجنس، فانظروا إلى هذا الاعجاز البديع.

ومن ذلك: استعمال البعث في سورة الشعراء ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء:٣٦]، واستعمال الإرسال في الأعراف. ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف:١١١]، وقد تحدثت عن الفرق بين البعث والإرسال من قبل، ولكني أزيد هنا شيئاً آخر، وهو أن ما جاء في الشعراء كان خطاباً من فرعون لقومه ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:٣٤]، أما ما جاء في سورة الأعراف فقد كان حديثاً عن الملأ، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف:١٠٩]؛ لذا استعملت كلمة البعث أوّلاً لأنها خطاب لفرعون، والبعث فيه إثارة أكثر من غيره كما قلت من قبل، ولصاحب درة التنزيل -رحمه الله- قول آخر، وهو أن الإرسال يكون ممن هوأعلى إلى غيره، ولذا خاطب به العامة فرعون؛ لأن في الارسال دليلا على الرفعة، ولعلي أرجح ما ذكرته على ما ذكره الشيخ -رحمه الله- وأقول كما قال العلامة ابن مالك رحمه الله:

وهو بسبقٍ حائزٌ تفضيلا مستوجبٌ ثنائيَ الجميلا(١)

ولتختر أيها الفاضل ما يرجح لك.

---

(١) رحم الله أئمتنا وعلماءنا لقد كانوا بحقٍ مثلا يحتذى، وأسوة يقتدى بهم، فما أجدرهم بالإجلال والدعاء، هٰذا البيت قاله ابن مالك في مقدمة ألفيته التي يسميها العلماء الخلاصة، ويقصد بهٰذا البيت ابن معطي، وكان قد نظم ألفيّة في النحو قبل ابن مالك، فأشار إليه ابن مالك وهو يثني على ألفيته بقوله:

وتقتضي رضىً بغير سخط فائقة ألفية ابن معطي
وهو بسبق حائز تفضيلاً مستوجب ثنائي الجميلا
والله يقضي بهبات وافرة لي وله في درجات الآخرة

ومنها أنه ذكر في الشعراء «سحّار» وفي الأعراف: «ساحر»، وسحّار صيغة مبالغة، وهو المناسب في خطاب القوم لفرعون.

ومنها أن هذا المشهد كان أكثر تفصيلاً في سورة الشعراء منه في الأعراف، ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء:٣٨]، وهذا يتلاءم مع ما قلته لك من قبل، من أن سورة الشعراء كانت أكثر السور محاورة بين موسى -ﷺ- وفرعون اللعين.

ومنها أن كلام السحرة جاء بهمزة الاستفهام في سورة الشعراء، وليس كذلك في سورة الأعراف، والأعراف هي أول السور حديثاً، وقد جاء فيها ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٣-١١٤]، وقد ذكرت أنّهم إنّما قالوا هذا، لأنّهم كانوا لا يأخذون أجراً علىأعمالهم، وكأن السحرة أرادوا أن يوثقوا هذا الأجر لأنفسهم، فلم يكتفوا بهذه القولة، فأعادوها مرة أخرى بصيغة الاستفهام: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ [الشعراء: ٤١]، ونحن نعلم أن أسلوب الاستفهام له من الخصائص ما لا يوجد لغيره، لذلك رأينا القرآن الكريم يؤثر في كثير من الأحيان، أسلوب الاستفهام على أسلوب الخبر الصريح[1]ولذلك زاد في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، فلقد أراد أن يزيد كلامه توثيقاً بعد أن عبروا عنه بأسلوب الاستفهام. وفي سورة الأعراف ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾، أما في سورة الشعراء فلقد كانت المبادرة منه ﷺ، ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ وقد جاءت سورة الشعراء بعد سورة الأعراف، وفي سورة الشعراء بيان لاعتزاز القوم بفرعون، حيث ألقوا حبالهم وعصيهم وقالو بعزة فرعون، ولا نجد هذا الافي هذه السورة الكريمة، فناسب هذا أن يكون موسى أكثر اعتزازاً بربه، لذلك طلب منهم أن يبدأوا بأن يلقوا أولاً.

---

(١) راجع كتابنا البلاغة فونها وأفنانها -علم المعاني- (سلسلة بلاغتنا ولغتنا) ولصاحب الدرة -رحمه الله- رأي غير هذا.

وفي سورة الأعراف ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾، وفي السورتين الاخريين ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُمْ بِهِۦ ﴾ ،لأن الضمير في سورة الاعراف يرجع لله تبارك وتعالى، أما في السورتين الأخريين فإلى موسى ﷺ.

وفي سورة الاعراف، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلكم أن سورة الشعراء كما بينت تصوّر القوم وهم أكثر اعتزازا بفرعون. ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ فناسب أن يؤكد لهم هذا الوعيد.

وفي سورة الأعراف ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ﴾، وهذا يتسق مع ما قلته من قبل، فإذا كانوا قد اعتزوا بفرعون من قبل، فهاهم الآن ينقلبون عليه ويكفرون به، وهم يعلنون أنْ ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ لن يضيرنا كل ما تقوم به.

وفي سورتي الأعراف والشعراء قالوا ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾. وفي سورة طه ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ وللعلماء أقوال كثيرة في تقديم هارون عليه السلام: يرى بعضهم أنها الفاصلة، ويرى آخرون أنهم قالوها مرتين قَدّموا حينا، وأخّروا آخر، والذي يظهر لي والله أعلم بما ينزل -أنها لما كانت سورة طه، السورة التي بُين فيها أن القوم لما ألقوا حبالهم وعصيهم ويُخيل إليه أنها تسعى، أوجس في نفسه خيفة موسى، وهو الذي حينما أكرمه الله بالرسالة، ومعه العصا وقيل له ألقها يا موسى، وولى مدبرا ولم يعقب قيل له: لا تخف، فما كان ينبغي أن يفكر بالخوف من فعل السحرة، ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، وكان هارون أحرى منه بهذا الخوف، لأنه لم يشاهد ما شاهده أخوه من قبل، عندما أوحى الله اليه ولم يذكر في النظم الكريم أن هارون عليه السلام أصابه ما أصاب موسى عليه السلام من الايجاس بالخوف، من أجل هذا يبدو لي أن النظم جاء هكذا ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾.

ثمّ نجد في كلّ سورة من الحديث ما يكمل ما في السورة الأخرى، ففي سورة الأعراف مثلا، قالوا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وفي سورة الشعراء قالوا ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي سورة طه ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

فهذه الأقوال كلها صدرت عن السحرة المؤمنين -رحمهم الله تعالى- فذكرت كل سورة شيئاً من أقوالهم، أرأيتم إلى مواطن الإعجاز في هذا النظم، حيث جاء في كلّ سورة ما يتلاءم مع موضوعها وشخصيتها. ومع ذلك وجدنا من يرى في هذه الصنعة البديعة تناقضا، كما ذهب إلى هذا صاحب الفن القصصي محمد أحمد خلف الله، في أطروحته التي أشرف عليها الشيخ أمين الخولي، وقد حدثناك عن شيء مما في الرسالة من قبل.

أما سورة طه فهي تنسب كل شيء لفرعون، ففرعون هو الذي قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ وفرعون هو الذي وعد بأن يأتيه بسحر مثل سحره، ولكنه طلب من موسى عليه السلام أن يجعل موعداً بينهم وبينه. وتحدد سورة طه الزمان بأنه يوم الزينة، والوقت الذي يجمع فيه الناس وهو الضحى، كما تبين سورة طه أن فرعون هو الذي تولى، وجمع كيده، ثم أتى، وتبين لنا تحذير موسى عليه السلام له ولقومه من عذاب الله، كما تختص ببيان تنازعهم وإصرارهم وتناجيهم، في سورة طه كذلك يصرحون بأولية الإلقاء ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، كما تختص سورة طه ببيان حرف الإضراب «بل» وتبين ما حدث لموسى عليه السلام نتيجة إلقائهم الحبال والعصي، بينما الذي تبينه سورة الأعراف أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم.

و سورة الشعراء لم تعرض لشيء من هذا.

كما تختص سورة طه من بين السور جميعاً ببيان ما حدث لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الإيجاس في نفسه خيفة، حتى قال الله له: لا تخف إنك أنت الأعلى. ونظن من أجل ذلك ـ والله أعلم ـ قدم هارون على موسى في هذه السورة دون غيرها، كذلك ما كان من حديث السحرة حينما ألقوا سجداً كان فيه عنصر زائد على ما رأيناه في سورتي الشعراء، والأعراف. وقد مر معنا ذلك من قبل، وإنما أطلت لأن هذا المشهد ـ كما قلت ـ هو أكثر المشاهد في القصة تشابها، أما انه ذكر أكثر من مرة؛ فلأنه الغاية، وهو كذلك الأساس الذي أراد القرآن تثبيته في النفوس، ومع ذلك رأينا في هذا المشهد نفسه «مشهد السحر» جديداً في كل سورة من سور القرآن الكريم.

عودة إلى سورة الشعراء:

ولنكمل الآن ما بقي من القصة في سورة الشعراء، وسنجده جديداً كذلك فبعد إيمان السحرة يوحي الله إلى موسى أن أسر بعبادي، فإن فرعون سيتبعهم ويلحق بهم، ويرسل فرعون في المدائن شرطه، وجنوده؛ ليجمعوا الناس. وإرسال فرعون هذه المرة لم يكن بمشورة الملأ الذين أشاروا عليه من قبل، فالقضية هنا قضية حياة أو موت بالنسبة له، والوسائل التي اتبعها هي الوسائل التي يتبعها كل من غرته قوته من ذوي البطش الذين لا يعتزون إلا بقوتهم، ولا ترهبهم إلا القوة كذلك كما نرى من قوى البغي في أيامنا هذه. فكانت وسائل إعلامه التي يحاول بها أن يجمع الناس، وأن يرغبهم ليخرجوا معه تقوم على دعامتين اثنتين:

التقليل من شأن موسى عليه السلام ومن معه، فهم شرذمة قليلون، يغيظون السادة بوجودهم وتصرفهم وعدم خضوعهم.

والدعامة الثانية: هي عرض عضلات فرعون، والإهابة بقوة كل الذين يخرجون معه، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦] وكان ما كان حيث أخرجهم الله من جنات وعيون، وكنوز، ومقام كريم،

وخرج قوم موسى عليه السلام وقد سرى بهم، كما أمره ربه، ولحق بهم فرعون وجنوده مشرقين، ورأى كل من الجمعين صاحبه، وصاح أصحاب موسى وقد رأوا قوة فرعون عدداً وعدة صاحوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فيردعهم موسى ـ عليه السلام ـ بهذه القوة التي تبين الثقة والطمأنينة، ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وتكون المعجزة التي يؤيد الله بها أنبياءه وأولياءه، ويوحي الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر، والعصا التي التقفت كل الإفك يجعل الله لها معجزة أخرى، فينفلق البحر، ويسير موسى عليه السلام ومن معه، ويرى فرعون وجنده فيتبعونهم، وكذلك العقلية الجماعية المستسلمة دائماً تخلو من التفكير في كثير من الأحيان، وتكون النهاية: ينجي الله موسى ومن معه ويغرق فرعون ومن معه.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠-٦٨].

وهذه السور الثلاث كانت أكثر السور حديثاً عما كان بين موسى - عليه الصلاة والسلام - وبين فرعون، وما جرى من شأن السحرة. وليس معنى هذا أن الحديث عن فرعون لم يكن في غير هذه السور، إنه في سور كثيرة ولكنه كان موجزا في غير هذه السور الثلاث، أو كان فيها تفصيل لجوانب أخرى غير التي ذكرت في السور الثلاث.

٥- سورة **النمل** وقد جاءت بعد سورة الشعراء وقد بدأت الحديث عن الرسالة، لكن فيها إشارة لفرعون، وتبين السورة أن الله أرسل موسى عليه السلام لفرعون وقومه في تسع آيات، وهذا العدد يذكر لأول مرة. ولكنها بُيِّنت في سورة الأعراف، لكن لم يذكر كونها تسعاً، ومع اختلافهم في هذه الآيات إلا أن الكثيرين يرجحون أنها العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، بهذا الترتيب ومن قبل هذه أُخذ آل فرعون بالسنين، ونقص من الثمرات. ولكنهم كانوا قوماً فاسقين، قالوا عن الآيات حينما جاءتهم: إنها سحر. وتبين السورة قضية مهمة جداً لم نجدها في غيرها، وهذا ما نقوله دائماً من أن الإجمال في بعض السور القرآنية، والإيجاز يُخصّ بما لم يوجد في

غيره. الذي تبينه سورة النمل أن فرعون وقومه جحدوا بالآيات، ولكن لم يجحدوا بها لأنها غير وافيه ولا كافية، فقد استيقنتها أنفسهم، ولكن مادامت أنفسهم قد استيقنتها فلماذا جحدوا بها يا ترى؟ يبين القرآن سبب ذلك بأنهم إنما فعلوا ذلك ظلماً وعلواً. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

فقوله سبحانه ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ حالان أي جحدوا بها ظالمين مستعلين، أو نُصبا على التعليل، أي كلاهما مفعول لأجله، ولما كان الإعراب فرع المعنى، ترجّح عندي هذا الوجه؛ لأن الحال فيه تقييد، فاذا قلت جاء زيد راكبا فركوبه كان وقت المجيء، وعلى هذا فالظلم والعلو أمر متأصل فيهم حتى قبل أن تأتيهم الآيات؛ لذا رجحت الاعراب الثاني. وقوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ جملة جاءت بين الفعل جحدوا وعلّته الظلم والعلو وإنّما وسطت بينهما تنبيهاً للسامع ولفتاً للأذهان على أن الامر بينهم وبين أنفسهم كان مختلفا عمّا أظهروه، وهذا يشبه قول الله، ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، والظلم سلب الناس ما هو لهم ومنعهم حقوقهم، والعلو إعطاء النفس ما ليس لها، وهما شرُ ما يتصف به الإنسان.

٦- ثم جاءت سورة **القصص** وهي أكثر السور حديثاً عن طفولة موسى وشبابه ـ عليه الصلاة و السلام ـ، ولكن الحديث عن فرعون كان حديثاً موجزاً، فبعد ذكر الرسالة أكرمه الله ببرهانين: العصا واليد، يذهب بهما إلى فرعون وملئه، ولكنه ـ عليه الصلاة و السلام ـ يخشى أموراً، رأيناه يضرع بها إلى ربه، وربه أعلم به، منها أنه قتل منهم نفساً؛ فيخاف أن يقتلوه ويصرح هنا لأول مرة بأنّ أخاه هارون عليه السلام هو أفصح منه لساناً فليرسله معه معيناً مصدِّقاً له، ويجيبه الله تبارك وتعالى بأنه سيشد عضده بأخيه ويجعل لهما سلطانا فلن يستطيعوا الوصول إليهما والنيل منهما، ثم يطمئنه سبحانه ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] كما تخبرنا الآيات الكريمة أن موسى

عليه السلام لما جاءهم بالآيات قالوا: إنه سحر مختلق مفترى؛ وبأنهم لم يسمعوا بمثل هذا في آبائهم الأولين وهذا ما يصرحون به هنا لأول مرة فماذا قال موسى ـ عليه الصلاة و السلام ـ؟ قال لهم إن ربه هو أعلم بمن جاء بالهدى من عنده سبحانه ومن تكون له عاقبة الدار ويعني نفسه عليه الصلاة والسلام، ثم يبين ظلم فرعون وقومه وظلمهم لبني إسرائيل ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧] أما فرعون فقد ازداد طغياناً، ولأول مرة يعلن إلٰهيته لملئه ويطلب من وزيره هامان أن يوقد له على الطين لعله يطلع إلى إله موسى وما يظنه إلا من الكاذبين، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] وهاهنا إشارة ذكية لابد أن نفطن لها في الآية الكريمة، وهي أن الجبابرة حينما يهيأ لهم رعية تلغي عقولها، وتعطي من أنفسها الدنيّة فإن هؤلاء الجبابرة يلبسون عليهم كيفما يريدون، ففرعون يؤكد لملئه أنّه ليس هناك إلٰه غيره، ومع ذلك يريد بناء صرح فخم ضخم ليطلع إلى إلٰه موسى عليه السلام مع يقينه بأن موسى عليه السلام من الكاذبين، فلو كانت هناك مسحة عقل عند رعيته وذرّة شجاعة وجرأة لقالوا له لِمَ نجهد أنفسنا بالبناء مادمت على يقين أن ليس هناك إلٰه؟ ولكنه الإخلاد إلى الأرض يجرد كل الذين رضوا بالاستضعاف والذل بدلاً من مقومات الإنسانية الكريمة، نعوذ بالله من ذلك.

ويستكبر فرعون وجنوده كما تحدثنا سورة القصص، يستكبرون في الأرض بغير الحق ظانّين أن الله لن يحيط بهم فيأخذهم الله تبارك وتعالى: يأخذه هو وجنوده فينبذهم في اليمّ، وتلك عاقبة الظالمين، ويجعلهم أئمة يدعون إلى النار، ولن يجدوا يوم القيامة ناصراً لهم، ويتبعهم في هذه الدنيا لعنة، أما في يوم القيامة فهم من المقبوحين أي المطرودين المبعدين، تلك هي الإشارة في سورة القصص عما كان من أمر فرعون.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠-٤٠].

٧- ثم تأتي سورة **الإسراء** بإشارة موجزة، ولكن العجيب فيها أنها جاءت مناسبة متسقة مع ما قبلها في سورة القصص، فهي مرتبة عليها ترتيباً منطقياً غاية في الإبداع. وهاكم بيان ذلك: ادّعى فرعون في سورة القصص أنه ما عَلِمَ لقومه من إلٰهٍ غيره، وأنه على يقين من كذب موسى عليه السلام، فجاءت الإشارة في سورة الإسراء:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ☆ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ☆ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ☆ ﴾ [١٠١-١٠٣].

فما أعجب هذا الترتيب وما أحكمه وما أبعده عن التكرار!! حيث بيّن الكليم ﷺ أن هذه الآيات ما أنزلها الا رب السماوات والأرض بصائر لذوي العقول، فهو الله الذي لا إله غيره ولكنك يا فرعون هالك هلاكاً لا مثيل له: إغراق في الدنيا وإحراق في الآخرة.

٨- ثم جاءت سورة **يونس** بأحداثها الجديدة وكلماتها المعبرة وأسلوبها المؤثر، تجمل أحداثاً مضت؛ لتفصل غيرها مما يتفق مع سياق السورة نفسها ومع شخصيتها، والسورة ـ كما نعلم وكما قدمنا من قبل ـ بدأت بهذه الآيات:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ١-٢].

تبدأ القصة بعد قصص بعض الأنبياء، ولكنه قصص موجز في هذه السورة الكريمة ببعث موسى وهارون عليه السلام إلى فرعون وملئه بالآيات، ولكنهم استكبروا وكان هذا الاستكبار ناشئاً عن تماديهم في الإجرام؛ لذلك لما جاءهم الحق لم يجدوا ما يقولونه إلا أنه سحر، لكن موسى ـ عليه الصلاة و السلام ـ ينكر عليهم هذه المقالة أتقولون للحق لما جاءكم هذه المقالة المستهجنة؟! أسحر هذا الذي جئتكم به؟.

ثم تبين الآية الكريمة نتيجة فعلهم من قبل أن يحدث منهم أي فعل، وهو أن الساحرين لن يفلحوا أبداً.

كما تبين السورة هنا ما أنكروه من موسى وهارون ـ عليهما الصلاة و السلام ـ وهو غير ما بينته السور السابقة فإنهم أنكروا أن يلفتهم موسى ويفتلهم عما وجدوا عليه أباءهم هذه واحدة.

وأما الثانية: فهي أن يكون لموسى وهارون الكبرياء والملك في الأرض، ولهذا صمموا على عدم الإيمان بأسلوب قاطع مؤكد ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] ويطلب فرعون أن يأتوه بكل ساحر عليم. ونجد السورة الكريمة هنا لم تفصل في شأن السحرة كما فُصِّل في السور من قبل ويجيء السحرة، ويقول لهم موسى: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ويلقون ما أرادوا إلقاءه.

ما بينه موسى عليه السلام للسحرة:

ولكن موسى ـ عليه الصلاة و السلام ـ يبين لهم هذه القضايا الأربع في هذا الترتيب البديع :

القضية الأولى: أن هذا الذي جئتم به إنما هو السحر بأسلوب القصر الذي يتحدث عنه علماء البلاغة، وذلك بتعريف جزئي الجملة مبتدؤها الذي هو «ما» الاسم موصول وخبرها الذي هو السحر. وإذن فما جاء به موسى مغاير لذلك.

أما القضية الثانية: فهي مترتبة على القضية الأولى وهي قوله ان الله سيبطله، ثم تأتي القضية الثالثة: إن الله لا يصلح عمل المفسدين.

ونتيجة لهذه القضايا الثلاث فإذا كان الذي جاءوا به السحر وسيبطله الله تبارك وتعالى؛ لأنه نوع فساد والله لا يصلح عمل المفسدين فإن النتيجة الحتمية لذلك كله؛ أن يحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون، وتلك رابعة القضايا.

أما ما كان من السحرة ومن فرعون فكل ذلك قد طوي في هذه السورة انه ما آمن لموسى عليه السلام إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم.

درسان عظيمان يؤخذان من الآية:

وفي الآية درسان على قدر كبير من الأهمية لم يذكرا في غير هذه السورة فهما بحق قضيتان حريّتان بالوقوف والتأمل:

أما أولاً: فإنه لم يؤمن لموسى عليه السلام إلا ذريةٌ من قومه، والذريّة ـ بالطبع ـ تشير إلى أن الذين آمنوا كانوا من عنصر الشباب وهي إشارة ذات مغزى، فالشباب هم العنصر الفعال في حياة الدعوات وتاريخها.

وأما ثانياً: فإن عدم الإيمان لم يكن خوفاً من فرعون وحده، وإنما كان خوفاً من ملئهم أي من ملأ هذه الذرية من بني إسرائيل. إن كثيراً من المستضعفين الذين استمرأوا الذل يقفون مع العتاة الطغاة في وجه الحقّ مع أنّهم يعلمون أنّ في هذا الحق دفعاً لكابوس الظلم عنهم، ولكنهم يداهنون مع ذلك، بل يكونون أشد من الطغاة أنفسهم،

وهكذا كان الملأ من بني إسرائيل يحولون بين ذريّاتهم وبين الإيمان لموسى عليه السلام مع أن فرعون هو الذي علا في الأرض وكان من المسرفين وكان يسومهم سوء العذاب، فما يجني هؤلاء المستضعفون من وقوفهم معه؟! ولكنها التبعية الذليلة التي لن تحلّهم إلاّ دار البوار. ويلتفت موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى هؤلاء الذين آمنوا معه وهم بين نارين وخوفين: فرعون من جهة، وملئهم من جهة أخرى، ليقول لهم إن كنتم آمنتم بالله فعليه وحده ينبغي أن يكون توكّلكم إنْ كنتم منقادين إلى الحق، ويجيبونه معلنين إيمانهم وإسلامهم: على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين، فهم يدعون ربهم ربنا لا تفتنا بما نلاقي من عذاب منهم أولا تجعلنا فتنة لهم يُفتَنون بسببنا وهم يرون ما نلاقيه من عذاب ويوحي الله إلى موسى وأخيه عليهما السلام أن يهيئا لقومهما بمصر بيوتاً وأن يجعلوا هذه البيوت قبلة ليعبدوا الله فيها بإقامة الصلاة[1]، ثم يأمر الله موسى عليه السلام أن يبشر المؤمنين.

ثم تبين الآيات الكريمة ما كان من دعاء موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يناجي ربه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]، بهذه الكلمات التي يسطع فيها الإيمان المؤثر يدعو موسى عليه السلام ربه لا حسداً لفرعون على ما أوتيه، فمعاذ الله، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدرك أن الزينة والمال وما ينتج عنهما من تعالٍ وغرور سببٌ في محاربة الحق. من أجل ذلك كان ذلك الدعاء ابتغاء للحق وحرصاً عليه، ويجيب الرب دعاء العبد ﴿ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٩].

(١) يذهب بعض المفسرين إلى أن هذه البيوت اتخذت قبلة لأنهم كانوا يخشون أن يصلوا في معابدهم، فأمروا أن يخفوا صلاتهم حتى لا يطلع عليهم فرعون ومن معه، وهذا إذا كانت البيوت للمساكن، أما إذا كان المقصود بالبيوت المساجد فلا يكون للسرية معنى، وذهب بعضهم إلى أن معنى قبلة أي متقابلة حتى لا يكون بينهم بعد. ولا تنافي بين هذه الأقوال ولكلٍّ وجهةٌ.

ثم تتحدث السورة الكريمة عن المشهد الأخير وقد جاوز ببني إسرائيل البحر، واتبعهم فرعون وجنوده باغين معتدين، وتأتي النهاية الحاسمة، فحينما يدرك فرعون الغرق يرجع عن كفره ويعلن إيمانه ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلقد صدق موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

بهذه العبارات التي كان يمكن أن يغني عنها كلمة واحدة ينطق بها فرعون، ولكن لات حين مناص إنّه لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، الآن وقد فوّتَّ كلَّ فرصة وما أكثر الفرص التي سنحت لك! وتكون المعجزة فاليوم ننجيك ببدنك هيكلاً لا حراك فيه لتكون للقرون من بعدك آية فما أكثر الآيات وما أعظمها!! ولكن كثيراً من الناس عنها غافلون، وصدق الله وكان لمن خلفه آية حتى يومنا هذا.

تلك هي القصة في سورة يونس وقد رأينا عناصرها جديدة كل الجدّة، أسلوباً وأحداثاً وكلماتٍ معبرةً ـ كما قلت من قبل ـ وفي ذلك خير دليل على ما أردنا تقريره من الجدة في كل ما يعرض له القرآن الكريم من أحداث يُظَنّ تشابهها.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧٥-٩٢].

٩- أما سورة **هود** فلم يكن فيها سوى إشارة موجزة على الرغم من أنه قد فصل فيها بعض القصص ـ كما رأينا ـ قصة نوح عليه السلام، ومع إيجاز هذه الإشارة فإنها لا تخلو من جدّة.

تبين السورة الكريمة، أنّه سبحانه أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه بآياته وسلطانٍ مبين، وقد اختلف المفسّرون في معنى السلطان المبين، فمنهم من يرى أنه الآيات نفسها، ومنهم من رأى أنها العصا؛ لأنها كبرى هذه الآيات. والذي يلوح لي ـ والله أعلم ـ أنّ السلطان المبين الذي اقترن بالآيات إنما هي الحجة الواضحة الدالة على صدق موسى عليه السلام المستفادة من قرائن الحال، إنه سلطان الحجة الذي كان كافيا لمن أراد الهداية، ولهذا ذكر عقب الآيات دليلاً على التغاير بينهما فالآيات مادّيّة والسلطان عقلي معنوي، والله أعلم بما ينزل. أرسله إلى فرعون وملئه ولكنهم اتبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد إنه ممعن في الغواية والإضلال، وإذا كان قدوة لأصحابه في الدنيا، أو رضي أن يكونوا أتباعاً له فهو سيقدمهم يوم القيامة كذلك، ويكونون له تبعاً ليوردهم النار وبئس الورد المورود هذه النار وقد حلت عليهم اللعنة في هذه الدنيا ويوم القيامة بئس الرفد المرفود.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾(١) [هود: ٩٦-٩٩].

١٠- ثم تأتي سورة **غافر**، وهي سورة المؤمن؛ مؤمن آل فرعون، وهي السورة الوحيدة التي فصّلت قول هذا المؤمن وبيّنت لنا شأنه، لذلك كان أكثر ما اشتملت عليه السورة. ومن الطبيعي أن تحدثنا السورة الكريمة عن موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون. وأول ما نجده من هذا النبأ أن الله أرسل موسى عليه السلام بآياته وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون، وقد مر ذكر هامان وقارون في سورة القصص، أما هامان فقد مرّ فيما حكى الله تعالى عن فرعون في قوله ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]، وأما قارون فلقد كانت له قصة في آخر سورة القصص لم نعرض لها هناك؛ لأنها ليس لها تعلق بحديثنا، فحديثنا عن فرعون، وسنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله. ولكن هؤلاء الثلاثة وصفوا موسى عليه السلام بالسحر والكذب، فلما جاءهم بالحق من عند الله تبارك وتعالى اشتطوا غيظاً، وركبوا متن الغواية، وقالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم، أي استبقوهن للخدمة والمهانة، وهذا القتل والاستحياء غير الذي كان يفعله فرعون ببني إسرائيل قبل رسالة موسى عليه السلام، ويمكن أن يكون هذا القتل هو المشار إليه في سورة الأعراف، وهو الذي مرّ معنا من قبل ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧](٢).

---

(١) بئس الرفد المرفود: أي بئس العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الأخرة، وقيل: بئس العطاء المعطى.

(٢) وهذا الأسلوب هو الذي نجده من الظالمين العتاة الباغين حتى اليوم فما أشنع الظلم وأسوأ الظالمين!! ولا عجب أن يكون هذا من فرعون وهامان، ولكن العجب أن يكون من قارون الذي هو من بني إسرائيل، ولذا رجحت ما قلت من أن هذا التقتيل كان بعد رسالة موسى، وهكذا يعمي الباطل ذويه، فلا يرعى أحدهم ذمّةً ولا قرابة. =

ويُطمئن الله موسى عليه السلام وقومه بأنّه ناصرُه، وبأن كيد الكافرين ليس إلا في ضلال وضياع وخسران، أما فرعون فيحدثنا عنه القرآن حديثا عجباً؛ إذ يحكي لنا قوله ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ وهذا لعمر الحق منتهى المكر والكذب والتلاعب بالعقول ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي خلوا بيني وبينه، وكأنهم هم الذين يمنعونه عن ذلك مع أنه يوقن وهم يوقنون كذلك أن ليس بأيديهم شيء، وأنّ الأمر أولاً وأخيراً إنما هو لفرعون، ولكنه الخبث الذي يتبعه كثير من الساسة وهم يوهمون رعيتهم بأنهم هم ـ أي الرعية ـ أصحاب الحكم يحكمون أنفسهم بأنفسهم وأصحاب القرار، وهذا أكثر ما يكون في الأنظمة الدكتاتورية وما يشبهها، ولأمتنا من هٰذا النصيب الأوفر والحظ الأوفى!!. والأعجب من هذا ما علل به هذا القتل، وهو خوفه من أن يبدل موسى عليه السلام الدين، وخوفه من أن يظهر موسى عليه السلام الفساد في الأرض، من أجل ذلك يريد قتله حتى تبقى الحياة صالحة نظيفة. ما أعظمها من عبر! وما أروعها من عظات لقوم يتذكرون!.

أما موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنه لا يزيد بعد أن سمع ما سمع على أن يقول لائذاً بربه، مستجيراً به سبحانه وهو ربهم كذلك: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

ثم تفصل الآيات بعد ذلك قول هذا الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، وهو ينصح قومه يتلطف معهم بما ينمّ عن صدقه، وعمق إيمانه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(١).

---

(١) لقد كان هذا الرجل المؤمن حاذقا في أسلوبه حيث بدأ بافتراض الكذب قبل الصدق ثم قال ﴿يصبكم﴾ ولم يقل «يصبنا»، ثم عقب على هذا بان الله لا يهدي المسرفين المكذبين فإن كان موسى منهم فلن يُهديٰ إلى الخير، ثم قال «يا قوم» بهذا التلطف ثم قال ﴿لكم﴾ ولم يقل «لنا» ولكنه قال بعد ذلك ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾، ولم يقل «ينصركم» وهكذا نجده حاذقا في أسلوبه =

لم يسبق لهم أن لهم الملك وأنهم هم الظاهرون في الأرض، ويذكرهم بالعاقبة ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾، ولكن فرعون يزداد عتواً ويظهر حقيقة ما في نفسه، فهو يقول: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾. إن الرأي هو ما أحملكم عليه فليس لأحد أن يعارضني في شيء، فأين هذا القول مما قاله من قبل ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ ﴾ وكذلك المتجبرون يكشرون عن أنيابهم حينما يجد الجد. ويعود المؤمن لنصائحه؛ فهو يخاف على قومه مثل يوم الأحزاب ﴿ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾. وهذا كله في الدنيا، ثم يحذرهم من يوم القيامة يوم التناد ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ ﴾.

ثم يذكرهم بما كان من يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ حينما جاءهم بالبينات، ولكنهم كانوا في شك مما جاءهم به، فلما انتقل إلى الدار الآخرة قالوا: ﴿ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ ﴾، ولكن فرعون مع ذلك لا يذعن للحق ـ وهكذا يضل الله كل من هو مسرف مرتاب من أولئك الذي يجادلون في آيات الله من غير حجة عندهم. وكبر هذا مقتا عند الله وعند المؤمنين، وهكذا يطبع الله على قلوب المتكبرين الجبابرة ـ.

أقول: لكن فرعون لم يأبه لكلام ذلك الرجل المؤمن، فهو يأمر هامان أن يبني له صرحاً لعله يبلغ طرق السماوات فيصل إليها ليطلع إلى إله موسى عليه السلام مع أنه على يقين من كذب موسى عليه الصلاة والسلام، وهكذا زُيِّن لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن سبيل الحق وطريق الهداية وما كيد فرعون إلا في تباب وخسران وضياع. ويعاود الذي آمن وصاياه ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨]، ثم يبين لهم حقارة شأن الدنيا، ويفصّل لهم القول إلى أن يقول لهم ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ ثم يبين لهم أن سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾[1].

= حيث لا يستطيع أحد أن يشتم منه رائحة الإيمان وهو درس جيد تدعو إليه الضرورة في كثير من الأوقات.

(١) تراجع آيات المؤمن: ٢٣-٥٥.

ثم تبين الآيات الكريمة أنها النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، أما يوم قيام الساعة فسيُدْخلون أشد العذاب، ثم تصور لنا هذا المشهد وهم يتحاجّون في النار، فيقول الضعفاء للمستكبرين: لقد كنا لكم تبعاً وخدماً نأتمر بأمركم، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟! فيقول المستكبرون: لا، إنا كلٌ فيها، إن الله قد حكم بين العباد. ويطلبون من خزنة جهنم أن يدعوا ربهم ليخفف عنهم شيئاً من العذاب، ويقال لهم: ألم تكن الرسل تأتيكم بالبينات؟ فيقولون: بلى، فيقال لهم: ادعوا ما استطعتم فلن يُتقبّل منكم، فما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

ثم يعقّب على هذا كله بهذه الآية الجامعة ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١-٥٢]، ويمن الله على بني إسرائيل بعد أن نجاهم من فرعون ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].

ثم يعقب على ذلك بطمأنة النبي ﷺ، فكما أُهلك فرعون وكما نصر الله موسى، فلابد أن يهلك المكذبين كذلك ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ

أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ يَوْمَ
تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا
فِي تَبَابٍ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ وَيَٰقَوْمِ
مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ
عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي
ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ
وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ
سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
ٱلْعَذَابِ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ
حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ
قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ
ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ
لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٢٣-٥٥].

هذه سورة غافر، ونحسب أنه من نافلة القول عدم وجود أي تكرار فيما أشارت إليه السورة الكريمة.

١١- ثم تأتي سورة **الزخرف** لنقرأ فيها طرفاً من هذه القصة كذلك، والواقع أن ما ذكر في هذه السورة متلائم كذلك مع اسمها، كما سنرى ذلك بيّناً إن شاء الله تعالى.

تبدأ السورة بإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وقوله ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وحينما يجيئهم بالآيات فإنهم يفاجئونه بضحكهم وسخريتهم منها وهزئهم بها، مع أن الآيات التي جاء بها موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانت كل واحدة منها كافية لإيمانهم، فليس هناك آية إلا وهي أكبر من أختها؛ لأن في كل آية ميزة لا توجد في غيرها، وقد أُخذوا بالعذاب علهم يرجعون عن غيّهم الذي هم فيه سادرون، ولما رأوا العذاب قد أحاط بهم هرعوا لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائلين له ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ ومناداتهم له بهذا الوصف قد يكون وصفاً له بالعلم والمهارة فلم يكن السحر صفة نقص عندهم هذا ما قاله بعض المفسرين. ولكن الذي نرجحه أنهم إنما نادوه بذلك؛ لأنهم كانوا عازمين على عدم الإيمان في قلوبهم، ونستأنس لهذا بقولهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ولو كان إيمانهم صادقاً لقالوا «ربنا». سألوه أن يدعو لهم ربه بما عهد عنده من إجابة الدعوة أن يكشف عنهم الرجس حتى يهتدوا، ولكنهم ـ وقد كشف عنهم الرجس ـ نكثوا ولم يؤمنوا.

وتحدثنا الآيات بعد ذلك عن غرور فرعون واعتداده بنفسه، وهو حديث لا نجده إلا في سورة الزخرف، فهاهو ينادي في قومه: أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ذلك أم تبصرونه؟!. ثم يبين اعتداده بنفسه وسخريته بموسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضعيف محتقر ـ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فهو لا يملك شيئاً من أسباب القوة، وعلامات الملك فضلا على أنه لا يحسن الإبانة في قوله، ولو كان موسى عليه السلام صادقاً فهلا ألقيت عليه أسورة من ذهب، أو جاءت معه الملائكة مصدقة له؟؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يكن فلم نجد شيئاً من

أسباب النعمة ظاهراً عليه، ولم يجىء أحد من الملائكة يصدقه فيما يقول. . . وهكذا استخفّ فرعون قومه، استخف عقولهم؛ فلعب بها، وهذا شأن كل رعية ضعيفة. ومن هنا كان من أهل النار كما أخبر الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم «الضعيف الذي لا زبر له ـ أي لا عقل ـ الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً»(١) هكذا كان قوم فرعون وهذا ما يجعل الشعوب تنحدر فتستمرىء الذل، ومرجع ذلك كله: الفسق والخروج عن منهج الله، فلما أغضبوا الله تبارك وتعالى انتقم منهم، وجعلهم قدوة لمن بعدهم من اهل الضلال، كما جعلهم مثلا يمكن أن يتعظ به الآخرون، هذا ما جاء في سورة الزخرف وهو إن تدبرناه نجده يتسم بالجدة في جُلّ جزئياته.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٦].

١٢- أما في سورة الدخان، فقد جاء الحديث عن فرعون وقومه في سياق الحديث عن قريش وما أصابهم حينما دعا عليهم النبي ﷺ يوم كذّبوه ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فقد دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني يوسف؛ فأصابهم القحط والجوع والشدة؛ فكان الواحد منهم حينما ينظر إلى السماء يتوهم انها ممتلئة دخانا، وهو ما أصابهم من الظلمة في أبصارهم من شدة الجوع حتى كأنهم يرون دخاناً؛ فإن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه ورأى الدنيا مملوءة دخاناً. فدعوا ربهم أن يكشف عنهم العذاب فهم مؤمنون.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة باب ٦٣ حديث رقم ٢٨٦٥.

ثم بين لهم سبحانه أنه سيكشف عنهم العذاب قليلاً؛ فإنهم عائدون إلى الكفر ولكن هددهم بالبطشة الكبرى وهي ما سيصيبهم يوم بدر، ثم ذكر حديث قوم فرعون بقوله ﴿ ۞وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وبماذا جاءهم هذا الرسول؟ تحدثنا السورة عن الأمور التالية:

١- أن يؤدوا إليه عباد الله؛ ويقصد بهم بني إسرائيل، وكأنه يشير إلى أن أولئك ليسوا عبيداً لهم ليعذبوهم، بل هم عبادٌ لله وبأنه رسول أمين يؤتمن على ذلك كله.

وهناك قول آخر للمفسرين: أي أن أدوا إليّ الحقوق التي أمر الله بها يا عباد الله، فعباد الله على القول الأول مفعول به، وعلى هذا القول منادى،وهم على القول الأول بنو إسرائيل، وعلى القول الثاني المخاطبون فرعون وملؤه، وقد يرجح الأول والله أعلم.

٢- أن لا يعلوا على الله؛ لأن الذي يتكبر على الرسول والرسالة يتكبر على المُرسِل كيف وقد جاءهم بسلطان مبين!.

٣- فهو يعوذ بربه وربهم أن يرجموه ويقتلوه.

٤- فإن لم يريدوا الإيمان به فليعتزلوه وليبعدوا عنه وليخلوه وشأنه.

ولكنهم خالفوه في ذلك كله، فدعا ربه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلا، فهم متبعون من فرعون، وليترك البحر رهواً، أي ساكنا. بعد أن ينجيه الله ويخرج منه من أجل أن يدخله فرعون وجنده فإنهم مغرقون.

ثم يبين الله تبارك وتعالى فخامة ما تركوه من الخير الذي كانوا فيه من بساتين وعيون وقصور وتنعم وقد أورثه غيرهم فذهبوا غير مأسوف عليهم، فلم تبكهم السماء ولا الأرض، فهم منبوذون لسوء طباعهم، مقتهم كل شيء في هذا الكون لأن خالق الكون مقتهم من قبل.

ونلاحظ أن ما جاء في سورة الدخان جاء منسجماً تماماً مع الحديث عن أهل مكة؛ فهو يحمل في ثناياه التهديد والوعيد كما يطمئن في ثناياه الرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الدخان: ١٧-٣١].

١٣- ثم تأتي **سورة الذاريات** بلمحة موجزة تتناسب مع ما ذكر فيها من قصص بعض الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٣٨-٤٠].

وهكذا تبين السورة الكريمة أن فرعون تولى بركنه وقومه، ثم تبين لنا تخبطه وعدم استقراره فيما يقول في موسى عليه السلام، بهذا التردد الذي تدل عليه كلمة (أو) ﴿ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ فهو لا يستقر على رأي، ثم تبين لنا أنه أُخذ وهو مليم، وتلك إشارة في السورة الكريمة لها مغزاها ومدلولها.

١٤- أما سورة **المؤمنون**، ففيها إشارة ولكن من نوع آخر، فالسورة تبين أن الله أرسل موسى وهارون عليهما السلام بالآيات الواضحات والسلطان المبين إلى فرعون وملئه، ولكنهم استكبروا وكانوا قوماً عالين، ثم تبين السورة الدافع لهذا الاستكبار والعلو فكيف يؤمنون لبشرين مثلهم وقومهما ـ يعنون بني إسرائيل ـ لهم عابدون فكيف يؤمنون إذن لمن يعبدهم قومهما فما كان موسى وأخوه عليهما السلام حريّيْن بهذه الرسالة فكذبوهما فكانوا من المهلكين.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨].

١٥ - أما سورة **الحاقة**، فقد جاء فيها قول الله:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩-١٠].

١٦ - ثم تأتي **سورة النازعات**، وهي آخر سورة يذكر فيه خبر فرعون، وقد قلنا من قبل أن السورة الأخيرة دائماً يأتي الحديث فيها موجزاً مجملاً كل ما تقدمه من حديث مع بعض الإشارات، كما رأينا ذلك في قصص بعض الأنبياء في سورة العنكبوت وقصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع فرعون، تمثل هذه الظاهرة فتنفرد بها سورة النازعات دون سورة العنكبوت، فتذكر القصة في سورة النازعات في سياق الحديث عن الذين أنكروا البعث.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ(١) حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦].

إنّ كلّ كلمة في هٰذه القصّة: إنّما هي موضوع مستقلّ بذاته ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ثمّ تأتي الفاءات الدالّة على التعقيب تتوسّطها (ثمّ) الدالّة على التراخي ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾. كأنّما القصّة سرد سريع ولمحات خاطفة كلّ كلماتها ذات دلالات إيحائية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ ولكلّ من هٰذين الحرفين أعني «الفاء» و«ثمّ» سرّه البياني، فالتكذيب والعصيان شأنٌ خاصّ بفرعون وحده. أمّا قوله ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ فالمقصود به الذهاب في الأرض للتأليب على موسى عليه السلام، وهٰذا أمر يحتاج إلى تدبير وتروٍّ؛ لذا جاء العطف بـ «ثمّ».

(١) نلحظ أنّ السورة بدأت هٰكذا ﴿هل أتاك﴾ دون حرف عطف كما جاء في سورة طه، وهٰذا يذكرنا بما جاء في قصة نوح في سورة الأعراف، وهو أنه لا داعي هنا للعطف، لأنه لم يسبق بما ينبغي أن يعطف عليه، فكأن الآية بعد الحديث عن منكري البعث جاءت إجابة عن سؤال مقدر، هل لاقى أحد من الأنبياء مثل ما لاقيت؟ فقيل: هل أتاك حديث موسى؟

١٧ - أما سورة العنكبوت، فقد ذكرت فيها هذه الآية ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾[١].

ذلكم هو: الجانب الثالث من الحديث عن موسى في القرآن الكريم، وهو قصته مع فرعون، وهو أكثر الجوانب مساحة وحوادث وجزئيات؛ لذلك نجد القرآن الكريم قد بدأ به دون غيره، وهكذا كانت النهاية أنْ أخذ الله فرعون نكال الآخرة والأولى[٢]، وهكذا بينت الهدف من ذكر ذلك كله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

وقد وجدنا كل سورة ذكر فيها هذا الجانب من حياة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان ذا هدف يتلاءم مع موضوع السورة من جهة، ومع الغرض الذي سيق له من جهة، كما كان في كل قصة إبداع فني، ونسق بياني. هذا إلى جانب الصفات الخلقية والنفسية، والقضايا الاجتماعية التي تبرز في كل سورة من السور الكريمة بحيث إذا جمعت كلها تشكل لنا سلسلة من الحلقات المتصلة بعضها ببعض تكون زاداً ورصيداً، وثروة لعلماء النفس والأخلاق والاجتماع فضلاً على ما يجد فيها الأدباء من تنوع الأساليب وروعتها، ويبقى النصيب الأعظم والأوفر؛ نصيب الدعاة ليجمعوا ذلك كله حتى يكون الهادي لهم في مسيرتهم، والنور الساطع لبصيرتهم.

---

(١) تلك هي النهاية في سورة العنكبوت (سورة الدعاة إلى الله)، نهاية أعداء الله، الاستكبار في الأرض، ولكن لن يكون منهم السبق أبداً مهما طال الأمد وعلا الزبد. وتلكم نهاية المستكبرين جميعاً.

(٢) للمفسرين في معنى (الآخرة والاولى) رأيان: الأول وهو ما أرجحه أن المقصود بهما الداران أي سيعذبه في الآخرة كما أغرقه في الدنيا، والمعنى الآخر عاقبه الله بهاتين الكلمتين. هذه الكلمة ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والكلمة التي قبلها ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾.

الجانب الرابع: خبره مع بني إسرائيل:

أما الجانب الرابع من قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو خبره مع بني إسرائيل.

والحديث عن بني إسرائيل في كتاب الله تعالى حديث له جوانب متعددة كذلك، فقد يكون الحديث عنهم تمهيداً لما سيكلف الله به المسلمين، فهو يبين ما أنعم به عليهم، ثم ما قابلوا به النعم من جحود ثم ما استحقوه من عقاب. كل ذلك من أجل أن يكون درساً للمسلمين فيما يكلفون به حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل.

وقد يكون الحديث عنهم من جانب آخر؛ وهو ما يضمرون للمسلمين من بغضاء وكان يمكنهم أن يتعايشوا معهم بسلام وأمن وصدق، ولكنهم أبوا.

وقد يكون الحديث عنهم من جانب ثالث وهو، ما كان منهم مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل جاءت في السور التالية: الأعراف، طه، إبراهيم، البقرة، الصف، المائدة. مع إشارات في بعض السور نعرض لها في حينها إن شاء الله، وسنجد ونحن نعيش مع الآيات الكريمة أن مالاقاه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من بني إسرائيل من المشقة والعنت والعناد لا يقل بل قد يزيد عما لاقاه من فرعون؛ لذلك كانت عناية القرآن به، ولذلك نجد القرآن جعله في المرتبة الثانية بعد الحديث عن فرعون، ولئن اقتصر الحديث عن فرعون على السور المكية؛ فإن الحديث عن بني إسرائيل تجاوز ذلك إلى السور المدنية. وهذا بالطبع ما تقتضيه ظروف العبرة من القصة حيث اليهود يعايشون المسلمين هناك، ونظن أن في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، وفيما تعدد فيها من جوانب، وفي ترتيب هذه الجوانب بعضها على بعض أمراً جديراً بأن يبحث ويفاد منه، وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أولي العزم، والحديث عنه فيما لاقاه من عنت وصعوبة لا يكمن في إجماع فرعون وبني إسرائيل على الباطل ومعارضتهم للحق فحسب، وإنما فيما هو وراء ذلك، ومن أجل هذا كانت قصة موسى

عليه السلام جديرة بأن تستخلص منها الحكم والعبر للدعاة إلى الله، ففرعون كان يمثل الطاغية البطاش، المغتر بقوته المعتز بجبروته، المستعلي، ولكن بني إسرائيل كانوا على العكس من ذلك يمثلون الجانب الآخر، فهم الذين رضوا بالذل والاستضعاف واستمرؤوها وأعطوا الذلة والدنية من أنفسهم، وقبلوا أن يسلبوا كل مقومات الشخصية، وربما مرت معنا إشارات تؤكّد هذا الذي قلناه من قبل، كما سنجد ذلك فيما سنقوله من بعد. وهذا ما أدركه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يصارعهم ويقارعم محذراً حيناً، ومذكراً حيناً؛ ولكنه بعد ذلك كله، وبعد هذا الشوط الطويل ذي المراحل القاسية، وفي خاتمة المطاف في آخر عهده بهم، لم يملك إلاّ أن يقول ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ [المائدة: ٢٥]، يتبرأ منهم وهو يعتذر لربه، فلئن ضاع جهده معهم فعند الله الجزاء الأوفى، وما أحوج المسلمين أن يقفوا مع هذه الدروس ليعرفوا عدوهم على حقيقته.

١- سورة الأعراف:

بعد الحديث عن غرق فرعون انتقلت الآيات إلى الحديث عن بني إسرائيل وما منّ الله عليهم به، وهنا قضية لابد أن نتنبّه إليها؛ لأنها تلقي ضوءاً على ما نحن بصدده، وعلى ما قررناه من قبل، فالآيات التي تحدثت عن فرعون في سورة الأعراف تبتدىء من آية (١٠٣) وتنتهي بآية (١٣٦)، بينما الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل كانت أكثر من ذلك حيث بدأت من آية (١٣٧) واستمرت إلى (١٧١).

بدأت الآيات بقول الله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ فذكرت أول صفة من صفاتهم، وهي الاستضعاف، ولكن الله تبارك وتعالى خلصهم من نير العبودية فمنعهم ظلم العدو ومنحهم نسمات الحرية ليشكروه، وتمت كلمة ربك الحسنى عليهم؛ بما كانوا يتحلون به من الصبر. ولكن هذا الصبر في حياة كثير من الأمم لا يستقر على مفهومه، بل يخرج عن معناه،

فبدلاً من أن يكون فضيلة تقوى بها النفوس على مقاومة الباطل، فإنه يفهم على غير حقيقته ليصير رذيلة تقبل بها النفوس كل ظلم وباطل، وأصبح هذا المفهوم للصبر في حياة كثير من المسلمين الأساس الذي ينطلقون منه.

ويفاجأ كل ذي لب، فبعد أن يغرق الله فرعون ومن معه ويدمر ما كانوا يصنعون ويعرشون ويجتاز ببني إسرائيل البحر إلى البر الآسيوي، يمرون على أقوام ـ لعلهم من العرب ـ يعكفون على أصنام لهم، وكان المتوقع -بل المتيقن- من بني إسرائيل أن يطلبوا من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يأذن لهم بمحاربة هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، أو على الأقل أن يرشدوهم ويعظوهم، ولكن لم يكن هذا ولا ذاك، وربما يظن أن القوم تركوهم وشأنهم فلا قتال ولا إرشاد، حتى هذه مع صعوبتها يمكن أن توجد لها الأعذار والمسوغات. ولكن القوم لم يكن منهم شيء من هذا، بل الذي كان منهم لا تتصوره العقول ولا يخطر ببال، هؤلاء الذين رأوا آيتين عظيمتين كانت واحدة منهما كافية لإيمان أبعد الناس عن التوحيد، وهم السحرة من المصريين، كانت الأُولى منهما يوم أن ألقى موسى عصاه فأُلقيَ السحرة ساجدين ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] وثبتوا على إيمانهم على الرغم من تهديد فرعون بالعذاب وبالقتل والتصليب، مع أنه كان يمكن أن يكون لهم شأن لو لم يؤمنوا إذْ لم يكونوا مستضعفين؛ ومن هنا كانت الرسالات دائماً لا يحملها إلا ذوو النفوس القوية.

وأما الآية الثانية، فلقد كانت قريبة العهد بهم إذْ لم تجف أرجلهم من الماء حينما منّ الله عليهم بالسير في البحر[(١)]، ومع هاتين الآيتين العظيمتين، فإنهم لما رأوا عباد الأصنام قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

---

(١) يروى أن يهودياً قال لسيدنا علي اختلفتم بعد موت نبيكم قبل أن يجف ماؤه فقال له سيدنا علي: خالفتم نبيكم وتركتم دينه قبل أن تجف أقدامكم.

لا أود أن أقارن بين هذه النفوس التي يشهد واقعها بأن التوحيد لم يكن متغلغلاً فيها، ولم يكن مستقراً كذلك على الرغم من طول الأمد، وبين أولئك الذين استقر التوحيد في قلوبهم لمجرد إيمانهم به، فكانوا حرباً على الباطل والوثنية أينما كانت، وما أعظم الفرق بين هؤلاء الذين قالوا ما قالوا ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وبين أولئك الذين قالوا لفرعون وقد هددهم وتوعدهم ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وماذا عساه أن يقول لهم بعد الذي رأوا من الآيات؟. لقد بكّتهم وأنكر عليهم، ولكن ذلك كله لم يكن ليردعهم، لقد سمعوا موسى عليه السلام يدعو إلى توحيد الله ومع ذلك يريدون منه أن يعينهم على الشرك مع أنه كان يتوقع منهم أن يطالبوه ويستأذنوه بتحطيم هذه الأصنام، ما أعظمه من جهل! لهذا يقول موسى عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، ثم إذا كانوا يريدون أن يكونوا مثل هؤلاء فكان من الممكن أن يستمروا مع فرعون، وكما أُغرق فرعون وتُبّر ما هو فيه ودُمِّر، وبطل عمله فإن أولئك كذلك. هكذا يقول موسى لبني إسرائيل ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثم ينكر عليهم ويستهجن مقالتهم وفي هذا الأسلوب كذلك إنكار أن يكون غير الله إلٰهاً، ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الذين تعايشونهم في زمانكم بما خصكم به من النبوة، ثم يذكرهم بالنعمة الكبرى، وهي إنجاء الله لهم من آل فرعون، وكانوا يريدون لهم أشد العذاب وأنكاه تذبيحاً للأبناء، وإذلالاً للنساء، وفي ذلك بلاء ما مثله بلاء! ولكن ترى هل ارعوى بنو إسرائيل وأنابوا؟ هل استسلموا وتابوا؟؟ اللهم: لا!!.

وهذه صنيعة أخرى لا تقل عن سابقتها سوءاً يحدثنا القرآن الكريم: أن الله قد وعد موسى عليه السلام أن يعطيه التوراة فيها التشريع لبني إسرائيل بعد إغراق فرعون، ووعد الله موسى عليه السلام ثلاثين ليلة ولكنه زادها عشراً فتم ميقات ربه أربعين ليلة

وترك موسى عليه السلام أخاه هارون عليه السلام في بني إسرائيل، وهو يدرك ما سيحدث منهم من إفساد وتخريب، وتعكير صفو، وإفساد جو، مع أنه قد ذهب ليأتيهم بما فيه عزّهم ومجدهم، وأين هؤلاء من الذين كانوا إذا عرفوا الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ سكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فرحين مؤملين.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامع

وما أشد حاجتنا إلى أن يقتدي الأبناء بالآباء! . يخرج موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو يحدث نفسه بما يمكن أن يُحْدثه قومه من بعده، يدلنا على ذلك تلك الكلمات التي قالها لأخيه هارون ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ إنها كلمات تحمل ما تحمل من هموم موسى مما لا حاجة لأن نعلق عليه.

تحدثنا الآيات بعد ذلك أن موسى جاء للميقات وكلمه ربه، وقال رب أرني أنظر إليك، وكان ما كان حينما تجلى ربه للجبل فجعله دكاً، وخر موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين. ويصطفيه الله تبارك وتعالى برسالاته وكلامه فليأخذ ما آتاه الله بقوة وليشكر الله على نعمه، ويكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لما يحتاجون إليه، فليأخذها بقوة وليأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها. وهنا يحدثنا الله في كتابه عما سيكون من بني إسرائيل مقابل هذه النعم وهذا الفضل الإلهي ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ـ وهو تهديد يتوعدهم به إن لم تعملوا بما في الألواح وتنفذوه ـ فسأجازيكم منتقماً وأريكم دار الفاسقين[1] فالإراءة ليس المقصود بها التفرج والنظر، وإنما المقصود بها العذاب والنكال! .

ثم تذكر الآيات الكريمة بعض صفات أولئك، فأولاً: أن آيات الله تبارك وتعالى ليس جديراً بها الذين يتكبرون بها في الأرض بغير الحق، بل إن الله سيصرف عنهم هذه الآيات ويمنعهم من نورها وبركتها، هؤلاء الذين يتكبرون على الحق وقد كانوا مستضعفين للباطل، هذا أولاً.

---

(١) وهذا كما يقول الأب لابنه مثلاً سأريك مكان الكسالى وكما يقول الناصح لقومه سأريكم نتيجة المتفرقين وبيوت المتخاذلين.

وأما ثانياً: فعلى الرغم من عظم الآيات إلا أنها لا تؤثر فيهم ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، وماذا يريدون أكثر من أن أصبح البحر يبساً بعد أن رأوا من إيمان السحرة حينما ألقى موسى عصاه؟ إنه فساد في الطبع، إذن هو الذي حملهم على أن يكون الانحراف ديدنهم، وعلى أن تكون طبائعهم غير منسجمة مع الحق.

إن الدافع لذلك كله تأرجح العقيدة وعدم ثباتها، كل ذلك تبينه الآية الكريمة، وهي تشرح لنا طبيعتهم التي ينبيء الله بها موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟﴾ [الأعراف: ١٤٦-١٤٧].

ومن هذه القاعدة، ومن هذا الوصف تبدأ الآيات الكريمة تفصل لنا ما كان من أولئك، وكل فعلة تفوق ما قبلها شناعة وتعظمها انحرافاً وعتواً! فماذا كان منهم بعد ذلك كله؟ كان منهم ما حدثنا عنه القرآن، وهو أنه بعد أن ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه، والمدة التي تركهم فيها لم يطل عليها الأمد، ولكنهم مع ذلك اتخذوا من بعده من الحلي التي كانت معهم والتي هي للمصريين في الأصل جمعوها واتخذوا منها عجلاً جسداً له خوار: أي صوت يشبه صوت البقر، وهل ذلك الخوار كان على سبيل الحقيقة أم كان بسبب حذق في الصنعة؟ ذلك ما سنتحدث عنه في موضعه من سورة طه إن شاء الله.

هاهم القوم الذين عاينوا آيات الله وشاهدوها يتخذون لهم إلٰهاً ونبيهم بين أظهرهم وخليفته وأخوه وهو نبي كذلك ينهاهم، ولكن النفوس حينما تنحرف فإنها يسهل عليها أن تتلاعب بالحقائق. لقد أخبرهم موسى عليه السلام أنه سيغيب عنهم أربعين ليلة فماذا فعلوا؟؟ قسموا اليوم قسمين: جعلوا نهاره قسماً، وليله قسماً آخر، وبهذه الطريقة استطاعوا أن يتلاعبوا بالعدد، فلما مضى عشرون يوماً قالوا: هذه عشرون ليلة خلت ومثلها عشرون نهاراً فتلك أربعون! إذن لم يأت موسى عليه السلام[1].

---

(١) وهناك رأي آخر سيمرّ قريباً في سورة طه.

إن هذا الأسلوب الذي بدأه بنو إسرائيل في عهد موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ نجده اليوم يظهر في أشكال متعددة. إن التلاعب بالحقائق الدينية هو شر من إنكارها، ولا يقل خطراً عن هذا الإنكار. اتخذ قوم موسى عليه السلام هذا العجل محاولين أن يقنعوا أنفسهم بهذا الخوار الذي يسمعونه، ولكن أي شيء في الخوار حتى لو كان حقيقياً؟! ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً؟! إذن كيف يمكن أن يتخذوه إلٰهاً وقد امتنّ الله عليهم فخصَّ موسى بالتكليم؟! وهٰذا العجل ليس من شأنه أن يُكلِّم. ومن باب أَوْلى لا يستطيع الهداية، ومع ذٰلك عبدوه فأيّ ظلم أعظم من فعلتهم؟! وصدق الله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

وهنا يجب أن نتعلم من القرآن فلقد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل حينما قالوا اجعل لنا إلٰهاً، وحينما عبدوا العجل وصفهم الله بالظلم.

وكل من الجهل والظلم من شرّ الصفات في الأفراد والجماعات. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو تعبير قرآني رائع جديد، لما اشتد ندمهم وحسرتهم عضوا أيديهم ندماً على ما فرط منهم فأسقطوا أفواههم في هذه الأيدي، ورأوا ما هم فيه وتيقنوا من ضلالهم وقالوا -لا رجوعاً إلى الحق بل خوفا من العذاب- ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

أما موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلما رجع إليهم غضبان أسفا، شديد الغضب على ما كان منهم وعلى ما فعلوه بعده، أنكر عليهم أشد الإنكار.

لقد وجد موسى عليه السلام من قوم فرعون من آمن به ودعا قومه للإيمان به كذلك ـ كما عرفنا ذلك من قبل ـ فما بال أولئك؟! أنكر عليهم موسى عليه السلام بقوله ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ﴾ جاء ومعه الألواح التي فيها خيرهم وهداهم.

وتصور لنا الآيات هذا الغضب والتأثر والغيظ والألم الذي لحق بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ألقى الألواح على الأرض! ولعلنا نتصور كيف كان هذا الإلقاء بعنف من

الحديث الذي حدثنا القرآن، حيث أخذ موسى عليه السلام رأس أخيه يجره إليه، وهو النبي، وهو الذي طلب من ربه أن يرسل معه أخاه إلى فرعون، ولكنه هنا يأخذ برأسه بعنف وقوة وشدة يلومه ويعنفه على هذا الذي كان، وهارون عليه السلام هذا الذي شهد له موسى عليه السلام من قبل بما شهد، بما يؤهله لأن يكون وزيراً ونبياً مثله. يقول هارون عليه السلام لأخيه -وقد رأى منه ما رأى- يتودد إليه ويتحبب ويتلطف ويتقرب بكونه أخاه ابن أمه المؤمنة الصادقة التي تحملت ما تحملت، وهو يحدثه عن صفات أولئك القوم الذين جبلوا على الاستعباد، ولكنهم اليوم وقد آنسوا من أنفسهم حرية ما لابد أن يستضعفوا غيرهم، وتلك علة الضعفاء المستعبدين دائماً لا يعتدل مزاجهم؛ فهم لا يستمرئون إلا الظلم، فإن لم يجدوا أحداً يظلمهم فليظلموا هم من يجدون. بهذا أوحت كلمات هارون عليه السلام، وهو ما حدثنا عنه القرآن الكريم ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ فحري بك يا موسى أن لا تشمتهم بي؛ لأنهم يحبون أن يستعينوا بكل منا على الآخر حتى يخلو لهم الميدان، ويتم لهم الأمر، وهكذا الباطل دائماً وأهله يجدون بغيتهم وضالتهم في تمزيق أهل الحق، وتصديع بنيانه وهدم أركانه، يقول هارون لموسى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فأنا لست منهم، وهنا يرق موسى عليه السلام ويلين قلبه، وكذلك شأن المؤمنين فضلاً على أن يكونوا رسلاً؛ فيسأل ربه أن يغفر له ولأخيه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾. وهو لا يذكر أحداً بعد ذلك، وهذا يدلنا على أبعاد نفسية منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تتمثل في يأسه من بني إسرائيل، ويدلنا على ما تحمله ولاقاه منهم، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أما الذين اتخذوا العجل فسينالهم الغضب والذلة في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وتلك سنة الله لأولئك المفترين على الحق، أما من عملوا السيئات ثم تابوا وآمنوا، فإن ربك من بعدها لغفور رحيم. ويسكت عن موسى عليه السلام الغضب ـ وهو تعبير قرآني

فيه روعة التصوير وعظمة الإبداع ـ ويأخذ الألواح التي ألقاها بشدة وعنف من قبل ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] ولكن لمن؟ هنا سر قرآني رائع لم يقل القرآن هدى ورحمة لقومك يا موسى ـ كما وجدنا ذلك التعبير من قبل لبني إسرائيل -قبل أن يكون منهم ما كان- ولكن ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

ثم يختار موسى عليه السلام من قومه سبعين رجلا ليستغفروا الله عما فرط من قومهم[١] وتأخذهم الرجفة ويحزن موسى عليه السلام على ذلك ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ وهو حزن القائد على من يمكن أن يكون معه من خيرة قومه ممن يعول عليهم ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ فما هو إلا ابتلاؤك واختبارك يارب تضل به من تشاء وتهدي من تشاء، ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، واكتب لنا حسنة في الدنيا والآخرة فإنّا تبنا إليك، ويقول الله: ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ وهذا مع تحقق أن الله لا يظلم أحداً، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة، وهذا تعريض ببني إسرائيل؛ لأن ما فرط منهم من أعمال كان بعيداً كل البعد عن مفهوم التقوى، وفيه كذلك إشارة إلى ما جبلوا عليه من البخل، وهذا ما أشارت إليه الآيات في غير هذا الموضع.

ثم بينت الآيات بعد ذلك أن هذه الرحمة ستكتب لأولئك الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات ولمن يجيء بعدهم ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٢]

(١) هذا ما يراه بعض المفسرين، ويرى بعضهم أن هذا كان قبل اتخاذ العجل حينما جعل الله الجبل دكاً وخر موسى صعقاً.

(٢) يفتري الخوري حداد مدعياً أن هذه الآية مزيدة وليس محلها هنا وقد رددنا عليه في كتابنا «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية».

ثم - وفي هذا السياق بالذات - يتوجه الخطاب إلى سيدنا رسول الله ﷺ ليعلن رسالته للناس جميعاً، وهذا له مغزاه في سياق الحديث عن بني إسرائيل وعما لقيه موسى عليهم السلام منهم، له دلالته ذات الجوانب المتعددة، فمع ما فيه من عموم رسالة النبي ﷺ فهو يبيّن للمسلمين عظم المسؤولية، وثقل الأمانة وضخامة الأمر الذي حملوه وهو مع هذا وذاك نعي على بني إسرائيل، وتسجيل عليهم عدم إيمانهم بالرسالتين: الرسالة الخاصة بهم، والرسالة العامة؛ رسالة موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام -، وهورابعاً: تسلية للنبي ﷺ لما سيراه من أولئك الذين لم يؤمنوا بنبيهم، فلا يعجبن مما يلاقيه منهم.

وبعد هذا الإعلان العام ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بعد هذا يعود السياق لبني إسرائيل لينصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ ولكن هؤلاء الذين يهدون بالحق قلة إذا قيسوا بغيرهم كثرة وجمعاً.

ثم تبين الآيات الكريمة ما جبلوا عليه من الحسد والنعرة العرقية الضيقة الممقوته، هذه النعرة العرقية الضيقة الممقوتة هي الأساس للنظرة المعوجة والسلوك السيء الذي يظهر من تصرفاتهم، فلقد قطعهم الله اثنتي عشرة فرقةً أسباطاً أمماً، وهذا هو عدد أولاد يعقوب - عليه الصلاة والسلام -، ولما كانوا في الصحراء القاحلة الحارة حيث لا ماء ولا ظل ولا شجر بعد أن نجاهم الله من فرعون، استسقى القوم موسى عليه الصلاة والسلام، فأوحى الله إليه حين ذلك أن يضرب بعصاه الحجر فتنبجس منه اثنتا عشرة عينا يعرف كل أناس عينهم الخاصة بهم، ولا نظن أن هناك سبيلا للمقارنة بين هؤلاء وبين أولئك الصفوة المختارة الذين وضعوا كل ما منّ الله عليهم به في سبيل الله، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ألَـم تَـرَ أنَّ السيـفَ ينقـصُ قـدرهُ   إذا قيـلَ هـذا السيـفُ خيرٌ مـنَ العصـا

يعرف كل أناس مشربهم، وكان يمكن أن تكفيهم عين واحدة، ولكنه القرآن يلقي لنا الظلال، ويبين من الإشارات ما هو حري بالوقوف عنده والإمعان فيه، وسنزيد هذا إيضاحاً فيما بعد إن شاء الله. وبعد أن تحل مشكلة الماء تحل المشكلات الأخر فمن أجل أن لا يؤذيهم الحر يظلل الله عليهم الغمام، وكذلك ينزل عليهم المن[١] والسلوى ليكونا عنصراً غذائياً تاماً لهم، تلك الطيبات التي رزقهم الله، ولكن مع ذلك يبين القرآن أنهم لم يشكروا هذه النعم الكثيرة مما كان سبباً في ضياعها ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ثم تنتقل بنا الآيات إلى مشهد آخر وهو أنهم طبعوا على المخالفة، لا من حيث الأعمال فحسب، بل من حيث القولُ كذلك، فقد أمروا أن يدخلوا القرية ليأكلوا منها ويدخلوا الباب سُجّداً، وأن يقولوا كلمات أمروا بقولها ﴿حطة﴾ ولكنهم بدّلوا القول والفعل معاً؛ فاستحقّوا العذاب بسبب الفسق والظلم.

ثم تتحدث الآيات عن تلاعبهم في دين الله، فلقد كانوا في قرية قريبة من البحر تأتيهم الحيتان يوم السبت شرعاً؛ لأنه كان محرماً عليهم الاصطياد يوم السبت والله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى جعل السمك يلهم هذه الحقيقة وهي عدم اصطياده يوم السبت فكان يأتي السواحل القريبة منهم، وفي بقية أيام الأسبوع ما كان السمك ليقدم على هذه الخطوة كل ذلك كان ابتلاء من الله ليختبر دينهم، ولكنهم عدوا في السبت وبدؤوا يصطادون فيه، ولم يؤثر فيهم وعظ الواعظين، فأخذ الله الذين ظلموا بعذاب بئيس، وأنجى الناهين عن السوء ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾؛ لما تمادوا في غيهم قال الله لهم كونوا قردة خاسئين، ومن أجل هذا تأذّن ربّهم سبحانه أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

---

(١) المن: نوع من الحلوى ينزل على الشجر.
السلوى: الطائر يشبه السُمّن.

أما ما لهم اليوم من دولة، فإن ذلك إنما هو ابتلاء للمسلمين ليدركوا سنة الله في عقابهم حينما يعرضون عن الحق ﴿ان ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ وقطعهم في الأرض أمماً كل هذا لأنهم أخلدوا إلى الأرض، وأخذوا العرض الأدنى مدعين أنه سيُغْفَر لهم، زاعمين أنهم شعبُ الله المختار، أما الذين يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة فأولئك هم المصلحون الذين لن يضيع الله أجرهم.

وأخيراً تذكر السورة الكريمة ما تختم به الحديث عنهم، وهو أن تدينهم لم يكن مبدأ تتفاعل معه قلوبهم، وإنما كان خوفاً، وحينما يكون الالتزام بالمبدأ خوفاً من العقاب فقط فإنه سرعان ما يتحول إلى مخالفات، وهذا ما نراه من نظرة الكثيرين إلى القوانين الوضعية، فلقد نتق الله الجبل فوقهم ـ أي رفعه ـ كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، وقيل لهم إن خرجتم عن الحق فسيقع هذا الجبل عليكم، فكان تمسكهم بالحق نتيجة لهذا الخوف، ومثل هذا التدين لا يغني عن صاحبه شيئاً.

هذا ما ذكرته سورة الأعراف عن بني إسرائيل، وهو ـ كما رأينا ـ متعدد الجوانب، له أبعاده الكثيرة المختلفة، وثمراته التي يمكن أن يجنيها المسلمون إن كانوا جادّين.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ

ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ
سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي
وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ
وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ سَأَصۡرِفُ عَنۡ
ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ
ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ
عَنۡهَا غَٰفِلِينَ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا
يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ
لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ
أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ
ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى
ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ
رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ
ٱلۡغَٰفِرِينَ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ
أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ
وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ

وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَمِن
قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ
عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ
اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ
لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي
كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ
قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا
بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا
عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا
مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَخَلَفَ مِن
بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ
يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ
يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ۝ وَإِذْ
نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝

[الأعراف: ١٣٧-١٧١].

٢- ثم تأتي سورة طه:

فنجد الآيات فيها وبعد الحديث عن فرعون وإغراقه تتجه الآيات لخطاب بني إسرائيل، ومن روعة التنزيل التي تأخذ بالألباب دقة وموضوعية، أن الآيات في سورة «طه» بدأت من مرحلة بعد التي تحدثت عنها سورة الأعراف، فقد مر معنا أن سورة الأعراف بعد الحديث عن فرعون ذكرت لنا ما كان من بني إسرائيل بعد أن جاوز الله بهم البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، لكن الحديث في سورة طه يتجاوز هذه المرحلة؛ إذ يبدأ مذكراً بني إسرائيل بهذه النعم الثلاث الكبرى: نعمة الإنجاء من العدو، ثم نعمة الهداية، وهي من أهم النعم المعنوية، ثم النعمة المادية التي تصح بها الأبدان.

بهذه النعم الثلاث بدأ الحديث في سورة طه ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، ولكن الله العليم بأسرار النفوس يعلم ما سيكون منهم من طغيان؛ فيحذرهم، وكان حرياً بهم أن يشكروا النعمة ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ ونلمح من الآية الكريمة فظاعة ما سيقترفه بنو إسرائيل، نلمح ذلك من الكلمة الأولى ﴿غفار﴾ فهي صيغة نلمح منها ـ كما قلت ـ فظاعة الذنوب وكثرتها، لأن صيغة غفار تدلنا على كثرة المغفرة، وذلك إنما يكون لكثير من الذنوب، وما أجمل كلمة ﴿ثم﴾ في الآية الكريمة! ﴿ثم اهتدى﴾ فهي تدل على إمهال الله لهم ليراجعوا عقولهم وتاريخهم ومنن الله عليهم.

ثم تنتقل الآيات إلى ما كان بين موسى عليه السلام وبين ربه تبارك وتعالى، ونلاحظ هنا أنها تطوي ما ذكر في سورة الأعراف؛ لأنه قد عرف من قبل، وفي ذلك أعظم دليل على ما نقصد إليه من عدم وجود التكرار في القرآن، وهو دليل على عظمة هذا القرآن وإعجازه ودليل تنزيله من لدن حكيم خبير، فلقد ذكرت سورة الأعراف مواعدة الله لموسى عليه السلام، وتحديد زمن هذه المواعدة، وما يتصل به من وصية

موسى عليه السلام لأخيه هارون عليه السلام أن يخلفه في قومه، وما كان بعد ذلك من حديث مر معنا من قبل. كثير من ذلك قد طوي من هذه السورة ـ سورة طه ـ وجاءت بشيء جديد، وهو قول الله تعالى ﴿ ۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾. كان قد سبق قومه شوقاً لمناجاة ربه -وكان حرياً بالكليم أنْ لا يعجل- ويجيب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ معتذراً معللا عجلته بأنهم أولاء على أثره ليس بينه وبينهم مسافة شاسعة ﴿ وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾.

وهنا لا نجد الفصول التي ذكرت في سورة الأعراف كذلك، وإنما نقرأ قول الله ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ ولم يذكر السامري ـ كما رأينا ـ في سورة الأعراف. ويرجع موسى عليه السلام إلى قومه غضبان أسفاً، منكراً على قومه ما كان منهم ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴾. وإذا قارنا هذا القول بما ذكر في سورة الأعراف نجده شيئاً آخر، فلقد قال لهم في سورة الأعراف ﴿ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ ﴾. ولكنه هنا فصّل في إنكاره عليهم راداً كل ما يمكن أن يتعللوا به، ويجيبونه بقولهم: ـ وهذا ما لم نجده في سورة الأعراف كذلك ولكنه ذكر هنا لأول مرة ـ ﴿ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ ﴾ أي ما أخلفناه بإرادتنا واختيارنا، يقال إن نساء بني اسرائيل كنّ قد استعرن من المصريات حليهن وخرجن به بعد أن أنجاهن الله، وبقي معهن، فما كان من السامري إلاّ أن طلبه متعلّلاً بأنه سيصنع العجل الذي قال عنه هٰذا إلهكم وإلٰه موسى.

وتتحدث الآيات مفصلة في شأن العجل الذي كان الحديث عنه مجملاً في سورة الأعراف ﴿ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ فصنع لهم من هذه الزينة عجلاً جسداً له خوار فقالوا حينما رأوه كذلك ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾. وفي هذا أعظم دلالة على ضعف العقيدة بل زوالها من نفوسهم، وانعدام نورها، فكيف يصح في عقل عاقل أن

يجعلوا العجل إلها لهم ولموسى عليه السلام كذلك، وأن يبادروا فيصفوا موسى عليه السلام بالنسيان ؟! والقرآن يصور ذلك بلمحات سريعة خاطفة معبرة، فذكر منها هذه الواو ـ واو الجماعة ـ ﴿فقالوا﴾ فلم يصدر هذا القول إذن عن السامري وحده، وإنما اشتركوا فيه جميعاً. ثم هذه «الفاء» ﴿فنسي﴾، كأنهم أرادوا أن يثبتوا ذلك دون تمهل وتريث.

ولا بأس أن نذكر هنا أن خوار العجل يذهب فيه العلماء مذهبين:

منهم: من يفسره على الحقيقة، فيرى أنه خوار حقيقي اكتسبه السامري بالقبضة التي قبضها من أثر فرس جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكان من خاصيتها أنها لا تمس شيئاً إلا ويوجد الله فيه الحياة.

ويذهب فريق آخر إلى أن ذلك لم يكن على الحقيقة، وإنما كان ذلك بسبب مهارة السامري، فلقد وضع أنابيب في داخل هذا العجل الذي صاغه من حلي بحيث يدخلها الهواء فيحدث صوتاً كأنه الخوار.

وعلى الرغم من أن القول الأول: ذهب إليه كثير من المفسرين إلا أننا لا نجد دليلاً قاطعاً مُطَمْئناً يلزمنا أن نأخذ به ونصدقه، وسأزيد هذا إيضاحاً بعد قليل إن شاء الله.

ثم يقول القرآن بعد ذلك مبكتاً لهم وناعياً عليهم ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ كذلك، أي إن هذا العجل سيظل عجلا، فلن يرقى إلى رتبة الإنسان، ويظهر أن عبادة العجل قد اقتبسوها عن المصريين.

ثم تحدثنا الآيات عما قاله لهم هارون عليه السلام من قبل، وهذا القول لم يذكر في سورة الأعراف. فلقد حذرهم هارون ـ عليه السلام ـ قائلاً: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ -أي بهذا العجل[1] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وما أجمل موقع هذه الكلمة: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي شملكم بأنواع من الرحمة، رحمكم من استضعاف فرعون، وتوالت عليكم رحماته،

---

(١) أو بالسامري.

فما أجدركم أن تتبعوني وتطيعوا أمري، ولكنهم أجابوه مصرّين على عنادهم غير متراجعين عن غيّهم. ويصور القرآن الكريم لنا هذه النفسية المستغرقة في الباطل بما تحمله الكلمات القرآنية ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ﴾ فانظر إلى موقع هذه الكلمة ﴿لن﴾ وما بعدها. هكذا سيظلون في غيهم سادرين حتى يرجع إليهم موسى عليه السلام ـ كما يقولون ـ وما أبدع النمط القرآني في تصوير الأحداث، لقد حدثنا عن رجوع موسى عليه السلام من قبل، ولكنه انتقل للحديث عن بني إسرائيل وما كان بينهم وبين هارون عليه السلام، ولهذا يطوي القرآن قضية رجوع موسى هنا ليحدثنا عما كان بينه وبين هارون عليه السلام. ولقد كان الحديث مرتباً في سورة الأعراف على غير هذا النسق؛ لأن سورة الأعراف لم تذكر لنا تلك المحاورة بين هارون عليه السلام وبين بني إسرائيل ولا التي كانت بينهم وبين موسى عليه السلام كقولهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾. ولكن سورة الأعراف صورت ما كان من موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام حين أخذ برأسه يجره إليه، أما هنا فلقد حدثتنا عما قاله موسى لهارون عليه السلام.

وهكذا تذكُر كل سورة جانباً فجلَّ الله الذي نزل هذا القرآن ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦] ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وهكذا ذكرت سورة الأعراف عنف موسى عليه السلام مع أخيه، ذكرت لنا الجانب العملي. أما سورة «طه» فلقد ذكرت الجانب القولي ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ ويجيب هارون عليه السلام معتذراً معللاً عدم اتباعه لأخيه ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾. وهذا الأخذ: ذكرت سورة الأعراف جانباً منه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾. وذكر هناك بأن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه، وقد مر معنا ذلك من قبل فلا حاجة لإعادته. أما هنا فيعلل هارون ما كان منه يقول ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ هذا الذي منعه من أن يلحق بأخيه؛ لأنه حينما يلحق به سيكون معه قوم من بني إسرائيل ويتركه آخرون فخشي ما يمكن أن يقوله

له موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وتكتفي السورة بهذا الجانب؛ لأن سورة الأعراف تكفلت بما كان من موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام، وقد قبل عذره، وسأل الله أن يغفر له ولأخيه.

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد آخر لم يذكر كذلك في سورة الأعراف ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ﴾، ويجيب السامري بأنه بصر بما لم يبصر به القوم، فقبض قبضة من أثر الرسول فنبذها، وكذلك سولت له نفسه وأملت له.

ونذكر هنا أن العلماء اختلفوا في تأويل هذه الكلمة ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾.

فذهب الأكثرون: إلى أن الرسول هنا جبريل ـ عليه السلام ـ، والقبضة التي قبضها، إنما قبضها من أثر حافر فرسه، وقد رآه. وهذه القبضة كانت لا تمس شيئاً إلا ويحدث الله فيه الحياة ـ كما قلت من قبل ـ.

وذهبت طائفة إلى أن الرسول هنا هو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقوله ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: أخذت شيئاً من تعاليم موسى عليه السلام وهديه، ولكني نبذته بعد ذلك مرتداً، وكذلك سولت له نفسه. والنفس أمارة بالسوء ويقول موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ للسامري إذا كنت كذلك فاذهب ولابد أن تلاقي عقابك، وجزاءك العاجل والآجل.

أما العاجل في هذه الدنيا فهي أنك ستكون وحدك لا يقربك أحد من الناس، ولا تحتمل أن يمسّك أحد؛ لأن ذلك سيؤذيك. وأما الآجل في الآخرة فلك موعد لن تخلفه. أما هذا العجل الذي فتنت به بني إسرائيل الذي عكفتَ عليه وعكف عليه بنو إسرائيل معك فلنحطمنّه ولننسفنّه في اليمّ.

وكما أن سورة الأعراف عقبت على قصة بني إسرائيل بإثبات الوحدانية والربوبية لله وحده إذ جاء عقبها ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ فإن هذه السورة كذلك عقبت على قصة بني إسرائيل بهذا المعنى،

ولكن بأسلوب آخر وذلك تعقيب بديع، بل هو آية من آيات النظم والموضوعية كذلك ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾.

تلكم هي قصة بني إسرائيل في سورة طه، ومع تشابه الموضوع بينها وبين سورة الأعراف فهل تجدون تكراراً؟! إنّ لكلٍّ زاويتها الخاصة التي تناولت منها هذا الموضوع، وفي كل من الأسرار النفسية والبيانية واللفتات الاجتماعية، ما يطمئن له القلب، وتستريح إليه النفس.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٨٠-٩٩].

٣- أما سورة إبراهيم عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلاة الله وسلامه: فقد جاءت فيها إشارة للحديث عن موسى عليه السلام وبني إسرائيل، ومن بديع الحسن، وجمال الموضوع، وروعة البراعة، أن تكون في سورة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إشارة لبني إسرائيل الذين ينتسبون إليه.

ففي السورة الكريمة نقرأ قول الله تبارك تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ويذكّر موسى عليه السلام قومه امتثالا لأمر ربه يذكّرهم بقوله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذه العبارة يبدأ موسى عليه السلام بها بني إسرائيل في أكثر من موضع ـ كما سنعرف ذلك إن شاء الله ـ وما نظن ذلك إلا لأنّه رأى منهم جحودهم للنعم وتفريطهم في جنب الله ومجانبتهم للحق في شكرها، فهو يذكرهم دائما بهذه النعم، ومن أعظمها نعمة الحرية ورفع نير الاستعباد؛ ذلك لأن الأمم المستعبدة تحرم كثيراً من النعم نتيجة رضاها بهذا الاستعباد، وهذا الاستعمار. ولهذا وجدنا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يذكر أول ما يذكر هذه النعم بقوله: ﴿ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ولكن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحس جحود قومه وكفرهم بآلاء الله ونعمه، فيقول كما حدثنا القرآن ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وقد بين لهم عاقبة الشكر والكفران ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾. بهذه العبارات الهادفة الهادرة، وبتحذير موسى قومه عاقبة ما حل بالأقوام السابقة تنتهي هذه الإشارة في السورة الكريمة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ

لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٥-٨].

وبهذا ينتهي الحديث عن موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في السور المكية. والذي ينبغي أن نسجله هنا أن الحديث عن موسى عليه السلام مع بني إسرائيل لم تقتصر عليه السور المكية ـ كما رأينا في نبأ فرعون ـ وإنما كان في السور المدنية كذلك، والذي نلمحه في سبب ذلك ـ والله أعلم بكل شيء ـ أن الحديث عن بني إسرائيل كان له ضروراته وأسبابه في السور المكية والمدنية على السواء، فالمسلمون في المدينة يجاورهم اليهود، وكان من الممكن أن يتعايشوا معهم لولا ما جُبلوا عليه من طباع الأفاعي، فكان الحديث عنهم في الآيات المدنية فيه من البصر للمسلمين ما فيه كي يحدّدوا مواقفهم، ويأخذوا حذرهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فالحديث عنهم في السور المدنية كذلك يذكّر المسلمين بما يجب عليهم تجاه دينهم ونبيهم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من شقشقات جدلية، وتنازع وفشل، يؤدي إلى ذهاب الريح والقوة. وهذا هو اللون الذي تحدثنا عنه السور المدنية مما كان من بني إسرائيل مع نبيهم ـ عليه السلام ـ.

وقبل أن ننتقل إلى سورة أخرى من السور التي حدثتنا عن بني إسرائيل، فإنني أرى تتميماً للفائدة، أن أذكر قضيتين إحداهما تتصل بالعجل، والأخرى تتصل بالسامريّ. وللأستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار -رحمه الله- كلام آثرت أن أنقل بعضه. قال رحمه الله:

قلنا فيما مضى إن بني إسرائيل لم تكن أنفس أكثرهم مرتاضة بالإيمان، وانهم كانوا ذوي جهالة لم يحصلوا على الثقافة الكافية لصون عقائدهم من الزيغ. والقوم عاشوا في مصر وألفوا أن يروا عبادة المصريين للعجل أبيس. وكان للمصريين عناية فائقة بعبادة هذا العجل،وكانت العجول المؤلهة إذا ماتت حنطوها -كما يُحنَّط الآدمي- بما يحفظ جسمها من التلف ودفنوها في مقبرة خاصة في جهة سقارة تسمى «سرابيوم».

كانت بساطتهم وإلفهم للوثنية مسهلة لرجل ماكر كان فيهم سماه القرآن «السامري» فجاءهم بعجل له خوار. وقال لهم: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى نسيه موسى عليه السلام هنا وذهب لملاقاته في الغيبة الطويلة.

وذلك أن موسى عليه السلام أخبرهم -قبل ذهابه لميقات ربه- أن غيبته عنهم لا تطول أكثر من ثلاثين يوماً مع مسافة الطريق إلى جبل حوريب، وهو جبل الطور، فلما أمر الله موسى عليه السلام أن يستأنف صوم عشرة أيام طالت غيبته عن قومه، واستبطأ القوم.

ما حقيقة العجل الذي عبده بنو إسرائيل - ومن هو السامري؟

يقول المفسرون والتوراة: إنّه كان عجلا من ذهب صاغه لهم صائغه من حلي المصريّات -كما قدّمنا- ويقول المفسرون: إن السامري اسمه موسى وكان مولوداً من سفاح، وأن الله أمر جبريل أن يربيه ويقوم بمصالحه، فكان جبريل يأتيه على فرس. وكان يلاحظ -بعد أن كبر- أن فرس جبريل لا يضع حافره على شيء إلا صار حيّاً فأخذ من تراب أثر الحافر بعضا، فلما صاغ العجل من الذهب ألقى ذلك التراب في فم العجل فصار له خوار.

ويقول البيضاوي: إن الذهب صار عجلاً جسداً ذا لحم ودم له خوار -صوت البقر- وقال بعضهم: إنه كان صائغاً وقد دبره بطريقة خاصّة تجعل للريح إذا مرت من دبره وخرجت من فمه صوت البقرة.

والذي أراه أن حكاية السامري وجبريل ليست صحيحة، فلا جبريل جاء إلى السامري ولا السامري أخذ تراباً من أثر حافر فرسه. وأن القول بأنه صاغه بحيث إذا استدبر الريح خرجت الريح من فمه ولها صوت البقر- وهو الخوار- أقرب من ذلك بل لا غرابة في هذا أصلاً.

ولو قال قائل: إن السامريّ خدع بني إسرائيل وأخذ منهم الحلي، وَبَصُرَ بعجل على هيئة العجول التي تعبد في مصر -ولم يبصروا به- فاشتراه وجاءهم به وقال لهم ما قال، وانهم قبلوا ذلك منه واعتقدوا أن ذلك العجل إلٰههم وإله موسى عليه السلام، وعكفوا على عبادته مع أنّه عجل جسد لحم ودم له خوار لا يفترق من أبناء جلدته من البقر في شيء! ومع ذلك كله فإنهم لبلادة أذهانهم وسخافة عقولهم قد جعلوه إلها وعبدوه، وظلوا عاكفين على عبادته مع نهي هارون لهم وقوله ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠] فلم يلتفتوا إليه لما أشربوه في قلوبهم من حب العجل لما هم عليه من الكفر لم يكن بعيدا من الصواب ولم يكن مخلاً بنظم القرآن. هذا هو الذي أميل إليه. ويكون السامري قد خدعهم بأخذ الحلي وإلقائه في النار ليوهمهم أن حليهم صار عجلاً وأخذ المال لنفسه، فشأنه شأن الدجالين الذين يخدعون الناس بإيهامهم الكنوز المطلسمة وافتتاحها لهم ثم يجردونهم من كل شيء. فيأتون إليهم بالفقر حيث يرجون الثروة والغنى -وهنا يعرض سؤال لاكَهُ بعض المسيحيين في الجرائد وهو: كيف يكون السامري هو الذي أضل بني إسرائيل بالعجل مع أن السامري نسبه إلى سامرة والسامرة بلد من فلسطين لم توجد في زمن موسى عليه السلام! وإنما اشتراها «عمرى» وهو الرابع من ملوك إسرائيل بعد أن انشقت مملكة اليهود إلى قسمين: قسم هو سبط يهوذا ومقرّه أورشليم وملوكه من ذرية داود وسليمان . وكان أول ملوك إسرائيل «يربعام بن ناباط» ورابعهم «عمرى» اشترى جبل السامرة وبنى تلك المدينة وجعلها مقر ممكلة إسرائيل. وذلك بعد موسى عليه السلام بنحو ثلاث وعشرين وخمسمائة سنة؟

والجواب على ذلك أن السامري ليس منسوباً إلى «سامرة» بل الى «شامر» بالشين في اللغة العبرية.

ويغلب أن تكون «الشين» في العبرية «سينا» في العربية فهو سامر، كما ينطقها أيضاً سبط افرايم بن يوسف، وقد كان رجال سبط يهوذا في بعض الحروب يمتحنون الرجل

ليعرف هل هو من سبط يهوذا أو افرايمي بأن يأمروه بأن ينطق «شبولت» -سنبلة- فإذا قال «سبولت» علم أنه أفرايمي. ومعنى شامر أو سامر كما هو النطق العربي والأفرايمي «حارس» فالسامري نسبة إلى سامر ونطقها في العبرية «شومير» من مادة: شمر؛ أي حرس[1].

ومثل هذه الشبهات التي يلقيها الشيطان ليلوكها المستشرقون والمبشرون وغيرهم، مهّدت لصاحب الفن القصصي في القرآن، وهو الذي كان في أصله رسالة جامعية -للكاتب محمد أحمد خلف الله- وبإشراف أمين الخولي- في آخر النصف الثاني من هذا القرن، وقد ناقشنا هٰذا الكتاب من قبل.

حديث السور المدنية:

ثم تأتي السور المدنية لتسجل لنا قضايا ذات خطر كانت مع موسى عليه الصلاة والسلام وقومه، وهناك سور ثلاث ذكرت زوايا من هذا الجانب وهو خبر موسى عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلاة الله وسلامه- مع بني إسرائيل.

فالسورة الأولى سورة البقرة كانت حافلة بالحديث عن بني إسرائيل وإن الذي يهمنا منه ما كان بينهم وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- لأن الحديث الذي كان عنهم في سورة البقرة كان تذكيرا لهم بنعم الله، ثم بيانا لموقفهم من هذه النعم كيف جحدوها، ثم بيان ما حل بهم، وقد استغرق الحديث عنهم ما يقرب الجزء من سورة البقرة.

فليست هناك سورة من سور القرآن الكريم، تحدثت عن بني إسرائيل -كما نجده في سورة البقرة-، ولقد كان الحديث فيها موجها إلى الذين كانوا في عهد النبي ﷺ؛ لذا نجدها تذكرهم بما أنعم الله على أجدادهم، كما تذكر جنايات أولئك الأجداد، تحذر أحفادهم مما صنعوا، والمتدبر لآيات السورة يدرك ذلك بسهولة ويسر،

(١) من كتاب قصص الأنبياء. عبد الوهاب النجار -ص٣٠٠-٣٠٥.

تذكرهم مثلا بإنجائهم من آل فرعون ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾، كما تذكرهم باتخاذ العجل ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ثم تذكرهم بنعم الله عليهم بعد أن نجاهم وخرجوا إلى البرّ حيث الحرارة والجوع والظمأ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ ليقيهم شر الحرارة ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾.

وهذه الأحداث كلها تحدثنا عنها من قبل، علىأن سورة البقرة عرضت أموراً لم تعرض من قبل ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وكان الذي ذُكر في سورة الأعراف هو طلب موسى رؤية ربّه ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ كما انفردت سورة البقرة بتلك الحادثة التي سميت بها هذه السورة الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ التي سنفصلها فيما بعد إن شاء الله.

لقد كان الحديث في سورة البقرة عن بني إسرائيل متعدد الجوانب، متنوع المجالات، وكان جله خطابا لذريتهم الذين كانوا في عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من أجل ذلك يظهر لي أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يحث المسلمين على أن يقرؤوا سورة البقرة، «اقرأوا الزهراوين: البقرة، وآل عمران فانهما تأتيان كأنهما غمامتان - أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن صاحبهما»(١) «اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وإن تركها حسرة، ولا تستطيعها البطَلة»(٢) والبطَلة السحرة الذين يموهون على الناس ليغيروا الحقائق، واليهود هم الذين بلغوا في ذلك مبلغاً، بل هم الذين نقلوا ذلك إلى الناس، وحث النبي ﷺ للمسلمين

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين حديث رقم ٨٠٤ باب ٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين حديث رقم ٨٠٤ باب ٢٥٢.

على قراءة سورة معينة ليس الهدف منه هدفا أخرويا فحسب، فنحن نعلم أن قارىء القرآن الكريم له بكلّ حرف عشر حسنات، أياً كانت السورة التي يقرؤها، إذن لا بد أن نبحث عن سبب آخر ونحن نجد النبي عليه وآله الصلاة والسلام يأمر بقراءة سورة معينة.

وسبب الحث على قراءة سورة البقرة -كما يظهر لي- أنهاأطول سورة في القرآن ذكر فيها الحديث عن اليهود، والله وحده يعلم ما سيكون بينهم وبين المسلمين، ولقد وجهت السورة الكريمة العقول، ووضعت الأيدي على كثير من الدقائق والحقائق التي تتصل ببني إسرائيل، حقّ على المسلمين أن يتدبروها، ليفوّتوا على اليهود كلّ فرصة، وحتى لا يُصاب المسلمون منهم بأي غصّة . ويقيني أن المسلمين لو أخلصوا وصدقوا وهم يتدبّرون هٰذه السورة الكريمة لفوّتوا على اليهود كثيراً من أنواع المكر ولضيّعوا عليهم كثيرا من خبيث الفكر، أليس في انفجار اثنتي عشرة عينا من الحجر درس عظيم يوجه الله المسلمين به، ليدركوا ما بين اليهود من حزازات، ولولا ذلك لاكتفوا بعين واحدة، وسأكتفي هنا بما جاء في هذه السورة سورة البقرة من قصة البقرة التي تظهر لنا بكلّ جلاء ليس فيه خفاء ما في هٰذه السورة من توجيهات ثرية؛ ليتبين للمسلمين كي يكونوا على حذر من أولئك الذين قست قلوبهم، ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

جاء في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ

ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧٤].

ولقد شغل المفسرون والعلماء قديما وحديثا بأمور، ولكن الذي كان يجب أن توجه إليه العناية، وفيه العناية الربانية والهداية، ما في هٰذه الآيات الكريمة، مما كان من اليهود، شغل بعض المفسرين قديما ببعض أوصاف البقرة، ممالا طائل تحته، وأما حديثا فلقد شغلهم أمران اثنان:

أما أولا: فلقد ذهب جمهورهم إلى حمل الآيات على ظاهرها، بينما ذهب الإمام الشيخ محمد عبده إلى تأويل هذه الآيات تأويلاً يتفق مع منهجه الذي يقوم على تضييق نطاق الخوارق، ولا أدعي أن الإمام كان ينكرها -معاذ الله- فأنا لا أرتاب في عقيدة الشيخ. يقول رحمه الله:

والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل، كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد، ولم يعرف قاتله، ليعرف الجاني من غيره. فمن غسل يده وفعل مارسم لذلك في الشريعة برىء من الدم، ومن لم يفعل يثبت عليه الجناية، ومعنى إحياء الموتى على هذا، حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وقوله ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فالإحياء هنا بمعنى الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين[١].

وهناك قضيةٌ أخرى أحب أن أذكرها ليطلع عليها القارىء المسلم، ليعرف من خلالها عناية علمائنا قديماً وحديثاً بهذا القرآن العظيم من حيث التفسير والتلاوة واستنباط القيم والأحكام، فأقول -وبالله التوفيق- ومنه وحده العون:

---

(١) المنار (١/ ٣٥١).

جمهور العلماء مفسرين وغيرهم على أن هذه الآيات الكريمة إبتداءً من الآية ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ... ﴾ [البقرة: ٦٧] إلى قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣].

هذه الآيات السبع قصة واحدة تتلخص في أن بني إسرائيل وجد فيهم قتيل فاختلفوا في القاتل. فسألوا موسى ﷺ. فقال لهم إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة إلى آخر ما قص القرآن علينا، ثمّ أمرهم أن يضربوه ببعضها، أي بجزء من هذه البقرة فضربوه فأحياه الله وأخبر عن قاتله، وعلى ما ذهب إليه الجمهور يكون في الآيات تقديم وتأخير حيث بُدىء الحديث عن هذه القصة بأمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة وكان الظاهر أن يُبدأ بالقصة من أولها ﴿وإذْ قتلتم نفساً فادّارءتم فيها، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها﴾. لذا نجد علماء التفسير يجهدون أنفسهم ببيان هذا الأمر، وهو لِمَ لَمْ تبدأ القصة من الحدث الأول وهو قتل النفس والاختلاف في القاتل. وبُدئت بما هو متأخرٌ عن هذا وهو أمرهم بذبح البقرة. ولنستمع إلى ما قاله العلامة جار الله الزمخشري:

«فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها. وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام. وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك.

والثانية للتفريع على قتل النفس المحرمة. وما يتبعه من الآية العظيمة. وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عُمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تثنية التقريع. ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت الأولى، دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في

قوله: ﴿ أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها أو أنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة(١).

هذا هو رأي الجمهور. وهناك رأي آخر ذهب إليه بعض العلماء في هذا العصر ومن هؤلاء الشيخ عبد الوهاب النجار، وأستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمهما الله تعالى وخلاصة هذا القول أن هاتين قصتان متغايرتان تبدأ إحداهما من قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً . . . ﴾ [البقرة: ٦٧] وتنتهي عند قوله سبحانه وتعالى ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١].

وتبدأ الثانية بقوله سبحانه ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٧٢] والآية التي بعدها ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ . . . ﴾ [البقرة: ٧٣].

ويستدل أولئك لما ذهبوا إليه بما يلي أولاً: لو كانت هذه الآيات السبع قصّة واحدة لكان حرياً أن ترتب ترتيباً طبيعياً. بحيث تذكر القصة من أولها وهو اختلافهم في القتيل ولكن ما جاء في كتاب الله لا يُفهم منه أنهما قصةٌ واحدة.

ثانياً: إن المتدبر للسورة الكريمة يدرك بكل وضوح أن الحديث عن بني اسرائيل اشتمل حوادث متعددة وقضايا متنوعة كان يبدأ كلُّ حدث بقوله تعالى «إذْ» وإذ كما يقول اللغويون ظرفٌ لما مضى من الزمان، أمّا «إذا» فهي ظرف لما يستقبل من الزمان.

فإذا تدبرنا الآيات الكريمة التي تتحدث عن بني إسرائيل في هذه السورة وجدنا قضايا متعددة تبدأ بقوله سبحانه «وإذ».

كانت القضية الأولى ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة: ٤٩] والثانية ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ [البقرة: ٥٠] والثالثة ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ . . . ﴾ [البقرة: ٥١] والرابعة ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ٥٣] والخامسة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ [البقرة: ٥٤] والسادسة ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ . . ﴾ [البقرة: ٥٥] والسابعة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [البقرة: ٥٨] والثامنة ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ

(١) الكشاف للإمام الزمخشري [١/ ١٥٤].

مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: ٦٠] والتاسعة ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] والعاشرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣] ثم الحادية عشرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ. . .﴾ [البقرة: ٦٧] والثانية عشرة ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا. . .﴾ [البقرة: ٧٢].

قالوا فهما قضيتان مختلفتان إذن، حدثت كل منهما على حدة وعلى هذا الرأي لا يكون معنى قوله سبحانه ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ راجعاً إلى البقرة كما هو رأي الجمهور، بل المعنى عند هؤلاء اضربوا المتهم ببعض أجزاء النفس الميتة، ولقد أطال القول في هذا الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله، وأنقل هنا بعض الذي قاله لأن نقله كله يطول بنا كثيراً، فلقد زاد ما ذكره في هذه القضية على ٦٠ صفحة:

«ولي في هذه الحادثة نظر آخر سوى ما ذهب إليه المفسرون، وهو أننا إذا نظرنا الى القصص التي قصها الله في هذه السورة قبل هذه القصة. . .وكلها متعلقة ببني إسرائيل - وجدنا كلّ قصة مستقلّة عمّا قبلها وما بعدها مبدوءة بقوله تعالى ﴿وإذْ﴾. . . فهذا النسق المطرد الذي لم يتخلف يجعل مسألة قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها غير مرتبطة بما قبلها ولا مدمجة فيها وقد حاك في نفسي أن هاتين القصتين تفهمان على ضرب آخر من الفهم وقد قوي عندي ذلك كل القوة.

أنا أعرضه على حضرات القراء؛ راجياً أن يعيره حضرات العلماء اهتماماً وأن يوافوني بما يرونه الصواب بعد قتل المسألة بحثا، حتى إذا ظهر لي الحق عدت إلى ما رسموا ضارباً بقولي عرض الحائط فلست بالمتعنت ولا بالمفتون بقولي ورأيي، ولا ممن تنزهوا عن الخطأ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ذلك أن القصة التي أمر فيها موسى عليه السلام قومه بذبح البقرة لم يكن الغرض منها الإتيان بكل ما اشتملت عليه واندرج فيها من الحالات والأحكام؛ بل الغرض أن يقص الله

تعالى على رسوله محمد ﷺ، نموذجاً مما بلغ إليه تعنت بني إسرائيل في إبطائهم عن امتثال أمر الله ومطاولتهم ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به، دون استيفاء القصة استيفاءً كاملاً يشتمل على بيان الحكمة الباعثة علىأمرهم بذبح البقرة،بل هو يقص علينا نمطاً من تعنتهم وصلابة أعناقهم وأمّا القصة الأخرى المبينة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] فإنه تعالى يقص علينا فيها لونا من أفضاله على بني اسرائيل وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم ولا لبشر ببال وظلت هذه الحكمة العالية المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة على بني اسرائيل وعلى جميع البشر الأجيال الطوال.

والذي فهمته من القصة الأولى أن بني إسرائيل قد وقعت عندهم واقعه قد حاروا فيها وهي أن شخصا قد قتل في الحقل. وهم لا يدرون من الذي قتله، والحقل واقع بين بلدان كثيرة فأي البلاد تلصق بأهله تهمة القتل؟ رفعوا أمرهم إلى موسى عليه السلام فما كان جوابه إلا أن قال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] ولما كان الجواب بعيداً في رأيهم عن الغرض الذي جاءوا لأجله وقع ذلك عندهم موقع الغرابة وقالوا لموسى عليه السلام ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ ولما كان موسى عليه السلام إنساناً صادقاً بعيداً عن الهزء والسخرية بعباد الله قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يهزؤون بعباد الله.

ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى عليه السلام وربه حتّى بيّن لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها أتم بيان ومع ذلك لم يمتثلوا بل ذبحوها بعد إذ كادوا لا يفعلون أي أنهم ذبحوها بعد جهد شديد.

أتى موسى عليه السلام برجال أقرب محلة من مكان القتيل وأحلفهم عليها بعد ذبحها، أي وهي أمامهم أنهم ما قتلوا القتيل ولا علموا به وأنهم برآء من دمه وكانوا يغسلون أيديهم على البقرة كما فصّل ذلك في التوراة.

. . . . وأما القصة الثانية وهي قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ فهي في شأن قتيل وجد قتيلاً في بيته أو محلة قومه أو سقط في معركة فيها جماعة، وقد دفع كل واحد القتل عن

نفسه، ولم يتعين قاتله تماماً. وكل واحد يتهم سواه بالقتل. وحينئذ يكون المتهمون محصورين. والقاتل لا يخرج عنهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱدَّٰرَءۡتُمۡ فِيهَاۖ﴾ ولما كان الله تعالى مخرجاً ما يكتمون من القتل علمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء أو هي على الأقل تضيّق دائرة الاتهام وتوجه نظر القاضي إلى استنباط الأدلة على المتهم أو من له إتصال بالقاتل.

ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربوه بجزء من تلك النفس أي من القتيل وهو متصل ببقية الجسم بأن يأتي واحد ويضرب المتهم بيد القتيل أو رجله، فإذا كان المتهم بريئاً لم يحدث له شيء، وإذا كان قاتلا ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه، أو هو على اتصال به.

وهذا الانفعال قد يكون فرحاً وجذلاً، وقد يكون خوفا ورعدة تبعاً لسبب القتل وهذا الأمر يرجع إلى أحوال الغرائز النفسية والى العقل الباطن في الإنسان ذٰلك أنّ القاتل حين يباشر الجريمة -وبخاصة القتل- يكون واقعا تحت تأثير انفعال خاص يغلي منه دمه، يدفعه ذلك الانفعال الى ارتكاب جريمة القتل، فإذا سكن ثائرهُ وهدأت أعصابه، وزال ذلك الدافع الذي أكسبه الجرأة حتى طوعت له نفسه ارتكاب الجريمة عاوده الندم، وتبكيت الضمير، وصار شبح الجريمة مخيفاً في نظره، ويتمثل له شبحها في كل شيء يتعلق بها، فهو يكره رؤية مكان الجريمة والأشياء التي رآها رؤية مقارنة لارتكابها، وتضطرب نفسه ويرتفع نبضه ويسرع إذا ذكر بشيء من الجريمة....[١].

وسواء أكنت أنا وأنت أيها القارىء الكريم مع الجمهور فيما ذهبوا إليه، أم مع الفضلاء أصحاب الرأي الآخر. فليس في الأمر حرج. وكتاب الله تبارك وتعالى يتسع للفكر البشري إذا تهيأ للناظر حسن النية، والعلمُ وصفاء القريحة، ويقيني أن هذه الثلاثة أعني حسن النية والعلم وصفاء القريحة، هي مما أكرم الله به أئمتنا قديماً وحديثاً فجزى الله الجميع عن كتابه ودينه ونبيه خير الجزاء.

---

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٣٥٤-٣٥٧.

ولكن الذي أود أن أقف عنده في الآية الكريمة -وتقف معي أيها القارىء كذلك- ويقف عنده العلماء من ذوي الفضل. هو ما أرشدت إليه الآيات الكريمات. ما أرشدت إليه من توجيهات للمسلمين وبخاصة أولي الأمر. وذوي الثقافة ممن أنيطت بهم المسؤوليات الجسام، توجيهات تبين لنا كيف نتعامل مع أولئك العدوّ الماكر، تحدثنا عن طبيعتهم، ولقد قلتُ من قبل إن أمر النبي عليه وآله الصلاة والسلام للأمة بقراءة سورة البقرة. لم يكن بهدف أخروي فحسب ولم يكن لزيادة الحسنات وحدها. فالقرآن كله كذلك، وإذا أنعمنا النظر فيما صح من أحاديث عن رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، تحث المسلمين على قراءة سور من كتاب الله فسنجد أن هناك دروساً تتصل بمصلحة هذه الأمة، وقد يمر معنا شيء من هذا إن شاء الله، فهذه الآيات الكريمة تبين لنا هٰذه المواقف التي وقفها بنو إسرائيل.

فها هو كليم الله يكلمهم، أقول يكلمهم ولا أقول يأمرهم فإن الأمر الموجه إليهم من الله تبارك وتعالى. هكذا تقول الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً . . .﴾.

لقد عرفوا موسى عليه السلام في أحلك الظروف وأكثر المواقف شدة عرفوه وهم عند البحر فقالوا إنّا لمُدْركون، وعرفوه حينما قالوا له ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ عرفوه وهم في حرارة الصحراء حيث ظللوا بالغمام، وهم في شدة الجوع والظمأ، عرفوه رسولاً كريماً وصدق الله ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ ثم استمعوا إليه ووعوا مقالته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حتى لو كان هو الآمر -ﷺ- لكان من المستهجن والمستنكر والمستقبح أن تصدر عنهم هذه المقالة ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لكن ما نفهمه من الآية الكريمة أن أولئك ليس لله مكانةٌ في قلوبهم فضلاً على أن تكون لنبيه الكليم الكريم.

كيف يتأتى لهم أن يقولوا ذٰلك لمن عرفوا صدقه، ولمن كان له الفضل عليهم بعد الله وهو يوجه إليهم امر ربهم بهذه الصراحة ؟!

كيف يتأتى أن يقولوا هذه المقالة المنكرة ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ يا لفظاعة الأمر! حينما تكون القلوب خاوية، خالية من العقيدة الحق.

ولكنه ﷺ يكون أكثر رفقاً، وكذلك الأنبياء ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ثم يبدأ هذا الحوار بل الجدل الوقح، الذي يكشف عن هذه الطبيعة العجيبة ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ الذي طَلب منهم أن يذبحوا بقرة. أي بقرة لكنهم وقد طُبعوا على ما طبعوا عليه من مكر وخداع وتلاعب بالألفاظ والأعراف والعقول، حتى مع من كان له أعظم الفضل عليهم. ثم علامَ يدل هذا القول ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؟؟ ويستمر الجدل إلى أن قال الله سبحانه ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وهنا نتساءل بل نسأل أولئك الذين يحسنون الظن باليهود أو يحسنون الظن بمن يظنُ باليهود ظناً حسناً. نسأل هؤلاء وأولئك إذا كان هذا موقفهم من الله ومن رسول الله موسى الكليم الكريم عليه السلام فكيف يمكن أن يكونوا مع من بلغ الضعف منهم مبلغاً؟

إن قصة البقرة التي سميت أطول سورة في القرآن بها، جديرة بأن توجه إليها الجهود، جهودٌ مجتمعه، من ذوي التخصصات المتعددة علماء الشريعة، والنفس والاجتماع وغيرهم؛ لتمدّ هذه الأمة بكثير من القواعد التي ما أمس حاجتنا إليها ونحن نتعامل مع أولئك.

ولقد أثبت الواقع بعد بضع سنين من مؤتمر أوسلو بمدريد، وبعد أن وقع الموقعون اتفاقيات بينهم وبين اليهود، أثبت الواقع أن القوم لا يلتزمون بعهد ولا يوفون بميثاق، ولعل ما سمعناه، قبل أيام -من رئيس وزرائهم من أنه لا يستطيع أن يعطي للأردن كمية المياه التي حددتها الاتفاقيات بين البلدين يصدّق ما قلنا، وهذا ديدنهم دائماً، ما أكثر العبر في قصة البقرة بل ما أكثر ما يجب أن نتعلمه من سورة البقرة، وهي تبين لنا الركائز الرئيسة في كيفية التعامل مع أولئك القوم.

والذي يهمنا ما كان بينهم وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- وأول ما تسجله لنا السورة الكريمة هذا الذي يدل على تعنتهم وذبول الحسّ الديني وضآلة عقيدة التوحيد عندهم، حينما قالوا لموسى -عليه الصلاة والسلام- لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، مع أن الله تعالى آتى موسى عليه السلام الكتاب والفرقان لعلهم يهتدون، ولقد سجل القرآن ناعياً عليهم في موضع آخر وهو ما جاء في سورة النساء تبياناً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام وتسلية وتقريعاً للخلف منهم بعد السلف حيث قال الله:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٣-١٥٦].

كذلك حدثتنا سورة البقرة عن قول موسى عليه السلام لهم ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤]. ثم تحدثنا السورة عن قضية أخرى تنبيء عن انحدار في الفكر، وجحد للنعمة ومجانبة للعلو ورغبة في التدنّي، وتخير لما هو أقل شأناًونفعاً، وذلك هو قولهم كما حدثنا القرآن لموسى -عليه الصلاة والسلام- وقد أكرمهم الله بما هو أزكى طعاماً قولهم ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾. ورحم الله ابن الجوزي إذ يقول: «يستدل على عقل العاقل، بسكونه وسكوته، ومراقبته للحوادث فلا تستفزه شهوة عقباها ضرر عاجلة وتراه ينظر في الآفاق فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل ويتجنب ما يخاف ضرره ويستعد لما يجوز وقوعه».

فأين ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله من أولئك!!.

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨-٦١].

وأخيراً تحدثنا سورة البقرة عما كان بينهم وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- في أمر القتيل الذي خفي قاتله حيث قال لهم موسى -عليه الصلاة والسلام- إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة. وتصور لنا الآيات الكريمة اللجاج والتعنت وقلة الاستبصار. ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا

هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ويبدأ تمحّلهم وتعنتهم حيث أمروا أن يذبحوا بقرة أي بقرة يمكن أن تغنيهم، ولكنهم بدأوا يسألونه عن سنها ووصفها ولونها، وكان لا بد أن يعاملوا بما يستحقون، فالبقرة لا فارض ولا بكر هي عوان بين ذلك وسط في سنها، ولكنهم لا يكفيهم ذلك فيسألون عن لونها ويقال انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، ومع هذا كله فلم يكتفوا بذلك وفي كل مرة يقولون ادع لنا ربك يبين لنا، فقد تشابه البقر علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون، ويجيبهم موسى -عليه الصلاة والسلام- إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض، ولا تسقي الحرث فليست من نوع البقر الذي أعدّ للعمل، ثم هي بعد ذلك مسلمة لاشية فيها، ومع ذلك يقول القرآن عنهم بعد أن قالوا الآن جئت بالحق، يصور نفسيتهم وشدة عنادهم فذبحوها وما كادوا يفعلون.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

وهذه الآيات الكريمة -آيات قصة البقرة التي سميت السورة باسمها- لأعظم دليل على إعجاز القرآن الكريم لا من حيث النظم فحسب، ولكن من حيث التسجيل على بني إسرائيل وتعليمهم ما لم يعلموا ونحن لا نذهب في تفسير الآيات الكريمة مذهباً يخالف اللغة والسياق فلا نحملها على التمثيل كما ذهب إليه الاستاذ الإمام محمد عبده -رحمه الله-(١).

هذا ما جاء في سورة البقرة عما كان بين موسى عليه السلام وبين بني إسرائيل.

(١) راجع تفسير المنار: جزء (١). في تفسير الآيات.

٢- ثم تأتي سورة **الصف** وهي تحث المسلمين على أن يُوحّدوا صفاً وهدفاً ورسالة. تأتي لتلهب مشاعرهم وتشحذ هممهم على أن يكون قولهم وعملهم سواء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ۝﴾ [٢-٣].

ثم تعرض السورة الكريمة ما كان بين موسى -عليه الصلاة والسلام- وبين قومه تحذيراً للمسلمين وحاشاهم أن يسلكوا مع نبيهم ما سلكه اليهود مع نبيّهم موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الآية: ٥]، والآية صريحة وهي تصور لنا إنكار موسى عليه السلام على قومه ومساءته منهم، ينكر عليهم إيذاءه وهم مستيقنون من أنه رسول الله إليهم، وقد رأوا المعجزات والآيات، وفي كلمة ﴿قد﴾ التي هي للتأكيد خير دليل على ذلك.

إنهم متأكدون من رسالته كل التأكد، ولكن مع ذلك لم يُجْدِهم أسلوب التلطف والتودّد ولم تخترق الحجة قلوبهم بل زاغوا عن الحق وعن كل حجة وركبوا متن الغواية ولزموا جانب اللجج فلما كان منهم ذلك ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، فليس من حكمة الله وليس من العدل كذلك أن يهدي القوم الذين استمرأوا الفسق، وهذا الإيذاء حُذِّر منه المؤمنون في قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ وهو إيذاء يشمل أكثر من جانب، يشمل الجانب الخلقي والشخصي كما يشمل الجانب المعنوي وجل المؤمنون عن هذا وهم الذين قال قائلهم -والسيف فوق عنقه- والله لا أحب أن أكون في أهلي ومالي وأن تشوك محمداً شوكةٌ».

اسرت قريش مسلماً في غزوة	فمضى بلا وجل إلى السياف
سألوه هل يرضيك أنك سالم	ولك النبي فدى من الإتلاف
فأجاب كلا لا سلمت من الردى	ويصاب أنف محمد برعاف

٣- ثم تأتي سورة **المائدة** وهي آخر الحلقات التي تحدثت عن قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- مع بني إسرائيل، بل عنه ﷺ بل هي كذلك كانت تتحدث عن آخر عهده -عليه الصلاة والسلام- في هذه الدنيا.

بدأت الآيات بقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ذكرهم بهذه النعم الثلاث أن كان منهم أنبياء -والأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام يتعبدون بشريعته- وجعلكم ملوكاً وهذه هي النعمة الثانية، وفي هذا إشارة إلى ما منّ الله به عليهم من حرية بعد أن كانوا مستعبدين أرقّاء، وكانت النعمة الثالثة أنْ آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين الذين كانوا في زمانهم حيث منّ عليهم بالحرية -كما قلنا من قبل- وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسلوى ومن لطائف الإعجاز في هذه الآية أنها قد ذكرت كلمة قوم مرتين، وهذاعلى عكس ما رأيناه في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وسورة البقرة ففي سورة إبراهيم ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾.

وفي سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾.

أما هنا ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ﴾ فجملة النداء لم تذكر إلا في سورة المائدة. وما أحسب ذلك -والله أعلم بما ينزل- إلا لخطر ما ذُكر في هذه السورة وعظم شأنه. وهي قضية تتصل ببني إسرائيل إتصالاً يُحدد -مصيرهم. وهي القضية التي استغلّها اليهود زوراً وبهتاناً عندما ضعفت هذه الأمة، ونبذت هويتها، وفقدت حميتها، وسنتحدث عنها إن شاء الله تعالى.

ثم يقول موسى لقومه ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾. ولا بد من وقفة هنا لنبين أن قوله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ لا يعني أنه ملّكهم إياها لتصبح حقاً لهم لا يشاركهم فيها أحد، وإنما كل ما تدل عليه الآية الكريمة أنه كتب لهم دخولها ومكنهم من سكناها شريطة أن يقيموا شرع الله ولا يمكن أن

يكون ذلك على سبيل التأبيد بل التوراة التي في أيديهم لا تثبت ذلك كذلك، والآية الكريمة تثبت ذلك وتؤيده ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَـٰسِرِينَ﴾.

قال صاحب المنار محمد رشيد رضا -رحمه الله- «فقوله تعالى: كتب الله لكم» يريد به موسى عليه السلام ما وعد الله به إبراهيم عليه السلام، يعني كتب لهم الحق في سكنى تلك البلاد المقدسة بحسب ذلك الوعد، أو في علمه، وليس معناه أنها تكون ملكاً لهم دائماً إلى الأبد، أو لا يزاحمهم فيها أحد لأن هذا مخالف للواقع ولن يخلف الله وعده. فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنه لا بد أن يعود لهم الملك في البلاد المقدسة غير صحيح. ويحسن هنا أن نذكر نص التوراة العربية الموجودة الآن في هذا الوعد: جاء في سفر التكوين أنه لما مر إبراهيم عليه السلام بأرض الكنعانيين ظهر له الربّ «١٢: ٧ وقال لنسلك أُعطي هذه الأرض» وجاء فيه أيضاً ما نصه «١٥: ١٨في ذلك اليوم قطع الربّ مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» وهذا الوعد ذكر في سفر التكوين قبل ذكر ولادة إسماعيل عليه السلام. وجاء فيه بعد ذكر ولادة إسماعيل له ووعد الله بتكثير نسله وبكونهم يسكنون أمام جميع إخوتهم (١٧: ٨: (وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم) فهذا وذاك يدلان علىأن العرب أولى أولاد إبراهيم عليه السلام بأن يكونوا أول من تناولهم العهد والميثاق والوفاء الأبدي لا يتحقق إلا به. والأمر كذلك فقد أصبحت تلك البلاد كلها عربية محضة، وليس فيه بعد ذكر ولادة إسحٰق عليه السلام وعد لإبراهيم عليه السلام مثل هذا ببلاد ولا بأرض ولكن فيه أنه يقيم معه عهداً أبدياً لنسله. وأن هذا العهد لإسحق دون إسماعيل عليه السلام فما هذا العهد؟ إن كان عهد النبوّة فالواقع أنها ليست أبديّة في نسل إسحٰق عليه السلام لأنها انقطعت بالفعل منهم من زهاء ألف سنة وكان خاتم النبيين من ولد إسماعيل عليه السلام. وإن كان عهد امتلاك الأرض المقدسة فهو لم يكن أبدياً فيهم لأنّها نزعت منهم قبل العرب ثم أخذها العرب وصارت لهم بالامتلاك السياسي، ثم بالامتلاك الطبيعي، إذ غلبوا على سائر العناصر التي

كانت فيها ، وأدغموها في عنصرهم المبارك الذي وعد الله إبراهيم عليه السلام بأن يباركه ويثمره، ويكثره جداً جداً ويجعله أمة كبيرة (راجع ١٧ : ١٨ من سفر التكوين)(١) ولكن بني إسرائيل الذين عاشوا في أصفاد الذل وقيود العبودية فأثر ذلك كله في نفسياتهم يقولون لنبيّهم ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾، هم أشد منا خلقاً وبأساً وشكيمة ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾، نحن لا نماري في دخولها لكن كل الذي نريد أن يخرجوا أولاً فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، يا ويل الضعفاء من الأقوياء. في هذه الإرشادات القرآنية دروس لو وعيها المسلمون استعصوا على كل مُخبِّل.

إن الآيات الكريمة ترشد إلى أن الأمم التي تستمرىء الذل لا تصلح لتسوس نفسها فضلاً على أن ترد بأس عدوها إن الشعوب التي يراد لها أن تعيش مكممة الأفواه مطأطأة الجباه مسلوبة القدرة على الاتجاه مبلدة الإحساسات عديمة الانتباه، إن مثل هذه الأمم لن يكون لها دور إيجابي في الحياة. والحوادث كثيرة يشهد بها التاريخ البعيد وغير البعيد وما لنا نبتعد كثيراً وها هو الواقع خير شاهد والله أكبر شهادة.

إن العصر الذي نعيشه فيه أمثلة متعددة على ما يرشد إليه القرآن الكريم وإلا فكيف اندحرت الجموع الأرجنتينية القريبة من جزر «فوكلاند» بهذه السرعة؟ وفي مقابل هذا كيف استطاعت بعض الشعوب في جنوب آسيا أن تتصدى للقوة الأمريكية العاتية؟ وأخيراً لا آخراً كيف يصمد الشعب الأفغاني المسلم أمام القمع الشيوعي الكافر والتحدي الروسي البغيض؟(٢).

إن هناك فروقاً بين نفسيات الشعوب التي أريد لها أن لا تمتلك حتى قلم رصاص لتسطر به أحلامها وآمالها ومستقبلها وتسجل به ماضيها وحاضرها، وبين الشعوب التي

---

(١) تفسير المنار، ج ٦ ص٣٢٦.

(٢) ما أشد الألم الذي يملأ النفوس ! كتبت هذا عن الشعب الأفغاني في الكتاب الأول سنة ٨٧ قبل اثنتي عشرة سنة.

ولكن المسؤولين في هذا الشعب خيبوا آمال المسليمن في مشارق الأرض ومغاربها، ولقد أزهق من النفوس وأُريق من دماء الشعب الأفغاني أضعاف ما ارتفع من الشهداء في حرب التحرير. =

يعد ذلك حقاً طبعياً لها. وما أصدق كلمة ذلك الأسير في حوار بينه وبين العدو وقد قال إجابة عن سؤال لقد ربّانا حكّامنا على أن نخاف ونجبن أمامهم فلم لا نخاف ونجبن أمامكم أنتم؟

كل هذا ترشد إليه الآية القرآنية وهي تحدثنا عن بني إسرائيل بأوجز العبارات وأخصرها ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾.

هكذا قالوا ﴿ قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ وهم يعنون من كانوا في فلسطين، ولم يكونوا من المسلمين، وفي معركتنا مع اليهود التي مضى عليها خمسون سنة، تلاقي الأمة من الهوان والضياع ما أرغمت عليه، وكلما تسنى لهذا الشعب المسلم أن يتخلص من قيوده وأغلاله، وجدنا منه ما يشبه المعجزات -ولا اقول المعجزات لان المعجزات إنما هي للرسل عليهم الصلاة والسلام -وجدنا ذلك في نيلهم من عدوهم، وكيف يمكن أن ننسى أعوام الانتفاضة المشرقة في فلسطين؟ والواقع خير شاهد، وها نحن نرى اليوم ما يلاقيه اليهود من المقاومة الإسلامية بعامّة في لبنان، وحزب الله بخاصة، ولو أن الشعب المسلم تسنى له ما يحبّه من التضحية لوجدنا الأمر على غير ما هو عليه الآن.

إن عدونا الذي بيّن لنا القرآن الكريم كيف يجب أن نتعامل معه، لا يودّ أن تكون له الغلبة في المعركة العسكرية وحدها، وفي فلسطين فحسب، بل إن مراميه أبعد من هذا، إنه يعمل جاهداً دَأَباً ليل نهار من أجل أن يقضي على كل جذوة للإسلام، ولا أقول للمسلمين فحسب، في كل شبر من أرض الله، وها هو يتحسّس في العالم كله من أجل أن لا يترك موطىء قدم، لمن يؤمنون بعزة الله ورسوله والمؤمنين. . . لقد كانوا أول من وصل إلى الدول المسلمة في الاتحاد السوفييتي. . .أكتب هذه السطور والمسلمون في (كوسوڤو) تهدم بيوتهم، وتبقر بطونهم على مرأى ومسمع من الدنيا، والمسلمون يتظاهرون بأن ذلك يعنيهم فيرسلون الأغطية والأدوية.

أما اليهود فهم كما حذرنا القرآن الكريم يتظاهرون بما يكسبهم ثناء في العالم، وها هي الوكالة اليهودية تسعى لجمع التبرعات، وها هي تبعث الطائرات الكثيرة المملوءَة بالمساعدات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلقد نقلت وكالات الأنباء تصريحاً لوزير خارجية اليهود (شارون) الذي لطخت يداه بدماء المسلمين في صبرا وشاتيلا وغيرهما، ولكن كثيرا من ذوي المسؤولية في هذه الأمة يضغطون وهم يصافحون هاتين اليدين النجستين، أقول: يصرح هذا وهو في الولايات المتحدة الأمريكية التي تمد إسرائيل بكل المعنويات والماديات. يقول: ينبغي أن نحذر تماما وأن نعمل جاهدين حتى لا ينال المسلمون في كوسوڤو استقلالهم عن الصرب، كي لا ينضموا إلى ألبانيا؛ لأن ذلك قد يوقظ فيهم جذوة الإسلام... هكذا يخطط عدونا، مع أنهم يعلمون أن ألبانيا كانت أبعد شعوب الاتحاد السوفييتي عن الإسلام، لكنهم كما قلت لا يودون أن تقوم لهذا الإسلام قائمة على اي شبر من أرض الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وصدق الله ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾.

فإلى متى سيظل المسلمون في رقدتهم وفي غفلتهم؟ ورحم الله شوقي:

يا رب هبت شعوب من منيتها ... واستيقظت أمم من رقدة العدم

فمتى يستيقظ المسلمون من رقدة العدم؟! إلى متى يعضون أيديهم حسرة وندماً؟ مع أنهم أكرمهم الله بما لم يكرم به أحداً من الأمم، أكرمهم بدينٍ فيه أشرف المبادىء والقيم، وبخيرٍ ماديٍّ لم تملك أي أمة مثله أو قريباً منه ومع ذلك فهم في ذيل الأمم سائرون ورحم الله شوقي.

بأيديهم نوران ذكرٌ وسنّةٌ ... فما بالهم في أحلك الظلمات

ونصل الحديث على هذه المائدة الطاهرة الشهية التي حرمها المسلمون ليعيشوا على فتات موائد الآخرين . . . الله، الله!! وصدق الله ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾، لقد بين لنا القرآن الكريم كيد أولئك، وها هو يحدثنا في سورة آل عمران، كيف أنهم يدبرون ما يظنون به أنهم يستطيعون زعزعة العقيدة في نفوس المسلمين، وهم يقولون ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾، يقول بعضهم لبعض إذا أردتم أن تزلزلوا العقيدة في نفوس المسلمين، فتظاهروا أنكم آمنتم بدينهم، وبيّنوا إعجابكم بهذا الدين، ثم اكفروا به بعد حين، وقولوا لهم بعد أن اطلعنا على دينكم لم نجده دين حق. . . هكذا ويرد الله عليهم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾.

ولنواصل الحديث عن الآيات الكريمات:

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾، يحتمل أنهما ممن يخافون الله كما يقول كثير من المفسرين، ويمكن أن يكونا من الذين يخافون الجبارين، ولعل المفسرين رجحوا الأول لقوله تعالى: ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ مع أن هذا القول الكريم ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ لا يتنافى مع كونهما من الذين يخافون الجبارين.

والذي يهمنا أن نقف عند مقالة هذين الرجلين لأن لنا فيها غرضاً، ولنا فيها هدفاً فألق لها السمع. قال هذان الرجلان ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ والذي نلمحه من كلام الرجلين اللذين أنعم الله عليهما، ويمكن أن يكون هذا الإنعام بما فتح الله به لهما من قضايا الحرب ومعاملة العدو. ودليلنا على ذلك مقالتهم التي سجلها القرآن ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ إنها تشير إلى عامل المباغتة، المباغتة التي رأينا العدو لا يدعها في حروبه جميعاً وما أجدر المسلمين أن يأخذوا من كتاب الله وآياته ما يرشدهم في أحوالهم جميعاً حرباً وسلماً ومع ذلك كله

فلقد أبى بنو إسرائيل أن يستجيبوا لهذين الرجلين الناصحين وقالوا مقالتهم الشنيعة المنكرة التي سجلها القرآن ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ وإننا لنفخر من جهة ونتضاءل ونتقوقع من جهة أخرى حينما نَذْكُرُ مقالة الآباء الأول رضي الله عنهم وجزاهم الله عنّا خيراً لسيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام: لا نقول لك كما قال أصحاب موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. يالَمجد الآباء ويالضياع الأبناء!!.

بعد هذا لم يبق لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ شيء يقوله بعد هذا التطواف، وبعد هذه المعاناة، وبعد هذا الحنو، بعد ذلك كله وكأنه تمر بمخيلته وبمذكرته تلك الأحداث جميعها منذ أن استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه إلى أن أكرمه الله بالرسالة فطلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، إلى غير ذلك من الأحداث المتوالية التي بذل فيها جُهْداً ولقي فيها جَهْداً لا يسعه إلا أن يقول، وتلك آخر مقالة له يسجلها القران، بل لعلها آخر مقالاته في حياته كذلك؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ انتقل إلى ربه بعدها ولهذا لم يحدثنا القرآن عن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد هذه المقالة أي حديث ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ إنه اعتذار إلى الله وإنكار على أولئك جميعاً، هكذا بكل حسرة ومرارة وبكل رقة واستعطاف ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1] بعد هذا التطواف لا يسع موسى عليه السلام إلا أن يجأر لربه بهذه الكلمات طالباً منه أن يفصل بينه وبين أولئك الذين كان الفسق طبيعة لهم وسجية فيهم، وكان حقهم بعد ما رأوا من الآيات أن يكونوا ربانيين قديسين ولابد أن نشير هنا إلى أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصرح بأنه لا يملك إلا نفسه وأخاه، لا يملك أحداً وكان من المتبادر أن يذكر الرجلين الناصحين ولكنه لم يذكرهما كذلك؛ كأنه لا يثق بأحد أبداً وما أجمل ما أشار إليه الزمخشري: «فإن قلت: أما كان معه

---

(١) وهذا يذكرنا بما قاله من قبل حينما اتخذ قومه العجل ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.

الرجلان المذكوران؟ قلت: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه وتلوّنهم وقسوة قلوبهم فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في امره»(١).

ويقول الله لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ محرمة عليهم ولقد صدق الله وعده فلم يدخلها أولئك الذين قالوا لموسى عليه السلام ما قالوا، وكان جزاؤهم هذا التيه الذي حدثنا عنه القرآن فلا يصيبنك الأسى على القوم الفاسقين.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

الحكمة من كون الأرض المقدسة هي آخر الحلقات التي ذكرت في القصة:

ولأمر ما أراد الله أن تكون آخر الحلقات في قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قصة الأرض المقدسة لا لأنها آخر أيام حياته ﷺ فحسب، ولكن لأن ذلك التوجيه القرآني يدل أول ما يدل على أن ذلك هو أول ما يعني المسلمين من هذه القضية، قضية الأرض المقدسة التي أبى اليهود دخولها؛ لأن فيها قوماً جبارين ثم دخلوها ولكن بعد ذهاب نبيهم وانتقاله إلى ربه فعاثوا فسلط عليهم، وبقيت الأرض المقدسة تتعاقب عليها

(١) الكشاف: جزء١، ص٦٢٢.

الأمم، ولكن أعظم فتح وأغلى مهر هو ذلك المهر الذي مهرها إياه المسلمون الذي استمر هذه القرون الطويلة حتى استطاع اليهود بمعونة دول البغي وبإضعاف كلمة المسلمين أن يدخلوها مرة أخرى ليسلبوا خيراتها ويشردوا أهلها، ورحم الله صاحب المنار السيد رشيد رضا الذي كان يحسن الظن فكان يرى أن الأمم النصرانية لا يمكن أن تساعد اليهود على أن يأخذوا فلسطين[1]، وأحب هنا أن أقرر الحقائق التالية:

حقائق لا بد من بيانها:

أولاً: إن فلسطين التي جبلت تربتها بدماء الشهداء والتي ربطت برباطين عظيمين كان أحدهما بأشرف بقعة من بقاع السموات، وكان الآخر بأشرف بقعة من بقاع الأرض في المسجد الحرام حيث أُسْرِيَ بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا لا يمكن أن تبقى بيد أولئك اليهود، أنى كان تصرف حكام هذه الأمة في شتى دولها إذ لم ينفعهم تقربهم من اليهود شيئاً ولكن حينما يوجد الجيل الذي يستحق وسام النصر وشرف النصر سيكرمه الله بذلك وصدق الله ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ثانياً: لقد أثبت الواقع الذي لا ينازع فيه أحد بالأرقام الدقيقة أن كل الذي استطاع أن يحصل عليه اليهود من أرض فلسطين حتى دخول الجيوش العربية سنة ١٩٤٨ كان ٥ر٦٪ فقط، وهذه النسبة الضئيلة منها ما أخذوه بوساطة الإنجليز أصحاب وعد بلفور الذين كانوا يحكمون فلسطين، أو اشتروه من أصحاب الأملاك الكبيرة من غير الفلسطينيين[2] ومنه ما اشتري بوساطة بعض العملاء والسماسرة، هذا كله على رغم الضيق والصعوبة التي كانت تقصدها حكومة الإنجليز حتى يزهدوا الناس في أرضهم فيتخلوا عنها لليهود، ولكن القوم قاوموا ذلك كله ومع ذلك فالمكر الصهيوني دائماً

(١) راجع تفسير المنار: الجزء ٦.

(٢) تراجع حقائق عن قضية فلسطين للحاج أمين الحسيني رحمه الله.

يحاول أن يوجد الهوة بينهم وبين إخوانهم ليشوه سمعتهم، ومن الحق أن نسجل هنا ما كان من جهد طيب للحاج محمد أمين الحسيني رحمه الله تعالى مفتي فلسطين الأسبق الذي ظلمه الناس كثيراً لا لشيء إلا لأنه لم يستكن كما استكان كثيرٌ من حكام هذه الأمّة رحمه الله تعالى.

ثالثاً: إن أي تنازل عن شبر واحد من أرض فلسطين لا يجوز في شرع الله والله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وكل من يجيز ذلك فهو مخادع خارج عن الحق مُوادٌّ لمن حادَّ الله ورسوله.

رابعاً: إن محاولة التفريق بين الصهيونية واليهودية لا تقوم على أساس تاريخي أو ديني أو واقعي كذلك؛ ولئن كان بعض الناس يريدون أن يفرقوا بينهما عن حسن ظن أو جهل في الأمور أو ضرب من النفاق السياسي فإنه لن يغني عنهم شيئاً، وقد سُقط في ايديهم بعد أن برهن الواقع على غير ما يقولون.

وينتهي هذا الجانب أعني قصة موسى وهارون عليهما السلام مع بني إسرائيل.

كلمة بعد المعاهدات والإتفاقيات:

ولا بد من كلمة هنا بعد هذه المؤتمرات الكثيرة، والمؤامرات التي هي أكثر منها والمعاهدات والاتفاقيات، التي لم تثبت واحدة منها ثمرتها حتى الآن لقد اختلفت آراء الناس ومواقفهم، فأولو الأمر ومن في ركابهم هو سائر وفئةٌ ثالثةٌ من الذين يعدون الحياة سهرة ليلة، ومن على شاكلة هؤلاء واولئك يصفقون بالأكف ويضربون على الدف، مبتهجين بما يسمونه سلاماً، والله يعلم أنه لا يمتُّ إلى السلام بصلة إن سينه سُمّ، ولامه لوثة وألفه إهانه، وميمه محنة وهناك موقف آخر لاولئك الّذين لا يستهويهم البريق الكاذب وغرور اللمعان، والتهويش الفاقع، وإيحاءات وسائل الإعلام، يرون أنها أماني لن تبلغ بالناس إلى ما يريدون. ونحن ننظر إلى هذا الواقع نظرة غير هوجاء، ذلكم لأن حكمنا عليها مستمدٌ من حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إن الحق المزعوم

لليهود في فلسطين، والذي أيدتهم فيه دول الغرب، وفي مقدمتها أمريكا، وإنجلترا تعويلاً على ما جاء في أسفار التوراة ليس له دليل يسنده أو برهانٌ يؤيده، وما كان اليهود ليؤسسوا دولة، لو أن في المسلمين شيئاً من قوة، ولا أعني بالقوة قوة السلاح، **فما نظن** أن هناك من كدس السلاح بعضه فوق بعض مثلُ دولنا، ولكني أعني بالقوة **قوة الإيمان** بالحق، ولن يكون هذا إلا بعد أن نعرف عدونا، ولقد رأينا مع كلِّ أسف أن الدول العربية في أقصى المشرق والمغرب بدأت تتسابق مترهلة مهرولة من أجل أن تنشىء علاقات بينها وبين اليهود، فأين هذا الموقف موقف الضعيف المريض، الذي ينتفخ ورماً من موقف العدو الذي لم يعبأ بأكبر المتنفذين في فرنسا وإنجلترا حينما ذهبوا إلى القدس فلم يلقوا من اليهود أيَّ تكريم بل لقوا شيئاً آخر غير هذا.

إن الموقف الذي نستند إليه موقفٌ صلب ثابت. إن وضع اليهود في قلب بلاد المسلمين فلسطين. خرّاج في جسم كبير، فإما أن يقاوم الجسم هذا الخراج، ولن يقاومه إلا إذا كان ذا مناعة قوية وإما أن يقوى هذا الخراج ويستفحل ليسلب الجسم كل قوته.

والناس في حيرة من أمرهم، إن اليهود أنفسهم يدركون تمام الإدراك أنه لا بقاء لهم إلا بما يغرسون في الأمّة من فيروسات خبيثة مادية ومعنوية لأنهم يدركون أن قوتهم تكمن في ضعف الأمّة وتفرّقها. وصدق الله العظيم ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

وما أكثر الدروس في الآية الكريمة، إنها تشير إلى حقيقتين، الأولى ضرب الذلة والاخرى ضرب المسكنة ومعنى ضرب الذلة والمسكنة عليهم إحاطتهما بهم ولزومها لهم، وهي طبيعتهم دائماً، والذلة هي ديدنهم في التاريخ قديمِه وحديثِه، ولكن هذه الذلة التي تلازمهم أينما وجدوا وأينما كانوا قد تتلاشى بما ذكره الله تبارك وتعالى ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، هكذا حبل من الله وحبل من الناس، أي عَوْن من الله ومن الناس.

وهناك قضايا أشارت إليها الآية الكريمة:

الأولى: أنها ذكرت حبلين، حبلاً من الله وحبلاً من الناس.

ثانياً: أنها قدمت حبل الله على حبل الناس.

ثالثاً: لا بد من هذين الحبلين، ولذا قال وحبل من الناس، ولم يقل أو بحبل من الناس.

ويمكن أن نتساءل هنا، أما حبل الناس فأمره ظاهر، ولا غرابة فيه فلقد قال الله تعالى لليهود في إفسادهم الثاني، وهو هذا الذي نعيشه نحن ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ فحبل الناس ينعم به اليهود قبل أن تكون لهم دولة. وليست هناك دولة من الدول الكبرى أو غيرها إلا وقدمت لليهود أنواعاً من العون والمساعدة، ألمانيا دفعت لهم كثيراً من الأموال تعويضاً عما يدعون أنه أصابهم في الحرب الثانية، بريطانيا على الرغم من إيذائهم لها في فلسطين عملت كل ما وسعها فمكّنتهم من إقامة دولتهم ولا ننسى دور فرنسا والاتحاد السوفييتي سابقاً وأمريكا بكل صفاقة ووقاحة وقلة ذوق، تقف ولا تزال لا تبخل عليهم بشيء وأيُّ وقاحة وأيُّ خزي للعالم كله حينما تقف دول العالم كلها في جهة، وتقف أمريكا وحدها ومعها إسرائيل في جهة أخرى؟! وهذا حدث مراتٍ كثيرة في هيئة الأمم.

هذا هو حبل الناس لا عجب أن يتمسك به اليهود ويستعينوا به فما بال حبل الله؟ وكيف يمكن أو يجوز أن يؤيد الله أولئك الذين جحدوا كل نعمة عليهم وقتلوا أنبياء الله، وكذبوا رسله، وفعلوا ما لا يُفعل، كيف يمكن أن ينعموا بحبل من الله؟

والإجابة عن هذا التساؤل سهلة يسيرة، إن الله تبارك وتعالى ما أمدهم بحبل منه لأنهم مستحقون له، وإنما كان ذلك جزاءً للأمّة التي أرادها الله خيرَ أمة، ولكنها انحرفت عن الجادة، وخرجت عن المنهج الرباني، ولو أنها استقامت لذهب عن اليهود هذا الحبل الإلهي، ولو ذهب عنهم لذهب حبل الناس كذلك، ولما أفادوا منه شيئاً إن قوة اليهود

تكمن في ضعف المسلمين، وضعف المسلمين السبب في قوة اليهود وهذا المعنى الذي فهمته من الآية الكريمة وجدته في كتبهم هم، فلقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الانبياء:

«ان الناظر إلىأحوال بني إسرائيل والقارىء للقرآن ولكتب أنبيائهم يجد الله تعالى قد دللهم وأعطاهم حكم الصبي علىأهله. فأتاهم بالعجائب وفعل بالأمم الظالمة لهم الأفاعيل، واحتمل صلفهم وطغيانهم، ولم يترك وسيلة من وسائل استرضائهم إلا فعلها، وهم لا يزيدون إلا عناداً ومخالفة عن أمره.

والظاهر أن الأمم -التي طردها الله أمام بني إسرائيل وأورثهم أرضهم وديارهم- كانوا غاية في الرداءة والعصيان والكفر، حتى إن بني إسرائيل الذين نعرف حالهم كانوا مختارين من الله عليهم. وقد رأيتُ في الكتاب المقدس أن موسى عليه السلام -على ما أذكر- قال لبني اسرائيل: لا تظنوا أن الله تعالى سيأتي بكم إلى الأرض المقدسة بسبب قداستكم وطهارتكم وأنكم أفضل الناس في طاعته! كلا فإنه إنما يطرد الأمم أمامكم لرداءتهم ورجسهم العظيمين»[1].

ولكن الذي نرجوه ونأمله أن ترجع هذه الأمة إلى رشدها، ليرجع الحق، ويزهق الباطل وما ذلك على الله بعزيز ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

ولا أقول استطردت فان ذلك ليس من الاستطراد، ولا زلت في صلب هذا الجانب من قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- وإنّ الموضوع هو الذي يحتم علينا أن نقول هذا وأكثر منه قال: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وبهذا ينتهي هذا الجانب -أعني قصة موسى مع بني إسرائيل- النبي الذي كان له في كتاب اللهمالا يوجد لغيره من الأنبياء، وما ذلك إلاّ لحِكَم وأسباب، ولبعض الصلات والروابط والتشابه، ولما يعلمه الله مما سيكون بين المسلمين الذين أكرمهم الله بالقرآن، وبين أولئك الذين كان الحديث عنهم في قصة موسى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار ص٤٠٣.

الجانب الخامس: جانب المنن الإلهية:

أما الجانب الخامس في قصة -موسى عليه الصلاة والسلام- فهو جانب المنن الإلهية، والمنح الربانية، التي أكرم الله بها موسى وهارون عليهما السلام، ونجده في السور التي كان موضوعها تعداد النعم على الأنبياء، نجد هذا أولاً في سورة الصافات.

وسورة الصافات -كما علمنا من قبل- كان حديثها عن الأنبياء من حيث ما أكرمهم الله به، ولا حاجة إلى إعادة ما قلناه من قبل، ولا أدل على ذلك من أن نقرأ ما جاء في سورة الصافات حديثاً عن موسى وهارون -عليهما السلام-.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ . وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ . سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ . ﴾.

وهناك سورة أخرى يمكن أن تشبه سورة الصافات من بعض الوجوه، وهي سورة الأنبياء -عليهم السلام-، حيث جاء الحديث فيها موجزاً عما أكرم الله به أنبياءه -عليهم الصلاة والسلام-، ولقد أشرنا إلى ذلك من قبل ولا أدل على ذلك من هذا الإيجاز المحكم المركز المعبر الهادف الجامع الذي تتحدث عنه هاتان الآيتان في سورة الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]، ونحن لا نجد تكراراً في هذا كله.

الجانب السادس: قصّة موسى مع العبد الصّالح عليهما الصلاة والسلام:

اعلموا -علمني الله وإياكم- أنّ هذا الجانب من حياة الكليم -عليه الصلاة والسلام- لم يُذكر إلا في سورة الكهف، وكان حرياً أن أتحدث عنه مع القصص المذكور في تلك السورة الذي سيأتيك بعد حين -إن شاء الله- لكني آثرت أن أذكرها لتكون قصته عليه

السلام متصلاً بعضها ببعض وفضلاً على ما في القصة من عظات وكثير من أبواب الخير. فإنّ فيها البيان المتألق الذي يسفر عن جمال الأسلوب، وقد جاءت هذه القصة في سورة الكهف عقب آيات كانت تعقيباً على قصة أهل الكهف، تبدأ الآيات الكريمة بقوله سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ وقد جاء في صحيح البخاري -رضي الله عنه- عن سيدنا رسول الله -ﷺ- «أن موسى وقف خطيباً في بني إسرائيل. فسئل: أيّ الناس أعلم، فقال: أنا. فعتب الله عليه لأنه لم يرجع العلم إليه سبحانه»(١) ونجد القصة تتحدث عن شخصيات وأحداث والشّخصية الرئيسة في القّصة. موسى وفتاه، والعبد الصالح، ولكنّ ذكر الفتى يتلاشى عند لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح، والأحداث الجوهرية في القّصة ثلاثة أيضاً: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار.

والقصّة تدور مع ما فيها من مشوقات مع هذه الشخصيات والأحداث. وفي القصّة مفاجآت يقف أمامها القارىء والمستمع، ولكنها مفاجآت يترقب القارىء لها حلاً، يقول موسى عليه السلام لفتاه: وأول ما نلحظه في هذه القصة هذا الأدب الجمّ، حيث لم يذكر القرآن الكريم اسم العبد أو الخادم أو صفة العبد أو الخادم. وهذا ما نجده في الأدب النبوي حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي»(٢) يقول موسى عليه السلام لفتاه إنّه مهما تجشم من المشاق ومهما لقي من التعب أو مهما بلغ به العناء فإنّه سيواصل السير إلى أن يبلغ مجمع البحرين ولهم في تحديده أقوال كثيرة لعلّ أرجحها أنه ملتقى خليج العقبة بخليج السويس - والله أعلم. وليس من عادة القرآن أنْ يحدّد تلك الجزئيات التي ليست ذات عبرة وهدف. وهذا شأنه في قصصه كلّه كما عرفتم من قبل.

فموسى عليه السلام مصمم أن يبلغ مجمع البحرين . حتى لو كلّفه ذلك الأزمنة الطويلة، والحُقُب مدة من الزمن، تعددت أقوالهم فيها، لكنّها مدّة طويلة ويسير الرجلان،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير حديث رقم ٤٧٢٥ الطبعة السلفية مع الفتح ٨/ ٤٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب ألفاظ من الأدب حديث رقم ٢٢٤٩.

وعندما يبلغان المكان الذي يريدان. وقد كان معهما حوت أُعدّ لطعامهما، وينساه الفتى، والقرآن الكريم يسند النسيان إليهما معاً لأنهما في أمسّ الحاجة إليه، ويشاء الله أن ينفذ أمره، ولا تخالها إلا معجزة. من الأمور التي خصّ الله بها أنبياءَه: فيخرج الحوت ويسقط في البحر ويتخذ في البحر سبيله سربا والسرب أصله النفق، ويجاوز موسى عليه السلام وفتاه هذا المكان بحثاً عن العبد الصالح الذي أمره الله أن يذهب ليتعلّم منه، كما جاء في حديث البخاري -رحمه الله- ويبلغ منهما السير مبلغاً، ويبلغ الجوع منهما كذلك، والسّفر قطعة من العذاب، ولا بدّ من الطعام حتى يقوى الإنسان على مشاقّ هذا السّفر. ويطلب موسى عليه السلام من فتاه أن يأتي بالغداء. والغداء هو ما يؤكل غدوة أي في الصّباح ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ (أنا وأنت) وهذه الآداب التي عُلّمناها من الرسول عليه الصلاة والسلام «إخوانكم خولكم أطعموهم مما تأكلون»[1] ويعني الخدم وأمثالهم.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ وذلكم هو شأن السّفر كما قلت.

وهنا يعتذر الفتى بأدب جمّ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ تلك الصخرة التي كانت عند مجمع البحرين ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾: أنا الذي نسيته، وكأنما يعتذر الفتى عمّا فرط منه. لكنّه يقول ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

ويخبره عن الحوت بأنه اتخذ سبيله في البحر عجباً، وهنا يشعر موسى عليه السلام بالرّاحة والطمأنينة وكأن النصب الذي لاقاه يتبدد، وكأنّ الجوع يتلاشى، فلقد بلغ بغيته. يحدثنا القرآن عن كل هذا الذي يتفاعل في نفس موسى -عليه الصلاة والسلام- بكلمة موجزة ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ حتى إن الياء حذفت من الفعل اختصاراً لتصوّر لنا ما يريده موسى عليه السلام من العجلة في السّير ثم تأتي هذه الفاء لتكتمل هذه الصورة ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي عادا من حيث أتيا وهذا ما تدل عليه كلمة قصص، ومنه قصّ الأثر ويجد موسى عليه السلام هناك بغيته. وما أجمل هذه الفاء في موقعها ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وهم كُثر، وليس هذا إلا واحداً منهم، أكرمناه كرامتين: الرحمة أولاً، والعلم ثانياً.

---

(١) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب الإيمان حديث رقم ٣٠ المطبعة السلفية مع الفتح ١/ ٨٤.

وهنا نجد التصوير القرآني الرائع والبيان الأخّاذ، حيث عبّر بظرفين اثنين لكنّه غاير بينهما، ومن هنا قلت: إن القصص القرآني ليس سرد حوادث ولا دراسة وتاريخ. بل هو عظات نظمت نظماً بيانياً، يزيدها جمالاً، أمّا الظرفان فهما: عندنا، لدنّا.

والأمر الذي يأخذ باللّبّ وبمجامع القلب أن الظرف الذي هو أكثر استعمالاً (عند) اقترنت به الرحمة ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ لكن الظرف الآخر الذي هو أخصّ من الأول (لدن) قد اقترن به العلم، وتلكم إشارة غاية في السّمو والموضوعية والدّقة، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهذا يجعلني أرجح بل أؤكد لأسباب كثيرة غير الذي أذكره الآن أن الرجل كان نبياً.

قال تعالى يحدثنا عن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يقول نوح -عليه الصلاة والسلام- لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨] ويقول ﷺ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، وهكذا يقول الله عن العبد الصالح ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهذه الرحمة كانت للكليم كذلك ولكن هناك أمراً خاصاً آخر أخصّ من العندية ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وإذا كانت الرحمة مشتركة بين الكليم والعبد الصالح إذا قلنا إنّها النبوة، فإنّ هذا العلم اللّدني خاص بهذا العبد. وهنا يبادر موسى عليه السلام ليستأذن العبد الصّالح ليعلّمه ممّا علّمه الله رشداً، والرشد ضد الغيّ، وهو من النعم التي يختص الله بهامن يشاء من عباده، ألم يقل سبحانه ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ولكن العبد الصالح وهو يعلم البعد أو الفروق البعيدة بين ما عند موسى عليه السلام وعنده هو يقول: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ويعلق موسى صبره على المشيئة بأدب جمّ. ما أحوج المتعلمين الذين هم دون الأنبياء بل العلماء ما أحوجهم إليه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وهنا قضية تستحق التسجيل وهو أنّ المعلّم ينبغي أن يبين المنهج الذي يتبعه أن يبينه للمتعلم. وهذا ما كان من العبد الصالح «وهو الخضر -عليه الصلاة والسلام-»

هذا المنهج. هو أن يتحلى موسى عليه السلام بالصبر. وأن يلتزم الصّمت وأن لا يستعجل الأمور قبل أن يأتي أوان بيانها ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ وكما قلت من قبل تنتهي مهمة الفتى عند لقاء الرجلين. وما نظن أنه كان مصاحباً لهما كما يقول بعض الناس، وآية ذلك ما جاء في الآية الكريمة ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ وتبدأ الأحداث بهذه الكلمة المعبرة «انطلقا» لم يقل (مشيا أو سعيا). انطلقا. وهذه الكلمة لها مذاق خاصّ أو دلالة خاصّة بها، ومن أراد أن يتذوق معنى هذه الكلمة التي عُبّر بها فلينظر إلى نظيراتها في كتاب الله. لقد ذُكرتْ حديثاً عن الملأ من قريش ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ بعد ان قالوا ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ ولقد كانت حديث أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمُنّها مصبحين ولا يستثنون أي لا يتركون شيئاً للفقراء، يقول القرآن الكريم ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴾ والذي يتدبر الكلمة الطيبة في الآية الكريمة يجدها تدلّ على نوع من العناية والاهتمام، والهدف في السّير وهكذا كان شأنهما فإنّ كلاّ منهما يترقب ما سيكون من الآخر موسى عليه السلام يترقب ما الذي يتعلّمه من العبد الصالح والعبد الصالح يترقب ما الذي سيكون من موسى عليه السلام أيستطيع أن يصبر؟ وبينما هما يسيران على الشطّ تأتي سفينة، فيعرف أصحابها الخضر، فيحملانهما وكما جاء في الحديث (بلا نوْل) بلا أجرة.

والقرآن الكريم يصوّر لنا هذه الحركة السريعة عند ركوبهما في السفينة كيف بادر العبد الصالح بفعلته، كما يصوّر لنا أيضاً هذه الحركة السريعة من موسى عليه السلام وهو ينكر على العبد الصالح فعلته. ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ أي أمرٌ مستنكر فيه داهية ما كان لك أن تفعله ويذكّر العبد الصالح موسى بما جرى بينهما عند اللقاء ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ ويعتذر موسى عليه السلام بأنه نسي كأن الحدث الذي رآه أنساه كل شيء. والله لا يؤاخذ عبده بالنسيان، فحريّ بالعبد الصّالح أن يسمح وأن يصفح، ويظهر موسى عليه السلام هذا الأدب الجمّ

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ لا تزدِ المشقة على نفسي واعفُ عن هذه الزلة، وإلا فإنك ستحملني ما يؤرّق نفسي ويزيدني ألماً على ألم. ويقبل العبد الصالح هذا العذر ويسيران مرّة أخرى، ولكن ليس مجرد السير بل إنه السير المغيّا إنه الانطلاق الذي تحدثتُ عنه من قبل، ويسيران ولكنهما هذه المرة يسيران في البرّ لا في البحر.

وبينما هما كذلك في انطلاقهما، يلقيان غلاماً فيقتله العبد الصالح وما أفظع قتل النفس! والكليمُ وقد قتل قبطياً من قبل ما كان يقصد قتله لكنّه وكزه وكزة ما كان لها أن تقتل فحمل منها الكثير وخرج خائفاً يقطع الفيافي والقِفار، وهو ينكر على فرعون قتله أبناء الإسرائيليين وقد جاء بشريعة تحرّم القتل، وهو يرى غلاماً يُقتلُ، بلا ذنب اقترفه ولا خطيئة فعلها.

إنّ كثيراً من الأحداث تصيب من يشاهدها بالذّهول، حتى تقطع الصّلة بينه وبين ماضيه كلّه، وهذا ما كان من موسى -عليه الصلاة والسلام- لقد كان إنكاره في هذه المرّة أشدّ من سابقتها، وها هو ينكر على صاحبه ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ ولئن قال من قبل (إمراً) فإنّه يقول هنا (نكراً) والكلمات القرآنية موحية معبرّة وإذا كانت كلمات موسى عليه السلام يظهر فيها الإنكار أكثر من قبل، فإن كلمات العبد الصالح يظهر منها أكثر ممّا كان منه من قبل، ولنستمع إليه هذه المرة يقول ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ ﴾ وهذه (لك) لم نجدها من قبل. ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ وهنا يظهر من موسى عليه الصلاة والسلام -الحكمة والسموّ كيف لا؟ وهو الكليم؟ لا بدَّ أن يجعل حدّاً لهذا الذي يدور بينه وبين صاحبه، كيف وقد وعده من قبل أنه سيجده صابراً ولا يعصي له أمراً. إذن لتكن هذه المرّة الأخيرة؛ وأي شيء يكون منه فيما بعد فلتكن النهاية ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أي قد وصلت إلى أقصى غاية كي لا تقبل اعتذاري إليك. ولا ندري أكان الكليم مصمماً علىأن يتمالك نفسه في هذه المرّة الأخيرة، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية طلبا من أهلها أن يضيفوهما فأبوْا وبينما هما يسيران في شوارع القريّة رأيا جداراً يريد أن ينقضّ فأصلحه العبد الصالح، وأقامه حتّى

لا يسقط. وكنّا نودّ من موسى -عليه الصلاة والسلام- أن يتمالك نفسه عند هذه، حيث لم يكن فيها إيذاء. فليس هناك أناس معرضون للغرق، وليس هناك نفس قُتلت بغير نفس، وهذا ما جاء في حديث رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.

ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ وكأن موسى -عليه الصلاة والسلام- يُنهي بنفسه هذه الصّحبة، حيث قال من قبل ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ وهذا الذي كان، وهذا ما أعلنه العبد الصالح ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ ولكنّه لن يتركه إلا بعد أن يؤوّل له ما استنكره أو اعترض عليه، ممّا لم يستطع عليه صبراً. وبدأ يفسّر له هذه الأحداث التي وقعت ليدرك أنّها كلّها لم تكن إلا لمصالح عليا أمّا السفينة، فأصحابها مساكين جعل الله رزقهم في هذه الدنيا بعملهم بهذه السفينة.

والقصّة القرآنية وإن كانت تبرز حدثاً معيناً وإن كانت ذات غاية لكنّ فيها جزئيات كثيرة لكلّ منها ثمرة ومغزى. ففي هذه بيان أن المسكين لا ينبغي أن يظلّ متطفلاً على موائد الناس، بل يجب أن يعمل حتى وإن كان العمل شاقاً خطيراً، فهو خير من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه، وهذا ما أرشد إليه النبي -عليه الصلاة والسلام-. ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وبين له حكمة ذلك لأن هناك ملكاً ظالماً كان يستولي على السفن الصّالحة، فكيف إذا كان أصحابها من المساكين الذين لا سند لهم، ويظهر أن هذا الملك لا يأخذ إلا السفن الصالحة، وهذا يفهم من الآية الكريمة ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين، وكان حبّه قد استولى على قلبيهما، ولكنّه طُبع على الكفر وقد يرهق أبويه بسبب حبهما له طغياناً وكفراً، فأراد ربُّك الذي وسعت رحمته كلّ شيء أن يبدلهما ولداً آخر هو أكثر طهارة وأكثر رحمة بهما، وبقي أمر الجدار. فهو لغلامين يتيمين في المدينة، كان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً، ولئن وقع الجدار فسيبدد الكنز، لكن صلاح الآباء فيه خير للأبناء، ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ثمّ يعلن العبد الصّالح أن كل ما فعله ليس له فيه اجتهاد، ولم يكن بهواه. ! إنّما كان وحياً من الله، وهذا يجعلني أؤكد

ما قلته من قبل أن هذا الرجل كان نبياً ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وبعد، فتلكم قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، فيها الكثير من دقائق الفقه، ودقائق البيان، ذكرت لك بعضها في أثناء الحديث عن هذه القصّة والذي ذكرته لك غيض من فيض.

انظر مثلاً إلى قوله سبحانه ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ حديثاً عن السفينة وقوله ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ حديثاً عن الغلام وقوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ حديثاً عن صاحبي الكنز والجدار، كيف أسند الارادة إلى نفسه أولاً لأن فيها عيباً ولا يريد أن تسند الإرادة إلى الله وكيف أسند الضمير فيما بعد ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ لأن العبد الصالح له دور في هذا الأمر وهو القتل، وكيف أسند الإرادة إلى الله وحده لأن بلوغ الأشدّ أمر بيد الله وحده.

ولقد تاه كثيرون وهم يفسرون أحداث هذه القصّة. وظنّ بعضهم أن كثيراً ممّا يفعله المشعوذون من ذوي النوايا الخبيثة يمكن أن يجدوا له أساساً في هذه القصّة، ونسوا قول العبد الصالح ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فهل يوحى إلى أولئك؟ اللهم لا.

أيها القارىء الكريم. إنّ في القصّة دقائق كثيرة، في البيان والعقيدة والفقه والأخلاق، فإذا اردت المزيد فإني أرشدك إلى ما كتبه الشهاب الألوسي رحمه الله تعالى في تفسيره البديع الذي أسأل الله أن يجزيه عنه خيراً -روح المعاني- فارجع إليه تجد خيراً كثيراً.

والله يتولاني وإياك برعايته، ونسأله سبحانه أن يعصمنا من الزلل وأن يكرمنا بالرحمة والعلم فهو الأجود والأكرم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٠-٨٢].

وبهذا ينتهي حديثنا في قصة موسى عليه الصلاة والسلام ويعلم الله أنه لا زال في القصة كثيرٌ مما يُحتاج إليه، ولكن لم يتسع المقام لما هو أكثر من هذا في هذا الكتاب الذي آثرنا أن لا نطنب فيه وأي قصة من قصص أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وبخاصة أولي العزم وقصة آدم عليه الصلاة والسلام أيّ قصة منها قد تستوعب كتابا وليس ذلك عليها بكثير.

وبعد:

فهذه جوانب متعددة في قصة الكليم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ. قل لي بربك هل وجدت فيها تكراراً؟؟ ولنستعرض معاً بإيجاز هذه الجوانب:

كان أهم جانبين في قصته عليه السلام إرساله إلى فرعون وإرساله إلى بني إسرائيل، فالجانب الأوّل كان متعلقا بفرعون، وهذا الجانب كان أكثر الجوانب ذكراً من حيث تعدد السور التي عرضت له، فلقد ذُكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون فيما يقرب من عشرين سورة بين إشارة وإيجاز وتفصيل. ومع ذلك كان كل مرة بأسلوب له مغزاه ودلالاته فقضية السحرة مثلاً، وما كان شأنهم هي من القضايا الكبرى، ولهذا كانت عناية القرآن بها حافلة ومع ذلك لم تذكر بأسلوب واحد لأمر مضى من قبل. والحديث عن موسى عليه السلام تارة كان ينسب لفرعون وتارة ينسب للملأ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ . . ﴾ الخ الايات وكل ذلك له مسوغاته ودلائله، وله هدفه الأعلى الذي يقصد إليه القرآن، فالقرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لا تخلق جدته ولا تنقضي عجائبه، وهكذا يشترك الملأ مع فرعون لأنه أذلهم وها هو بعد أن كان من السحرة ما كان وبعد أن خذلوه وآمنوا بالله يقول: ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ كأنما يريد أن يشعر قومه بشيء من الحرية، وبشيء من الاعتبار ولكنه بعد ذلك يقول: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾. ومثل ذلك بالطبع لن يسمى تكراراً أبداً ـ كما قلنا من قبل ـ وإذا كان هذا الجانب الذي كان أكثر الجوانب ذكراً وأشملها سوراً كان كذلك فمن البدهي أن تكون الجوانب الأخرى. وهكذا كان الجانب الثاني وهو الذي يتعلق ببني إسرائيل ـ وكما رأيناه كان بعيداً عن التكرار كل البعد نعم كانت هناك قضية مهمة خطيرة ذكرت مرتين ولكن كان لها من أسلوبها وهدفها في كل

مرة ما يجعلها تختلف عن أختها، ونعني بها قضية اتخاذ العجل، وهي قضية حري بأن ينبه عليها لما فيها من الغرابة الكثير الكثير وبخاصة من قوم منَّ الله عليهم بمننه.

أما الجانب الثالث: وهو قضية الرسالة فمع أهميته وخطورته إلا اننا نجد السور التي ذكرت فيه كانت أقل من غيرها، وقد تحدثنا هناك عن قضية العصا التي توهم التكرار، ولا نود أن نعيد ما قررناه هناك، وهنا أمر آخر لابد أن ننبه عليه وهو أن القرآن الكريم كان حديثه عن موسى ـ عليه السلام ـ مرتباً هذا الترتيب البديع فهو يبدأ بالجوانب التي هي أكثر صلة بواقع المسلمين وأشد ارتباطاً. ولهذا كان الحديث أولاً عن فرعون، ثم عن بني إسرائيل كما رأينا، إلى آخر ما هنالك من جوانب.

تعقيب على قصة موسى ـ عليه السلام ـ

من خلال ما أكرمنا به من تشنيف آذان، وتشريف جنان ولسان، رأينا في الآيات الكريمة في قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهدافاً وأبعاداً نفسية واجتماعية بل سياسية وعسكرية. . . كل ذلك صيغ بعبارات معبرة في قوالب من البيان الساحر، ومن أجل أن تسعد الإنسانية وتصعد، يقص الله القصص على الناس. فالقصص يمد النفوس بروافد حتى لا تذبل ولا تذوي. ولقد كانت قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، تمثل هذا القصص بصدق وموضوعية؛ حيث تعددت جوانبها ـ كما رأينا من قبل ـ، وسنحاول أن نجتزيء إن شاء الله بإيجاز مما يكرمنا الله به. وكأنّ موسى هيأه الله تبارك وتعالى ليعيش وليحيا هذه الظروف المتعددة حيناً، والمتناقضة حيناً آخر، وأول ما ينبغي أن نقرره هنا، أن القوم الذين تعامل معهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، محاولاً إصلاحهم، كانت تتناقض نفسياتهم تناقضاً تاماً؛ فمنهم المستعلون المستكبرون؛ الذين تسيطر عليهم مشاعر القوة والبطش، وهم فرعون وملؤُه، ومنهم المستضعفون المستعبدون الأذلاء المضطهدون المعذبون وهم بنو إسرائيل. وليس أمراً سهلاً يستطيعه كل أحد أن يوفق بين هاتين النفسيتين ليصهرا في دعوة واحدة. . .ولكن قدر موسى عليه السلام كان كذلك ولكي نلم إلمامة موجزة نقف مع كل قضية من قضايا القصة الكريمة، ولنبدأ أولاً بشخصية موسى عليه الصلاة والسلام :ـ

من تطوافنا في القصة مع الآيات الكريمة في سورها الكثيرة المتعددة، نتصور ملامح شخصيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأول هذه الملامح ما نلمحه من حدّة في الطبع، وشدة في المزاج. وكأن شدة أمواج اليم الذي ألقي فيه، شاء الله أن يكون لها فيه أثر. نلحظ هذا أول ما نلحظه مبكراً؛ فعلى الرغم من حاجته إلى الرضاعة، يأبى أن يلتقم

ويلتقف أي ثدي، ويأبى أن يهش أو يقبل على أي امرأة. . . صحيح كل ذلك من الله تبارك وتعالى؛ ولكن الله تبارك وتعالى هو الذي أودع فيه ذلك ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾. ويكبر الطفل وتكبر معه هذه الحدّة والشدّة، ويدخل المدينة ويكز القبطي وكزة تقضي عليه. ثم يحاول في اليوم الثاني أن يبطش بآخر وتلك لاشك، مظاهر لهذه الحدة والشدة. . .ويجد امرأتين تذودان ويسقي لهما، وتسير الأحداث ويشرف برسالة الله، ويكون ما بينه وبين فرعون، وما بينه وبين بني إسرائيل. ويعجل إلى ربه، وهو يترك قومه الذين معه، ثم يرجع وقد وجد بني إسرائيل انحرفوا عن الجادة، ويلقي الألواح بعنف ثم يأخذ برأس أخيه بعنف. وها هو وقد أخذ القوم الرجفة يناجي ربه بقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾.

ويكون بينه وبين العبد الصالح ما قص علينا القرآن الكريم. . . إلى غير ذلك مما تظهر فيه ملامح هذه الحدة ظاهرة جلية، وإلى جانب هذه الشدة كانت القوة. . . القوة على التغلب على الأحداث والقوة في التحمل، وإلى جانب هذه القوة: الأمانة، وهذا ما أدركته المرأة وقد نصحت أباها أن يستأجره ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ . . . وهاهو يرد على فرعون وقد من عليه بتربيته وليداً، يرد على أسئلة فرعون ردوداً تظهر القوة من خلالها ظهوراً غير خفي، ولكن نجد صفة أخرى تبرز إلى جانب هذه الصفات كأنما هي متناقضة مع ما مر من صفات ولكنها ليست كذلك في شخصية موسى ونعني بها الرحمة؛ تظهر هذه الرحمة في مواقف كثيرة كذلك فها هو يعلن تضرعه لربه بأنه ظلم نفسه، ولا أدل على ذلك من رحمته بهاتين المرأتين، ثم صفحه عن كثير من أعمال بني إسرائيل، وتلك صفة لابد منها للأنبياء وورثتهم.

وهناك صفات أخرى تظهر من خلال الآيات: كالصبر، والعناية بشؤون قومه، والعلم والمعرفة والرغبة في الإزدياد منهما، يظهر ذلك في مثل قول الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ﴿قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على اثارهما قصصا﴾. . . كل ذلك وغيره من الصفات الخيرة يظهر للمتأمل في الآيات الكريمة.

ثانياً: كما نلمح من خلال الآيات ظاهرة التبعية والاستضعاف، وهي ظاهرة لاريب بحاجة إلى دراسة متأنية ليس محلها هذه السطور لكننا نكتفي هنا بالقول:

إن هذه التبعية ينشأ عليها الأبناء وهم يرتضعون لبنها الآسن؛ كما يرتضعون حليب أمهاتهم. . . وهكذا يورثها الآباء للأبناء، ولا يسلم منها إلا من عصم ربك، وكان ذا شخصية قوية، مع هذا فنجد أن آثار هذه التبعية تظهر حتى على ذوي الشخصيات القوية، ألم تر إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعلى الرغم مما تمتع به حين أرسله الله فطلب العون ولما أمده الله به ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾. إن صورة فرعون الجبّار مرتسمة في نفسيهما، وهذا بالطبع؛ لأنهما لن يجدا من قومهما النصرة؛ لأن نفوس أولئك الإسرائيليين أرضعت هذا الضعف والإستضعاف. ومن هنا نجد موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يطلب من ربه وزيراً من أهله لم يعتمد في ذلك على غير أخيه هارون عليه السلام، ولقد صدق حسه، وصح حدسه؛ فلم يجد غيره حتى بعد المسيرة الطويلة، وعلى رغم كل ما كان وعلى رغم ما بذل من محاولات لإصلاح القوم نجده يقول ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾.

نجد قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي تتحدث عن هذه الظاهرة تبين آثارها السيئة وما ينتج عنها من أضرار، كما ترشد إلى طرق التخلص منها. . . وهذه التبعية من أخطر مشكلاتها وأبرز عقدها أنها ليست صراعاً بين فئتين اثنتين: فئة المستكبرين وفئة المستضعفين، ولكن الأخطر من ذلك والأنكى منه؛ أن هذه التبعية تصبح صراعاً بين أبناء الفئة الواحدة، لا أعني الفئة المستكبرة، وإنما الفئة المستضعفة نفسها.

إن هذه الفئة المستضعفة، هي التي سيكون منها الشرط والعسس والحرس والعيون، وأكثر من ذلك سيكون أولئك جميعاً في خدمة الفئة القوية، حرباً على قومهم يتحسسون أخبارهم، ويتجسسون عليهم، وتلك لعمر الحق أخطر من سابقتها ياويل المستضعفين!!

لا أقول ياويل المستضعفين من الأقوياء فقط، بل أقول ياويل المستضعفين من الأقوياء، ثم ياويل المستضعفين من المستضعفين، أي والله من المستضعفين!! وقبل ذاك ياويل المستضعفين من الله، ألم يحدثنا القرآن الكريم أن كثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا لموسى عليه السلام؛ لا خوفاً من فرعون فحسب، وإنما خوفاً من بني إسرائيل أنفسهم، ذلك هو خبر القرآن في مثل هذه القضية الخطيرة. ثم يأتي الواقع الذي نحياه ونعيشه؛ يأتي هذا الواقع ليصدق القرآن في كل شيء ولا ريب؛ فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثالثاً: ومما هو قريب الصلة بقضيتنا ـ قضية التبعية ـ قضية الإستعلاء: والحق أن القران الكريم أرشد ـ وهو كتاب الإنسانية كلها ـ إلى أمر جدير أن يتنبه له ويفاد منه؛ هذا الأمر ـ ليت قومي يعلمونه!! ولكن علما يكون له ثمرته، وما ثمرة العلم إلا العمل ـ هذا الأمر الذي أرشد إليه القرآن يتخلص فيما يلي:ـ

خلق الله البشر جميعا من آدم من طينة واحدة؛ والعنصر الذي أودعه فيهم عنصر واحد فلم يجعلهم فئتين اثنتين: فئة أعطيت من العناصر ما يجعلها قوية، وما يجعل لها مناعة ضد الاستضعاف، وفئة لم تُعطَ شيئاً من هذا، إن الله لم يخلق الناس كذلك؛ وإنما هذا الاستضعاف ينشأ من شيء آخر ليس ذاتياً ولا جوهرياً في حياة الإنسان، بل هو أمر كسبي، يختاره بعض الناس لأنفسهم، وعلى رغم مرارته وقسوته إلا انهم يستمرئونه فيما بعد كما يستمريء المريض مرارة الدواء مع ما بينهما من فرق بعيد، لذلك نجد القرآن الكريم يحدثنا أن فرعون وقد نادى في قومه: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يحدثنا القرآن الكريم أن فرعون استخف قومه فأطاعوه إنهم

كانوا قوما فاسقين هكذا وبهذه الكلمة المعبرة، بهذا التعبير الهادف الهادىء من جانب، والهادر من جانب آخر: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]. إن هذا الاستخفاف وتلك التبعية ينشآن أكثر ما ينشآن في البيئة غير المحصنة والتي لا تقوى على المقاومة كما ينشأ المرض في الجسم الضعيف، لذا كان التدين الحق غير المتصنع الوسيلة الوحيدة، أو هو أقوى الوسائل للتغلب على هذا الاستخفاف الذي يصل بأصحابه إلى تأليه الأفراد، إن الدين قوة بل أعظم قوة لذلك لا غرابة إن رأينا أنه يُشَنُّ عليه حرب شعواء. وهنا نجد القرآن الكريم ينبه على حقيقة مهمة؛ وهي أن هؤلاء المستخفين لأقوامهم يلبسون لكلّ حالة لبوسها الملائم لها، لذلك نجدهم يشعرون أقوامهم حيناً من الدهر، أن الكلمة كلمتهم، والرأي رأيهم، فهم أصحاب الحل والعقد وهم الشعب، هم أولو الشأن وذوو الأمر، وهذا هو فرعون يطلب من قومه وملئه أن يخلوا بينه وبين موسى عليه السلام ليقتله، حفاظاً على دين الأمة ومبدئها.

سبحان الله!! أذكر وأنا أكتب هذه السطور ما قاله توفيق الحكيم يوم أن أثيرت قضية رسالة الفن القصصي في القرآن لمحمد خلف الله، وحينما وقف المسلمون في الجامعة والأزهر وبعض أولي الشأن، حينما وقفوا في وجه كاتب الرسالة والمشرف عليها، قال توفيق الحكيم:

«إن وقوفهم في طريق هذه الرسالة ومحاربتهم لما جاء فيها من أفكار إنما هو تمهيد وتوطئة لرجوع الإنجليز إلى مصر؛ لأن الذي يمكن أن يصدّ الإنجليز ويمنعهم عن مصر ويمنعهم من الرجوع إليها ـ كما يرى توفيق الحكيم ـ هو أن نسمح لما في هذه الرسالة من أفكار وغيرها مما يشبهها مما هي حرب على الإسلام أن نسمح لها بالانتشار؛ لأن انتشارها هو الوقاية من رجوع الإنجليز». ومثل هذا كثير يقول أحد الساسة: «إن إعطاء الحرية للمسلمين للعمل في بلادنا سيكون من نتيجته أن ترجع فرنسا لتستعمرنا مرة أخرى». مقالة فرعون إذن وجدت من يكررها ويرددها وما أعظم هذا القرآن لو تعلمون!.

ولكن فرعون حينما يجد الجد يرجع عن كل ذلك، فها هو وقد رأى رجلاً من قومه وآله، ينصح بكلام رقيق مؤثر، تثور الحمية في نفسه فيبين لقومه أن لا رأي إلا رأيه وأن ليس هناك إلا قول واحد ورأي واحد، ومبدأ واحد، وبالتالي حزب واحد، ليس هناك إلا ما يقوله فرعون ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ .

رابعاً: ومن الدروس التي ينبغي أن نقف عندها، درس على قدر من الخطر؛ ذلك أن كثيراً من المصلحين يدب في نفوسهم اليأس، حينما يرون ابتعاد الناس عنهم، ولكن ليعلم أولئك جميعاً أن هذه الكلمة حينما يمن الله على قائلها بالإخلاص والحكمة لابد أن يكون لها أثرها، وها نحن نجد موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يعدم من يتأثر بكلمته. ولقد حدثنا القرآن الكريم عن مؤمن آل فرعون في سورة خاصة به سميت باسمه كان ينصح قومه وكانت كلماته كلمات مؤثرة معبرة.

ويجمل أن ننبه أيضاً على أمر مهم وهو أمر السرّية فهو على قدر كبير من الخطر وهو ما تدعو إليه الحكمة في بعض الأوقات. إن مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه لو أنه جهر بهذا الإيمان وأعلنه ما كانوا ليمكنوه من أن يقدم لهم هذه النصائح الغالية بهذا الأسلوب الرائع والذي سجله القرآن الكريم لأهميته وبراعته.

خامساً: كان لعنصر المرأة في قصة موسى عليه السلام أثر غير قليل حيث ظهرت في هذه القصة أكثر من غيرها في القصص السابقة ومجموع ما في هذه القصة يعطينا أنموذجاً للمرأة من حيث نفسيتها وقدراتها العقلية وعملها الاجتماعي وحكمها على الأشياء، وأول ما يقابلنا في هذا أم موسى عليه السلام التي امتثلت أمر الله تبارك وتعالى، ولكن مع هذا الامتثال كانت عاطفة الحنان تهيمن عليها، ومع هذا فشخصيتها شخصية المرأة التي ربما لا تقوى على كثير من مقارعة الأحداث ومجابهتها وبخاصة إذا طال أمدها، وهاهي يصبح فؤادها فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من

المؤمنين، وهاهي تقول لأخته قصيه ويشير القرآن إلى هذا الملحظ بقوله ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ وعدم الإشارة إلى أبي موسى في الآيات الكريمة يدلنا على أن الشأن إنما يتعلق بالمرأة نفسها لأنها هي التي قد تقوى على ما طلب منها أو تضعف.

والمرأة الثانية في قصة موسى عليه السلام هي أخته التي يدلنا القرآن على ما كان لها من دور يدل على بصر في الأمور وحسن مخرج في التغلب على ما يحرج، وها هي كما يقول القرآن الكريم ﴿بصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ وقالت كلاماً لا يثير حولها شبهة بل يبعد بها كل البعد عن أن يشار إليها بأصابع الاتهام والموقف حرج حقاً ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ هكذا: ﴿ أَدُلُّكُمْ ﴾، ﴿ أَهْلِ بَيْتٍ ﴾، ﴿ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾، ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ كل كلمة تشير إلى معنى.

وإذا تركنا أمه وأخته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد رأينا أن كلاً منهما تكمل ما للأخرى، وجدنا امرأة ثالثة تفيض رحمة وحناناً مع عقل راجح واستعطاف مؤثر، كل ذلك يتفاعل مع تدين صادق غير مفتعل وكأن فرعون أحس بأن هناك أمراً، وهنا ندرك ما للمرأة من تأثير في حياة الرجل حتى لو كان جباراً، نعم لقد استطاعت المرأة أن تؤثر واستطاع الجبار أن يستجيب فماذا قالت امرأة فرعون: لا تقتلوه، ولكن لماذا؟ ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾، تبدأ بهذه العبارة قبل أن تنهى عن قتله ﴿لي﴾ انها تستعطفه أولاً كأنها تقول له عندك من الأجناد والملك والعمل والمشاغل ما تشغل به وقتك، أما أنا فكما تعلم ليس لي من ذلك شيء أشغل به وقتي وأبهج به نفسي، فمن أجلي أنا أولاً ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ثم قالت ﴿لك﴾ هكذا يعبر القرآن الكريم، ومن يدري فلعلها لو قالت «قرة عين لك» لو قالت ذلك أولاً لقال «أنا أجد ما تقر عيني به فلا أريد» ولكن المرأة المؤمنة الحصيفة عرفت من أي مدخل تدخل، يالروعة الإيمان! ويا لروعة التعبير فمن يهد الله فهو المهتد، اللهم اهدنا إلى صراط مستقيم ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وبقي في قصة موسى ابنتا الشيخ الكبير، ولقد رأينا من قبل كثيراً مما تتمتعان به من صفات خيرة فهما لا تزاحمان الرجال أولا فتذودان حتى يصدر الرعاء، ثم تبينان بحصافة ولباقة السبب الذي دعاهما لامتهان هذه المهنة مع أنها للرجال توضحان هذا السبب حتى لا يظن بهما شيء آخر ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ثم لا نجد منهما ثرثرة فلم يحدثنا القرآن الكريم عن شيء بعد أن سقى لهما موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنه الوقار بل إن حديثهما لأبيهما أولاً قد طواه القرآن الكريم كذلك كأنما هو حديث موجز تحدثتا به لأبيهما خجلتين. ثم يبين القرآن هذا الحياء حينما جاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ ولكن يدعوك لماذا؟؟ تكمل ابنة الشيخ الكبير، تكمل قولها لتبين سبب هذه الدعوة ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ليس لها ولأختها فقط بل للبيت كله، ثم تظهر منها تلك الحصافة ورجاحة العقل لقد رأت من موسى ـ عليه السلام ـ كل خير ﴿اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وأخيراً نجد في قصة موسى عليه السلام هذه الصفة من صفات المرأة؛ الطاعة للزوج تظهر هذه الصفة جلية، وهاهو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قضى الأجل وسار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً، وقال لهم ما قال يذهب ويتركها وحيدة وكان يمكنها أن تطلب أن تكون معه، ولكنها الطاعة النابعة من الإيمان، والمزينة بالعقل والحصافة.

سادساً: ومن القضايا المهمة في قصة موسى قضية السحرة وكيف أحدثوا هذا الإنقلاب الهائل ولا عجب فنحن نرى كثيرين ممن يحملون ألوية العداء للدين يكرمهم الله بالهداية فتكون هدايتهم أقوى وأثبت من كثير من الهدايات المهزوزة كهداية بني إسرائيل الذين طلبوا صنماً يعبدونه بعد أن نجاهم الله، هكذا كان السحرة وهكذا من يكرمه الله بالهداية، ألم تروا إلى «روجيه جارودي» وكان منظر الشيوعية في أوروبا كيف أكرمه الله بالهداية وغيره كثير . . .

وهكذا نجد الحكم الكثيرة في قصته ـ عليه السلام ـ ولكنه مع جهاده ومع ما تحمله من مصابرة وعناء مع ذلك كله وعلى رغم أنّ الله أكرمه ونصره على فرعون، والله ينصر رسله في الدنيا والآخرة إلا اننا نجده مع بني إسرائيل على الرغم من شدته وغضبه تارة وعلى الرغم من استغفاره وصفحه عنهم تارة أخرى نجده وقد طفح الكيل وبلغ السيل لا يزيد على قوله ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

ولقد كانت اللبنة التي وضعها موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في بناء الإنسانية ذات مكان ومكانة، لقد جاء ليخرج الناس من ظلمة التبعية وبؤرة الاستضعاف وأتون العبودية... جاء ليخلصهم من هذا المنحدر الذي لا يتنسم المرء فيه عليلاً وإن وجد فهو هواء فاسد... جاء موسىٰ ـ عليه السلام ـ ليضع في بناء الإنسانية المحكم هذه اللبنة ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

كما أنه جاء يضع للناس لبنة يفرقون بها بين الحق والباطل، وكثير ما تسحر الناس أعمال وأقوال ذات مظاهر خلابة وأشكال جذابة ولكنها ليست في حقيقتها إلا خداعة كذابة وما نبأ السحر ببعيد...

ومن مظاهر اللبنة التي وضعها موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مظهر العلم الذي تجشم المشاق في طلبه وهو الرسول الكليم والنبي الكريم... هكذا إذن كانت اللبنة التي وضعها موسى عليه السلام في بناء الإنسانية المحكم تجمع بين العلم والعمل ومحاربة الضعف واخلاص العقيدة، ولئن كان حديداً في مزاجه شديداً في طبعه فذلك ما خصه الله به، فالمواقف التي سيجابهها ـ عليه الصلاة والسلام ـ بحاجة إلى هذه الشخصية ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وقد شبه الرسول ﷺ صاحبيه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، شبه أبا بكر رضي الله عنه بإبراهيم وعيسى عليه السلام

وذلك لما كان يعرف من رقته ولينه رضي الله عنه، أما إبراهيم عليه السلام فقد قال ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وأما عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وشبه عمر رضي الله عنه بنوح وموسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وذلك لشدته رضي الله عنه وحدته أما نوح عليه السلام فقد قال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وأما موسى فقد قال ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وتبقى في قصة موسى عليه السلام جوانب كثيرة تاريخية وجغرافية ونفسية واجتماعية لا يتسع لها المجال في هذا الكتاب، وخير ما نختم به الحديث عنه ـ عليه السلام ـ قول الله تعالى له ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. ولا يفوتني هنا أن أذكر ان الحديث عن موسى عليه الصلاة والسلام لا ينبغي أن ينسينا الحديث عن هارون عليه الصلاة والسلام فهما أخوان شريكان في دعوة واحدة يجري على أحدهما ما يجري على الاخر، ولقد كان هارون عليه السلام معروفا بصلاحه وتقواه معروفا بحكمته وإخلاصه وحرصه على اجتماع الناس على الحق وبحبه لأخيه، وهذا كله يظهر فيما حدثنا القران الكريم عنه مثل قوله سبحانه ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقوله سبحانه ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ وقوله ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

لقد كان وزيرا مخلصا يملأ المنصب الذي هيأه الله له. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث عشر

قصة يونس عليه السلام.

١- سورة القلم.

٢- سورة يونس.

٣- سورة الصافات.

٤- سورة الأنبياء.

تعقيب على قصة يونس عليه السلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة يونس عليه السلام:

وبقصة موسى عليه السلام ينتهي القصص الذي يصور لنا المعارك العنيفة بين الأنبياء وبين وأقوامهم، اللهم إلا ما كان من إشارات لامحة خاطفة لما كان من خبر يونس عليه السلام مع قومه، ومع ذلك فلن نجد ما وجدناه في أخبار الأنبياء من قبل. وهناك أنبياء ذكروا في كتاب الله تعالى أكثر من مرة لا من حيث ما دار بينهم وبين أقوامهم وإنما من حيثيات أخرى. وسنحاول أن نتتبع ذلك إن شاء الله حتى يكون موضوعنا متكاملاً والله ولي التوفيق.

إذا كنا نتحدث عما كان بين الأنبياء وبين أقوامهم فنرى أن نتحدث الآن عن يونس عليه الصلاة والسلام. وهو يونس بن متى، كما يقول النبي ﷺ في حديثه لعداس في الطائف وهو من نينوى من أعمال العراق.(١)

١ - وجرياً على سنة القرآن - كما تكلمنا من قبل - فإنّ أول إشارة تحدثت عن يونس - عليه الصلاة والسلام -، وقد ذكرت مبكرة في سورة **القلم**، وهي السورة التي جاءت تسلية للنبي ﷺ، وهي التي جاءت ترد التهم التي ألصقها به المشركون، وتبين ما أعدّ الله تبارك وتعالى له من أجر غير ممنون، وما أكرمه به من خلق عظيم، ثم ترد عليهم وتبكّتهم وتضرب لهم الأمثال، ثم تحاجهم لتثبت لهم أنهم ليسوا على شيء، وبعد إقامة الحجة عليهم، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ذي الخلق العظيم ﷺ.

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ(٢) إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٣) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ

(١) يراجع الحديث في السيرة النبوية. انظر مثلاً البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٣٦.
(٢) أملي لهم: أي أمهلهم.
(٣) المغرم: الغرامة، أي لم تطلب منهم على الهداية والتعليم اجرا فيثقل عليهم حمل الغرامات في =

ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٤-٥٠].

وجميل أن يشار إلى قصّة يونس ذي النون عليه السلام في سورة (نٓ)، والنون هو الحوت. هذه الآيات الكريمة ـ كما نرى ـ لم تذكر يونس عليه السلام باسمه، وإنما ذكرته بأنه صاحب الحوت. ويؤمر النبي ﷺ بأن يصبر لحكم ربه ولا يستعجل ما ينبغي أن يحل بهم، كما كان من صاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم أي ممتلىء غيظاً وهماً ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لولا أن الله تبارك وتعالى تداركه بنعمه، ومنّ عليه بلطفه ووفقه لما ينجيه، لنبذ بالعراء وهو مذموم وممقوت يصيبه اللوم، ولكن نعم الله التي أكرمه بها فوفقه للتوبة والتسبيح كانت عاقبتها أنه نبذ بالعراء غير مذموم، فليس معنى الآية أن يونس عليه السلام لم ينبذ بالعراء، وإنما المعنى ـ والله أعلم ـ أنه نبذ بالعراء غير مذموم، فنبذه بالعراء نعمة من نعم الله عليه؛ لأنه خرج سليما من بطن الحوت، وتتميماً لهذه النعمة نُبذ مرضيا عليه من ربه غير ممقوت ولا مذموم، وهذه إشارة تتوق النفوس وتتشوق إلى ما سيأتي بعدها من تفصيل، لكن قبل هذا التفصيل لابد أن نشير هنا إلى أمر له شأن يتصل بصلة الأنبياء وتعظيم بعضهم لبعض من جهة وبعظمة سيدنا رسول الله ﷺ وآله وسلم من جهة أخرى.

إنّ الآية الكريمة السابقة ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ قد يتبادر لذهن بعض الناس منها مايخدش شخصيّة يونس عليه الصلاة والسلام، فأراد سيدنا رسول الله ﷺ أنّ ينفي هذا الوهم وأن يرشد المسلمين إلى حسن الظن برسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام. ففي صحيح البخاري عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: إني خير من يونس»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ:

= أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان.

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: حديث رقم ٣٤١٢.

«ما ينبغي لعبد أن يقول: إنّي خيرٌ من يونس بن متّى»[١]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه، فقال: لا، والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الانصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي ﷺ بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إنّ لي ذمّةً وعهداً، فما بال فلانٍ لطم وجهي؟ فقال: «لم لطمت وجهه»؟ فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رُئي في وجهه، ثم قال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكونُ أوّلَ من بُعث، فإذا موسى آخذٌ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بُعث قبلي»[٢]. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[٣].

والرسول ﷺ إنما يقصد نفسه بهذه الأحاديث إذ لا يعقل أن أحداً من المسلمين يرى نفسه أفضل من يونس عليه السلام، فالرسول ﷺ كما قلت يعني نفسه، وتلكم هي شمائله عليه الصلاة والسلام. وصدق الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ولنكمل الان قصة يونس عليه السلام كما جاءت في كتاب الله.

٢- ثم تأتي السورة التي خصه الله بها وهي سورة **يونس**، فنقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] والذي تدلنا عليه الآية الكريمة أنه ليس هناك من القرى المهلكة قرية امنت فنفعها إيمانها، لأنهم كانوا يؤمنون حينما ينزل العذاب بهم كما كان من فرعون وبعضهم كان ينزل به العذاب قبل أن يؤمن فلم يتمكن من الإيمان،

(١) حديث رقم ٣٤١٣.
(٢) حديث رقم ٣٤١٤.
(٣) حديث رقم ٣٤١٦.

وهؤلاء وأولئك لا ينفعهم الإيمان، ولكن قوم يونس عليه السلام حينما بدت لهم أسباب العذاب وظنوا أنه واقع بهم، وقبل أن يحيط بهم ويحيق رجعوا إلى أنفسهم وتضرعوا إلى ربهم فلما علم الله منهم صدق إيمانهم كشف عنهم عذاب الخزي، ومتعهم إلى حين، وهو الأجل الذي مُدَّ لهم في علم الله تبارك وتعالى.

هذا الإجمال في الآية الكريمة نجد له تفصيلا في سورة أخرى.

٣- سورة **الصافات**، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

والذي تبينه الآيات الكريمة أن يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو من المرسلين الذين أكرمهم الله وقد ذكر بعضهم في السورة الكريمة ـ لم يصبر على مغالبة قومه فتركهم وقد سمى القرآن الكريم هذا الترك إباقاً، والإباق هربُ العبد من سيده، فإطلاقه على يونس عليه الصلاة والسلام إطلاق مجازي؛ لأن يونس عليه السلام لم يهرب من ربه حاشاه عليه الصلاة والسلام.

هذا ما كان من يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان حريا به أن يصبر وهو ما أشارت إليه الآية التي تحدثنا عنها في سورة «ن» وقد جاء يونس عليه السلام إلى الفلك المشحون إشارة إلى امتلائه وثقل من فيه فساهم أي ضرب بالسهام وهي القرعة فكان من المدحضين، أي كانت القرعة عليه لينزل من الفلك إلى البحر فألهم الله الحوت أن يلتقمه دون أن يؤذيه، ألم يجعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام؟ وتلكم عناية الله بعباده بعامة وبأنبيائه بخاصة، كما مر معنا من قبل وسيمر معنا فيما بعد إن شاء الله.

التقمه الحوت وهو مليم، أي: حريّ بأن يُلام على تركِ قومه دون إذن من الله تبارك وتعالى. وهذا سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام وقد لاقى كثيراً من عنت قومه وإيذائهم فلم يتركوا وسيلة ولا عملاً فيه إيذاء له ﷺ ولمن آمن معه إلا فعلوه، ولم يلق يونس عليه الصلاة والسلام شيئاً من هذا أو قريباً منه؟، ومع ذلك فلم يهاجر الرسول ﷺ إلا بعد أن أذن الله له بالهجرة، فكان حريا بيونس عليه الصلاة والسلام ألا يترك قومه، ولكنها حكمة الله التي لا يدركها كثير من الناس.

والقرآن الكريم يبين لنا كرم الله تبارك وتعالى على عباده، ونفع العمل الصالح الذي يعملون، فيونس عليه الصلاة والسلام وقد حل به ما حل يلجأ الى الله مسبحا ذاكراً وهو في بطن الحوت، وقد كان من قبل كذلك، فيكرمه الله تبارك وتعالى، وصدق الله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أيْ لافترسه الحوت وأماته، ولا يفهم من الآية كما فهم كثير من المفسرين أنه سيظل حياً في بطنه إلى قيام الساعة.

ولا تعنينا المدة التي مكثها عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت التي اختلف فيها المفسرون، ولا دليل على شيء من ذلك كله، ولعلي أرجح القول بأن ابتلاعه لم يزد على يوم أو بعض يوم. يقول الله سبحانه: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ومن التعبير القرآني ندرك أن الله المهيمن على كل شيء له الحكمة البالغة حيث قال «فنبذناه» ولم يقل «فنبذه الحوت» سبحانه هو الملهم لكل فاعل فعله ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

«وهو سقيم» وهذا أمرٌ بدهيّ، لأنّ من يحدث له ما حدث ليونس عليه السلام لا بدّ أن يكون كذلك. وأكرمه الله فأنبت عليه شجرةً من يقطين لترد عنه كثيراً من الغوائل ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وفي الآية إشاره إلى كثرة قومه ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٨].

ذلكم تفصيل لما جاء في السورتين الأوليين سورة القلم وسورة يونس، وقد رأينا أنه تفصيل جديد لم يذكر من قبل.

٤- ثم تأتي سورة **الأنبياء** ـ عليهم السلام ـ.

عجيب أمر هذا القرآن في نسقه ونظمه. إن النفوس لا زالت متشوقة لما تعرفه عن خبر يونس ـ عليه السلام ـ، فالذي ذكر في السورة السابقة سورة الصافات هو أنه أبق إلى الفلك المشحون أما ماذا وراء ذلك وما سببه؟ فتذكره سورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في قوله تعالى ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].(١)

وذو النون هو يونس ـ عليه السلام ـ، والنون هو الحوت ـ كما قلنا من قبل ـ وذهابه مغاضباً: تركه لقومه وقد جاءهم بالنذر وأنذرهم وخوفهم من أجل أن يؤمنوا، ولكنهم لم يستجيبوا فتركهم ضجراً وسآمه دون إذن من الله تبارك وتعالى ومن أجل هذا ـ والله أعلم ـ نهى الله النبي ﷺ أن يكون كصاحب الحوت، ولهذا نجده ﷺ كما ذكر في السيرة لم يهاجر إلا بعد أن أذن الله له بالهجرة، يونس ـ عليه السلام ـ ترك قومه سآمه وضجراً لعدم إيمانهم مغاضبا وقد أغضب قومه تركه لهم وغضب منهم كذلك ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾.

ولا يظنن أحد أن يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ ظنّ أن لا يقدر الله عليه، فهذا لا يمكن أن يدور بخلد أحد فضلاً على أن يكون نبياً أو مؤمناً، وإنما معنى الآية أنه يظن أن لن يضيق الله عليه، ولن يؤاخذه بتركه لقومه والتقدير معناه. التضيق،

(١) من روعة التعبير في القرآن الكريم انه ذكر في سورة (نٓ) صاحب الحوت في سياق أمر النبي ﷺ بالصبر ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، أما هنا فقد ذكر قوله ﴿ذا النون﴾ ذكرت كلمة «ذو» بدل صاحب وكلمة «النون» بدل الحوت والسياق هنا يختلف عن السياق هناك؛ فكان لكل من الكلمتين هنا ميزة على صاحبتها/ راجع البرهان جـ٤ / وتفسير روح المعاني جـ٢٩. في تفسير السورة.

وذلك كما في قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦] وقد قال بعضهم في معنى ليلة القدر إنّها سمّيت كذلك لأنّ الأرض تضيق فيها بالملائكة لكثرتهم. الذي يهمنا هنا أن يونس ـ عليه الصلاة السلام ـ ظن أن الله تبارك وتعالى لا يضيّق عليه ولا يؤاخذه وقد ترك قومه دون إذن سأمه وضجراً، وهنا يطوى في الآية اخباره ـ عليه الصلاة السلام ـ التي ذكرت من قبل، كل الذي يذكر. ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ولعل هذا ما يرجح ويقوي أن تسبيحه في قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ الذي مر معناه في سورة الصافات أن هذا التسبيح كان في بطن الحوت فعلا، ويمنّ الله تبارك وتعالى عليه ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ وهذا الذي ذكرته لك متّسق مع ما كنت قد رجحته في الطبعات السابقة وهو رأي جمهور العلماء من أن قصة ابتلاع الحوت كانت بعد الرسالة. أما على القول الآخر الذي رجحته لك في هذه الطبعة الجديدة فلا بدّ من نظرة جديدة في هذه الآية.

والذي يترجح لديَّ أنّ يونس عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً من أجل أمر طلبه منه بعض أولي الأمر، ولكنه تردد في إنفاذه، وقد ذكرت بعض الروايات أنّ نبياً في زمانه كان اسمه (حزقيل) طلب من الملك في ذلك الوقت أن يرسل بعض الأخيار لهداية بعض الناس فكلف يونس ولكنه تثاقل فعزم عليه الملك أن يذهب فذهب، على غير رضا منه، فكان ما كان من أمره عليه الصلاة والسلام.

ونحن نعلم أن القرآن الكريم يطوي كثيراً من الجزئيات التي لا تمس موطن العبرة، وخلاصة الأمر أنه بعد ما كان من أمر الحوت أرسله الله تبارك وتعالى، ويؤيد هذا الرأي آيتان من كتاب الله إحداهما ما جاء في سورة الصافات ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ بعد قوله ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ والأخرى في سورة القلم ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ بعد قوله ﴿ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾، والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما أجمل هذا التعقيب على قصة يونس عليه السلام! وما أحوج المؤمنين إليه في كرباتهم وهمومهم! وقد ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء الا استجاب الله له»(١).

هذه قصة يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفضلا على أنه لا يوجد أي شبهة تكرار فيها، فإنها جاءت متسقة الحلقات، مرتبة الحوادث، ثم ختمت بهذا التعقيب الهادف: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والحق أن ختم القصة قضية حرية بالدرس، لأننا لو استعرضنا هذا القصص، لوجدنا كل قصة تختم بخاتمة معبرة هادفة حكمةً وحكماً، ولعل أقرب مثل على ذلك ما ختمت به قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ إلى غير ذلك مما يمكن أن يدرس فتلمح منه الفوائد والعبر.

هل ما حدث من يونس عليه الصلاة والسلام ينافي العصمة؟.

الذي حدثناك عنه أيها الأخ القارىء تبعنا فيه جمهور المفسّرين وهو أنّ ابتلاع الحوت كان بعد نبوته عليه الصلاة والسلام، وهنا لا بدّ أن نتساءل: إذا كان ذلك بعد النبوة أفيتفق مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ وأحبّ أن اوجز لك هذه القضية فأبين لك أنّ العلماء اتفقوا على أنّ العصمة واجبة للأنبياء بعد النبوة ونعني بالعصمة الامتناع عن كلّ محرّم. أمّا قبل النبوة فأجمعوا على أنهم عليهم الصلاة والسلام معصومون عن الشرك أولاً وعن الكبائر ثانياً، وقد حدّثتكَ من قبل أن موسى عليه السلام لم يقصد قتل القبطي: أمّا الصغائر فقد اختلفوا في شأنها، والراجح عندهم أنهم معصومون عن الصغائر التي تخل بالشرف والمروءة. قالوا: والذي فعله يونس عليه الصلاة والسلام لا يخلّ بالعصمة، لأنه لم يكن كبيرة بل كان اجتهاداً منه، وسيأتي لذلك تفصيل فيما بعد إن شاء الله.

---

(١) انظر الترمذي في الدعوات حديث رقم ٣٥٧٢/ تحفة الأحوذي ٩/ ٤٧٩.

أمّا القضيّة الثانية وهي: أكان ابتلاع الحوت قبل النبوة أم بعدها؟ وقد عرفتم أنّ الذي ذكرتُه لكم تبعتُ فيه جمهور المفسرين، وقد روي عن قلّة من الأئمة أنّ ذلك كان قبل النبوة، ولعلّ هذا ما يترجَّح لديَّ الآن وأنا أقدّم هذا الكتاب بقالبٍ جديد في طبعته الرابعة. وهذا القول أشار إليه كثير من المفسرين بقطع النظر عن كونهم موافقين أو مخالفين له، وقد نقله القاضي عياض في الشفاء عن ابن عباس رضي الله عنهما(١).

وأيّاً كان القائلون فإنه يبدو لي ترجيح هذا القول لما يلي: أولا: أن من أكرمه الله بالنبوة لن يتردد في تحقّق وعد الله له، ويونس عليه الصلاة والسلام توعّد قومه إنْ لم يؤمنوا بالعذاب، فيبعُدُ أن يكون قد تركهم ارتياباً منه في وقوع العذاب، وما ذكره القاضي عياض رحمه الله من أنه ضعف عن حمل أعباء النبوة، وما ذكره الشيخ عبد الوهاب النجار قريباً من هذا وحدث جدلٌ ساخنٌ بينه وبين لجنة العلماء التي شكلت لدراسة كتابه، أقول: ما ذكره العالمان الفاضلان بعيدٌ تصوره، وصدق الله ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ثانياً: إنَ المتدبّر الآيات الكريمة يجد أنّ هذا القول أقرب إلى معناها من غيره، ولنقرأ الآيات الكريمة في سورة (نٓ):

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٩-٥٠] ونحن نعلم أن قمّه الاجتباء هي النبوة والرسالة، وكذلك السّلْكُ في جماعة الصالحين فلقد وصف الله كثيراً من أنبيائه هذا الوصف، والعطف بالفاء يرجّح هذا القول كثيراً، والقول إنّه أرسله مرّة أخرى غير الأولى قول بعيد جدا، ولعلّ المتدبّر الآية في سورة يونس يَقْبَلُ ما قلتُ.

---

(١) الشفاء للقاضي عياض بشرحي ملا علي القاري والشهاب الخفاجي: جـ٤/ ص٢٥ المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣٢٧هـ، وبشرح ملا علي القاري وتحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق: جـ٤/ ص٤٥ مطبعة المدني.

اعتراض وجوابه:

ولكن يعكّر على هذا القول الآيةُ الكريمة ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ كنتُ أقرأ هذه الآيات مرجحاً هذا الرأي وكان أحد أبنائي فسألني ـ وهو من أهل الطبّ ـ كيف ترجّح هذا الرأي والله يقول: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ﴾أليست إذْ ظرفاً، ومعنى الآية أنه عند إباقه كان رسولا؟ وهو سؤال وجيه تحتاج الإجابة عنه إلى شيء من الروية والتدبر. إذْ ظرفٌ لما مضى من الزمان وقد يكون مقترناً بالحدث الذي ذكر معه وقد يكون غير ذلك، وإليكم هذه الآية الكريمة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ذُكرت إذْ هنا وذُكر معها الفعل الماضي ﴿أتاك﴾ ولا يمكن أبداً أن تكون إذْ ظرفاً لهذا الفعل ﴿أتاك﴾ لماذا؟ لأنّ الخطاب هنا للنبي عليه وآله الصلاة والسلام وهو في مكة بعد البعثة، ونداء الله لموسى عليه الصلاة والصلام كان قبل ذلك بمئات السنين، ولذلك قالوا: إذْ ظرفٌ للحديث وليس للإتيان، وإليكم توضيحاً آخر: أقول: وإنّ سيدنا محمداً ﷺ لخاتم الأنبياء، إذ اختلفت قريش عند بناء البيت من الذي يضع الحجر الأسود في مكانه، فاتفقوا على أن يحكّموا أوّل من يدخل عليهم، فكان الرسول الله ﷺ وحكم حكماً ارتضوه جميعاً وإليكم مثالا اخر: إن سيدنا محمداً رسولُ الله ﷺ إذْ وعدَ الصحابة يوم الخندق أن يفتح الله عليهم بلاد كسرى وقيصر.

تأملوا هذين المثلَيْن لتجدوا أنّ المثال الثاني كان الظرفُ فيه متصلاً بالحدث، فالرسول حينما وعد الصحابة بفتح بلاد كسرى وقيصر كان قد أكرمه الله بالرسالة، وليس كذلك المثال الأوّل، حيث الظرف مستأنف، فحينما ذكرتُ الجملة الأولى «إنّ محمداً رسول الله» استأنفتُ طرفاً من خبره الذي كان قبل الرسالة، وهي قصة الحجر الأسود.

إذا عرفنا هذا وأرجو أن نكون قد تدبرناه تدبراً جيداً وقرأنا الآيات مرّة أخرى ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فمن رأى أنّ الحادثة كانت بعد الرسالة عدّ قوله ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ متصلاً بقوله ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أيْ: حينما أبق إلى الفلك

المشحون كان رسولاً، وأصحاب الرأي الآخر يقولون إنّ الآية الثانية كانت مستأنفة، فبعد أن أخبر الله عن يونس عليه السلام إنه من المرسلين ذكر طرفاً من أخباره قبل الرسالة وهو أنّه ﴿ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾.

وبعدُ فإنّ هذه القضيّة لا تعكّر على شيء من العقيدة، فخُذْ أيّ القولين ترجَّح لديك، والله أعلمُ بحقائق الأشياء.

ثانياً: تعقيب على قصة يونس عليه السلام.

وإذا كان لا بدّ من وقفة مع قصة يونس عليه السلام في كتاب الله أولاً؛ فلابد أن نذكر هذه الصلة المحكمة، وهذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء عليهم السلام.

أولاً: كلنا يذكر هذا الحدث المهم من أحداث السيرة النبوية يوم أن ضرب النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام أروع الأمثلة في التحمل والتضحية، وقد أعرض عنه أهل مكة، فذهب إلى الطائف مشياً على قدميه ليبلغ أهلها دعوة ربه، ولكنهم كانوا أكثر إعراضاً وأشد قسوة، وأبعد عن الهداية، ويلقى النبي الكريم منهم من الإيذاء الكثير الكثير ويناجي ربه بهذه الدعوات «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين». وفي هذه الأثناء يأتيه عدّاس وهو عبد لأحد كبراء الطائف، ويسأله النبي عن اسمه وبلده، فلما عرف أنه من نينوى قال «أنت من بلد الرجل الصالح يونس بن متى»(١).

وهذه الحادثة تحمل في طياتها معاني كثيرة فهي تدلنا ـ كما قلت ـ على هذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما تدلنا كذلك على ان النبي ﷺ كان يعلم مما علمه الله كثيراً من أخبار الأول بعامة، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ بخاصة، ومن هذا القبيل معرفته لنسب يونس عليه السلام وبلده ويشهد لما قلناه قوله ـ عليه السلام ـ

---

(١) أخرج القصة ابن إسحاق (١/ ٢٦٠، ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً لكن قوله: «اللهم إليك أشكو...» ذكره بدون سند وكذلك رواه ابن جرير(٢/ ٨٠، ٨١) عن طريق ابن إسحاق، وروى هذه القصة الطبراني في «الكبير» من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥) وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات.

«أوتيت القرآن الكريم ومثله معه»(١) وإنما ذكرنا هذا حتى لا يتوهم أن ما أعطيه النبي ﷺ مع القرآن كان ذا صلة بالأحكام التشريعية فحسب.

ثانياً: تدلنا قصة يونس عليه السلام كذلك على أن هذا الإنسان يبقى ضعيف التحمل لولا عونُ الله ومدده فسرعان ما يعيل صبره ويضعف تحمله حينما يَدْلَهِمُّ به الليل، ذلك ما كان من يونس ـ عليه السلام ـ. فقد ذهب مغاضباً ظاناً أن الله لن يضيق عليه ولن يؤاخذه... وإذا كان مثل هذا الظن يمكن أن يقبل من غير أصحاب النفوس الكبيرة الذين لم يعدّوا في هذه الحياة ليكونوا مصابيح هادية؛ فإنه لا يقبل ممن أعدهم الله تبارك وتعالى ليحملوا رسالته، لذلك كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين، والله تبارك وتعالى الحكم العدل يأخذ كل واحد ويحاسبه على قدر ما أنعم عليه وبمقدار ما مكنه في هذه الحياة... ألم تر إلى الآيات الكثيرة، والأحاديث الكثيرة كذلك التي جاءت تبين أن الناس لا ينبغي أن يكونوا سواء وإنما كلٌّ بقدر ما أنعم الله عليه... وإن شئت أن تطمئن نفسك فتعرف شيئا من هذه الايات الكريمة فاستمع إلى قول الله تبارك وتعالى لنبيه وحبيبه وأحب خلقه إليه خاتم أنبيائه سيدنا محمد ﷺ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥] ثم استمع إلى ما يوجهه لنسائه عليه وآله الصلاة والسلام أمهات المؤمنين عليهن سلام الله ورضوانه ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

يونس ـ عليه السلام ـ إذن كان من أولئك الذين أعدّهم الله ليقودوا هذه القافلة البشرية في زمان من أزمنتها ومكان من أمكنتها، فكان لابد من أن يكون أكثر تحملاً وأكثر تقبلاً،

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «السنن» باب لزوم السنة/ مختصر سنن أبي داوود ص١٨، وأخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

وأقدر على التصرف وأجدر بتبديد الضعف لذلك جعل الله منه درساً، فقال لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨].

ثالثاً: لكن هذا منسجم مع بشرية الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وإذا كان الله قد أكرمهم بالعصمة فإن هذه العصمة إنما هي وقاية أولئك الأنبياء مما لا يليق بهم، وقد بين العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ هذا، فأوّلُه الشرك قبل النبوة وبعدها، ولهذا نجد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد حفظهم الله من هذا الشرك، منذ نشأتهم، ومن قبل أن يرسلهم إلى قومهم، وبعد الشرك الكبائر فالأنبياء معصومون من فعلها قبل النبوة وبعدها كذلك، كالسرقة والزنا والقتل، وقد قلنا إن ما حدث من موسى ـ عليه السلام ـ حين قتل القبطي لم يكن قاصداً له ولم يكن منه سبق إصرار، ولم يكن بما يقتل في العادة كالأدوات التي يستعملها الذين يصرون على القتل، ومما يعصم عنه الأنبياء كذلك الصغائر التي تخل بالمروءة وتتنافى مع الهيبة، ذكرنا ذلك كله لنبين أن ما حدث منه عليه السلام لم ينافِ العصمة؛ لانه ليس من الأنواع الثلاثة التي تقدمت وهي الشرك والكبائر والصغائر التي تتنافى مع المروءة.

على أن كثيراً من العلماء يرى أن ما كان من يونس ـ عليه السلام ـ حينما التقمهُ الحوت إنما كان قبل النبوة، وأظن أن الذي يقرأ الآيات الكريمة فيرى سياق الآيات يرضى هذا القول... مع أن القائلين به أقل من غيرهم لكنني أستريح له، لأنه لا يجعلنا نتكلف في فهم الآيات. والمتأمل لآيات سورة الصافات أظنه يقف معي لترجيح هذا القول ﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٧].

وإذا كان من لبنة خص بها يونس عليه السلام في بناء الإنسانية المحكم، فإنما هو هذا الإعداد الذي ينبغي أن يكون لذوي النفوس الكبيرة حتى تقدر على التحمل وتصبر على الأذى، وهو نوع من الجهاد عظيم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصلان الثالث عشر والرابع عشر

قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

١- في سورة (ص).

٢- في سورة النمل.

٣- في سورة سبأ.

٤- في سورة الأنبياء.

٥- في سورة البقرة.

تعقيب على قصة داود وسليمان عليهما السلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام:

إذا كانت كثيرٌ من كتب التفسير امتلأت بالإسرائيليات وبخاصة فيما يتصل بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن هذه الإسرائيليات كانت أكبر مساحة وأشد غرابة وأكثر نكارة في ما يتصل بداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، ويظهر أن هذا يرجع إلى ما افتراه اليهود على هذين النبيَّيْن لما كان لهما في التاريخ من شؤون كثيرة في أكثر من مجال. ـ وإن كان أهل الكتاب يعدونهما مَلِكَيْن، فإن القرآن الكريم مع هذا ذكرهما في زمرة الخيرة الطيبة من عباد الله في زمرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والذي يقرأ في الكتب الدينية القديمة عن داود وسلمان عليهما السلام يجدُ الغرائب والمنكرات ولقد تسرّب شيء كثير من هذا إلى التراث الإسلامي بعامة وكتب التاريخ والتفسير والقصص بخاصّة، والقرآن الكريم جرياً على منهجه وسنته لا يفصل كثيراً من الأحداث والجزئيات بل يذكر بعض الإشارات في موطن العبرة، ولما كانت النفوس تواقة إلى تفصيل الأحداث، متشوقة إلى معرفة الجزئيات وجدنا كثيراً من الإخباريين يتزيدون في ذكر هذه التفصيلات البعيدة عن الحق المنافية في كثير من الأحيان لعصمة الانبياء وكثير منها -ولا حول ولا قوة إلا بالله- نقله بعض المفسرين لا قديماً فحسب، بل وجدنا ذلك في كتب بعض المحدثين.

نقرأ مثلاً قوله تبارك وتعالى ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فما أكثر ما نسج حول هذه الآية من افتراءات منكرة، ومنكرات سخيفة.

والآية ويعلمُ الله بعيدة كلَ البعد، عن كلٍّ ما فيه شبهة شائبة وشبهة تمسُّ جانب سليمان عليه الصلاة والسلام، بل إن الآية صريحة كل الصراحة بأن هذه المنكرات هي مما افتراه الشياطين، شياطين الإنس قبل شياطين الجن، وتقوّلوهُ على ملك سليمان، فقالوا إن السر في ملكه كان في خاتمه، وإن هذا الخاتم قد استولى عليه بعض الشياطين، حينما تصوَّر بصورة سليمان عليه السلام وأخذه من امرأته، وكان ما كان مما ينسجه الخيال المريض، وليس الخيال الخصيب الطيب.

والقرآن الكريم ينزه ساحة سليمان عليه الصلاة والسلام عن كل شبهة نقص ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وإذا كان أهل الكتاب قد أكثروا القول فنقلوا ما يصح وما لا يصح عن هذين النبيين الملكين عن الأب وابنه عليهما الصلاة السلام فإن ذلك لا يجوز أن ينقل في كتب المسلمين، وبخاصه تلك التى تتصل بالقرآن الكريم. ولقد حدثنا القرآن الكريم كما سنعلم إن شاء الله عن فتنتي الأب وابنه: كما جاء في سورة (ص) وكما سنذكر ذلك قريباً إن شاء الله، فقد حُشيت الكتب بالحديث عن فتنة كل منهما، وبما هو بعيد عن كل ما يتصف به ذوي العقل والذوق فضلاً على أن يكونوا أنبياء مختارين، وسأ حاول إن شاء الله ومن الله وحده العون أن أتتبع كثيراً من الشبهات مع أني لا أحب الإطالة في مثل هذا، لكن كثرت مثل هذه الأقوال في كتب الأقدمين والمحدثين فكان لا بد من التنبيه عليها مجلياً ما استطعت الحقائق التى تتحدث عن موطن العبرة، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

وجلَّ أنبياء الله ورسله عن كلِّ شائبةٍ تتنافى مع مقامهم السامي وذكرهم الذي يعطّرهذه الدنيا كلها، صلوات الله وسلامه عليهم ونخص خاتمهم سيدنا محمداً ﷺ تسليماً كثيراً، وأقول وبالله التوفيق.

من القصص التي ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله تعالى قصة داوود وسليمان عليهما السلام، ونذكر هنا ـ ما قلناه من قبل ـ من أن هذا القصص لا نجد فيه ما وجدناه فيما

تحدثنا عنه مما كان بين الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وبين أقوامهم، ولكن فيه عبراً أخرى لها أكثر من مغزى كما سنعلم ذلك إن شاء الله تعالى.

ونلحظ هنا ملحظاً لابد من التنبيه عليه، وهو أن هذا القصص لم ينزل مبكراً ـ كما وجدنا في القصص السابق.ـ وذلك لأنه ليس من ذلك النوع الذي يتعلق تعلّقاً مباشراً بالدعوة فيحمل التهديد ويظهر من خلال آياته تهديد المشركين المعارضين، والطمأنينة للمؤمنين، وتثبيت قلب النبي ﷺ هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن السور التي ذكرت فيها مثل هذا القصص لم تكن من الكثرة ـ كما رأينا في النوع الأول ـ وينتج عن هذين أمر ثالث، وهو أننا لم نر الحديث في هذه القصص يبدأ بالإشارات الموجزة المعبرة ـ كما رأينا من قبل ـ؛ لأنه لا داعي لتلك الاشارات فالحديث عن داود وسليمان عليهما السلام ذكر في هذه السور الأربع: (ص) والنمل وسبأ والأنبياء.

وأعني ان هذه السور الأربع هي التي حدثتنا عن طرف من أخبارهما وهناك سور كثيرة ذكر فيها اسماهما عليهما الصلاة والسلام، أو شي مما قيل عنهما كما رأينا في سورة البقرة، او مما أكرمهما الله به كقوله ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ في سورتي النساء والإسراء.

١ - ففي سورة (صٓ) بعد ذكر ما لقيه النبي ﷺ من المشركين يقول الله تبارك وتعالى له ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[١] [ص: ١٧] ويبين الله تبارك وتعالى ما خص به داود عليه السلام من قوة، ومن نعم، ومع ذلك لم تخل حياته من خصومات. . . فقد سخر الله تعالى الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق اي صباحاً ومساءً، وكذلك الطير وقد قوى الله ملكه وآتاه الحكمة، ومع ذلك الملك فقد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.[٢]

---

(١) ذا الايد: ذا القوة في اليدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه. أواب: تواب رجاع إلى مرضاة الله تعالى.

(٢) فصل الخطاب: الفهم في القضاء.

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧-١٩].

ثم حدثنا القران عن فتنته عليه الصلاة والسلام، والعجيب أن هذه السورة الكريمة التي حدثتنا عن فتنة الأب، حدثتنا كذلك عن فتنة الابن في قوله، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾، وقد كثرت الأباطيل حول هاتين الفتنتين.

أما فتنه الأب فهي التي ذكرت في قوله سبحانه:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢١-٢٤].

فقد نسجوا حول هذه الآيات الكريمة قصصاً كاذباً، وهذا نتيجة الثقة بالإسرائيليات ـ مع كل أسف ـ التي كثرت في تفسير قصص القرآن، ومع أنّها ضرر كلها إلا أن بعضها خروج صريح عن العقيدة، ومنافاة لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قالوا: إنه عليه الصلاة والسلام رأى امرأة أحد جنوده فأعجب بها، فأرسله للمعركة ليقتل فيتزوجها، وكان له تسع وتسعون من النساء، فأرسل الله له هذين الملكين ليبيّن له فظاعة ما فعله.

وهذا القول من حيث المروءة، واللياقة والدين، لا يليق بأي أحد من الناس، فكيف ينسب الى نبيّ، وسامح الله الذين ذهبوا إلى أن النعجة يقصد منها المرأة، والنعجة نعجة، وقد كرم الله بني آدم.

ولقد أنكر الأئمة هذا القول وشنعوا على قائله وبينوا أنه منكر وزور حتى أولئك الذين يكثرون من ذكر الإسرائيليات مثل الخازن رحمه الله في تفسيره.

فقد رد الفرية المنكرة مبينا أنها لا تتفق مع العقيدة الحقة، وتتعارض مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ويظهر أن هذا القول قد نشأ مبكراً في البيئه الإسلامية، فهو مما رواه كعب الأحبار: لذلكَ روي عن علي عليه السلام كرم الله وجهه ورضي عنه، قوله: من سمعتموه يقول في داود عليه السلام هذا القول فلا بد أن يُجْلد مئة وستين جلدة وهذا العدد هو ضعف حد القذف الذي ذكره الله في كتابه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: ٤].

فكأنه يرى ان حد قذف الأنبياء يجب أن يضاعف.

وهذا القول مناف للمروءة والشرف، فهو لا يقال على أحد الناس، ولا يرضاه أحد لنفسه فضلاً على أن يكون من الصفوة المختارة.

وكل ما كان من داود عليه السلام أنه حينما تسور أولئك المحراب، فلم يدخلوا من الباب الذي ينبغي أن يدخلوا منه فزع منهم ومع تطمينهما له بقولهما: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، إلا أن أثر ذلك الفزع كان لا يزال في نفسه والدليل على ما نقول: أن الخصمين بدءا يتحدثان، قال أحدهما: وهو صاحب النعجة: إن أخاه له تسع وتسعون. . .إلى آخر ما قال. تكلم صاحب النعجة وكان حرياً بداود عليه السلام أن يتريث ليسمع ما يقوله الآخر، وهو صاحب التسع والتسعين، ولكننا نجد أن داود عليه السلام يصدر الحكم دون أن يسمع من الآخر، من أجل ذلك عوتب واستغفر ربه وخر راكعاً وأناب، فغفر الله له ذلك وأكرمه بالقربى وحسن المنقلب، ثم أرشده بقوله ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فان الذي نهي عنه أن يتبع الهوى في الحكم، فأين هذا من الاسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير قديمها وحديثها؟!.

فذهب بعضهم إلى أن فتنة داود تكمن في أنه فزع، وما كان له أن يفزع وقال آخرون بل إنها تكمن في كونه لم يسمع من الخصمين بل اكتفى بسماع أحدهما كما هو ظاهر القرآن الكريم.

وهذا ما أرجحه، ذلك لأنّهما تسورا عليه المحراب، ولم يأتيا البيوت من أبوابها، والظاهر أنه لم يكن مجلس حكم، بل كان محرابه الذي يعبد فيه ربّه، والفزع من الأمور الجبلية في الإنسان، فما أظنّ أن الله يحاسبه على هذا الفزع، وأياً كان الامر فإن ما نُسج حول الآيات الكريمة خيال مريض مفرط مليء بالإنحدار والإنحطاط والهرطقة والكذب والزور.

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى أمر آخر وهو أن الله سبحانه وهب لداود سليمان عليهما السلام فأكرمه به نبياً مثله، وكما وصف الله الأب فأثنىٰ عليه وصف الابن وأثنى عليه فقال ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

ويلاحظ أن الأب والابن يذكران معاً لكن بعض السور قد تُفصّل الحديث عن الأب والأخرى قد تفصّل الحديث عن الابن، وثالثة تُفصّل الحديث عنهما كما رأينا في هذه السورة.

ثم ذكرت السورة خبر سليمان ـ عليه الصلاة والسلام وقد اختلفت فيه كلمة المفسرين مع كل أسف قديما وحديثا كذلك، وما حق لهم أن يختلفوا في مثل هذه القصة وهذه الآيات التي فيها الخبر هي قوله تعالى ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ(1) فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [ص: ٣١-٣٣].

ولا ندري ما ذنب الخيل حتى لو كانت قربانا، فإنها حرية أن تبقى للجهاد في سبيل الله، ويمكن أن تكون القرابين شيئا آخر كالأنعام مثلاً، هذا ما يراه كثير من المفسرين.

---

(١) الصافنات الجياد: الصفون الجمع بين اليدين في الوقوف، وصفها بالصفون والجودة ليجمع فيها وصفين محمودين وهما: واقفة وجارية، يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها.

ذهب الكثير من المفسرين في تأويل هذه الآيات إلى أن سليمان ـ **عليه الصلاة** والسلام ـ عرضت عليه الخيل، وهي الصافنات الجياد في وقت العشي **وبدأ يتفقدها** واحدة واحدة، وكانت من الكثرة بحيث شغلته عن صلاة العصر حتى غربت الشمس وتوارت بالحجاب وهذا معنى قوله ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي آثرت حب الخيل على ذكر ربي أي على الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب أي غربت، ثم أراد أن يكفر عما حدث منه من ذنب فقال: ردوها علي، أيْ رُدّوا الخيل عليّ فلمّا ردّوها بدأ يقطع سوقها وأعناقها، والسوق جمع ساق، هذا ما يراه كثير من المفسرين.

وذهب بعض الأئمة إلى تأويل الآيات على غير هذَا النحو، حيث قالوا:

إن سليمان عرضت عليه الخيل التي كان يعدها من أجل الجهاد في سبيل الله ففرح وقال إني أحببت حب الخير أي الخيل عن ذكر ربي أي أحببتها وآثرت حبها من أجل الله تبارك وتعالى والجهاد في سبيله حتى بعدت الخيل وتوارت بالحجاب، فقال ردوها علي أي ردوا الخيل علي بعد أن بعدت حتى لا يكاد يراها، فلما ردوها بدأ يمسح سوقها وأعناقها، إيناساً لها ورغبة في رؤيتها كما يمسح أصحاب الخيل خيولهم حباً وإعجاباً ورعاية، وهذا القول ذكره الإمام البخاري واقتصر عليه ونسبه الحافظ في الفتح لابن عباس واختاره الإمام الرازي في تفسيره وهو القول الذي يتفق مع ظاهر القرآن الكريم ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾.

ثم رأينا في هذا العصر من يتبع الإمام الرازي في هذا، ولكن وجدنا من يشنع عليه، فقد ذهب الشيخ حامد محيسن رحمه الله وهو من علماء الأزهر وهو في رتبة مشايخنا إلى هذا القول، ولكن الشيخ الذهبي ـ رحمه الله ـ في كتابه «التفسير والمفسرون» لم يرتضه منه، وشنع عليه، وما كان للشيخ الذهبي ـ رحمه الله ـ أن يصدر منه ذلك ونحن نقبل الرأي الاول إذا دل عليه حديث صحيح أما إذا لم يوجد ولا نخاله ـ قد وجد ـ

فلسنا ملزمين بالأخذ به إذ هو لا يعدو أن يكون من الإسرائيليات وشهرة القول لا تمنحه الصحة ولا يحق لأحد أن ينال من الآخر بسبب رأي يترجح عنده، على أننا نرجح الرأي الثاني لما يلي:

١- إنه أليق بالأنبياء.

٢- إنه ليس بحاجة إلى تقدير فاعل أجنبي كما هو في الرأي الأول؛ لأن الشمس التي قدرناها فاعلاً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ليس لها ذكر، أما إن قلنا إن الخيل هي الفاعل فذلك ليس غريباً على السياق.

٣-ما نظن أن نبيا يمكن أن يحدث منه مثل هذا، فيشغل عن صلاة العصر إن كانت هناك صلاة عصر مفروضة عليهم، الذي أود أنْ أقوله إن القضايا غير ذات الشأن حري بنا ألا نقف عندها وقفة طويلة، فنتقطع أمرنا بيننا تقطعا فنشغل عما هو الأهم والأولى الذي يجب أن توجه له العناية وتستخرج منه الكنوز وتحل فيه الرموز. ثم إنّ هذه الأقوال التي كادت تغدو مسلمة عند الأكثرين لاسند لها من آية محكمة أو سنة ثابتة.

فتنة سيدنا سليمان ﷺ:

وهناك قضية أخرى ذكرت عن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ كثرت حولها الإسرائيليات كذلك وهي قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٣٤-٤٠].

وتلكم الفتنة الثانية التى أشرت إليها من قبل لقد حدثتنا الآيات من قبل عن فتنة الأب، وهي تحدثنا هنا عن فتنة الابن.

وقد أكثروا من الإسرائيليات في تفسير هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]. فذكروا ما ينافي عصمة الأنبياء، وهذا من أثر الإسرائيليات التي أبتلينا بها فَشوّهت كثيراً من تراثنا، وآن لنا أن نتخلص منها.

والذي ذهب إليه كثير من العلماء في تفسير الآيه ما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. عن النبي ﷺ، قال: «قال سليمان بن داود: لأ طوفن الليلة علىٰ سبعين امرأة، تحمل كلّ امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيّه، فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»[١] قال شعيب وابن أبي الزناد «تسعين» وهو أصح.

وهذا القولُ اختاره كثير من المفسرين وفي مقدمتهم الإمام الرازي رحمه الله فعند تفسيره لهذه الآية الكريمه ذكر أن للناس فيها مسلكين اثنين مسلك أصحاب الحشو، وهم الذين ذكروا روايات لا تتفق مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ إنما هي من نسج الخيال المريض ـ فبعضهم فسر الجسد بأنه صنم وبعضهم قال إنه شيطان، وأنا لا أحب لك أيها القارىء أن تشغل بمثل هذه الروايات، لذلك آثرتُ أن لا انقلها في كتابي هذا.

ثم ذكر الرازي ـ رحمه الله ـ المسلك الثاني في تفسير هذه الآية ـ وهو مسلك المحققين من العلماء. فذكر أكثر من قول كان القول الأول تفسير الآية بالحديث الذي جاء في صحيح البخاري، وذكر أقوالاً أخرىٰ سيأتيك نبؤها فيما بعد إن شاء الله. ومن بعد الرازي رأينا المشاهير من المفسرين يرتضون هذا القول مثل أبي السعود في إرشاد العقل السليم. والألوسي في روح المعاني ـ رحمهم الله تعالى ـ وحجةُ هذا الفريق أنه في صحيح البخاري ـ رحمه الله ـ.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: حديث رقم ٣٤٢٤.

ولكن بعض العلماء لهم رأي في مثل هذه الأحاديث، وأقولُ بعض العلماء لأنني لا أعدُّ نفسي من العلماء من جهه حيث لا زلت أتتلمذ متطفلاً علىٰ موائدهم وسأدلي ما استطعتُ بدلوي من جهة أخرىٰ فيما بعد إن شاء الله تعالى.

قلتُ إن بعض العلماء لهم رأيٌ في هذا الحديث من أولئك الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء «وقصارى القول أن هذا الحديث يشتمل علىٰ خارق للعادة ولم يرد به نص قطعي الثبوت والدلالة، وأحاديث الآحاد لا تصلح حجةً عليه، وأنا لم أزل أقول باستبعاده، ولو أيقنت أنه من قول رسول الله ﷺ ما كان لي أن أماحل فيه ولكنه رواية ظنية لا يثبت بها أمر يحتاج فيه اليقين، وهو بعيد؛ إذ قدرة الإنسان تعجز، عن الطواف بسبعمائه امرأة أو سبعين في ليلة واحدة، والليلة لا تسع ذلك أصلاً مهما قدرت حظاً صغيراً لكل امرأة من الزمن.[1] هذا ما قاله الشيخ النجار.

أما أنا ـ ويعلمُ الله ـ فلستُ من الذين يسهل عليهم أن يقتحموا أسوار قدسية الإمام البخاري، وهذا الإمام الذهبي صاحبُ الباع الطولىٰ والمرتبة العلياء يقول في ميزان الاعتدل عند ترجمته خالد بن مخلد إن له غرائب ويذكر الحديث الذي أخرجه البخاري «من عادي لي ولياً. . .»ويقولُ الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ ولولا هيبة البخاري لعدّوا الحديث من مناكير خالد» وحديثنا هذا أعني حديث سليمان عليه السلام وطوافه على نسائه ـ هو من رواية خالد أيضاً. وإذا كنت قد سمعت قول الشيخ عبد الوهاب النجار ـ رحمه الله ـ فلتسمع مني شيئاً آخر. أنا لن أعرض الحديث من الجهة التي استمعت إليها من قبل، ولكنني أعرض له من جهة أخرىٰ، لقد رجعت إلىٰ صحيح البخاري -رحمه الله- في كتاب التفسير فلم أجده يذكره في تفسير سورة (صّ) عند تفسير هذه الآية، مع أنه ذكر روايات وأحاديث في تفسير آيات من هذه السورة، ولكنه ذكر هذا الحديث في كتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ ولو كان البخاري يراه تفسيراً للآية الكريمة لذكره في كتاب التفسير.

---

(١) قصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار ص٤٤٧.

وإني أعجب كلّ العجب من المفسرين الذين جعلوا هذا الحديث تفسيراً للآية الكريمة مع أن البخاري رحمه الله راوي هذا الحديث لم يذكره في تفسير سورة (صٓ) كما قلت.

وهذا يجعلني أرجح أن لا يكون الحديث تفسيراً لهذه الآية الكريمة، علىٰ أن للعلماء تفسيرات أخرىٰ لهذه الآية الكريمة.

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيرها وجوها منها: التفسير الذي نقلته لك، أعني تفسير الاية بالحديث.

(ومنها): قوله ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ منه ﴿جَسَدًا﴾ وذلك لشدة المرض، والعرب تقول في الضعيف إنه لحم علىٰ وضم وجسم بلا روح (ثم أناب) أي رجع إلىٰ حال الصحة، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه، ولا حاجة ألبتة إلى حمله علىٰ تلك الوجوه الركيكة.

(ومنها): أقول لا يبعد أيضاً أن يُقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى علىٰ ذلك الكرسي، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف وأعاده إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب.

أما قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم علىٰ صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة، ويمكن أن يجاب عنه بأن الانسان لا ينفك ألبتة عن ترك الأفضل والاولىٰ وحينئذ يحتاج إلىٰ طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ولأنهم أبداً في مقام هضم النفس وإظهار الذلة والخضوع، كما قال ﷺ «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»[١] ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى، والله أعلم».[٢]

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات حديث رقم ٦٣٠٧ الطبعة السلفية مع الفتح ١١/ ١٠١.

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الداذي ٢٦/ ص٢٠٩.

ونعتذر لشيخنا الرازي ـ رحمه الله ـ عن ترجيحنا هذا القول لأنه لا يتفق مع نظم القرآن البديع، فعلىٰ هذا الرأي الجسم الملقىٰ على الكرسي هو سليمان عليه السلام.

وألقينا على كرسيه جسداً منه مع أن الجسد يُطلق في اللغة غالباً علىٰ الجسم بلا روح.

والمفهوم من الآية الكريمة أن الجسد الذي ألقي علىٰ كرسي سليمان عليه السلام هو شيءٌ آخر وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في تفسير الآية رأياً غريباً لم يقل به أحد: «أقول: وعندي وجه لم يذكره أحد من العلماء، وهو أن كرسي داود عليه السلام إنما هو كرسي سليمان عليه السلام، لأن داود عليه السلام كان شيخ سليمان عليه السلام للملك والجلوس على كرسيه، وقد قام أبشالوم بن داود عليه السلام، وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسي ـ الذي هو في الواقع كرسي سليمان ـ وهرب منه داود إلى شرق الاردن، وسرح الجيوش لمقاتلته وباشر أبشالوم الحرب بنفسه، فقتل أبشالوم إذ مر به بغله تحت بطحة فتعلق في أغصانها من شعره، فأتى رئيس الجند يواب وقتله، وعاد سليمان عليه السلام إلى كرسيه بعد أن تزعزع بفعل أخيه أبشالوم، وتضرع إلى الله وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

لا شك في أن سليمان عليه السلام في تلك البرهة كان يعتقد اعتقاداً جازماً لا شك فيه أن الكرسي الملكي أفلت من يده ولا راد له سوى الله تعالى، فاستغفره تعالى لما قد أسلف من هواجس نفسية لا يخلو منها من كان مثله في سن الصبا من زهو بذلك الكرسي الذي ينتظره، والملك العريض الذي سيكون بيده صولجانه، فامتحنه الله تعالى بمن اغتصب ذلك الكرسي وتسرب إلى نفسه دبيب اليأس فاستغفر سليمان عليه السلام ربه لتلك الهواجس التى تعد على المقربين ذنوباً وهي غير ذنوب، وأناب إليه ضارعاً أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فآتاه الله ذلك الملك بعد وفاة أبيه داود الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً، وسخر لسليمان عليه السلام ما سخر من الجن والإنس والطير والرياح التي تجري بأمره، وكل ما يدعى خلاف ذلك فلا يخلو من أن يكون هاجس نفس أو جموح خيال وقد علمتم رأيي في الوجه الذي أتى به الفخر الرازي».[1]

(١) قصص الانبياء ـ عبد الوهاب النجار ص٤٤٦.

وهذا الرأي الذي ذكره الشيخ عبد الوهاب ـ رحمه الله- عول فيه على أخبار أهل الكتاب وإخال أنه لا يخلو عن بعد كذلك.

رأينا في فتنة الأب وفتنة الابن:

على أن الذي أفهمه من الآيات الكريمة وأنا أتلو الآيتين، أعني الآية المتعلقه بفتنة الأب، ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ والآية المتعلقة بفتنة الابن ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أقول الذي يبدو لي أن فتنة الاب كانت أعظم لأنها تتصل بأمر جماعي أما فتنة الابن وكانت تتصل بأمر فردي، تلمح هذا من قوله سبحانه ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

والذي جاء في الفتنة الأخرى ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ. . . ﴾.

فداود عليه الصلاة والسلام خرّ راكعاً، ولولا أن الامر فيه ما فيه لما كان ذلك منه، ولم يكن ذلك من سليمان عليه السلام.

فتنة داود عليه السلام تتصل بالحكم بين الناس، وهو قضية ذاتُ شأن وخطر لكن فتنة سليمان كانت شيئاً آخر.

وقد أرجح ما ذهب إليه بعضهم وهو أن سليمان عليه السلام كان له ابن يحبه فأخذه الله فجيء به على كرسي وحزن عليه كثيراً، وكأنما كان ينتظر له مستقبلاً مشرقاً، فكان منه ما كان بعد ذلك، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ فحسنات الابرار سيئات المقربين، والله أعلم بما ينزل، وقد أطلت في بيان ما قالوه في هذه الآية الكريمة لتدرك تغلغل الإسرائيليات في قصة داود وسليمان عليه السلام من جهة، واختلاف علمائنا في كثير من أخبارهما من جهة أخرىٰ، مع أن هناك عبراً وفوائد وقيماً ينبغي أن نوجه إليها ما منحنا الله، وما أنزل القرآن الكريم إلا لمثل هذا.

ثم قال سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]. ويتساءل بعض الناس:ـ

كيف جاز لسليمان أن يطلب مثل هذا؟.

والجواب أن لا محظور في مثل هذا، فهو إنّما طلب ملكاً لا ينبغي لأحد من الناس، وكان نبيا، فأحب أن يكون ملكه قاهراً لقومه، وهم اليهود، الذين كانوا يقولون فيه الأقاويل، وأن يكون معجزة له كذلك، والعجيب أننا نرى بعض أهل الكتاب لايؤمن به نبياً، فجعل الله له هذه المعجزة، وآتاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، والنبي ﷺ وهو القمة في تعليم الذوق واللياقة كما صح عنه، أنه أراد أن يقيد شيطانا في بعض السواري، ولكنه ذكر دعوة أخيه سليمان عليه السلام فتركه.. ياللعظمة في علو الخلق!! ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فأكرمه الله فسخر له الريح تجري بأمره رخاء[1] حيث أراد وقصد، والشياطين بنائين وغواصين[2] وآخرين مقرّنين مصفّدين[3] مقيدين، ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ[4] بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومع ذلك فان له عندالله زلفى وحسن مآب.

٢- أما سورة النمل: فقد تحدثت حديثاً مفصلاً عن سليمان فبدأت بما أكرم الله به داوود وسليمان عليهما السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥][5] فبعد هذا الإجمال لما أكرم الله به الأب والابن معاً، وحمدهما لله على هذه النعم، بدأت السورة الكريمة تفصل لنا في الحديث عن سليمان عليه السلام، وكيف أنه ورث داوود أباه عليهما السلام ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا

---

(١) رخاء: سهلة ليّنة.

(٢) كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون فيستخرجون اللؤلؤ.

(٣) اي كان يقرن مردة الشياطين بعضهم في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد، والصفد القيد.

(٤) اي أعط ما تشاء وأمسك كما تشاء.

(٥) فالعلم: النعمة الأولىٰ التي أنعم الله بها على الإنسان بعد الخلق، وهذا الذي أكرم الله به آدم.

﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقوله من كلّ شيء اجمال وحديث عن النعم الكثيرة التي لا تحصىٰ.

وتُحدثنا السورة حديثاً شائقاً ذا أهداف عالية سامية، فلقد حُشر له يوماً جنوده من الجن والإنس والطير وسار بجنده، أولئك جميعاً على تعدد أجناسهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من غير أن يشعروا بكن لصغر حجمكن، فأدرك قولها وإشارتها لجنسها، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾، وتوجه إلى ربه يشكره على نعمه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذا دعاء جامع له ولوالديه يشتمل خير الدنيا وخير الآخرة اللهم إنا ندعوك كما وبما دعاك نبيك سليمان عليه السلام، فلا تردنا خائبين.

ثم تبين الآيات حرص سليمان عليه السلام على رعيته وتفقده لهم ـ ولا عجب فهو النبي الملك ـ وكل راع لابد أن يكون على علم برعيته، ألم يقل الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لو عثرت بغلة في العراق لرأيتني مسؤولاً عنها لأنني لم أعبد لها الطريق، وهذا ما فهمه وما اكتسبه من سيد الأنبياء ـ ﷺ ـ من حيث سيرته وعمله، ومن حيث قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»(١).

يتفقد سليمان عليه السلام الطير فلا يجد الهدهد، ﴿مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ولكن لم يطل الوقت، ويأتي الهدهد بنبأ عظيم ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ سبحان الله! الهدهد يحيط

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاستقراض باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه باب رقم (١٠) حديث رقم (٢٢٧٨)، وكتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن باب رقم (١١) حديث رقم (٨٥٣).

بما لم يحط به سليمان عليه السلام، وهكذا يقولها الهدهد بكل جرأة وصراحة ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فلقد آلم الهدهد وأغاظه ما وجده من خبر أولئك القوم الذين تملكهم امرأة، ولها عرش عظيم، أغاظه وساءه أنه وجدهم يسجدون للشمس من دون الله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ومالهم لا يسجدون لله الذي خلق الشمس، والذي يخرج الخبء، كل ما هو مخبوء في السماوات والأرض، والذي يعلم ما يخفون وما يعلنون، إنه الله الواحد الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، إنه التوحيد المرتكز في كل ما خلق الله من هذه المخلوقات حتى تلك التي لا تعقل وهي الفطرة التي فطر الله الخلق كلهم عليها وهذا هو الهدهد ينكر الشرك بالله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الخلق كلهم، إلا أن الكثيرين من الناس انحرفوا بهذه الفطرة عن طريقها السوي فما أعظمه من درس! وما أجلها من عبرة! ويقول سليمان عليه السلام للهدهد سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ويكتب له كتاباً ليذهب به إلى أولئك يلقي الكتاب إليهم، ثم يدعهم موليا عنهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ اي الق الكتاب، وتنح ناحية تسمع قولهم، وبماذا يرجع بعضهم إلى بعض القول.

وتقرأ الملكة الكتاب وهو موجز جامع لم يزد سليمان عليه السلام فيه على أن قال من سليمان بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وائتوني مسلمين. وتسأل قومها الرأي فليست قاطعة أمرا من دونهم، ولكنهم لم يكونوا على شيء من هذا الرأي. كل الذي قالوه ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾. أرادت أن تستعين بمشورتهم، فلم يمدوها بشيء، ورجعوا الأمر إليها أولا وأخيرا. وهنا تدلي المرأة برأيها ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

لقد كان رأيا ينم عن حصافة وفكر وروي وحكمة. ما أضيع الشعوب التي لا تملك رأياً، ولا تستطيع التصرف حينما تدلهمّ الحوادث!! وما أضيع الشعوب التي تُحرم هذا

الرأي وما أضيع الشعوب التي تسلم زمامها لفرد أو فئة، فلا تستطيع أن تصدر عن شيء، وهو قدر الأمة العربية الإسلامية فهل منّ مستيقظ؟! لقد قدرت ملكة سبأ أنها إن استطاعت أن تغري سليمان عليه السلام بالهدية فإنها تستطيع أن تحاربه وتقاومه وتتغلب عليه، وإلا فليس بها قدرة عليه؛ لأنه ليس بملك كبقية الملوك، وتصل الهدية، وكانت هدية عظيمة يدلنا على ذلك قول سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما سجله القرآن الكريم، اتمدونني بمال فالذي أكرمني الله به وآتاني إياه خير مما آتكم، ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

ما المقصود بقوله الذي عنده علم الكتاب:

ويدرك سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنهم آتون لا محالة فيقول لبعض جنده من ذوي القدرة والبأس: أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ ويقول عفريت من الجن: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وكان مقامه نصف النهار ـ حيث كان يجلس للحكم بين الناس كما يقولون ـ ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ ولكن الذي عنده علم من الكتاب قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وقد اختلفوا في هذا الذي عنده علم من الكتاب، فقيل: إنه آصف، وهو من الإنس.

والذي نرجحه ـ والله أعلم ـ أنه سليمان عليه السلام نفسه ويكون معنى الآية حينئذ أن سليمان عليه السلام قال للعفريت من الجن إذا كنت تأتي به وكان إتيانك به يحتاج إلى هذه المدة وهي نصف النهار فانا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، ونستدل لهذا بما يلي:

١- إن سليمان عليه السلام نبي، وهو الذي منَّ الله عليه بالعلم حيث قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ لا يعقل أن يكون أحد من الناس أكثر علماً من نبي.

٢- كان ذلك من قبيل المعجزة لسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٣- قوله ـ فيما بعد ـ كما قص الكتاب الكريم ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ فيشكر الله على المنة التي أكرمه بها.

ويصل عرشها قبل أن تصل ويريد أن يتبين سليمان عليه السلام من حصافتها ورأيها ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[١] وتصل الملكة وتُسأل: أهكذا عرشك فلا تجيب بالنفي أو الإيجاب، وإنما تقول: كأنه هو، وتلك مرة ثانية تظهر فيها حصافة المرأة، ويقال لها: ادخلي الصرح، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها،[٢] فيبين لها ان لا حاجة لذلك لأنه لا ماء كما تتوهمين، وإنما هو صرح ممرد من قوارير،[٣] وتدرك المرأة الملكة أن ما أعطيه سليمان عليه السلام ليس مما يعطاه ملوك الدنيا، وإنما الرجل يجمع إلى الملك النبوة، فتدرك خطأها الذي كانت فيه من عبادة غير الله فتعلن إسلامها ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ

---

(١) أي ننظر أتعرف عرشها أم لا تعرفه.

(٢) أي ظنت فيه ماءً.

(٣) زجاج كله صفاء ونقاء.

شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ١٥-٤٤].

٣- ثم تأتي سورة **سبأ** وتبدأ الحديث عن داود وما أكرمه الله به من تسبيح الجبال معه، وتسبيح الطير والإلانة الحديد له ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] ولا عجب في ذلك فكل شيء يسبح بحمده تبارك وتعالى، ألان الله له الحديد، ومن طريف ما قالوه: «لقد ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود

الحديد» وأبو داود السجستاني ـ رحمه الله ـ صاحب السنن[1] ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١] هكذا كان عمل داوود عليه السلام والسابغات الدروع، والتقدير في السرد هو إحكامها وإتقانها بحيث تكون سويّة من حيث السعة والضيق فتكون الحلق منسجمة بعضها مع بعض ولقد ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ «أن خير الناس من يأكل من عمل يده ولقد كان داود يأكل من عمل يده»[2]

ثم تحدثت الآيات بعد ذلك عن سليمان عليه السلام. وما أكرمه الله به، وكيف أنه سخر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسال له معدن النحاس، كما سخّر له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، أما من ينحرف منهم عن الجادة والطريق المستقيم؛ فإنه يُعذَّب ويُذاق من السعير، وكان هؤلاء الجن يعملون المحاريب، وهي أمكنة مخصّصة للعبادة، ومجالس للحكم والقضاء، كما يعملون التماثيل والجفان الكبيرة التي تشبه الجوابي[3]. وهي جمع جابية ليوضع فيها الماء. والقدور الكبيرة: وهي جمع قدرة. الراسيات التي توضع على الأثافي، وهي الحجارة التي يوضع عليها القدر ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ ويقول الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾، والشكور: هو الذي وجه كل طاقته لشكر الله تبارك تعالى، بقلبه ولسانه وجوارحه وهو الذي يرى نفسه عاجزاً عن الشكر؛ لأن نعم الله كثيرة، إن أولئك قليل، ولقد سمع عمر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يوماً يقول: اللهم اجعلني من القليل: فقال له ما هذا الدعاء؟ قال إن الله يقول ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ فاسأل الله أن يجعلني من أولئك القليل. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كل الناس أعلم من عمر!!.

---

(١) وهو أحد الكتب الستة وكتابه أكثرها علما من حيث الأحكام.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده باب رقم (١٥) حديث رقم (١٩٦٦).

(٣) المحاريب: الأبنية الرفيعة. التماثيل: ما يكون فيها من نقوش. والجفان: جمع جفنة وهي ما يوضع فيه الطعام وقدور راسيات: تلك الاواني التي يطبخ فيها.

فلما قضى الله على سيدنا سليمان ﷺ الموت، والجن يعملون له، ما دلهم على موته إلا دابّة الأرض، وهي الأَرضة، تأكل منسأته، وهي العصا فوقعت فخر سليمان عليه السلام حين ذلك تبينت الجن موته.

ثم يأتي التعقيب القرآني ليصحح خطأ لا يزال عند كثير من الناس حتى اليوم وهو ما يتوهمه كثيرون من أن الجن تعلم الغيب، فيقول الله: إنهم لا يعلمون الغيب، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

وترى أن القصة القرآنية تعقب بحقائق تكون ذات هدف سام، وغاية غالية جادة يريد القرآن تحقيقها، فليس سرداً لأحداث فحسب، وإنما هي ذات مغزى ودلالات، ذات أثر إيجابي. ذلكم هو حديث سورة سبأ عن داود وسليمان ـ عليهما الصلاة والسلام.

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٢-١٤].

وقبل أن نغادر سورة سبأ أود أن أشير إلى ذلك النسق العجيب. لقد حدثتنا سورة سبأ كما رأينا، عن آل داود، الذين أنعم الله عليهم، فشكروا على نعمه ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ ثم حدثتنا السورة بعد ذلك عن أنموذج آخر من الناس، أولئك الذين جحدوا أنعم الله عليهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣] أولئك هم أهل سبأ الذين أنعم الله عليهم، فكان لهم في مساكنهم جنتان عن يمين وشمال ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ولكنهم لم يحفظوا النعمة، ولم يشكروا الله، فأعرضوا، فأرسل الله عليهم سيل العرم، وبدلهم بجنتيهم الطيبتين جنتين أخريين، ذواتا أكل خمط وأثلٍ وشيء من سدر قليل ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ وهكذا ظلموا أنفسهم، وجعلهم الله أحاديث، ومزقهم شر ممزق، حتى ضرب بهم المثل، فقيل: تفرقوا أيدي سبأ.

ألم أقل لك أيها القارىء الكريم، إن القصة في السورة الكريمة تتلاءم مع موضوعها وسياقها، لقد حدثنا القرآن الكريم عن داود وسليمان عليهما السلام في سورة النمل، وحدثنا عن ملكة سبأ، ولكن الحديث عن اهل سبأ لم يكن في السورة التي تكلمت عن ملكة سبأ، هذا الذي كان يبدو ظاهراً؛ ذلكم لأن النسق الفني والدراسة الموضوعية اقتضيا هذا الترتيب البديع ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦].

٤- ثم تأتي سورة **الأنبياء**، تتحدث عن داود وسليمان ـ عليهما الصلاة والسلام حديثا لم يمر من قبل، وذلك في قوله سبحانه:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ . فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ . وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ . وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ . وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ . ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٢].

تحدثت الآيات عما أكرم الله به داود وسليمان عليهما السلام من تعليم قواعد الحكم وأصوله. والنفش: هو انتشار الغنم في الليل، وكانت هذه الغنم قد انتشرت فأتت على حرث فرعته وأذهبته، فجاء القوم يتحاكمون عند داود وسليمان عليهما السلام، فكان حكم داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تعطى الغنم لأصحاب الأرض؛

لأنه لحق به الضرر، ولكن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ رأى بتوفيق الله سبحانه أن لو كان هناك حكم آخر يكون أرفق بهما، قال الأب لابنه: ما حكمك في هذا؟! قال: أن تُعطي الأرض لأصحاب الغنم يفلحونها ويزرعونها وأن تُعطى الغنم لأصحاب الحرث حتى إذا عادت الأرض كما كانت ترجع الأرض لأصحابها ويأخذ أصحاب الغنم **غنمهم**، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وأظن أن في ذكر مثل هذه الحوادث في سورة الانبياء ما يتلاءم مع موضوع السورة لأن هذه وظيفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن في ذكر ما مر في سورة سبأ ما يتلاءم مع موضوعها كذلك ثم هي بعد ذلك تبصرة وتعليم لأولئك الذين يُقَلَّدُّون مهمّة الحكم بين الناس فلا يرى أحدهم بأسا أن يرجع عن خطأ كان منه أو أن يرجع إلى ما هو خير مما حكم به، وقد رأينا الأب يرجع إلى حكم ابنه وهذا ما أرشد اليه كتاب عمر رضي الله عنه في القضاء.

وبعد هذه المنة ذكر الله منّة أخرى ذكرت من قبل، ولكنها جاءت هنا بأسلوب آخر، جاءت بلفظ التسخير ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾. وتقديم الجبال على الطير؛ لأنها أعظم وادل على سياق القدرة؛ لأنها جماد ولا يحس، فالتسبيح منها أعجب من التسبيح من الطير ولهذا ختمت الاية بقوله تعالى ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وما أجمل أن تأتي كلمة الفعل هنا وهي صدور الأثر من المؤثر بقصد أو بدون قصد، وهو بالنسبة لله تعالى ظاهر الحكمة والهدف، ولكنه من الجبال والطير يختلف عن أن يكون من الإنسان المدرك الهادف.

ثم يقول الله تعالى إنّه علم داود عليه السلام صنعة لبوس، وهذه الآية الكريمة تدل على ان داود عليه السلام كان أول من فعل ذلك؛ لأنه أسند التعليم اليه ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ (١) فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ وهذه منة لا على الذين كانوا في عهد داود عليه السلام فقط، ولكن على اولئك الذي خوطبوا في عهد النبي ﷺ، وهي نعمة تستحق الشكر.

---

(١) أي لتقيكم عدوكم، فهي جُنَّة أي وقاية وهي تختلف باختلاف العصور.

ثم بين القرآن ما أنعم الله به على سليمان عليه السلام فذكر نعمتين اثنتين:

أولاهما: نعمة الريح[1]، وقد جاء في الآية هنا ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وكونها عاصفه لا يتنافى مع ما جاء في سورة (ص) في قوله رخاءً لأنها تجري كما يريد، وقد تكون لينة حينا وعاصفة حينا اخر.

أما النعمة الأخرى: فهي أن من الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك، وذلك كله بحفظ الله تبارك وتعالى. وهذا خبر داود وسليمان عليهما السلام.

٥- ثم جاءت **سورة البقرة** لتنفي عن سليمان عليهما السلام السحر كما اتهمه المنحرفون، ولتثبت ما أكرم الله به داود عليه السلام حينما قتل جالوت ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [الآية: ٢٥١] أين مظاهر التكرار في هذه الأخبار جميعا!؟.

إن هناك قضية واحدة ذكرت وهي قضية الريح، وقضية عمل الشياطين، ولكن كان لكل مجالها وموضوعها. ففي سورة سبأ مثلاً بين أن الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وفي سورة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ذكر أنها عاصفه تجري إلى الأرض التي باركنا فيها.

وفي سورة (ص) بين أن الله جعلها رخاء حيث أراد ففي كلّ سورة طرف من خبر هذه الريح.

وهكذا ندرك أن أمر التكرار مُنْتَفٍ انتفاء تامّاً بل هو غير متصور.

---

(١) الريح: عاصفة.

تعقيب على قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

ونقف متأملين عند قصة داود وسليمان عليه السلام، النبيين الملكين، الأب والابن، وقد نقل صاحب المنار ـ رحمه الله عن أن النصارى ينفون نبوة سليمان عليه السلام ويزعمونه فيلسوفا حكيما فحسب؛ لأنهم يتحكمون في إثبات النبوة ونفيها عمن يشاؤون من أنبياء بني إسرائيل، وعلل ذلك بما نقله عن بعضهم[1]. واما المسلمون فموقفهم من الأنبياء يستمدونه من كتابهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن السنة الصحيحة التي نقلت عن النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

لقد امتن الله على داود وسليمان عليه السلام في أكثر من آية بالعلم، وهو فضل الله على من يشاء من عباده، ولقد كان هذا العلم لجوانب كثيرة من الكون، ولكننا نلحظ أن الله تبارك وتعالى وقد منّ عليهما بالعلم شرفهما بوصف آخر ذكر أكثر من مرة وهو العبودية ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾، فمع هذه النبوة والملك والعلم تأتي العبودية الصادقة لتتوج ذلك كله، وقد ذكر في خبرهما ما استغله بعض القصاص، واحتل مساحات بعد ذلك من كتب التفسير، والحق الذي لا مرية فيه أن ما ذكره القرآن عن هذين النبيين ـ وعن غيرهما بالطبع ـ ينسجم مع ما يستحقه الأنبياء من الإجلال والتقدير، ومع ما أكرموا به من العصمة، ومع المنهج التربوي المتكامل الذي اختص الأنبياء به ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، لقد استغل نبأ الخصمين اللذين تسورا المحراب فقالوا فيهما ما ينافي عصمة الأنبياء، كما استغلت بقية الأخبار التي تحدثنا عنها في سورة (صٓ) وفي سورة النمل، وفي سورة سبأ.

---

(١) تفسير المنار جـ٦، ص٣٢٣.

إن أخبار الأنبياء في القرآن لا تشوبها شائبة شك، ولا تحوم حولها شبهة، فهم المصطفون الاخيار، ويمثل الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ أخبار الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في القرآن الكريم، وفي غيره فيقول: «إن مثل الأنبياء في غير القرآن الكريم كبستان فيه الشجر المثمر وغير المثمر، وفيه الشوك والعوسج، وغير ذلك مما لا فائدة فيه؛ بل فيه الضرر المؤكد.

أما أخبارهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في كتاب الله فكبستان ليس فيه إلا الزهرة النضرة الندية، والثمرة الشهية». وهكذا نجد أن داود وسليمان ـ عليهما الصلاة السلام ـ، قد أسهما بنصيب وافر في البناء الإنساني المحكم، فغاية النعمة تستلزم غاية العبودية. . . وهكذا كلما عظمت نعم الله تبارك وتعالى على العبد خلصت عبوديته لله تعالى.

ولقد رد القرآن الكريم عن هذين النبيين الملكين العبدين كل ما أثير حولهما مما لا يليق بعباد الله وأنبيائه، فالسحر الذي نسب لسليمان عليه السلام يرده القرآن ردا عنيفا ويحكم على الذين أثاروا هذه الشبهات بالكفر فلم يكن ساحراً ولم ينزل عليه ولا على أبيه سحر. . ولقد خصه بكتاب فيه الحكمة وذكرهما مع النفر الذي أكرمه الله بالوحي والفضل، فقال سبحانه في سورة النساء ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا[1] ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال في سورة الإسراء ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وهكذا كلما شكر العبد ربه، وافتقر بعبوديته لله، أكرمه الله بنعمه وأحاطه بفضله ومنه. . . اللهم اجعلنا من الشاكرين. . . آمين.

---

(١) لما كان لداود مُلكاً اراد الله أن يبين أن تفضيله لم يكن به وإنما فضل بما آتاه الله من حكمة ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس عشر

قصة أيوب عليه السلام.

أولاً: ما ذكر فيها من إشارات.

١- سورة (صٓ).

٢- سورة الأنبياء.

ثانياً: تعقيب على قصة أيوب عليه السلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

وقد ذكرت قصة أيوب عليه السلام في سورتين اثنتين: سورة (صٓ)، وسورة الأنبياء، وهذا يدل على ما ذكرته لك من قبل أن هذا القصص الذي ليس له صلة مباشرة بالدعوة لم يذكر في سور كثيرة على عكس القسم الآخر حيث رأيناه في سور كثيرة متعددة.

١- ففي سورة (صٓ): نقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

تفصّل السورة هنا تفصيلاً ما في خبر أيوب عليه السلام، وقد نادى ربه أنه قد مسّه الشيطان بمرض وضرر ومعاناة، وهذا من الأدب مع الله تعالى فلم ينسب ذلك له وكيف أن الله تبارك وتعالى منّ عليه فقيل له: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ فنبع ماء ليغتسل فيه ويشرب، فيكون بذلك بُرْؤُه مما به من سقم، ووهب الله له أهله ومثلهم معهم[1] رحمة منه تبارك وتعالى، وذكرى لأولي الألباب الذين يصبرون ويستقبلون ما منّ الله بالرضا والطمأنينة.

ثم تتحدث الآيات عن رخصة جعلها الله له، وقد أقسم أن يضرب امرأته عددا من الضربات فقال الله له ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ وهي حزمة مجمعة من عيدان متعددة خفيفة رقيقة[2] فاضرب به ولا تحنث، كان ذلك تكفيراً ليمينه، ثم يثني الله عليه سبحانه بقوله ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ فليس للصابر إلا الجزاء الأوفى.

---

(١) ووهبنا له أهله: أي جمعنا شمله بهم بعد أن تفرقوا عنه ومثلهم معهم: أي كان لهم من الأولاد، مثلهم، وهم أحفاده عليه السلام.

(٢) راجع في معنى الضغث مامر في قصة يوسف عليهم الصلاة والسلام عند قوله «أضغاث أحلام».

٢- وتأتي سورة **الأنبياء** بعد ذلك على ما نعرف من إيجازها في الحديث عن الأنبياء، وفيها نقرأ قول الله تعالى: ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤] والضرُّ: بالضم هو المرض، والضر بالفتح أعم منه حيث يكون بالنفس والأهل والمال وغير ذلك، ويبين ربنا تبارك وتعالى أنه استجاب له نداءه وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده سبحانه وذكرى للعابدين، ألا ترى معي أننا حينما نجمع الآيتين نخرج بنتيجة رائعة وهي أن أولي الألباب لن يكونوا كذلك، إلا إذا كانوا من العابدين الذين كانت العبادة ديدنهم وأن العابدين بحق حريّ بهم أن يكونوا من أولي الألباب فلا ينبغي للعابد أن يكون إمعة، ولا يجوز للعابد أن يكون غرّاً، «لست بالخب ولا الخب يخدعني».

العابدون هم إذن أولو النهى وأولو الالباب، وذوو العقول الحصيفة الراجحه يقودون ولا يُقادون إلا بالحق، لا يمكنون غيرهم أن يلعب بهم ألم يصف الله بعض أنبيائه بقوله ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ونحن نرى أن كثيرين يوصفون بالعقل الراجح والفكر المستنير وهم أبعد ما يكونون عن عبادة الله تعالى وهناك كثيرون ممن يوصفون بالعبادة، وهم ابعد ما يكونون عن الحنكة والحكمة. أرأيت كيف أن القصص القرآني يمدنا بحقائق ويصحح لنا أخطاءً، ويخرجنا من متاهات مظلمة؟ ذلكم الكتاب ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

ثانياً: تعقيب على قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

نقف عند قصة أيوب النبي الصابر لنشير باديء بدء أن ما قصّهُ القرآن علينا من خبر أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لم يكن فيه من غرابة الشأن ما يخرجه عما ألفه الناس، ومع ذلك وجدنا القصّاصين عشّاق الإسرائيليات ينسجون حول هذا الخبر ما يجوز ومالا يجوز ، وما يصح وما لا يصح، بل ما يتنافى مع عصمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام

وكراماتهم كل ما أفادته قصة أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أنه ابتلي بمرض وببعض المصائب، ولكنه صبر وتضرع إلى ربه فمن الله عليه بالشفاء وهداه إلى ماء يمكن أن يغتسل به ويشرب منه؛ ليكون برءاً لمرضه، ثم إن أهله قد تفرقوا عنه فأكرمه الله حيث ردهم عليه وكان مثلهم معهم من بنيهم، كما قص علينا القرآن الكريم أن أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ حلف أن يضرب بعض أهله، لأمر حدث منهم لم يقصه علينا القرآن؛ لانه لا عبرة فيه، حلف أن يضربهم عدداً معيناً؛ فأوحى الله إليه أن يأخذ بيده ضغثاً فيضرب به. . . ولكنهم أثاروا حول ذلك كثيراً وكثيراً فذكروا أخباراً في سبب ما أصاب أيوب، وهي أخبار كاذبة بالطبع.

ثم ذكروا أن مرضه ـ عليه الصلاة السلام ـ كان من تلك الأمراض المنفره فذكروا أن جسمه كان مرتعاً للدود، إلى غير ذلك من الاخبار الكاذبة الشاذة التي لا تجوز على الأنبياء. . .ثم قالوا إن أهله قد ماتوا جميعاً، ولكن الله أحياهم له بعد ذلك وأعطاه مثلهم معهم. . .ثم ذكروا أن امرأته أخطأت خطأ حيث تصور لها الشيطان ودلها على شفاء أيوب بعمل شيء محرم فحلف أيوب أن يجلدها مئة جلدة. . .كل ذلك مما لا ينبغي أن يعول عليه، بل ينبغي أن لا يركن إليه. . .ولعل هذا جعل عند بعض الكاتبين ردة فعل قوية عنيفة فأول هذه الآيات وحملها على غير ما تحمل عليه فراراً مما نسج حول هذه الآيات الكريمة ففسر قوله تعالى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ اعراض الناس واستهزائهم بالدعوة والداعين فإن ذلك من عمل الشيطان، فشكوى الأنبياء لم تكن إلا بسبب إعراض أممهم عن الاستجابة، وحزنهم لم يكن إلا بسبب بطء في سير الدعوة، واستدل بقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أما قوله تعالى ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ المراد ﴿اركض﴾ عقد العزيمة وتأكيدها، واستتمام الثقة وإكمالها؛ وذلك لأن الشكوى تشعر بالوهن وعدم القوة في السير إلى الغاية لذلك، هذا ما كان من جواب تلك الشكاية.

أما قوله تعالى ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ لما كان تردد المرء في غايته ووهن عزيمته مرضا يضايق الصدور كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلا للروح من صدئها، وشفاء للنفس من مرضها، فالمراد من المغتسل هو عقد العزيمة واستكمال الثقة، وهنا يكون اسم الإشارة راجعا إلى الركض بالرجل التي هي كناية عن عقد العزيمة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: هدينا أهله فامنوا به واستجابوا لدعوته، وهدينا له مثلهم من غير أهله، فالهبة هنا هي الهداية والإرشاد، لا هبة الخلق لأن ما يهتم به الأنبياء هو أن يهدي الله بهم لا أن يولد لهم. وقوله تعالى ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي: لا ترفع في وجوه قومك رمحا ولا عصا ولا تغلظ لهم في القول، بل لوح لهم في وجوههم بالرياحين ولا تأثم بالغلظة.

وهذه التأويلات ـ كما نرى ـ بعيدة كل البعد عن مدلول اللفظ القراني، ولا ينبغي أن نحمل الألفاظ مالا تحمل، ولقد رد العلامة الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ شيخ الأزهر الأسبق هذه التأويلات وأطال الكلام في ذلك.

والآيات ـ كما قلنا من قبل ـ بعيدة عما أثير حولها من قصص إسرائيلي، كما ينبغي أن تبقى بعيدة عن هذا التكلف كذلك، وإذا كان داود وسليمان عليهما السلام قد وضعا في البناء المحكم لبنة الشكر: فإن اللبنة التي وضعها أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانت لبنة الصبر... والشكر والصبر أساسان لابد منهما في هذا البناء الإنساني... ولهذا ذكر هؤلاء الثلاثة معا في قوله سبحانه ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾ نسأل الله أن يمن علينا بالشكر والصبر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس عشر والسابع عشر والثامن عشروالتاسع عشر

قصة يحيى وزكريا وعيسى ومريم عليهم الصلاة والسلام

١- في سورة مريم.

٢- في سورة الأنبياء.

٣- في سورة آل عمران.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس عشر والسابع عشر

أولاً: قصة يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام

ومن القصص التي ذكرت أكثر من مرة ما حدثنا القرآن الكريم عنه من خبر زكريا عليه السلام، فقد جاء الحديث عنه وعن زوجه وابنه يحيى عليهما السلام.

أولاً: في سورة مريم حيثُ بدأت السورة بهذا الحديث:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ١-٧].

وتبين الآيات الكريمة كيف أكرمه الله تبارك وتعالى وامرأته عاقر وقد بلغ من الكبر عتيا:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

ويسأل ربه آية فتكون آيته ألا يكلم الناس ثلاث ليال دون أن يصيبه مرض من بكم أو غيره ثلاث ليال سوياً: أي صحيحاً غير مريض.

ثم يبين الله ما منّ به على يحيى عليه السلام:

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٢-١٥].

٢- أما سورة **الأنبياء**: فيأتي النسق فيها متلائما مع هذا الإيجاز الهادف الوافي:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

ونحن نرى أن كلاً من السورتين اشتملت على قضايا جديدة يدرك ذلك من وقف أمام النص القرآني يستجلي معانيه، ويتفهم مقاصده، وهاتان السورتان مكيتان.

٣- ثم جاءت سورة **آل عمران** المدنية، وكان الحديث فيها عن آل عمران حيث فصل فيها ما لم يفصل في السورتين الأوليين، فزكريا عليه السلام كفل مريم فلما رأى من عجيب قدرة الله حمله ذلك على أن يدعو ربه ليمن عليه بشيء من هذه العجائب وكفلها زكريا عليه السلام:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٧-٣٩].

هذه الحلقة لحكمة ما اختصت بها هذه السورة؛ لأنها هي السورة التي تحدثت عن آل عمران، وما اختصوا به، بل سميت السورة باسمهم كذلك. وتبين هذه السورة أن تكليمه للناس في الأيام الثلاثة لا يكون إلا رمزاً، وهذا ما لم يُشَر إليه في سورة مريم، وإنما ذكرت ليالٍ ثلاث ويفهم من السورتين أنها كانت أياما بلياليها.

والذي جاء في سورة مريم أنه دخل على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا. أما هنا فليس الأمر كذلك فهو المذكور بالذكر والتسبيح ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾. وما أبعد ذلك عن التكرار!.

ولقد كان يحيى عليه الصلاة والسلام كما ذكر الله تبارك وتعالى نبياً من الصالحين يأخذ الكتاب بقوة يعلم الناس الخير، فلقد أخرج الترمذي رحمه الله تعالى في جامعه أن الرسول ﷺ قال: «إن الله أمر يحيي ابن زكريا بخمس كلمات».

عن الحارث الاشعري أن النبي ﷺ قال: إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها، وانه كاد أن يبطىء بها فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى أخشى إن سبقتني بها يخسف بي أو أُعذَّب فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ «المسجد» وتعدّوا على الشرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن اعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن.

أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وان مثل من أشرك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله ذهب أو ورق، فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيّكم يرضى أن يكون عبده كذلك وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته مالم يلتفت.

وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عندالله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقه فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه، وآمركم أن تذكروا الله مثل ذلك الرجل خرج العدو في إثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

قال النبي ﷺ وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن ادّعى دعوى الجاهلية فإنه جثي جهنم فقال رجل يا رسول الله وإن صلّى وصام قال وإن صلّى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله[1] وهذا الحديث يدلنا على حرص أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام على تبليغ ما أمروا به فهاهو يحيى عليه السلام يخشى إن بلّغ عنه عيسى عليه الصلاة والسلام أن ينزل الله به عقابه ويظهر أن إبطاء يحيى بالتبليغ لما عرفه عن بني إسرائيل من كرههم للحق وهزئهم بأصحابه وهذا ما وصفهم الله به ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] ثم إن هذه الأوامر التي أوحاها الله إلى يحيى ابن زكريا وأراد عيسى تبليغها عليهم الصلاة والسلام كانت من الأمور التي تركها بنو إسرائيل وأول هذه الأوامر التوحيد والعبادة.

ولقد كان القوم بعيدين عن التوحيد الخالص وكانت عبادتهم خداجاً ويظهر أن صلاتهم كانت كذلك كما جاء في الحديث، وأنهم كانوا ينحرفون بالصوم عن حقيقته أما الصدقة فأمرهم فيها معلوم حيث هيمن عليهم الشحّ وأمّا ذكر الله تبارك وتعالى فكانت قلوبهم منه خالية ولذا فإن سيدنا رسول الله ﷺ لم يأمر الصحابة بهذهِ الأوامر.

ومن اللطائف القرآنية في قصتهما عليهما الصلاة والسلام أنه جاء في سورة مريم ثلاث ليال سوياً، وسورة مريم كما قلنا مكية. والليالي الثلاث قد تكون في يومين اثنين فإذا افترضنا مثلا الليالي الثلاث ابتدأت من ليلة الجمعة فتكون الليالي الثلاث ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، وهذه الليالي لها يومان: يوم الجمعة ويوم السبت.

---

(١) راجع شرح هذا الحديث الشريف في كتابنا «خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة» ص٢٧٩ والحديث أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٣/ ٢٨٦٧ وقال حديث حسن صحيح غريب.

السر في ذكر الايام في آل عمران:

ثم جاءت سورة آل عمران وهي مدنيّة فذكرت فيها الأيام ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ ومن مجموع الآيتين ندرك أن المدة التي لا يكلم الناسَ فيها زكريا عليه الصلاة والسلام من غير علة أو مرض بل كان عدم قدرته على تكليمهم المعجزة التي بينها الله له هذه المدة كانت ثلاثة أيام بثلاث ليال، ولعلك أيها القارىء الكريم بدأت تدرك لماذا ذكرت الليالي قبل الأيام فلو أن الأيام ذكرت في سورة مريم ما كان لذكر الليالي معنى في سورة ال عمران لأن الليلة تطلق على ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر. أما اليوم فيطلق على النهار والليل معا، فذكر الليالي في سورة مريم المكية لا يغني عن ذكر الأيام التي جاءت في سورة ال عمران المدنية أرأيت إلى هذه اللطائف البديعة في كتاب الله؟ إنّ قصة يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام تملأ النفس يقيناً بآثار القدرة الربانية وتبين لنا فضل الدعاء الخفي فلقد بلغ زكريا عليه الصلاة والسلام من الكبر مبلغاً تداعت فيه قوته فلقد وهن العظم منه، والعظم هو الهيكل القوي في الإنسان واشتعل رأسه شيبا، ولكنه مع ذلك كان يرى سعادته بأن يدعو الله بعيداً عن ظواهر اليأس والقنوط، ولقد خاف الموالي من ورائه، وخاف أن يضلّ الناس من بني إسرائيل فهم مع وجود الأنبياء فيهم، يملأ الضلال قلوبهم ويستولي على نفوسهم فكيف إذا لم يبعث فيهم أنبياء؟!.

لذلك سأل زكريا عليه السلام ربه وليّاً يرثه ويرث من آل يعقوب وأن يكون رضيّاً ولم تكن الثروة المادية هي التي تشغله عليه الصلاة والسلام إنما هو ميراث النبوة فبشّره الله تبارك وتعالى بنبيّ كريم لم نجعل له من قبل سمياً وهو رضيٌّ أكرمه الله القوة والحكم وهو بعد ذلك مصدق بكلمة من الله ثم هو عظيم الشرف آية في الطهر والعفة وهو قبل ذلك وبعده نبي من الصالحين وهو من الفئة التي كرّمها الله بالنبوّة.

وكثير من أنبياء الله الذين كرمهم الله وصفهم بأنهم من الصالحين ويكفي أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم ﷺ ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولكن هذين النبيَّيْن الصالحين لقيا من اليهود العنت والشدة بل إن هذا النبي كان من جملة أنبياء كثيرين قتلهم اليهود بغير حق بغياً وعدواناً. ما أعظم شأن الدعاء وهو يصدر من القلب المؤمن ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ الأوصاف العظيمة من شأنها أن تمنح المتصفين بها اجلالاً وهيبةً وأن تجمع الناس حول أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ويدعون ربهم رغباً ورهباً يرجون رحمته ويخافون عذابه وكانوا لنا خاشعين وهي صفة تكاد تكون من الصفات النادرة خشعت جوارحهم وقلوبهم ولكن كل هذه الصفات التي كان من شأنها أن يهتدي بها الآخرون لم تزد بني إسرائيل إلاعتواً ونفوراً ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

الفصل الثامن عشر والتاسع عشر

ثانياً: قصة مريم رضي الله عنها

وقصة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام

أما قصة مريم فقد ذكرت أول ما ذكرت في السورة التي سميت باسمها وهي أكثر سورة فصل فيها الحديث عنها، فبعد الحديث عن زكريا ويحيى ـ عليهما الصلاة السلام ـ، يحدثنا القرآن عن مريم ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ يبدأ الحديث عن مريم من هذه الحلقة المتأخرة نسبياً من حياتها، وهي بداية تتسق وتتفق مع ما قبلها وما بعدها في السورة الكريمة، ففي أول السورة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كٓهيعٓصٓ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وفي بداية قصة مريم ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ ويأتي بعد هذا ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾.

يحدثنا القرآن أن مريم ـ رضي الله عنها ـ اعتزلت أهلها فانتبذت منهم مكاناً شرقياً، واتخذت من دونهم حجاباً، ويظهر أن هذا الحجاب لم يكن مجرد حائل وساتر من أجل أن تمشط رأسها أو تفلي شعرها ـ كما تقول بعض الروايات ـ، وإنما كان ذلك الحجاب حاجزاً فيه بُعد يدلنا لذلك قوله تعالى: ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فلم يكن الحجاب مجرد ساتر رقيق.

ويحدثنا القرآن عما كان لمريم بعد ذلك، ونلحظ هذه الفاءات الكثيرة، وهي تدل على أن هذه الأمور كان بعضها عقب بعض دون مهلة أو تريث، وتلك مقدمات ممهدة نستشف منها ما يتفاعل في نفس مريم من أمور ﴿ ٱنتَبَذَتْ ﴾ ﴿ فَٱتَّخَذَتْ ﴾ ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا﴾.

والروح التي أرسل إليها جبريل ـ عليه السلام ـ وقد منح الله الملائكة القدرة على أن يتمثلوا بغير صورهم، ولقد كان جبريل ـ عليه السلام ـ يأتي النبي ﷺ في بعض أحيانه في صورة دحية الكلبي ـ رضي الله عنه ـ. تمثل لها بشرا سوياً كأحسن ما يكون البشر، وتكون المفاجأة لمريم ذات النشأة الدينية والعاطفة الدينية، لذلك نجدها تلجأ إلى الله تبارك وتعالى وتستجير به من هذا الذي رأته على غير ميعاد؛ فهي تعوذ بالرحمن منه وتلجأ إليه سبحانه إن كان هذا الذي رأته تقيا يخشى الله تبارك وتعالى كأنما تستعطفه وتذكره بالله، فهي تستعيذ بالله منه إن كان تقياً خيراً، والناس عادة يستعيذون بالله من غير الأتقياء. أما هي في هذا الموقف فهي تستعيذ بالله حتى من الأتقياء. فالموقف موقف حساسية لا يحتمل صبراً، ولكنه يجيبها ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ بأسلوب القصر الذي يدل على بساطة في الأمور، كأنما القضية من المسلمات وهو ما تدل عليه «إنما» كما يقول علماء البلاغة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾، وتدرك مريم أنها لابد أن تجابه الموقف بصراحة وجرأة فكيف يكون لها غلام وهي العذراء التي لم تتزوج، الطاهرة التي لا تعرف الخنى ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، ويجيبها الروح الأمين ـ عليه السلام ـ بأنه ليس له من الأمر شيء، إنما هو أمر الله الذي قضاه، وهو عليه هين، وسيكون رحمة للناس بما ييسر عليهم في التشريع وآية على القدرة الإلهية؛ لأن ميلاده سيكون صفعاً للمادة والماديين، وهذا معنى قوله سبحانه ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾.

وتنتهي مهمة الروح الأمين، وقد بلغ الرسالة التي أمر أن يبلغها، ولهذا لا يحدثنا القرآن بعد ذلك شيئاً عن هذه المحاورة، وإنما يكون الحديث عما جرى لمريم فيما بعد حديثاً معطوفاً بعضه على بعض بهذه الفاءات المتعددة ﴿فحملته﴾ ﴿فانتبذت به مكانا قصيا﴾ ويلجئها المخاض الذي يأتي النساء الحوامل عند ولادتهن إلى جذع النخلة، ولا تسل عما أصابها من ضيق! وعما أحاط بها من ألم! ﴿يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا

مَنسِيًّا﴾ وما إن تنتهي من تلك الكلمات؛ وإذ بها مباشرة تسمع صوتاً يناديها يبين لها ما أكرمها به الله فحريٌّ بها أن لا تحزن؛ فلقد أكرمها الله تبارك وتعالى بالماء شراباً، وبالرطب غذاءً، فما هي إلا أن تمسك جذع النخلة تهزه بيدها محركة له متحركة به، وما أحسن الحركة لذوات المخاض! فلتأكل ولتشرب ولتهنأ وليكن غذاؤها من هذا الرطب الذي يعينها على اجتياز تلك المرحلة الصعبة الحرجة، ولتنذر للرحمن صوماً ألا تكلم أحداً من الناس.

ويجمل أن ننقل شيئاً مما كتبه صاحب التصوير الفني ـ رحمه الله ـ يقول: «فهاهي ذي في خلوتها مطمئنة إلى انفرادها، يسيطر على وجدانها ما يسيطر على الفتاة في حمامها؛ ولكن هاهي ذي تفاجأ مفاجأة عنيفة تنقل تصوراتها نقلة بعيدة، ولكنها بسبب مما هي فيه أيضا: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ إنها انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها فتلجأ إلى استثارة التقوى في نفسه ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾!.

ولئن كنا نحن نعلم انه الروح الأمين؛ فإنها هي لا تعلم إلا أنه رجل، وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة الطيبة البريئة ذات التقاليد العائلية الصالحة، وقد تربت تربية دينية وكفلها زكريا بعد أن نذرت لله جنيناً. هذه هي الهزّة الأولى ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى مقدار الفزع والخجل، وهذا الرجل الغريب ـ الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها، فقد تكون حيلةَ فاتكٍ يستغلّ طيبتها ـ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول وهو يريد أن يهب لها غلاماً وهما في خلوة وحدهما، وهذه هي الهزّة الثانية.

ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها. قالت: أنى يكون لي غلام ولم يمسَسْني بشر ولم أكُ بغياً؟ هكذا صراحة، وبالألفاظ المكشوفة، فهي والرجل في خلوة، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً ـ فما تعرف هي بعد كيف يهبُ لها غلاماً،

وما يخفّف من روع الموقف أن يقول لها ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ فقد تكون هذه خدعةَ فاتكٍ ـ كما قلنا ـ فالحياء إذن ليس بمُجْدٍ والصراحة هنا أولى.

قال: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. ثم ماذا؟ هنا نجد فجوة من فجوات القصة، فجوة فنية كبرى تترك للخيال يتصورها كما يهوى، ثم تمضي القصة في طريقها لنرى هذه العذراء المسكينة في موقف آخر أشد هولاً:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وهذه الهزة الثالثة.

فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة، ثم هي تواجه آلاماً جسديّة بجانب الآلام النفسية، تواجه الألم الجسمي الحادّ الذي أجاءها إجاءةً إلى جذع النخلة وهي وحيدة فريدة، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء ولا معين لها في شيء فإذا هي قالت: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

وهذه هي الهزة الرابعة، والمفاجأة العظمى، وإنا لنكاد ـ نحن لا مريم ـ نهبُّ على الأقدام وثباً، روعة من هذه الهزّة وعجباً: طفل وليد اللحظة يناديها من تحتها، ويمهّد لها مصاعبها ويهيء لها طعامها، ألا إنّها الهزة الكبرى.

ونحسبها قد دهشت طويلا وبهتت طويلا قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزّه ليساقط عليها رطبا جنياً ـ لتتأكد على الأقل، ويطمئن قلبها لما تواجه بها أهلها ـ ولكن هنا فجوة تُتْرك للخيال أن يقيم عندها قنطرة، ويعبرها. . . ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾.

فلتطمئنّ الآن مريم ولتنتقل الهزات النفسية إلى سواها ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾.

إن الهزة لتطلق ألسنتهم بالسخر والتهكم على أخت هارون: وفي تذكيرها بهذه الأخوة ما فيه من مفارقة، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة هنا؛ أما هم فما عسى أن تقول في العجب الذي يساورهم والسخرية التي تجيش بها نفوسهم، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل، ثم تتبجح فتشير إليه ليسألوه عن سرها ﴿ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾؟.

ولكن هاهي ذي المعجزة المرتقبة: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾. . .

لولا أننا قد جربنا من قبل لوثبنا على أقدامنا فزعاً أو لسحرنا في مواضعنا دهشا، أو لفغرنا أفواهنا عجبا، ولكننا جربنا فلتفضْ أعيننا بالدمع من التأثر ولترتفع أكفنا بالتصفيق من الإعجاب، وفي هذه اللحظة يسدل الستار والأعين تدمع للانتصار والأيدي تدوّي بالتصفيق. وفي هذه اللحظة نسمع في لهجة التقدير وفي أنسب فرصة للاقناع والاقتناع:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ١٦-٣٥].

ولقد برز الغرض الديني هنا وبرزت مشاهد القصة، ولكن مما لاشك فيه أن قوة إبراز العواطف والانفعالات هي الغالبة، وإن هذا اللون هو الذي يطبعها، ويغلب فيها على الألوان الأخرى»[١] رحم الله صاحب الظلال.

٢- ثم تأتي سورة **الأنبياء** لنقرأ فيها هذه الإشارة:

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

---

(١) كتاب «التصوير الفني في القرآن» ـ سيد قطب ـ دار الشروق ـ بيروت والقاهرة ص١٥٨-١٦١.

٣- أما سورة **المؤمنون** فتذكر فيها هذه الزيادة ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. نعم آية؛ لأن كلاً منهما إنما صار آيةً بالآخر فليسا آيتين؛ فما أبدع النظم القرآني وأحكمه!.

٤- ثم تأتي سورة **آل عمران** لتحدثنا عن الحلقة الأولى وكيف أن امرأة عمران نذرت لربها ما في بطنها محرراً ليتقبل منها فهو السميع العليم:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧].

هذه الحلقة الأولى ذكرت في هذه السورة، وذلك ـ لما قلنا آنفاً ـ من أنها -**سورة آل عمران**- جاءت تتحدث عن مناقبهم وما أكرمهم الله به، وفي هذه السورة يبين الله ما أكرم به مريم حيث أعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم وتقبلها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً ورزقها من عنده، وكيف أخبرتها الملائكة أن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، فلتكن من القانتين الساجدين الراكعين، ثم أخبرتها الملائكة بأن الله يبشرها ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ثم تتحدث عن أن ذلك ما أراده الله ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾.

ثم تحدثت عما أكرم الله به المسيح ـ عليه الصلاة السلام ـ حيث علمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بني إسرائيل ليعلن لهم بأنه قد جاءهم بآية من ربهم، ثم يبين أن هذه الآية التي أمدّه الله بها ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾. وهناك أخرى ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾. أما الثالثة ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

ثم يبين ـ عليه الصلاة السلام ـ بأنه لم يخرج عن شريعة موسى ـ عليه الصلاة السلام ـ فهو مصدق لما بين يديه من التوراة ولكن خفف الله به عنهم فجاء ينسخ بعض أحكام التوراة ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قيل: هي آية التوحيد دلالة على ما كان يجيء به الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ويمكن أن تكون الآية شيئاً آخر ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾. فلما علم عيسى عليه السلام واستشعر وأدرك أنهم كافرون لا محالة سأل من أنصاري إلى الله ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾. وننبه هنا على هذا الملحظ الدقيق وهو أن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ سألهم من أنصاري إلى الله فلم يجيبوه «نحن أنصارك إلى الله»، وإنما قالوا: نحن أنصار الله، وها هم يعلنون ويشهرون إيمانهم ويدعون ربهم، وقد آمنوا بما أنزل واتبعوا رسوله أن يكتبهم مع الشاهدين.

ثم تخبرنا الآيات عن مكر بني إسرائيل ومحاولتهم قتل عيسى ـ عليه الصلاة السلام ـ ولكن الله كان أسرع وأقوى منهم مكراً، ثم تبين الآيات ما قاله الله لعيسى عليه السلام: إني

١- متوفيك.

٢- رافعك إليّ.

٣- مطهرك من الذين كفروا، مفرّق بينك وبينهم حتى لا تصيبك منهم لوثة.

٤- جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

ما المقصود بالرفع والتوفي.

ولقد اختلف المفسرون كثيراً في الأولى والثانية ﴿متوفيك﴾، ﴿ورافعك﴾ فبعضهم يحمله على التوفّي الذي هو الموت، وهؤلاء بعضهم فسر الرفع بأنه رفع حقيقي كان بعد الموت، وبعضهم لم يجعله كذلك. وبعضهم ادعى أن في الآية تقديماً وتأخيراً، فقال: إنّ المعنى «إني رافعك إلي ومتوفيك».

وأنا لا أقبل مثل هذا أبدا فنحن لا نرضى أن نقدم ما أخره الله وأن نؤخر ما قدمه. وإن كان هذا مشتهراً عند كثيرين من الناس. وبعضهم حمل التوفي على غير الموت، وحمل الرفع على الحقيقة بأنه الجسم والروح، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء قديماً وحديثاً، وإلى الأول ذهب بعض العلماء المحدثين الذين ينازعون في استمرار حياة عيسى عليه السلام حتى اليوم، كما ينازعون في نزوله، مع أن الأحاديث الصحيحة وردت تبين ذلك ومن الذين أنكروا هذا الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت. وليس من غرضنا أن نطيل في الخلافيات إنما الذي نريد أن ننبه عليه أن هذه القصة جاءت في سورة آل عمران وهي السورة التي أقامت الحجج على نصارى نجران وغيرهم من النصارى وغيرهم من أهل الكتاب. ولا يرتاب أحد في أن الذي ذكر في هذه السورة الكريمة على الرغم من إجماله إذا قورن بما ذكر في سورة مريم إلا أن فيه زيادات بل فيه الجِدّة كل الجِدةِ[1].

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ

(١) وينبغي أن نلحظ هنا ان الذي ذكر في هذه السورة كان ترتيبه مغايرا لسورة مريم حيث قدم ذكر زكريا عليه السلام هناك وفصل في أمر الميلاد، أما هنا فلقد كان الحديث عن ال عمران مرتبتا ابتداءً من الحلقة الأولى حيث نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً.

ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٥٥].

٥- ثم تأتي سورة **التحريم**، ولها موضوعها ذو الصلة العميقة بأمور النساء، ومنهن المؤمنات وغير المؤمنات، وقد حدثتنا أولاً: عما كان من شأن أزواج النبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: ١]، وفي اخر السورة يضرب الله مثلا للذين كفروا امرأتين اثنتين: امرأة نوح، وامرأة لوط، ويضرب مثلاً للذين آمنوا امرأتين اثنتين: امرأة فرعون ومريم ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١، ١٢] لكل سورة مذاقها ولونها وأسلوبها، بل وموضوعها الذي اختصّت به واختصّ بها.

٦- اما سورة **الصفّ** التي تحدثنا عنها من قبل فقد جاء فيها آيتان تتحدثان عن عيسى ـ عليه السلام ـ عما كان بينه وبين قومه.

الأولى: هي قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، فهذه الآية الكريمة كانت الغاية منها بيان هذه البشارة بالرسول ﷺ. وما أكثر البشارات! ولكن الآية تبين لنا بعد ذلك أن عيسى بعد أن جاءهم بالآيات أنكروها وكذبوه، وقالوا هذا سحر مبين.

وأما الآية الثانية: فهي في اخر السورة وهي قول الله ـ وقد جاءت في سياق خطاب المؤمنين أن يكونوا أنصار الله ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]. وهذا يختلف عما جاء في سورة آل عمران؛ لأنّ السياق هنا لم يكن سياق الحديث عن عيسى عليه السلام، وإنما ذكرت في سياق الحديث عن المؤمنين ومناداتهم ـ كما رأينا ـ فما أبعد هذا عن ذاك!!.

٧- ثم تأتي سورة **المائدة**: وقد حدثتنا في آخرها عن عيسى ـ عليه الصلاة السلام ـ وينبغي أن ننبه قبل كل شيء على أن الحديث في سورة المائدة لم يكن عما جرى بين عيسى وبين قومه، وإنما كان له سياق اخر وهو ما كان بين الله تبارك وتعالى وبين نبيه عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وهذا ما تنطق به الآيات الكريمة.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١٠٩-١١٨].

ثم تذكر الآيات نبأ المائدة، وبعد هذا يوجه النداء إلى عيسى عليه السلام مرة أخرى ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ. . .﴾ الخ الآيات الكريمات. وغني عن القول أن هذا الأسلوب يختلف كلية عما قرأناه في سورة آل عمران؛ لأن هذا كان امتناناً من الله على نبيه. وما جاء في سورة ال عمران كان حديثاً بين عيسى وبين قومه ـ عليه السلام ـ.

هذه هي القصص التي ذكرت في كتاب الله أكثر من مرة، ولعلّي إن شاء الله قد وفّقت في تجليتها فإن وُفِّقْتُ فمن الله.

تعقيب على قصص زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم الصلاة والسلام

أخبار آل عمران صفعة للماديين:

وإذا كان لابد من وقفة مع آل عمران في ما أخبر به القرآن الكريم عنهم؛ فإنها ـ والحق يقال ـ وقفة تمدنا بشفافية الروح وصادق الإيمان فهي آيات تبدد ـ كما رأينا ـ وتهدم كل ما أراده الماديّون مما يتنافى مع آثار القدرة، وعظيم الحكمة الإلهية، فأخبارهم جميعاً ابتداءً من ولادة يحيى لزكريا عليهما الصلاة والسلام وما كان من خبر مريم وولادة المسيح عليه السلام، كل ذلك كان صفعة قويةً لأولئك الماديين الذين يريدون أن يقفوا عند ظواهر الأشياء دون النظر إلى ما وراءها، كما أن فيها بياناً شافياً لتعنت اليهود، وقسوة قلوبهم وتنكرهم للحق، وما أعظم اللبنة التي وضعها هؤلاء، إنها الانطلاق من مجال المادة الضيق، ومن أرجائها المظلمة، ومن آفاقها العتماء إلى ما هو أوسع وأرحب مما تبدعه يد القدرة.. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ إن مثل فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

اللهم لك أسلمنا وبك آمنا، وعليك توكّلنا، وإليك أَنبْنا، وبك خاصمنا، وإليك حاكَمْنا، اللهم اغفر لنا ما قدّمنا وما أخّرنا، وما أسَرْرنا وما أعلنّا، وما أسرَفْنا وما أنت أعلم به منّا أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

تلكم هي اللّبنات لهذا البناء ومع دقتها، وإحكامها؛ إلا أن هذا البناء لا زالت تنقصه لبنة تكمل بنيانه وتتمّ أركانه... وتلك اللّبنة التي لا يتم البناء إلا بها كانت وشاء الله لها أن تكون بالنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ... وهذا هو الحديث الشريف «إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللّبنة، وأنا خاتم النبييّن»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ حديث رقم (٣٥٣٥)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/ ٥٥٨.

قضيتا التثليث والصلب: عرض ومناقشة

تمهيد:

وأرى قبل أن أختتم الحديث عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام أن أبيّن أنّ هذا الدين قد فرّق من حيث معاملة المسلمين بين أهل الكتاب وبين غيرهم، ولقد فصّلتُ هذا في كتابي (قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن وردّ شبهات) وبيّنتُ أن لأهل الكتاب مزايا خاصّة فليرجع إليه من شاء.

وأودّ أن أبيّن هنا كذلك منزلة المسيح عليه الصلاة والسلام في القرآن، فالمتدبر لآي القرآن يجد ثناءً طيباً على المسيح عليه السلام وأمّه، فقد ردّ افتراءات اليهود الذين بُرِّئوا أخيراً في هذه السنين من كل اعتداء وطعن في المسيح عليه السلام وأمّه، وصدق الله تبارك وتعالى في شأن اليهود: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، وكما بُرِّىء المسيح عليه الصلاة والسلام من مطاعن اليهود وإيذائهم برّأه الله كذلك من غلوّ النصارى. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢] وهذه عقيدة التوحيد التي أرسل الله بها رسله جميعاً من لدن آدم عليه الصلاة والسلام، ولكن الإنسان فيما بعد انحرف عن الجادة فجاءت هذه العقائد الزائغة ومنها عند النصارى التثليث والصلب، ولقد حدّثنا القرآن حديثاً واضحاً عن هذه القضايا فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] ووالله لو لم

يكن للقرآن الكريم إلا هذه المعجزة لكانت دليلاً على أن هذا القرآن من عندالله أنزله على قلب خاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فتلكم قضية لم يكن لأحد علم بها من قبل وهي قوله ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾، وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة في التاريخ والآثار، وسأعرض هنا توضيحا لهاتين القضيتين: التثليث والصلب.

قضية التثليث[1]

يرى النصارى أنّ الآلهة ثلاثة: الآب والابن والروح القدس، ويسمّونها الأقانيم الثلاثة، وبيان ذلك عندهم أنّ الله ثلاثة أقانيم كلٌّ منها عين الآخر فكلٌّ منها كاملٌ ومجموعها إلهٌ واحد، وهم بهذا القول تركوا التوحيد الخالص الذي هو ملّة إبراهيم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أنّ هذه العقيدة مبنيّة عندهم على الجمع بين التثليث الحقيقي والتوحيد الحقيقي، وهما أمران متناقضان لا يقبل العقل الجمع بينهما.

وعقيدة التثليث في الأصل عقيدة وثنية نقلها الوثنيون الذين تنصّروا إلى الديانة النصرانية، وفسروا بعض الألفاظ الواردة في كتبهم اليهودية ليجدوا شبهة يتكئون عليها بشيء من التحريف والتأويل. فهدموا آيات التوحيد القويّة البنيان، وقد أكّد ذلك الأصل الوثني لعقيدة التثليث كثيرٌ من علماء التاريخ والآثار الأوروبيّين حيث أثبتوا وجوده في الحضارات والعقائد القديمة، فقد وجد التثليث عند البراهمة، والبوذيّين، وقدماء المصريين، والفرس وغيرهم من أهل آسيا، وكذلك عند اليونان والرومان وغيرهم من الأوروبيّن، فالبراهمة قالوا باللآهوت الثنائي او الثلاثي، فعندهم ثلاثة أقانيم متحدة في واحد لا تنفكّ، وقال البوذيون إنّ (بوذا) إلهٌ واحدٌ هو ثلاثةُ أقانيم، أما قسّيسو هيكل (منفيس) في مصر القديمة فقد تحدّثوا عن ثالوث مقدّس انبثق عن الأوّل ثانٍ وعن مجموع الأوّل والثاني انبثق ثالث، وثلاثتهم لهم طبيعة واحدة، بل إنهم في تعبيرهم عن عقيدتهم يستخدمون تعبير (الكلمة والروح القدس) وقد أقرّ العالِم (دوان) بذلك كما أقرّ بأن هذه التعبيرات النصرانية أساسها وثني مصري بناءً على الشواهد التاريخية.

---

(١) انظر تفسير المنار: ٦/ ٨٤ وما بعدها، وكتاب (مختصر إظهار الحق لرحمة الله الهندي) للدكتور محمد الملكاوي: ص١٩ وما بعدها، ص١٢٦ وما بعدها.

أمّا الفرس فقيل إنهم كانوا يعبدون إلهاً مثلّث الأقانيم كالهنود ويسمّونها (أوزمرد ومترات وأهرمن) فالأوّل هو الخلاّق، والثاني ابن الله المخلص والوسيط والثالث الملك، والمشهور عن الفرس التثنية دون التثليث فهم يقولون بإلهٰ هو مصدر النور والخير وإلهٰ هو مصدر الظلمة والشرّ، ويقول دارسو الديانات الشرقية القديمة من مصرية وكلدانية وآشورية وفينيقية وغيرها إنّه لا يخلو شيء من دياناتهم من أحد أنواع التثليث أو التولّد الثلاثي، وينقل الشيخ محمد رشيد رضا عن كتاب (سكان أوروبة الأولين) أنّ الوثنيين القدماء كانوا يعتقدون أن الإله واحد لكنه ذو ثلاثة أسماء وأقانيم، وقد وُجد هذا عند اليونانيين القدماء، وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول نصرانية قسطنطين فيهم هذه الشعائر كلّها ونسخت بها شريعة المسيح، ويستنتج من دراسة تاريخ العقائد الوثنية القديمة أن نصارى أوروبا لم يتركوا وثنيتهم إلى توحيد المسيح عليه السلام وإلى التوارة المبنيّة على أساس التوحيد الخالص، بل ظلّوا على وثنيتهم القديمة وأدخلوا فيها شخص المسيح عليه السلام وجعلوه أحد آلهتهم التي كانوا يعبدونها من قبل.

لقد نقلوا عن المسيح قوله إنّه ما جاء لينقض الناموس (شريعة موسى) وإنما جاء ليتممها (أي الشريعة)، ولكنّ (بولس) نقض ذلك لبنةً لبنةً إلاّ ذبيحة الأصنام والدم المسفوح والزنا الذي لا عقاب عليه عندهم فمهّد لهم السبيل لتأسيس دين جديد لا يتفق ودين المسيح.

إنّ الديانة النصرانية في الأصل ديانة توحيد خالص جعلها أتباعها ديانة وثنية بتثليث لا تقبله العقول، أخذوه عن تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة، اقتباساً شوّهوا به ديانة توحيد سماوية، نسخوا شريعتها برقّتها، فلم ترِدْ كلمة واحدة عن أنبياء بني إسرائيل تدلّ على هذا التثليث، مع أنّ النصارى يزعمون أنها مستمدّة من جميع كتب أنبياء بني إسرائيل، كما نسبوها إلى المسيح وليس في كلام المسيح نصّ على هذا، بل إنّ في كلامه نصوصاً قاطعة في حقيقة التوحيد والتنزيه وعدم

المساواة بينه وبين الله وعدم المساواة بين الآب والابن بالمعنى المجازي للابن الذي يُطلق على المسيح وعلى غيره من الأبرار، كما أنّ المسيح كثيراً ما يطلق على نفسه اسم ابن الإنسان.

وبما أنّ عقيدة التوحيد هي التي وردت في نصوص الأناجيل المعتمدة عند الغربيين فهي العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل، فإذا فرضنا وجود ما ينافيها فينبغي ردّه إليها.

أمّا إنجيل برنابا فله شأن آخر، فلو كان نصارى اليوم يقبلونه لوجدوا فيه دلائل صريحة قاطعة على توحيد الله وعلى أنّ المسيح بشر فانٍ، على أنهم لو أنعموا النظر في الأناجيل المعتمدة لديهم اليوم لوجدوا مثل ذلك أيضاً.

وعقيدة التثليث ـ من جهة أخرى ـ يردّها اضطراب النصارى في معنى (الروح القدس) فمن ذلك قول متى ١ :١٨ «أمّا ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لمّا كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس» وفي إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيره إيّاها بولد ومحاورتها في ذلك ومنها أنّها سألته عن كيفيّة ذلك فقال لها: ٣٥ «الروح القدس يحلّ عليك» فروح القدس ليس هو الله، ففي هذا الفصل نفسه أنّ (اليصابات) أمّ يحيى امتلأت من الروح القدس، وبذلك حملت بيحي وكانت عاقراً وانّ زكريا أباه امتلأ من الروح القدس (٤١، ٦٧).

فتعبير الروح القدس جاء في شأن غير المسيح، وممّن جاء في شأنهم في الإنجيل رجل اسمه سمعان: (لوقا/ الفصل الثاني: ٢٥-٢٦)، فالصحيح إذَنْ أنّه من الملائكة، والقدس هو الطهر، حيث تذكر الأناجيل في مقابله (الروح النجس) أي الشيطان، فجعلوه إلهاً كما فعل الوثنيّون.

وجملة القول أنّ هذه الأناجيل تدلّ على أنّ عيسى عليه السلام خُلق بوساطة الروح القدس، وأنّ يحيى عليه السلام خُلق كذلك بوساطة الروح القدس وكان خَلْقه آية من

وجه آخر إذْ كان أبوه شيخاً كبيراً وكانت أمّه عاقراً، ولكن الوساطةَ والسببَ واحدٌ وهو الملك المسمّى بروح القدس، فلا يجوز حينها أنْ يُقال إنّ قوله تعالى «وروح منه» في شأن المسيح عليه السلام يفيد أنه جزء من الله تعالى عن التركيب والتجزّؤ والحلول والاتّحاد بخلقه.

والمطلع على الأناجيل يرى أنّ مؤلّفيها يستعملون كلمة (الروح القدس) استعمالاً يدلّ على أنّه ملك من خلق الله، ولكن (يوحنا) انفرد بعبارات يمكن ردّها إلى استعمالِ غيره ويمكن تحريفها للاستدلال بها على شيء آخر كما فعلوا، فهم يقولون إنّ الروح منبثق من الآب وهو عين الآب، ويستدلون على ذلك بقول يوحنّا حكاية عن المسيح ١٥: ٢٦ «ومتى جاء المُعَزّي الذي سأرسله إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الله ينبثق فهو يشهد لي». وأصل الانبثاق أن يَكْسر الماءُ ما أمامه من سَدّ ويفيض على ما وراءه، وفي ترجمة أخرى للبروتستانت «يخرج» فمن هذه الكلمة استنبطوا عقيدة وثنية تنقضها نصوص كثيرة في الأناجيل.

والصحيح أن هذه العبارة التي استنتجوا منها التثليث هي في الحقيقة بشارة بمن سيأتي بعد المسيح وهو محمد ﷺ، بدليل أن كلمة (المُعزِّي) هي ترجمة للكلمة اليونانية في الإنجيل وهي (البارقليط) وهذه الكلمة لها معنيان بحسب طريقة نطقها، فإذا نُطقت بالإمالة كان معناها (المعزي) أي بعد الترجمة، وإذا قُرئت بالاستقامة كان معناها محمداً أو (أحمد)أيْ بالترجمة وقد تُرجمت في إنجيل برنابا بمحمد واستغرب بعضهم هذه الترجمة ظناً منهم أنّ برنابا نقل عن المسيح أنه نطق بكلمة محمد العربية، والظاهر أنه نطق بترجمتها.

كما جاء عن المسيح في مواطن أخرى: «ذاك يمجّدني لانه يأخذ ممّا لي ويخبركم» ولم يأت إلا محمّد ﷺ ليزيل عن شخص المسيح وأمه المغالاة في تأليهه أو الانتقاص من شأنه وشأنها.

وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ﴾ [النساء: ١٧١].

واختيار كلمة الولد هنا للردّ عليهم، فإنّ لفظ الابن الذي يعبرون به إنْ أرادوا به الابن الحقيقي فلا بدّ أن يكون ولداً أيْ مولوداً من تلقيح أبيه لأمّه، وهذا محال على الله تعالى، وإنْ أرادوا به المجاز كما أطلق في العهد القديم على إسرائيل (يعقوب) فهذا لا يكون له دخل في الألوهية ولا يُعدّ من باب الخصوصية للمسيح عليه الصلاة والسلام.

قضيّة الصّلب

عقيدة النصارى في الصلب والفداء عقيدة وثنية مثلها مثل عقيدة التثليث، بعض النصارى بعد أن يعترفوا بعدم معقولية هاتين العقيدتين يقولون إن في كل دين أموراً لا يقبلها العقل غير أنها تؤخذ بالتسليم لأنها واردة في كتب مقدّسة، ولكن الإسلام لا يوجد فيه عقائد مستحيلة في العقول وإنما قد ترد فيه أخبار تتعلق بالعالم الغيب ممّا لا يستقلّ العقل بمعرفته ولكنها كلها من الممكنات عقلاً وعلينا التصديق بها، غير أن الإسلام لا يكلّفنا الاعتقاد بالمُحال الذي لا يقبله العقل.

وينقل الشيخ محمد رشيد رضا عن (دوان)(١) وهو أحد علماء التاريخ والآثار الأوروبيين قوله «إن تصورّ الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود والوثنيين وغيرهم» وذكر العالِمُ شواهد على ذلك منها اعتقاد الهنود الوثنيين بتجسّد أحد الآلهة وتقديمه نفسه فداء للناس من الخطيئة، وقد صوّروا في كتبهم (كرشنا) مصلوباً مثقوب اليدين والرجلين وعلى رأسه إكليل من الذهب، وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقا، والهنود يعتقدون بالخطيئة الأصلية عند الإنسان والنصارى يقولون إن يسوع صُلب وعلى رأسه إكليل من الشوك.

وفي بلاد النيبال والتبت يرون أن الإله (أندرا) الذي يعبدونه سفك دمه بالصّلب وثقب المسامير ليخلص البشر من ذنوبهم، وقد صُلب على صليب أضلاعه متفاوتة الطول فالرأسي أقصرها والسفلي أطولها وهي هيئة صليب النصارى.

وما يقوله البوذيون في (بوذا) أشدّ انطباقاً على مايقوله النصارى في المسيح، فالبوذيون يسمون بوذا المسيح والمولود الوحيد ومخلص العالم، ويقولون إنه إنسان

---

(١) في كتابه (خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى).

كامل وإله كامل تجسّد بالناسوت، وإنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر عن البشر ذنوبهم ويخلصهم منها فلا يعاقبوا عليها.

وفي هذا كتاب مفصَّل هو (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية) لمحمد طاهر التنير البيروتي.

ومن شبهات النصارى في إثبات الصلب.

١- ادعاؤهم تواتر مسألة الصلب، وعلى هذا فالعلم بها قطعي، وليس صحيحاً دعوى التواتر، فالتواتر هو إخبار عدد كثير في طبقة واحدة لا يجوز عقلاً تواطؤهم على الكذب في شيء تدركه حواسهم إدراكاً صحيحا لا شبهة فيه، ثم ينقل عنهم مثلهم طبقة عن طبقة فإن اختل شرط من شروط التواتر لم ينعقد، وأنى للنصارى مثل هذا التواتر؟ والذين كتبوا الأناجيل والرسائل المعتمدة عندهم لا يبلغون التواتر، ولم يخبر أحدهم عن مشاهدة، وقد تُنقل بعض المشاهدات عن آحاد لا يؤمن عليهم الاشتباه.

وقد بيّن الشيخ (رحمة الله الهندي) في كتابه (إظهار الحق) انقطاع أسانيد هذه الكتب، وساق شواهد كثيرة على ذلك.

٢- قولهم إن عقيدة الصلب لو لم تكن متواترة لوجد فيهم مخالف ومنكر لها، فعقيدة التثليث ربّما وجد منهم مخالف فيها أمّا عقيدة الصلب فلا، والصحيح أن المطلع على تاريخهم يجد فرقا منهم أنكرت عقيدة الصلب منها فرقه (السير نثين والتاتيا نوسيّين) وينقل عن خويتوس وينقل عن فوتيوس قوله إنه قرأ كتاباً اسمه (رحلة الرسل) فيه أخبار (بطرس ويوحنا واندرواس وتوما وبولس) ومما قرأه فيه «أن المسيح لم يُصلب ولكن صلب غيره وقد ضحك بذلك من صالبيه» كما أن المجامع الكنسية الأولى حرّمت قراءة الكتب التي تخالف الأناجيل الأربعة والرسائل التي اعتمدتها فصار أتباعهم يحرفون تلك الكتب ويتلفونها، وما سلم منها كإنجبل برنابا ينكر الصلب، وما يدرينا أن تلك الكتب التي أتلفت تنكر الصلب أيضا، فلا ثقة لنا باختيار المجامع بحيث نعدّ اختيارها

حجة وما سواه عدماً، ثم إن عدم علم بعض النصارى بمنكري عقيدة الصلب لا يقتضي عدم وجود هؤلاء المنكرين، حتى لو ثبت اتفاق النصارى على عقيدة الصلب وعدم وجود من ينكرها بينهم فهذا أيضاً لا يقتضي صحّة ما اتفقوا عليه.

٣- قولهم إن الأناجيل ورسائل العهد الجديد أثبتت عقيدة الصلب، وهي كتب مقدسة معصومة من الخطأ فوجب اعتقاد ما أثبتت، والجواب عن ذلك من وجوه:

الأول: لا دليل على عصمة هذه الكتب ولا على عصمة كاتبيها فهم غير معصومين عند النصارى أنفسهم.

الثاني: لا دليل على نسبتها إلى من نسبت إليهم لأنها غير متواترة.

الثالث: هذه الكتب معارضة بأمثالها كإنجيل برنابا، وترجيحهم تلك الاناجيل عليه هو ترجيح بغير مرجح.

الرابع: أن هذه الكتب متعارضة في قصة الصلب وفي غيرها.

الخامس: أن هذه الكتب معارضة بالقرآن الكريم، وهو الكتاب الإلهي الذي ثبت نقله بالتواتر الصحيح دون غيره، فقصارى ما تفيده كتبهم الظن أما القرآن فهو متواتر يفيد العلم القطعي.

وقد ذكر العالم الألماني (أكهارن) أن (سلسوس) وهو من علماء الوثنيين في القرن الثاني للميلاد ألّف كتاباً في إبطال الديانة النصرانية ذكر فيه أن النصارى بدّلوا أناجيلهم ثلاث مرات أو أربع مرات فتغيرت مضامينها.

وقد جاء في كتب النصارى أن بعض فرقهم كانت تصدّق بأحد الأناجيل وترفض ما سواه من الأناجيل كالفرقة (الأبيونية) في القرن الأول للميلاد التي صدّقت بإنجيل (متى) ورفضت سواه من الأناجيل وإنجيل (متّى) في عهدهم مخالف لإنجيل (متّى) الذي ظهر بعد (قسطنطين)، والفرقة (المارسيونية) كانت تأخذ بإنجيل (لوقا) وحده، وكانت النسخة التي تؤمن بها مخالفة للموجودة الآن.

وفي الإنجيل نفسه إشارات إلى التحريف لو تدبّرها القارىء، فمنها ما جاء في رسالة (بولس) إلى أهل غلاطية: (١:٦ إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ٧ ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحوّلوا إنجيل المسيح»، هكذا في ترجمة البروتستانت الأخيرة «يحوّلوا»، وفي الترجمة القديمة «يحرفوا» وفي ترجمة الجزويت «يقْلبوا» والمعاني كلها متقاربة تدل على أنه كان في عهد بولس قوم يدعون الناس إلى إنجيل غير الذي يدعو هو إليه، ومعنى كونه غيره أنهم حرّفوه أوقلبوه حتى صار كأنه إنجيل آخر، وفي موضع آخر صرّح (بولس) بوجود رسل كذّابين في عصره ادّعوا أنهم رسل المسيح، وقد جاء ذلك في رسالته إلى أهل (كورنثيوس) حيث قال: «١١:١٣» لأن مثل هؤلاء رسل كَذَبةٌ فَعَلةٌ ماكرون مغيرون شكلهم إلى رسل المسيح ١٤ ولا عجب لأن الشيطان يغير شكله إلى ملاك نور».

كما أن عقيدة الصلب نفسها قد تعارضت فيها الأناجيل، ومن شواهد هذا التعارض أن أصل هذه العقيدة أن المسيح بذل نفسه باختياره فداءً وكفّارةً عن البشر، ومن جهة أخرى تصرّح الأناجيل بأنه حزن واكتأب عندما أحسّ بقرب أجله وطلب إلى الله أن يصرف ذلك عنه، ففي متّى «٢٦:٣٧ ثم أخذ معه بطرس وابني زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب ٣٨ فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت امكثوا هنا واسهروا معي ٣٩ ثم تقدم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس؛ ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت. . . ».

وهذا كلام لا يمكن أن يصدر عن إلهٰ، إذْ يبدو أنه يجهل الغيب ولا يعلم كيف تكون نهايته.

وهناك خلاف بين الأناجيل فيمن صُلب مع المسيح بحيث تبدو قصة الصلب مضطربة، ففي نبوءة الكتاب (أشعيا) أنه يصلب معه (أثَمةٌ) بصيغة الجمع، وفي (مرقس) أنّ اثنين مذنبين صُلبا معه وأنهما عيّراه، وفي (لوقا) أن أحدهما عيّره وأما الثاني فانتهر الأوّل.

وهناك خلاف في مسألة دفنه وقيامه، ففي بعض الأناجيل أنه دفن ليلة السبت وقام من القبر قبل فجر يوم الأحد، مع أن البشارة أنه يكون في بطن الأرض ثلاثة أيام بلياليها وهي مدة لبث يونان (يونس) في بطن الحوت.

٤- قولهم إن كتب العهد القديم بشّرت بمسألة الصلب.

وهذا غير مسلم به، بل الصحيح أنّ النصارى هم الذين تأوّلوا عبارات كتب العهد القديم، والواقع أن النصارى ادّعوا أن الذبائح الوثنية كانت تشير إلى صلب المسيح، فكأن جميع خرافات البشر وعباداتهم هي حجج لهم على عقيدة سُبقوا إلى مثلها كما تقدَّم بيانه.

٥- قولهم: إذا جاز أن يَشْتبه في شخص المسيح الجنودُ الذين قبضوا عليه والحكام ورؤساء الكهنة، فكيف يشتبه فيه تلاميذه الذين يعرفونه حق المعرفة؟.

والجواب عن هذا من وجهين:

الأول: عُهد بين الناس من الأقربين والغرباء أن يشبه بعضهم بعضاً شبهاً تامّاً بحيث لا يميز بينهم بعض المقربين، ومثل هذا له شواهد في الواقع.

الثاني: أن هذه الحادثة هي من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى عليه السلام وأنقذه من أعدائه، فألقى شبهه على غيره وغيّر شكله هو فخرج من بينهم وهم لا يشعرون.

ومما يدلّ على استجابة الله دعاءه بإنقاذه وإبعاد كأس الموت عنه عبارة المزمور ١٠٩ التي يقولون إن المراد بها المسيح وهذا نصّها «٢٦ أعنّي يا رب إلٰهي خلصني حسب رحمتك ٢٧ وليعلموا أن هذه يدك أنت يا رب فعلت هذا ٢٨ أماهم فيلعنون وأما أنت فتبارك،قاموا وخزوا، اما عبدك فيفرح ٢٩ ليلبس خصمائي خجلاً وليتعطفوا بخزيهم كالرداء ٣٠ أحمد الربّ جداً بفمي وفي وسط كثيرين أسبحه ٣١ لأنه يقوم عن يمين المسكين ليخلصه من القاضين على نفسه»[١].

---

(١) انظر تفسير المنار ٦٠/٣١ وما بعدها.

جاء في إنجيل برنابا/ الفصل الثاني عشر بعد المئتين على لسان المسيح عليه السلام:

«ثم رفع يديه إلى الرب وصلى قائلاً: «أيها الرب إلهنا اله إبراهيم وإله إسماعيل وإسحاق إله آبائنا ارحم من أعطيتني وخلصهم من العالم ٢ لا أقول خذهم من العالم لأنه من الضروري أن يشهدوا على الذين يفسدون إنجيلي ٣ ولكن أضرع إليك أن تحفظهم من الشرير ٤ حتى يحضروا معي يوم الدينونة يشهدوا على العالم وعلى بيت إسرائيل الذي أفسد عهدك ٥ أيها الرب الإله القدير الغيور الذي ينتقم في عبادة الأصنام من أبناء الاباء عبدة الأصنام حتى الجيل الرابع العن إلى الأبد كل من يفسد إنجيلي الذي أعطيتني عندما يكتبون أني ابنك ٦ لأني أنا الطين والتراب خادم خدمك ولم أحسب نفسي قط خادماً صالحاً لك ٧ لأني لا اقدر أن أكافئك على ما أعطيتني لأنّ كلّ الأشياء لك أيها الرب الإله الرحيم».

وليس ثمّ كلام أصْرَح من هذا في بشريّة المسيح عليه السلام ممّا ينقض عقيدة التثليث من أساسها.

وجاء في إنجيل برنابا/ الفصل الخامس عشر بعد المئتين: «ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير ٢ فلذلك انسحب على البيت خائفا ٣ وكان الأحد عشر نياماً ٤ فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم ٥ فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد» وجاءت تتمة ذلك في الفصل السادس عشر بعد المئتين:

«ودخل يهودا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع ٢ وكان التلاميذ كلهم نياما ٣ فأتى الله العجيب بأمر عجيب ٤ فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع حتى اعتقدنا أنه يسوع ٥ أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ٦

لذلك تعجبنا وأجبنا «أنت يا سيد هو معلمنا ٧ أنسيتنا الان»؟ أما هو فقال مبتسما: «هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الاسخريوطي»؟ ٩ وبينما هو يقول هذا دخلت الجنود وألقوا ايديهم على يهوذا لأنه كان شبيها بيسوع من كل وجه».

وليتأمل القارىء عبارة «فلما رأى الله الخطر على عبده» فالمسيح عليه السلام هو عبد الله ورسوله، ثم إن الشأن هو ما قصه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن المسيح عليه السلام لم يصلب وإنما شبه لهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل العشرون

نماذج من القصص القصيرة في القرآن الكريم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نماذج من القصص القصيرة

سنتحدث عن مجموعتين تنتظمان القصّة القصيرة في القرآن في كلّ منهما عدّة نماذج، أمّا المجموعة الأولى فهي نماذج لما يجب على الأمّة أن تتجنبّه لما فيه من عوامل الهدم، وأمّا المجموعة الثانية فهي نماذج لما يجب أن تحرص عليه الأمّة لما فيه من عوامل الخير والبناء.

المجموعة الأولى:

الأنموذج الأوّل يمثّل أوّلَ ما عُصي الله به: الحسد، ويمثل هذا الأنموذجَ نبأُ ابني آدم، والأنموذج الثاني هو أنموذج الأمّة التي أحاط بها الذلّ ورضيت المهانة، وأناخت رجالها في أزقّة الظالمين، ويمثل هذا الأنموذج قصّة الملأ من بني إسرائيل مِنْ بعدِ موسى، والأنموذج الثالث لذلكم الذي تملّكه الغرور فطغى كلّ الطغيان لأنه يحسب أنّ ماله أخلده، وهو أنموذج من أطغاه المال فصدّه عن الحق بعد أن ذاق حلاوته، ويمثّل هذا الأنموذج قصّة قارون، والأنموذج الرابع هو لأولئك الذين تملكتهم الأنانية فقست قلوبهم ونزعت منها الرحمة، ويمثله قصّة أصحاب الجنّة، وفي هذه النماذج ما يدعو المسلمين إلى التخلص من الواقع المظلم الذّليل المعيش.

أوّلاً: نبأ ابنيْ آدم:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٢].

عرفنا من قبلُ أنّ القصص القرآني مع كونه حقاً لامرية فيه، لكن لم يقصد من ذكره السّردُ التّاريخيُّ، وقد مرَّ معنا من قبلُ أنّنا وجدنا أن قصّة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكرت في بعض السور القرآنية فكانت أوّل ما ذُكر من القصص وفي بعض السُّور كانت آخر ما ذُكِر والحقّ أن ذكر القصّة في السورة القرآنية، يكتنفه أمورٌ كثيرة وتقتضيه أسباب متعددة لذا وجدنا أن نبأ ابني آدم لم يُذكر عقِب قصّة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد عرفنا أن قصّة موسى عليه السلام في سورة الشعراء ذكرت قبل قصّة إبراهيم ـ صلى الله عليهما وسلّم ـ وعلى العكس من ذلك في سور أخرى ومن جهة أخرى، وجدنا أنّ ذكر القصّة متّسق مع موضوع السّورة ومع السّياق الذي ذُكرت فيه، وهذه الصنعة البديعة التي هي أعلى طبقات البلاغة، وذلكم الترتيب الفذّ لن تجدوه إلا في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تنقضي عجائبه والذي لا تجد الإنسانية ضالّتها وبغيتها وخيرها في الدنيا والآخرة، إلا فيه وصدق الله ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨]،

لذا وجدنا نبأ ابني آدم يذكر في سياق الحديث عن أهل الكتاب بعامّة وعن اليهود بخاصّة. فقبل هذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن ابني آدم عليه السلام كان الحديثُ عن اليهود، وما ادّعوه ثمّ عن أمر موسى عليه السلام لهم أن يدخلوا الأرض المقدّسة، وسنجد أن الحديث بعد هذه الآيات متّصلٌ، يتحدث عن شؤون كثيرة من شؤونهم.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

الحديث عن نبأ ابني آدم عليه السلام إذن جاء في مكانه الذي هو ألصق به وأولى ذلكم لأنّ حديث القرآن الكريم عن ابني آدم عليه السلام متسق تماماً مع طبيعة اليهود، فكفرهم بالإسلام وهمّهم بقتل النبي ـ عليه الصلاة والسّلام ـ كما أشارت إليه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

فقد ذكرت الآية الكريمة مقدمة للحديث عن بني إسرائيل، إذ الآية التي بعدها مباشرة ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾ ذا كان ذكر نبأ ابني آدم منسجماً كل الانسجام مع سياق الآيات. ويجب أن لا ننسى كذلك، التعقيب على نبأ ابني آدم وهو قوله سبحانه ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أرأيتم إلى هذا النّسق القرآني العجيب إن ترتيب الآيات الكريمة في السورة الكريمة من أعظم روافد الإعجاز فهل يتنبه المسلمون وهل يعي الدّعاة والمصلحون؟! إن لم يع الحكام وذوو السّلطان، فهل يعي الدعاة المسلمون هذه الدّروس القرآنية؟ ليغرسوها في قلوب المسلمين ونفوسهم، وليجابهوا بها أولئك الّذين يحسنون الظنّ بقتلة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسّلام؟! ـ ما أحوجنا إلى الوعي بإرشادات القرآن النّفيسة الغالية.

وقد أكثر المفسرون والقصّاص من الحديث في نبأ ابنيْ آدم وكثير ممّا ذكروه، ليس له سند يعتمدُ عليه، فمن ذلك أنهم أدخَلوا عنصر المرأة، فقالوا: كان يولد لآدم توائم: ابن وبنت، فيتزوج كلٌّ أخت الآخر، وإنّ قابيل كان نصيبه أخت هابيل ولم تكن على شيء

من الجمال لذا غضب وحسد أخاه. وهذه فرية ليس لها أساس من كتاب أو سنّة، كما قالوا: إنّ الله بعث غُرابَيْن قتل أحدهما الآخر ليعلّم القاتل كيف يواري سوءة أخيه، وهذه تتعارض كذلك مع صريح القرآن الكريم، وقالوا الكثير الذي لا نودّ أن نشغل صفحات هذا الكتاب فيه.

والمشهور عند جمهور العلماء أنّهما ابنا آدم من صلبه ورُوي عن بعضهم ومنهم الحسن البصري - رضي الله عنه - أنهما كانا من بني إسرائيل ولا إخال أنّ هذا يثبت عن الحسن، لأنّهما لو كانا كذلك، ما كان يصعب على القاتل أن يواري سوءة المقتول، وخلاصة ما ذكره القرآن الكريم - وهو الحقّ - كما قال الله ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فنبؤهما حقّ. بعيد عن أن تحوم حوله شبهة. ﴿ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ والقربان: هو ما كان يتقرّب به إلى الله تعالى، وقد يكون حيواناً يُذبح، وقد يكون غير ذلك من النبات، وقد يكون من علامات القبول أن تأتي نارٌ تأكله، وهذا ما جاء في الآية الكريمة في سورة آل عمران ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾ تقبّل الله من أحد هذين الابنين ولم يتقبل من أخيه، فامتلأت نفس الذي لم يُتقبل منه غيظاً وحسداً، وقال لأخيه: لأقتلنّك، وهذا أمرٌ عجيب. ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وقد ذكروا أنّ اسم الذي تُقبّل قربانه هابيل والذي لم يُتقبل قربانه قابيل، ولا نجدُ حديثاً صحيحاً عن سيدنا رسول الله - عليه الصّلاة والسّلام - نطمئن إليه في هذا، ويظهرُ أن الذي لم يُتقبل قربانه لم يكن مخلصاً في التّقرب به، ولم يكن من الطيّب الذي يجب أن يقدّمهُ، وفي إشارة هذا الأخ الطيّب ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ

---

(١) ذكر صاحب المنار رحمه الله - أنواع القرابين عند اليهود وعند النصارى في الجزء السادس فارجع إليه إن شئت.

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ردع لأخيه، ليعاود الكرّة وليخلص النية، وليتقدم بقربان طيّب وهذه علاماتُ التقوى، فلعلّ الله يتقبل منه.

وردّ على قوله: ﴿لأقتلنك﴾ بقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ما أبدعَ القول! وما أحكمَ النّظم! انظروا أكرمكم الله كيف ذكر أولاً الفعل: ﴿بسطت﴾ وقدّم الجار والمجرور ﴿إليّ﴾ على المفعول به ﴿يدك﴾ وهو يخاطب أخاه، ثمّ كيف جاء بالجملة الإسمية حديثاً عن نفسه ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ﴾ وعبّر باسم الفاعل، ولم يقل: لن أبسط لأنّ التعبير باسم الفاعل أبلغ كثيراً من التعبير بالفعل، ثمّ قدّم المفعول (يدي) على الجار والمجرور بعكس الأولى، ثمّ جاء بالباء التي تدلّ على التأكيد في خبر باسط ثمّ ختم قوله بهذه الجملة التي كان حرياً بها أن تردع أخاه وتخوفه، وتحول بينه وبين ما توعد أخاه به، وهذه الجملة هي قوله سبحانه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولكنّ كثيراً من النّاس قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة، فلن تؤثر فيهم العظات ولن تردعهم الآيات. لذلك نجد القرآن الكريم يعقب على هذا بقوله ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾ وفي هذه الكلمة ﴿طوّعت﴾ أقصى غاية الإعجاز في التعبير وفيها التصوير الأبلغ «طوّعت» كأنّ القرآن الكريم يحدثنا عمّا كان بين هذا القاتل ونفسه من مراجعات أيقدمُ أم يحجم؟ وأخيراً استجاب إلى داعي الشرّ، والنفس أمّارة بالسوء، فطوّعت له نفسه وسوّلت وزيّنت له قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، وقد حذره أخوه من قبل وهكذا الناس ودائماً يختلفون في استعداداتهم وميولهم، ويعجبني قول القائل:

عجبت للناس يدعى كلّهم بشراً ... هذا ملاك وذا في ثوب شيطان
هذا يرقّ لذي بؤس فيطعمه ... وذاك يأكل خبز الجائع العاني

حذره أخوه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قيل قوله تعالى «باثمي» أي قتله أخاه، وإثمك أي عدم إخلاصه في تقديم قربانه، وفي الآية وجوه أخرى ذكرت في كتب التفسير.

ولقد وقف حائراً، ماذا يفعل بجثة أخيه بعد قتله؟ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض يحفر في الأرض ويطيل البحث، لأنّ الفعل المضارع يفيد الاستمرار «ليريه» الفاعل قد يكون الغراب، وقد يكون الله ـ سبحانه وتعالى وهذا يرجع إلى الاختلاف في معنى «اللام» ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ وهي كلمة تدل على التحسر والتوجع ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ مع أنه لا يَعْقِل ﴿ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ فانظروا ـ أرشدكم الله ـ كيف أرسل الله له غرابا وهو ما يتشاءَم الناس منه عادةً. ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ ولكن لات حين مندم.

ثمّ يأتي التعقيب على هذه الآيات الكريمة ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي من أجل هذا الذي حدث مع ابني آدم ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بلا حق ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي كأنّما الذي يعتدي على واحد من النوع، فكأنّما يعتدي على النوع كله ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وقد خصّ بنو اسرائيل بالذكر هنا، مع أنه عامّ للناس جميعاً لأنّ الله تبارك وتعالى ـ يريد أن يبعث في هذه الأمّة النذر، ويذكرها بالآيات لتحذر هذا العدوّ. ألم يبقروا البطون، ويثلغوا الرؤوس، ويقطّعوا الأوصال والأطراف؟ في كثير من بلاد المسلمين؟

ذلكم نبأ ابني آدم عليه السلام بالحقّ كما بينه القرآن الكريم، وإذا كان من كلمة أخيرة، فهي أن نحذر الحسد، وأن نحذر العدوّ، الذي وصفه الله بالحسد في آيات كثيرة

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

اللّهم جنّبنا الحسد واصرف عنا كيد الحاسدين، ونعوذ بك ربنا كما علمتنا يا ربَّ الفلق، من شرّ حاسد إذا حسد».

ثانياً: قصة الملأ من بني إسرائيل:

نختار للأنموذج الثاني قصّة الملأ من بني إسرائيل التي جاءت في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ بدأت القصّة هكذا «ألم تر» وهي صيغة تدلّ على التعجيب، كأنّه يقول «ألم تعجب من شأن هؤلاء»؟ بلى إنّه حريّ أن يتعجّب منهم، ولكن ما قصتهم وما شأنهم؟ إليك حديثهم.

إنهم الوجهاء من بني إسرائيل المتنفذون في قومهم رأوا ماهم فيه من ذلّ، فأضاءت في نفوسهم ومضة حريّة فجاءوا نبيَّهم الذي يقال إنه (صموئيل) وطلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله، هكذا يحدثنا القرآن ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾.

والبعث إنما يكون في الأمور المهمة ذات الشأن والخطر، وكأن القوم أرادوا أن يقنعوا نبيهم من أول وهلة أنهم جادّون في الأمر مصممون، وليسوا هازلين ولا عابثين، ولكن نبيهم ـ وقد تقدمت به السنّ ـ لم يكن ليخفى عليه قومه، وكيف يمكن أن يُخدع، وهو الذي أكرمه الله بالنبوة أولاً، وعاش معهم تجاربه ثانياً، فماذا قال لهم؟، ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ يقول لهم: إنّ ما أتوقعه منكم ويغلب على ظني، بل وأظنّه ثابتا ليس فيه ريب، بأنه إن كتب عليكم القتال فستمتنعون عنه، وستحاولون أن تختلقوا المسوغات الكثيرة لتمتنعوا عن القتال، ولكنهم قالوا: ولم لا نقاتل! وأي مانع يمنعنا من القتال، سيما وهناك البواعث والحوافز الكثيرة التي ينبغي أن تدفعنا لهذا القتال، إنك تعلم حالنا وماذا بعد أن يخرج الإنسان من داره وأهله؟ وماذا بعد أن يحال بينه وبين أبنائه؟ وماذا بعد أن ينفصل عن تراث الأجداد ورعاية الأبناء؟ إن هذه

الحوافز والأسباب حريٌّ بها أن تهزّ القلوب، ولكن ماذا كان بعد ذلك؟؟؟.

يبين القرآن الكريم أن القول مهما أكّد وتحذلق فيه وتصنّع، وأن الكلمات المختارة المنتقاة لم تكن في يوم من الأيام علامة صدق إذا لم يصحبها الفعل، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ولقد صدق حدس نبيهم فيهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهكذا الأمم حينما تستمريء الضعف تحاول أن تتلمس الأسباب لتقنع بها نفسها حتى لا تدخل حرباً ولا تجابه عدواً، وهكذا كان أولئك، فهم يحتجون بالضعف تارة، وبعدم المناخ المناسب تارة، وبعدم جدوى الحل العسكري تارة أخرى.

ما أشبه الليلة بالبارحة

وها نحن وقد مرّ على اغتصاب الجزء الأكبر من فلسطين إحدى وخمسون سنة وعلى سائرها والأقصى معها اثنتان وثلاثون سنة ولا زلنا نسمع من كثير من المثبّطين والمخذّلين المتخاذلين فضلاً على المتواطئين المتآمرين أن الحرب قد انتهت وذهبت إلى حيث لا رجعة يقولها المتنفّذون من أولي الشأن والمسؤولية ـ إي والله ولئن كانوا يُسرون هذا القول من قبلُ فإنهم اليوم يُعلنونه جهرةً حتى إنه غدا من المقرّرات الاساسيّة لبعض المؤتمرات الإسلامية، ويتعلّلون بأسباب كثيرةٍ وعدوّهم لازال يبني القلاع والحصون، ويعدّ الأسلحة الفتاكه حتى لقد غدت الأرض المغتصبة ترسانة عسكرية يحدث هذا في أمة اغتصب حقها ومقدساتها وديست منها كل كرامة أمةٌ يبين لها دينها كتاباً وسنةً أن الجهاد ذروة سنام الإسلام:ـ وأنه ماضٍ لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر وأن هذه الأمة إذا تركت الجهاد فسيذلها الله ذلاً لا تذوق معه طعم العزّة إلاّ إذا رفعت راية الجهاد وأن هذه الأمة امتازت عن بني إسرائيل بأمرين اثنين فلقد طلب من بني إسرائيل أن يجاهدوا فأبو وقالوا لموسى عليه السلام كلمتهم التي مرت معنا من قبل وطلب منهم أن ينفقوا فأبو وقالوا كلمتهم التي سجلها القرآن ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

﴿أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ولكن هذه الأمة قالوا لنبيهم ﷺ مالا تزال الدنيا تردّده إعجابا «إذهب أنت وربك وقاتلا إنا معكما مقاتلون» وأنفقوا أموالهم عن نفس طيبة إن التعللّ لترك الحرب بأي سبب يمقت الله فاعليه.

ثم إن أؤلئك المظلومين كما اعترفوا ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ سمّاهم القرآن الكريم ظالمين لأن الظلم في مفهوم القرآن الكريم وفي تقرير الإسلام كتاباً وسنة ليس ما يقوم به المستبدون فحسب بل هو أعم من هذا وأكثر شمولا إن الظلم في مفهوم الإسلام عمل المستبدّين ورضا المستضعفين وهذا ما تؤيده آيات كثيرة في كتاب الله وفي مقدمتها الآية التي معنا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ونقرأ قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ فانظر أرشدك الله أيها القارىء كيف سمّى الله تبارك وتعالى كلاً من المستضعفين والمستكبرين ظالمين... وقد سمّى الله هؤلاء ظالمين فقد ظلموا أنفسهم أولاً وظلموا الحق الذي يدّعون اعتناقه ثانيا، وثالثا ظلموا العدو الذي يظلمهم حيث زينوا له طغيانه.

لقد أجابهم نبيهم إلى ما طلبوه، فلقد قالوا له ابعث لنا ملكا، وها هو يقول لهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، يجمعكم فتقاتلوا معه، ولكن الأذلاء المستضعفين يأبون الانصياع للحق والانضواء تحت راية واحدة فهاهم اولئك يقولون لنبيّهم.

وقد عرفوا أن الله هو الذي بعثه ولم يبعثه النبي ـ كما طلبوا ـ ولكن حتى مع علمهم بأن الله هو الذي بعثه فهاهم يتضجرون ويتبرمون به، كيف يكون له الملك علينا؟ ونحن أحق بالملك منه إنه لم يؤت أسباب الملك، لا من حيث النسب، ولا من حيث المال.

ولكن نبيهم وقد قال لهم مقالته من قبل وعرف أنهم بعيدون عن القتال، بين لهم أن الصفات التي تتوفر فيه لا توجد في غيره فهو:

أولاً: ذو استعداد فطري وطبيعة كريمة.

وثانياً: ذو خبرة في فنون الحرب، وقد أعطي قسطاً من العلم ليضع الأمور في مواضعها.

وثالثاً: منح القوة الجسمية.

ورابعاً: يستحق توفيق الله للأسباب المتقدمة، قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

ولكن القوم لم يقتنعوا بذلك كله، ولم تسكن إليه نفوسهم فأراد نبيهم أن يبين لهم بأن الأمر خارج عن إرادته هو، فالله هو الذي بعثه ملكاً وسيؤيده الله بآيه لتكون علامة على ملكه ليذعنوا ويسلّموا تسليماً فيبيّن لهم أن هذه العلامة الصادقة على ملكه أن يأتيهم التابوت، وهو صندوق كان فيه بعض آثار موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ، وكان قد غلبهم العمالقة (الفلسطينيون) عليه، وسيأتيهم هذا التابوت لتطمئن قلوبهم، وليكون علامة لهم إن كانوا مؤمنين.

ويفصل طالوت بالجنود ويتجاوز البلد الذي خرج منه، وهو يدرك أن الذين معه لا يصلحون جميعاً للحرب، بل إن منهم المثبِّطين عنه الذين لا يزيدون المحاربين إلا خبالاً، لابد إذن من أن يميز الخبيث من الطيب، بين لهم أن الله مبتليهم بنهر فمن شرب منه، فليس حرياً بالقتال، ولا يصلح للجندية، اللهم إلاّ إذا اغترف غرفة بيده يبل بها شفتيه ويذهب بها بعض ظمئه، ومن لم يطعمه ولم يذقه فذلك في المنزلة الأولى، ولكن ما الذي كان بعد ذلك؟ شربوا منه إلا قليلاً منهم، ولما جاوز طالوت النهر هو ومن آمن معه وقد تخلفت الكثرة الكثيرة الذين شربوا من النهر، حتى هذه القلة التي بقيت مع طالوت انقسموا فئتين.

كل هذا يصور لنا النتائج السلبية للضعف حينما يستولي على النفوس، حتى هذه القلة الذين جاوز بهم طالوت النهر قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده لكن فئة منهم، وهم الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم وخشوا الله تبارك وتعالى هؤلاء الذين يؤمنون بأن ما عند الله خير قالوا لأصحابهم ويحكم! متى كانت الكثرة سبباً في النصر؟ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وبدأت المعركة ودعا المؤمنون ربهم بهذه الكلمات الثلاث: أن فرغ عليهم صبراً أولا: لأن الحرب لابد لها من الصبر، وأن يثبت أقدامهم ثانيا؛ حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها، وأن ينصرهم على القوم الكافرين ثالثا: ويستجيب الله الدعاء دعاء المؤمنين فتهزم القوة الكافرة، ويقتل داودُ جالوتَ، ويؤتي الله داود المُلْك والحكمةَ «النبوة»، ويعلمه صنعة لبوس، وهي عمل الدروع ومنطق الطير وغير ذلك.

وتختم هذه القصة بهذا التعقيب البديع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ لولا أن الله يدفع أهل البغي والسوء والباطل بأهل الحق، لولا أن الله تبارك وتعالى يهيىء أهل الحق حتى لا يتمادى أهل الباطل بغيهم وباطلهم لفسدت الأرض.. ولكن الله ذو فضل على العالمين، لأنه لم يمكن الباطل من أن يعيث في الأرض فساداً ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ

مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن
شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ
ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ
وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥٢].

القرآن الكريم والوطن

وفي ختام هٰذه القصة أرى لزاماً عليّ أن أتحدث عن قضية تاهت فيها مسارات كثير من الناس، وأعني موقف القرآن بخاصة، وموقف الإسلام بعامة من الوطن، فقد يدّعي بعض الناس أن العقيدة هي كل شيء، وأمام هٰذه العقيدة يهون كل شيء، فدفاعنا وتوجيهنا لا ينبغي أن يتجاوز العقيدة. وعلى العكس من هٰذا الفريق نرى فريقاً آخر يغاير فيزعم أن الوطن هو الوعاء الوحيد الذي يجب أن يتلاشى أمامه كل شيء، وليس الوطن عندهم إلا الشجر والحجر، والجبل والسهل، وربما جاءوا بأقوال نسبوها إلى الرسول ﷺ «حب الوطن من الإيمان». والحق أن هٰذا ليس حديثاً نبوياً، وإن كانت هٰذه العبارة في ذاتها صحيحة المعنى، كما سيتبين لنا إن شاء الله.

وإنما آثرت أن أذكر هٰذا الموضوع هنا مع أنه قد مرت إليه إشارات من قبل، لكونه مناسباً للآيات التي معنا. فقد مر معنا في هٰذه القصة، قصة الملأ من بني إسرائيل الذين قالوا لنبي لهم ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ثم قالوا بعد ذٰلك ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والمتتبع لآي القرآن الكريم، يدرك القيمة الكبرى للوطن، فالجهاد في سبيل الله كما يكون من أجل الدفاع عن الدين، فهو دفاع عن الوطن كذٰلك. والمتدبر لآي القرآن الكريم يجد الآيات الكثيرة التي تسوّي بين الخروج من الوطن وبين مفارقة الحياة. قال تعالى في سورة النساء ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وفي سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

وقال تعالى في سورة براءة ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمًا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ وفي سورة الممتحنة ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وفي السورة نفسها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١].

والآيات كثيرة في هٰذا السياق.

وفي السنة النبوية: جاء رجل إلى الرسول ﷺ، فقال يا رسول الله: أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تعطه مالك، قال أرأيت إنْ قاتلني قال قاتله. قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد، قال: أرأيت ان قتلته؟، قال: هو في النار»(١).

ولا شك أن الوطن أعم من المال.

وندرك مما تقدم أن وطن المسلم جزء من كيانه، وأنه كما يدافع عن عقيدته وعرضه، فلا بد أن يدافع عن بيته وأرضه ووطنه، أياً كان هٰذا الوطن، فما بالنا إذا كان الوطن مقدساً، مباركاً ما فيه، ومباركاً ما حوله، وكان جزءاً لا ينفصل عن العقيدة. إن الواجب إذن، واجب مضاعف وإن الإثم بالتقصير مضاعف أضعافاً كثيرة.

وإذا كان الإنسان في هٰذه الحياة معرضاً لفتن مختلفة، وإذا كانت الابتلاءات متعددة متفاوتة، فليس هناك أكثر مرارة، وأشد صعوبة، وأعمق ذلاً من الإخراج من الوطن، ولهٰذا وجدنا أهل الباطل الذين أرسل الله إليهم الرسل لينالوا خير الدنيا وخير الآخرة، وجدنا أولئك الأقوام يتوعدون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بإخراجهم من أرضهم، جاء في سورة الشعراء ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ وفي سورة الأعراف

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان حديث رقم ١٤٠ انظر شرح النووي على مسلم ٢/ ١٦٣.

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨] وفي سورة إبراهيم يبين الله تعالى أن هٰذه مقولة مشتركة بين أهل الباطل. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] فليس هناك ظلم أشد ولا أعظم على النفس، من إخراج الناس من أوطانهم، نعم ليس هناك ظلم أفظع من هٰذا... اللهم إلا أمراً آخر هو أكثر مرارة، وأشد إيلاماً، وهو أن صاحب هٰذا الوطن الذي أخرج منه، إن تحدث عن وطنه قُمع وقهر واضطهد، ووجهت إليه أنواع المهانة المادية والمعنوية، والذي يزيد المأساة عمقا، أن هٰذا القهر والقمع والاضطهاد، ليس من عدوّه الذي يتبختر في هٰذا الوطن فحسب، بل من أبناء جلدته، شركائه في هٰذا الوطن، الذين هم أشد ظلماً وأكثر فتكاً من العدو الذي يتمتع بخيرات هٰذا الوطن.

وإذا كان الواقع البئيس الذي تعيشه أمة الإسلام، أمام العنف والغطرسة اليهودية والهيمنة الأمريكية، وأمام القهر والاستبداد والتحكم الذي تجده الأمة من حكامها وولاة أُمورها، وأمام هٰذا الضعف والاستخذاء من علمائها ومفكريها... أقول إذا كان ذلك كذلك فإن سبات الأمم كسبات الأفراد قد يطول، ولكنه لا يدوم، ولا بد أن يقول التاريخ كلمته، ويصب لعنتـه التي هي من لعنة الله على أولئك الذين فرطوا بالأرض المقدسة، وأوحوا إلى وسائل الإعلام لتجعل الهزائم نصراً تُدَق له الطبول، ومرّغوا الحياة المرتفعة بأوحال الذلّ، واتهموا ذوي الغيرة؛ ذلكم لأن الحق لا يموت، لأنه قدر الله، الذي يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

ما أكثر الإيحاءات في هٰذه القصة، قصة الملأ من بني إسرائيل، فإذا كانت عاقبة القصة أن هزم الجبابرة باذن الله، فلا بد أن يهزم المتغطرسون المبطلون باذن الله كذٰلك ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] ولا بد أن ترجع فلسطين كلها

مدنها وقراها، باديتها وحاضرتها، نهرها وبحرها إلى دوحة هٰذه الأمة، وهٰذا ليس حلماً، وليس أمنية، بل هي حقيقة، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٢١].

ثالثاً: نبأ قارون:

أما الأنموذج الثالث: فنختار له نبأ قارون، وقارون كما يحدثنا القرآن الكريم من قوم موسى عليه السلام، ولكنه بغى عليهم، ولأمر ما كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من «الحورَ بعد الكورَ»[1] وفي رواية بعد «الكون»، والكوْر: هو اجتماع الأمر كالعمامة يُكوَّر بعضها على بعض، والحَوْر هو الانتقاض. لقد تكبر قارون بعد أن أنعم الله عليه بالثراء. وكثيرون أولئك الذين لم يشكروا النعم فتزيدهم طغياناً. يحدثنا القران أن الله تبارك وتعالى أعطى قارون من الكنوز ما يثقل العُصبة القوية حمل مفاتحها أي إن العصبة القوية تنوء بحمل مفاتح هذه الكنوز، وبطر قارون وحاول قومه وذووه وكأنهم لا يزالون يظنون به خيراً، حاولوا إرشاده وإصلاح أمره ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ وليطلب بما منحه الله من هذه النعم الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا ، وليحسن إلى الناس كما أحسنَ الله إليه مما أنعم الله به عليه ولا ينبغي أن يتكبر ويعيث في الأرض فساداً، فالله الذي لا يحب الفرحين لا يحب المفسدين.

ولكن هذا الإنسان يطغى أن رآه استغنى، ويشمخ قارون، فيخرج عن طَور الحق ويتملكه الشيطان فيعلن أن ما أوتيه إنما كان بسبب علمه وخبرته ومهارته، وكما يطغي المال صاحبه فإن العلم كذلك، مع أن العلم والمال نعمتان حريّ بهما أن تصلح بهما النفوس، وتنعم المجتمعات وكما حدثنا القرآن عن إطغاء المال لصاحبه، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، [العلق: ٦، ٧] حدثنا كذلك عن العلم فقال سبحانه ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، ولكن أي علم هذا الذي أعطيه قارون، إن من أوليات العلم وبدهياته أن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج حديث رقم ١٣٤٣.

يعرف ما أصاب السابقين من قبله وقد كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعا أفلم يعلم أن الله قد أهلكهم جميعا ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون؟ ماداموا في طغيانهم إلى أن يأتي العقاب الرباني فيندمون ولات ساعة مندم ويُسألون عن الصغيرة والكبيرة ثم ألم يعلم الذين جاءوا بعد قارون، ولم يبلغوا مِعْشار ما بلغ، ألم يعلموا خَبَره وما حلَّ به؟.

ويطغى قارون ويخرج على قومه في زينته مختالاً فرحاً فخوراً[1]، ويراه الناس. أما ذوو النفوس الضعيفة فيسيل لعابهم يتمنون أن يكون لهم شيء مما أعطيه قارون وأسعده!. أما الذين أوتوا العلم ولكن ليس العلم الذي ادعاه قارون، وليس العلم الذي ينحرف به صاحبه عن الجادّة، إنما العلم الذي يصقل النفوس، قال أولئك العلماء الذين يرفعهم الله درجات في الدنيا والآخرة، لأولئك الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون وَيْلكم إن ما عند الله من الثواب خير، وإن الذخيرة الباقية هي الإيمان والعمل الصالح ولا يُلَقّى هذه المثوبة إلا الصابرون فما أعظمها شهادةً للعلماء! والله أكبر شهادة تحرص الاية الكريمة على إظهار العلماء بأنهم الصفوة المختارة الذين لن تستطيع الدنيا بكل ما فيها ان تغريهم وقد تغري كثيرين من المصلين أو الصائمين ليت العلماء يكونون عند حسن ظن ربهم بهم (وقال الذين اوتوا العلم): هم الذين انبروا لإرشاد الناس وترفعوا عما اشتهاه الناس فهنيئاً للعلماء الصادقين.

وتأتي النهاية؛ نهاية كل ظالم، ويخسف الله بقارون وبداره الأرض، ولم يجد من يمنعه من الله. أما أولئك الذين تمنوا مكانه بالأمس فيعضون أيديهم ندماً، ويدركون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء دون أن يكون لذلك دخل في تكريم الله تبارك وتعالى ويخشون أن يخسف بهم، ولكنّها منة الله تبارك وتعالى أَنْ نجّاهم مما أخذ به قارون ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) المختال: المتكبر في هيئته، والفخور: المتكبر بلسانه.

ويعقب القرآن على هذه القصة السابقة بأن الدار الآخرة في عظمتها وارتفاعها إنما يجعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وما أبدع هذا الأسلوب! وما أدق التعبير! لم يقل القرآن نجعلها للذين لا يستعلون ولا يفسدون وإنما للذين لا يريدون العلو ولا الفساد وشتّان بين التعبيرين، فالذين يريدون الآخرة إذن، ينبغي أن يكونوا بعيدين لاعن العلو والفساد فحسب، بل عن إرادتهما والتفكير بهما كذلك، والعاقبة للمتقين.

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ . وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ . وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٦-٨٤].

رابعاً: خبر أصحاب الجنة: أما الأنموذج الرابع: فنختار له خبر أصحاب الجنة في سورة القلم، وسورة القلم جاءت تكريماً للنبي عليه وآله الصلاة السلام، وتسلية له وتثبيتاً لفؤاده وتذكيراً للمؤمنين، وإنذاراً للطاغين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١-٤].

وبعد أن حذر الله نبيه المصطفى وحبيبه المجتبى عليه الصلاة والسلام من أن يُطيع من اتصفوا بصفات السوء ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، عقب على ذلك بقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، ويظهر أن القصة كانت معروفة عند القوم، يدلنا على ذلك النظم الكريم ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وسواء أكان أصحاب الجنة عرباً من اليمن أم غير عرب من بني إسرائيل، فذلك أمر لا تتعلق به عبرة، والقرآن الكريم يطوي مثل هذه الجزئيات ـ كما عرفنا من قبل ـ.

وأصحاب الجنة الذين حدثنا القرآن عنهم كان للمساكين نصيب في جنتهم في زمن أبيهم، ولكنهم بعد موته هيمنت عليهم الأنانية وسيطر عليهم الشحّ، فأقسموا ليصرِمُنَّ جنتهم مصبحين، ليقطعُنَّ ثمارها مبكّرين قبل أن يراهم أحد من ذوي الحاجات، ولا يستثنون، وأكثر المفسرين يفسرون هذه الآية الكريمة ﴿ولا يستثنون﴾ أي إنهم لم يستثنوا في يمينهم فلم يقولوا إن شاء الله، وهذا تفسير غريب جداً، ولكن الذي يبدو لنا في تفسير الآية ـ والله أعلم ـ أنهم عزموا على أن لا يتركوا شيئاً من ثمار جنتهم للفقراء والمساكين فقد أقسموا أن يقطعوا جنتهم ويجذوها مصبحين دون أن يستثنوا من ثمرها شيئاً، إن الاستثناء في اليمين أي قول ـ إن شاء الله ـ مصطلح إسلامي متأخر عن العهد المكي، وهو أمر لا يحمد عليه هؤلاء، فما داموا قد عزموا على أن يمنعوا ذوي الحقوق حقوقهم، وأقسموا على ذلك، حتى لو فطنوا أن يقولوا إن شاء الله فإن ذلك ليس مكرمة لهم وليس لهم فيه مثوبة.

ولندع أولئك بعد أن أقسموا ليصرِمُنَّها مصبحين تداعبهم أحلامهم. فماذا عن الجنة؟ يحدثنا القرآن أنه طاف عليها طائف من ربك بهذه العبارة المصوّرة الموحية، لقد أحاط بها هذا الطائف، هذه الجائحة السماوية فلم تترك منها سرباً واحداً، بل لم تترك شجرة بل فرعاً بل ثمرةً واحدةً، كل هذا وهم نائمون، ويأتي الصباح؛ يتنفس الصبح فماذا عن الجنة؟ فأصبحت كالصريم كأنها الليل، سوداء أحرقها الإعصار فهل ترى لها من باقية، كل هذا وهم بعيدون لا يدرون بالأمر.

تلك هي الجنة أما هم فتنَادَوْا مصبحين كل منهم ينادي الآخر يستعجله قبل أن يفوت الأوان كأن كلاً منهم ينادي صاحبه ينادي بعضهم بعضاً أن اغدوا على حرثكم، واخرجوا مبكرين إن كنتم صارمين وينطلق القوم يمشون على عجل، وهم يشعرون أنهم متأخرون كأنما يريدون أن يستدركوا ما فاتهم، هذا ما تعطيه هذه الكلمة الكريمة ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ أما قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ فما أكثر ما تعطيه هذه الجملة وما تلقيه من ظلال فعلى الرغم من أنهم وحدهم سائرون في الصباح لا يسمعهم أحد ومع ذلك فهم يتسارون فيما بينهم، ولا داعي لهذا الإسرار ولا حاجة له، ولكن القرآن يصور لنا هذا الجشع، وتلك الأنانية، وذلك الشح وصدق الله ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ كانوا يتخافتون فيما بينهم أن لا يدْخُلنها اليوم عليكم مسكين، وغَدَوا على حرد قادرين، صاروا في غدوتهم متوهمين أنهم قادرون على حرد: أي قادرون على منع الفقراء والمساكين من أن يدخلوا جنتهم، قادرون على أن يجلبوا لهم النكدَ والمقت، ويصل القوم إلى جنتهم وهنا تكون المفاجأة لم يجدوا شيئاً، إنه الضلال إذن، إنهم تائهون؛ ولكن أليست هذه المعالم الكثيرة تدل على أن المكان هو المكان، بلى إذن ليسوا تائهين، بل تبددت كل امالهم وطارت كل تلك الأماني ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ وهنا يتدخل أعقلهم كأنما يريد أن يذكرهم بما كان منه ويقررهم بما حدث، ألم أقل لكم لولا تسبحون، ألم أنهكم عما عزمتم عليه من منع ذوي الحقوق حقوقهم،

ألم أحثكم على أن تذكروا الله؟ ولكن أي أثر لذلك القول؟ إنه لم يترك أثراً حتى في نفس صاحبه، كان لزاما على صاحب هذا القول أن يستمر على قوله، أن يستمر على نصيحته وأن يدوم على معارضته، ولكنه ضعف أمامهم، وصاحب الحق حريّ به أن لا يضعف، ومن يدري لو أن صاحبهم هذا كان ذا إصرار وحزم وعزيمة لاستطاع أن يقيهم شر ما حل بهم، والقرآن الكريم يبين لنا تلك الحقائق لتكون لنا فيها العبرة فلا نضعف عن حق نوقن به، كما ضعف ذلكم الرجل الذي تحرك في نفسه وازع الخير ولكنه لم يستطع أن يقاوم الهواجس والوساوس في داخله كما ضعف عن مقاومة إصرار إخوته على باطلهم وجشعهم، ويدرك القوم فداحة ما حلّ بهم ويعترفون بظلمهم، وأي ظلم أعظم من أن يُمنع صاحبُ الحق حقّه؟ وأي ظلم أعظم من أن تجحد نعمة الله تبارك وتعالى؟ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

ويصور القرآن الكريم هذا الذهول الذي أصابهم فإن كل واحد منهم كان في واد بعيداً عن صاحبه، كان في شرود وذهول وهلع، يصور لنا القرآن كل هذا بهذه الكلمة المعبرة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أقبل بعضهم على بعض وكأنّه كان بعيداً عن صاحبه يتلاومون، كيف لا، وقد كان أملهم أن يغدوا على حرث، ولكنهم غدوا على حرد لقد صمموا أن يكون هذا الحرد وهذا المنع لغيرهم فأبى الله إلا أن يكون لهم، وها هم يلوم بعضهم بعضاً وكأنك بهم وأصواتهم يختلط بعضها ببعض يقول بعضهم لبعض:

أحدهم: ويح فلان لقد كان هو السبب في كل شيء هو الذي اقترح فكرة الشؤم.

الثاني: لا، لست أنا الذي بدأت، أنت الذي قلت هذا.

الثالث: ويحكما لقد اجتمعتما دون أن نعلم وقررتما هذا القرار الخبيث.

الرابع: إيه لقد نصحتكم فأبيتم الاستماع.

الخامس: ويحك ولكنك قلتها كلمة في فمك كأنما قلتها وأنت مُسْتحيٍ من نفسك.

وقد أفرغوا ما في جعبتهم من تلاوم ولكن ماذا يجدي؟ لا يجدي شيئاً، وهاهم يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك يا ويلنا إنا كنا طاغين، وتثور في نفوسهم جذوة إشراق، ولكن بعد ماذا؟ بعد حلول الدبرة وخراب البصرة ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ إلى الله لا إلى غيره لأن غيره لن ينفعهم شيئاً.

ويعقب القرآن على هذه القصة ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، هل رأيت تعقيباً يصلح لهذه القصة أكثر من هذا التعقيب؟ اللهم لا. ! وعُدْ بنفسك إلى كل تعقيب عُقّب به على القصص السابقة، تجد الإحكام البديع، والنهاية الرائعة ارجع إلى التعقيب على قصة قارون وقصة طالوت وغيرهما من القصص واتل قوله سبحانه ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، واقرأ قوله سبحانه ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٣] يقول الاستاذ محمد رجب البيومي:

«أعد قراءة السطور القرآنية التي تتحدث عن أصحاب الجنة مرة ثانية واسأل نفسك عن تأثيرها النافذ بعمق بعيد إلى اطواء أطوائك، وتذكر هل قرأت في القصص البشرية القصيرة مايبلغ مبلغها من النفاذ والتأثير؟ ثم حاذر أن تصدق كل ما يقوله بعض ما تناولها بالتحليل الأدبي في ضوء مقاييسه المنهجية، إذ ذهب إلى أنها مثال جيد للأقصوصة التي تدور على الحدث كما اختار قصة قرانية ثانية لتكون مثالاً للأقصوصة التي تدور على الشخص واهما أنه بذلك يقيم المعالم النقدية ذات الحدود والأبعاد، ولا أدري لماذا أشفق من بعض هذه المعالم بدليل أنه لاتوجد في الآداب جميعها قصة تنفرد بالحدث وأخرى تنفرد بالشخص، لأن الحدث لا يصدر إطلاقا إلا عن شخص يقوم به وفي أقصوصة أصحاب الجنة أناس أصروا واعتزموا وحاولوا التنفيذ فباءوا بالخذلان، ثم لم يجدوا في النهاية بُدّاً من الإذعان والنكوص عن العناد فكيف تكون مثالا للقصة القائمة على الحدث وحده، كما أن قصص الأشخاص مجموعة أحداث قام بها البطل، ولو قدر له ألا يقوم بهذه الأحداث ما كان بطلا ذا وقائع!.

إن التقسيم المنهجي في مجال النقد القصصي إذا أتيح له أن يبلغ مبلغه المنطقي من التحديد والتركيز يجب ألا يكون ذا اشتباه واختلاط تتدانى فيه الفوارق إلى درجة الإقتراب كما نرى الآن وقد يكون من الجائز أن يطغى الحدث على الشخصية في بعض القصص أو تطغى الشخصية على ما يحيط بها من الأحداث، ولكنه طغيان يتساءل عن عِلَّتِهِ بحيث تتلمس له المسوّغات لا أن يكون منهجا من مناهج الأسلوب؟؟؟[1].

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ . أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ . فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ . وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ . قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ . عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ . كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ . ﴾ .

---

(١) البيان القراني تأليف الدكتور محمد رجب البيومي ربيع الثاني ١٣٩١هـ، مايو سنة ١٩٧١م الكتاب الواحد والثلاثون ص١١٣، ١١٤.

المجموعة الثانية:

تلكم نماذج أربعة تمثل الجانب السلبي في حياة الأمم أفراداً وجماعات وسأتحدثُ عن نماذج ثلاثة أخرى تمثل مباديء الرُقيّ وتُكوّن الرحيق الطيب الذي تسمو به الأمّة أفراداً وجماعات وإذا كان الحديث عن النماذج السابقة يهدف إلى الأخذ بيد الأمّة لتتجنب الضعف والانزلاق والانحراف فإن نماذجنا هذه ترسم المنهجية المنضبطة التي لابدّ أن تتوافر للبناء وأعني بهذه العناصر في السورة التي كانت بدايتها قول الله تبارك وتعالى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ قال العلامة أبو السعود رحمه الله في معنى قوله سبحانه: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ أي شيئاً من العوج بنوع اختلال في النظم وتناف في المعنى أو انحراف عن الدعوة الى الحق.

وختمت بقوله سبحانه ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا . قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا . ﴾ [الكهف: ١٠٩-١١٠].

سورة الكهف

.اشتملت سورة الكهف على قصص متعدد الأغراض، متنوع الجوانب، والذي يتدبر السورة الكريمة يجدها ذات قاعدة تربوية عريضة، جاءت لتهدي المسلمين في فجاج هذه الحياة إلى سبل الخير والذي يظهر لي أنّ سورة الكهف التي وردت الأحاديث ترشد إلى قراءتها يوم الجمعة، والتي بيّنت أن آيات منها من أولها أو آخرها تعصم من الدجّال، فإذا صحّت هذه الأحاديث؛ فإنّها تجعلنا، ندرك ما لهذه السورة من أثر يجب أن يكون في حياة المسلمين، ويوم الجمعة كما نعلم هو خيرُ الأيّام، وهو لا مرية أول أيام الأسبوع عند المسلمين، يدلنا على هذا أحاديث كثيرة صحّت عن رسول الله ﷺ فقراءة السورة في هذا اليوم، لها غايةٌ ساميةٌ، وغرضٌ نبيلٌ، وهدف مقصود.

سبب حث النبي ﷺ على قراءة سورة الكهف:

إن في سورة الكهف، لقصصاً عظيماً، منها أولاً: قصة أهل الكهف، وفيها ثانياً: قصه موسى عليه السلام مع العبد الصالح عليهما الصلاة والسلام، وفيها ثالثاً: قصة ذي القرنين، وقد حدثتكم من قبل بأنّ إرشاد النبي ﷺ لقراءة بعض سور القرآن، ليس الهدف منه أخروياً فحسب أي لكون القارىء لهذه السور يحصل له أجر أكثر من قراءته لغيرها؛ فإن القرآن كلّه خير وكل حرف منه فيه عشر حسنات في سور القرآن كلها، ولكنّ الذي نفقهه من الأحاديث التي تحثّ على قراءة بعض السور، هو أنّ لهذه السور هدفاً آخر يتصل بإرشاد المسلمين في هذه الحياة، كما بينتُ لكم من قبل عند الحديث عن سورة البقرة، وأن الحثَّ على قراءتها كان له أهدافه الساميه ذكرتها هناك، فإذا نحن بحثنا عن هذا في سورة الكهف، وجدناها بما فيها من قصص، تبيّن بل تبني منهجاً متكاملاً في حياة المسلم، وإليكم بيان هذا:

قصة أهل الكهف جاءت تحدثنا عن العقيدة التي ينبغي أن تملأ النفوس والقلوب لتثبيت العزم والحزم حتى لا يكون ضعف ولا خور، والعقيدة هي اللبنة الأولى في المنهجّ الرباني، ولما كانت هذه العقيدة والعبادة قد تكون عرضة للخطر ولأن ينزلق صاحبها بسبب طغيان المادة أولاً، وبسبب الشيطان ثانياً، ذكر القرآن الكريم عقب قصة أهل الكهف هذين الخطرين: أعني الطغيان الماديّ وكيد الشيطان، أشار إلى الأول بقوله ﴿ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ ﴾ وأشار إلى الثاني بقوله: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ وهذا كلّه من أجل ان تحصِّنَ العقيدةُ الأمّةَ حتى لا يطمع فيها عدوها، ثم ذكر بعد ذلك قصه موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وهي تشكل لبنة أساسية في حياة المسلم وهي العلم، العلم الذي تحيا به النفوس والقلوب، والعلم الذي فضّل الله به الإنسان، وجعل الناس يتفاضلون به كذلك، وبعد هذه القصه ذكر نبأ ذي القرنين وهو يبيّن العنصر الثالث في حياة المسلم ألا وهو الجهاد، تلكم هي المنهجية التي بينتها سورة الكهف، وتلكم هي العناصر التي لا بدّ ان تتوافر ليكون المسلمون أقوياء في هذه الدنيا، لا سلطان عليهم لعدوّهم الداخلي وهو الشيطان الذي يأتيهم من داخل أنفسهم ولا لعدوّهم الخارجي الذي يستولي على خيراتهم، هذه العناصر واللبنات هي العقيدة والعلم والجهاد التي بينتها السورة الكريمة.

وسأحاول أن أتكلم بإيجاز عن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين أما قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، فقد مرت في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، حيث كانت الجانب السادس والأخير من حياته عليه الصلاة والسلام.

قصة أهل الكهف:

ابتدأت قصة أهل الكهف بقوله سبحانه ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ وختمت بقوله سبحانه ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

وقد أكثر المفسرون القول في أمور لم يعرض لها القرآن الكريم تتصل بالزمان والمكان اللذين عاشهما أهل الكهف كما تتصل بأسمائهم وكلبهم، ولقد: بينت أكثر من مرة أن القرآن الكريم يطوي كثيراً مما لا تدعو إليه الحاجة ومالا تكون به العبرة، ذُكرت قصة الكهف مجملة في الآيات الأربعة الأولى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ[1] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ أي لا تظن والخطاب قد يكون للنبي ﷺ، ويظهر أنه عام لكل من يصلح أن يخاطب اي لا تظن أن أمر أصحاب الكهف مع ما فيه من غرابة كان من الأمور العجيبة فإن في ما قدرناه في هذا الكون ما هو أعجب من أمرهم وتحدثنا الآيات أن أولئك الفتية أووا إلى الكهف وفي هذه الكلمة (الإيواء) تصوير بياني بديع كأنهم كانوا يعيشون حالة من القلق والاضطراب النفسي وألم الروح وحينما دخلوا الكهف وجدوا فيه طمأنينتهم، كيف لا وهم يناجون ربهم أن يؤتيهم من لدنه رحمة خاصة بهم تمدهم بالثبات والحق وتزيل من نفوسهم مظاهر الاضطراب وأسباب القلق وأن يهيىء لهم من أمرهم رشداً يثبت العقيدة في قلوبهم ويبين القرآن ما أكرمهم به حيث ضرب على آذانهم في هذا الكهف سنين عدداً ـ والضرب على الآذان يقصد به أنه أوقع عليهم النوم العميق بحيث تنقطع الآذان عن كل ما يصل إليها من حركة بهذه الحياة مدة طويلة من الزمن سنين عدداً ثم بعثناهم بعد ذلك لنظهر آثار قدرتنا لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً أي بعثناهم لحِكَمٍ كثيرة منها ليظهر اختلاف الحزبين في المدة التي لبثها أولئك في كهفهم والحزبان يظهر أنهما أهل الكهف أنفسهم وقد اختلفوا في مدة لبثهم كما سيأتي وقد يكون الحزبان المؤمنين والكافرين تلكم الآيات الأربع أجملت الحديث عن أولئك

---

(١) اختلفوا كثيرا في معنى (الرقيم)، ولكن الظاهر انه اسم اللوح الذي كتبت عليه اسماؤهم.

الفتية وبعد ذلك يأتي الحديث عنهم مفصلا ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ والحق أنّ الإجمال والتفصيل من مزايا الأسلوب القرآني فعلى حين تستمع إلى القصة مجملة بأسلوبها الرصين تجدها وافية بالهدف الذي سيقت من أجله وبالغرض الذي جاءت تتحدث عنه إن هذه الآيات الأربع التي ليس فيها طول بل هي آيات قصيرة كما رأينا أدرك القارىء منها القضايا الرئيسة في خبر هؤلاء الفتية فلو اقتصر عليها لكان ذلك كافياً، ولكن التفصيل يثير أحداثاً وتستخرج منه فوائد في مجالات متعددة من مجالات الحياة فما أبدع هذا القرآن الكريم الذي لم يجعل الله له عوجاً وقد نقلتُ لك معنى هذه العبارة من تفسير العلامة أبي السعود رحمه الله ولنستمع إلى الآيات الكريمات وأول ما نستمع له في هذه الآيات ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ الحق الذي لا يتطرق اليه الباطل، الحق الذي لا شبهة فيه ولا شائبة، الحق الذي هو بعيد عن شطحات الخيال.

أَبَعْدَ هذه الكلمة الطيبة يدّعي الخرّاصون أن القصص القرآني لا يلتزم الصدق والواقعية ولا الحقائق الخارجية؟! ما أصدق ما جاء في اول هذه السورة كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ويبين القرآن للمرة الثانية أن أولئك كانوا في أعمار الورود نضارة وحسنا قرأنا من قبل قول الله ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ ﴾ وها نحن نقرأ الآن مرّة أخرى ﴿إنهم فتية﴾ ولكنهم هذه المرة ﴿آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ وزيادة الهدى منحة من الله يمنحها الله سبحانه من أخلص في الإقبال عليه واللجوء إليه، ألم يكن شأن أولئك كذلك؟؟ وصدق الله ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ نعم اتاهم تقواهم ولقد خص الله أولئك الفتية بعد هذه المنح فربط على قلوبهم والربط على القلوب في مفهوم القرآن التثبيت على الحق أياً كانت العواصف والمحن.

الفرق بين الربط والختم.

وما أعظم شأن القرآن ولنستمع إليه وهو يفرق بين كلمتي الربط والختم فالربط على القلوب يخص الله به عباده أما الختم فهو جزاء الكافرين ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ ويفصل القرآن لنا نبأ أولئك الذين زادهم الله هدى وربط على قلوبهم اذ قاموا ثابتين على ما هم عليه قاموا بحق هذه العقيدة وهم يعلنون تبرؤهم من الشرك ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ قولاً بعيداً عن الحق وفي القرآن ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ويعجبون من قومهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة لا تغني عنهم شيئاً بلا حجة ولا وسلطان ومن ذا الذي يملك سلطاناً على الشرك ومن ذا الذي يستطيع ان يقيم حجة على الباطل؟ لا أحد أظلم من أولئك الذين جحدوا وحدانيه الله وربوبيته وهو الذي خلقهم ومكن لهم. ويتحدثون فيما بينهم وهو حديث يدل على عزم المؤمن الداعية حينما يصمّم على ما توجبه عليه ظروف الدعوة لقد كان هؤلاء الفتية من المنعمين في قومهم ومن أولاد أولي الشأن ومع ذلك فهم يصممون أن يعتزلوا قومهم المعرضين عن الحق وأن يعتزلوا معبوداتهم كذلك.

معنى واذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله.

وهنا لطيفة قرآنية ينبغي أن يتذكرها الدعاة إلى الله وبخاصة الفتية وهي قول الله سبحانه ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فأكثر المفسرين على أن «ما» اسم موصول أو حرف مصدري والمعنى وإذ اعتزلتم قومكم وأصنامهم التي يعبدونها من دون الله أو وإذ اعتزلتم قومكم وعبادتهم فإن من الخير والسلامة أن تأووا إلى الكهف لينشر لكم ربكم من رحمته، ورحمته سبحانه وسعت كل شيء ويهيء لكم من أمركم مرفقاً أي ييسر لكم أسباب الخير وكل ما يُذهب همكم وغمكم فنحن نرى أنهم بدأوا بالحديث عن اعتزال قومهم والذي رجوه من الله في هذه الآية من نشر الرحمة وتيسير الأمور هو ما تقدم من قبل في قولهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ وهذا التصميم على أن يعتزلوا قومهم

إنما يدل على الأثر العميق للإيمان في نفوسهم وهناك رأي آخر في تفسير الآية ذهب إليه بعض المفسرين وهو أن (ما) نافية والجملة من كلام الله جاءت معترضة بين كلام الفتية والمعنى على هذا إذ اعتزلتم قومكم فأووا إلى الكهف، وجاء قوله ﴿ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ بين هاتين الجملتين، أي إذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف والله يقول ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي إن الفتية اعتزلوا قومهم لا لشيء إلا لأنهم يعبدون الله وحده، وعلى القول الأوّل وهو الذي نرجحه أن الكلام كلّه للفتية وعلى الثاني أن جملة ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ليست من كلامهم وإنما من كلام الله.

وتنتقل الآيات إلى مشهد آخر تفصّل فيه أحوالهم وهنا نجد أنّ هناك أموراً طويت، وهذا هو شأن القرآن الكريم كما قلت من قبل عند الحديث عن قصتي يوسف وموسى عليهما الصلاة والسلام يطوي كثيراً مما لاحاجة لذكره، فكأنّهم بعد قولهم هذا أووا إلى الكهف، ذهبوا إليه، وبعد أن جلسوا أنامهم الله نوما عميقاً، وضرب على آذانهم، وها هو القرآن يصور لنا هيئتهم التي كانوا عليها في الكهف، ورحمة الله بهم، حيث حفظ أجسامهم، حتى لا يصيبها تلف وفساد. حفظها أولاً: من حرارة الشمس، وحفظها ثانياً: من أن تؤثر الأرض في أجسامهم أمّا حفظهم من حرارة الشمس، فقد أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ الآية ومعنى الآية الكريمة أن الشمس حينما تطلع تزاور عن كهفهم أي تميل ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي إن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها وعند غروبها، ويرى بعض العلماء أن هذا يعود إلى طبيعة الكهف وموضعه، ويرى آخرون أن الأمر ليس كذلك، بل هي آية من آيات الله. وهذا ما نطمئن إليه لقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ ﴾ وما أجمل التعقيب في هذه الآية ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ فقد هدى بفضله هؤلاء الفتية مع صغر سنهم وقلة تجاربهم، وكان المجرّبون المسنّون أحرى بهذه الهداية، وتصوّر الآية الكريمة بعض شؤونهم ﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ ﴾

تحسبهم أيقاظاً إذا نظرت إليهم ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ بهذا التعبير: «وهم رقود» تعبير مؤثر موحي «وهم رقود» هذه جملة اسمية تدل على الداوم والثبوت كما يقول البيانيون، أما الحالة الثانية التي حفظ الله فيها أجسامهم بعد حالة الشمس فهي قوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وتعرض الآية حالة كلبهم الذي تبعهم وكان معهم ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ وهو فناء الكهف عند بابه أو هو الباب نفسه حالهم تلك لا يستطيع كل واحد مهما كان رابط الجأش أن يتملّى منها بل سرعان ما تقع عيناه عليهم سيفر أو يمتلىء قلبه رعبا. وماذا بعد ذلك؟ والقارىء المتدبر تتوق نفسه إلى ما وراء هذا.

وها هو القرآن الكريم يفصل لنا ما أجمله من قبل ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ لنستمع إلى هذا التفصيل المبين، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم، أي بعد أن أنمناهم هذا النوم العميق الطويل بعثناهم لحكم كثيرة ومنها أن يكون بينهم هذا التساؤل ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ فيقول بعضهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ويقول آخرون دعوا هذا التساؤل ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وقد أخذ بعضهم من هذه الآية الكريمة معرفة عددهم بأنهم كانوا سبعة لأن قوله سبحانه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ يدل على أنّ المتكلم واحد، وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بواو الجمع وأقل الجمع ثلاثة والمجموع أربعة، وقوله ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ يدل على ثلاثة أيضاً لأنه أقل الجمع فالمجموع سبعة إذن ليَدَعوا مقدار المدة التي لبثوها، وليبحثوا عما هم أحوج إليه ليقيم أجسامهم (الطعام) ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ وهنا نتعلم درساً في اللياقة والذوق، إن كثيراً من الناس المتدينين، يظنون أن التدين امتناع عن الطيبات التي أباحها الله، فهم يحرمون أنفسهم أن تتلذذ بنعم الله سبحانه، وهو تصور بعيد عن روح الإسلام كتابا وسنةً وتطبيقا عملياً كذلك ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وكان هذا ما فقهه الفتيه المؤمنون الذين زادهم الله هدى، ولنستمع ما يحدثنا القرآن عنهم﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾

ويذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي الحلال الطاهر ولا أدري لِمَ ذهبوا إلى هذا القول مع أن الفتية مجتنبون ما حرم عليهم ثم إن هنالك أمراً آخر ما أحوج الدعاة اليه وبخاصة في عصرنا هذا وهو قوله سبحانه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وهو الحكمة في التعامل وعدم التزمّت هذا هو فقه الفتية اختيار الطيبات من الرزق، والحكمة في المعاملة ثم التحذير من أسلوب العنف، والمبالغة في السريّة ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾. وقد كانوا يظنون أن الحال لازال كما هو عليه، عند إيوائهم إلى الكهف، ولم يدروا أنه قد مرت سنون وتوالت قرون وذهبت أجيال، ويزيد بعضهم بعضاً تحذيراً ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا على احوالكم، ويعرفوا مكانكم، فلن تكون ما تحمد عاقبته، فليس هناك إلا واحد من اثنين إما أن يقتلوكم وإما أن يعيدوكم في ملتهم وهذا هو شأن الظالمين دائما، وقد حدثنا الله في سورة ابراهيم أبي الأنبياء، وشيخ الحنفاء ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ويقول شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ وها هم أهل الكهف يقولون: إن أعادوكم في ملّتهم فلن تفلحوا إذاً أبداً فالحذرَ الحذرَ ويذهب أحدهم ليحضر الطعام ولكن النقد الذي معه يختلف عن النقد الذي كان متداولاً بين الناس في ذلك الوقت. ولله الحكمة العظيمة، وهكذا يطلع الله الناس على أحوالهم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فالذي أنام هؤلاء هذه المدة الطويلة، قادر على أن يحيى الموتى ليقوم الناس لرب العالمين، حتى تجزى كل نفس بما كسبت، وقوله سبحانه ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ يرى بعضهم أن الضمير يعود على أهل الكهف، ويرى آخرون أنه يعود على الناس، والذي يترجّح لديّ العموم ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ويظهر أن المتنازعين هم الذين اطّلعوا على أحوالهم.

والقرآن الكريم لم يفصّل لنا كثيراً من هذا الاختلاف، فلنكتف بما جاء في القرآن ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ والذي يفهم من الآية الكريمة أن القوم حينما وصلوا إلى الكهف، توفى الله أهل الكهف فذهبت أرواحهم إلى حيث الرضوان، ثم يبين القرآن الكريم شأناً آخر من شؤونهم يتصل بعددهم فمن قائل إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم، ومن قائل إنهم خمسة سادسهم كلبهم ويعقب القرآن الكريم على هذين القولين ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي قولاً بلا حجّة، لا دليل عليه ثم يذكر قولاً ثالثا ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ونلحظ أن هذه الواو لم تأت في القولين السابقين ﴿رَّابِعُهُمْ﴾، و﴿سَادِسُهُمْ﴾، وهذه ليست واو الثمانية كما يقول بعض الناس إذْ ليس في اللّغة واو تسمى واو الثمانية، لذا ذهب المحققون إلى أن عددهم سبعة لمرجحات منها وجود هذه الواو حيث لم تأت في القولين الأوّلَيْن وجاءت في القول الاخير ثم يقول الله لنبيّه عليه الصلاة والسلام ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ثم لا ينبغي أن تماري في شأنهم أي تجادل إلا مراءً ظاهراً أي عندك عليه حجة من الله ولا ينبغي أن تستفتي في أهل الكهف أحداً من أهل الكتاب إذ ليس عندهم ما يُطمأن إلى صدقه وما يركن إلى صحته وفي أثناء الحديث عن أهل الكهف يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ وهو توجيه ربّاني يجب ان نلتزم به ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وهذا الذكر قد يكون خاصاً إذا عزمت على شيء ولم تقل إن شاء الله فقلها حينما تتذكر، وقد يكون عاماً، أي يجب أن تذكر ربك في كل حين وعلى كل الأحوال، لا في الحالة التي نسيت أن تقول فيها إن شاء الله فحسب ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي عسى أن يهديني ربي في تبليغ رسالتي وإقامة الحجة على الناس، وما يبعثهم على الاستجابة لأمور تكون أقرب وأكثر تأثيراً وأقوى حجة مما جاء عن أهل الكهف.

ويختم الحديث عن أهل الكهف بهذه الآية الكريمة ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ يقول المفسرون إنها ثلاثمائة سنة شمسية وتزيد في السنين القمريه تسع سنين، لأن كلّ مئة شمسية تزيد ثلاث سنين قمريه فالسنة ٣٦٥ يوماً وجزء والسنة القمرية ٣٥٤ وجزء، وذهب بعض التابعين إلى أنّ هذا القول عن مدّة بعثهم حكاية عن بعض أهل الكتاب ولكن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإنْ صحٌ هذا القول فإننا نلحظ منه أنّ الاختلاف كان في شيئين اثنين في عددهم وفي مدّة لبثهم أما العدد فقد عقّب عليه القرآن بقوله ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾ وأمّا المدة فقد عقّب عليها القرآن بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلنكل الأمر فيه إلى الله سبحانه ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ وهذه صيغة تعجب أي ما أبصره وما أسمعه فلا يغيب شيءٌ في هذا الكون عنه سبحانه، لا تخفى عليه خافيةٌ ﴿أبصر به وأسمع﴾ يقول اللّغويون في قوله سبحانه ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أبصر: فعل ماض جاء على صورة الأمر وكذلك أسْمِعْ أي ما أسْمَعه وما أبْصَرَه. مالهم من دونه ولي ولا يشرك سبحانه في حكمه أحداً من خلقه، تلكم هي قصة أهل الكهف، رأينا فيها دروساً كثيرةً في العقيدة والأخلاق والذوق واللياقة، وحسن التصرف وما لم أذكره أكثر مما ذكرت وكلام الله لا تنقضي عجائبه.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا

طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ
رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ
مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ
قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى
ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا
إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا وَكَذَٰلِكَ
أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا سَيَقُولُونَ
ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم
مِّنْهُمْ أَحَدًا وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ
عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا قُلِ ٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٩-٢٦].

قصة ذي القرنين

هذه القصة الثالثة في سورة الكهف، وقد تحدثنا عن القصه الثانية حيث كانت الجانب السادس في قصة موسى الكليم ﷺ.

أكثر الناسُ الحديثَ عن ذي القرنين، فأكثروا الحديث عن اسمه ونسبه، وأعماله، ومنهجُنا كما علمتم أن نكتفي بما ذكره القرآن الكريم، باذلين الجهد في استخراج ما ترشد إليه الآيات الكريمة من حكم، وما توجه اليه من قيم في مجالات الحياة الكثيرة، وأحب أن أبادر القول هنا بأن ذا القرنين ليس هو «الاسكندر المقدوني» على الرغم من أن هذا قد اشتهر بين الناس، وحاول كثيرون أن يثبتوه وأصح ما قيل فيه، إنه أحد ملوك الحميريّين الذين كانوا يُعْرفون بهذا اللقب، فمنهم «ذو اليزن» و«ذو الكلاع» وعلى هذا فذو القرنين أحد أولئك الملوك، وقال آخرون إنه «قورش» الفارسي، والذي يعنينا نحن ما عناه القرآن، ويظهر أن قصّة ذي القرنين كانت جوابا لسؤال وُجّه إلى رسول الله ﷺ يدلنا على هذا ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ وقوله سبحانه ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ يدلنا على أن خبر ذي القرنين متعدّد الجوانب كثير الجزئيّات لكنّ القرآن الكريم أخبرنا بما فيه الغُنْية والكفاية، ولما كانت هذه القصة في سورة الكهف، تمثل عنصر الجهاد، حيث جاءت بعدما تحدثت عن عنصري العقيدة والعلم أقول لمّا كان الأمر كذلك بيّن الله سبحانه وتعالى ما مكّن ذا القرنين فيه من أسباب العطاء قوة وعدلاً وحكمةً ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وآتيناه من كل شيء يحتاجه أولو القوة والحكم ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ويسير ذو القرنين، ولم يذكر القرآن الجنود والأتباع الذين كانوا معه، والذي يبدو لي أنهم لم يُذكروا حتى لا يُظنّ أن لهم دخلاً فيما أعطاه الله ومنحه، وليس عدم ذكرهم لعدم وجودهم، أي عدم ذكر القرآن لهم ليس دالاً على أنه كان يسير وحده، ويسير ذو القرنين في مغرب الأرض حتى وصل إلى آخر مكان يعمره الناس، فظن أنّه مغرب

الشمس كما يبدو له، ويظهر أنه كان مكانا قريبا من البحر، وهذا ما يفهم من الآية الكريمة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ والعجيب أن بعض الناس استغل هذه الآية ليستنتج أنّ القرآن الكريم لايلتزم بالصدق وهي فرية يعلم الله عظيمة، والقرآن الكريم حينما قال ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ ﴾ يدّل على أنّ هذا الأمر كان في ظنه وحسبانه، فليس فيها ما ذهبوا اليه ومثل ما استدلوا به على قولهم، كذلك قول الله تعالى عن اليهود وقولهم ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ إذ اليهود لا يعترفون برسالة عيسى، والحق أن كلمة رسول الله قد تكون تهكماً منهم، وهذا أسلوب معروف بين الناس، وقد تكون تعظيماً من الله لعيسى عليه السلام، وأعني بالذين ذهبوا هذا المذهب صاحب الفنّ القصصي في القرآن والمشرف على رسالته، وقد ناقشنا شبهاته سابقاً.

وصل ذو القرنين إلى ذلك المكان، فوجد قوماً هناك، وكأنّ القوم عرفوا قوّته، وعرفوا شيئاً من فضله، وكان من شأن أولئك القوم، وقد دعاهم إلى الخير، أن كان منهم الصالح وغير الصالح، ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ ويتبين فضل الرجل وعدله وقوته وإيمانه مما حكاه القرآن الكريم ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ ولكنه عذاب أشدّ وأخزى، أمّا المؤمنون الذين عملوا الصالحات فإن لهم عندنا جزاءً عظيماً سنحسن إليهم بأن نعطيهم ما يصلح شأنهم، ونقول لهم قولاً لينا كريما.

ويمضي ذو القرنين إلى ان وصل إلى آخر مكان يسكنه الناس في المغرب، ويرجع إلى أن يصل إلى آخر مكان يسكنه الناس في المشرق، فيجد هنالك قوماً بدائيين وهم عراة ليس لهم ما يسترهم إلا الشمس ولم يحدثنا القرآن شيئاً عمّا جرى بينه وبينهم، وإن كان الذي أرجحه أنّ ذا القرنين لم يترك أولئك القوم بلا توجيه بل بذل ما يمكن بذله في اصلاحهم، والقرآن الكريم، وإن لم يذكر هذا، لكنّ الذي نعلمه أنّ أهل الخير لا يحلّون في مكان إلا ويتركون أثرا من خير الله الذي أعطاهم. ويترك ذو القرنين هذا المكان ويسير إلى أن يصل بين السدّين، أي إلى مكان بين جبلين، ويجد من دون السدين،

قوما لا يكادون يفقهون قولاً، لا لصعوبة لغتهم فحسب، بل يظهر لعدم رشدهم وقلة حيلتهم، وهاهم يطلبون من ذي القرنين أن يحميهم من يأجوج ومن مأجوج وهنا دقيقة قرآنية يجب أن نقف عندها متدبرين، يظهر ان القوم لم يكونوا على مبلغ من العلم ولم يكن لهم قسط من الحصافة والحكمة لكن القوم لم يكن ينقصهم المال ولقد ذكرت، وأنا أقرأ الآية الكريمة، أمّتنا التي تملك المال الكثير ولكنها لا تملك السياسة والحكمة والتدبير لكي تستثمر هذا المال فيما يعود عليها بالخير، بل قد تنفقه فيما لا يزيدها إلا عناءً وبلاءً ووباءً، وها هم يقولون لذي القرنين: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويعرضون عليه أن يعطوه أجراً، ليبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، ترى فإذا كانوا يملكون المال، فلِمَ لم يستثمروه فيما فيه خيرهم؟ ويردُّ ذو القرنين بأن الله أعطاه خيراً مما عندهم، فهو لا يحتاج لأموالهم، لكن يريد منهم وهم عدد لا يستهان به أن يعينوه بقوتهم الجسمية ما داموا قد حرموا القوّة العقلية والقدرة على التخطيط، فإن هم فعلوا ذلك جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج «ردماً» تصعب إزالته.

ويبين القرآن الكريم خطته التي سار فيها ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، أي قطعاً من الحديد كبيرة وكثيرة، حتى إذا ساوى ما بين «الصدفين» أي الجبلين قال «انفخوا» حتى إذا جعله ناراً أفرغ عليه النحاس المذاب ليزداد قوة على قوة، ولقوته لم يستطيعوا أن «يظهروه» أي يصعدوا عليه ولم يستطيعوا أن يحدثوا فيه ثغرة كذلك. وحمد ذو القرنين ربه على ما أنعم به عليه ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي سواه بالأرض، ووعُد ربّه مُمْكنٌ أن يكون قيامَ الساعة كما روي في بعض الآثار، كما يمكن ان يكون الوقت الذي أراده الله لهدم هذا السد، وقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أن يأجوج ومأجوج هم المغول والتتار، ويستدلون بهذا لما جاء في صحيح البخاري رحمه الله» من حديث زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ـ من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج

ومأجوج مثل هذه، وحلق بين أصابعه قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»[1].

تلكم هي قصة ذي القرنين، وهي القصه الأخيره من سورة الكهف، وهي المجموعة الثانية في القصص القصير الهادف، حيث تكونت المجموعة الأولى من نماذج أربعةكانت كلها تحذيراً من عوامل الفساد والبغي، وأعني بها قصة ابني آدم وقصة الملأ من بني إسرائيل، الذين بعث الله لهم طالوت ملكاً، حيث جبنوا وأصابهم الهلع، وقصة قارون الذي أطغاه المال فأفسد في الأرض وقصة أصحاب الجنة الذين أعمتهم الأنانية فنزعت من قلوبهم الرحمة، وأمّا المجموعة الثانية التي تحدثتُ عنها الآن، فقد اشتملت على نماذج ثلاثة أيضا، ولكنها تختلف عن سابقتها بأنها نماذج بِناءٍ، وقد اشتملت على العقيدة والعلم والجهاد، وهي أمورٌ لا تحيا أمّتنا إلاّ بها، فالعقيدة تقينا شرّ الانحراف والتسيّب والترهّل والعلم يحفظنا من الانسياب الفكري، ويمنحنا القدرة على التخطيط، والجهاد يحول بيننا وبين أن يشرق بنا العدو، هذه العناصر الثلاثة هي السدّ الذي هو أقوى من سد يأجوج ومأجوج، وقد بدأتُ بالمجموعة الأولى لانّ فيها درءاً للمفاسد والتخلية مقدمة على التحلية، وأرجو الله أن يمكن القرآن في نفوسنا، لتتفاعل مع هذا القرآن ليمكّن الله لنا في الأرض، وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن حديث رقم ٧٠٥٩ الطبعة السلفية مع الفتح ١٣/ ١١.

ذلكم هو القصص القرآني في حلاوته وطلاوته في جماله وروعته، في عظاته ونفحاته، في أهدافه وغاياته، في مشاهده ومواقفه، نرجو أن يكون لنا فيه قبس يضيء لنا الطريق حتى لا نضل المسيرة ونظل في عماية وحيرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والله يجزي سيدنا محمداً ﷺ خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

فهذه ولله الحمد والمنة جولة في أرجاء القصة القرآنية شرفنا بها تلاوة ونعمنا بها عبقاً، واستنارت بها نفوسنا هداية وحكمة، وأثلجت صدورنا إمتاعا وأنساً، واهتدينا بها شهاب قبس: ناقشنا دعوى التكرار، ووقفنا على كثير من الحكم والأغراض والأهداف، وعرفنا اللبنات التي وضعها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذا البناء الإنساني المحكم إلى أن جاء خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام فأتم هذا البناء وقد رددنا الشبهات التي أثيرت زوراً على القصص القرآني ما أمكن وأرجو الله أن أكون قد وفقت وأستميح القارىء عذراً من سبق لسانٍ، أو زلّة قلمٍ وتبقى للقصة القرآنية جوانبها النفسية والتصويرية والبيانية، تبقى بحاجة لذوي البصائر يفجروا منها ينابيع الحكمة والنور، ومن عيونها العذبة ماء الحياة، ليبلوا صدىً، ويُذْهبوا ظمأً، ويخرجوا خبأها، وينشروا ضوءها، ونشكر جهود المتقدمين وإني إذ أحمد الله أشكره أن وفقني لأشرف بالكتابة عن خيرة خلق الله رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وعلى أنْ تفيأتُ هاتيك الظلال الوارفة المنعشة أساله تبارك وتعالى وهو الأكرم والأجود أن يوفقني ويمنحني من فضله ويتم عليّ نعمته ويكمل منته فيكرمني ليتم لي الخير فأشرف وإن كنتُ لست أهلا لهذا بالكتابة في سيرة سيدنا محمد ﷺ لأكمل الكتاب بهذا البناء الطيب وهي رغبة أسأل الله أن يحققها لي وأن يوفقني لخدمة كتابه الكريم وسنة نبيه الشريفة وسيرته ﷺ العطرة ولله الحمد في الأولى والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

الأول من شهر الله الحرام ١٤٢٠هـ

السابع عشر من نيسان ١٩٩٩م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المراجع

١- **الالوسي**: الشيخ محمود - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المطبعة المنيرية بمصر.

٢- **باجوده**: د. حسن محمد - الوحدة الموضوعية في سورة يوسف - الطبعة الثانية، جدة س١٤٠٣، س١٩٨٣.

٣- **بحوث المؤتمر الأول**: للاعجاز القرآني المعقود بمدينة السلام بغداد بين (٢١-٢٦) رمضان ١٤١٠هـ الموافق (١٦-٢١) نيسان ١٩٩٠ - أصدرته وزارة الاوقاف والشؤون الدينية في الجمهورية العراقية.

٤- **البخاري**: محمد بن اسماعيل - صحيح البخاري - دار القلم، بيروت- الطبعة الاولى س١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٥- **بلبول**: محمد عبده - القصص القرآني - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر - كلية أصول الدين.

٦- **البيومي**: محمد رجب- البيان القرآني - الكتاب الواحد والثلاثون من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية - ربيع الثاني ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

٧- **الترمذي**: ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة - سنن الترمذي - مطابع الفجر الحديثة الطبعة الاولى ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م.

٨- **الثعلبي**: احمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري - قصص الأنبياء - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٤١٤ - ١٩٩٤.

٩-**ابن حجر**: الحافظ شهاب الدين ابي الفضل العسقلاني فتح الباري شرح صحيح البخاري - شركة مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده بمصر س ١٣٧٨هـ ١٩٥٩م.

١٠- **ابن حنبل**: أحمد - المسند- المكتب الاسلامي ودار صادر للطباعة والنشر/ بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

١١- **حسين**: محمد الخضر - بلاغة القران، تحقيق وجمع علي الرضا التونسي ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

١٢- **حسن**: محمود السيد - روائع الاعجاز في القصص القرآني - دراسة في خصائص الاسلوب القصصي - الاسكندرية المكتب الجامعي س١٩٨٢.

١٣- **الحسيني**: الحاج أمين - حقائق عن قضية فلسطين.

١٤- **الخطابي**: سليمان بن حمد - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن الخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام - الطبعة الثالثة - دار المعارف - بمصر.

١٥- **الخطيب**: عبد الكريم القصص القرآني في منطوقه ومفهومه - ملتزم الطبع دار الفكر العربي س١٣٨٤هـ س١٩٦٥م - طبعة أولى.

١٦- **الخطيب**: عبد الكريم القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور. الطبعة الاولى بيروت دار الأصالة ومؤسسة الرسالة س١٤٠٤هـ-١٩٨٤- سلسلة من قضايا القرآن.

١٧- **الرازي** - الفخر التفسير الكبير - الطبعة الاولى س١٣٥٤هـ-١٩٣٥- المطبعة المصرية من محمد محمد عبد اللطيف.

١٨- **الرافعي**: مصطفى صادق - وحي القلم - دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.

١٩-**رضا**: الشيخ محمد رشيد - تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية.

٢٠- **الزركشي**: الامام بدر الدين محمد بن عبدالله - البرهان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم - دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - الطبعة الأولى ١٣٧٨ ١٩٥٩م.

٢١- **زلط**: د. القصبي محمود - قضايا التكرار في القصص القرآني، القاهرة: دار الانصار ١٣٩٨-١٩٧٨م.

٢٢- **الزمخشري**: محمود بن عمر - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الناشر المكتبة التجارية الكبرى مطبعة مصطفى محمد مصر الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م.

٢٣- **السماحي**: الشيخ محمد محمد مذكرات في التفسير الموضوعي تشتمل (الالوهية الرسالة التأمين﴾ - كلية أصول الدين جامعة الأزهر.

٢٤- **شاكر**: أحمد محمد - تحقيق الكتاب المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم - لابي منصور الجو اليقي مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦١هـ.

٢٥- **شاكر**: احمد محمد - كلمة الحق/ اصدع بما تؤمر/ دار الكتب السلفية الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ.

٢٦-**الطباطبائي**: السيد محمد حسين. الميزان في تفسير القرآن منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات- بيروت.

٢٧- **عباس**: د. فضل حسن قضايا قرانية في الموسوعة البريطانية - دار البشير عمان.

٢٨-**عباس**: د. فضل حسن - خماسيات مختارة في تهذيب النفس الامارة - دار الفرقان.

٢٩-**عباس**: د. فضل حسن - اعجاز القرآن الكريم - دار الفرقان.

٣٠- **عباس**: د. فضل حسن - لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن دار النور للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.

٣١-**عباس**: د: فضل حسن- مناهج المفسرين- مخطوط.

٣٢-**عباس**: د. فضل حسن - التفسير تطوره واتجاهاته - مخطوط.

٣٣- **عوضين**: إبراهيم - البيان القصصي في القرآن الطبعة الثانية الرياض دار الأصالة ١٤١٠، ١٩٩٠م.

٣٤- **ابن قتيبة**: ابو محمد عبد الله بن مسلم - تأويل مشكل القرآن - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٥- **القشيري**: مسلم بن الحجاج - صحيح مسلم-.

٣٦-**قطب**: الامام الشهيد سيد - التصوير الفني في القران دار الشروق بيروت.

٣٧- **قطب**: الامام الشهيد سيد في ظلال القرآن - الطبعة الخامسة.

٣٨- **مجلة**: مجلة لواء الاسلام - العدد السابع - السنة الرابعة.

٣٩- **المحامي**: محمد كامل حسن - القرآن والقصة الحديثة، الطبعة الاولى - بيروت- دار البحوث العلمية ١٩٧٠م.

٤٠- **محمود**: الدكتور مصطفى- محاولة لفهم عصري للقرآن.

٤١- **الملكاوي**: محمد أحمد- مختصر اظهار الحق لرحمة الله هندي الطبعة الاول س١٤١٨-١٩٩٧م.

٤٢-**المناوي**: محمد المدعو عبد الرؤوف - فيض القدير شرح الجامع الصغير - المكتبة التجارية الكبرى مطبعة مصطفى محمد - الطبعة الاولى ١٣٥٦هـ- ١٩٣٨م.

٤٣- **المنذري**: الحافظ- مختصر سنن أبي داود - تحقيق محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٤٤- **ابن نبي**: مالك-الظاهرة القرانية-ترجمة د. عبدالصبور شاهين-مكتبة دار العروبة.

٤٥-**النجار**: عبدالوهاب قصص الأنبياء- دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثالثة.

٤٦-**نقرة**: التهامي سيكلوجية القصة في القران تونس: الشركة التونسية لفنون الرسم ١٩٧٤م رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة جامعة الجزائر س١٩٧١م.

٤٧- **النيسابوري** - الامام ابي عبدالله المستدرك على الصحيحين.

٤٨-**الهيثمي**: نور الدين علي بن ابي بكر ابن حجر - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - مكتبة القدسي ١٣٥٣ القاهرة.

٤٩- **الوكيل**: د. محمد السيد - نظرات في أحسن القصص - الطبعة الأولى- دمشق: دار القلم بيروت، الدار الشامية س١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٥٠-**إنجيل برنابا**.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

المقدمة ٥
الباب الأول ١٣
الفصل الأول: الكاتبون في القصص القرآني ١٥
عبد الوهاب النجار ١٦
عبد الكريم الخطيب ١٩
التهامي نقرة ٣٦
محمد السيد الوكيل ٤٢
الفصل الثاني: القصة القرآنية أهدافها وخصائصها ٤٣
أهداف القصة القرآنية ٤٤
الخصائص الذاتية للقصة القرآنية ٤٥
الخصائص الفنية للقصة القرآنية ٤٧
القصص في العهدين القديم والجديد ٤٩
القصة الأدبية ٥٠
الفصل الثالث: شبهات حول القصة القرآنية ٥٢
الفصل الرابع: القصة القرآنية وشبهة التكرار ٦٥
ما ذكره العلماء الأقدمون حول التكرار ٦٦
فوائد تكرار القصة كما يراها الزركشي ٦٩
ما هو التكرار الذي نعنيه ٧١
المحدثون والتكرار ٧٢
رأينا في الموضوع ٧٣
هل في القصص القرآني تكرار ٧٥
ماذا نقصد بنفي التكرار عن القصص القرآني ٨٠

الطريقة المثلى في دراسة القصة القرآنية ٨٢
الفصل الخامس: ترتيب القصص القرآني في السور ٨٣
الباب الثاني: القصص القرآني عرض وتحليل ٩٧
الفصل الأول: قصة آدم عليه السلام ١٠١
أولاً من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهدات ١٠٣
١ - سورة ص ١٠٣
٢- سورة الأعراف ١٠٤
٣- سورة طه ١٠٨
٤- سورة الإسراء ١٠٩
مسالك الشيطان في الاغواء ووسائله ١١١
٥- سورة الحجر ١١٢
٦- سورة الكهف ١١٤
٧- سورة البقرة ١١٥
الأسماء التي علمها آدم ١١٥
ثانياً: اختصاص كل سوره بما يتسق مع موضوعها ١١٧
ثالثاً: من جهة الألفاظ والتراكيب ١١٨
الغرض الديني والنسق الفني في قصة آدم ١٢١
تعليق على قصة آدم ١٢٢
١ - مجيء قصة آدم مع غيرها من القصص ١٣٢
٢ - الاستعدادات الفطرية التي منحها آدم ١٣٣
٣- قضية التدين ١٣٤
٤ - تكريم بني آدم ١٣٥
٥- الجنة التي أُسْكِنها آدم ١٣٥
٦ - خلق آدم عليه السلام والنظريات الحديثة ١٣٦
٧- زوج آدم عليه السلام ١٣٧
القرآن لم يحمل المرأة مسؤولية الأكل من الشجرة ١٣٧

٨- ما المقصود بالشفاء ١٣٨
٩- ما هي الروح ١٣٩
١٠- أين جنة آدم ١٤٠
١١ - هل هناك آدمون قبل آدم ١٤٢
١٢ - هل البشر من أب واحد ١٤٤
تأويل الشيخ محمد عبده لقصة آدم ١٤٦
١٣ - نظرية دارون ١٥١
رأي الشيخ النجار في النظرية ١٥٢
رأي عبد الكريم الخطيب في النظرية ١٥٣
مذهب مصطفى محمود والرد عليه ١٥٥
توظيف قصة آدم عليه السلام في الأمور الدعوية ١٧٠
الفصل الثاني: قصة نوح عليه السلام ١٧٣
أولاً: ما ذكر فيها من اشارات ١٧٥
ثانياً: من حيث الموضوعات والجزئيات ١٧٧
١- سورة القمر ١٧٨
٢- سورة الأعراف ١٧٩
٣- سورة الشعراء ١٨٠
٤- سورة يونس ١٨١
٥- سورة هود ١٨٢
الخلاف في ابنه ١٨٦
٦- سورة الصافات ١٩٠
٧- سورة نوح ١٩١
٨- سورة المؤمنون ١٩٤
٩- سورة العنكبوت ١٩٧
الاطوار التي تمر بها القصة ١٩٧
ثالثاً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها ١٩٨

رابعاً: تعقيب على قصة نوح عليه السلام ٢٠٢

١- قضية التوحيد ٢٠٢

٢- قضية الاستعلاء ٢٠٣

المدة التي قضاها نوح عليه السلام ٢٠٦

الفصل الثالث: قصة هود عليه السلام ٢٠٧

قصة هود عليه السلام ٢٠٩

أولاً: السور التي تحدثت عن القصة ٢١٠

١- سورة الفجر ٢١٠

٢- سورة القمر ٢١١

٣- سورة الأعراف ٢١٢

٤- سورة الشعراء ٢١٣

٥- سورة هود ٢١٦

٦- سورة فصلت ٢١٨

٧- سورة الأحقاف ٢١٩

٨- سورة الذاريات ٢٢١

٩- سورة المؤمنون ٢٢١

١٠- سورة الحاقة ٢٢٢

ثانياً: لم تفصل قصة هود كقصة نوح عليهما السلام ٢٢٣

ثالثاً: تعقيب على قصة هود عليه والسلام ٢٢٤

الفصل الرابع: قصة صالح عليه السلام ٢٢٧

أولاً: ما ذكر فيها من آيات ٢٢٩

ما ذكر فيها من اشارات ٢٢٩

ما ذكر فيها تفصيلاً ٢٣١

١- سورة الشمس ٢٣١

٢- سورة القمر ٢٣٢

٣- سورة الأعراف ٢٣٣
٤- سورة الشعراء ٢٣٦
٥- سورة النمل ٢٣٨
٦- سورة هود ٢٣٩
٧- سورة الحجر ٢٤١
٨- سورة العنكبوت ٢٤٢
ثانياً: من حيث الألفاظ والتراكيب ٢٤٣
١- ما جاء في قصة نوح عليه السلام ٢٤٣
٢- ما جاء في قصة هود ٢٤٥
٣- ما جاء في قصة صالح ٢٤٦
تعقيب على قصة صالح ٢٤٧
لفصل الخامس: قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٢٥١
١- اسم أبي إبراهيم ٢٥٣
٢- هل يكون آباء الأنبياء كافرين ٢٧٦
٣- ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية ٢٧٢
أولاً: ما ذكر فيها من اشارات ٢٧٧
١- سورة مريم ٢٧٨
٢- سورة الشعراء ٢٧٩
٣- سورة هود ٢٨٣
٤- سورة الحجر ٢٨٧
٥- سورة الأنعام ٢٨٩
٦- سورة الصافات ٢٩٥
٧- سورة الزخرف ٣٠٠
٨- سورة الذاريات ٣٠٢
٩- سورة النحل ٣٠٣

١٠ - سورة إبراهيم ٣٠٤
١١ - سورة الأنبياء ٣٠٥
١٢ - سورة العنكبوت ٣١١
حديث القرآن المدني عن إبراهيم عليه السلام ٣١٥
١ - سورة الحج ٣١٥
٢- سورة البقرة ٣١٦
٣- سورة آل عمران ٣١٨
تعقيب على قصة إبراهيم ٣٢٥
رقته ورأفته مع أبيه ٣٢٥
موقفه مع أبيه وابنه ٣٢٦
صفاته عليه السلام ٣٢٦
الفصل السادس والسابع والثامن: قصة إسماعيل واسحق ويعقوب عليهم السلام ٣٣٧
الفصل السادس: قصة اسماعيل عليه السلام ٣٣٨
الفصل السابع: قصة اسحق عليه السلام ٣٤٣
الفصل الثامن: قصة يعقوب عليه السلام ٣٤٧
الفصل التاسع: قصة لوط عليه السلام ٣٥١
أولاً: ما ذكر فيها من آيات ٣٥٣
١ - سورة النجم ٣٥٣
٢- سورة ق ٣٥٤
٣- سورة القمر ٣٥٤
٤- سورة الأعراف ٣٥٥
٥- سورة الفرقان ٣٥٦
٦- سورة الشعراء ٣٥٧
٧- سورة النمل ٣٥٨

ما بين سورتي الأعراف والنمل من فروق ٣٥٩
٨- سورة هود ٣٦٢
٩- سورة الحجر ٣٦٥
١٠- سورة الصافات ٣٦٨
١١- سورة الذاريات ٣٦٩
١٢- سورة الأنبياء ٣٦٩
١٣- سورة العنكبوت ٣٧٠
صفات قوم لوط ٣٧٢
ثانياً: تعقيب على قصة لوط عليه السلام ٣٧٥
اين مكان قوم لوط ٣٧٦
في نسبة الفاحشة ٣٧٨
الفصل العاشر: قصة يوسف عليه السلام ٣٧٩
الحلقة الأولى ٣٨٠
دروس الحلقة الأولى ٣٨٥
الحلقة الثانية ٣٨٦
الحلقة الثالثة ٤١٧
الحلقة الرابعة ٤٢٢
الحلقة الخامسة ٤٣٢
الحلقة السادسة ٤٣٦
الحلقة السابعة ٤٤١
تعقيب على قصة سيدنا يوسف ٤٤٨
قصة يوسف في دائرة المعارف البريطانية ٤٥٠
الفصل الحادي عشر: قصة شعيب عليه السلام ٤٥٩
من هو مدين ٤٦١
أولاً: ما جاء فيها من آيات
١- سورة الأعراف ٤٦٢

٢- سورة الشعراء ٤٦٦

٣- سورة هود ٤٦٨

٤- سورة العنكبوت ٤٧١

ثانياً: تعقيب على قصة شعيب ٤٧٢

الفصل الثاني عشر: قصة موسى عليه السلام ٤٧٣

موسى عليه السلام هل كان مصرياً ٤٧٧

الاشارات المبكرة في قصة موسى ٤٧٩

السر في ذكره أكثر من غيره ٤٧٩

الجوانب المتعددة في قصة موسى عليه السلام ٤٨٢

الجانب الأول: مولده ونشأته ٤٨٤

الجانب الثاني: بدء الوحي ٤٩٩

الجانب الثالث: ارساله إلى فرعون ٥١٠

الفروق بين السور: طه - الشعراء - الأعراف ٥٢٧

الجانب الرابع: خبره مع بني إسرائيل ٥٥٤

ما حقيقة العجل الذي عبده بنو اسرائيل ٥٧٦

حديث السور المدنية ٥٧٨

الحكمة في كون الأرض المقدسة هي آخر الحلقات ٦٠٠

حقائق لا بد منها ٦٠١

كلمة بعد المعاهدات والاتفاقيات ٦٠٢

الجانب الخامس: جانب المنن الإلٰهية ٦٠٦

الجانب السادس: قصة موسى مع العبد الصالح عليهما السلام ٦٠٦

تعقيب على قصة موسى عليه السلام ٦١٧

الفصل الثالث عشر: قصة يونس عليه السلام ٦٢٧

١- سورة القلم ٦٢٩

٢- سورة يونس ٦٣١

٣- سورة الصافات ٦٣٢

٤- سورة الأنبياء ٦٣٤

هل ما حدث مع يونس عليه السلام ينافي العصمة ٦٣٦

تعقيب على قصة يونس عليه السلام ٦٣٩

الفصلان الثالث عشر والرابع عشر: قصة داود وسليمان عليهما السلام ٦٤٣

١- سورة ص ٦٤٧

فتنة سليمان عليه السلام ٦٥٢

٢- سورة النمل ٦٥٨

٣- سورة سبأ ٦٦٧

٤- سورة الأنبياء ٦٦٦

٥- سورة البقرة ٦٦٨

تعقيب على هاتين القصتين ٦٦٩

الفصل الخامس عشر: قصة أيوب عليه السلام ٦٧١

١- سورة ص ٦٧٣

٢- سورة الأنبياء ٦٧٤

تعقيب على قصة أيوب عليه السلام ٦٧٤

الفصل السادس والسابع والثامن والتاسع عشر: قصص يحيى وزكريا وعيسى ومريم عليهم السلام ٦٧٧

الفصل السادس عشر والسابع عشر: قصة يحيى وزكريا عليهما السلام ٦٧٩

١- سورة مريم ٦٧٩

٢- سورة الأنبياء ٦٨٠

٣- سورة آل عمران ٦٨٠

الفصل الثامن عشر والتاسع عشر: قصة مريم وقصة سيدنا عيسى عليهما السلام ٦٨٥

١- سورة مريم ٦٨٥

٢- سورة الأنبياء ٦٩٠

٣- سورة المؤمنون ٦٩١
٤ - سورة آل عمران ٦٩١
ما المقصود بالرفع والتوفي ٦٩٣
٥- سورة التحريم ٦٩٤
٦- سورة الصف ٦٩٤
٧- سورة المائدة ٦٩٥
تعقيب على تلك القصص ٦٩٧
أخبار آل عمران صفعة للماديين ٦٩٧
قضيتا الصلب والتثليث عرض ومناقشة ٦٩٩
قضية التثليث ٧٠١
قضية الصلب ٧٠٦
الفصل العشرون: نماذج من القصص القصيرة ٧١٣
أولاً: نبأ ابني آدم ٧١٦
ثانياً: قصة الملأ من بني اسرائيل ٧٢١
ما اشبه الليلة بالبارحة ٧٢٢
القرآن الكريم والوطن ٧٢٧
ثالثاً: نبأ قارون ٧٣٠
رابعاً: خبر أصحاب الجنة ٧٣٣
قصة أهل الكهف ٧٤١
قصة ذي القرنين ٧٥٠
المراجع ٧٥٥
الفهرس ٧٥٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com